

القسم الثاني

مدنّات الوحدة الرومانية

obeikandi.com

المدنية الرومانية في عهد الإمبراطورية الأولى (القرنان الأول والثاني)

وصلنا في بحثنا أخيراً ، الى هذه الإمبراطورية العظيمة التي ابتلعت في ثنائها كل ما تقدمها من إمبراطوريات ، وعنهما انبثت الممالك التي نشاهدها اليوم ، ولا تزال نفوسنا تكن لشرائعها الاحترام العميق . فيجب علينا بالتالي ان نقف على اخبارها أكثر من أي إمبراطورية كانت . وقد لاحظت ياسيدي الأمير ، ولا شك ، أنني أعني إلامبراطورية الرومانية .

(بوسيه)

من كتابه : « خطبة في التاريخ العام »

على منحدر جبال الابنين مقابل البحر الادرياتيكي ، قام نهر الروبيكون حداً فاصلاً بين مقاطعة غاليا قبل الألب ، وبين القسم الايطالي الواقع تحت ولاية حكام روما ومجلس شيوخها مباشرة . وعندما اجتاز قيصر هذا النهر وعبر منه الى الضفة الثانية ، في منتصف شتاء ٥٠ - ٤٩ ق . م ، واتجه منه الى الجنوب ، على رأس فيالقه المظفرة التي كانت اداته الطيعة في فتح غاليا ، في حملات ثمان متتالية ، كرّست زعامته وجعلت منه الزعيم الذي كان ، شكل عمله هذا ، خروجاً على السلطة الشرعية ، فانطلقت بذلك شرارة حرب اهلية استمرت قرابة عشرين سنة تخللتها فترات قصيرة من الهدنة المؤقتة ، وامتدت حتى غرة آب سنة ٣٠ وهو اليوم الذي أطل فيه ، صاحب معركة اكتيوم ، على الاسكندرية فكانت إطلائته تلك ، إيذاناً بانتحار كل من خصمه : انطونيوس وكليوباترا .

من هذه الهزات الدامية التي نزلت بالبلاد ، أطلت اشياء وطلعت عليها اشياء . فاذا على هامة روما سيد هو القائد الاوحد لجيوشها حامية دمار البلاد واستقلالها ، يوجه منها السياسة ،

ويفرض القانون ، ويشرف على الادارة ويجعلها بمعزل عن طمع الطامعين اليها ، الطامعين فيها ، وفي مأمن من جشع الجشعين . وبفضله قامت دولة استطاعت ان تؤمن لرعاياها ، ما لا بد منه لدولة تروم عيشاً كريماً : حدود منيعة الجانب في الخارج ، وأمن مستتب في الداخل ، وصحة في ميزانية الدولة وماليتها العامة . صحيح ان ممالك اخرى عرفت ، هي ايضاً ، ان تحقق على اقدار متفاوتة ، مثل هذه الامور ، فرسخت لها الدول الهلينية سوابق عرفت هي ان تنفيذ منها وتتعظ بها . ولكن ، الى جانب الجدة التي طبعت معظم الحلول التي طلع بها ، لم يسبق لتجربة مضت ، ان عرفت نجاحاً ملازماً كاللنجاح الطويل الذي حالفه ، مما لم يتم مثله او بعضه ، لدولة تمت لها رقعة على هذا النحو من الاتساع ، وتألفت من مثل هذا العدد من الشعوب والاقوام المتباينة . وهذا الجديد الذي تبلور على مثل هذا الشكل واستمر في الصدد المرسوم بضعة قرون ، تم تحت سيطرة او كثاف او غسوط وإشرافه المباشر ، فترامت أقاليمه وتباعدت نهاياته : من مضيق جبل طارق غرباً حتى شطآن البحر الأسود شرقاً ، ومن مصاب نهر الرين شمالاً ، الى مشارف شلالات النيل جنوباً . ولأول مرة في التاريخ ، يصبح البحر الابيض المتوسط برتمه ، بحيرة داخلية ضمن الامبراطورية ، فطوت حوضيه : الشرقي المتهلن ، والحوض الغربي الذي ، بالرغم مما تحالف عليه تباعاً من عوامل إغريقية وبونيقية واخيراً رومانية ، بقي على سماته البربرية الاولى . وعلاوة على ذلك ، فهذه الامبراطورية التي تجاوزت اطرافها بعيداً الأراضي الواقعة حول هذا البحر ، عرفت كيف تحافظ على التوازن الذي أمنتته لها المركزية المعمول بها في روما . وبفضل هذه الوحدة التي حققت ، والتضامن الذي ارسى دعائمه في عوالم كانت في الامس الغابر تجهل بعضها البعض ، استفاد افقها ورحب امام الجميع ، واتسعت منه الحدود بحيث استحالت الاتصالات التي قامت فيما بينها ، أمتن واوثق . فقد أطل على البشرية جمعاء ، المتخلف منها والمتطور ، عهد جديد ، لم تعرف المدنات التي مرت على مسرح التاريخ ، مجتمعة ومنفردة ، ظروفها وأوضاعها ، أكثر حلاً واوفر مؤاتاة من التي غمرته في هذا العهد . فهل تستفيد مما تم لها ، فتتلاقح الازمان وتتفتح الاكام عن قطوف متنوعة الجني والثمار ، تجود بها عبقرية كل شعب من هذه الشعوب ، ام تنصهر كلها معاً في وحدة متماسكة ، شاملة ، قادرة ؟

الفصل الأول

من الحرب الأهلية الى السلام الروماني

بعد ان قلبت الحرب الاهلية التي استمرت عشرين عاماً الاوضاع الراهنة في روما ظهراً لبطن، ورأساً على عقب ، هيات للعالم الروماني بأسره مصيراً جديداً .

كان لا معدّة من ازمة ولا محيص عن حل لها ، وهي ازمة عرفت المدينة الجمهورية اعجز بكثير من ان تدير الامبراطورية البلاد من قبل ، مثيلات لها فشلت جميعاً . فلا بد ان تفشل هي وتهيئ مهينة المجال لطلوع غيرها بعدها حتى يتمهد السبيل امام المصير الذي لا بد منه ولا حيدة عنه . فالاشخاص الذين قاموا بالدور الاول على مسرح هذا المجتمع ، امثال قيصر وبمبيوس ، وانطونيوس واوكتافيوس ، والعديد من الممثلين النكرة ، طبعوا الاحداث التي لازمت هذه الازمة الفاصلة وصاحبها ، بطابعهم الخاص . وقد تكون جاءت على شكل آخر واوضاع اخرى ، لو قام بتمثيلها غيرهم من الممثلين . ولكن النتيجة الاخيرة لم تكن لتأتي الا وفقاً لما صارت اليه : اي قيام سلطة فردية شخصية . كان لا بد لهذا المحاسن وما رافقه من آلام وأوجاع ان يشهد مولد امبراطورية تحوّلت قسماً صورتها ، الظروف المتحركة الماثلة ، وشخصية الفائز منها ، وتوازن القوى التي لم يكن من مفر من تفاعلها والتعويل عليها .

كان لا بد لهذه المدينة الجمهورية التي أعطيت مثل هذه السيطرة الممتدة الى اراض ثائية مترامية الاطراف ان تدفع الثمن غالباً .

فعندما ساوت في رعويتها بين الايطاليين ، عرفت كيف تصون بهذا التدبير الحكيم نظمها الادارية ، وهي نظم تسرب اليها الخلل عندما اتسع تطبيقها المصطنع ، ليشمل مثل هذه الرقعة من الاتساع ، عجزت معه ندوتها عن ضم جزء ضئيل من هذا الجسم الاداري الاخطبوطي الشكل . وقد بدا عجز النظام المعمول به وعدم استجابته للوضع المائل شيئاً لا يحتمل ولا يطاق ، لا سيما اذا كانت روما ماضية في فرض سيطرتها على الولايات الخاضعة لحكمها . ان توسيع الحل الذي

فرضته على إيطاليا بحيث يشمل الولايات الاخرى ، محاولة ملؤها الهزء والسخرية ان لم تكتمل باصلاح جذري ، لأداة الحكم وبخلق نظام اداري جديد ، على اساس من التحالف او التمثيل العام . ومثل هذا الحل لم يخطر اذ ذاك على بال احد . والى هذا ، فالامر يتعلق في الدرجة الاولى ، بالسيادة والسيطرة ، وهي سيطرة كريمة في جشعها ، يفرض الأخذ بها ، في الاساس ، إنزال الرعب في الناس ، وتطمين رعاياها المتحفزين دوماً للانتفاض والثورة ، والاعتماد على القوة والبطش لارهاب الشعوب الواقعة وراء تخوم امبراطوريتها المترامية الاطراف الذين يتربصون الفرص السالحة للانقضاض عليها .

ولذا كان لزاماً على روما ان تُبقي لديها ، جيوشاً جرارة يتعرض معها وجودها وكيانها بالذات لخطر الحروب الاهلية . فاذا ما نجحت جمهوريات العصر الحديث ، على ضوء التجربة والخبرة المؤلمة التي خبرتها ، ان تتفادى ، حيناً ، خطر الجيش الضاغط على صدرها ، وتتجنبه ، وتأمين شره ، فالجمهورية الرومانية لم يخطر لها يوماً على بال ، مثل هذا الامر ، ولم تحتط لنفسها يوماً ضد هذا الخطر المائل الجاثم على صدرها . فقد تغافلت عن الرباط الذي شد السلطة المدنية الى السلطة العسكرية ، فتحلل دون ان تبالي ، من الاسفل ، ومهما ان يبقى شديد الاسر في الرأس . فجيوشها تألفت وحداتها من جنود محترفة ، لم يألفوا الانصياع لغير امر قائدهم . وكم سولت النفس الامارة بالسوء لهؤلاء القادة ، ان يستعينوا بتحقيقاً لمآربهم الخاصة ، بهذه الاداة الطيبة بين ايديهم ، فجرت منافساتهم المغرضة واطماعهم المتعارضة ، المذلة والهوان للوطن ، والفوضى للبلاد .

وعلى هذا الشكل هوت الجمهورية الرومانية ، وقد أعجزها حل قضية غاية في الدقة ، هي قضية العلاقات التي يجب ان تشد السلطة المدنية الى السلطة العسكرية ، فبرزت حداثها وخطورتها عندما تعلق الامر بالسلطة العليا في الامبراطورية . وقد حمل موت الجمهورية معه موت مدينة روما نفسها . رأت النور مدينة ، فلم يكن في وسع روما ان تتصور لها كياناً غير هذا الكيان الذي كانته ، فلم تستطع ان تكيّف نطّمتها المدنية للدور الذي تستوجبها سيّرتها على اراض شاسعة . صحيح انها برهنت في هذا المجال عن مرونة ولباقة تصرف لم تُبدِ مثلها مدينة من المدن الكبرى التي برزت في التاريخ القديم ، وذلك بمنحها رعيتها بسخاء لم يسبق ان سخت مدينة بمثله من قبل . وهذا الامتداد البشري له حدوده وطاقته ، وهي حدود لا يمكن ان تتخطاها مدينة كان من الانظمة التي سارت عليها ان يتولى جمهرة الناهخين فيها التشريع والقوانين وتعيين الحكام الاداريين . ولكي يُتاح لها الإبقاء على هذه الاقطار التي فتحتها ، والاقوام التي أخضعها لامرتها ، وضمتها بعضاً الى بعض ، كان لا بد من تغيير وضع الدولة ونظام الحكم والقيام بتشكيل اداري جديد ، وذلك بسن نظام جديد قادر على تنظيم الامبراطورية على أسس جديدة ، ونشر نظام حياة مشتركة ينعم بنعمائها الشعب الملك ورعاياه على السواء .

الامبراطورية والحرب الاهلية
هي حرب قاسية مريرة ، فريقت شمل الوطن ، وأسالت الدماء
غزيراً ، وأرغمت الحُصوم على اتخاذهم يداً من كل شيء ، والاستعانة
بكل أيد ، وطلب المعونة من أي بارقة ، عركت الكل بثقلها ، لم توفر احداً ، بعيداً كان
ام قريباً ، وهددت بسوء المصير والشر المستطير ، كيان الامبراطورية ، وسيادة روما
وتفوقها ، على السواء .

ولم يتورع بعضهم في تأليبهم الاحلاف والانصار حولهم ، من استنفار حتى اعدى اعداء
الرومان الفارثيين انفسهم ، خصومهم اللداء . فقد سولت النفس لبمبيوس طلب مؤازرتهم .
الا انه عرف ، بما له من لباقة وكياسة وتصريف للأمور ، ان يتفادى الخيانة العظمى ، غير ان
الحقد الازرق والموجدة حمل كوينتوس لابيانوس سليل احد قواد قيصر البارزين ابان حروب
الفتح في غاليا ، ان يتولى قيادة جيش من جيوشهم ، في هجوم له ناجح ، قام به بالتجاء البحر
المتوسط . وتمكن احد ملوك الدولة الارزادية Arsucides ، من احتلال سوريا وفينيقيا وفلسطين
وبسط سيطرته عليها . بينما راح لابيانوس نفسه يبسط سيطرته على كل آسيا الصغرى ، وضرب
السكة باسمه ولقب نفسه امبراطور الفارثيين . اما اذا كان انطونيوس فشل فيما بعد في تجريدته
العسكرية على ميديا Médie ، فقد كان له الفضل في ارجاع حدود الامبراطورية الى ضفاف
نهر الفرات .

ولحسن حظ روما ، لم يكن في الغرب بين الشعوب المنضوية تحت لواء الامبراطورية الرومانية ،
شعب له من شدة الشكيمة والبأس ، ما عرف معه ان يفيد من الأزمة الخائفة التي تخبطت
فيها روما . فالعالم الذي كان اذ ذاك ، يأتمر بأمرها ، بقي في جملة ، صامداً متمسكاً ، فالحاولات
التي قامت بها بعض البلدان الدائرة في فلك الامبراطورية ، بقصد التحرر وخلع النير الروماني
الذي رزحت تحت ثقله ، لم تلق النجاح المرجى . وهكذا ، بدلاً من ان تتكشف رقعة الامبراطورية
وتتقلص ، راحت ، على عكس ذلك ، تتسع وتمتد وترحب ، باحتلالها ولو بصورة مؤقتة ،
اقطاراً في كل من آسيا وافريقيا ، لم يبرهن حكامها عن خضوعهم التام ولا امتثلوا ، كما يجب ،
للنواهي التي وصلتهم من روما . كذلك تم لها اخيراً ، ان تضم الى ممتلكاتها الواسعة ، مقاطعة
جديدة لها وزنها وقيمتها ، هي مصر التي كانت الآن ، من البلدان الحليفة المرتبطة بالامبراطورية
بموثيق ومعاهدات .

وهكذا كل من ارتبط بروما رأساً او بالواسطة ، وشذ مصيره الى مصيرها ، اضطر ، طوعاً
او قسراً ، ان ينحاز لهذا او ذاك من هؤلاء الزعماء المتناحرين ، الذين جاشت نفوسهم على السواء ،
باطماع أشعبية وزخرت بنشاط محمود ومجيوية لا تعرف الملل في تحقيق الرغائب . ولو كان بالامكان
تقويم الحسائر البشرية والمادية التي جرتها على البلاد هذه الحروب الاهلية النّهمة ، الاكول ،
لبلفت أرقامها عدداً مرعباً . وهذه الحروب ، بما اتسمت به من حول وطول ، وبما رافقها من

تكاليف مبرر ، ومن قوى ضخمة تشابكت فيها وفلاحمت في جميع الميادين ، تجاوزت بمراحل كل ما سبقها من حروب أهلية نشبت في تلك البلاد، وشتت منها شمل العباد ، اذ لم تبلغ مطامع الحصوص المتشاكبين في الحروب الماضية هذا الاتساع في الطمع والجشع والاهداف الواسعة التي رمت هذه الحرب الاخيرة الى تحقيقها . والحق يقال ، فالولايات الغربية لم تتعرض بها كثيراً . ففي غالبا ، تعرضت مرسيليا وحدها للأذى والضرر، إثر محاصرة قيصر لها وإرغامها على التسليم له . أما اسبانيا وافريقيا ، فقد كانت كل منهما ، ساحة حروب دامية ، وقعت في عهد قيصر . وعلى عكس ذلك تماماً ، ففي الحقبة التي عقت وفاة قيصر مباشرة ، وهي اطول ادوار هذه الحرب الضروس ، ازدادت المعاصفة هيجاناً كما ازدادت نار الحرب أواراً ، فاكثرت بلهبها جميع أنحاء الامبراطورية لاسيما ايطاليا والشرق وصقلية، وتجلت العنف على اشده وبرز في جميع اشكاله والوانه : من نفي، وإبعاد بالجملة، ومصادرة الاملاك والمقتنيات، ووضع الجوائز والاعطيات لمن يأتي برأس خصم معين، ومهجة الجند وفضاظتهم والاعمال الوحشية التي قاموا بها ، ونهب المدن التي تؤخذ غلباً او قهراً وسلهبها ، وذبح السكان ذبح النعاج وبيعهم اسرى في اسواق النخاسة والرق ، واستفحال شأن قراصنة البحر وقطاع الطرق بعد ان اختل الأمن واختلط الحابل بالنابل، والاستعانة بالعييد والارقاء وتجنيدهم كما فعل سكتوس بيبوس ، ومصادرة الاملاك والكنوز المنخرة ، والاموال المكنوزة ، وفرض التجنيد العسكري العام على جميع القادرين من الرجال، وفرض الرسوم والضرائب ، والغرامات الباهظة على المنظمات والجمعيات واعتصارها بشتى الوسائل، والقروض الاجبارية والضرائب الاعتبارية والمصادرة على جميع انواعها، الى غير ذلك من ضروب العسف والابتزاز

وبالرغم من اعفاء الرعايا من الضرائب المباشرة ، وهو امتياز نعموا به منذ اكثر من قرن، لم تنجح ايطاليا في فرض الرسوم الباهظة عليها ، ولا من اعمال التعصب والسلب والنهب والابتزاز ورؤوس الاموال التي كانت الشركات التجارية تستثمرها وتستغلها في اعمال الاتجار، راحت فريسة المقتصب المستبيح . وقد كتب على ايطاليا ان تكد كلا من الزعماء المتنافسين ، بالرجال القادرين على الحرب ليؤلفوا منهم الكتائب التي يستعملونها مطايا للوصول الى اهدافهم وتحقيق اطباعهم . ومهما كان من فظاظة اعمال العسف والضغط والارهاق التي تعرضت لها ، فالشرق الهليني استهدف لاكثر منها وافظع . فبعد ان سلبت اقطاره ونهبت مقاطعاته خلال حروب الفتح الروماني، واستغلها الحكام ورجال الاعمال ابشع استغلال بدت موارده الطائلة وكأنها لا تنضب ومصادره لا تنقطع . فكل فريق من هؤلاء الزعماء المتشاكبين وقموا تحت اغرائه واخذوا بما لهذه الاصقاع من سحر جذاب وثروات طائلة فراخوا يمتارون منها ، تباعاً ما فيه قوام الحرب وعدتها ومادتها . وهذه الاعتدة الخفيفة التي أتيح لانطونيوس جمعها ، والنفقات الباهظة التي تكبدها، استمدتها من الشرق، بينما لم ينعم اوكتافيوس، في الغرب ، ببعض هذا ، او بما يمكن مقارنته به .

الشرق الهليني
ينازع روما الصدارة

ليس من المستغرب قط ، والحالة على ما وصفنا ، ان يبدو الشرق حقلاً مقفلاً حاول معه ذوو الاطماع من الرومانيين تصفية منازعاتهم ووضع حد لهذا الوضع المتأرجح . فشهد أعنف المعارك الفاصلة واشدها هولاً : موقعة فرسال في تساليا ، حيث قُبِضَ لقيصر ان يسحق جيش بيمبوس ، ومعركة فيلبس في مقدونيا حيث ثار لنفسه من قَتَلَة ١٥ آذار ، ومعركة أكتيوم في ابيروس ، اذ ادى انتصار اوغسطس الى هرب كليوباترا وانسحابها من المعركة ، الى هرب انطونيوس والحقاق بها متخلياً عن اسطوله وجيشه . وقد بدا الشرق في نظر المتحاربين ، انه خير الاماكن لتحركات الجيوش ومناوراتها ، فيه من الموارد الطائلة ما يساعد ، الى حد بعيد ، على الكر والفر ، والهجوم والدفاع ، على ايطاليا محط الآمال والانتظار . ولما ظهر لبمبوس اولاً ، ثم للقنلة الجمهوريين الذين اغتالوا قيصر ان لا حيلة لهم في البقاء في روما والاحتفاظ بها ، قرروا الانسحاب واللجوء الى الشرق ليقبضوا فيه عدتهم للحرب من جيوش وعتاد . وقد حالفهم النجاح الى حد بعيد ، بحيث قرر خصومهم مبادرتهم حالاً بالحرب لئلا يقوى منهم الجانب . اما انطونيوس ، فقد كان عليه في اعقاب معركة فيلبس ان يقرر أي الشطرين يفضل . فما عتَمَ ان أثر الشرق تاركاً الغرب وقضاياه المربكة وشؤونه المخرجة لاوكتافوس . وبذلك حسن اختياره وتمت له الحصّة الفضلى . وبالفعل ، فقد أنشأ له في الشرق ، قوة حربية ، ضخمة اقتضت خصمه عشر سنوات من الجهد المرير ، والتنمية المدروسة ، والتخطيط ليؤمن التوازن والتعادل معه . ومن بين الدروس البليغة الكثيرة التي أتاحت لنا هذه الازمة الحاققة ، استنتاجها ، الدرس التالي وهو ان العالم الهليني الذي بدا في اعين البعض عيباً ، متعباً ، ومنهوكاً منذ عهد بعيد ، كان بالفعل ، ولا يزال يملك ، في الفترة الاخيرة من تاريخ الجمهورية الرومانية ، حيوية عارمة وطاقت هائلة ، لم يتبينها اصدق الرومانيين فراسة .

فاذا كان ، والحق يقال ، المظهر المادي من هذه الحيوية هو الذي يبرز للعين ، للوهلة الاولى ، فالمادة ليست وحدها مما يستبد بالاذهان ، لا سيما وهنالك عالم الفكر ودنيا الحضارة ، ولكل منها سطوه على الخواطر ، ووقعه في النفوس .

ففي عالم ، على مثل هذا القدر العظيم من غنى التجربة الطويلة والخبرة الواسعة التي تمت له ، من اي لون او جنس كانت ، ألم يكن لروما ان تجد الكثير مما يليق بها اقتباسه واخذه ، بالرغم مما اقتبست عنه من قبل واخذت ؟ ففي الشرق وجده ، يمكنها ان تجد الحلول المرجحة للمشكلات الشائكة التي تتخبط فيها ، والتي لا يصح بعد ، التسويف في حلها .

فقد وضعت احداث الحرب الاهلية الكبرى ، من هذه الناحية ، الخصمين وجهاً لوجه امام تشييرات وقطورات لم تنته الى نتيجة حاسمة . فبتعويل بيمبوس على الشرق الذي عرف ان ينشئ له فيه نفوذاً عظيماً ، بفضل الحملات المظفرة التي قادها من قبل ، ومكثته الطويل بين ربوعه

وبين شعوبه ، ادرك جيداً ما سيلقي في هذه المنطقة من امكانات وموارد يفيد منها . وباعتماده ، من جهة ثانية ، على مجلس الشيوخ او الندوة الرومانية ، جعل الشرعية والتقاليد الرومانية المرعية ، الى جانبه ، بقدر ما بقيت هذه التقاليد صحيحة . اما قيصر ، فباعتماده على غالبا ، وبما له من نفوذ وسلطان في كل من ايطاليا واسبانيا ، جعل مقومات قوته وطاقته مرتكزة على الغرب . ومع ذلك ، فقد تبدى لقيصر انه هو نفسه اقرب من خصمه بيبوس ، الى طريقة التفكير الهليني ونظراته السياسية لأمر الدولة . فقبل ان نتعرف مباشرة ، على الملكية المصرية المؤهلة ، كان عزم في قرارة نفسه ، ان يقوم بإصلاح جذري في نظام الدولة السياسي والديني معاً ، هذا النظام المتبع في جميع انحاء الامبراطورية الرومانية . وهكذا تبدت لنا هذه الامبراطورية منقسمة على نفسها الى شطرين ، انتصبا ، بفضل خصومة زعيمها ، الواحد في وجه الآخر ، ونهضا بقضية ، لا كبير شأن لهما في الاساس . وهذه المفارقة بالذات عرضت عام ٤٢ ، في الواقعة الكبرى التي ادت الى انتصار قيصر وورثته الناهضين بامر بعد مقتله ، كما افضت بالتالي الى تصفية الجمهوريين ومن لف لفهم .

وقد سارت ماجريات الأمور على عكس ذلك في الطور الاخير من الأزمة التي وجدت حلها النهائي في معركة اكتيوم . فلإقامة انطونيوس طويلاً في الشرق وتقاهمه مع كليوباترا طرحت من جديد ، وجهاً لوجه ، على بساط البحث اساس الوسائل المادية التي اعتمد عليها وعول عليها ، كل من الخصمين المتنافسين ، كما تناولت بالمثل ، النزعات التي كانا يمثلانها . وقامت الدعاية التي اطلقها المنتصر الفائز تسخر من الشرق ، وتهزأ به ، على أشبع وجه ، هذا الشرق الذي كان شركاؤه ودعائه « لحياة لا مثيل لها » هم أنفسهم زعماء المعسكرين وممثلوهم ؛ وهما في نظر فرجيسيل : « الإله النبات انوبيس *Anubis* » ذو الرأس الذي يشبه رأس الكلب وغيره من مسوخ الآلهة . وقد انتصبا ، شاكى السلاح ، في وجه نبتون وفينوس ومينرفا ، في هجومهم على اوكتافوس يحف به « اعضاء مجلس الشيوخ والشعب ، وارواح السلف الصالح ، والآلهة الوطنيون العظام » ، وهو جدل اساسه واقع صارخ . ففي حال فوز انطونيوس تسمي هذه الامبراطورية التي قامت وارتكزت على سواعد الفياتي الرومانية غير رومانية ، عاصمتها الفعلية الاسكندرية ، وليست روما .

فإذا ما انعمنا النظر في النتائج التي سيفضي اليها ، ولا شك ، نقل العاصمة واستبدالها ، ننتج الصراع برزت امامنا في الحال ، كلمة باسكال^(١) : « انف كليوباترا » . فلو كان هذا الانف اقصر مما كان ، لتغير وجه التاريخ . فإذا ما تملينا النظر في هذا الانف لبدأ لنا بالفعل ، أنه اطول من اللازم . غير ان طابع هذا الصراع لم يكن ليتوقف على شؤه أرادته الطبيعية لصاحبة هذا الانف . ومع ذلك ، فمدلوله يبقى عميقاً بعيد الغور . فبقاء قوات جرارة في حوض البحر المتوسط الشرقي على أهبة الاستعداد وأتمه ، من شأنه ان يزرع الرعب في القلوب لا سيما اذا ما تولى امرها الرومان ، بعد ما أخذوا بسحر المدينة الهلينية ، ونفخوا فيها من عبقرتهم في التنظيم ، ومدّها بالاطر والملاكات اللازمة ، أمر مجرد التفكير فيه يهز

(١) باسكال : حياته ، فلسفته ، منتخبات تأليف اندريه كريسون - زدي علماً - منشورات عويدات

فرائص القوم في روما ، ويخلع قلوبهم هلعاً ، بحيث تحرّج الشاعر الابيقوري هوراتيوس عن اخراج خموره الممتعة من مستودعاته ليستمتع بأطاييبها . فقد ذهبت أقدار الحرب ومصائرنا الآن بهذا الجَزَع يعترى روما ، واصبح في مقدورها ان تحتفظ لنفسها ، بالصدارة الأولى الى ان يصبح في مكتنة القسطنطينية ، بعد لأيٍ من الدهر ، تنازعها إياها . وكان يكفي شيء بسيط جداً في الثاني من ايلول ٣١ ق.م ، لتفقد روما كل شيء ، عند ساحل أبيروس ، امام رأس اكتيوم *Actium* .

فبقاء روما « المدينة » الاولى ، لم يحل دون تعرضها لتغييرات جذرية ، بينها أكثر من واحد يحمل في الصميم طابع هذا الشرق الذي تغلبت عليه وفازت به . فالأخذ بالنظام الملكي أتاح للأحداث المتتابعة فتح الابواب على مصراعها امام المؤثرات الهلينية التي تجاوزت بكثير هذه المرة ، وعلى نطاق اوسع ، تلك التي تفاعلت بها في عهد الجمهورية ، ومهدت لها الطريق للتغلغل ، والتمطي على شكل لا يقاوم . وقد اقتضى هذه المؤثرات وقتاً طويلاً لتمكن عروقتها وترسخ ، بعد ان صهرتها البوققة الرومانية وأنضجتها وهبأتها للاستعمال ، قبل ان تنتقل بدورها الى الغرب . فلم يتم هذا كله بعملية تسلم وتسليم ، ولا بنسخ حرفي . فليس بمستغرب قط ان يقتصر المعاصرون لهذه التطورات ، عن التحسس بهذا كله ، او ان يستشعروا مسبقاً بمصائر المستقبل .

وبالمثل ، فقد تأثروا عميقاً بالنهج الذي سار عليه ، منذ البدء ، النظام الجديد ، السلام الروماني : فاقسم منذ اللحظة الاولى من إطلالته ، بالمتانة والمهابة . والذي كان من شأنه مقوماته ووسائله ان يبدو غريباً ، بدا ، على عكس ذلك ، لمعظم سكان الامبراطورية ، خيراً لا يثمن ، تمثل في هذا السلام الذي رفرف فوق رؤوس الجميع ، مشيعاً الطمأنينة في الداخل ، والامن في الخارج . اما نتائجه فلم تكن آنية ولا سطحية . فبمجرد ان استتب هذا السلام وبُذِل في سبيل ترسيخه ما بذل من وسائل وأساليب ، ترك طابعه العميق في هذه المدينة التي أتاح لها الازدهار مدة قرنين من الزمن . فقد سميت بحق : « بالسلم الروماني » وهو تعبير من المستحب الاحتفاظ به لما له من المدلول الخاص الذي سنحاول في ما يلي ، ان نكشف عما يتضمنه من المعاني والحقائق الأولية . ومثل هذا التحليل ليس بعملية يسيرة ، كما انها ليست من الهينات الهينات هذه المهمة يضطلع بها الضالع بها بتمهل كلي وثؤدة ، وقد لاقى في مقارعة خصمه العنيد انطونيوس أشد المعاناة والجهد في الانتصار عليه ، وفي توقيفه الى حل قضية ، بدت على ضوء المحاولات السابقة ، غير قابلة للحل ، مستعصية له . وقد حافظ خلفاؤه من بعده ، على السمات الاساسية التي ألبسها الحل الذي ارتآه ، وقد مهد لجيئهم تصميم اصيل قوامه الرغبة الشديدة التي جاشت في صدره ، والوصية التي سلمهم اياها ليتموا الرسالة التي كان بدأها . وهكذا يصح لنا ان ننعت هذا « السلام الروماني » ، بالسلم الاوغسطي ، وقد عرف بهذا الاسم فعلاً ، في اعقاب استتبابه .

ولكي يقيم دعائم هذا السلام على أسس وطيدة ، راح اوكتافيوس اوغسطس يستغل العياء العام الذي قللك الناس بعد ازمة خانقة كانت 'تُحمد منهم الانقاس . إلا ان الافادة من مثل هذا الشعور العابر لم يكن كافياً وجده لتأمين النجاح والاستقرار لهذا المولود الجديد الذي جاء على يده .

ولكي يوطد عمله هذا ، ويطمئن على أسس ركنية ، عهد ، عن سابق قصد وتصميم الى روما ، بمهمة تهذيبية سامية . فالسلام الروماني لم يكن بالطبع غير هذا السلام الذي يصون المدنية التي ظلمت بها روما ، هذه المدنية السامية ، وبعبارة اخرى ، هذه الحضارة المنقطعة النظير ، وراح يضارب بكثير من النجاح والتوفيق ، بما أوتيت من سحر وجاذبية ممثلة بهذه القوى المادية والروحية التي تشع من كل فجٍ وصوب .

فقد عرفت روما ، قبل وصوله الى الحكم ، ان تتمثل دون ان تكاد تشعر بذلك او حتى تريده ، عدداً من الشعوب البرابرة ، إنما على نطاق ضيق . فقد خطر لقيصر من قبل ، ان وضع خططاً منهجية اوسع وارحب ، قصد بها ، ورمى منها الى خدمة روما بالطبع ، وخدمة مصالحه الشخصية في الدرجة الاولى ، على شاكلة ما قام به الاسكندر المقدوني ، قبل ذلك بقرنين ، وبعض الممالك الهلينية التي أطلت من حطام امبراطوريته . وهذه الخطة التي أورثها قيصر خليفته ، راح هو ، أي اوكتافيوس ، يتدبرها من جديد بحكمة وثؤدة ، في حدود ضيقة وبقوة اقل ، وبسرعة اخف ، وبالتالي بصورة أدعى للنجاح واخمن . فقد راح يخفف من سرعة السير ، ويباعد بين الخطى والمراحل . وعندما قام بعض خلفائه من بعده ، ولا سيما غاليفولا وكلوديوس يوسمان : هذا من رقعة الامبراطورية الخاضعة للإدارة الرومانية ، وذلك يوزع بسخاء كلي ، الرعوية الرومانية وما تخوله لصاحبها من منافع عريضة وامتيازات ، فقد خرجا على ما كانت شرع به اوغسطس ونذاً عن الصدود . وقد انفسحت امامها ، والحق يقال ، الامكانات لقطف ثمار الفرس الذي غرس ، والبذور التي بذر . يتحتم علينا ألا نأخذ بجرفية المصطلح الذي كرسه الاستعمال ، وهو : « مدينة مغلقة » وهو اصطلاح ، كثيراً ما استعمل للتعبير عن السياسة التي رمت للتشديد على الصفات التي يجب ان تتوفر في من يُمنحون الرعوية الرومانية . ويقابل هذا ، الوضع المعروف : « بالمدينة المفتوحة » للتدليل على السياسة التي انتهجها قيصر وسار عليها خلفاؤه من بعده ، اذ راح يكثر ، حتى في الظروف التي لم تكن تضطره للاكثار من الانصار عن طريق توزيع الرعوية من عدد المواطنين الجدد ، ولكن على نطاق اضيق واصغر ، رافضاً اعطاء الترفيعات القانونية إلا لمن تتوفر لهم الشرائط الثقافية والمناقب الحضارية . وسلك المسلك ذاته مع افريقيا وآسيا ، حيث ابقى ، في حال وجودها ، واعاد الى الوجود ، عندما تسنح له الفرصة المؤاتية ، الممالك والدول التي احتلتها جيوشه من قبل ، فجعل منها دولاً توابع له ، بدلاً من ان يتركها ولايات خاصة ، رافضاً ضمها وإفراغها في قالب السلطنة إلا بعد ذلك بكثير . وهكذا وقر لها فترة للانتقال ، يتولى خلالها الحكم والادارة امراء عرفوا بولائهم للامبراطورية ،

واعتنقوا ، قلباً وقالباً ، المثل الرومانية ، وهو من ورائهم يرشدهم ويبدل لهم النصح في المهمة التي يضطلعون بها ، مهيناً لهم بذلك ، على مر الزمن ، سبل القبس والتمثيل .

والسلام الذي عرف ان يؤمنه على هذا الشكل ، ويحققه في داخل الامبراطورية وعلى حدودها الخارجية ، عن طريق استمالة الناس لِمِثْلِ المدنية الرومانية ، شابه شيء من التفاوض الرخيص . ولكن بعد ان انتهت الحروب الداخلية الى ما انتهت اليه من إقرار السلام ، لم يكن أحد ليجعل ان باستطاعة ابناء الوطن الواحد ان يثوروا بعضاً على بعض ، ويتلاحموا بعنف أشد من العنف الذي يقس على البلاد من الأجنبي الغازي . فضرب اوغسطس بهذا الاعتبار عرض الحائط ، وراح يدافع عن مذهبه الواقعي ويبحث عن أسباب اخرى وبواعث تزيد النفوس طمأنينة وإيماناً .

والنظام السياسي والاداري الذي عرف ان ينشئه أمّن له بالفعل السلطة ، ان لم يكن ليدبر بنفسه كل شيء ، فاقله ليشرف على كل شيء ، ولذا كان من خطل الرأي القول بان التشريع الذي استنّ ، كان الحافز اليه شهوة الوصول الى الزعامة الفردية . فظاهر الاعراض او الترفع الذي بدت عليه ، في اعقاب معركة اكتيوم للإبقاء على هذه الامتيازات اصلاً ، والتوسيع لها فيما بعد ، لا يمكن ان تمجدح احداً . ولكن هذه المظاهر الهزلية كانت تخفي وراءها شعوراً صادقاً لا يشوبه اي طمع او طموح شخصي ، اذ انه اعتقد اعتقاداً ثابتاً وطيداً بأنه لا بد لروما وللإمبراطورية من سيد أعلى . وبالفعل ، فجعله بين يديه السلطة السياسية والعسكرية ، كان الوسيلة الوحيدة الكفيلة بمنع الولايات والاضرار التي لا بد ان تنزلها بالبلاد ، أطماع الزعماء وجشع المتنافسين على السلطة . ثم ان تنظيمه للجهاز الإداري وإحلاله القانون والعدل في فرض الضرائب ، وجباية الخراج والرسوم — وكلها اصلاحات لا بد منها لوضع حد للابتزازات والاختلاسات التي تبعث على التذمر وتثير الحواطر — كل هذا قضى عليه ان يفرض قبضة قوية ، شديدة الوطأة ، لا تراخي فيها ولا تحللاً . كان لا بد من امبراطور يفرض نفسه وهيئته على الاحزاب والولايات وقادة الجيش ، ورجال المال واهل الثراء . فلا سلام داخلي الا بهذا الثمن ، وعلى هذا الاساس . وقد استصوب الناس مثل هذا التدبير الحكيم ، بعد الاختبارات المريرة التي مرت بهم وبينوا ما فيه من نفع جليل لهم .

بعد هذا الذي عرضنا له ، بقي علينا شيء اساسي لا بد من الجاهرة القوة اساس السلام الداخلي به . فالسلام الروماني الذي نظمه اوغسطس وعرف خلفاؤه من بعده ، ان يصونوه ويحافظوا عليه ، طيلة قرنين كاملين ، لم يكن معنى هذا النوع من السلام الغير ، المترهل ، المستضعف ، « رومانياً » فقد كانه في الصميم ، لان روما نحتت منه القسيمات وفرضته ، وقامت تراقبه وتسهر عليه ، ولم تهمل كبيرة او صغيرة حتى يبقى لواؤه مرفرفاً فوق الجميع ، خفاقاً في جميع الارحاء ، مستعدة دوماً لاستعمال القوة لصيانتها من عبث العابثين .

كان من الممكن بعد ، ان تهب على البلاد ثورات في الداخل . فالعالم الروماني ، فيه ، هو الآخر ، فريق يعاني الحرمان ، لم تكثرت له الحكومة إلا بالقدر الذي يرغبه على احترام القانون والنظام الاجتماعي والتسليم بالوضع القائم . ثم ان ما لهذه المدينة من سحر وفتنة يختلف وقعه على الرعايا ، طاقة وقدرأ بين الفعل والقوة ، ما يستحسن معه فرض اقل ما يكون من السلبية . ثم إن في استمرار الولايات على تذكر ايام استقلالها ، واستمرار الاهلين على تذكر امجاد السلف ومآثيهم واجادهم ، كل ذلك يكون مرتعاً خصباً للثورات والحركات الانتفاضية . صحيح انه لم يحدث في القرن الاخير من العهد الجمهوري اضطرابات في الولايات اختل لها حبل الامن وتعكر السلام . ولعل اهم حادث من هذا القبيل هو ما حدث في آسيا الصغرى وبلاد اليونان ، في عهد متريديات ، اذ انه غزا البلاد واحتلها ، بعد ان اهاج منها خواطر الاهلين بدعاياته ونداءاته ، وسؤل لهم الانتفاض على الرومان . وباستثناء بعض المناطق الجبلية الصعبة المنال ، والوعدة المسالك ، وبعض القطاعات الجبلية في اسبانيا وسردينيا والساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، أدرك الناس عدم جدوى الانتفاضات التي قاموا بها لزعزعة النير الروماني عنهم ، فاستسلموا صاغرين للمصير الذي انتهبوا اليه . وقد اتسعت اطراف الامبراطورية بما ضم اليها من الولايات ، منها غالبا ، مثلا التي تم فتحها قبل نشوب ازمة الحروب الاهلية ، ومنها ايضا مصر التي دخلت الامبراطورية مقاطعة من مقاطعاتها ، عندما كانت جذوة هذه الحروب آخذة في الخمود . فكيف السبيل ، والحالة هذه ، الى اطمئنان روما لولاء هذه الاقوام ، بعد ان عانت ، في عهد الجمهورية ، الكثير من الحركات الانتفاضية وخروج الولايات عليها ، لعدم اعتصامها بالفطنة والحكمة في تصرفها نحوها ؟

والحل الذي توصلوا اليه اخيراً ، لم يكن قط قائماً على إقامة حاميات عسكرية في قلب المقاطعة او الولاية . فاستعاض عن هذا كله بأقل عدد ممكن من شرادم الجند ، وهو امر يبدو لنا غير قابل للتصديق . من ذلك ، مثلاً ، فرنسا ، هذه البلاد الشاسعة الاطراف ، التي تم فتحها في ايام قيصر ، باستثناء الازراس واللورين ، فقد كان فيها طابور واحد لا يتجاوز عدد افراد رجاله الالف ، يعملون الى جانب سرايا اخرى مخيمة بالقرب من الحدود . والامبراطورة الرومان لم يعرضوا سوى عدد ضئيل من فيالقهم تفادياً لاستعمالها ، اذ انهم كانوا يعوّلون ، بالاحرى ، على الحاميات القوية المرابطة على الحدود ، والتي كان باستطاعتها ان تعود ادراجها الى وراء ، اذا ما دعت الحاجة الى ذلك .

وبالفعل ، فقد حدثت بعض حروب داخلية ، بالرغم من التدابير الاحترازية التي اتخذت من قبل ، منها مثلاً ، الحروب التي نشبت بمناسبة الازمة العسكرية ، التي اندلع لحيها عام ٦٨ - ٦٩ ، بمسد الميلاد ، ومحاولة اغتصاب السلطة التي قام بها أفيدبوس كاسيوس ، في عهد الامبراطور مارك اورييل . فقد وقعت كذلك انتفاضات في الولايات التي معظم سكانها من الحضر ، إلا انها كانت نادرة لم تدم طويلاً . وعندما كانت قوى الامن الموضوعة تحت تصرف

الادارات المحلية عاجزة عن اعادة الامن الى نصابه بعد ان تكون الطبقات الاجتماعية ماثلة للحركة الانتفاضية في البلاد ، تتولى ، اذ ذاك ، الجيوش المراقبة على الحدود ، مهمة إخماد الفتنة وتتولى الامر بأهون السبل . وعندما راحت الامبراطورية تخمد الثورة التي نشبت ، عام ٦٩ - ٧٠ في الجهة الشمالية الشرقية من غاليا ، او تحاول إخماد « الحرب اليهودية » التي نشبت في اول عهد الاسرة الفلافية في عهد الامبراطور هدرانوس ، لم تضطر للاستنجاد بقواتها كلها لاعادة الأمور الى مجراها الطبيعي . اما البلاد التي اهلها من البدو الرحل ، او صعبة المرتقى لطبيعتها الجبلية فالمهمة فيها كانت اشق واصعب ، لأنها كانت تتجدد كل يوم ، فيقتضي ذلك الاكثار من الوحدات الخفيفة التي تتحرك بسرعة ، من مراكز للمراقبة ، للوصول بعد طول جهد وعناء ، لنتائج تكاد لا تذكر .

القوة الخارجية
فاذا كان السلام لم يتوفر ، على أكمله ، في داخل البلاد فهو لم يستتب ابداً ، مع الخارج . انتصب في قلب روما ، على مقربة من الفوروم (الساحة العامة) هيكل على اسم الإله جانوس ، عُرف باسم جانوس كويرينوس ، كانت ابوابه تبقى دوماً مفتوحة على مصراعيها طالما كانت الامبراطورية ، رسمياً ، في حروب مع الخارج . ولعل آخر مرة أُغلقت فيها ابواب هذا الهيكل ، كانت سنة ٢٣٥ ق . م . اما في عهد اوغسطس الذي جعل من السلام قضيته الكبرى ، واناط بها شهرته في الخارج ، فقد أُقفلت ابواب هذا الهيكل ، ثلاث مرات لا غير ، إلا انها لم تكن لتلبث ان تُفتح من جديد ، مع العلم انها كانت مفتوحة عندما حانت ساعته الاخيرة . وبعد وفاته ، أُقفلت ابواب الهيكل مرات معدودات ، لم يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة ، حتى مطلع القرن الرابع للميلاد .

فالامبراطورية الرومانية نهضت ، والحالة هذه ، بأعباء حروب عدة متنوعة الاهداف والاتجاهات ، قل ان تكون دفاعية ، بالمعنى الحصري ، اي مبعثها تعديات من الخارج . وأهم هذه الحروب هي التي وقعت في عهد الامبراطور مارك اوريل ، في منتصف القرن الثاني للميلاد ، عندما تجاوزت حدود الامبراطورية ، في الشمال بتحركات الشعوب التي تملأ بها عالم البرابرة في الشمال والشمال الشرقي من اوروبا ، وتمخض بها ليطلع منها ، في ما بعد ، بتلك الغزوات التي انهالت على العالم الروماني . وهذه الحروب ، كانت الغاية منها في الغالب الفتح وتلبست وجوهاً متعددة .

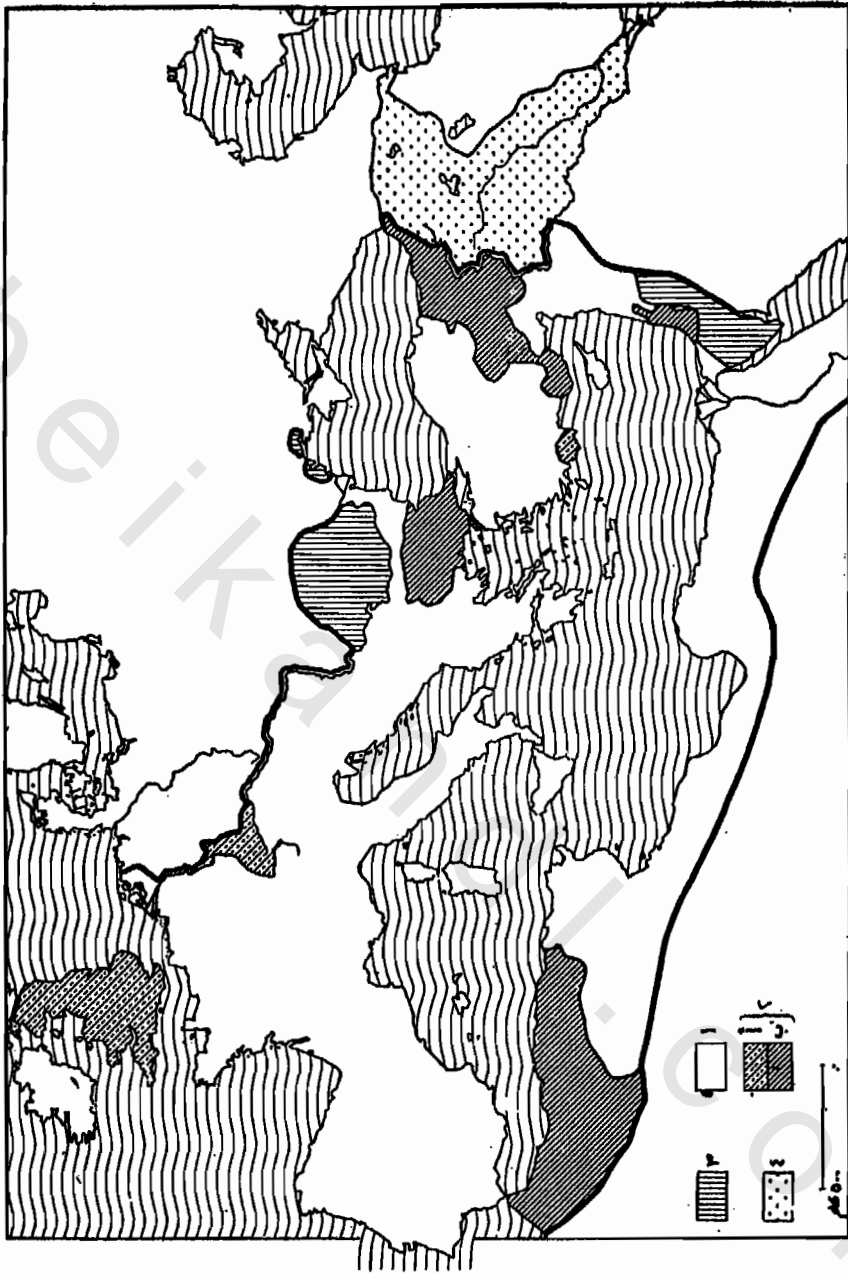
قام بعض هذه الحروب بدافع السيطرة وبسط رقعة الامبراطورية رغبة بضم مقاطعات طمعاً بخيراتها الوافرة . فقد رغب الامبراطور كلوديوس بنجاح بريطانيا ، فأرسل الفيالق الرومانية تحتلها . كذلك طمع الامبراطور تراجانوس بنجاح داسيا ، فيم شطرها وعبر اليها ، بجنازاً نهر الدانوب . وهكذا كانت الاسباب الاقتصادية الباعث الاقوى لهذه الحروب ، يقوم بها تراجانوس في الشرق : فيحتل شبه جزيرة سيناء وما وراء الاردن ، وأنشأ منها ولاية رومانية

جديدة ، عرفت « بالولاية العربية » ، كما راح يحاول تقليد اظافر الفارتيين ويستخلص من ايديهم بلاد ما بين النهرين وبابل ، مسهلاً بذلك التجارة مع بلدان الشرق الأقصى فيرقها الفارتيون بفرض رسوم باهظة .

وهناك حروب اخرى قامت بها الامبراطورية لتوسيع رقعتها في الظاهر ، بينما الغاية التي رمت اليها كانت بالفعل تنظيم وسائل الدفاع عن الامبراطورية ، على نطاق اقليمي او موضعي ضد خطر قائم ، او محتمل الوقوع . فكانت هذه الحروب تشنها الدولة الرومانية ، دروساً بليغة لجيرانها المشاغبين من جهة ، ومن جهة اخرى تقوية لشبكة دفاعها على الحدود ، وذلك بانشاء سلسلة حصون وقلاع تقيها هجماتهم ، او لاحتلال مراكز استراتيجية جديدة اكثر ملائمة من القديمة فتوفر بذلك عليها بعض الفرق ، عن طريق حذف تنوءات بارزة او اختصار خط الدفاع الامامي . فالحروب التي خاضتها الامبراطورية في جرمانيا ، وهي حروب ليس هنا مجال التبسط بها ، تعد خير دليل وشاهد على هذه الاستراتيجية الهجومية التي كانت في صميمها ، دفاعية محض ، اذ كانت غاية خطة اوغسطس من الحملة التي عهد بها الى قائده فاروس ، والتي فشلت ايام فشل ، التقدم حتى نهر الإيلب *Elbe* ، فتم له بذلك ربط البحر الشمالي بنهر الدانوب ، عن اخصر الطرق واقومها ، وهو خط الحدود الذي انشاء قيصر . ومن هذه الحروب التي شنها الرومان تحقيقاً لستراتيجيتهم المرسومة ، المعركة المعروفة بحقول الديكومات *Champs Décumates* (راجع الشكل ٨ ص ٢٨٣) وهي الأراضي الواقعة تحت سيطرة الرومان بين الغابة السوداء وسلسلة جبال الجورا الصوابية ، وكانوا اقاموا حولها شبكة من القلاع والحصون المنيعه .

لم تؤثر هذه الحروب جدياً على امن البلاد في الداخل ، ولم تتعرض بها سوى الولايات الجانية . فاذا ما اصاب ايطاليا منها بعض الرذاذ ، في عهد الامبراطور مارك اوريل ، فقد اقتصر الضرر على الولايات الشمالية دون سواها ، على اثر اختراق خط الدانوب . وقلما حدث ، باستثناء الحقبة التالية ، حروب تناولت عدة جهات معاً في وقت واحد ، وهي حروب لم تؤلف ، على ما يظهر ، عبثاً ثقبلاً للامبراطورية . والثابت انها تكاثرت وتواترت ، فاقتضاها النهوض بها جهداً موصولاً وبقطة مستمرة . عرفت روما مصير كل الامبراطوريات الضخمة التي اعتبرت قوتها مصدر الحقوق ، هذه الحقوق التي تلزمها ايضاً بواجبات لا يحيد عنها . غير ان روما لم تكن في عداد هذه الامبراطوريات التي ارتضت مثل هذا المصير ، بل على عكس ذلك ، كانت بالاحرى ممن تتحكم به .

فالحقوق والواجبات هي من صميم رسالتها . فاسمع ما يقوله فرجيل بهذا الصدد : « تذكر جيداً ايها الروماني ان عليك ان تحكم الشعوب ، هذه هي فنونك الجميلة : ان تتعرف الى حقوقك وان تنهض بواجباتك . فليس بينهما ما يصدم المثل الرومانية التي اتقنت على السواء ، القوة والاخلاق الحربية ، والتي تنسجم على لمثل ما يكون مع المثل الامبراطورية التي لم تكن غير مثل دولة عسكرية .



الشكل ٧ - الامبراطورية الرومانية في آخر الدولة الانطونية داخل الحدود .

- ١ - الامبراطورية عند وفاة أوغسطس ؛ ٢ - ١ - الفتح الرومانية من أوغسطس الى تراجانوس ؛ ٢-٢- الدول
التوابع عند وفاة ارغسطس والتي تم ضمها الى الامبراطورية فيها بعد ، خلال القرن الاول ؛ ٣ - فتوح تراجانوس ؛
٤ - الولايات التي ألحقها تراجانوس بالامبراطورية ثم عادت فانفصلت عنها بعد وفاته .

وهكذا ، منها بدا هذا السلام ناقصاً ، مهدداً ، او دوماً في وضع المهدد ، فقد كانت « رومانيا » وأوغسطيناً ، له وقعه في النفوس واحترامه في القلوب ، ابدأً على استعداد لامتناع الحسام لزرع الخوف وفرض الاحترام ، وهي سياسة لم يكن في مقدوره انتهاج غيرها : فقد كان في اتم سعوده : سلاماً مدججاً .

لنلقِ منذ الآن نظرة متملية على الجيش الامبراطوري ، قوام قصور الحلول العسكرية الجديدة
السلام الروماني وأداته الطيعة ، والتكأة التي قامت عليها
المدنية الرومانية خلال هذين القرنين .

مجرد تشكيل هذا الجيش لم يكن من الامور البسيطة ، ولا من المهام اليسيرة ، يراعى العمل به وفقاً لمقتضيات الوضع القائم . فامتداد رقعة الامبراطورية ، وتباين اقوامها : عروفاً وأجناساً واجيالاً ، وامتداد اطرافها ، وقيام شعوب وقبائل مزعجة ، مشوشة بجوارها ، كل هذا وما اليه ، اقتضى حلولاً جديدة . من الامور التي ميزت النظام الامبراطوري وأبرزته بوضوح عن العهد الجمهوري الراحل ، قيام جيش دائم لم يتوقف انشاؤه ووجوده على ظرف طارئ وحادث معين - هو حالة الحرب المستمرة - كما كان عليه الوضع الراهن في العهد الجمهوري . فكيان هذا الجيش وقوامه ، انبثقا من صميم النظم الجديدة التي طلعت على الامبراطورية . ولم يخلُ قيام الجيش وبقاؤه من مشكلات عديدة ، معقدة ، لم يتوصلوا الى حل بعضها إلا بتسوية واهية من التوازن المتأرجح .

وهذه الفيالق ، كيف السبيل الى تكتيبيها وتعبئتها ؟ واتي يجب ان ترابط وتقوم ؟ لم يكن من المستطاع الرجوع القهقري الى الوراء ، الى نظام الخدمة العسكرية الإلزامية العامة التي انتسخ الأخذ بها ، منذ عهد ماريوس ، فكان الرجوع اليها في الحروب الداخلية تديباً تعسفياً طالما تدمر منه الناس وتعلموا . قد يرضون عن مثل هذا التدبير عندما تتعرض البلاد لآخطار داهية ، دهاء ، توردها الهلكة . ولذا أبقوا عليها من حيث المبدأ ، ولم تطبق الا في الحالات القصوى النادرة جداً . ولم يكن في طاقة احد ، ولا في مقدور اي انسان كان ، ان يفرض على الناس اجمع ، تحت اي سماء عاشوا ، وفي اي مكان حلوا من هذا العالم المتمدين ، او كانوا في اقاصي اطراف الامبراطورية ، حيث تمر الحياة رتيبة ، كثيبة ، ليس ما يميزها في هذه الحصون النائية ، حياة قفرغ على نغم واحد في المراكز والقلاع الامامية ، والمناورات الحربية والاشغال اليدوية الاجبارية . ولهذا الاسباب مجتمعة ، كان لا بد من جيش مختف ، تضرّس افراده بالانتظار الملل ، وألفوا مواجهة المخاطر والطوارئ . وجيش على هذا النحو لا يمكن ان يقوم الا على متطوعة يقبلون ، طوعاً واختياراً ، على الخدمة العسكرية ويتدربون على فنون الحرب والجهاد ويشبون على المهنة ، ويتمرسون بها طويلاً من خلال مزاولة يومية ، وتمارين مستمرة .

وهذا الوجوب ، اقتضى بالطبع ، وجوباً آخر : إلزام بالإلزام . فقد كان من المحال اجتذاب

مثل هذه الحشود من المتطوعة ، وعلى القدر الكافي وبالعدد الوافي ، يمثل هذه التعلّات التافهة التي لوحث بها الجمهورية السالفة . فالولايات التي تعسكر فيها الكتائب الرومانية باستمرار ، كان لا بد من بقائها وحفظها سليمة ، فلا تتعرض ، بتشجيع من المسؤولين او بتغاضيهم ، لأعمال الابتزاز والاعتصار . فالحروب لم تعد مورد رزق ورجعة رابحة ، لندرتها من جهة ، ولوقوعها ، في أكثر الاحيان ، في بلاد غير ذي خصب ولا عطاء ، من جهة اخرى . والتطوع في الجيش يجب ان يُقبِل عليه الناس لما في السلك من غم وارباح : كالمرتبات والجرّيات ، والمكافآت العينية او النقدية التي يصار الى توزيعها في بعض المناسبات ، وتعويضات سخية تعطى لهم لدى التسريح من الجيش ، او الترفيع الى مرتبة اجتماعية او قضائية اعلى . كل هذه منوّفات ومغريات كانت تتبلور بالفعل ، عن نفقات ومصارفات تروح كاهل الدولة الى جانب ما كانت تُترّج به الخزينة في هذه الدولة ، من اعباء ومسؤوليات يقتضيها تأمين وسائل العيش لأفراد الجند ومدّم بما يلزم من عدة الحرب والسلاح .

ولذا كان لا بد من الاستعانة بمادة بشرية استخدامها يكلف الدولة اقل بكثير من الاستعانة بالعناصر البشرية المتباينة العروق والاجناس التي تألف منها مجموع سكان روما ، الذين اصبحوا ، مع الزمان ، وبفضل المآ في التي حققها السلف الصالح ، الطبقة الارستوقراطية في المدينة بحيث انها اخذت تمج الحياة العسكرية ، وتكره ما فيها من مضايقات ، لا يرضون بتحملها منها لحقهم من منافع وامتيازات في حال قبولهم بالتجنيد . ولهذا الاسباب راحت الامبراطورية تدعو للخدمة في جيشها ، سيراً منها مع التقاليد التي قمشت عليها الجمهورية من قبل ، لتأمين سلامتها وصيانة أمنها ، ليس رعايا احدث عهداً بهذه الرعاية فحسب ، بل ايضاً فرقاء ، دونهم وضعاً اجتماعياً ، تختارهم من بين سكان الولايات ومن بين الاجانب ، فألفوا معاً نصف الجيش المحترف تقريباً . فقد أغرام العمل والخدمة في جيش روما الفاتح اغراءً تجاوز في نظرهم الربح المادي الذي طعموا في الحصول عليه ومنّوا النفس به . وهذا ابرز واقوع ما تميزت به المدنية الرومانية من قوة الجذب والاغراء . فبعد ان نشأت السلطنة الرومانية على سواعد حلفائها ودماء رعاياها ، اذ بنا نرى روما اليوم ، تتوجه اليهم ، مرة اخرى ، في مهمة الحفاظ على هذه الامبراطورية والدود عنها .

فالقضية العسكرية ألفت ، الى جانب المادة البشرية التي هي عماد الجيش ، مشكلة مادية لا تقل حدة عن الاولى . فمنذ عهد اوغسطس ، كانت على المواطنين الرومان المعفين من الخدمة العسكرية ، ضريبة بدّل خدمة ، مقدارها واحد في العشرين من اصل التراكات المورثة ، لتغذي صندوق الجيش وتعويضات الصرف من الخدمة . ومهما بلغ من غنى الامبراطورية اذ ذاك ، وضخامة فيثها ، فقد كان عليها ان تواجه ، الى جنب الابعاء المالية المترتبة على حشد مثل هذه الحشود الضخمة من الجند ، النقص البشري الذي كانت تعاني منه ، أكثر من اهتمامها بمعجز خزينتها ، اذ كانت تنوي جمع هذه المبالغ من رعاياها ، دون سواهم . وقد لاقى في هذا السبيل

الكثير من العنت والازعاج حتى في ابان عزها وأوج ازدهارها . فكان عليها ان تسن وتشرع ما هو في طاقتها ، اذ لم يكن في وسعها توفير اسباب السياسة التي تمنى بعض امبراطرتها اتباعها والسير عليها .

وتنظيم قيادة الجيش العليا هو نفسه ، لم يلاق عندها الحل الامثل والاكمل ، اذ ان ارتباط هذه القيادة بشكل الدولة والنظام الاجتماعي الذي كانت عليه ، كان يحول دون النظر الى هذا المنصب الخطير بتجرد . ولذا كان لا بد من ان ترتبط قيادة الجيش العليا ، رأساً ، بالامبراطور نفسه . فبقاء الامبراطور واستمراره في الحكم ، ارتبط الى حد كبير ، ببقاء الجيش ، واستمراره هو الآخر ، يتوقف على استمرار الامبراطور نفسه . وهذا الجيش المرباط معظمه على الحدود ، كان يتألف بالفعل من عدة جيوش ، لكل منها قائده . فكيف السبيل ، والحالة هذه الى انتقاء هؤلاء القادة ، وكيف يمكن الخيولة دون تسخيرهم الانتصارات التي يحققونها لمصلحتهم الخاصة ، واستغلال منزلتهم في الجيش ونفوذهم عليه ، للوصول الى السلطة العليا ؟ ومن جهة اخرى ، فالجنود انفسهم ليسوا بشيء يذكر ما لم تتوفر لهم الأطر والملاكات التي تنتظم سلوكهم . فما السبيل ، لعمرى ، لتأمين هذه الملاكات ، وتأمين تدريبهم الفني والمسلكي ؟ وعلى أي اساس يجب ان تقوم ترقيتهم ، وان تلتسق ترفيعاتهم ، وما هي القاعدة الذهبية لتحقيق هذا كله ، على الوجه الاكمل ؟ وما عسى ان يكون محلهم في السلم الاجتماعي ؟ وكان من مصلحة النظام الجديد الذي طلع على البلاد ، الفصل بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية ، وذلك بتحديد اختصاص كل منها وتأمين الانسجام والترابط بينها . كذلك ، كانت المصلحة العامة تقتضي ان لا ينظر ، عند الانخراط في الجيش وتقرير الترفيعات ، الا لمن أنسوا منه الميل العميق للمسلح العسكري ، ومن توفرت له الاستعدادات الخلقية اللازمة ، وبرهن عن كفاءاته العسكرية في المعارك الحربية ، دون ان يؤبه الى شيء آخر : كالاصل والفصل ، والحسب والنسب . وسنجهل ابدأ ، ما اذا كان الامبراطرة اوضحوا هذه الأمور كلها وحددوا لها الأهداف ، او انهم لم يتمكنوا ، او بالاحرى لم يحاولوا ضرب عرض الحائط بهذه العوامل والتخلص من التقاليد المريعة .

فقد بقيت ابواب مجلس الشيوخ موصدة امام ابناء هؤلاء الاعضاء بينما بقيت كل مراكز القيادة وقفاً على هؤلاء الاعضاء . فالخروج عن هذه التقاليد التي كانت تشد بعضها الى بعض الجهازين الاداري والعسكري ، كان بمثابة خروج على مجلس الشيوخ . فالانتقال من جهاز الى آخر ، لم يكن امراً مستحيلاً ، وإن دقت سبله او ضاقت منافذه . فالوصول الى مجلس الشيوخ ، والتقلب في وظائفه : ترقية وترقية ، هو من هذه المكافآت المحفوظة لخدام الدولة الامناء . وكلها امور يرجع بها الى هيئة من الحكمين ، تخضع قراراتها وترتيباتها الانتخابية لمواقف الاحزاب المتنافسة وتأثيراتهم . وقد اوجب رفع عدد ملاك الجيش ، لعمرى ، الاستعانة بطبقات اجتماعية اخرى ، اذ ان اعضاء مجلس الشيوخ ، فقدوا ، لقلّة عددهم وضآلته ، هذا الاحتكار الذي مارسوه ، من هذا القبيل ، وتمتعوا به طويلاً ، وحدهم دون سواهم . فأخذنا نشاهد ، على مر

الزمن، طلوع فرسان وضباط، وضباط صف، من بين افراد الجند. الا ان السعي لاملأ الملاكات لم ينحط ليلغ ادنى دركات السلم الاجتماعي. فالوحدات الجديدة افرزت لها قيادات جديدة احتفظت بها واقتصرت عليها وهي، على الغالب، ادنى مرتبة من الاخرى، ودونها جذبا واغراء، بينما بقيت القيادات الاولى تعاني النقص. ولم تقم المنافسة بين الفريقين الا بعد ان خضع ضباط الثانية لتدريب طويل او عند ما راح الملك يغمر برعايته وعطفه، ضباط الشغاليه حتى اوصلهم الى مرتبة المشيخة. كما اوصل ضباط البيادي الى فرقة الحياالة. والتدرج الحكيم في هذه المراتب دعا ابناء الطبقات الى شيء من الحماسة وحلمهم بالتالي، على التنافس والمباراة فيما بينهم، فساعد ذلك على صيانة المجتمع من التفسخ والانحلال، كما ساعد الامبراطور على الاحتفاظ بسلطته على الجيش وسيطرته عليه، اذ مكنه من ان يكافئ الاخلاص ويشجع الكفاءة الشخصية. الا ان الامر ألحق بعض الاذى بالقيادة: وانتقص من قيمتها والمؤهلات التي يجب ان تتحلل بها. فقد كان من اثر هذه التدابير ان اقتضت وقتا اطول لبروز الكفاءات كما اقصرت التجلي والظهور على بعض الظروف والمناسبات كوقوع الازمات، مثلا.

تطلم القوة: البحرية
 طراً على تنظيم الجيش وتشكيله، خلال القرنين الاولين من عهد الامبراطورية، تطورات كثيرة يقتضيها تقصي مراحلها استطرادات وتفاصيل لا محل لذكرها هنا. فلنقتصر على نظرة عابرة نلقيناها على خير المهود التي قامت فيه القوات الرومانية بدورها العسكري، على الوجه الامثل، باعتبارها حصن العالم الروماني الحصين ودفعه المتين، اي في منتصف القرن الثاني للميلاد، خلال حكم هدريانوس وانطونين. فالاسطول البحري لم يكن له شأن يذكر. فالبحر المتوسط الذي اصبحت جميع شواطئه وما وراءها من اقطار خاضعة جميعها للسلطة الرومانية، هو نفسه بحاجة للأمن ولبعث الطمأنينة في النفوس. ففي هذه البحيرة الداخلية التي تقع في قلب الامبراطورية، تمر خطوط المواصلات التي تربط روما بجميع الولايات التابعة لها. واعمال القرصنة البحرية التي كان لا بد من ازالة كل خطر لها في القرن الاول، كادت تفقد، الا ما ندر، كل اثر لها. وهذه الاساطيل الحربية التي كانت تمخر عباب الم في اواخر الحروب الأهلية، فقدت الكثير من شوكتها وشكيمتها. فمذ ان انتصف القرن الاول اصبحت استطاعة السلطة ان تسحب فرقتين رومانيتين اضافيتين من اصل جيش المشاة الذي عهد اليه العمل على ظهر الاساطيل الحربية، والحقنا نهائياً بالجيش البري. ولعل العمارة الوحيدة التي حافظت على قوتها وبأسها، هي العمارة التي عهد اليها بتأمين المواصلات مع بريطانيا، ومراقبة سواحل البحر الشمالي، مؤمنة الاتصال بجيش الرين السفلي. اما الطرق النهرية الواقعة على الحدود، ولا سيما على اللرين والدانوب، فقد قامت فيها عمارات اخذت، هي الاخرى، نصيبها في الدفاع عن الامبراطورية متعاونة مع الجيش البري على ذلك. وكل هذه الاساطيل لم تكن لتؤلف شيئاً يذكر في امر الدفاع. ففوة روما هي قوة جيشها البري. فالبعارة والقوى العاملة على هذه السفن الى جانبهم، لم يكن لها من الشأن ما يمكن

مقارنته باقل فرق الجيش البري . ولم تندّ الامبراطورية هنا عن تقاليد روما التي رأيناها دوماً ، طوال تاريخها المديد ، تعجز عن القيام بمجهود بحري حربي استطال اكثر مما اقتضته حرب معينة ، الأمر الذي جعلها دوماً تفاجأ بخطر انتصب امامها بغتة ، وسبب لها الكثير من المتاعب ووجع الرأس .

الجيش الروماني : اللجيون
استأثر الجيش بعناية الامبراطرة ورعايتهم . فقد بلغت قوة هذا الجيش نحواً من ٣٥٠.٠٠٠ ، وهو لعمري عدد ضئيل جداً بالنسبة لعدد سكان الامبراطورية البالغ ما لا يقل عن ٥٠ مليون نسمة . وهذا العدد الضئيل جداً ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار التسعة آلاف كيلومتر من الحدود البرية ، بقطع النظر عن الصحراء الكبرى وبلاد العرب التي تنتقل فيها قبائل البدو الرحل الذين دثبوا على أعمال السلب والنهب . ويجب الانسى ما كان يترتب على هذا الجيش من أعباء المراقبة حتى ما تعلق منها بشؤون الادارة الداخلية احياناً ، وغيرها من المهام التي كانت تستنفذ جانباً من الجيش العامل ، المكلف بأمور الدفاع عن البلاد ضد كل خطر خارجي . من ذلك مثلاً ، وضع الحامية الرومانية في روما نفسها ، وهو تدبير اجرته الادارة الجديدة في العهد الامبراطوري دون ان يقوم ما يماثله في روما خلال العهد الجمهوري . وكان لا بد من هذه الحامية لأمن السلطة المركزية وسلامتها ، وللأمن الداخلي في المدينة . فمن اصل الـ ١٢.٠٠٠ جندي الذين كانت تتألف منهم الحامية ، في عهد الامبراطور طيباريوس ، شكل قسم منهم ، بلغ عددهم ٥٠٠ جندي ، الحرم الامبراطوري الخاص . وتألفت الحامية من ٩ طوابير هي عماد الامبراطور وعدته في الحملات التأديبية التي كانت تدعو الحاجة اليها من وقت لآخر . وما تبقى من هذه القوة ، بين كتائب خاصة بالمدينة والحراسة ليلاً ، لم يفارق المدينة بحيث يؤمن لها ما تحتاج اليه من قوة بوليسية وبريات لمكافحة الحرائق عند نشوبها . وعلى هذا النحو تقريباً كان وضع القوات الرومانية المربطة في اسبانيا ، سواء منها القائمة في شبه الجزيرة الايبيرية او التي كانت منها تعمل في مقاطعة موريتانيا - المغرب اليوم - فلم يكن من مهمتها التصدي للأجنبي .

وهكذا يتضح ان الجيش الامبراطوري كان بحاجة الى كل فرد من افراده ، والى كل ما تتمتع به من كفاءة عسكرية ومهارة في فنون الحرب ، ليقوم على الوجه الاكمل ، بالمهمة الموكولة اليه والتي قام بها بشكل مرضي .

اما الوحدة النموذجية الكبرى ، سيدة المعارك المعبأة ، فلا تزال تحمل الاسم الذي عرفت به من قبل ، وهو « اللجيون » ، هذا الاسم الذي ارتبط ابدأً بالاجاد التي حققتها الفتوحات الكبرى التي عليها نشأت السلطنة الرومانية ، وهي فرقة لم تدخل عليها الامبراطورية تعديلات تذكر ، باستثناء مزية من الخيالة ألحقت بها ، لم يتعد عدد افرادها ١٢٠ فارساً . واللجيون ،

وحدة مشاة في الاساس ، يتراوح عددها بين ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ جندي ، وهو عدد تباين الكتب والمؤرخون الاقدمون في تحديده . وتتألف اللجيون من : طوابير *Cohortes* ، وكراديس *Manipules* وسريات *Centuries* ، ينتظمها جميعاً ملاك قيادي ، متين ، يتألف من ٦٠ ضابطاً برتبة قائد مائة يعرف عندهم بـ : *Centnriion* ، وهم ضباط خرجوا من بين صفوف الجند بما أظهره من كفاءة ومقدرة ، ورقوا تبعاً ، الدرجات العسكرية ، وكانوا يتولون قيادة السريات الاولى في الكراديس . اما ترقيتهم الى درجات أعلى ، فأمر بقي نادراً جداً في القرن الثاني . ولم نرَ بينهم من وصل الى قيادة الفرقة او اللجيون ، هذه الوظيفة المحتفظ بها ، اصلاً ، لأعضاء مجلس الندوة او اعضاء مجلس الشيوخ ، إلا في مصر ، حيث كان يتولى قيادة الفرقة ضابط من رتبة شغاليه .

على كل افراد الفرقة ان يكونوا حاصلين على الرعوية الرومانية ، وهو امتياز لم يكن من العسير قط الحصول عليه ، اذ كانت الدولة تمنحه بكل طيبة خاطر ، لكل من يتطوع في الجيش ، وقد عرفت الادارة ان تفيد من هذا الامتياز خلال الحروب الاهلية . وقد اخذت الامبراطورية ، في القرن الثاني ، تعود لهذا الثُعرف وتضعه موضع التنفيذ ، فلا تمنح حق الرعوية إلا لعناصر بشرية ضربت بأسباب الحضارة بسهم كبير ، لدى انخراطها في الجيش . وكانت الفرقة ، في تشكيلها تعتمد ، الى حد كبير ، على التطوع المحلي ، فتعمل على استكمال وحداتها وتشكيلاتها العسكرية حيث ترابط ، مؤثرة في ذلك ابناء الجنود وتفضيلهم على سوام ، بعد ان نُشئتوا على شيء من الانضباط العسكري ، وأرضعوا حب الحرب .

الفرق الرومانية الصغر لم تكن لتؤلف سوى نصف الجيش ، اذ ان النصف الوحدات الاضافية الآخر كان يتألف من كراديس غير نظامية ، افرادها من غير الرعايا الرومان ، فيشكلون وحدات اضافية مساعدة تنضم الى الفرقة وتؤلف معها وحدة تخضع لقيادتها العامة مباشرة .

وكانت هذه الوحدات تضم ما بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ جندي ، مسلحين على الطريقة الرومانية ، وتجه في الحرب النهج الحربي الروماني ، تحت امرة ضباط يحملون الرعوية الرومانية . فالجناح كان يتألف دوماً من فرسان الخيالة ، بينما كانت الكراديس تتألف من المشاة واحياناً من عناصر مختلفة . وكان كل كردوس يحمل اسم البلدة او المنطقة التي تشكل من رجالها . غير ان اضطراب هذه الكراديس للخدمة ، احياناً كثيرة ، بعيدة عن مناطق نشأتها وتكوينها ، جعلها تحمل فيما بعد ، اسماء المقاطعات التي كانت ترابط فيها . ومما يكن ، فأفراد هذه الوحدات الاضافية هم من مستوى اجتماعي وحضاري أدنى من افراد الفرق الرومانية الاصل . ولم يتروا إلا بعد انتهاء خدمتهم العسكرية ، واذا ذاك فقط ، تسلم اليهم براءة رسمية يمنحون بموجبها حق الرعوية الرومانية .

والحق بالجيش الروماني ، في القرن الثاني ، فرقة اضافية اخرى غير التي اتينا هنا على ذكرها ووصفها من الفرق المساعدة ، عرفت عندهم باسم *Numeri* ، هي على الغالب من نوع القناسة تعمل الى جانب الوحدات الرومانية . لأفرادها أسلحتهم وعتادهم وطرقهم الحربية ، هي الطرق الجاري الاخذ بها في بلادهم . وهي على الغالب وحدات خفيفة السلاح ، سريعة التحرك والتنقل ، يعهد اليها بمهام تقتضي السرعة والمفاجأة .

فالجيوش الرومانية وما اليها من قوى اضافية مساعدة تضاعف عددها ، كانت الجيوش . تؤلف الوحدة العسكرية التي تشبه الى حد بعيد ، فرق الجيوش الحديثة . كان عدد هذه الفرق ، عند وفاة أوغسطس ، ٢٥ فرقة ، تغير قليلاً فيما بعد وفقاً لمتطلبات الظروف ، بين زيادة او نقصان ، او حل بعضها احياناً ، في حالات التمرد والعصيان مثلاً . فاذا بهذا العدد يرتفع الى ٣٠ فرقة في عهد الامبراطور ترايانوس ثم يهبط الى ٢٨ في عهد هدرانوس . وقد شكل الامبراطور مارك اوريل فرقتين اخريين ، كما شكل الامبراطور سبتيموس ساويروس ثلاث فرق جديدة في عهده .

وكانت هذه الفرق توزع على مختلف المناطق والولايات وفقاً لمتطلبات الحاجة العسكرية ، وضرورات الدفاع والحفاظ على الأمن . فاذا ما رأت الادارة تخفيض قواتها في ولاية ما ، او نقل الحامية المراقبة فيها ، أجرت هذا التدبير بتمهل كلي وبتحفظ ، اذ كثيراً ما يكون استقرار الأمن في البلاد صورياً لا غير . ولعل اكثر جيش روماني استهدفت فرقه للتعديل والتبديل والتغيير هو الجيش المرابط على الرين ، وهي تغييرات استمر الاخذ بها طيلة قرن تقريباً . فبعد ان تألف في عهد أوغسطس من ثمان فرق ، انخفض عددها الى اربع عند وفاة هدرانوس ، بينما كان جيش الذانوب في هذا الوقت بالذات ، يتألف من ثمان فرق ، وجيش آسيا من ٨ فرق ايضاً ، وقام ثلاث منها في بريطانيا ، بينما رابطت ثلاث في كل من اسبانيا وافريقيا ومصر .

هذه الجيوش ، في معظمها هي جيوش تفطية ، وتوسعا ، جيوش احتلال . فهي تغطي الولاية او المنطقة وترد عنها عوادي الطامعين من الغزاة وتصون أمنها ، ليس عن طريق الحشد والتكتيب والتأليب ، وكلها امور لم يكن في مقدورها وزحدها القيام بها ، لولا وحدات اخرى اضافية مرابطة في البلاد . وعلاوة على هذا ، لم يكن هنالك من جيش احتياطي ، ولذا ، كان من العسير جداً ، ان يتحول الى جيش مناور ، متحرك محارب ، الا اذا ما استنفر وحدات إضافية من جيوش اخرى قريبة او بعيدة ، او صير الى تقوية هذه الجيوش المرابطة ، وذلك بدعوة المحاربين القدماء ، ومثل هذا الاجراء لم يكونوا يرجعون اليه إلا عند خطر مدام . وكانت الامبراطورية ، بالنسبة للوضع الذي يكتنف جيشها ، وطريقة توزيعه على البلاد ، لا تستطيع الصمود على جبهة معينة إلا باضعاف حاميتها المرابطة في جبهة ثانية ، ولذا كان عليها ان تلتزم

فالجيش الامبراطوري قام ليتدبر وضع الامبراطورية العادي ، وليؤمن استمراره النظيم وسيره الرقيب ، لا ليعالج ازيمات عارضة ، طارئة ، لا سيما ما كان لها صفة الشمول والاتساع . فهو لا يوحى في النفس ، ولا يدخل في الروح سوى طمأنينة زمنية ، آنية ، واهية . فاذا ما نعمت البلاد بشيء من هذا في القرن الثاني ، فبفضل الهدوء النسبي الذي سمحت لها به الشعوب المجاورة لها ، وليس بفضل تفوق الامبراطورية العسكري او الحربي . فاذا كان من الصعب على قادتها، او كانوا عاجزين عن ان يتصوروا الاخطار التي ستعرض لها الامبراطورية في المستقبل الطالع ، فمافات أكثرهم فطنة وبصيرة ، ان يستشعروا ما هم عليه من وضع لا يوحى قط بالطمأنينة . فالحرص الذي تجلّى عند الامبراطرة بالاقتصاد بقواتهم عن طريق اختصار الحدود وإزالة النواتي ، او عن طريق إقامة الحصون والقلاع الدفاعية على طول خط هذه الحدود، هو الدليل بعينه على انهم لم يكونوا ليغفلوا او ليتجاهلوا، ما هو عليه الوضع من وهن كما ان في هذا ، البرهان على رغبتهم الصادقة في معالجة هذا الوضع وتدبر الامور بشكل يبعث الطمأنينة وتأنس له الخواطر .

ولكي تبقي الامبراطورية ولاياتها الواقعة على الحدود البرانية الاشراف على الحدود وتنظيمها
بمعزل عن هجمات البرابرة وتهديداتهم ، راحت تحاول جدها ، لتيسير المهمة الموكول الى الوحدات العسكرية تنفيذها ، وهي مهمة عسيرة ، شاقة تقوم بمراقبة الحدود والصمود في الدفاع عنها ، عند حدوث ما يهددها . وتحقيقاً لهذه الغاية ، أخذت الامبراطورية ، في بادئ الأمر ، تقيم الحاميات ، على طول شواطئ الانهر الكبيرة ، القائمة على هذه الحدود او على مقربة منها ، كالفرات في جزء من مجراه ، والدانوب ، والرين ، ان تعذر اقامتها امام نهر الإيلب . ولكن طمأنينة تقوم على الجيش وحده لم تكن لتكفي او ليقنع بها أحد . ولذا اخذت ، خلال القرن الثاني، تقيم لها او تستصلح ، في نقاط عديدة ، خطأ من التخوم والحدود اصطلاحاً على تسميته بـ « Limes » .

ولعل خير ما يرسم في خاطرننا صورة مثلى للمراكز الدفاعية التي يتألف منها هذا الخط الحصين ، هو تخيم يحيط به خندق ، يليه منحدر يقوم دونه سياج ، ثم يأتي سور خارجي تتقاطع ابراج المراقبة ، وحصون تقوم وفقاً لمقتضيات طبيعة الارض ووضعها الطبوغرافي ، او وفقاً لما يخططه لها المهندسون العسكريون . وخير مثال او صورة مثلى لهذه الحدود الحصينة هو هذا الجدار الحصين الذي قام في بريطانيا قديماً وعرف بجدار هديانوس ، فينطلق من نهر التاين Tyne ويمتد ليدخل بموقع صولواي فيرث Solway Firth . وامعانا في منعة الخط ، اضيف اليه في القسم الشمالي منه ، جدار آخر عرف بجدار انطونين ، امتد من فيرث الى فورث حتى نهر الكلايد . ومثل هذا الخط الحصين قام كذلك بين نهري الرين والدانوب - وهو الخط المعروف بخط الحدود الجرمانية - هذا الخط الذي حرص امبراطرة الاسرة الفلافية (Les Flaviens) ،

عقب وفاة الامبراطور انطونين ، على تقوية دفاعه ومضاعفة مناعته . ودخل ضمن هذا الخط المنطقة المعروفة عندهم بمقول ديكومات *Champs Décumates* ، الممتدة ٥٠٠ كيلومتراً ، بينها ٨٠ كيلومتراً في خط مستقيم ، ثم يبتعد عن نهر الرين على مساواة مدينة « بون » ليعود فيدخل بالدانوب ، على ارتفاع مدينة راتسبون . وكأن هذا الخط الذي شابه سور الصين فبعث الرهبة في النفوس ، شيئاً خارق الطبيعة .

وهناك مثال آخر لهذه الحدود الحصينة ، انما على نسبة اقل ، من الضخامة والعظمة ، كان مع ذلك ، لا بد من ارادة جبارة وجهد طائل لاقامته وتشييده ، هو هذا الخط الذي يقوم الى الشرق من سوريا ، في خط ينحدر جنوباً حتى القارة الافريقية مواجهاً الصحراء . ويتخلل هذا الخط : خنادق ومنحدرات وحصون وقلاع هي ادنى شأناً واهمية من التحصينات الواقعة على الخط الاول . ويستمد هذا الخط قوته ومناعته الاولى من سيطرته على موارد المياه والتحكم بها بواسطة شبكة محكمة من الاستحكامات وما فيها من حصون وقلاع ، يتخللها عدد من الآبار التي تم حفرها واعادها في المناطق المجذبة ، وشبكة جيدة للري وسقاية الأرض ، في منطقة تصلح للزراعة ، يتعاون فيها سكان المزارع والقرى مع افراد الجيش على استثمارها واستغلالها ، وعلى رد غزوات البدو عنها .

وعلى كلا الخطين ، اردف هذه الاعدادات العسكرية والتحصينات الحربية ، شبكة ممتازة من الطرقات الجيدة وما اليها من تفرعات وتشعبات ، تصل مراكز الدفاع والحصون بعضها ببعض ، كما تؤمن اتصالها بمؤخرة البلاد ، حيث تقوم عادة نخبات الجيش الرئيسية ، اذ لا بد من تأمين وصول الامدادات العسكرية والمؤن اللازمة للمرابطين على الحدود والمدافعين عنها .

والبحت العالمي عن معالم هذه الحدود الحصينة لم يجر بعد بصورة دقيقة مرضية ، إلا في بعض الأماكن منها ، كالمانيا وبريطانيا . ثم جاء التصوير الطبوغرافي من الجو يؤازر هذه الكشف العلمية ويصححها ويبرزها للنظر . ومهما كانت النتائج الأخيرة التي ستؤول اليها الحفريات الأثرية عن معالم هذه الحدود الحصينة في مناطق اخرى ، ومهما بلغ من دقتها في المستقبل الطالع ، فلن تبطل او تخلخل النتائج الأكيدة التي توصل اليها العلم حتى الآن . فاينما وجدنا معالم بعض الحصون التي قامت في مراكز واماكن معزولة ، وفي قطاعات بعض الطرق القديمة ، امكننا ان نجزم ، بكل تأكيد ، اننا امام نخبات لبعض وحدات الجيش الروماني . ففي كل تخم من تخوم الامبراطورية الرومانية ، تبرز بصورة واضحة جليلة ، معالم هذا الجهد الطائل الذي بذله المهندسون العسكريون العاملون في خدمة روما وخدمة جيشها ، ليؤمنوا للامبراطورية جمعاء ، ومنها اليها من ولايات دخلت تحت سيطرتها واشراقها ، اكثر ما ترغب فيه من الأمن والطمأنينة والسلام .

الحياة في غيات الجند

عرف الجندي الروماني ان يحافظ ، من الوجهة الحربية ، على ما اشتهر به من كفاءة ومقدرة عسكرية . فالجندي ابن مهنة وان شئت ، فقل ابن سلك . فهو اختصاصي ، احترف مهنة الحرب . وبالرغم من انه روماني التبعة والرعية بالتبني ، وروماني التبعية لأمد يقصر او يطول ، فهو فخور بهذا الشرف الذي أوتي به بالخرائط في الجيش ، وشرف موروث له وقعه في النفوس . تهتز نفسه وتطرب لبريق الأوسمة التي تزين صدره ، على قلة ما سخوا بها في القرن الاول ، ثم راحوا يبخلون في توزيعها ، في القرن الثاني حتى بلغوا فيه حدود التقدير ، ناهيك عما كانت توفره للجندي من منافع مادية وأدبية أخرى.. فالراتب كان يزداد ويرتفع حتى في هذا العهد الذي استقر فيه النقد ، كمهدي اوغسطس وفسبسيانوس، ولم ترتفع قيمته إلا في اواخر الدولة الانطونية *Les Antonins* . والجندي الروماني حسن العدة والعتاد والذخيرة ، تؤمنها له مصلحة التوريدات في الجيش ، وهو ينعم كذلك بالتسهيلات والمنافع التي تؤمنها له مصالح الجيش الفنية والهندسية . ولذا فهو يُقبل على الخدمة راضياً مرضياً ، وقد اتقن المهنة بعد ان تفقته بأمورها واسرارها مدة طويلة ، يقبل بنشاط وحماسة على المناورات وينقطع اليها بكلية ، لاسيما في عهود بعض الامبراطرة ، كمهد الامبراطور هدريانوس مثلاً . فالامبراطور خبير بأمور الجيش يكثر، من دورات التفتيش ويتشدد بأعمال المراقبة ، كما يشهد بذلك الامر اليومي الذي اصدره في ناحية لمبيز (الجزائر) *Lambèse* ووجهه الى جميع مفارز الفرقة الافريقية وما اليها من كراديس وأجنحة تعمل معاً في حروب المناوشات .

وهناك مهام واعمال اخرى غير التي ذكرنا ، تملأ ايام الجندي في اوقات الخدمة ، كالتمارين التي يقوم بها ، وحراسة القلاع والحصون ، واعمال الدوريات بين مخفر وآخر . ولكي يجنبوا الجندي اوقات الفراغ ، تفرض عليه القيادة القيام ببعض الاعمال التي لها اتصال بالمنفعة العامة ، كاصلاح مناطق الحدود وتهيتها ، وشق الطرقات وتعييدها ، وبناء الجسور والعبارات ، وتشديد الاسوار حول مواقع الدفاع وتحصينها ، وبناء المساكن الخاصة بالادارة ، والمعابد والمسارح والحمامات ، والقناطر لإسالة المياه ، وإيصالها للمعسكرات ، وغير ذلك من الممرات . هنالك عدد من وحدات الجيش لها مقالع خاصة لاستخراج حجارة البناء ، ومعامل لصنع القرميد والطوب ، كما يوجد ، تحت تصرفها ، الاحراج والغابات والمناجم ، حيث تعمل فرق مختلطة من الجيش والعمال تحت اشراف ضابط صف، واعمال التعمير والبناء وما تقتضيه من اعمال صيانة وحراسة ومحافظة ، اعمال اتقنت الاخذ بها وحدات الجيش في العهد الجمهوري ، ورسخت اصولها ، وتوطدت اساليبها ، في العهد الامبراطوري ، مع قيام الجيش واستقرار نظمته ، وقيام معسكراته وغنياته وحامياته بتعمير المقاطعات المتأخرة عن سواها في رقعة الامبراطورية وتجهيزها بالانشاءات اللازمة . غير ان الرغبة في التوفير والاقتصاد ، من جهة ، والحاجة الملحة للملاكات الفنية والتقنية في المقاطعات النائية عن مراكز الحضارة ، كل ذلك حمل الجيش ، من

جهة اخرى ، على النهوض بمشاريع عمرانية لها ادارتها ودوايرها الخاصة ضمن الجيش .

ولكن هذا الوضع بالذات لم يكن ليخلو من محاذير تلحق بالجندي فتترك اثرها في قدرته الحربية وكفاءته العسكرية . فالأخذ بأسباب المدنية والسير قدماً في معارج التطور ، كانت لا بد من ان يترك اثره بارزاً في نفس الجندي ، مهما بلغ من حرص الامبراطرة للحد من فعل هذا التطور . فبين الانشاءات التي اقامها الجيش في معسكراته وخيماته لتأمين راحة الجندي والترفيه عنه ، والتي تتوفر فيها ، على اقدار وانصبة مختلفة اسباب الطمأنينة ، أين يقع منها النافع اللازم ، وأين يبتدىء الكمال الزائد ؟ ولذا راح بعض الغيور من المتشددین على الاخلاق يتهمون هذه الانشاءات بتبذير وتخنث من يجب ان يتحلوا بالقوة والشدة والبأس لمواجهة شظف العيش ، وقسوة الحياة العسكرية ، وإحزن الحرب ومشقاتها . وبعد ، فامتداد الخدمة العسكرية واستمرارها مدة طويلة ، أمر لم يكن ليخلو من المحاذير . فبعد ان كانت مدة الخدمة ١٦ سنة للجنود النظاميين ، و ٢٠ سنة للعاملين في الفرق الاضافية الأخرى ، و ٢٥ سنة لجند القناصة وغيرهم من افراد القوات السيارة ، نرى هذه المدة تخفّض ٤ سنوات ، في عهد اوغسطس وتخفّض لفترات أقصر ايضاً ، في عهد طيباريوس . وكثيراً ما كانت مدة الخدمة العسكرية الفعلية تمتد وتطول اكثر من ذلك بكثير ، إذ ان التسريح من الجيش والصرف من الخدمة ، لا يتأتى إلا بأمر رسمي ، قد يتأخر صدوره سنة وربما سنتين . وقد يمضي بعضهم في الخدمة ٣٠ سنة وربما اكثر من هذا ، عند تجديدهم لمدة تطوعهم في خدمة العلم . ويروي أحد المؤرخين حادثة جندي قضى في الخدمة العسكرية ٤٠ سنة . ومرد ذلك ، على ما نعتقد ، للصعوبات المالية التي كان يتخبط فيها بيت المال ، فيعجز عن مواجهة ما يترتب عليه من التزامات نقدية وعينية لمن يجري تسريحهم من الجيش . ثم ، فالنظام العسكري الذي كان ساري المفعول ، إذ ذاك ، كان يحظر على الجندي ، عقد زواج شرعي ، كما ان إقامة هذا الجندي مدة طويلة في المعسكر أو الخيم كان مشجعاً له على التسرّي الخفي . وقد انتشرت العادة وعم استعمالها بعد ان قام على مقربة من انشاءات الجيش وخيماته ، مبانٍ مدنية عمرها المتجرون مع الجيش والمتعاملون معه ، ومعظمهم من اوساط مشبوهة ، دخل عليهم فيما بعد ، وحلّ بينهم عناصر أقل شبة . وعلى كثر الايام ومر السنين ، زادت هذه الانشاءات المدنية الى ان أصبحت مدناً وحواضر ذات شأن . من ذلك مثلاً ، مدينة ستراسبورغ ، ومايانس وبون ، وهي مدن نشأت على مقربة من معسكرات الفرق الرومانية الثلاث التي كانت ترابط على خط الرين . وهكذا لم تلبث ان تجسد اسرة الجندي ، وهي قريبة من ربهامعيلها ، التسهيلات المادية اللازمة لها . وتقض القيادة النظر عن الخالفة في بادئ الأمر ، ثم لا تعدم أن تعترف بالأمر الواقع وتقره ، لما يوفره لها من منافع ولما يجنبها من مصاعب . وعلى هذه الصورة ، تم تحضير البلاد وتدينها ، وأخذت الاقوام المتخلفة من سكانها بأسباب التمدين والتخلص تدريجياً من التأخر الذي كان عليه البرابرة ، فيروح الناس يعمرون الارض ويزرعونها ، فيسهل بالتالي ، على ادارة الجيش ،

توفير المهات والمؤن اللازمة له ، كما ان حركة الاسكان تسهل لها امر المتطوعة ، مادة الجيش وذخره ، اذ يجدونهم على مقربة من المعسكرات . ولا يمضي كبير وقت حتى ينضم الى هذه المجتمعات البشرية ، المحاربون الذين يسرحون من الجيش بعد انتهاء خدمتهم او انتهاء الحرب ، فتقطعهم الدولة من املاكها الاميرية اراضي ينصرفون لإحيائها واستثمارها . وهكذا يتألف منهم ومن ذرارهم رديف يستعين به الجيش عند الملمات ، لقربه من مراكز الدفاع اولا ، ولسهولة الاعتماد عليه والاستعانة به ثانياً . ولكن كل معالم هذا التطور الذي يأخذ الجندي الروماني بأسبابه لا يلبث ان يترك اثره الظاهر في كفاءة هذا الجندي ، وخلخلة مؤهلاته من الوجهتين العسكرية والحربية .

وهكذا لا تعتم مناطق الحدود ان تتحول الى عالم خاص قائم بذاته ، عليه ان عل ضوء الموازنة يؤلف وحدة بل ينصر في هذا العالم الروماني الذي أنيط به الدفاع عنه والسهر على أمنه وسلامته ، بعد ان أمّن له هذا العالم الموارد اللازمة لأوده وعيشه . فاذا ما استمر يتلقى من روما : حكامه وولاته ، ونظامه والأوامر التي عليه ان يتقيد بها ، فالجانب الأكبر من رجاله ومن توريدهاته ، يرد عليه من المؤخرة ، التي تنقل رقعته رويداً وتنكمش . وهذا الجيش الذي يربط عند الخط الدائري للامبراطورية ، لا يلبث ان يتطبع بطابع السكان العائشين على مقربة منه ويتخلق باخلاقيهم ، وهو طابع يتبدى ، ليس في ما يقوم من فوارق بين الجندي المحترف والمدني المعمر فحسب ، بل ايضاً في ما هو أدهى من هذا بكثير ، في هذا الجهل او نصف الجهل الذي يباعد بين المؤخرة ، اي داخل البلاد ، وبين منطقة الحدود . وعندما تنقل الأزمات الحادة الطارئة الحرب الى داخل البلاد ، الى المؤخرة ، سواءاً اكانت حرباً اهلية او غزواً خارجياً ، يشعر السكان بصدمة عنيفة ، وبشيء من الهلع غنما تتبدى لهم حقيقة الجيش الروماني وواقعه .

ومع ذلك فمنطقة الحدود تلعب اكثر من دور بارز . فهي تقوم ، بدء ذي بدء ، بدور الدرع الواقى والترس الدافع . فقد رأينا المتاعب التي عانت منها ادارة الجيش في وضع خططها الاستراتيجية وتنفيذها . ومن جهة اخرى ، فشاهد الحياة العسكرية التي يحدثنا عنها المؤرخون في ما بعد ، تزيد هي الاخرى ، من حدة هذه المتاعب والصعوبات في وجه الجيش وتضطره للرباطة على الحدود للاقتباس ، في حياته اليومية العادية مما يراه او ينتصب امامه في بيئته المادية والبشرية ، فتضعف منه القوة على الحركة والخفة في التنقل . وعندما يحول البرابرة الغزاة بضغطهم المتزايد ، طبيعة القتال ، من حرب حركات والتفاف الى حرب دفاع عن المواقع العسكرية ، يذهب ضغطهم هذا بكل العراقيل ويجبر الامبراطورية على ادخال تعديلات اساسية على النظم المتبعة لديها في تعبئة جيشها وتنظيمه . غير ان الحاجة لهذه التغييرات لم تكن استبدت بعد ، في القرن الثاني ، ولا يزال في مقدور القوات ، بالشكل الذي ارتقضته لها روما ،

ان تقوم بالدور المترتب عليها . والعالم الذي يخضع للسيطرة الرومانية ، يستطيع ان يستمتع بطمأنينة وامن لا مثيل لها على الاطلاق ولا كفاء، من الوجهة المادية والادبية . ففي اي قطر أو صقع من الاقطار والاصقاع الخاضعة لهذه السيطرة قد تحدث بعض الأمور: كثورة عسكرية او انتفاضة محلية يقوم بها سكان هذه او تلك من المقاطعات ، او غزوة من قبل البرابرة الغزاة ، او منافسة بين الزعماء الذين يطمحون الى السلطة العليا . الا انها تبقى احداثاً محلية ، فردية ، استثنائية ، لا غير .

ولكن هذا « السلام الروماني » لم يحمل الى المدينة الرومانية في عهد الامبراطورية الاول ، الخير العميم فحسب ، القائم في تجنبه البلاد ويلات الحروب ، بل ايضاً ساعد كثيراً على تطويرها من حيث المفهوم العام والمناهج المرسومة لسيرها . وبذلك تسبب في بقاء ما نرى من معالم النظام الاجتماعي ليتلاءم وحاجات الطبقات الهائلة وليزيد من سحر واغراء بعض المنافع والخدمات التي من شأنها اجتذاب الناس نحو المثل الرومانية ، ويساعد على الأخص في جعل التطورات التي تمر بها تؤول لتحسين مناطق الحدود فتبعث فيها الحركة والنشاط عن طريق تشجيع الانتاج ، وتنشيط مرافق التجارة فيها ، وبناء الطرق والمدن ، وتثبيت السكان في المدن والارياف ، ومد الجيش بالعناصر البشرية الخشوشة الطباع والمعروفة بروح المغامرة والتي يمكن ان تتحول الى عناصر شغب وقلق وإزعاج . فاذا بهذه العناصر التي خضعت للانضباط الروماني ، وتأثرت به ، وعاشت في ظله ، وتخلقت بالتالي بالاخلاق الرومانية ، وتطعت بطباع الرومان ، واخذت أعراقهم ، وتبنت لغتهم ولسانهم ، تباهي وتفخر بما تم لها من صيرورة ومصير ، وبما عادت عليها خدمتها الطويلة في الجيش ، من وضع جعلها على قدم المساواة مع الرومان انفسهم .

فالجيش الروماني بالمفهوم الذي عرضنا له ، وبالعامل الذي حققه في القرنين الاول والثاني للميلاد، هو اداة طيعة ، فعالة لرومنة وليتنة هذا القسم الواقع على اطراف العالم الروماني .

الدولة بين النظر والواقع

الثورة السياسية
وطابعها النهائي

في مساء ذلك اليوم من عام ٤٢ ق . م ، الذي فيه انتحر قَتْلَة يوليوس قيصر بعد الهزائم الشنعاء المتتالية التي لحقت بهم ، كان النظام الجمهوري في روما يلفظ أنفاسه الاخيرة . فالإصطدام الذي وقع في اكتوبر بين اوكتافيوس وبين خصميه انطونيوس وكليوباترا ، كان لا بد ان يؤدي الى ظهور سيد على روما والعالم الروماني ، اذ لم يكن من المقبول قط ان ينسحب المنتصر ويتوارى متخلياً عما تم له من الامر ، بعد ان قضى على القوى المتمردة ، وعرف كيف يستميل ولاء ما تبقى من جيش منافسه . فالتجرد البشري له حدوده مها بلغ من بذل الذات . قد يكون اوكتافيوس تلبس بمظهر الزهد في الحكم ، ورغب عن السلطة فراح يضع ، بعد ثلاث سنوات من موقعة اكتوبر الفاصلة ، خلال الجلسة التي عقدتها ندوة الشيوخ في ١٣ كانون الثاني عام ٢٧ ق . م ، مقاليد السلطة بين يدي « مجلس شيوخ الشعب الروماني » بعد ان آلت كلها الى جماع قبضته . إلا انه عرف كذلك كيف يستجيب ، في اليوم ذاته ، للالتباسات والتوسلات التي انهالت عليه من كل فج و صوب وينزل عند رجاء ورغبات الضارعين اليه بالألا يتخلى عن الحكم ، بل يرضى منه ببعض الامر . كذلك لم يكن بُد له ، من الانصياع لقبول لقب : « اوغسطس » هذا الإصطلاح الذي تشده الى كلمة « سلطة » *Auctoritas* ، أكثر من آصرة اشتقاق وجذر ، بحيث راح خلفاؤه من بعده ، يحملون هذا اللقب الشهرة الذي اصبح رمزاً للسلطة التي تسلموها ونهضوا بأعبائها .

وهكذا فالمظاهر التي تشددوا باحترامها تبدت مظاهر جمهورية ، وتلبست بالشرعية لينطلي بها الامر على المغفلين الاغرار السذج ، بعد ان اخذ النظام الجديد كل سمات وخصائص الملكية وشاراتها المألوفة . وقد اخذت سلطات اوغسطس الامبراطور تتسع وتشتد ، وهو بعد في قيد الحياة ، بعد ان رأى ان الظروف العارضة تسمح له بالكشف عن ورقته ، او ان حادث تسلم السلطة جعل من المهتم عليه ان يقبض على الادارة بيد من حديد .

فقد فعّل الدهر فمُلتته . كان لاوغسطس ، عند انتصاره في معركة اكتوبر ، ٣٢ سنة من العمر ، ومات سنة ١٤ للميلاد ، قبل بضعة اسابيع من بلوغه السابعة والسبعين . وهذه الحياة المديدة النادرة يقضي معظمها في الحكم وعلى رأس الادارة ، ساعدت النظام الجديد الذي أسسه ، على التوطد والرسوخ ، ومكنت له الاسباب المستحكمة ، من الإعراق . قد يكون بعض

خلفائه من بعده، قام هو الآخر بمثل هذه المسرحية التي اجاد تمثيلها في ٢٧ ك (يناير). وقد يكون قام في عهده او بعده، دسائس وقتن رافقتها محاولات قتل كالفتنة التي وضعت حثداً لسخافات كاليغولا ومهاتراته، والتي رمى أصحابها منها الى العودة بالحكم الى النظام الجمهوري. فقد ظل في الامبراطورية أناس غاظمهم قيام العهد الجديد، كما بقي في روما خصوم له الداء، راحوا يترصدون الفرص المسعفة، والظروف المؤاتية. أفلم يضطر اوغسطس نفسه لحثق بعض المؤامرات في المهدي! ولكن أنتى لكل هذه الألاعيب وما اليها من مكاييد ودس ان تطرح على بساط البحث، ما تم من هذه المآتي الغر، والانجازات السياسية التي أتاها على مثل هذا النحو من العظمة، وعلى مثل هذا القدر من المجد المؤتمل، لم تلبث ان استحال حياها المقاومة، اسفاً شديداً واعجاباً، كال الثناء العاطر لما تـ ألهبت الخيال ونالت تقديس الاجيال. فقد قام ابدأ، على رأس السلطة «اول» لم تبرز ملامحه وتوضح قبياته الا بقدر ما اراده طبع هذا «الاول»، وليس القوى المندفعة في خصومته. وعندما قام، لفترة قصيرة، على السلطة، في عهد مارك اوريل، صاحبان ينتسبانها، لم تمس ازدواجية الشخصية، مبدأ الأولية، حتى في أحلك عهود الامبراطورية ظلمة، يوم راحت تتخبط في فوضى ماحقة. وهكذا وجه اوغسطس الحياة السياسية في روما التوجيه الغنائي الفصل، وراح التطور الذي اخذت سياسة الدولة بأسبابه يُبرز قسما هذا النظام الملكي مع اكتماله.

١ - الامبراطور

قام على رأس النظام الجديد اول أو مقدم *Princeps*، وهو اصطلاح ارادوا به التعبير عن صاحب السلطان الحقيقي، مع ان ليس في صيغة هذه اللفظة واشتقاقها شيء خاص ينم عن هذا او يشير اليه، بل كان للكلمة، على عكس ذلك تماماً، صلة استعمال في النظام الجمهوري. فقد عرف منذ عهد بعيد، بين نظم الجمهورية ومراتبها، وظيفة معينة يُعرف صاحبها بـ «امير مجلس الشيوخ» كانت ميزته الوحيدة، المبادرة، قبل غيره من اعضاء مجلس الشيوخ، الى ابداء الرأي في امر مطروح على النقاش. وعندما يتنزى شق القلم عند شيشرون بهذا التعبير، وهو تعبير كثيراً ما ورد على لسانه، فكلمة *Princeps* عنده، انما تدل على الأولية الادبية في التوجيه المؤثر. فاذا ما ازدادت هذه الأولية شأنًا لصالح الامبراطور، فلم يكن هذا سبباً او علة، بل جاء نتيجة او معلولاً، للسلطات والصلاحيات التي تمتع بممارستها.

١ - الحكم

اولى هذه السلطات واخطرها شأنًا وأبرزها أثرًا هي بالطبع السلطة العسكرية، التي آلت اليه قانوناً وشرعاً، ومارسها فعلاً وعملاً. فهي أس الامبراطور هو القائد الاعلى للجيش او أصل السلطة التي يمنحها الشعب، او بالأحرى، التي تمنح باسم الشعب، في بدء كل عهد من عهود السلطة، ولمدة السلطة ومدى عهدها. وهذه السلطة (*Imperium*)

توصف رسمياً *Proconsulare Majus* أي السلطة البروقنصلية العظمى . وهذا النعت *Proconsulaire* يولي حامله أو صاحبه ، السلطة العليا التي يتمتع بها صاحب الولاية أو حاكمها ، ويمارس بحكم منصبه هذا ، جميع السلطات والصلاحيات التي تمارسها روما نفسها . أما الصفة المشبهة « العظمى » أو الكبرى فلكي يشدد على أن السلطة الممنوحة تبلغ أعلى درجة وأعظمها ، وتعلو فوق سلطة أي حاكم أو قنصل آخر ، مهما بلغ من شأنه .

جاءت الامبراطورية الى الوجود ، واطلقت على العالم الروماني ، نتيجة الإختبار والتجربة وليس نتيجة التجريد والنظر الفلسفيين ؛ استدعى وجودها وطلوعها ، الرغبة الصادقة في قطع الطريق على الحروب الاهلية ، وما تجره في ثناياها ومطاولها : من شرور وويلات وأهوال ، والرغبة ، من جهة أخرى ، في توفير الطمأنينة والأمن في الداخل والخارج ، للعالم الروماني عن طريق الاحتفاظ بجيوش رومانية جرارة ، كما يشهد على ذلك ، إنتصار أوغسطس في أكتيوم ، والحوادث الدامية التي وقعت عام ٦٨ - ٦٩ بعد الميلاد ، وأسفرت عن تغلب فسبسيانوس وتفوقه على خصومه ومنافسيه . فكان الحل الذي تم على هذا الشكل ، جيء به لاقرار وضع قائم وجدت فيه البلاد ، بعد انتهاء هذه الازمات ، ولتكريس ديمومته ، والإبقاء على زعيم وحيد اوحده ، على رأس الجيش الروماني ، مهما نأت معسكراته ، وتباعدت نخباته وحامياته عن العاصمة روما . فبتسليم السلطة اليه وبإلقاء مقاليد الحكم بين يديه ، تأمنت له اسباب السؤدد والسيادة وسلس له الأمر ولان ، بعد ان يكون صاحب هذا الأمر : إما انه لا يستطيع ، وإما انه لا يرغب في تولي قيادة الجيش . اما كل هؤلاء الذين يمارسون جانباً من قيادة الجيش فيوصفون بكونهم : *Præfectus* ، أي والي أو متولى . وكثيراً ما اطلقوا عليهم وصف *Legatus* أي مندوب أو معتمد . اما الاول من هذه الالقاب ، فكان يحتفظ به ، وفقاً لاعتق التقاليد الرومانية ، لمن يتولى ولايته من الحاكم العام ، وليس من الشعب الروماني نفسه مباشرة . واللقب الثاني أبين مدلولاً ، وأوضح معنى اذ يراد به او يقصد منه : التفويض والاعتماد . فالوالي والمعتمد يستمدان سلطتهما من مشيئة الامبراطور واراادته المعبر عنها بقرار او مرسوم . ولذا فهو يسحبها منها ، متى شاء وكيفما شاء . وكلاهما مسؤول امامه عن امور الوظيفة التي يقومان بهامها ، يؤديان له عنها حساباً ، ويأعتران بأمره وحده دون سواه . هنالك استثناء واحد لا غير على هذه القاعدة العامة الاساسية بدر في مطلع العهد الامبراطوري . وهذا الخروج على القاعدة المذكورة يتمثل في منصب اقريقيا المشيخي ، وتحت امره صاحب هذا المنصب فرقة رومانية . وهذا الاستثناء الوحيد الذي جرى إلغائه في عهد كاليغولا ، وانقطع الاخذ به ، واصبح بالتالي ، أمر الفرقة المذكورة ، خاضعاً رأساً للسيد الاول *Princeps* وتابعاً له ، بينما حاكم المقاطعة العسكرية يصبح ، بعد انقطاعه عن الولاية المشيخية القديمة ، حاكم ولاية لوميديا الامبراطورية .

فمن نتائج حصر ملء القيادة العليا بصاحب السلطان الاول (الامبراطور) ، أن يُنسب

اليه كل فضل او خير ، او نفع او كسب ، مادياً كانت او سياسياً ، يؤمنه للامبراطورية ، فوز عسكري ونصر حربي ، يؤتاه قائد من قواد الجيش ، حتى في حال بقاء قيادة (*Ductus*) العمليات الحربية الفعلية في ايدي القواد ؛ اذ من المفروض ان يكون الفضل في هذا النصر للامبراطور نفسه ، لانه هو وحده ، له الحق بتروؤس حفلات زجر الطير واستطلاع الطلع ، واستخراج الفأل ، والقيام بالمراسم الطقسية التي تسبق المعركة وتتهيء لخوضها . فهو الذي يوحى ، مبدئياً ونظرياً ، البت بالأمور ، والجزم في المعضلات ، لانه هو وحده ، مهبط الوحي والالهام الالهي ، وسامل بركة الآلهة وموضع مسرتها ورضاها . فهو وحده ، ابدأ ، ابو النصر ، وسبب كل ظفر . فكل نصر يؤتاه ، وكل ظفر يناله ، فرصة مناسبة « للهتاف » باسم صاحب الأمر « الامبراطور » . وعلاوة على هذا ، فهو وحده صاحب الحق الاول بتروؤس الاحتفالات التقليدية التي تفتتح حفلات الإبتهاج بالنصر ، وهي عادة لم يسجل التاريخ الروماني المديد ، غير عشرة استثناءات لها لا غير ، وقعت كلها في مطلع عهد الامبراطورية ، يقوم فيها احد اعضاء الاسرة المالكة بتروؤس هذه الاحتفالات . اما بعد طيباريوس رأساً ، فالقيادة الذين استحقوا شكر الدولة والوطن ، وكانوا في حظوة من البلاط ، لم يكن ليتروا لهم سوى « الطواف » او الفخر الاصفر ، « بالملايس المظفرة » دون ان يرتفعوا الى درجة الابطال الأول في مثل هذه الحفلات الفخمة . وهذا ما يفسر لنا هذه الارقام التي يباهي اوغسطس بسردها في مذكراته : « امور الحكم » عندما يفخر علانية ، وعلى رؤوس الاشهاد : « وقع علي الاختيار » للطواف مرة ، ولزياح النصر ثلاث مرات ، وأعطيت لقب امبراطور ٢١ مرة ... للانتصارات التي سجلتها في البحر والبر ، انا شخصياً او بواسطة وكلائي ومعتمدي ، وأمر مجلس الشيوخ قيام صلوات شكر عامة للآلهة ، لإقراراً برعايتها ، وعرفاناً بجميلها ٥٥ مرة . وهكذا بلغ عدد الأيام التي عيّد فيها الشعب مبهتجاً ، بناءً على اوامر مجلس الشيوخ ٨٩٠ يوماً .

وهذه الفكرة بعينها يعبرون عنها ، بصورة مادية او رمزية ، في سلسلة متصلة الحلقات من الوقائع والاحداث . فالامبراطور وحده يلبس باليوم (*Paludamentum*) او الرداء الارجواني الخاص بقائد الجيش الاعلى ، إلا انه يجانب لبسه وهو في روما او ايطاليا ، وذلك ، ليس تكريماً منه ، بل خشية من ان يمس مشاعر المواطنين وإحساساتهم . فهو قائد بحرب في الصميم ، وقائد دائم ، اينا وجد ، على عكس القواد في العهد القديم ، اذ كانت صلاحياتهم العسكرية محدودة ، تقتصر فقط على زمان ومكان معينين ، فما ان انتهت مهمتهم حتى يفهم النسيان في المناطق التي تولوا امر القيادة فيها تحت امرة حاكم مدني . ومن حقه ، وهو في روما ، ان تسير في ركابه مفرزة خاصة من الجيش الى جانب الحرس الذي يقوم دوماً بحراسته . فالجيوش تنادي باسمه امبراطوراً ، وتؤدي له القسم المقدس ، قسم الولاء والطاعة ، وبدون موافقة هذه الجيوش وهتافاتها والمناداة باسمه ، فلن يصبح امبراطوراً . فهو الذي يقبل المتطوعة في الجيش ، ويتولى عملية تسريح من يجب تسريحهم من الخدمة العسكرية . وبيت المال الذي

يترتب عليه دفع التعويضات العائدة للمُسرحين، لا يتحرك بدون إشارة منه أو كلمة يقولها هو. فهو الذي يهب الاوسمة الحربية لمستحقها، ويُعين الضباط، ويقر الترقيات لذويها. فإليه وحده، يعود تقرير تشكيل الجيوش، وتعبئتها، وبقاؤها ونشاطها.

وهكذا، فالقائد العام هو السيد غير المنازع للقوات العسكرية. وله الرأي الأخير والكلمة الفصل، في كل امر ومشكلة، مهما كانت طرفها الآخر. فعلى أثر الحوادث الدامية التي سببت مقتل كاليغولا، دون فائدة تذكر، والأزمة التي أنشبت اظافرها في البلاد، عام ٦٨ - ٦٩ للميلاد، لم يبق أحد ليخدع نفسه. فالسر الحقيقي لهذه السلطة، كما يراه المؤرخ الروماني تاسيت *Tacite*، يكن في تفاني الجنود والملاكات التي تلتظم عقدهم، لمن نادوا باسمه امبراطوراً.

وهذه السلطات والصلاحيات العسكرية التي تمت له وتمتع بها، لا يمكن فصلها سلطاته المدنية او عزلها او تجريدها قط عن الصلاحيات والسلطات المدنية الواسعة، حسبما يدل عليه مدلول كلمة *Imperium* القديم الاستعمال. وهذا المعنى نفسه بدا مع ذلك، غير واف بتأدية المراد، واقتضى، بالتالي، تضمينه عدداً من السلطات والصلاحيات الخاصة جرى استنباطها من لا شيء، او جُردت اعتباطاً من بعض الوظائف والمراتب التي لم يمكن ان يستقيم لها كيان او قوام بدونها. وألبست الامبراطور عن طريق العرف وإطلاق العادة، او عن طريق قرارات قانونية سوغت استعمالها، كالصلاحيات التي نصت عليها مواد القانون. الذي كرّس فسبسيانوس امبراطوراً، واولاه ما اولى، من سلطات وصلاحيات، وقد حفظ لنا التاريخ نص هذا القانون مكتوباً على احدى النقائش. وليس في وسعنا ان نستعرض هنا بالتفصيل والتبسيط الوافين هذه السلطات، فلنقف عند بعضها هنيهة.

لما كان الامبراطور من طبقة الاشراف *Patriciens* مولداً، في عهد الاسرة «اليوليوس-كلودية»، او شرعاً بقوة القانون، فيما بعد، فلا يمكنه، والحالة هذه، ان يصبح تريبوناً *Tribun* يتحدر من طبقة الكادحين او الطبقة الشعبية. وقد رؤي، مع ذلك، ان يُعطى هذا اللقب لاوغسطس وخلفائه من بعده، فقتم له ولهم، بذلك، السلطات والصلاحيات اللازمة، شرعاً وعرفاً، لهذه الوظيفة *Tribunicia Potestas* التي تُؤلى صاحبها، جميع الحقوق التي تتمتع بها الـ *Tribuns* في العهد الجمهوري. فالامبراطور على شاكلة التربيون، شخص مقدس، مكرّس، لا يمكن مسّه. وعلى مثالهم، يستطيع ان يأمر بتوقيف أي كان وان يقاخص اياً من اعتدى عليه او هزىء به او سخر منه. وعلى شاكلتهم، له ملء السلطة والحق بأن «يشفع»، أي يعارض كل قرار او مشروع قرار، يتخذ مجلس الشيوخ او الحاكم. وعلى شاكلتهم، يستطيع ان يدعو للاجتماع، اعضاء مجلس الندوة، في الحال، وان يرأس اجتماعات مجالس الهيئات الحكومية، وان يتقدم اليها بما يرى من اقتراحات وتوصيات. فاذا صح النظر، وكانت هذه هي بالذات الامتيازات والصلاحيات التي نعم بها ومارسها تريبون الشعب، فهناك مع ذلك فروق بعيدة

وتباين عميق ، بين ما تم للامبراطور منها وبين هؤلاء التريبون . فالسلطة التريبونية تُعطي لسنة واحدة ولذا اقتضى تجديدها وإقرارها سنة بعد سنة ، ولو بصورة شكلية . فالصلاحيات التي تخولها لصاحبها ، يُعمل بها وتبقى سارية المفعول ، على بعد ١٠٠٠ خطوة من روما . وإلى هذا قال التريبون الآخرون ، الذين يحالسه ويصاحبهم ، ويجلس معهم إلى مقعد واحد ، ليسوا طبعاً ، رصفاء له ولا زملاء . فليس في مكنتهم قط ، ولا لهم اجرة ، ان يمارسوا ضده ، حق الرفض او الاعتراض . ولذا كانت السلطة التريبونية من هذه الدعائم الاساسية التي قامت عليها سلطة الامبراطور وصلاحياته الواسعة

ومع ان الامبراطور ليس من فئة التريبون ، فهو لا يتنزل ليمارس اية وظيفة من الوظائف الخاصة بمحكمة البلدية . ومع ذلك فقد ألقي الامبراطور قبضته الشديدة على شرطة المدينة وعهد بها إلى موظف ينعم برعايته ، يستطيع هو ، متى شاء ، عزله وطرده . كذلك عهد إلى احد خاصته ، بمهمة تأمين وسائل الاعاشة لروما وسكانها ، وهي وظيفة أُلقيت مقاليدها بين يديه . وحرص على ان يحتفظ بها ويؤمن مهامها بعد ان تم له من الامر والسيطرة المطلقة على مصر ، اخصب اهراء روما واغناها على الاطلاق . فنهض بأعباء مهمته هذه ، على احسن وجه ، بعد ان استتب الامن في البلاد وتقلص خطر القراصنة في البحر .

وحرص الامبراطور على ألا يُهمل مبدئياً ، او يسخر ، او يُغفل او ينتقص من صلاحيات اية وظيفة من الوظائف العليا المعترف له بها شرعاً وقانوناً . وهم جداً ان يقوم بها وفقاً للتقاليد المرعية ، اي بالاستعانة بأحد الزملاء له في هذه الوظيفة . وكان باستطاعته ان يردده ما كان يردده اوغسطس حين يقول : «لم يكن لي من الصلاحيات أكثر مما لزملائي في الوظيفة الفلانية» . ولكن ما عسى ان يستطيعه زميل له ، وللامبراطور مثل هذه الصلاحيات ، ومثل هذه القوة والسطوة ؟

وتطل علينا ، من وقت لآخر ، في القرن الاول ، وظيفة *Censure* وصاحب هذه الوظيفة (*Censor*) هو القيم على النظام الاجتماعي في المدينة . وهي وظيفة كانت دوماً من وظائف الرجل «الاول» في الدولة ، إلا مرة واحدة جاءت ضد اوغسطس نفسه . وقد اتفق مرة ان قرر الامبراطور دوميتيانوس الاحتفاظ بهذه الوظيفة ١٨ شهراً أي أطول من المدة المينة لها قانوناً ، فأصدر قانوناً أصبح معه *Censor Perpetuus* ، أي «سنسور» إلى الابد . ولم تلبث هذه الوظيفة ان تنوسي امرها ، فزالت إلى الابد . وقد استطاع الامبراطور ، بها او بدونها ، ان يراقبوا بعين يقظة ، النظام الاجتماعي والتسلسل الطبقي عن كثب ، فرفعوا إلى طبقة الفرسان *Chevalier* او إلى مرتبة الشيوخ ، من شأوا من الناس ، دوناً رقيب او حسيب وأنعموا بمرتبة *Patriciat* على من شأوا من افراد الامر الرومانية .

اما وظيفة القنصلية ، فهم يتقلدونها كلما رغبوا فيها ، ومالوا اليها . ولذا نرى الامبراطورة

يعينون لها ، عدة مرات ، طيلة حكمهم ، ويقبضون عليها كلما تم لهم الامر . فالبعض منهم تولاهما بصورة آلية في غرة كانون الثاني او (يناير) . فالقنصليات التي هي من هذا النوع ، ملؤها الفخار ، لان السنة تُعرف اذ ذاك باسم القنصل . فمن اصل عشر سنوات ، فات فسبسيانوس منها اللقب مرتين ، وابنه تيطس ثلاث مرات . وعلى كل ، فلا نعرف احداً تولى هذا المنصب في حياته ، اكثر مما تولاه الامبراطور اوغسطس .

ومها يكن من شأن هذه الوظائف والرتب ، وضعية كانت ام رفيعة ، ومن النفوذ الذي توليه صاحبها ، فسيان لدى الامبراطور اسقاطها واهمالها بالكلية او التمرس بصلاحياتها بصورة رسمية قانونية . فيفضل النصوص القانونية ، وبماله من قوة النفوذ ، فالامبراطور وحده يعين اصحاب هذه المراتب ، اما رأساً او يوحي بتعيينهم او يسمح لهم بتقديم ترشيحهم لها . فليس من امل قط ان تؤول احداها الى عدو له ، او شخص تحوم حوله الشكوك والظنون . وليس لاي من هذه الوظائف ، اي مدلول سياسي حقيقي ، فهي تتيح لحاملها او لصاحبها بالاكثر مناسبات الظهور امام الحاكم في الحفلات العامة وتلفت اليه النظر ، كما تتيح له ، في افضل الحالات واحسنها ، ان يكون موضوع تكريم ، مكافأة له على خدمة اتاها . وعلاوة على ذلك ، له الحق الكامل بانشاء وظائف شرفية ، تمكنه من تعديل سلم المراتب المعمول بها في ترفيعهم ، ويُقحمهم في طبقة حاملي عضوية مجلس الشيوخ وفي المرتبة التي يحاول تعيينهم فيها .

هذه الامثلة ترينا ولا شك ، مدى الصلاحيات المدنية المضافة الى صلاحياته او السلطات العسكرية الأساسية التي يتمتع بها . في وسعنا ان نمضي قدماً في مثل هذا العرض ، ونجري مثل هذا التحليل على مجالات اخرى من مجالات الادارة العامة في الامبراطورية ، ولا سيما في حقل السلطة التشريعية او السلطة القضائية ، فننتهي معها الى النتائج ذاتها . فالسلطة التي تتمتع بها الامبراطور دوماً ، كانت سلطة مطلقة لا حد لها . فبعد ان كانت هذه السلطة ، في بادئ الامر ، ضمنية ، مستترة ، اذ بها تبرز وتتفتح بشكل اوضح ، في القرن الثاني . فعندما يكتب الفقيه الروماني اولبيانوس ، في مطلع القرن الثالث : « ان الشعب يولي الامبراطور جماع السلطة Imperium التي له ، كما يولي كل سلطان Auctoritas » فهو انما يعترف ويؤكد النتائج التي آل اليها التطور الذي خضع له الحكم في العهد السابق .

منذ البدء ، نرى اوغسطس يضيف شيئاً جديداً على جماع السلطات التي السطة Auctoritas تمت له واستقرت في قبضة يده . فقد رأينا عندما قرأنا العبارة التي وردت في : « امور الحكم » ، كيف انه كان يدعي بأنه لم ينعم من السلطة ما جعله يتقدم به على رُصفائه ، في أي من « الوظائف والمناصب التي صارت اليه » . وقد قال بعكس ذلك تماماً في الفقرة السابقة لها ، كما يعترف ، هو نفسه ، عندما يقول : « فقد تَوَقَّفت في السلطة على الجميع ، أي على جميع الموظفين . فليس في التصريحين المذكورين أي تناقض كما يبدو لأول وهلة ، لأن كلا منها يُنَاطَر ناحية خاصة .

فالأصطلاح الإداري *Auctoritas* له مدلول فقهي ودستوري ، اذ ينظر الى صلاحيات الوظائف واختصاصات كل منها والتدابير الصادرة عنها . غير ان لهذا المصطلح اللاتيني من غموض المعنى وقلق المدلول ، ما لا نرى معه أي نص في القانوني الروماني يوضحه او يزيل منه ما يحيف به من إشكال: فهو يوحي معنى سلطة ادبية مشوبة بسلطة دينية . وهذه السلطة يستمدّها اوغسطس من مجموع ما تم له من صلاحيات واختصاصات ، نالها شرعاً وقانوناً ، لا ندري انها توفرت لأحد غيره من قبل ، عرف كيف ينتسبها ويصيرها اليه بعد ان تظاهر ، في بدء الامر ، بالإعراض عنها والزهد فيها . وهذه السلطة أتنه صاغرة بعد ان فاضت خواطر الناس وأحاديثهم بالخدمات الجللى والمآتي العظام التي أداها للبلاد ، كما أتنه من إعجاب الشعب وتعلقه به وعرفانه لكبير جميله وتقديره السامي له . كل هذا جعل منه الرجل الاول - الامير (*Le Princeps*) ليس بين اعضاء مجلس الندوة فحسب ، بل ايضاً بين جميع المواطنين . وهكذا نرى اوغسطس يقطع بصورة جازمة ، ويفصل بلا لبس ولا غموض ، ويحدد المضامين والمدلولات التي تقرر تحت كلمة امبراطور ، وهي مفاهيم تتجاوز كثيراً ، كما سنتحقق ، فيما بعد ، الإطار الفقهي للكلمة . ومع ان خلفاءه من الامبراطرة لم يحظوا بشيء ، من هذا الماضي الثري الذي تم له ، فهم يستمسكون بهذه الكلمة ويشدون عليها بالنواجذ .

وهذا الإيهام الشامل ، والغموض يغلف كذلك ويلف « قانون الجلالة » صاحب الجلالة الذي جرى تطبيقه ، منذ عهد اوغسطس ، لصالح الامبراطور ، كما نرى في حمى القانون بعض الامبراطرة بعده ، ولا سيما طيباريوس ، يحرصون على تطبيقه بمخافته . فنحن امام قانون مسنون قائم . ولذا لا بد لموضوع هذا القانون ، وهو افراغ « الشعب الروماني » في شخص الامبراطور ، وتجسده فيه ، ان يتم ، ولو شكلياً ، بطريقة شرعية قانونية . فأمر تفويض السلطة الذي يجعل من الشخص الاول الممثل الحقيقي للشعب الروماني ، هو كنه هذه السلطة وجوهرها وصلبها . ومن ثم ، فصلاحيات التريبون التي حملها وتمتع بها ، كان لها هي الاخرى ولا شك ، اثرها العميق في جوام هذه السلطة ، اذ تجعل من الشخص الاول ، الممثل المكروس ، المقدس ، للطبقة الكادحة *Plèbe* والوريث الادبي لوظيفة استخدمت في الماضي ما لها من صلاحيات واسعة ، للوقوف في وجه اعداء هذه الطبقة الكادحة المتمصصة في الشعب الروماني .

وهذا القانون الذي اورثته الجمهورية كان يعاقب بشدة وبلا رحمة ، كل من تجرأ على النيل من « جلالة » الشعب الروماني . وهذا المصطلح له من الطواعية والمرونة ما يجعل منه اداة رهيبة في يد الامبراطرة الذين تنتابهم وساوس الظنون والشكوك . فكل مخالفة او عبث لقسم « اداء الامبراطور » والاخلال بواجب الاحترام ليس نحو شخصه فحسب ، بل ايضاً نحو تمثاله ، وابداء أي رأي معارض ينتقص من ارادة الامبراطور ومشيتته ، من قريب او بعيد ، كل ذلك اسباب كافية للملاحقة المتجنين قضائياً ، والحكم عليهم بالموت في اكثر الأحيان . ولذا تكاثر عدد السعاة والوشاة والعيون ، وراحوا يأخذون في غيرة آكلة ، الناس في الظنة ، ويرسلونهم امام

الحاكم ، طمعاً في حظوة صاحب السلطان ، او في المكافآت التي تعود عليهم بحسب القانون ، من مصادرة ثروات المتهمين .

وهكذا ، فالقانون الذي كان يراد به الحفاظ على « ذات الجلالة » والتسييج حوله ، استحال ، في بعض العهود ، سيفاً مصلتاً فوق الرؤوس ، ينزل الرعب والهلع في الطبقة المشيخية ، حيث يقوم المعارضون ويعتصمون ، في القرن الاول ، اذ كان معظم من راحوا ضحية هذا القانون من اعضاء هذه الطبقة . ولما كان اعضاء الندوة يقومون هم انفسهم بالمحاكمات والنظر في قضايا ذات الجلالة ، فكم رأينا اعضاء هذه الهيئة ينحدرون الى ادنى دركات الجبن والخنوع في تنفيذ رغائب الامبراطور وتصفيه من تحوم حولهم الشكوك ، الأمر الذي غذى الحقد والبغضاء في قلوب الناس ، ضد هذه الطبقة ، كما يشهد على ذلك ، أدب ذلك العصر . فاذا كان من المتعذر علينا ان نعرف اليوم الحقيقة كاملة حول اكثر من قضية من هذه القضايا ضد ذات الجلالة ، فالقانون المذكور كان ، ولا راء في ذلك ، خير عدة واداة ، وخير مسعف لتأييد سيادة الامبراطور وسلطاته .

٢ - الرجل الذي أعدته العناية الالهية

ولكن هذه الامبراطورية الملكية لا تقنع بجمع السلطة في قبضتها ، ولا يكفيتها ان يسير القانون صاغراً في خدمتها : فهي تدرك اكثر من سواها ، ما في هذا وذاك ، من وهن وضعف لما يتعرضان له من قلب ونحو وتغير . فاذا كانت فيها ما يرضي او يقنع ملكاً لا يقيم وزناً لنوازع الروح ، فالراقعية الجامدة ، تبدو جافة في نظر مواطنين تتطلع نفوسهم الى المثل الروحية ، بعد ان صقلتها الحضارة الهلينية . ولذا راحوا يحيطون الملكية بهالة من الرمزية الروحانية ، من الخير والمفيد لنا معاً أن نتعرف الى قسائنها البارزة . كذلك من اللائق ان نشير هنا بوضوح الى ما كان لهذه الهالة من وقع عميق وتأثير عملي . وبالطبع يجب الا يخامرنا الشك قط انها تطورت ، ودخل على الفكرة الاساسية ، مع الامبراطرة الذين تعاقبوا على الحكم ، والأجيال التي عاصرتهم ، تغييرات اقتضتها موجبات الزمان والمكان . فكل نص قانوني ، وكل رمز من هذه الرموز التي احاقت بالامبراطور ، يؤلف حادثاً متميزاً عن غيره ، يتعذر على المؤرخ تقويمه وفقاً للمقاييس العلمية المعمول بها .

الهالة الروحية
التي تجلج الامبراطورية ؛
تطورها ومنابعها

كان اوغسطس الرائد الاول في هذا المجال ، وأول من نسج على المنوال . فكل شيء حوله يبسط الأمور . من ذلك مثلاً ، الجليل الذي يرعاه له الجميع من دواني الامبراطورية الى اقاصيها ، عندما اعاد اليهم السلام والطمأنينة بعد ان اکتوا بلظى حروب اهلية ضروس لا تبقي ولا تذر ، ناؤوا بكلكلها وتضرسوا بويلاتها . وهذه الوحدة العميقة الجذور التي حققها فلست الشعث ، وجبرت العظم المبيض ، وهذه الامبراطورية التي شيدتها فبرهنت ولاياتها الشرقية ، خلال هذه

الحروب ، عما تجيش به من حيوية عارمة ، مادية وأدبية على السواء . فالتجربة التي قام بها تبعاء ، قيصر ثم انطونيوس بعده ، اوضحت له الاخطار التي تكن وراء نقل فلسفات الشرق ونظرياته الى روما ، نقلاً حرفياً مادياً . من المستحيل الا نظهر اعجابنا هنا ، كما اظهرناه من قبل امام مرأى البناء السياسي المشمخر الذي شيده ، بهذه الروية والفتنة والتحفظ يديها في اقتباس بعض هذه المستوردات الأجنبية الصنع ، معرضاً عما جاء في غير اوانه ، مسقطاً منها ما لا يصلح للاستعمال في روما . كل هذه الحيلة حملت الناس على الشك في إخلاصه . فقد برهن عن كفاءة ، ولربما عن تحصيل ايضاً ، وبكل تأكيد ، عن شعور حاد بالممكن الحدوث او الوقوع . ولكن ، مع هذا علينا الانسقط من حسابنا ما كان عليه من روح تقوية ، صحيحة ، حملته احياناً على الاستسلام للخرافات والالهام ، واثارت فيه التشكك كغيره من الناس .

ومهما يكن ، فقد ترك لنا ، لدى وفاته ، تراثاً ادبياً له من وفرة الغنى ما نعجز معه عن الإحاطة به . وتم له من الألقاب والرتب ما لم يتوفر مثله لاي من خلفائه . والقسم الاوفر من هذه التركة التي خلفها بعده ، لم يلبث ان ردها الناس الى فضل الوظيفة التي تمت له ، بمزل عن الرجل . غير ان تطور هذه الهالة الرومانية التي جلبت الامبراطور ، تم وئيداً ، وبتمهل ، بخلاف التطور السريع الذي رافق السلطة السياسية . وقد راح بعض الامبراطرة : امثال كاليغولا ودوميتيانوس وكومود يستعجلونها ، بينما سار فيها البعض الآخر الهويناء ، ان لم نقل القهقري . وبجمل القول ، ففي الحين الذي تبلغ فيه الاسرة الانطونية أوجها ، في القرن الثاني ، وتزداد فيه سلطة الامبراطور قوة ، وفعلية ، لم نلاحظ قط ان هذه الهالة اتسعت وتضخمت . عما كانت عليه في عهد اوغسطس . فعلياً ان تنتظر الحقبة التالية وبروز فعل المؤثرات الشرقية لنرى تغييراً ملحوظاً يطرأ على هذا الوضع .

ففي عهد اوغسطس نفسه ، كان تأثير العامل الهليني واقعاً متحيزاً لا داع لوجه الغرابة فيه . فمن بين البلدان المتمدينة الاكثر اتصالاً بروما ، هذا الشرق الذي عرف ضرباً من الملكية المنبثقة من انتفاضات عسكرية اخذت بتلايبيه منذ فتوحات الاسكندر ، وخضعت لعوامل التطور والتكامل ، حتى بلغت تمامها ، اقله من الوجهة النظرية . وباستطاعة هذا الشرق وحده ان يقدم سوابق يمكن تطبيقها والنسج على منوالها بصورة فعلية ، بحيث ان كل ما أنتجته هذه السوابق من انجازات فنية ، وآثار فكرية ، ونظريات فلسفية ، عاد عليها بتأثير عظيم ، سواء أ أسقطت هذه الممالك تحت هجمات الجيوش الرومانية المتتالية ، ام انها راحت فريسة الفوضى ، فتداعت للخراب ، . زالت من الوجود ، دون ان ينتقص ذلك من سناء البنيان الفكري الذي شيده . ومع ذلك ، فقد كان على النظام الملكي الذي اطل من جديد على روما ان يحسب حساباً لتقاليد روما ، هذه التقاليد التي في السير عليها والاخذ بها ، فخر له وحافز للمباهاة . فمن الطبيعي ، والحالة هذه ، ألا يهمل العناصر المستمدة من اعماق التقاليد الرومانية التي منها استقى سبلاً من قبل ، وعنها اخذ قيصر من بعد ، ومنها اغترف اوغسطس وعنها صدر .

وكثيراً ما ظهر في آخر الامر، ان هذه العناصر المتباينة المنشأ والاصل، بين شرقي وبين روماني قومي محض ، التي كونت هذه الهالة ، قام بينها أكثر من شبه وبجائسة ساعدت على انصهارها معاً وذوبانها بعضاً ببعض في إلفة وانسجام .

وهكذا نرى انفسنا امام فلسفة متنوعة العناصر يحاول المؤرخون اليوم جاهدين، منذ أكثر من ثلاثين سنة ، تعيين وتحديد منشأ كل من هذه العناصر المقومة ، وتحديد قدر كل واحد منها ، وكيفية تفاعلها بعضاً ببعض ، وأهمية الدور الذي لعبه كل واحد منها . وامام هذا الضجيج المتصاعد من هذا الجدل العلمي المحتدم ، نرى، مرة اخرى، ان من المستحيل ألا نقصر إلا على بعض امثلة لا غير .

بين هذه العناصر ، عنصر روماني الاصل ، يعبر عن تقليد مكترس ، يرى في الامبراطور الحبر : الحبر الاعظم او الكاهن الاعظم . فقد حرص اوغسطس الحرس كله ، وهم كثيراً ألا يُهمَل او ينتقص قط ، من قيمة هذه الوظيفة التي تلازمه مدى الحياة . فلم ينتزع عتوة من صنوه ومنافسه لبيدس ، بل لبث طويلاً ينتظر وفاته عام ١٢ ق.م ، ليطالب به وينتسبه لنفسه . وحرص خلفاء اوغسطس من بعده ، على التمتع بهذه الرتبة والوظيفة عند اعتلائهم أريكة العرش . فالخبرية العظمى تولي حاملها وصاحبها سلطات دينية غاية في الأهمية . وقد أعطى اوغسطس المثل في ممارسته لمهام هذه الوظيفة بدقة واهتمام زائدين ، وهو ممثل حرص خلفائه من بعده ، على احتذائه واقتفاء اثره .

والى هذا ، فالامبراطور عضو بارز في مجمع كبار الكهنة والاحبار ، بحيث يراقب عن كثب نشاطهم ويهيمن على انتقائهم واصطفائهم وتعيينهم في مراكزهم . ومن بين هذه الرتب الكهنوتية ، رتبة يباهي بالانتساب اليها والنهوض بأعبائها ، كما يستدل جيداً من الانواط والميداليات التي تحمل صورته . وهذه الرتبة هي رتبة العراف او العائف ، وذلك بالنظر للدور الذي يلعبه هؤلاء الكهان في الكشف عن الفأل واستطلاع الطالع . وقد رمزوا الى هذه الرتبة بالعصا المعقوفة المعروفة عندهم باسم *Lituo* التي اصبحت ، فيما بعد ، من الشارات المميزة للامبراطورية .

وهكذا يبرز الامبراطور على رأس الحياة الدينية ويطل رئيساً لجميع الاحبار ، ويصبح بالتالي ، الوسيط بين الدولة والآلهة . فالواجبات والحقوق التي تخوله اياها رتبة الكهنوت ، تزيد كثيراً من شأن السلطات والصلاحيات التي يتولاها رأس الادارة و«الاول» في الدولة . فهو يرأس شخصياً أهم الاحتفالات الدينية ويضفي حضوره على أبسط الاعمال وأتقها مهابة الطقوس الدينية ومراسمها . فهو المسؤول الاول عن بناء المعابد والهيكل ، وعن صيانتها وتأثيثها وحفظها . وموجز القول ، فالاسم الذي يحمل « اوغسطس » ، مشتق من أقدم المراسم الدينية واعرقها اصطلاحاً عندهم ، هي رتبة العرافة *Augure* ، وهي رتبة تضيي عليه شيئاً من الجلال وتجلبيه بهالة من التقوى والخشوع بما لهذه الكلمة في مفهومها الحديث من قوة المعنى ، بينما الكلمة اللاتينية *Pietas* لها

مدلول أعم واوسع . وبهذه الصفة يستمطر على الشعب الروماني عطف الآلهة ، ويستمد منها الرعاية والهداية . فالتعدي ، والحالة هذه ، على سلطته أو مس شخصه ، هو التجني بالذات على الدين وعلى روح الانضباط الذي يمثله في المجتمع .

وهذه الآلهة التي تحرس الامبراطور وترعاه في حله وترحاله ، تظهر هالة النصر الامبراطوري عطفها وحديها عليه بما يؤثاه ، على يدها ، من نصر مبین وتوفيق عظيم ، في جميع اعماله الحربية . فكل المظاهر الحربية التي تلازمه كقائد أعلى للجيش ، يجب ان تحمل عميقاً ، طابع الهالة الدينية . فالغازيوس في بيزنطية ، مثله مثل الامبراطور في روما ، مدين بما يصيب من فوز مبین في ساحات الوغى ومن نصر في الحروب ، لفعل الآلهة وهداياها . وهكذا تلتقي هنا ، مرة اخرى الايديولوجيا الملكية التي انطلقت من فتح الاسكندر ، بالنظريات الرومانية القديمة ، فيتازجان وينصهران معاً . وهكذا نرى الايديولوجيا تؤيد الى حد بعيد ، هذه التقاليد وتقويتها ، وإلا ، تعذر علينا ان ندرك كيف ان ، على شاكلة كلمة *Basileus* ، تصبح كلمة *Imperator* ، لدى قيصر أولاً ، ومن ثم لدى اوغسطس ثم بسرعة ، لجميع خلفائه ، اللقب الرسمي الذي يرد قبل كل الالقاب والرتب والكنى التي يحملها الامبراطور . وعلى هذا تصبح كلمة امبراطور مرادفاً لكلمة المظفر أو المنتصر ، والمؤهل من قبل الآلهة والمصطفى ، بحيث راحوا يضيفون صفة الالهية ، على نصر اوغسطس ، فيقولون : *Victoria Augusti* ، كما راحوا يرفعون هذا الرسم : النصر المجنح ، على المباني الرسمية وأثبتوه على العملة والنقد . وفي عهد الاسرة «اليوليوس كلودية» ، كل شيء كان يدل على ان هذه الإلهة هي بالفعل ، الإلهة ذاتها التي رعت مؤسس الاسرة ذاته ، أي اوغسطس المظفر ، ومن ثم راح هذا المؤله ينتقل من امبراطور آخر ، مخلداً رسم اوغسطس الحي الدائم .

ثم تطور الامر بحيث راحوا يُفردون ، أكثر فأكثر ، هذه الإلهة . فاستنبطوا وتضرعوا وشكروا بارة *Victoria parthica* ، وطورا *Britannica* ، وحيناً *Germanica* أي الإلهة التي بفضلها ، تمت الغلبة على الفارثيين والبريطانيين والجرمانيين . ثم تطل علينا فكرة جديدة تُعمل بها ، بكل تحفظ وحيلة ، منذ العهد الجمهوري ، قامت بتسمية ابن الملك أو ولي عهده ، باسم العدو المغلوب على امره . واول حادثة نشاهدها من هذا النوع تعود الى عهد اوغسطس نفسه ، اذ لقب ربيبه دروسوس بلقب جرمانيكوس . ولم يمض كبير وقت حتى تركزت العادة في الامبراطور نفسه . وتقادياً للادمان الناجم عن العادة المتكررة ، تتكاثر الالقاب والكنى وتضاف اليها نعوت وأوصاف تزيدها قوة ومعنى . فالامبراطور مارك اوريل لا يلبث ان يلقب ب : صاحب الارمن او صاحب الفارثيين العظيم ، بينما الامبراطور تريبونوس لم يلقب إلا *Parthicus* لا غير ، كما عُرف ايضاً ب : صاحب الماديين ، وصاحب الجرمان ، وصاحب السرماتيين . وهذه الالقاب ، مثلها مثل قطع النقد الرومانية الحاملة صورة الامبراطور متوجاً بالنصر أو الحاملة لرسوم أسرى حرب سجّد ، اشارة للبلدان التي اخضعتها الجيوش الرومانية ، انما يراد منها أكثر من مجد باطل لا طائل تحته . فهي ترمز الى

الشراكة التي لا انفصام ، لها بفضل القوة الإلهية ، هذه الشراكة المؤلفة من الامبراطور ، ومن الظفر عربون السلام على الارض .

كثيراً ما تغني الشعراء « بفضائل » ملوك الإغريق وبمعظمهم ، ولذا للفضائل الامبراطورية راحوا يضيفون عليهم القاباً وكثي منها : المنقذ او المخلص . ولم تلبث هذه الالقاب ان انتقلت بعد ان تحولت قليلاً ، الى شخص الامبراطور . فقيام صاحب الأمر في روما هو عربون سعادتها ، ومنتهى الإسعاد ، كما يقول هوراتيوس في خطبة له القاها مرحباً بعودة اوغسطس بعد غياب طال أمده : « فعندما تطل بطلعتك البهية على الشعب ، تستحيل ايامه بهجة ، بسامة ، كايام الربيع الضاحك والشمس في رأد الضحى » . قمع اوغسطس نرى رتاج الصرح الامبراطوري مزيناً بالغار يعلوه اكليل من خشب السنديان ، هو « الاكليل الشعبي » الذي يقدمه المواطنون لمنقذهم . فالامبراطور ، هو بالفعل ، منقذ الدولة ، كما هو منقذ الرومان ، هو *Conservator* او *Servator* ، بل هو اكثر من ذلك ، هو مخلص الجنس البشري بأسره . فالحلاص او الغداء الذي بذله ، يبرر الى حد بعيد ، لقبه : باني الوطن ، هذا اللقب الذي اصبح من ألصق القاب الامبراطور . ففيه هو اجتماع مجلس الندوة الروماني في روما ، كان يرى ، على مقربة من مذبح إله النصر ، ترس مذهب نقش تحته ما يشير الى انه مقدمة من مجلس الشيوخ والشعب لاوغسطس اعترافاً بما يتحلى به من فضل ، وحلم ، ومن عدل ، ومن تقى . وكان يقطع النقد الروماني ، في عهد اوغسطس ، سبعة لا تنتهي ، تقص على الناس في تداولهم لها ، هذه الفضائل الاساسية التي تحلى بها ، كما انها تحاول ان تحيى ، بما تحمل من شارات ورموز ، مناقب الامبراطور ، ولا سيما الشعار الآخر الذي تحمله ويرمز للعناية الالهية تنويعاً بالخيالات التي اسبغها ، والمنافع التي افرغها على الشعب الروماني والامبراطورية الرومانية : رمز السلام على الأرض ، والإسعاد لبني البشر .

وهذه الايديولوجيا الامبراطورية ، وما فيها من مفهوم ومدلول ، تفيض بالطبع ، ببعض الالفاظ والتعابير الرومانية الاصل والطابع . فاذا ما شاعت وذاعت بالسرعة التي نرى ، فالفضل في ذلك ، للسوابق الهلينية التي اعتمدتها . فليس من المستغرب قط والحالة هذه ، ان نشهد عبادة الامبراطور تنطق بفكرة الرسالة او الدعوة الالهية التي تمت على يد شخص هو فوق البشر ، فتقبلور معالمها في ما رأينا من هذه المظاهر على اختلاف نواحيها .

متشابهون وليسوا انداداً اكفاء . أوتي اوغسطس من الفطنة ما صانه من عبادة الامبراطور الانزلاق الى مبالغات قيصر وتطرفه في روما ، ولا سيما من سفاهات انطونيوس وخطئه في الاسكندرية . من يستطيع غيره ، باستثناء من اصابوا بس في عقولهم او دخل على نفوسهم ، ان يطلب لنفسه المجد والتكريم الذي ليس فيه ما يؤهله له ؟ فباستثناء بعض حالات شاذة ، غاية في الندورة ، ليس من يندفع في شهوة الشهرة بحيث يطلب لنفسه التأليه

الكامل او المطلق ويُعترف له بذلك رسمياً . يكفي الانسان ويرضيه ان يقترب او يدنو من الالهية ، او يبلغ منها نصف المرتبة او درجة وسطى فيها . وهذا التحفظ يبدو واضحاً جلياً في بادئ الأمر ، من خلال الحرية المتروكة للعبادات المحلية او الفردية ، والتي يُفترض فيها ان تأتي عفوية تلقائية ، او عن طريق براعة الطلب واستدراج العرض ، بضغط من الهيئات الادارية الحاكمة . وكلها حالات تبلور عملياً عن صور واشكال متباينة . فالتعميم لا يأتي الا بعد حين ، وبصورة تدريجية ، وعلى مراحل . وعهد فسبسيانوس الذي اطل على البلاد عام ٦٨/٦٩ بمثابة مولد ثان او جديد للامبراطورية ، يعتبر مرحلة حاسمة من مراحل التطور الذي مرت به هذه الفكرة ، مع بقائها غير مكتملة ولا مستجمعة لكل شرائطها . ولكن خلافاً للعرف المعمول به لدى بعض الممالك الهلينية ، فالامبراطور هو موضوع عبادة ، وهو في قيد الحياة ، تقدمها له هيئة عامة : كاللدولة او الولاية او المدينة ، بصورة عادية وبصفته فرداً .

فالدولة ترفع له تكريماً إلهياً وتجعل من بعض ذكراياته الخاصة اعياداً وطنية عمومية ، فتطلق مثلاً على الشهر الذي ولد فيه قيصر باسم « يوليو » ، كما تطلق على الشهر الذي نال فيه اوغسطس القنصلية لأول مرة ، وفيه سجل اكبر انتصاراته الحربية : اسم اوغسطس . ودرج الناس على استعمال هذه المسميات المصطلحة حتى يومنا هذا . والخلف او القسم باسم الامبراطور ، هو شيء مقبول جائز ، كما ان رسومه وصوره هي من المقدسات . وراحت الحكومة تشرك عبادة جن اوغسطس او نبوغه بالتكريم الذي كانت احياء روما ، تقدمه للارواح المشرفة على مفارق الطرق او تقاطع الطرق ، فتصبح في الاصطلاح العام : الآلهة الاوغسطية . فالمعجم الهليني غني بمثل هذه المسميات . فاستمدوا منه اسماء الاشهر ، والقسم مثلاً . هنالك اكثر من شبه بين الجن *Genie* ، وبين تيخه *Tyché* . فالقدرة على الابداع لا تنضب .

ويتمتع الافراد ، في هذا المجال بحرية اكبر وأوسع . هنالك إهداءات وتقادم مؤثرة للغاية تشرك رأساً او مداورة ، اسم الامبراطور او احد افراد الامرة المالكة ، بشق اسماء الآلهة ، فنشأ في معظم المدن جمعيات تحتفل بهذه العبادة وتقيم لها المراسم والاعياد ، وتقدم الذبائح والقرايين على شرفها . وتنتظر السلطات الادارية الى هذه المواسم التذكارية بعين الرضى . وهي تتدخل لتنظمها . وبعد ان كانت هذه الهيئات تحمل في الشرق اسماء شتى ، نراها على عكس ذلك ، في الغرب اللاتيني ، اكثر انسجاماً وانضباطاً ؛ من هذه الهيئات مثلاً هيئة الرجال الستة ، التي ما ان تلتهي مدتها القانونية حتى تتحول الى جمعية او شركة حقيقية .

ففي هذه الهيئات التي نوهنا بها ، ومن بينها *Seviri* ، يهمن اسم واحد هو اسم اوغسطس الذي يتغير مدلوله ومفهومه مع تعاقب الايام والازمان . « فأوغسطس » انما يشير في اول الامر ، الى مؤسس لامبراطورية وموطد اركانها : فطالما هو في قيد الحياة ، فاللفظ إنما يشير الى فرد معين ، واليه تتجه ، بالطبع ، كل عبارات التكريم والتبجيل والعبادة . ثم يصبح الاسم لقباً او كنية ، يحرص على حمله كل خلفائه من بعده . واذ ذاك تفقد مظاهر التكريم والتقبليس طابعها

الفردى او الشخصى ، وتتجه بالأكثر ، الى الرتبة والوظيفة أكثر منها الى حامل اللقب .

وهذا التحول نلاحظه كذلك ، يطرأ على عبادة « روما واوغسطس » التي انتشرت كثيراً خارج ايطاليا ، وهي عبادة لها طابع رسمى . تضطلع بها جمعيات عامة وتنطبق هذه العبادة بطابع الامبراطورية نفسها من الوجهتين المحلية (البلدية) والاقليمية . فنجد العهد الجمهورى ، استبدلت مدن الشرق ومقاطعاته عبادة ملوكها *Basileus* بعبادة روما . غير ان اوغسطس يرفض ان تقام عبادة خاصة به ، إلا انه يسلم بإنشاء عبادة خاصة : « بروما واوغسطس » تخصص لها الاعياد والمراسم ، إلا ان مدلولها الفردي الخاص ما لبث ان ضعف ، وفقد من شأنه في هذه الازدواجية واختفى تماماً مع خلفائه . وهذه العبادة تأخذ بالانتشار والاتساع بفضل مؤازرة السلطات الادارية لها ، فيجري الاحتفال بها على نطاق البلديات المحلية ، ليصبح الاحتفال ، فيما بعد ، في إطار يشترك فيه عدة بلديات . وهكذا نرى انفسنا امام احتفالات تقوم في الولاية او تشترك بها مجموعة من الولايات ، وهي احتفالات تقام بانتظام ، وعلى قدر كبير من الابهة والفخامة فتتفق المدن عليها وعلى المباني الخاصة المعدة لها ، وعلى الالعب والملاهي التي ترافقها ، وعلى الموظفين المكلفين بالسهر عليها وعلى اعدادها ، مبالغ طائلة كثيراً ما استنفدت موارزتها . من هذه الاعباء ما عرف في الغرب باسم *Flumines* او *Sacerdotes* ، بينما قام منها في الشرق مواسم اتخذت مسمياتها من اسم المدينة متبوعاً بكلمة رئيس . فانتشار هذه الاعياد ، ومدة قيامها ، والاحتفال بها ، والآلهة التي تكرر فيها ، انما يشير بوضوح الى اشتراك النخبة الاجتماعية في هذه الاعياد الموسمية التي تقام في الولاية .

اما في روما ، فالدولة نفسها تنشئ عبادة خاصة هي عبادة الامبراطور الراحل ، وعملية التأليه هذه ، يقررها مجلس الشيوخ ، فيرفع الامبراطور الى مصاف الآلهة . ويكفي لذلك ان يتقدم شاهد للشهادة من الهيئة المذكورة ويؤكد ، بيمين مغلظة انه شاهد ، اثناء الاحتفال بجنازة الامبراطور وحرق جثثانه ، روحه تطير على اجنحة نسر . وهكذا يحتفظ مجلس الشيوخ بطريقة يرفض معها تكريم امبراطرة ، سيئي السيرة والسريرة . ورفضه هذا بمثابة حكم قاطع عليهم . إلا ان الطريقة لا تخلو قط من الخطر ، ولا تسلم دوماً من سوء المغبة ، ولذا تحفظ المجلس بالمجازفة فيها إلا في الحالات الوراثية التي لا يتنطح فيها الخلف للدفاع عن سمعة السلف والحفاظ على ذكراه . وعلى كل حال ، فالاصطلاح الذي سار عليه اوغسطس في ما لقيصر ، واتبعه طيباريوس في ما لاوغسطس ، وكرسه العرف والاستعمال ، هو ان الامبراطور الراحل لا ينادى به إلهاً بل إلهي . فهو لا يؤله ، انما يكرم كآلهة . والبون شاسع بين الوضعين والاصطلاحين . ومع ذلك لم يحل هذا دون تشييد معبد للراحل الإلهي ، ولا دون إنشاء مجمع كهنوتي او رهبنة خاصة تنقطع لتكريمه ، تحمل اسمه ، ينتخب اعضاؤها من بين أغنى طبقات المجتمع .

استعرضنا في ما اجرينا من بحث ، للاستشهاد بكثير من الحالات والحوادث بين الجرأة والتشكك الفردية . فقد رأينا مثلاً ، أعضاء اسرة احد الامبراطرة يفوزون جميعهم بالتكريم الإلهي . كما جرى ذلك بالفعل للامبراطور ترايانوس : فقد لقي ابوه وشقيقته وزوجته

مثل هذا التكريم ، كما جرى إشراك عدد من المتألهين والمتألهات في عبادة جماعية واحدة ، وذلك ، لأسباب وراثية ، خلافية او عملية ، كانتشار عبادة احد هؤلاء المتألهين في مدينة ما او أكثر ، من مدن الولاية ، فيخفف ذلك من حدة او من رواج عبادة « روما او غسطس » وغير ذلك . فعلى ضوء هذه الوقائع المتباينة في كل من المناطق والجماعات والافراد ، نرى عبادة الامبراطور ، على عكس ذلك تماماً ، يزول ما بينها من فوارق ، فتتوحد او تكاد ؛ دون ان تبلغ مع ذلك ، درجة كبيرة من التجانس والانسجام .

ولا يخطر على بال احد ان الامر كله انتهى الى فشل ذريع . فهذا التجانس يأباه امبراطرة القرنين الاول والثاني ، ولا يرضون قط بتأليهم المطلق . فهم يرفضون ان يصيروا الى ما صار اليه الملوك البطالسة او بعض ملوك الدولة السلوقية . فهذا القلق او التشكك يجب رده اصلاً الى نفور بعض الامبراطرة ، امثال طيباريوس وكلوديوس وغيرهما ، من التكريم الإلهي . هذه العادة التي عرفها على أشدها وسار عليها لإغريق بلدة « جيثيون » ، من اعمال ولاية لاكونيا ، وإغريق الاسكندرية . وهذا الإعراض او المحافة مرده ، على ما يظهر ، لما أنسوه من اشتمزاز سكان روما ومن فشل التجربة المؤسفة التي قام بها كل من كاليغولا ونيرون ، ودوميتيانوس وكومود ، فراح الشعب يقتص لنفسه منهم ، وأماهم شر ميتة ، كانت درساً لقوم يعقلون .

ولكن النظام الملكي له منطقه الذاتي وهو اشد اسراً من التدابير والاجراءات المصطنعة منها تفننوا في إعدادها وصياغتها . ومهما يكن من السبب او اللعنة التي لحقت بهؤلاء الامبراطرة الذين تجرأوا على التادي في هذا المجال فدفعوا غالباً ، بدمائهم ، السخافات والاسفافات التي أتوها ، الى جانب تجنيبهم الاتيم ، فقد ساهموا ، مع ذلك في إعداد المستقبل وتهيته اكثر مما ساهم فيه الامبراطرة المترددون . فقد خشي هؤلاء أشد ما خشوا منه ، الا يستطيعوا ، اذا ما هم وحدوا النهج ، الاستجابة للطلبات عفوية تلقائية . وعلى هذا الاساس اشتطوا في التنظيم وذهبوا فيه بعيداً ، بحيث ان عبادة التكريم التي كانوا موضوعاً لها ارتدت طابع نظام حكومي او بالاحرى ، نظم حكومية ومؤسسات رسمية ساروا عليها وفقاً للتسلسل الاجتماعي والوظائفي الذي وضعته الدولة ، اذ مهما كان عرفان الجميل والاعجاب عميقاً ، فلا بد ان يفقد شيئاً من الحماس اذا ما افرغ في قوالب جاهزة وجرى التعبير عنها وفقاً لمراسم تضعها السلطات الادارية . وعلى هذا قس ايضاً الفوارق التي تميز الامبراطور المؤله عن الإله ، حتى اذا ما نُظر اليها نظرة واقعية ، قتلت او اضعفت الشعور الديني ، ومنعته من الانطلاق والتجلي على السجية ، بينما اعتبارها اجراءات سياسية ينتقص كثيراً من مبدأ العبادة في الصميم لما تحركه في المرء من تردد وتثير فيه من تشكك .

فالمستقبل يفتح بالاحرى امام طرق اخرى ، وهي طرق يصح ان نتساءل معها ما اذا كانت انفع وأجدى ؟ بالطبع لا ، انما هي اوضح وأبين وأنصح ، كما انها اكثر ارقباً والتصاقاً ببعض الأفكار التي يزداد الاقبال عليها . فالامبراطور كاليغولا يتبجح بما تم له من مناقب وخصائص

هي من صفات الآلهة ، التي اقرها التقليد الموروث ، ويعمل على الانصهار فيها والذوبان معها . ونرى صوراً للامبراطور نيرون على بعض النقود الرومانية متوجاً بأكليل يشع من كل صوب ، رمزاً للشمس المشرقة وتشبهاً بها . ففي الحين الذي يحرص فيه الامبراطور دومتيانوس على الظهور والبروز كرب *Dominus* نراه يتشبث ويتشدد في المناداة به *Deus* . وفي عهد الامبراطور كومود ، برزت العادة باعتبار كل ما يختص بالامبراطور او يتعلق به « مقدساً » ، وكلها سوابق لم يلبث ان استفحل امرها وعظم بعد ذلك .

ولما كان الامبراطور يباهي ويفخر بالرسالة السامية التي يعتقد بائتمانه عليها: الاومي الدفاع عن الامبراطورية من تعديبات البرابرة ، بؤرة الفساد على الارض ، وتأمين السلام ، والحفاظ على النظام في البلاد ، وتوزيع الخير والرفء على الأرض ، فهو بالطبع ، يفض الطرف عن الذين يرون فيه إشعاعاً وانبثاقاً ، ومن ثم تجسيدا للالهية او للآلهة التي تسيطر ، تحت اسماء شتى ، على النظام الكوني . وفي عهد الاسرة الانطونية التي احسنت الحفاظ على الكثير من هذه المظاهر ، رأينا هذه الافكار بعينها تستبد بالخواطر ، لتبرز بوضوح وجلاء للناس في عهد اسرة سفيروس .

٣ - الخلافة في الاسرة

بين الواقع والنظر

ليس في هذا كله ما فيه حل المشكلة ، التي تلازم كل نظام امبراطوري
 الخلافة الامبراطورية :
 أو ملكي من أي نوع كان . وهذه المشكلة هي اشد خطراً على الخلافة
 البديل في الوراثة الممتعة
 والوراثة الامبراطورية التي جاءت في اعقاب سلسلة من الانتصارات
 الحربية والاعجاد العسكرية ، والتي سيبقى مصيرها مرتبطاً الى الابد بالجيش ، ونسبة ولاء الجيش
 لهذه الامبراطورية . كل هذا يجعلنا نتساءل : كيف السبيل الى تأمين استقرار نظام الحكم القائم ،
 اي انتقال السلطة الشرعية الى امبراطور ، من صلب رسالته ومهمته ان يؤمن لروما وللامبراطورية
 ما يطمعان فيه وينتظران منه بحق ؟

رفض اوغسطس حل مشكلة الملكية ، فمنعه رفضه من الاخذ بالحد الأدنى من الحق الملكي
 الذي استبد في اقطار الشرق الهليني . فبدأ الخلافة الوراثية ، لم يكن من الممكن قبوله والاخذ
 به منذ اعلان العهد الجديد . ومع انه لم يكن احد ليجرؤ على الجهر به ، فبدأ الحق الوراثي
 فيها كان كامناً او مضمرأ ، اذ انها اي الوراثة ، نتيجة منطقية حتمية لكل نظام ملكي . وقد
 شاعت الاقدار ان يكون بين الـ ١٧ امبراطوراً الذين تغاقبوا على الملك والحكم خلال قرنين من
 الزمن ، ثلاثة منهم لا غير ، هم : كلوديوس وفبسيانوس ومارك اوريل ، كان لهم ، عندما
 حانت منيتهم ، ابن شرعي يخلفهم على العرش . كذلك قضت الاقدار ان يكون الامبراطور
 كلوديوس ملكاً مستضعف الجانب ، ركيك الارادة والادارة ، ينال منه بيسر ، رهط من
 الاقاكين الدساسين في بطانة لا ذمار لها ولا زمام ، عرفت كيف تقصي ابنه ووريثه الشرعي

بريتانيكوس لصالح حفيد اخيه وربيبه نيرون . ومن المؤسف لعمرى ، ان تصبح الخلافة تقليدية في مثل هذه الظروف التي لا يستها ، لتصبح فيما بعد ، شرعية بقدر ما يمكن لمثل هذا الامر ان يتم ويتوفر لنظام قام اصلاً ، على مبدأ إيلاء سلطة الشعب الروماني والعهد بسيادته ، الى رجل احد ، فرد .

ولثلا تضطر الدولة للاحتكام للسيف وبالتالى لحروب اهلية ، للبت في قضية الخلافة ، كلما اطلت من خلال موت امبراطور ، كان لا بد من إيجاد بديل له او عوض عنه ، فاتخذوا عدداً منهم ، بعضهم جرى اشراكهم معاً في وقت واحد . واكثر الذرائع استعمالاً ، كان التبني الذي يتلام جيداً والعرف المتبع واحكام قانون الاسرة عند الرومان . ولهذا العرف سوابق تقره ، وتزكيه ، في سلوك قيصر بالذات الذي تبني ابن اخيه او كتاف المعروف تبعاً باسم اوكتافيان ثم اوغسطس ، كما يبرره سلوك اغسطس في اعمال التبني التي اتاها في عهده المديد . وكثيراً ما اضافوا الى هذا الأسلوب طريقة اخرى هي اشراك المتبني في سلطات وصلاحيات امبراطورية صرفة : كالسلطة التريبونية والسلطة البروقنصلية . وكان من جدوى هذا الاسلوب ومنافع الطريقة التي ساروا عليها ، الا تجعل العرش يشغر عند وفاة صاحبه الاول . والى جانب هذا التفويض الشرعي او بدونه احياناً ، كانوا يعمدون الى تعيين الوريث او ولي العهد بصورة واضحة ، بعيدة عن اللبس والاشكال ، وذلك بتوليته وظائف كبرى ، قبل بلوغه السن القانونية ، مع ما في هذا من مغايرة للعرف المتبع ، او باعطائه ألقاباً تجعل منه محق ، المتقدم ادبياً . وهكذا نرى دوميتيانوس يعين ست مرات قنصلاً ، قبل وفاة اخيه تيطس ، كما ان الامبراطور هديرانوس جاداً بلقب « قيصر » لمن رشحه لمنصب « اوغسطس » .

وخطا الامبراطور مارك اوريل خطوة أبعد الى الامام ، اذ منح تبعاً لقب « اوغسطس » للويسوس فيروس *L. Verus* ، ابنه بالتبني ، ثم بعد موت هذا الاخير ، لابنه كومود ، واحتفظ لنفسه وحده ، دون سواه ، في كلا الحالتين ، بلقب ووظيفة كبير الاحبار ، وما تجرؤوا على الفصل بينها إلا بعد ذلك بنحو ثلاثة ارباع القرن . وفي ما عدا ذلك ، كانت المشاركة كاملة فقد حق للآخرين ان يقابلا بالتحية الامبراطورية الرسمية ، كما استحقا ان يحملوا الالقب ذاتها التي في حملها إعادة لذكرى الابداح الحربية . فبدلاً من ان تحمل قطع النقد الرومانية الجديدة صورة « نصر اوغسطس » *Victoria Augusti* ، فأصبحت تحمل رسم واسم *Victoria Augustorum* . وهذا الجديد الذي طلع به علينا مارك اوريل ، ما لبث ان أصبح القاعدة التي ساروا عليها ، والمثال الذي احتذوه في القرن التالي .

وهذا الاجراء بالذات ، يعيد الى الازمان ، عهد الوصاية المشتركة التي عُمل بها حيناً في بعض الأسر الملكية الهلينية . فالطريقة كانت مرعية العرف ، متبعة لما كانت عليه من بساطة ويسر . ومن الغرابة ألا تكون الانظار اتجهت اليها والا تكون الامبراطورية الرومانية اخذت بها قبل سنة ١٦١ بعد الميلاد ، مع انها كانت تدبيراً معروفاً عُمل به وجرى تطبيقه ، منذ أكثر من

مائتي سنة . إلا انه اتضح أكثر من مرة لمن يعينهم الأمر عجز هذه الطريقة عن تأمين انتقال الخلافة بسلام . ولذا صح لنا ان نعتبر هذا التأخير ، مظهراً جديداً لموقف الإدارة والتحفظ الذي اضطر العهد الجديد للوقوف عنده ، تمييزاً له عن نظام ملكي لم تكن روما لترغب فيه او لتتحمس له .

كان لفكرة خلافة الأسرة وقع ، ولا شك ، شديد في النفوس . وهذا
تطور الحق السلافي
والأسرة اليوليوس - كلودية
Julio - Claudienne
الاعزاء بالذات كان له أثره البارز في واقع الخلافة السلافية . فالإنسان
نزاع بطبعه ، للبقاء والديمومة . ونظرية الرجل الذي أعدته العناية
الربانية ، مهّدت السبيل طبعاً امام الفكرة الثانية وهي فكرة
الأسرة المصونة ، الملهمّة بنعمة الآلهة . فالامبراطورية الاولى تقدم للمؤرخ ثلاثة امثلة لكل منها
طابعه الفردي المميز .

فمن عهد اوغسطس الى عهد نيرون ، برهنت السلالة اليوليوس - كلودية عما لاثنتين من افراد
هذه الأسرة من تأثير ونفوذ عظيمين ، هما قيصر الذي كان من اسرة يوليوس ، واوغسطس الذي
كانت جدته لأمه من هذه الأسرة ايضاً ، ولم يلبث ان اصبح منها في الصميم بعد ان تبناه قيصر
نفسه . وقد تزوج من والدة الشقيقين : *Claudii* ، واذا لم يُعقب تبني أكبرهما سنّاً ، وأرغمه
على ان يتبنى بدوره ، ابن اخيه الاصغر ، بعد ان مات ابوه من قبل . وهكذا انصهرت اسرة
يوليو بأسرة كلودي . وقد ازدادت الوشائج بين الاسرتين ، فيما بعد ، لصوقاً ومتانة ، على إثر
المصاهرات والزيجات التي وقعت عبر الأجيال بين الاسرتين ، فضمت ابنة اوغسطس الوحيدة
وبنائها من بعدها الى افراد الأسرة الكلودية ، وقد وقع من حوادث التبني بين افراد الاسرتين
وأفخاذها وبطونها ، ما يجعل من المستحيل اليوم ، تتبع خيوط هذه الوشائج المتشابكة . ولكي
يبدو هذا التعقيد على أتم صورته يكفي ان نورد هنا شاهداً واحداً . فعندما تزوجت أغريبين
الثانية من خالها كلوديوس ، كانت لهما ودماً ، ليس فقط ابنة حفيدة اوغسطس وحفيدة ابنة
اخته ، بل كانت ايضاً بالتبني ، ابنة حفيده . كل هذا التشابك والتراكب والتعاظم لم يخل من
نفع وفائدة ، على شرط ان يعرف المستغلون كيف منه يفيدون ، ومثل هذا الأمر لم يغيب عن
قطنة أغريبين وزكاتها . فأصرة التبني التي شذتها الى اوغسطس كانت احدى هذه الوسائل التي
تذرعت بها لتحمل كلوديوس على تبني نيرون ، احد افراد اسرة دوميتيوس *Donitius* ، فاستطاعت
بذلك ان تقصي عن الخلافة بريثانيكوس ابنه الشرعي ، الذي كان بحسبه ونسبه ، بأبيه وامه ،
حفيد اوغسطس .

وهكذا بدت الأسرة اليوليوس - كلودية في عيون معاصريها ، من هذه الاسر المختارة ، المصطفاة ،
والمهياة ، ان لم يكن شرعاً فوضعا ، للاحتفاظ بالرتبة والسلطة الامبراطورية . غير ان مسائل
هذه الشجرة وفروعها المتعددة ، وتشابكها بعضاً ببعض ، كان من الأسباب التي حالت او منعت

تأمين انتظامها وانضباطها . فقد كان بوسع الامبراطور طيباريوس ان يلزمها التسلسل المدرج ، وبعبارة اخرى ان يقصرها على التدرج المسلسل الذي كانت تفتقر اليه ، لو عرف كيف يحتذي حذو اوغسطس ويأتم بهدي فطنته ، عندما نظم قضية خلافته ووراثته . غير ان ما كان عليه طيباريوس من نفرة للناس ، وابتعاده عنهم ومخافاته لهم ، كل ذلك وقف حجر عثرة دون المرجحى والمروغوب . ومنذ ذلك الحين ، اصبحت الوراثة السياسية كرة او ألعبه ، تتقاذفها شعبية المرشح في الرأي العام ، وقادة الجيش ، والدسائس المحيكة وراء الكواليس ، وسخرية القدر وعيب الأقدار . وعندما بادر حرس القصر كلوديوس بالتحية الإمبراطورية ، إعلاناً له باعتلائه أريكة الحكم ، خاف وأخذت فرائضه ترتعد هلعاً ، فتوارى خلف سجن القصر وستائره . وهذا الوضع حل كل امبراطور على ان يتخلص من انسابه وذويه عندما يرى فيهم منافسين له على السيادة والسلطة . وهكذا أخذت الاغتيالات السياسية والسموم المدسوسة بعلم وقن ، من قبيل طامع في الحكم خالغ العذار ، امثال «سيجان» ، تفعل فعلها الذريع بين الاسرة الامبراطورية العديدة الفروع ، فحصدت افرادها البارزين حصداً ، وكادت تودي بها الى الهلكة والزوال . وعندما أجبر نيرون على الانتحار عام ٦٨ بعد ان تحلى عنه حرسه ، لم يكن بقي احد من افراد الاسرة ليطالب باجناد قيصر وأغسطس ، ويلوح بها تعريفاً وانتساباً . وهكذا اصبحت الدولة والسلطة العليا فيها ، فريسة الاقوياء يتجاذبونهم كلما اشتد من احدهم الساعد او تراءى للقوي بسمة يفتر بها الحظ .

اما الرجل القوي في هذه الاسرة فهو تيطس فلافيوس فسبسيانوس ، اول
الاسرة الفلافية
امبراطور اخرجته للناس هذه العائلة ، التي تولت الحكم مدة قصيرة لم تزد
Les Flaviens
على ٢٦ سنة ، الا انها ألّفت كتلة بزت بتجانسها وتراسها ، ما تم منه للاسرة
اليوليو - كلودية . كان تيطس بن فسبسيانوس البكر ، ولما لم يعقب الابنة ، فقد خلفه على
العرش الامبراطوري ، عند وفاته ، شقيقه دومتيانوس . وهكذا نرى ان الحظ سار في ركاب
هذه الاسرة ، فرتبت أمر الخلافة فيها ببساطة كلية ، وبذلك ، عرفت ان 'تجري' ، في روما ،
حقاً وراثياً قام على قاعدة : الخلافة للبكر الذكر ، وجعلته بمعزل عن تقلبات الرأي ودسائس
الدسائس .

وعرف الامبراطور فسبسيانوس ، بما أوتي من حزم وعزم ، ان يفيد من مؤاتاة الحظ له
وسيره في ركابه . فما ان قبل تسلم أريكة الامبراطورية حتى رأى في وجود ولديه الى جنبه
ضمانة كافية للخلافة في ذريته . « وكان له من الجرأة ان عالن مجلس الشيوخ » ، كما يؤكد المؤرخ
سويتون ، بان ولديه سيخلفانه ولا احد غيرهما . وفي هذا السبيل عمل ما يترتب عليه عمله ،
فمهد الى ابنه تيطس بالسلطة التريبونية والسلطة البروقنصلية ، كما رفع ابنه الثاني دومتيانوس
الى رتبة القنصلية وثبته فيها عدة مرات . وبفضل هذه الاجراءات الحكيمة والتدابير الرشيدة ،
بدت السلطة بين يديه حقاً وراثياً قائماً في الاسرة ، ينتقل من السلف الى الخلف بصورة تلقائية ،

دون صريف او صرير . ثم راح بعد هذا ، ينصرف من جهة اخرى ، لتنظيم عبادة الامبراطور وتقديسها . فليس ما يصدمنا او يثير دهشنا قط ، ان نرى ونقرأ على احدى النقائش التي عثر عليها في بريطانيا ، « العبارة التالية التي كتب لها انت تعمر طويلا ، وهي : « البيت الإلهي » وبعبارة اخرى : « الأسرة الإلهية » ، تنويها بالأسرة الامبراطورية واسارة اليها .

هذه النظم والانشاءات المستحدثة كان يلزمها ، لتعيش وتُعرق في نفوس القوم ، ان يطول بقاء هذه الأسرة على الحكم ويدوم الى ما شاء الله . غير ان تصرفات دومتيانوس وسفاسفه كانت سبباً في هلاكه وقته . وما كاد جثمانه يوارى الثرى ، حتى راح مجلس السيوخ يلغي قرارات التبني التي كان اتخذها الامبراطور الراحل ، اذ كانت تبني بعد وفاة اولاده ، اولاد شقيقه الذين كانوا في الوقت ذاته ابناء عمومته . وهكذا وجدت خلافة الامبراطورية نفسها امام فراغ جديد وعلى حافة هاوية عميقة .

عرف المتأملون ، هذه المرة ، ان يُحكوا الجبكية ويسددوا الضربة ، وينفذوا الاسرة الانطونية واختيار الاصلح بدقة ، التدابير المقررة ، فلم يجد العنف طريقه الى تعيين الامبراطور الجديد . فالامبراطور الجديد الذي نادوا به : نيرفا ، قيل به الجيش راضياً مرضياً ، فكان طليعة الأسرة الانطونية التي اطلت على الحكم في شخصه واستقام لها الأمر قرناً تقريباً اي من سنة ٩٦ الى سنة ١٩٢ للميلاد . اما قضية الخلافة في عهد هذه الأسرة ، فليس في التاريخ كله ، بما فيه تاريخ روما والأسر الملكية التي تعاقبت على الحكم ، اسرة أعلقت في النفس واشد غرابة من هذه الأسرة . فالغرابة تكاد تلامس الخروج على العرف المألوف .

ولئلا نستطرد الى ما لا طائل تحته ، يكفي التأكيد هنا ان كل الاباطرة الذين أطلعتمهم هذه الأسرة ، باستثناء واحد منهم ، هو الأخير بينهم ، الذي تم على يده وأد الأسرة ، مع انه الوحيد الذي جاء منها الى الحكم بحق الوراثة الخلافية ، قد تعاقبوا على الحكم على أساس التبني وليس على أساس البنوة الطبيعية . ويجب ان نذكر هنا انه حدث مثل هذا لطيباريوس ، اذ كان ابناً بالتبني لأوغسطس . فاستمرار تعاقب الأمر على هذا النحو ، يكون بحمد ذاته ، حدثاً جديداً ، يستدعي النظر . صحيح انه كان هنالك وشائج من القرى بين السلف والخلف ، كأبناء العمومة أو الحوالة ، والمصاهرات التي ربطت بين الآباء والابناء ، بررت وزكّت اعمال التبني هذه . وليس من الغريب قط ، لعمرى ، ان نفرض ، في بعض حالات هذا التبني - وهو أغرب ما في هذا النوع - وجود بنوة طبيعية ، ولكن غير شرعية . ومن المؤكد كذلك أن عملية التبني عند هؤلاء الاباطرة لم تكن سوى تدبير أعرج ، أخذ به في الحالات القصوى ، بعد ان رأى من لجأ الى هذه الطريقة من بينهم ، أنفسهم بدون عقب يخلفهم . وأول امبراطور منهم رزق صبياً ، بادر للحال لتأمين الخلافة له ، حتى أن الامبراطور مارك أوريل نفسه رأى ذاته ملزماً للأخذ بالقانون الطبيعي مع انه جاء في مصلحة كمود نفسه . فاذا كان ثمة ما يبرر ، بالفعل ، قرارات التبني هذه ويذكرها ، فالشيء الذي يبقى غريباً ويصدم العرف ، لا بل يكون

المفتاح الحقيقي لهذا السر المفلق وينأى بعيداً عن الواقع : هو قبول الجيش لمثل هذه الاجراءات التي اتبعت لتأمين الخلافة والأخذ بها دون ان يحدث في الغالب ما يعكر صفو الأمن ، اذ كانت ترفع الى السلطة العليا قواداً ليس لهم من الحسب ولا من المجد العسكري - باستثناء ترايانوس - ما يستحقون معه ثقة الجيش والولاء الذي عرف به ، وهم في الغالب افراد لمعوا في بطانة الامبراطرة الذين 'دعوا لخلافتهم' ، أو برزوا في المجتمعات الرومانية التي عرفتهم وقدرت مواهبهم بمعزل عن الجيش الروماني ؛ فاذا ما عرفوا ان يفوزوا بولاء الجيش فبفضل ما جاؤوا به حالاً من دليل على كفاءتهم ومواهبهم ، أو بفضل ما كان عليه الجند اذ ذاك من احترام لروح الانضباط ، بلغ حداً من العمق لم تعرف البلاد له مثيلاً من قبل ، وهي فترة قصيرة الأمد ، اذا ما قيست بمدة بقاء الامبراطورية ، ولكنه طويل بالنسبة للامبراطرة الانطونيين الخمسة ؛ فعرف هؤلاء الملوك ان يفيدوا من هذا التوازن المدهش الذي جمع بين القوى الأدبية والقوى الاخرى المتفاعلة في الامبراطورية .

هذه الملاحظات العابرة أعجز من أن كستنفذ الاهتمام الخلق بالأسرة الانطونية ، والظروف التي أحاطت بها ، والوضع القائم الذي أوجب تكوين طبقة اجتماعية 'موجّهة' تكون في مأمن من وصول امبراطرة الى الحكم ينجيهم الجيش على سنان الرماح . واقتصرت هذه النظرية على تثبيت وضع قائم ، والترسيخ له في النفوس ، والعمل على رفع مستواه ، بعد ان قررت الأخذ بالنظام الامبراطوري ، وجعل الخلافة في الأسرة من حق 'الأفضل' و 'الأمثل' ، لها . وقد حرص العهد على تسوية الوريث الأفضل ، وعلان امره ، وذلك تقويةً للامبراطرة الذين أقر مجلس الشيوخ الروماني خلافتهم . ولم يكن المؤرخ تاسيت ، وهو من معاصري الامبراطور ترايانوس إلا ترجمان حال زملائه من اعضاء هذا المجلس عندما راح يقصّ علينا في «تواريخه» قصة تبني الامبراطور غلبا *Galba* لبيزون *Pison* أثر مقتل نيرون ، فكتب على لسان المتنبّي : « لا يعني هذا قط ان لا أنسباً لي ولا رفاق سلاح ، ولم أبلغ الحكم لأنني طمحت اليه ، وسعيت له ، كما يشهد على ذلك ، ممارستي للسلطة بنصفّة ، وبمعزل عن الأخذ بالوجوه ، وقفضيلي لك على باقي الناس ، ليس على خاصتي فحسب ، بل على خاصتك ايضاً ... فهذا الاختيار الذي صدر عنا هو الحرية بعينها . أما الآن بعد ان انقطعت اسرة اليوليين واسرة الكلوديين ، فالاختيار والانتخاب أساسه : الأمثل والأفضل . ان يأتي المرء الى الوجود ودم الأمراء يسري في عروقه ، فأمر من صميم الحظوظ والاقدار ، التي يتعمّل معها الفكر وينعدم النظر . فالتبني هو الذي يقطع ويحزم في ما يُفصّل . فاذا ما قرر الاختيار كان له الرأي العام هادياً » . ورسالة الاطراء والمديح التي وجهها «بلين الاصغر» *Pline Le Jeune* للامبراطور ترايانوس تتضمن ، هي الاخرى ، تصريحات من هذا النوع . فالأخذ بهذه النظرية ولو ظاهراً ، أضفى كثيراً على السلالة الانطونية شيئاً من الوقار والنبيل في تفكيرها : فعبثاً نحاول العثور على غيرها من الاسر الامبراطورية تتفتح في ظلها وعهدها ، مثل هذه الافكار السمحاء التي لم تنقضها الحوادث والماجريات الواقعية التي حدثت خلال أجيال متعاقبة . إلا ان هذا النقص كان لا بد له من ان يقع ويحدث . وقد شاء

القدر العايب ، الساخر ، ان يأتيها على يد مارك اوريل نفسه .

قُبِضَ لنا ان نشهد ، ونحن بصدد الحديث عن طقوس عبادة « روما
عدم اكتمال تجربة النظام
او غسطس » او عبادة الإلهي *Diri* ، عدم اكتمال الملكية الامبراطورية
الملكي الامبراطوري
وبلوغها التام ، اذا ما قارناها بالملكيات الاخرى . هل كان من شأن
تطوير أسرع في المظاهر الدينية ومناسك العبادة ، ان يساعد أكثر في تطوير نظرية الملكية
لامبراطورية ليبلغ بها الى الكمال والتام ؟ فالعبادة الامبراطورية كانت تفتقر ، بالفعل ، الى
الكثير من روحانية الدين . فلا عجب ان يقابلها الكثيرون بالتشكك وان يعرضوا عنها ويولوها ظهرهم .
فلو بلغ هذا التطور تمامه لكان جاء ، على عكس الواقع ، بنتائج فعالة ، ربما تبلورت عن
وضع قانون لوراثة الخلافة الامبراطورية ، ثابت ، واضح ، وهو وحده القادر على ان يشيّد
النظام الملكي على أسس ركنية من الشرعية والدستورية فيجعل من هؤلاء البشر المقدّر لهم ان
يحصد الموت ، والذين تعاقبوا على الأريكة الامبراطورية ، كلاً متجانساً ، اذ ان عدم توفر هذا
العنصر الاساسي عرّض الامبراطورية ، الفينة بعد الفينة ، لهزات عنيفة وخضات شديدة ،
أورثتها الفوضى والوهن . وهذه الامبراطورية ، باعتبارها مؤسسة بشرية ، وملكية عسكرية ،
لم يكن لها بدء من التضرس بما تضرّست به من إحترام الدهر وصروفه ودوّله ، انما قد يكون
جاء هذا كله ، على نطاق اضيق وبعدد اقل . فغموض النظام الذي سارت عليه ، والإشكال
الضمني الذي انصفت به ، اقامها ، منذ الاساس ، على خواء ، وجعلها واهية ، متداعية في الصميم .
هنالك ، بالطبع ، عدد من النظم الملكية ، عانت ، منذ البدء ، الداء نفسه ، إلا انها عرفت ،
فيما بعد ، كيف تنفض عنها اعراض هذا السقم فتعود اليها العافية سريعاً . ومسؤولية عدم اكتمال
فكرة النظام الامبراطوري في روما ، انما مردها قبل كل شيء ، والحق يقال ، الى الظروف التي
لايست هذه الامبراطورية وأحاطت بها ، وللأفراد الذين تولوا مقدراتها خلال القرنين ، وهي
الفترة التي امدت اليها عهد الامبراطورية الاولى ، وما خامرهم من شكوك وتردد وما أوتوه من
سخافات وترّهات .

ومع ذلك ، وبالرغم من هذا النقص الجذري في التكوين والبنيان ، استطاعت هذه
الامبراطورية ان تحيا وتبقى وان تنتظم ، ان لم يكن نظرياً فأقله واقعياً .

٢ - النظم القديمة

عرف النظام الامبراطوري ان يشق طريقه في الدولة ، وان يحقق نجاحاته على حساب النظم
والمؤسسات الجمهورية التي لم تلبث ان خفّت حيويتها وضوّل نشاطها ، يوماً بعد يوم .

استمر العمل بالهيئات الشعبية القائمة ، انما قلت دعوتها للانعقاد .
Les Comices الاجتماعات الشعبية
فاذا ما عقدت جلساتها ، فلأمور تافهة وبصلاحيات اخذت
تضييق وتدق ، شيئاً فشيئاً . وقد يحدث ان تدعى ، في القرن الاول للاجتماع ، عند مناسبة

عارضة للتصويت على بعض مشروعات القوانين ، بعد ان حُرمت من فرصة مناقشتها ، مع العلم ان قرارات مجلس الشيوخ والامبراطور ، لها وحدها قوة القانون ، بحيث لم يعد يبقى لهذه الاجتماعات الشعبية أية قيمة تشريعية على الاطلاق .

كذلك فقدت هذه الهيئات ما كان لها من صلاحيات انتخابية ، بعد ان بطل العمل بها فعلاً ، منذ عهد اوغسطس ، وذلك على أثر تمتع الامبراطور بحق التوجيه وتقديم الاقتراحات التي احتفظ به لبعض الوظائف الكبرى بعد ان جرى تحويلها بكل بساطة ونقلها الى يد مجلس الشيوخ . واكتشفت عام ١٩٤٧ بعض كتابات ألفت ضوءاً على وجود نظام وسيط ، جرى العمل به قبل هذا الانتقال ، تظهر بوضوح ، دهاء النظام الذي تم وضعه عام ٥ ق . م ، ثم أدخلت عليه تحسينات عديدة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩ و ٢٣ ليليلاد ، جعلت منه مجرد عملية انتخاب شعبي بسيطة . وكان اعضاء مجلس الشيوخ وخيرة طبقة الشغاليه يتوزعون وفقاً للقرعة ، الى هيئات مائة Centuries تتولى اختيار مندوبين اولين *Destinati* ، من بين عدد من المرشحين تعرض قوائمهم على الهيئات الشعبية لاقرارها والتصديق عليها . وكان عشر من هيئات المائة Centuries تحمل اسم حفيدي اوغسطس ، توفياً يافعين . وعندما توفي ابن طيباريوس وابنه الآخر بالتبني ، جرى إنشاء خمس هيئات مئة جديدة عند كل وفاة منها حملت اسماءهما . والاعتقاد السائد هو ان هؤلاء الأمراء الذين رُفعوا الى مصاف الابطال كانوا اداة وحي وإلهام للتأخيين المشتركين بعملية الاقتراح كما يقترحون ، هم أنفسهم ، أسماء الاعضاء الجدد للهيئات الشعبية . إلا اننا نجمل الجمل كله ، الوقت الذي امكن فيه الاستغناء تماماً ، عن مثل هذه الاساليب . ومهما يكن ، فالاقتراع لم يكن سوى عملية صورية ، وهمية ، لا طائل تحتها البتة .

وقد بدا لاوغسطس ولخلفائه من الامبراطرة الذين تعاقبوا على الحكم بعده انه اذا كانوا يريدون فعلاً الاستقرار للعهد الجديد ، كان عليهم ان يجعلوا الحياة السياسية في البلاد بمنأى من الدسائس والاضطرابات والقلقل التي طالما اتصفت بها اجتماعات الهيئات الشعبية وافسدتها . فالشعب الملك كان بالفعل قد فقد كل سلطة له ، عند اعتلاء الامبراطور العرش ، وفقاً لقرار يصدره مجلس الشيوخ يقتصر عادة ، على المناداة به امبراطوراً ، وتقليده مقاليد الولاية والسلطة . وقد حفظ لنا التاريخ نص القانون الذي تمت بموجبه الولاية لفسبسيانوس . فالامبراطور وحده يكفي لادارة مصالح الشعب والدفاع عنها .

فهذه الوظائف الكبرى التي كان الامبراطور يقلدها لأصحابها ، اما رأساً ، المناصب والوظائف كالقنصلية مثلاً ، او بالواسطة عن طريق البوح برغبته الخاصة ، بشأن بعض المرشحين ، لم تكن لتتمتع ، بالفعل ، بأي استقلال خاص . فهي مراتب بقي معمولاً بها كاللقاب لا غير ، لها درجاتها ورتبها المتسلسلة في الادارة ، باستثناء وظيفة المراقب العام التي كان الامبراطور يحرص على الاحتفاظ لنفسه بكل صلاحياتها واختصاصاتها ، سواء أُحيل هو نفسه ، هذا اللقب او لم يحمله ، وكثيراً ما ، لم يكن لهذه الالقاب سوى مظهر تبجيل خارجي تثقل على حاملها

أحياناً ، نفقة تمثيل . ويذكر ديون كاسيوس في معرض حديثه عن الامبراطور كلوديوس ، ان عدداً من القناصل الرومانيين تخلوا عن الرتب القنصلية التي كانوا يحملونها ، مع ما هي عليه من علو الشأن ، لانهم عجزوا عن تحمل تكاليف تمثيلها .

هنالك ناحية من هذا التطور الذي خضعت له وظيفة القنصلية ، يمكن الوقوف عندها ملياً واتخاذها قياساً ، للدلالة على ما خسرت هذه الوظائف والرتب من قيمة الشأن البعيد الذي كان لها من قبل . ورتبة القنصلية التي بقيت محتفظة بكل شاراتها الفخرية وبعنايتها ببعض المراسم الدينية ، فقدت ، في الواقع ، كل ما كان لها من شأن وشأو ، بعد ان برز الامبراطور على رأس الدولة ، وتحلى مع نوابه ومثليه ، بما يتحلى به من سلطات واختصاصات عالية . وخسرت هذه الرتبة من قدرها وشأنها بعد ان ازداد عدد الحاصلين عليها ، مع انه لم يكن يوجد منهم معاً في الوظيفة ، في وقت واحد ، اسوة بما كان عليه الوضع في الماضي ايضاً ، اكثر من مائتي قنصل . فالذين كانوا يتقلدون هذا المنصب في غرة كانون الثاني (يناير) كانت السنة تحمل اسماءهم . وهذا الفريق من القناصل هم القناصل « العاديون » الذين تأثرت رتبهم والقياس باقل بما تأثر به اخرى ، بالنظر للامتيازات التي تمتعوا بها . وقد جرت العادة ان يستقيل هذا القنصلان ، قبل بدء السنة الجديدة بقليل ليفسحوا المجال امام قنصلين جديدين يخلان محلها . وكانوا يتعاقبون بسرعة في الوظيفة ، بحيث كنا نرى ، في القرن الاول ، القنصل يعين لفترة اربعة اشهر . وليس بالغريب او النادر قط ان نرى قناصل قبلوا التعيين لمدة شهرين او لشهر واحد . وهذه العادة كان لها ما يبررها من رغبة الامبراطور في ان تتوفر له سهولة اكبر في اختيار اصحاب بعض الوظائف التي لا يقوم عليها إلا من كانوا قناصل من قبل . وهكذا فقدت هذه الوظيفة كل شأن لها .

هذا الاستخفاف ينزل بمرتبة القنصلية يبرز على اشده ، عندما نعرف ان القنصلية كانت السبيل او الطريق المؤدي الى البروقنصلية التي لصاحبها سلطات شبه مطلقة على الجيش او الولاية التي يتولى ادارتها . فلم يبق في الامبراطورية سوى مركزين لصاحبها سلطة البروقنصلية ، يجري اختيارهما من بين فئة القناصل : هما بروقنصل آسيا (مركزه افسس) وبروقنصل افريقيا (مركزه قرطاج) ويتقاضيان عن وظيفتهما هذه مرتبات ضخمة للغاية تنقطع معها شهوة الارتكابات والاختلاسات وسوء الائتمان . فضلاً على ذلك ، ان الاول منها انتزعت منه ، في غرة العهد الامبراطوري ، كل سلطة على الجيش ، وكذلك الثاني منها كان له المصير ذاته ، وكلاهما يخضع لسلطة الامبراطور ، يساعدهما في حكم الولاية وادارتها موظفون يأتي تعيينهم من قبل الامبراطور نفسه ، كما ان مدة تعيينهم في هذه الوظيفة لا تتعدى السنة ، ولا يمكن تجديدهما عند نهايتها ، بأي حال . وهكذا يبدو ان معظم افراد الطبقة القنصلية لم يكن أمامهم من امل سوى التطوع في خدمة الامبراطور ووضع أنفسهم تحت تصرفه للانعام عليهم بأية وظيفة ينتدبهم لها . ولم تكن وظيفة القنصلية تعطى إلا لمن برهنوا عن كفاءتهم ، وجاؤوا بالدليل القاطع على ولائهم للامبراطور ، فاذا ما قبلوا بما يعرض عليهم منها انفتح امامهم الباب لوظائف أكبر وأعلى

تبقى دوماً تحت المراقبة الضيقة واشراف الامبراطور المباشر .

ومثل هذا التحول والتبديل يطرأ على الوظائف الاخرى ، ولا سيما وظيفة البروقناصل الذين يعهد اليهم بحكم الولايات الامبراطورية وادارتها . ويجري انتقاؤهم غالباً من بين طبقة المقدّمين *Prêteurs* الذين لم يكونوا أسعد حظاً ، ولا أرفع حالاً من حكام ولايتي آسيا وافريقيا . « ان سلك التشريعات والامجاد » هو بيد الامبراطور وتحت رحمته . والوظائف المختلفة التي تتسع لمثل هذه التبعيلات لا تعطى ولا يعهد بها إلا لمن يقوم بهام وظائف الادارة الامبراطورية .

جلس الشيوخ بين المؤسسات الجمهورية التي تضرست بالتغيير وناها من التحويل والتبديل اقل *Sénat* من غيرها في الظاهر كان مجلس الشيوخ ، لا بل يبدو لمن يرى الامور من الخارج ، انه نال المزيد من السلطات ، لأنه حل محل الهيئات الشعبية في الانتخابات التي كانت وقفاً على هذه الهيئات ، كما ان القرارات التي كانت يتخذها ، كانت بمنأى عن الاستفتاءات الشعبية والانتقادات او الاعتراضات التي يثيرها في وجهها التريبون او محامو الشعب . وكان من سياسة اورغسطس ومعظم خلفائه حتى اواخر القرن الثاني ، الاعتماد ظاهراً ، على هذا المجلس في تجنيب البلاد ، خطر الاضطرابات الشعبية . فقد رموا من وراء ذلك الى تعزيزهم نفوذ هذه الهيئة والرفع من شأنها . غير ان هذه المشايعة او السلطة الثنائية ، *Dyarchie* ، كما يسميها المؤرخ الالماني مومسن *Mommsen* ، لم تكن بالحقيقة ، سوى تقرير او تعلية . هل كان الامبراطور يرغب فعلاً ، باقتسام السلطة — وهو أمر يتنافى أصلاً مع رغبة الفرد بالسيطرة المطلقة — مع مجلس يتألف من ٦٠٠ عضو يضم العديد من العناصر التي لا يمكن استخدامها أو الانتفاع بها ، بينهم كثيرون معروفون بميولهم الجمهورية وحديثهم على نظم العهد البائد ، كما ان بينهم من عرفوا بأطماعهم الاشعبية وطموحهم ، وغيرهم من اصحاب الزلفى والمدلسين؟ ونرى اكثر من امبراطور يدخل في خصام مكشوف ، ان لم يكن مع مجلس الشيوخ ، كهيئة قائمة بذاتها لم تكن لتجروا على الوقوف بوجهه ، فأقله مع بعض الشيوخ الذين تحوم حولهم الشكوك ويرتاب جداً باخلاصهم له ، ويشك في ولائهم نحوه ، فيتفادى شرهم بقطع دابرهم أفراداً وافواجاً . فالزواج الشخصي الذي فرّد هؤلاء « الطغاة » الذين وصفهم مؤرخون من مؤرخي العصر ، كانوا مثلهم اعضاء في المجلس المذكور ، أمثال تاسيت ، بأبشع الأوصاف كان سبباً في ذلك أن عدداً كبيراً منهم ذهب ضحية الدسائس التي حاكوها ، كما ذهب غيرهم فريسة الوشاة النفاثين والأرصاد المبتوثة عليهم . ولم يصف « الجبو ويصح » إلا في عهد الدولة الأنطونية ، باستثناء حكم هدريانوس وكومود ، بعد ان لعبت عوامل كثيرة دورها الملطف والمهدئ ، منها مثلاً كفاءة بعض الامبراطرة الذين عرفوا ان يفرضوا الاحترام حولهم ، وقدرتهم على الذهاب بالاحقاد ، والتحسينات التي أدخلت على تشكيل مجلس الشيوخ بعد ان اعتمدوا في الاختيار ، قاعدة جديدة هي خبرة العضو الجديد وحنكته ، دون حسبه ونسبه أو نشبه ، والرغبة المشتركة في تجنيب البلاد أزمة كالأزمة التي وقعت فيها ٦٨-٦٩ ق.م. غير ان الحقبة لم تطل كثيراً ، اذ ما كاد مارك اورييل يتوارى ويختل

العرش بموته حتى عادت المحصومة على أشدها .

وفي هذا القرن الافلاطوني الاستثنائي ، لم يتمتع مجلس الشيوخ ، مع ذلك ، بأية سلطة مستقلة ، اذ كان الامبراطور يشرف عن كئيب ، على انتقاء الحكام وكبار الموظفين ، في حال عدم توليه امر تعيينهم بنفسه ، ويخلق وظائف شرفية لا طائل تحتها ، كما يحرص اشد الحرص على تشكيل اعضاء المجلس وتأمين التسلسل الدقيق في المراتب والدرجات . فالمجلس لا يخطر له يوماً على البال ، معارضة رغبات الامبراطور ، والقرارات التي يتخذها هذا المجلس ، تختفي وتنسخ عندما يصدر الامبراطور مراسيمه فيبادر اعضاؤه الى إقرار المشروعات التي يعرب عنها في خطبه وتصريحاته . وللامبراطور ، كما لمجلس الشيوخ ، حق الاعتراض ، والاحتكام برفع القضايا الى مجلس أعلى ، غير ان الاعتراض ينتهي دوماً لمصلحته هو ، وليس لمصلحة المجلس . فاذا ما نال مجلس الشيوخ ، في عهد الأسرة الانطونية ، وحده ، الحق بمحاكمة احد اعضائه جزائياً ، فهو يحرص على ان يتبين رغبة الامبراطور وارادته الحفية في الأمر وسريته قبل اصدار حكمه ، كما انه يبادر في الحال الى الاعراب عن أسفه وندمه ، اذا ما خافه الظن وطاش فأله . ولعل ام امتيازات مجلس الشيوخ الروماني ، هو ان يفوض ، من قبل الشعب ، وباسم الشعب ، السلطة للامبراطور الجديد . غير انه لم يكن لرأيه إلا ما ندر ، وزن حاسم ، كما وقع للامبراطور نيرفا وللانمبراطور تراجانوس . والموقف العادي المؤلف الذي يقفه هو الاعتراف بمن وقع عليه اختيار الجيش وقراره له ، او المصادقة على قرار الامبراطور السلف بشأن الخلافة .

ولكي يتوفر له غير ما توفر من سلطة وهمية ، كان عليه ان يضطلع بتوجيه سياسة البلاد الخارجية ومراقبة حكام الولايات وما تحت إمرتهم من جيوش ، والسيطرة على اموال بيت المال . غير ان تحرر قادة الجيش ، قبل نهاية الحكم الجمهوري ، جرد المجلس المذكور من كل هذه السلطات والصلاحيات ، ثم جاء عهد الامبراطورية فأجهز على ما كان تبقى له منها . فعق الحرب او السلام هو بيد رئيس الجيش الاعلى . فنذ اوغسطس ، خضعت البلاد لتقسيم اداري أدخل عليه فيما بعد تعديلات لم تعتمد الاساس القائم ، والمبدأ المعمول به . فالولايات المشيخية وحدها هي التي لا تقوم فيها فرق من الجيش ، وهي الولايات التي استتب فيها الأمن ولا اضطراب على حدودها الخارجية . تابع مجلس الشيوخ ، في اول العهد الامبراطوري ، مراقبة الموظفين الذين يتولون ادارة بيت المال ، الملقب « بهيكل ساتورن » والذي لم يكن يتغذى إلا من الرسوم المحببة من ايطاليا والولايات المشيخية ، وهي رسوم لم تكن لتغطي مصروفات الدولة في هذه المقاطعات . فعلى خزانة الامبراطور ان تبادر لسد العجز . ومنذ عهد نيرون ، اخذ الامبراطور يُعنى شخصياً بتعيين ولي بيت المال « *Aerarium* » والحد من صلاحية مجلس الشيوخ في ضرب العملة إلا البرونزية منها . كان في روما قطاعات واسعة في الادارة العامة يقتضي لها الاختصاص والتقنية ، كما يقتضي لها المضي في الحطة العامة الموضوعة لها . من هذه الادارات : مديرية البوليس ، ودائرة التموين *Annone* ودائرة القناطر المائية *Aqueducs* ، ويجرى نهر التيبر وشواطئه ، والجاري

العامة ومباني الدولة ، وكلها دوائر بمنزل عن اختصاص الموظفين ، ترجع لاشراف الامبراطور مباشرة .

فالشكليات التشريعية والمظاهر الخارجية استمر العمل بها بعد ان بولغ في الحفاظ عليها . غير ان المخطاط النظم القديمة كان قطع مراحل بعيدة بالرغم من الاحتفاظ بالهيئات الشعبية ونظام الوظائف الادارية ، ومجلس الشيوخ ، وبذلك ألبس العهد الامبراطوري النظام الملكي الذي اقامه في البلاد ، رداءً جمهوري المظهر .

٣ - النظم والمؤسسات الجديدة

التي طلعت بها الحكومة والادارة المركزية

قابل انحسار العهد الجمهوري ، في الجانب الآخر ، قيام ادارة جديدة ضرورة التطور ومصاعبه اقتضت ما اقتضته من نظم ومؤسسات اخذت تتفتح وتنظم تحت اشراف الامبراطور وبمعيته ، فضمت عدداً من الموظفين عهد اليهم الاضطلاع ببعض نواحي الادارة ومساعدة الامبراطور في الحكم . ففي خلال هذين القرنين ، لم يبق احد من هؤلاء الامبراطرة ، حتى من اشتهر بينهم بموقفه المعتدل من مجلس الشيوخ ، وباستعداده الطيب نحوه ، بمالأة هذا المجلس الذي لن تسنح لنا الظروف بالتنبؤ به ، إلا بنسبة ما يتصل بأتفه الاحداث التي رافقت هذا التطور بعد ان اصبح لا يُقاوم . صحيح انه قطع بعض المراحل بسرعة ، وهي سرعة لم تتم في عهد الامبراطرة الأكثر قفاظة او ذوي النزعات الأكثر اضطراباً ، امثال كاليغولا ودوميتيانوس مثلاً . فقد جاء هذا التطور على يد امبراطرة تأثروا كالامبراطور كلوديوس ، مثلاً ، بنصح بطانتهم النيرة ، او كالامبراطور هدريانوس ، الذي كان عهده حانماً ، فوضعوا نصب أعينهم ، في الدرجة الاولى ، مصلحة الدولة العليا .

وهذا التطور الموصول ، لا يمكن ان يفوت معناه احداً على الاطلاق . فمن شئت من المقاطعات ولكم الولايات ضمت بعضاً الى بعض ، بعد ان تم فتحها على يد مدينة مظفرة ، حكمتها ونظمتها بوسائل مرتجلة ، وأمنت حاجاتها كما تبنت لهذه المدينة ، وراحت تطبق هذه الاساليب بالذات ، حقاً او بطلاً ، على العالم الذي خضع لها ، كان لا بد للامبراطورية الرومانية ان تهدف لنظام دولة ، وان تصبح بالفعل ، دولة لتحقيق الاهداف التي تضعها نصب عينيها ، والرسالة التي تضطلع بها . فقد تأثرت ، ولا شك ، بما عرفت من خبرات الممالك الهلينية التي قامت في الشرق او ربطتها بها علاقات نامية واخذت الكثير من نظمها السياسية والادارية . فأين يمكن لها ان تجدد ، في هذا المجال ، احسن من الشرق الهليني تجربة ناضجة ، مكتملة ، والمناهج القوية التي لا بد لدولة عظيمة ، من الاعتماد عليها والركون اليها ؟ فلا عجب ، ان يرد الامبراطرة الرومانيون على مثل هذا المين الثري يعثون منه ويصدرون عنه . إلا انهم كانوا متحفظين جداً في ما

نقلوا ، وحرصوا ألا يكون القبس تقليداً حرفياً ، ونقلوا أسمى ، فراحوا يكتفون ، وفقاً لأغراضهم وحاجتهم ، بعض النظم التي تلقفوها ، كما استنبطوا من جهتهم حلولاً جديدة للمشكلات التي عرضت لهم .

يجدر بنا ، ونحن نستعرض لهذا كله ، ألا نعوّل كثيراً على تضارب آراء الكتبة الاقدمين وجدلهم الصاخب ، الذين ردّدوا ، من حيث يدرون أو لا يدرون ، ورتّبوا ، عن وعي أو غير وعي ، رأي مجلس الشيوخ المعروف بتمسكه بماض مرّ وانقضى ، أفزعه طلوع طبقات اجتماعية جديدة في البلاد ، وهاله سفح « الحرية » ، واستبداد النظام الملكي من كل جانب . ففي التاريخ القديم ، على ادنى تقدير ، لم نر أي نظام ملكي ، حتى هذا النظام الامبراطوري نفسه ، يقبل ، راضياً مرضياً ، على الأخذ بمثل هذه الوظائف في الادارة . فهو يشعر مسبقاً بفقره واحتياجاته الشديدة للموظفين الفنيين ، الأمناء المخلصين ، كما انه لا يجهل قط كيف ان رسوم الجباية والضرائب مهما زادت ، تقصر عن تغطية الزيادة الحاصلة في بابي النفقات والصرف ؛ فلا بد ، والتالي ، ان يصاب نشاط الدولة بشيء من الوهن والضعف ، من هذا كله . فلا يقبل على الأخذ بالنظم الجديدة إلا بضغط من الضرورات القصوى . ففي هذا الظرف بالذات ، فلذة الاستبداد لا تدخل في الحساب ، بل الحاجة الملحة للتنظيم ، لجعل الادارة أكثر فعالية ولانقاذها مما عانت من سوء التصرف ، ومساوئ عدم الكفاءة وعدم الانسجام التي تضرست بها من قبل .

فلسفة العهد في مرحلته الاولى ، لم تكن ذات نزعة مطلقة . فهي على عكس ذلك تماماً ذات نظرة شوری . فالآلوف من القضايا والامور التي كانت تُعرض من قبل لنظر كبار الموظفين ، أو لحكام الولايات ، أصبحت تُرفع ، منذ الآن فصاعداً ، للامبراطور رأساً . وهذا التوزيع الذي ساد الادارة من قبل ، وحال دون خلق دوائر وإحداث مصالح فيها ، ولو بشكل بدائي ، أولي ، زال وانقضى وحل محله تجميع اداري جعل من الضرورة انشاء مثل هذه الشبكة الادارية وتنظيمها . فلم تنشأ كلها دفعة واحدة ، مكتملة الجهاز والاختصاص . والذي تأخر ظهوره ، ولا سيما في بعض المصالح ، هو الاعتراف بالطابع الرسمي لهذه المصالح ، مع انه كان باستطاعة الامبراطورة فرضها بالقوة قبل ذلك بكثير ، انما آثروا بقاءها والاستعانة بها كأدوات مساعدة خاصة . وقد بدا ، لعمرى ، شيء من التناقض ، ولو في الظاهر ، بين العهد الجديد ، من حيث كنهه وجوده وطبيعته ، وبين النظام الوظيفي الذي تبناه وسار عليه ، هذا النظام الذي قام في الأصل ، على التفوق البارز الذي تجلّى في مؤسسه ، فاذا بالدولة تخفض من أثره المباشر فأقصرت عمله الاكبر على التوجيه ، والإشراف على ادارة لها كيانها الخاص وتعمم بالديومة والاستمرار .

هذه الملاحظات التي ابديناها هنا ، تلاحظ على الاخص ، مجلس الامبراطور الخاص .
الامبراطور الخاص ، والمصالح العديدة الاخرى التي اقتضاها حسن سير العمل في هذا المجلس ، والتي لم تدخل في صلب تكوين الدولة الا من عهد هديرانوس .

كان لاوغسطس، منذ البدء، اصدقاء حميمون، بينهم « مكيني » و « أغريبا » ، كما كان يحف به، في اوقات الحرب، رفاق سلاح لم يلبثوا ان ألتفوا حوله اركان حربه. وهذا العرف التقليدي، له اصوله الرومانية البعيدة الجذور والمحترمة معاً - فعلى كبير القوم ان يستشير من حوله - كما له اصول هيلينية ، ولذا استمر الاخذ به والحفاظ عليه . ومع ذلك لم يبلغنا قط ، ان هؤلاء « الاصدقاء » ألتفوا يوماً، بالرغم مما بين الاسماء من مشابهاة، طائفة او هئية سلسلة الدرجات والرتب، شبيهة، من بعض الوجوه، بما كان معروفاً من امثال هذه الهيئات، في الممالك اليونانية.

فالاهمية المتزايدة للدور النامي الذي لعبه الامبراطور في الحقلين العدلي والقضائي هي التي تبرز التقدم الذي تحقق في انشاء « مجلس الملك » الذي كان يجتمع بصورة غير منتظمة ، كما ان تشكيله كان يختلف في عهد اوغسطس ، ولم يصبح قائماً ، ثابت الشكل إلا في عهد طيباريوس . وقد تجدد تشكيله رسمياً واعيد النظر جذرياً في قوامه ، في عهد هدريانوس . وكان اعضاؤه يقسمون الى ثلاثة فئات ، ويتقاضون مرتبات سنوية ويمقدون جلساتهم برئاسة الامبراطور او برئاسة كبير امناء البلاط ، في حال تغيبه . وهم يتألفون عادة ، من شغاليه وشيوخ ، يقر مجلس الشيوخ نفسه تعيينهم في هذه الوظيفة . وبين اعضاء المجلس عدد من كبار الفقهاء والمشرعين، يتحلون، مهما كانت الظروف، بالكثير من الحنكة والخبرة الواسعة ونفاذ البصيرة. ، وذلك للبت بالقضايا المحالة الى مجلس الامبراطور او المستأنفة اليه للنظر فيها من جديد، وذلك لتفسيراً لقانون جديد ، او شرحاً او تكملة لتشريع خاص . ففي مجال الشرع ، حقق مجلس الامبراطور الخاص *Concilium principis* عملاً تشريعياً عظيماً من ابرز الاعمال التي قام بها العهد الامبراطوري .

لا بد للامبراطور من كتابة سر او ديوان، ابوة بسراة القوم وعظماهم عند المكاتب الادارية الرومان . فاستخدم اوغسطس ، في هذا السبيل ، أمثال ما لديه من الأرقاء أدباً ، وارفعهم ثقافة ، وابرزهم علماً ، وهم على الغالب ، اقوام اغارقة او شرقيون ، اعاد اليهم حريتهم ، وأعتقهم ، بعد ان رسفوا في العبودية طويلاً فاعتقهم وحررهم ، تقديرأً منه للخدمات الجللى التي أدوها .. وكانت امانة السر في بادىء الأمر ، ديوان كتابة خاص ، لا مشاركة له في الصلاحيات والاختصاص . ومثل هذا الديوان تم انشاؤه على يد الامبراطور كلوديوس ، الذي اذناً ايضاً عدداً من الدواوين والمصالح ، فجعل واحداً منها للأداب ، وآخر للمظالم ، وآخر للتحقيق القضائي، وآخر للدراسات، وبعد ذلك قام ديوان آخر هو ديوان بيت المال او المحاسبة . واستمر العمل بهذه الدواوين لتيسير مهمة الادارة ، كما نشأ غيرها كثيراً فيما بعد ، كديوان المحفوظات *Archives* . وهكذا قام الى جانب الحكومة المركزية اجهزة ادارية أتيح لها ان تقوم بعمل رتيب ، رصين ، موصول الاصول ، لم يكن بد منه للانضباط .

ويبقى رؤساء هذه الدواوين او المصالح الادارية ، لمدة ثلاثة ارباع القرن ، بين يدي المعتقن من الرق . من أشهرهم في عهد كلوديوس الامبراطور : نرسيس *Narcisse* وبلاس . فالنفوذ المريض الذي تم لها ، والغنى الوافر الذي جمعاه بطرق وأساليب تختلف أمانة واستقامة ،

والاجلال الذي أحيط به وهما في بطانة الامبراطور ، والملق الذي لاقوه من ذوي الالتماس ، جعل اعضاء مجلس الشيوخ يجرضون في ريقهم حسداً ، كل ذلك لم يخف عن الناس ، الأصل الوضع الذي انطلقوا منه . فاذا ما خدموا الامبراطور فخدمتهم هذه تذهب لسيدهم بكل ما في الكلمة من قوة شرعية أكثر مما تتجه للامبراطور نفسه . وعلمنا ان نلتظر طلوع عهد هدريانوس لنرى تغييراً جوهرياً في طبيعة هذه الدواوين ، اذ اخذ الامبراطور يسندها ويلقي بها الى شخصيات لها شأنها في المجتمع ، فيأتي بهم ، في معظم الحالات ، من صفوف الشفاليه . فأعضاء مجلس الشيوخ لا يمكن الاعتماد كثيراً على ولائهم ، كما ان المنزلة التي لهم باعتبارهم اعضاء الندوة المذكورة ترشحهم لوظائف أكبر ، من الوجهة العملية ، مع انها ترتبط بالامبراطور من الوجهة النظرية .

وأجهزة التقرير والتبليغ هذه ، كانت تهتم بشؤون العالم الروماني كله بينما أنشأ وصاية ونيابة الامبراطرة عدداً من الوظائف الاخرى ، تعمل بها في ايطاليا وبعدها في روما فقط ، وهي وظائف وادارات لا يمكن فصلها عن الحكومة المركزية بشكل من الاشكال نعمت كلها بصلاحيات وسلطات محلية وفقاً لدوائر ادارية معينة ، كما لعبت دوراً مهماً في عالم السياسة . وهذه الوظائف المتباينة في طبائعها وصلاحياتها وفي مسؤولياتها ، من الممل والناقل معاً ان نحاول هنا استعراضها جميعاً ؛ يعهد الامبراطور ببعضها الى مفوض او مندوب يدير شؤونها ويتحمل مسؤولياتها كوظيفة « نواب » *Préfets* ، اما الاخرى فوظائف مزدوجة لها طابع فني او تقني ، تستوجب من صاحبها الاختصاص والاستمرار ، وهي شروط لا تتوفر عادة في الحكام والمراقبين الذين ينتدبون لمدة سنة . ومن بين هؤلاء الموظفين : الاوصياء *Curateurs* الذين يتألف من مجموعهم لجان تقوم بالاعمال التي كان يعهد القيام بها من قبل الى « سنسور » المراقب . والخاصة الميزة هؤلاء الموظفين هي انهم يعيّنون من قبل الامبراطور ، وهو يدفع لهم مرتباتهم ويخضعون للترقية والترفيغ ، والعزل والرفق ، حسبما يراه مناسباً . وبما ان الادارة لا تنفصل عن العدل والعدالة ، فالامبراطور يتدخل بواسطة المندوبين والمعتمدين في معظم شؤون الدولة : العامة والخاصة ، على السواء .

بين هذه الوظائف ، عدد كبير يحتفظ به لاعضاء مجلس الشيوخ ، منها وظائف الاوصياء ، باستثناء ما كان منها خاصاً بالطرقات الثانوية او الفرعية الواقعة في ايطاليا ، ومنها الطرقات الرئيسية او الدولية ، وقناطر روما ، ومصلحة ضفاف نهر التيبر ومجارير المدينة ، الى غير ذلك . ومن هذه الوظائف : نيابة المدينة التي انشئت ، في الأصل ، لتمثيل الامبراطور في روما ، عندما يكون غائباً عنها ، وبقيت وظيفة دائمة ، استمر العمل بها ، بعد مكث الامبراطور طيباريوس الطويل في جزيرة كابري . وعلى صاحب هذه الوظيفة ، ان يسهر على الامن واستتبابه في جميع انحاء المدينة ، وتحت تصرفه ثلاثة طوابير من البوليس البلدي . وبعد ان استهدف صاحب هذا المنصب لمنافسة شديدة طويلة ، بقي على رأس القضاء الجنائي ، في روما وضواحيها ،

على مسافة ١٠٠,٠٠٠ خطوة او ما يوازي ١٥٠ كلم - فافذا ما جمع الى. وظيفته وهي عضوية مجلس الشيوخ ، عد ذلك تكريراً لمجلس الشيوخ كما عد اعترافاً من الدولة بالدور المجيد الذي لعبه هذا المجلس في تاريخ روما والامبراطورية التي انشأتها.

اما النيابة الاخرى فيشغلها موظفون من فئة الشفاليه ، بينها ثلاثة خليفة بالاحترام تستحق التنبؤ به بشيء من التفصيل .

فاولي منها هي نيابة الـ *Prætor* او الولاية وتشبه رئاسة الوركاء ، وهي عبارة عن مركز عالٍ متعدد النشاطات والصلاحيات . فنائب الولاية هو قائد حرس الامبراطور قائد الجيش الاعلى ، الذي يتألف عادة من تسعة طوابير ، يعد الواحد منها بين ٩٠٠ - ١٠٠٠ جندي ، ومرصنها روما. منذ عهد طيباريوس ، بينما لم يكن منها في عهد اوغسطس ، في ايطاليا كلها ، سوى ٦ فرق لا غير . وهذه القوة مكلفة بالسهر على الامن وتأمين اسبابه ، وتمكين الامبراطور من ممارسة سلطته غير المحدودة باعتباره القائد الاعلى للجيش.

ورئيس الحرس يحمل دوماً خنجرأ صغيراً رمزاً لوظيفته وللصلاحيات الواسعة التي يمارسها ، يقلده اياه الامبراطور تنوياً منه بان له حق الموت والحياة . ويقوم نائب الولاية ، من جهة ثانية بدور رئيس اركان الجيش ، ويتعهد تجهيزاته لاسيما في اوقات الحرب ، ويمارس ، في ايطاليا ، السلطة الجنائية ، على مسافة ١٠٠ ميل ؛ كما ان موظفي هذه الفئة هم ، بحكم الوظيفة التي يشغلونها ، اعضاء مجلس الشورى ، كما نظمه الامبراطور هديرانوس . فصاحب هذه الوظيفة ، يأتي في قمة سلم الدرجات الوظيفية ، وهي وظيفة تحفظ عادة لفئة الشفاليه . غير ان اباطرة العهد الاول يترددون في امر صاحب هذه الولاية ، يعهدون بها ، من وقت الى آخر ، دونما تمييز او تحديد في الصلاحيات ، الى اثنين من الموظفين ، او الى واحد ، على السواء . الا انهم يفضلون ، مراعاة منهم للفعالية وحسن التنفيذ ، وضبطاً للإدارة ، إسنادها ، في الغالب ، الى موظف واحد ، مع ما عرف عنهم من حذر وتحسب له ما يبرره ، اذ ان قصة سيجان ، في عهد طيباريوس ، وبيرينيس ، في عهد كومود لا تزال ماثلة في الأذهان . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان يوجس الاباطرة شراً من العهد بثل هذه القوة والسلطة الى نائب تجيش نفسه بالاطماع. ومن الامراض التي اوهنت العهد وفتت كثيراً في عضد الدولة لتفشيها ، عدم توفر الولاء في هؤلاء الحكام ، وافتقار الموظفين للاخلاص ، وحب الانتفاض والثورة التي كثيراً ما تمخض بها جنود الولاية . فلا عجب ان يكون والي الولاية هو المسؤول الاول عما يحدث في الولاية من امور تخل بالامن .

اما الولاياتان الاخريان الاقل نفوذاً وتأثيراً : ولاية الحراس *Vigiles* (شرطة الليل وسرية مكافحة الحرائق) ومصالحة التموين والتوريدات *Annone* ، فلم يكن من خوف او تحوط من اصحابها . فقد أولت ظروف الحياة وملابسها المتشعبة والمعقدة في روما ، هاتين الوظيفتين ، اهمية كبيرة لما كان يجب ان يتحلى به صاحبها من الاستعداد الفتي والتفتي . فلا عجب ، والامر كما ذكرنا ، ان يُضفي عليهما منصب والي الولاية ، بعض الظلال الكاسفة ، وذلك بالنسبة للقوة

العسكرية والحربية التي كانت توضع عادة تحت تصرف هذا الوالي .

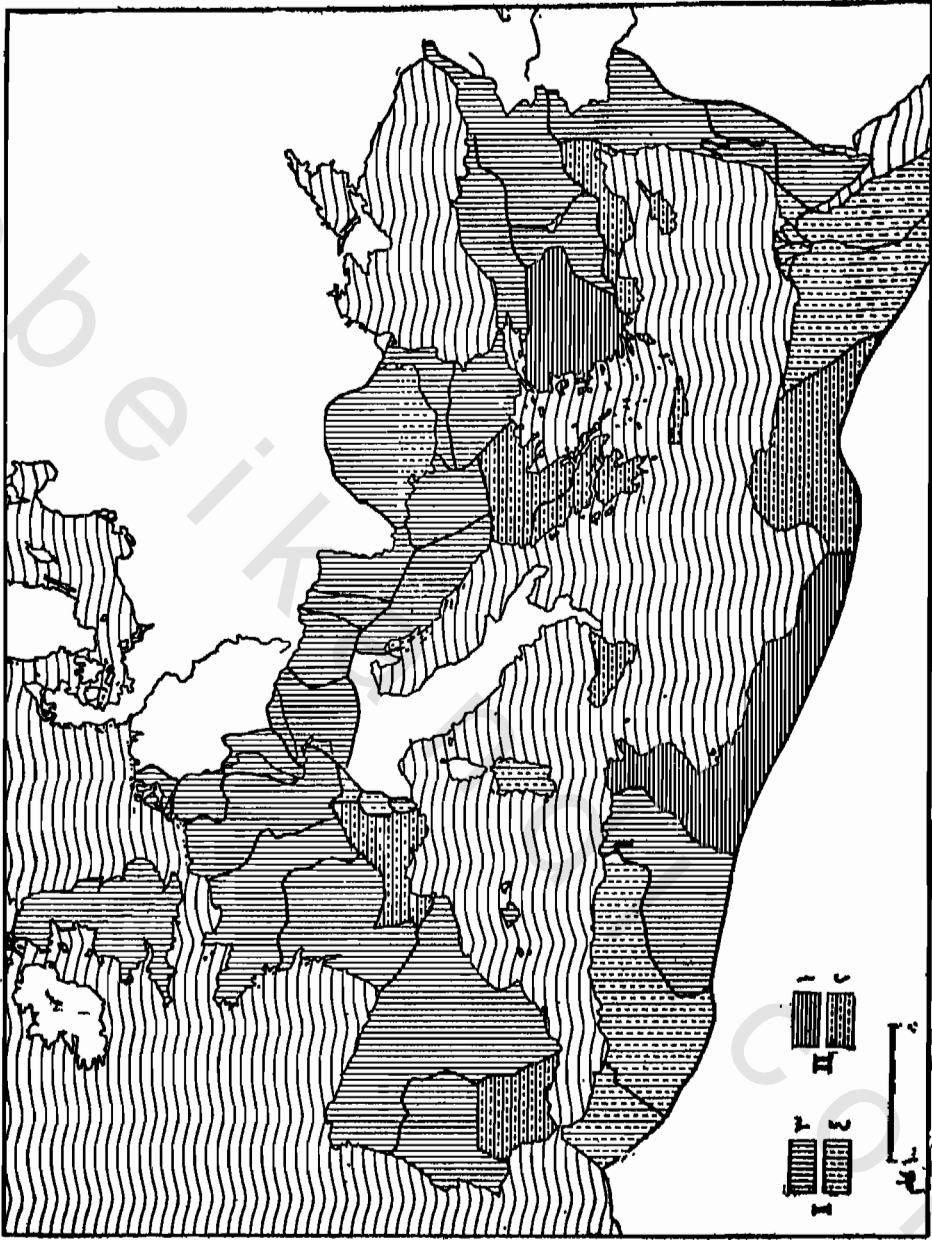
عدد كبير من هذه الوظائف المستجدة يعيد الى الازهان سوابق من الوظائف الهلينية. فدير الحرس يذكرنا حتماً ، بقائد الليل *Stratège de nuit* لدى البطالسة ، ووالي الولاية نفسه المستمد صلاحياته من القانون الروماني العام يحمل طابع قائد الحرس الملكي في الممالك اليونانية التي قامت في اعتقاب خلافة الاسكندر المقدوني بما اعتوره من شوائب ولازمه من عورات . وذلك يعود بالفعل ، الى طبيعة الوظيفة ومهامها الاساسية لدى الطرفين : فهي واحدة هنا وهناك ، اذ تقوم اصلاً بالاشراف ، والعمل على كل ما من شأنه ان يزيل الاضطرابات والقلق والفوضى . فاذا ما عرفت الامبراطورية ان تحمل المشكلة على مثل هذا النطاق الواسع من الاجراءات والاحتياطات ، وعلى مثل هذا الاهتمام الشديد والمستوى العالي الذي لم يُبلغ الى مثله او بعضه في الممالك الاخرى ، فمرد ذلك ، من جهة ، الى انها افادت كثيراً من التجربة التي تلقتها من الخارج ، كما انها راعت ، من جهة ثانية ، ما كان يحف بروما من وضع معقد بالنسبة لعدد سكانها الكبير والاهتمام الذي هم به جديرون والابحار التاريخية التي يمثلون . ومهما يكن من الامر ، فالباطرة ، لم يعودوا ليعنوا ، هم انفسهم ، بحل المشكلة عن طريق ايجاد مصلحتين لهذا المنصب او دائرتين ، طالما راح غيرهم يبحث عن مثل هذا الحل ، ان لم يكن توصل بالفعل ، الى حله بعد . من ذلك مثلاً انهم اقاموا حاميات دائمة مستقرة ، كما عهدوا بالامر ، من جهة ثانية ، الى عملاء ، لهم كل الثقة بولايتهم فأولولهم صلاحيات ومسؤوليات انتزعوها ، على نطاق واسع ، من مجلس الشيوخ ومن بعض الحكام ، بحيث يستطيعون معها تأمين الادارة البلدية .

فالنائج النظرية جاءت جلية ، واضحة بينما كانت هذه النتائج ، من الوجهة العملية بسيطة لا يؤبه لها كثيراً . علينا مع ذلك ان نلاحظ هنا ان الصعوبات العملية جاءت من قبل قسم من الجيش والحاميات المربطة دون ان يشترك الشعب بهذه الاضطرابات او يساهم في إثارتها ، كما حدث في كل من الاسكندرية وانطاكية .

٤- الادارة المحلية والاقليمية

كذلك كان من الضرورة بكان ، تأمين ادارة رشيدة للامبراطورية ، تبرز معها المسؤوليات ، تقتضي وحسده في السياسة ، كما تقتضي مواصلة العمل على تحقيقها . وكان من الحتم على السلطة الامبراطورية ان تبرهن ، منذ البدء ، عن سيطرتها المطلقة وامتلاكها ناصية الامور والاشراف على الادارة الحكومية التي اخذت بالاتساع والتضخم .

بجرد التفكير بتجريد ايطاليا مما لها من وضع ممتاز في الامبراطورية ، والقضاء على
اطاليا
الامتيازات التي كانت تتمتع بها ، منذ عهد بعيد ، كان من شأنه ان يثير وحده ،
العثار ويطلق الشكوك . ففي هذا القطر الذي كانت فيه روما تتمتع بما تتمتع به من وضع مدني



الشكل ٩ - خريطة التقسيمات الادارية للامبراطورية الرومانية في اواسط القرن الثاني

I - ولايات مشيخية يتولى الحكم فيها حكام من رتبة بروقنصل ؛ ١ - ولايات حكامها قناصل قداماء ؛ ٢ - ولايات حكامها بريطور مقدمون.

II - ولايات امبراطورية يتولى ادارة الحكم فيها ؛ ٣ - مندوبون بروريتوريان من فئة قنصل قديم او مقدم قديم ؛ ٤ .. بروكوراتور او ولاة من رتبة شفالیه .

من المسير تحديد الفئة التي كانت عليها جزيرة كورسكا - لم تكن ايطالية منقسمة اذ ذاك الى ولايات .

ممتاز ، كان الشعب يتمتع بشبه ادارة مستقلة ، و تقتوى الهيئات الشعبية ادارة شؤونها البلدية تحت مشاركة مجلس الشيوخ والحكام الاداريين المحليين ، وقد أدخلت ، بعد ذلك بكثير ، تعديلات على هذا التقليد الموروث : فالشؤون البلدية فيها لم تستبد بالطبع بالاهتمام ، كما استبدت به روما ، ولا عرفت الحدة والدقة في الادارة التي اقتضتها روما في هذا المجال . ومع ذلك كان لابد للادارة العامة من الالتفات لهذه الناحية ، وذلك بتعيين مندوب *Curateur* لهذه او لتلك من المدن التي تعاني البلبلة وعدم الانتظام في ميزانيتها ، وآخر ليعنى بشؤون العدل والعدالة . وقد طلع علينا الامبراطور هديرانوس في هذا المجال بتدبير جديد ألغاه خليفته ، ولم يلبث ان عاد اليه مارك اوريل وأصبح من بعده تدبيراً مرعي الاجراء رسمياً ، اذ قسم شبه الجزيرة الايطالية الى أربعة محافظات او ولايات ، قام على ادارة كل منها ، شيخ من اعضاء مجلس الشيوخ يحمل لقب « قاض » ، اذ كان بين اختصاصاته القطع بالقضايا المدنية ، بينا القضايا الجنائية كانت من اختصاص ولاية المدن والولاة الذين كانوا يعنون بمراقبة سير الحياة في المدن ، ويتدخلون بشؤونها ، كلما سنحت لهم الفرصة لذلك . وهكذا تم تدريجياً إعداد ايطاليا وتهيتها للمصير ذاته الذي آلت اليه الولايات الأخرى ، بعد ان رؤي ادخال تحسينات جديدة على اوضاع المدن في الولايات الأخرى .

تقدم ذكر الخطط الادارية الكبرى عندما جرى البحث عن وضع
توزيع الولايات والحكام
الولايات . ففي ١٧ كانون الثاني (يناير) عام ٢٧ ق . م ، صدر مرسوم قسمت معه الولايات الرومانية خارج ايطاليا ، بين مجلس الشيوخ وبين اوغسطس ، على أساس من التوازن بين الجانبين . وما لبث هذا التوازن ان اختل فيما بعد ، لصالح الامبراطور ، للتعديلات التي طرأت على هذا الاتفاق ، ولا سيما بعد ان ضمت الى الادارة الامبراطورية ، ولايات جديدة تم فتحها في وقت لاحق . ففي اواسط القرن الثاني ، كان الوضع بالنسبة للولايات الرئيسية التي كان يحكمها برتبة شيخ من اعضاء مجلس الشيوخ ، ومن بينها ولاية مصر التابعة طبعاً للادارة الامبراطورية ، كما يلي : ٢٣ ولاية أمرها منوط بالامبراطور رأساً ، و ١٠ ولايات مرتبطة ادارياً بمجلس الشيوخ .

كان الامبراطور ، بالطبع ، يسيطر عن كثب ، على حكام الولايات الخاضعة لادارته ، وهم ، في الغالب ، من اعضاء مجلس الشيوخ ، سبق لهم ان شغلوا من قبل ، مراكز قناصل او مفوضين ، وفقاً لأهمية الولاية او الحامية العسكرية المرتبطة فيها . فهم يحملون لقب « نائب اوغسطس » ، تدليلاً على تابعيتهم ، ويضاف الى لقبهم هذا الوصف *Proprétoriens* تدليلاً على التحاقهم بالامبراطور لأن له الحق وحده في الدولة بأن يلقب بروقنصل في الولايات الآفة الذكر . اما حكام الولايات الأخرى ، أي تلك التي أنيط امرها بمجلس الشيوخ ، فكانوا يؤخذون من طبقة الشفاليه ، ويعرفون باللقب *Procurateurs* ، فكانوا يتولون شؤون الولايات الصغيرة ، او ادارة المقاطعات التي لم تكن قطعت بعد شوطاً بعيداً في مضار التطور الحضاري ، مثل مقاطعات

موريتانيا الواقعة الى الغرب من افريقيا الشمالية . وعلى كل ، لم يكن تحت حكام هذه الطبقة أية فرقة من فرق الجيش . وعلى هذا الوضع بالذات كانت مصر وصاحبها يعرف بـ والي . وكانت مصر مركزاً لحامية عسكرية ، اختلف عدد فرقها على توالي الزمن ، فكانت ٣ في القرن الاول ، ثم اثنتان ، ثم واحدة منذ عهد هدر يانوس . وقد دعا الى قيام مثل هذه الحامية في مصر ، ما كان لوادي النيل من أهمية بارزة ، في مدّ روما وإيطاليا بما تحتاجان اليه من المواد الغذائية . ويكشف لنا المؤرخ الروماني « تاسيت » ما كانت تحفّيه تولية الامبراطور لولاية مصر من سر خفي ، اذا كان يحذر الحذر كله من دخول أي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ، أو أحد من فرقة الشفاليه له شهرته الواسعة ، مصر ، بدون ترخيص خاص منه مسبق ، وذلك لما يتعرض له من اغراء شهوة الخيرات الوفرة التي كانت ترفل بها تلك البلاد ، والرغبة في الاستمتاع بها ، فيأخذ في تبذير الدسائس وحبك المؤامرات للاستئثار بهذه الخيرات . فيحاول منع تصديرها الى الخارج ، وفي ذلك ما فيه من تهديد لسيطرة الامبراطور نفسه ولروما بالجماعة . ولذا كان الامبراطور يولي الوظائف الادارية الكبرى لاداريين من رتبة الشفاليه ويعهد اليهم بوظيفة حاكم في الولايات الخاضعة لسلطته مباشرة .

ومهما يكن من أمر هؤلاء الحكام ، شيوخاً كانوا أو شفاليه ، نواباً للملك أو ولاة أو مفوضين ، فهم من رجال الامبراطور وخاصته ، يصنطفيهم بنفسه ، ويعينهم على رأس الادارة ، فيبقون فيها ما طاب له بقاءهم عليها ، وهم مسؤولون عن ادارتهم امامه وحده ، أو امام من ينتدبه من قبله لمحاسبتهم ، ينزل بهم القصاص الصارم ، اقله الرفق والعزل ، اذا ما اساءوا الى ما أوْتَمِنُوا عليه ، من مهام ومسؤوليات ، أو يميزهم خيراً بمنحهم الألقاب الفخرية وترفعات سنية ، اذا ما رضي عن اعمالهم ونتائج ادارتهم .

ولم يكن من النادر قط ان نرى موظفاً من اعضاء مجلس الشيوخ يتقلب تبعاً بين الوظائف الكبرى فيمارس تارة وظيفة *Proprétoriens* أو بروقنصل ، اذ لم تكن مثل هذه الوظائف توزع على فئتين من الموظفين : اصحاب الاولى من الشيوخ الذين يمكن نعتهم بالحيايين أو الأحرار ، واصحاب الثانية من الموظفين التابعين للادارة الامبراطورية . فهذه المناصب الادارية ذات الدرجة الادارية المشتركة والصلاحيات المختلفة التي اقتضت مصلحة الدولة وحسن سير الاعمال انشاؤها بكثرة ، وما يحدد لها من مسؤوليات وصلاحيات واغراض ، لم تكن سوى درجات في سلم التوظيف الخاص بالشيوخ ، وفقاً للعرف المتبع ، يعملون جميعاً ، كل واحد ضمن اختصاصه ، في خدمة الدولة ، وتأمين مصالحها . والى جانب الأخذ بهذا العرف الاداري المعمول به ، كثيراً ما كان الاباطرة يتخذون ، ابتداءً من مطلع القرن الثاني ، قرارات ومراسيم ، بتعيين عدد من كبار الموظفين يُنتَقون من فئة الشفاليه ، في رتبة توازي عضوية مجلس الشيوخ أو أعلى درجة من بين الحاصلين على الرتبة الأولى من هذه العضوية ، الأمر الذي أدى بالتالي الى توحيد السلك الاداري ، وتأمين التجانس بين سلم الدرجات . وهكذا أصبحت هذه المفارقات النظرية ،

بين مرتبة وأخرى ، لا معنى لها وليس ما يبررها . فالاشخاص الذين يقع عليهم الاختيار للمء هذه الوظائف ، سبق ان اعطوا الدليل على كفاءتهم وعلى ما يتحلون به من قدرات ومؤهلات ادارية ، وعلى جدارتهم المسلكية للمهام التي ينتدبون اليها او تناط بهم . فتعيينهم لهذه الوظائف يُعتبر ترفيعاً استحقوه ، بعد ان عرفوا ان يجمعوا الى الاختصاص الذي يحملونه ، شعوراً قوياً بالاخلاص للمصلحة العامة المشتركة التي يعملون على خدمتها ، وان يزدادوا ولاءً للامبراطور ، بنأى عن روح الزلفى والملقى التي تطبع عادة رجال الحاشية والبلاط .

في هذه الروح تقوم بالفعل احدى المفارقات التي ميزت العهد الجديد روح جديدة تغمر الادارة الذي طلع على البلاد ، والى مثل هذه النتائج الطيبة ، افضت التطورات التي طرأت على جوهر الادارة المحلية في الولايات .

فالمركية الادارية التي سار العهد الجديد على مبدئها وطبقها في الولايات ، لم تجلب معها المزيد من الحرية لسكان الولايات . فمثل هذا الجهاز الاداري البطيء الحركة والثقيل الوطأة لم يقتصد عليهم بالمتاعب . فالحرية التي ما زالت بعض الجماعات والهياكل الشعبية المحلية تتمتع بها ذهبت ، هي الأخرى ، ضحية الاصلاح الاداري ، فجرت على الأمور الادارية وقضاياها شيئاً من البطء والتهمل في معالجتها ، والتشاغل في تحريكها والانتقال بها ، اذ كثيراً ما كانت الادارة المحلية تضطر لرفع الأمر للادارة المركزية للموافقة على التدابير والاجراءات التي تتخذها في امر معين . فانشاء مصلحة البريد الرسمي للدولة وتنظيمها في عهد الامبراطور هديرانوس تحمل اعباءها ، السكان القريبون من طريق البريد ، اذ فرض عليهم ان يؤمنوا ما يحتاج اليه البريد من حيوانات الجر ووسائل النقل .

ومع ذلك ، فاذا ما رحنا نقارن بين المنافع التي عادت على الشعب في العهدين شالت كفة الامبراطورية ورجحت . فالولايات التي لم تكن لتبالي باحتضار مجلس الشيوخ وحشرجه ، لم تتضرر كثيراً بما حيك من دسائس في البلاد ومن الاغتيالات السياسية التي أتاها احياناً . فالمصالح الادارية الكبرى عرفت ان تؤمن التعاون بين مختلف الدوائن ، وان تطبق بمخافيرها ، نصوص القوانين المعمول بها من قبل ، وذلك حتى في احلك الأزلمات التي هزت الامبراطورية وفي عهد أسوأ الاباطرة . ان امبراطوراً من طينة نيرون مثلاً ، لم يكن كله سيئات ، فترك اثرأ مختلف قدرأ لدى سكان الولايات . فما عسى ان يكون الوضع ، والحالة هذه ، مع اباطرة خيرين ، عرفوا بنشاطهم العارم ، وقرعوا للعمل المجدي على صعوبته ، امثال : طيباريوس ، وفسبسيانوس ، وترايانوس ، ومن جاء بعدهم . وهكذا جاشت الحكومة بادارة جديدة ، غمرها ، أكثر فأكثر ، شعور الولاء للسلطة ومكنت لهذا الشعور في نفوس الناس وقلوبهم ، صهرتها التجربة ، وصقلتها الاختبارات الماضية فتأثرت ، الى حد بعيد ، بالنظريات والفلسفات الهلينية ، ولا سيما بالنظرية الانسانية التي تنزت بها فلسفة الرواقيين فانسجمت مع النزعات الرومانية بعدان لقحتها . وتمتعت هذه الادارة ، الى جانب الثقة التي اولتها السلطة الامبراطورية ،

بما يلزم من الوسائل لفرض مشيئتها وللتعبير عنها بأعمال واجراءات حظيت بتأييد السلطة ومساعدتها . وهكذا رأينا حكومات الولايات تنعم ، هي الأخرى ، بمجاز اداري ، تم له في جميع درجاته ، الملاكات والأطر اللازمة ، والمؤهلات الادارية التي لا بد منها . فكانت من المتوجب على كل حاكم ولاية ان يراقب ، عن كثب ، مرؤوسيه ، كما كان يخضع ، هو الآخر ، لمراقبة أعلى ، من قبل الادارة المركزية ، بما حوله من عيون مبنوثة وأرصاد قائمة . وقام الى جانب الوالي دوائر ومكاتب ديوانية محلية ، انتظمت أعمال الادارة ، وسارت بها على شكل ما قام من امثالها في روما . ولم يكن ليبدو لأحد قط ان الأمر بلغ حد الكمال والتام في هذا كله ، انما ساد الجميع شعور بأن الوضع الإداري احسن حالا بكثير ، مما كان عليه من قبل .

برزت هذه الحقيقة على أنصع صورها في مرفقين هامين من مرافق الادارة العامة في
العدالة الامبراطورية ، هما : العدل والوضع المالي في البلاد .

قام فوق السلطات البلدية حاكم الولاية الذي أخضع ما كانت تتمتع به هذه البلديات من حريات ، لقيود وتضييقات متزايدة . فكان قطب الادارة الاقليمية ومرجعها الأكبر . فهو الذي يتولى النظر في أهم القضايا المدنية التي تعرض عليه ، ويُقرّ الأحكام بالموت التي تصدرها المحاكم ، كما حدث ذلك لبيلاطس البنطي ، والي اليهودية ، عندما صدق على الحكم بصلب السيد المسيح . كان للرعايا الرومانيين الحق بأن تجري محاكمتهم في روما اذا ما راحوا يتمسكون بحقهم هذا ، فيمثلون امام محكمة الجزاء فيها وليس امام مجالس الهيئات الشعبية التي فقدت تباعا كل صلاحياتها القضائية . وقد افاد القديس بولس وغيره كثيرون ، من هذا الحق الذي تمتعوا به بوصفهم يحملون الرعوية الرومانية . وهنا مجال للتساؤل كيف ان تكاثر عدد من يحملون هذه الرعوية لم يفض الى ازدياد هذه المحاكم بالمتداعين ، إلا ان يقال بوجود حالات خاصة متميزة ، او الافتراض بأن بعض الحكام تجاوزوا صلاحياتهم دون ان ترتد فرائضهم او يؤنبهم الضمير . فها مثلا الحاكم « غلبا » ، نائب الامبراطور في اسبانيا ، قبل اعتلائه العرش ، يأمر بقتل متهم يحمل الرعوية الرومانية بالرغم من احتجاجه بجنسيته الرومانية ، ويعلق على صليب ابيض عال ، آخر لتسميمه ربيبا له ، ثم تراه هو ذاته ، بعد ان أصبح امبراطورا ، يحكم بالموت على نائب الامبراطور ومثله في جرمانيا السفلى ، لاهماله التماس مجرم رفع محاكمته الى روما فضرب بالتامه عرض الحائط . وسها يكن ، ففي بعض الحالات عندما تكون الجريمة فاضحة نكراء ، كانت القاعدة المألوفة ان تجري المحاكمة في المكان الذي تقع فيه الجريمة .

حرص كل الولاة الرومانيين على ان يقوموا برأبائهم القضائية خير قيام . ولذا نراهم يجررون دورات تفتيشية منتظمة في ولايتهم ، ويطبقون مجالس للعدل والنظر في أمور الناس ، في كل المدن الرئيسية التي يملكون بها ، وهم في هذا كله ، يستعينون بأهم رجال القانون ومشاهير الفقهاء ، فيتولون بأنفسهم ، او بالوكالة ، التحقيقات القضائية التي لا بد منها . وكانت بعض الولايات تقسم الى أقضية ولكل قضاء نائب عمومي يقوم بالمحاكمات . وكانت طبيعة الأحكام التي

يصدرها الحاكم هي الدليل الأكبر على ما فيه من مقدرة وعلى ما يتصف به من نزاهة ونصافة ، اذ لم يكن هنالك مجال قط لتجد الرشوة طريقها اليه .

والخطر من ان يركب القاضي رأسه فيصدر احكاماً اعتباطية ، كان يحصد منه حق المتهم بطلب محاكمته في روما كما كان للامبراطور الحق برفع كل قضية اليه . فعلى صاحب الظلامة ، في الولايات الامبراطورية ، ان يرفع ظلامته للامبراطور نفسه . اما في الولايات المشيخية ، فبإمكان المتظلم ان يلتمس محاكمته امام الامبراطور او امام مجلس الشيوخ ، إلا انه كان يفضل دائماً المثول امام الامبراطور . وبالفعل كانت الأحكام تستأنف أغلب الأحيان ، حتى ان الحكام انفسهم ، كانوا لدى أدنى شك يخامروهم في قضية ما ، يبادرون باستئنافها الى روما . وهكذا نرى النشاط الحقوقي والقضائي يمتد كثيراً في الحكومة المركزية ، وفي اصغر الدوائر القضائية التابعة لها ويتوسع . فالامبراطور الذي كان ينزع في الصميم ليصبح المصدر الوحيد للتشريع والقانون ، كان يغتنمها فرصة ذهبية لتوجيه هذا التشريع حسبما تقتضيه الضرورات والنظريات الجديدة والعمل على توحيدها . وهذا التطور عاد بالنفع ليس على روما وايطاليا فحسب ، بل بالأكثر ، على الولايات التي عانت ما عانت من عنّت الحكام المتعاقبين ، سنة بعد سنة ، على الحكم واستبدادهم في الأحكام التي كانوا يصدرونها .

وعلى مثل هذا قس وضع المالية في الدولة . فالولايات كانت ملازمة المالية : استمرار التفاوت بين بتقديم القسم الاوفى من مواردها ومحاصيلها . ومهما تعرضت له من ايطاليا والولايات الاخرى احداث مفاجئة كان عليها ان تستمر في تقديم ما كان يتوجب عليها تقديمه لسد الحاجات المشتركة . فالامبراطور كان يتولى ادارة واستغلال ملاك التاج ، وهي ممتلكات واسعة كان دخلها يسد جانباً من النفقات العامة . وممتلكات التاج هذه ، كانت تتألف اصلاً ، من عقارات خاصة صادرتها الدولة في إثر احكام سياسية صدرت على اصحابها ، ومن تركت اوصى بها اصحابها للامبراطور ، وهي عادة جرى عليها سرقة القوم في روما ، ومن بعض ولايات بينها مصر ، التي كانت تخضع لنظام استثنائي خاص ، وتدر على الدولة الرومانية شيئاً يبرز بضخامته كل ما كانت تدره ممتلكات التاج الأخرى مجتمعة . والى هذا ، يجب ان نضيف الرسوم المستوفاة كضرائب غير مباشرة تفرض على سكان الولايات والرعايا الرومانيين على السواء الذين كانوا يتحملون وحدهم ضريبة على التراكات تعرف بضريبة واحد من عشرين ، أي ٥ ٪ من اصل التراكات التي تذهب الى اباعد الأقارب التي كانت قيمتها تتجاوز ١٠٠ ٠٠٠ Sesterces (١) . وهذه الضريبة كانت تغذي « صندوق الجندي » ، هذا الصندوق الذي كان يدفع تموينات لأفراد الجيش عند صرفهم من الخدمة العسكرية . وكان اوغسطس يشعر ببعض الأسف لفرضه مثل هذه الضريبة على المواطنين ، لأنها تمس في الصميم ، الإعفاء من الضرائب المباشرة ، هذا الامتياز

(١) السترس عملة رومانية تساوي ربع دينار فضة.

الذي تمتعوا به منذ عام ١٦٧ ق. م . غير ان الولايات الإيطالية بقيت وحدها بمعزل عن الضريبة الكبرى وهي الضريبة التي تقع على الولايات التي تم امتلاكها بالفتح ، وذلك بفضل ما تمتعت به من امتياز : « الحق الإيطالي » *Jus Italicus* الذي ساواها بالعاصمة ، فاعتبرت بموجبه ارض الفاتحين . وهكذا لم نلبث ان طلع علينا اخيراً ما عُرف بتبرع التاج *L'or Coronaire* وهو تبرع اختياري ، من حيث المبدأ ، إلا انه بالفعل تبرع إلزامي ، على الجميع ان يقدموه للامبراطور ، سواء أكانوا حاملين الرعية ام لا ، وذلك في مناسبات خاصة ، كوقوع حوادث هامة سارة . فاذا ما رفض تربيانوس رفضاً كلياً مثل هذا التبرع عند اعتلائه العرش ، او اقتصر الامبراطور انطونين على تقاضي نصف هذا التبرع ، من الولايات الأخرى وأسقطه عن ايطاليا ، فما هذه ، إلا بعض حوادث يمكن اتخاذها دليلاً على ان هذه الاجراءات المستجدة كان في الإمكان ان تقضي الى طريقة في توزيع الضرائب أكثر انصافاً ومساواة ، إلا أنها بقيت ، مع الأسف محاولات بدائية لا غير . فالمساواة امام الضرائب ، كالمساواة امام القضاء او الادارة ، لم تكن ساعتها قد حانت بعد . وما هو أدهى من ذلك ، فالاقتراب من مثل هذا الوضع كان يتم بتردد كلي لما فيه من مساس لمصالح الطبقات الممتازة الشديدة الحساسية .

استمرت الولايات تتحمل وحدها تقريباً هذه الأعباء المالية المزرحة التي
المدارة الضرائبية
زادها وطأة قيام جيش لـجـب ، دائم ، وادارة متشعبة ، متداخلة ،
وتوحيد رسوم الجباية
تدفع لها مرتبات وأجور آخذة بالارتفاع والصعود ، يوماً بعد يوم .

والجدير بالملاحظة هنا انه لم يسبق للامبراطورية ان عرفت عهداً من اليسر والازدهار المالي كالعهد الذي مر عليها اذ ذاك . فقد راحت تنفق بسعة على مشروعات كانت تعد ، اذ ذاك ، من الكماليات ، وذلك بإنشاء بلاط فخيم كثير التكاليف ، وتزيين روما وزخرفتها بالمباني والصورح الفخمة ، والترفيه عن الشعب ، ولا سيما عن سكان روما ، بتأمين أسباب عيشه ولهو ومرحه . وهذه التكاليف الباهظة اقتضاها جوهر النظام الذي سار عليه العهد الجديد ، اذ يكفي ان يتجاوز امبراطور ما ، كما حدث لنيرون مثلاً ، الحد المألوف في الاتفاق حتى يدب الاضطراب والبلبل في مالية الدولة وتُرمى بالعجز والعسر . وقد رأينا فيما سبق ، كيف ان الوضع العسكري في الامبراطورية كان يتأثر ، في الأوقات العادية ، من نتائج سياسة التقدير التي تضطر الدولة للسير عليها ، في بعض الأحيان ، مع انه لم يكن اذ ذاك ، ما يحول دون فرض ضرائب جديدة او زيادة معدل الضرائب القديمة . كل هذا دليل قاطع على ظهور روح جديدة لدى الأسياد الذين تعاقبوا على الحكم . فقد اختفى من بينهم رجل الدولة الروماني ، المتمنّت المعروف بمخشونته او جفائه ، وبرزت للعيان مثالية ملك همه في الدرجة الأولى تأمين رفاهية رعاياه الى ابعد حد . وهذه المثالية جاءتهم ولا شك ، من هذه الممالك الهلينية مع ما جاءهم من النظم السياسية التي اقتبسوها عن ملوك هذه الدول : كالبطانة ، والبلاط ، والحاشية ، والمظهر الخارجي الفخم لمدينة روما ، التي اصبحت ، ليس فقط عاصمة البلاد وقاعدتها الكبرى بل ايضاً كرسي المملكة .

كل هذا الجديد يوحى بفكرة الحكم عند السيد ، كما يوحى بما يمكنه من رعاية وعطف وروح النصفة للجميع .

وهذه المؤثرات الهلينية تظهر في أكثر من ناحية من نواحي النظام المالي الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية . فبعد ان فرضت سيطرتها على مصر ، راحت هذه الامبراطورية تفرض عليها نظاماً اقتصادياً أساسه : الاحتكار ، والاقتصاد الموجه ، وضرائب متعددة تركز على التعداد ، والمراقبة الشديدة ، التي أمنت للبطلالة مثل هذا الغنى الذي رفلوا فيه ، وللامبراطورية الرومانية صندوقاً عامراً بالنضار . وهذا الاستغلال المنظم الذي خضعت له مصر حسباً سمحت به تقاليد البلاد ، والنظام الاجتماعي السائد فيها ، لم يمكن تطبيقه في كل مكان . فقد اقتبست الامبراطورية من النظام المعمول به في وادي النيل ما رأت فيه نفعاً لها . من ذلك مثلاً فكرة الضرائب غير المباشرة على المبيعات بالمزاد العلني او الحراج ، بمعدل ١ في المائة ، كما فرضت رسماً مقداره ٤ ٪ على عمليات بيع الرق ووسعت العمل بهذا المبدأ وطبقته في تحصيل الضرائب وجباية الرسوم .

ولعل أهم الضرائب المباشرة هي الضريبة على العقارات . وفي هذا السبيل اخذت الدولة ، منذ اوغسطس حتى عهد الامبراطور تراجانوس ، بعملية مسح للامبراطورية . كذلك كان هنالك ضريبة أعناق ، على أساس إحصاء لعدد النفوس . وفي عهد مارك اوريل ، أنشئت مصلحة الأحوال الشخصية وإلزام الناس بالتصريح بالمواليد . كل هذه الطرق كانت مرعية الاجراء في مصر منذ عهد بعيد . وقد تطورت اساليب جباية الضرائب ، بعد ان توارت عن المسرح ، خلال ازمة الحرب الأهلية التي عانت منها البلاد الامريين ، جميعات الجباة والعشارين القوية . وامام هذا النقص في الجباية ، راحت الدولة تعتمد ، في بادئ الامر ، تلزيم الخراج الخاص بالضرائب غير المباشرة ، ثم اعتمدت الطريقة المتبعة في مصر ، وهي تلزيم الخراج ولذا استعانت بجباة من الطبقة الاجتماعية المتوسطة حتى ومن الطبقة السفلى ، وفي ذلك تيسير لعمل هؤلاء الجباة لسهولة اتصا لهم بالناس من جهة ، ولسهولة مراقبة عملهم من قبل الادارة المركزية وتقويمها عند الاقتضاء . اما الضرائب المباشرة ، فقد استغنوا فيها عن المتعدين والملتزمين وعهدوا اليها للادارة البلدية ، كل في ما يعنيه ، وبعد الجباية يكلف موظفون كبار باستلام المبالغ المحصلة ليجري تسليمها لبيت المال .

ففي الوقت الذي انقطع فيه دابر عهد الارتكابات والاختلاسات التي اتاها متعهدو الخراج ، انقطع فيه كذلك ، او قلّ كثيراً جداً ، سوء تصرف الحكام والولاة وإرهاقهم الأهليين بصنوف من المظالم بعد ان اخضعوا لمراقبة شديدة من قبل مفتشين ماليين ، مسؤولين مباشرة أمام الامبراطور . كما أجبروا على ارسال معظم الاموال التي يجيئونها من الولايات الامبراطورية الى بيت المال *Fiscus* الذي كان يخضع مباشرة للامبراطور . كذلك ، كان المفتشون يراقبون ، عن كثب ، أعمال الجباية في الولايات المشيخية ، ويؤمنون تحصيل الرسوم والضرائب المترتبة على أصحابها ، ولا سيما

الرسوم المفروضة على الارث والتركات ، فيرسلونها لمصلحة صندوق الجندي ، كما كانوا يؤمنون ، من جهة اخرى ؛ ادارة املاك التاج ويرسلون بدخلها الى صندوق الامبراطور الخاص . وهؤلاء المفتشون المليون كانوا برتبة تخصيلدار ، اما الذين كانوا في الدرجات العليا ، فكانوا من فئة الشفاليه . وهكذا نرى هذه الطبقة الاجتماعية تؤمن ، هنا ، في العهد الامبراطوري ، ما كانت تؤمنه في النظام الجمهوري السالف ، من جباية الضرائب والاموال المستحقة للدولة . إلا ان هذه المشابهة لم تكن لتصح الى هذا الحد ، وسنرى بعد قليل ، التغييرات التي طرأت على تشكيل طبقة الشفاليه . ويكفي ان نشير هنا ، ولو بصورة عابرة ، الى التعديل في الدور الذي كانوا يقومون به . فلم تعد الدولة لتختار من بينهم متعهدين لتأمين الضرائب والخراج ، بل أصبحوا ، من الوجهة النظرية ، على الأقل ، مديري مال ، بعد أن كانوا رجال اعمال ، في خدمة رجل يحكم الدولة ويدير شؤونها ، أي انهم أصبحوا ، اكثر فأكثر ، موظفين اداريين يقومون بواجباتهم بروح جديدة .

مجالس الولايات ليس بغريب قط ، ان يرتاح سكان الولايات ارتياحاً شديداً لهذه التغييرات المدهشة التي طرأت على هذا القطاع من الخدمة العامة في الدولة ، فراحوا يعبرون عن غبطتهم للامبراطور ، بشق الوسائل ، منها مثلاً ، عبادة « روما واوغسطس » التي أدى الاحتفال بها الى ما عرف من بعد ، باسم « مجالس هيئات الولاية » .

فاللفظ المستعمل لا يعبر عن المعنى المقصود الا بصورة تقريبية . والمراد بهذه المجالس : اجتماعات سنوية لمندوبين يختارون من بين المدن والخواضر القائمة في هذه التقسيمات الادارية التي تتباين مساحتها وتختلف ، لتشمل حيناً ، ولاية بكاملها ، وأحياناً اكثر من ولاية أو أقل . من ذلك مثلاً مجلس « غاليا » الذي كان يُعقد كل سنة ، في مدينة ليون ، فيجتمع فيه ممثلون عن الولايات الغالية الثلاث . وهكذا كان المجلس الواحد يؤلف وحدة تضم جبهة الممثلين للأفراد الواقعين خارج نطاق بلديات المدن ، وهي الوحدة التي كان من مصلحة الادارة الاعتراف بها ، لما توفره لها من منافع وخدمات : كالشرطة والادارة المالية وغير ذلك . والتسليم بوجود هذه المجالس والاعتراف بها كان بمثابة تنازل من قبل روما عن بعض قوتها وسلطانها ، للشعوب التي أخضعتها لسيادتها والتي لم تشأ ، ان تكف ، كما كان باستطاعتها ان تفعل ، عن العمل على التفريق بينها ، عملاً بالمثل القائل : فرق تسد . وهذا المجلس كان يتشكل عند الشعب الذي يمثل ، وفقاً للتقاليد المرجعية عنده ، وحسباً يقتضيه واقعه العنصري أو السلالي ، ويؤلف عاملاً ضامماً يزيد من وحدته ويشد من روابطه .

وهذه الفكرة بالذات تفسر لنا كيف أنه لم يظهر مثل هذه المجالس في قطرين اثنين من أصل الاقطار التي تتألف منها الامبراطورية الرومانية ، هما مصر وإيطاليا .

اما الأولى ، فقد كان لها من غنى مواردها الطائلة ، ووفرته ما جعل الهجوم الذي قامت به كليوباترا على روما مليئاً بالتهديد لها ، وخطراً شديداً على مصيرها بالذات . ولهذا ، رأى

الرومان، في كل وحدة أو محاولة تكتل تقوم فيها خطراً يهدد الامبراطورية الرومانية في الصميم ، عدا عن انه لم يكن يقوم فيها ، اذ ذاك ، سوى عدد قليل من المدن . اما ايطاليا فقد كان عندها ما هو افضل بكثير من هذه المجالس ، اذ ان سكان المدن فيها كانوا رعايا رومانيين ، لاسيما وان وحدتها برزت على احسن صورة ومثال ، في هذه الحكومة المركزية التي قامت فيها وانبثقت منها بالذات . وهذه النظرية تفسر لنا كذلك القيود التي وضعوها للحد من نشاط هذه المجالس خشية ان يساء استعمالها ويوجه في غير الاتجاه الذي حدد لها عند قيامها . فلم يكن باستطاعتها ان تقيم فيما بينها شيئاً من التحالف او التوحيد، فتعمل معاً لهدف واحد مشترك ، لاسيما ومهمتها الأساسية هي التعبير عن عواطف من انتدبوها لتمثيلهم بهذا الاحتفال الديني أكثر من اجتماعهم لتكريم سيدهم وولي امرهم . وهكذا كان هؤلاء السادة ، المعدود الاصغر المشترك لهذه المجالس التي تمثل مختلف شعوب واقوام الامبراطورية الرومانية . فقد كانوا ما هم عليه ، لأن اوامرهم كانت عنصر انسجام وأداة تأليف للجهود المبذولة ، ولأن العبادة التي كانوا موضوعها كانت العاطفة الوحيدة التي تسمح لها بالتعبير عن نفسها .

إلا انه عندما اتضح للسلطة الرومانية ، على مر الزمن ، ان لا خوف عليها ولا خشية قط ، من هذه المجالس ، راحت تخفف من القيود والتضييقات الموضوعة على اجتماعات هذه المجالس ونشاطاتها . فالاحتفال بعبادة الامبراطور، وتعيين الكاهن الذي يتولى باسم جميع المجالس رؤس الاحتفال المشترك ، بقي وحده غاية الاجتماع وهدفه الاوحد . فلم يعهدوا اليها بأية مهمة ادارية كتوزيع الضرائب مثلاً بين البلديات ، او تنفيذ الاشغال العامة ذات المنفعة المشتركة . فاذا ما احتج احدهم ببعض شواهد فهي من الندرة ما يؤلف شذوذاً دعت اليه واقتضته ظروف خاصة . فاقترضوا على ان يسمحوا لهؤلاء المندوبين بالاعراب عن وجهة نظرهم بشأن ادارة حاكم انتهت مدة حكمه ، على شرط ان يجمعوا تفويضاً من قبل من انتدبوهم للتكلم باسمهم في هذا الموضوع بالذات . وعلى هذا ، كان يحق للمجلس ان يتخذ اذ ذاك ، حسباً تقتضيه الظروف ، قراراً بالثناء او بتوجيه الشكر للحاكم السابق ، أو إقامة تمثال له ، وإلا فارسل قرار الى روما للمطالبة بحسابته حساباً عسيراً او بلاحقته امام القضاء .

وهذا النهج الذي برز وتبلور منذ القرن الثاني انما ينم ، ولا شك ، عن نزعة متحررة إلا انها ما تزال مترددةً وستبقى خافتةً مكبوتةً لوقت طويل بعد . ولربما تجاوز المرء الواقع بعيداً وبصورة تدعو للاستغراب ، اذا ما حاول ان يتخذ من هذا المسلك دليلاً على طلوع او بروز شيء من المركزية ، ان لم نقل صورة باهتة لنظام تمثيلي مر في الخاطر . وهذه المحاسبة العسيرة او بالاحرى هذا الحكم الجماعي لا يأتي إلا بصورة عكسية ، اذ ان الحكم الذي يعمل على رأس الادارة لديه أكثر من وسيلة ليوفر على سلفه ، إلا في الحالات الفاضحة التي لا يمكن طمسها ، إهانة تحقير بتوجيه اللوم اليه بصورة رسمية . غير ان محاكمته لا يمكن ان تقع او تأخذ مجراها إلا اذا سمح الامبراطور بذلك . فاذا رأى من المصلحة ان الأمر يهمه ويستلزم المزيد من المعلومات ،

فالطلب الذي جاءه من الولاية ليس سوى وسيلة من الوسائل الكثيرة التي تتوفر لديه لدرس القضية وتكوين فكرة صحيحة له عنها ، وإن لم تكن أفعل الوسائل وأقطعها . ومهما يكن من الأمر ، ان هيئة دينية في الأساس لا يصح ان تتحول الى مجلس للمداولة والجدل الرصين ، ومن الصعب ان نتصور المدن تعتمد الى تعيين مندوبيها ، قبل ان تقطع في مؤهلاتهم وصلحياتهم للتشكي والتذمر لدى الامبراطور .

الادارة المحلية والمبادئ التي قامت عليها
هذه النزعة التحررية عرفت مع ذلك ، انما على نطاق آخر ، في نطاق المدينة المتمتعة بالرعاية الرومانية ، وهي نزعة لم تنبثق عن أية نظرية فلسفية او حقوقية حول الحرية والمساواة ولانسان من حقوق طبيعية اخرى . فقد أوحى بهذه النزعة اعتبارات عملية بحتة ، بعضها مادي الطابع والغاية ، والبعض الآخر على مستوى ارفع ، وعلى صعيد أعلى وأسمى .

فالرومان كالاغريق قبلهم ، رأوا في المدينة الإطار الأمثل ، لا بل الاوحد والممكن ، للانفتاح على الحضارة والاستبحار فيها ، وحرصوا كما حرص البطالسة من قبل ، على قطع السبيل امامها في مصر وسد الطريق في وجهها اليها ، اذ جل همهم كان ان ينصرف الناس فيها للعمل الصامت ، والشعب للانتاج ، ليس إلا . ومع ذلك ، قامها المدن في المحافظات المصرية وحواضرها ، استحال تدريجياً ، بفضل ما استجابت له من تطور بطيء لم يحاول ذوو الأمر مقاومته والحد منه ، الى وضع قريب من وضع المدن المتمتعة بالرعاية الرومانية . اما في غير مصر ، فالامبراطورية تشجع الأهليين وترغبهم على الاخذ بأسباب الحياة في المدينة . فقد حرصت الحرس كله على المحافظة على وضع هذه المدن والاستمرار عليه ، كما حرصت على خلق ما يشبه هذا الوضع حيث لم يكن معروفاً . قال جانب هذا الدور المتعدد الوجوه الذي تستطيع ان تؤديه ، المدن التي تتمتع بمثل هذا الوضع ، وهو دور لا نود هنا الاستطرد في تفصيله وتبسيطه ، فقد كان من شأنه ان يسهل كثيراً مهمة الادارة المركزية ويخفف من مسؤولياتها ، اذ يحجرها من واجبات ومهام ومتاعب كان عليها ان تتربص بها . فالدولة كانت على أتم استعداد لأن تترك لرعاياها المؤهليين ، معالجة الأمور العادية المحدودة الأفق ، لا سيما والعهد الجديد ، لم يكن تم له بعد ، لطراوته ، الموظفون الكفاء للاضطلاع بالادارة .

وكان لا بد ، بالطبع ، ان يبقى هذا الاستقلال الاداري محدوداً ، وفي نطاق تقسيمات بلدية صغيرة الحجم ، نادراً متوسطة ، تعجز عن النهوض بأود ثورة مسلحة . هذا هو بعينه تحديد المدينة . ففي البلاد التي لا يمكن انشاء أكثر من ٦٠ مدينة فيها ، تتمتع بالرعاية الرومانية ، كمقاطعة غاليليا مثلاً التي تم فتحها على يد قيصر ، حيث حركة تجميل المدن البطيئة كانت تضطر الادارة الى توسيع الدائرة الجغرافية للمدينة الواحدة ، قضى التطور الحضاري والأخذ بأسبابه ، بتكوين مجتمعات مدنية لم تتم ان رفعت الى مستوى المدن المتمتعة باستقلالها الاداري . كذلك ، من الواضح ايضاً ان كل الوسائل كانت تتخذ لتصبح ادارة هذه المدن ، اينما قامت ووُجدت ،

في ايدي عناصر اجتماعية وحضارية توحى الثقة لروما وتزاح اليها ، كطبقة الارستوقراطيين والبورجوازيين ، وجنود دوماً على استعداد لكبت أية اضطرابات تنشأ في المقاطعة ، ورعايا رومانين قديمي العهد في رعويتهم ، وإلا فمن عهد حديث ، وجنود متقاعدين ألفتوا النظام ، وشابوا على روح الانضباط ، وأقاموا على الولاء للسلطة ، او سكان أصليين في البلاد ، أخذوا بالمثل الحضارية الرومانية ، وهم على اشد من اليقين بوجود التعاون مع الحكومة لنشر هذه المثل بالذات ، تمسكاً منهم بالواجب المترتب على المواطن الواعي بوجود الاخذ بأسباب التمدين . وهكذا أصبحت الإدارة البلدية معيناً أمدت الامبراطورية باداريين أكفاء خدموها خدمات صادقة ، وبرهنوا ، أثناء توليهم الوظيفة ، عما أوتوا من مواهب مخبوءة تفتتح ، بينما يتدربون على اعمال الادارة ويتمرسون بها . كذلك من الواضح ايضاً ، ان السلطة المركزية كانت تمارس مراقبة شديدة لهذه الخلايا الاجتماعية الناعمة ببعض الاستقلال الاداري ، وذلك لتحول دون انتفاضها او تمردها ، او لتحول دون انزلاق أمورها الى الفوضى ولتقوم منها العوج ، وتصحيح الاتجاه عند انحرافه .

وكان بالإمكان التعويل على الادارة الامبراطورية المحترزة والتي لم تكن لتلقي بالكلام على عواهنه والتي لم تكن لتتهاون بأمر التحذيرات الصادرة عن صميم الشعور بالسلطة ، والمستوحاة من تصرفات الدولة السلوقية ، فترضى بالتنازل لهذه المدن عن بعض صلاحياتها الادارية في القطاع المحلي . فحدثت الامبراطورية حذو سياسة خلفاء الاسكندر المقدوني في آسيا ونزلت عند الأسباب ذاتها التي نزل عندها هولااء الملوك ، فطبّقوا سياستهم الجديدة على نطاق ارحب ، وفي اقاليم واقطار اوسع بكثير ، محتفظين فقط ، وبصورة استثنائية ، بادارة الأملاك التابعة لهم ضمن هذه الخلايا الاجتماعية شبه المستقلة ادارياً . فلو قُيِّضَ لهذه التجربة ان تأخذ مداها الكامل ، لأصبحت الامبراطورية عبارة عن شبكة متصلة الحلقات من وحدات متجاورة بعضاً من بعض ، متمتعة بحرية ، تعمل الادارة المركزية على توجيهها وتأمين التنسيق والانسجام بين جهودها في كل ما يؤول لخدمة المصلحة العامة ، وتأمين اسباب الدفاع عن الامبراطورية . غير ان هذه المحاولة لم تؤت أكلها حتى في عهد الاسرة الانطونية التي كانت أقرب الى تحقيقها وتحييزها من سواها . ومن ثم راح تنظيم المدينة يخدم فيها بعد اغراضاً أخرى . فتعميم هذا النظام وانتشاره لم يكن ليكون خطراً يهدد الامبراطورية ، بل جاء على عكس ذلك تماماً في خدمتها ومصالحها لأنه هياً لشيء يقرب من الوحدة الادبية فيها ، كالم يكن ، من جهة اخرى ، بدوة من بدوات سلطة نزقة مستبدة . فقد تجاوز هذا الاستقلال الاداري للبلديات ، في مفهومه وكيفية تطبيقه على الوجه الذي جروا عليه ، طاقات هذه المدن وامكاناتها الصميمة .

المؤسسات البلدية
عرفت مدن الشرق الاغريقي ، منذ عهد بعيد ، النظم البلدية ومؤسساتها . فقد جاء تشكيلها مطابقاً للطراز الذي اتبعتة روما في المدن التي كانت تعترف لها بحق الرعية . وبالرغم من مفارقات عديدة عرضية في تفصيلاتها ، تتعلق بالحكام ، فقد توصلوا

مع ذلك بيسر ، الى نموذج واحد مشترك بين الجميع .

اشتملت هذه التنظيمات فيما اشتملت عليه ، هيئة اولية للمواطنين في المدينة مهمتها ، في الدرجة الاولى ، تعيين الموظفين الاداريين ، واتخاذ القرارات التي تقتضيها ادارة البلدية ، بعد بحثها ومناقشتها . كذلك ضمت الى جانب هذه الهيئة ، مجالس الاختيارية ، ويضم الواحد منها مئة عضو ، مهمته مراقبة الموظفين وتزويدهم بالتوجيهات والارشادات والتوصيات التي يقتضيها حسن سير الادارة . كذلك تضمنت هذه التنظيمات عدداً من الوظائف يقوم عليها موظفان يُنتخبان في كل سنة ، ويتدرجان تبعاً في سلم المراتب الفخرية . وكان الاعلى درجة بينهما يُكَلَّف ، في نهاية كل خمس سنوات ، باعداد جدول مفصل ، لشيوخ البلدة ، حسب درجاتهم ومراتبهم ، تذكر فيه أسماء الموظفين القدامى ، كما تذكر في لائحة أخرى اعيان المدينة ووجوهها البارزين .

كل هذه الهيئات والمجالس كانت تخفي تفاوتاً بين مدينة وأخرى . إلا ان ما خضعت له من تطور مزدوج من قبل الحكومة ، عقوباً كان ام موجهاً ، أوجد بينها تجانساً كبيراً .

من هذا التطور ما تناول وضع هذه المدن بالذات ، على ما بينها من تفاوت بين واختلاف ظاهر . فبينما كان بعضها خاضعاً لارادة الحاكم المستبد ولشيئته ، كان ينتظم البعض الآخر منها شيء من التحالف او الاتحاد وتنعم ، بفضل الموائيق والمعاهدات السابقة التي عقدتها ، بحق التمتع باستقلالها الاداري ، شريطة المحافظة على ولائها في الأمور السياسية والعسكرية . وهذا الوضع نزع ، اينما قام ووجد ، الى التوحيد ، سواء أكان على نظام « المستعمرة » او « البلدية » *Municipe* ، او بموجب « الحق اللاتيني » ، او ، في احسن الحالات ، « الحق الروماني » . وراحت المدن تلتبس من الامبراطور ، الإنعام عليها بمثل هذا الوضع وما استتبعه من مثل هذه الحقوق ، وان فقدت معه شيئاً من أصالتها ، لما في ذلك من ربح أكيد وفائدة كبيرة للمواطنين ، اذ يكتسبون ، باعداد أكبر ، وبصورة تلقائية ، الرعوية الرومانية ، فيصبح المواطنون ينعمون بالحق اللاتيني المألوف ، كما ينعم مجلس شيوخها ، بالحق اللاتيني « الأكبر » الذي اعطاه الامبراطور هدريانوس ، وجهرة المواطنين بكل الحقوق الرومانية ،

أما الوجه الثاني لهذا التبدل أو التطور الذي لم يكن بد منه بعد ان أخذت روما بأسبابه منذ مطلع الامبراطورية ، فانه أحال شبه طيف أو خيال ، الهيئة البدائية ، مع استمرارها على عقد اجتماعاتها كمألوف عاداتها . كذلك راح مجلس الاختيارية يجردها من كل صلاحية ، بعد ان أخذ من الألقاب والكنى اعلاها وأسمائها ، منها مثلاً : « النظام الإلهي » . وجرت العادة ، في عهد مبكر ، وهي عادة جاء نص رسمي يكرسها ، بالتبرع لصندوق البلدية ، بمبلغ من المال ، عندما يحظى المرء بترقية أو تعيين في رتبة : كالكهنة ، أو عضوية لمجلس الاختيارية او الحاكمية . وكثيراً ما دعا حب الظهور المقرون بمحبة الوطن الأصغر ، للتنافس في التبرع والسخاء . وهكذا آلت الادارة البلدية الى أيدي الطبقة البورجوازية في المدينة ، تحت رعاية الاسر النبيلة ورعايتها

وفقاً للتقاليد المتوارثة أباً عن جد . أما الطبقات الوسطى ، فقد كانت دوماً بعيدة عن الادارة ، لأنها لم تحظ بحق الرعية في المدينة ، هذا الحق الذي فقد عند الفقراء والمعدمين ، كل معنى ومدلول ، ما لم يتدرج الواحد منهم في السلم الاجتماعي ، قاطعاً درجاته عن طريق الاثراء .

كان باستطاعة الادارة المركزية ، والحالة هذه ، ان تتظاهر بالتسامح سير الادارة وبدء الأزمة والتجاوز : فهي تترك للسلطات البلدية المحلية طائفة من الاعمال والمهام الصغيرة ، كالحفاظة على النظام ، وتأمين أسباب العدالة ، وتشديد الانبسية البلدية وصيانتها ، وتنظيم امور العبادة والطقوس الدينية ، وإدارة الاملاك البلدية ، وتنظيم موازنة المدينة ، حتى وجباية الرسوم والضرائب المباشرة العائدة للدولة ، وغير ذلك . وقد عرفت ان تحتفظ بحقوقها في التدخل بشؤون المدينة وان تمارس هذا الحق في كل مناسبة ، وتمارسه اكثر فأكثر ، وبصورة اوسع .

فقد نال هذا النظام رضى الفريقين ، وبالرغم من بعض الشكوك والصريف يتردد صداه ، الفينة بعد الفينة ، فقد بدا للجميع انه نظام قابل العيش والبقاء . فبفضل هذا النظام ، كثيراً ما استطاعت مدن عديدة ان تزدهر ، كما عرفت ان تشيد المباني والصروح فتبرز في اطار مادي فخم ، كما انه أفسح المجال أمام التمثيل الحضاري ليحقق نجاحات عظيمة استطاعت الطبقة البورجوازية معها ان تنعم بالرعية الرومانية . وبفضل هذا النظام ، عرف الاباطرة ان يختاروا من بين المواطنين الحديثي العهد بالمواطنة الرومانية ، ما هم بحاجة اليه من الموظفين الاداريين الذين اتصفوا بالرصانة ، وصدق الولاء ، والتجربة الواسعة . وهذا النظام عينه يفرض وجود أقلية مختارة في الولاية تباهي بما تتمتع به من مراتب ومراكز ، هي ابدأ على استعداد للاهتمام بالشؤون البلدية وتخصيص ما يلزم لها من الوقت والمال ، الى ان جاء وقت رأت فيه هذه الأقلية المتميزة أن تتوارى عن مسرح عملها ، بعد ان تبينت ان الغُرم الذي ناهها يفوق الغُثم الذي تتمتع به وهو غُثم لا يتفق ومنزلتها بين الجماعة ، كما ظهر لها انها لا تستطيع سد النقص الذي طرأ على ثروتها . وهكذا لم تعدم ان قامت الصعوبات . ومن الراجح جداً ان الادارة اضطرت حتى في عهد تراجانوس ، الى تعيين أعضاء مجالس الاختيارية ، غصباً عنهم وبغير رضاهم . ولعل ما هو أدهى من هذا وأتكى ، ما وقع في عهد الأسرة الأنطونية ، وهو عجز الأموال الجبابة محلياً عن تغطية نفقات العيش الرضي الذي سار عليه عدد كبير من المدن . فسخاء بعض أغنياء المواطنين وكرمهم الحاقمي لم يستطع سد العجز ، فراح الاباطرة يفتقدون المساعدات لها ويتنازلون لهذه المدن عن متأخرات الضرائب المستحقة عليها ، الى ان اضطروا للذهاب الى أبعد من هذا ، بصورة فردية ، آنية اولاً ، ثم بشكل أقوى وأبقى ، وذلك بتعيين مندوبين ، وفي الغرب سمووا مفوضين *Curuteurs* ، وعند الاغريق مفتشي مالية *Logistai* ، بغية تحقيق التوازن بين المدخول والمصروف . وهكذا أخذ استقلال هذه البلديات بالزوال .

الخلاصة

عند انتهاء هذين القرنين لم يبق شيء من الأوضاع والاحوال التي لا بدت النظام الملكي وبناء الدولة الحياة السياسية والادارية في الامبراطورية .

فزال عهد الجمهورية وحلول النظام الملكي محله ، هما ابرز هذه التطورات وأقربها للنظر . فمن المغالطة والخطأ في الرأي ان يحاول المرء تجاهل هذا التبدل او الانتقاص من شأنه وأهميته . وهذا التغيير تردد صداه ليس في الخارج فحسب ، بل في النفوس والأذهان ايضاً . فقليل من الواقع السيكولوجي يمكن دوماً وراء التعابير والاصطلاحات والرموز الرسمية . ولكي يستمر الأخذ بهذا التطور في عهد اباطرة كثيراً ما صدم سلوكهم كما صدمت اعمالهم اعتقاد الناس واثمانهم انهم من سبلة فوق جبلة البشر ، وانهم مسار الآلهة ، لا بد ان يكون أطل شيء جديد على العالم . وهذا الشيء الجديد الذي لا يمكن لأحد نكرانه او تجاهل ضرورته وجدواه هو الدولة ، دولة لها جماع الطاقة وجماع القدرة ، بعكس السلطة التي زالت وتوارت ، تستطيع ان تؤمن الحد الأدنى لوحدة ادبية تشد العالم الروماني بعضاً الى بعض ، وتحافظ على اسباب الامن وتصونها من عبث العابثين والطامعين ، وتعرف كيف تستمد منه ما يلزم للدفاع عن كيانها ، وان توزع الضرائب بالعدل والسوية ، دون ان ترهق فريقاً او ترهق الآخر ، وموجز القول دولة لها من السلطة ما يؤمن اشاعة نط من العيش شامل ، رقيب . وقد سارت النجاحات التي حققها تنظيم هذه الدولة جنباً الى جنب مع النجاحات التي حققتها السلطة الملكية بحيث لا يمكن لعمرى فهم هذه دون تلك ، لما بينهما من تفاعل وانفعال .

ليس ما يحول ، من الوجهة النظرية ، دون النظام الجمهوري لتحقيق مثل هذه الدولة التي تؤدي مثل هذه الخدمات . والامر الثابت الذي لا مراء فيه هو ان الجمهورية لم تتمكن من تحقيق مثل هذه الدولة ، مع ان العهد الذي جاء بعدها استطاع ذلك .

فالدولة الجديدة كانت لها نظمها ، ومؤسساتها المركزية التي عرفت ان تؤمن لها الاستقرار والبقاء بمعزل عن شخص الامبراطور ، كما كانت لها نظمها الاقليمية التي عرف الامبراطور ان يراقب منها النشاط وان يوجهه ، وكان لها موظفوها الاداريون وخبرائها الذين تحملوا ، على الإجمال ، بالزهاء والمهارات الضرورية ، لأنها عرفت ان تفوز من الطبقات الاجتماعية التي كانت تصطفي من بينها هؤلاء الموظفين ، بالاخلاص للمناهج والأساليب التي اخذت بأسبابها ، فراحت تطبقها لمصلحة الجميع .

فقد دفعت البلاد غالباً من حريات الرومانية والايطالية ثمناً لهذا كله ، وهو ثمن مشروط لم يكن بد منه ولا يحصى عنه . فقد جعل ازدياد عدد المواطنين الرومانيين وانتشارهم في جميع اطراف العالم الروماني ، وجود المجالس البلدية أمراً يدعو للهز والسخرية . اما مجلس الشيوخ الذي اغنجه الحفاظ على روح الانضباط في الجيش ، فلم يكن اسعد وضعاً ليؤمن بواسطته حكام ينتخبهم كل سنة - كثيراً ما تجلى خطلمهم - حسن سير الادارة المدنية مع هذه المشكلات

المويصة التي كانت تعترض سبيله . فالقوضى الكيانية التي كان لابدّ لهذه المجالس التمثيلية ان تخلقها ، لم تشهد ابتداءها في هذه المجالس الاقليمية ذات الدور المتواضع الخاص . ولذا كان أكثر فعالية وأبسط للأمور ان يصار الى نظام ملكي .

وقد جاءهم بالفعل مثل هذا النظام ، واضطروا للإقبال عليه والايغال فيه أكثر فأكثر. اما ما طرأ من تغيير على استقلال البلديات الاداري ، فدل على ان كل خطر أطلّ منه تهديد لحسن سير اداة الحكم والادارة المركزية للدولة ، أعقبه بصورة عفوية توطيد للسلطة الامبراطورية وترسيخ لها في النفوس . فمن يستطيع ان يتبين التقدم الذي كان بإمكان هذا النظام ان يحققه في البلاد لو لم تصدمه أزمات مفاجئة ؟

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

لا يمكن للوحدة الادبية في الدولة ان تكتمل ما لم يتحقق حد ادنى لوحدها الاقتصادية والاجتماعية تشد بين اطرافها جميعاً . فالجمهورية ليس انها لم تفعل شيئاً في سبيل تحقيق مثل هذه الوحدة ، بل لم تهيء لها الظروف لظهور عفوي ، اذ ان جل مهمها انصرف لاشباع حاجات روما المباشرة بالنهب والسلب ، والان توفر للايطاليين ، غالباً بغير رضى منها ، المنافع التي يتمتع بها المواطنون من سكان المدينة ، دون ان تعدّهم للوضع الحقوقي الذي ينعم فيه المواطن الروماني . اما الامر فقد تم على غير ذلك مع الامبراطورية ، تحت تأثير ارادة واعية ، مدركة لاغراضها ، ناشدة لاهدافها ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، بفضل هذا التطور الذي خضع له وضع الامبراطورية العام بعد أن عرفت ان تهية له الأسباب . وأهم هذه التغييرات كان ، فعلاً : « السلام الروماني » وانتظام الادارة في الولايات الرومانية . وقد صاحب هذه التغييرات انقطاع دابر الارتكابات ، وتوقف استثمار هذه الولايات المفرط لصالح اقلية ضئيلة من اصحاب الامتيازات . صحيح انه بقي شيء من هذه الامتيازات في الدولة الجديدة انحصرت في بعض مقاطعات وفئة من الناس تميزت على غيرها من هذه المناطق والطبقات . الا ان الفارق الذي كان يميز وضع هؤلاء عن وضع اولئك ، لم يكن ليشير الحفاظ ويبعث الحسد والضغينة في القلوب والنفوس ، بينا انتقاء اصحاب هذه الطبقات ، اقله فيما يتصل بالافراد ، اخذ يتم بصورة اوسع ، وبشكل ارحب ، ووفقاً لقواعد واصول جديدة . وهكذا أطلّ على الدنيا ، في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي ، طراز حياتي جديد ، شاع وعم ولم يلبث ان رسخ في الارض واعرق . وكان من اسباب هذا الوضع ومن نتائجه ايضاً ان روما لم تشارك فيه على قدم المساواة وبقيت محافظة على بعض ما كانت تتمتع به من امتيازات ، الا انها عولت الا يكون دورها فيه غير دور عاصمة تؤمن الانسجام بين الاجزاء المقومة وتجري بينها العدل بالسوية .

١ - الاقتصاد

والشعور الذي ساد الجميع ، هو ان الحياة الاقتصادية تميزت ، خلال هذين القرنين ، بالانطلاق والازدهار . هنالك ، لمعري ، نقط سود في الصورة : أقول نجم ايطاليا ، وتشابك التبادل

والعطاء مما لا بد منه لتأمين شيء من التوازن المرغوب ، وعدم الاستقرار في ما كان عليه الوضع من سرعة العطب . الا انه لم يحدث شيء مهدد للآث ، والازمة الايطالية التي استشعر الناس قرب وقوعها وثقل وطأتها ، امكن ايجاد ملطف وقي لها ، اذا ما امتنع الدواء . فساد الهدوء والاطمئنان القسم الاكبر من القرن الثاني ، بحيث اصبح جائزاً القول بطلوع شعور عام بالرضى والارتياح .

موم الحكام ومواجهم :
روما والجيش
راح معاصرو العهد يعززون الفضل في هذا كله للادارة الامبراطورية ، ولا سبلاً للباطرة انفسهم ، وهم في ذلك انما يرددون ما تنفخ به ابواق الدعاوة الرسمية . الا اننا لا نستطيع ان نعزو ذلك اليهم الا بالمداورة ، نتيجة فرعية لسياستهم الحربية والادارية . فقد احتزوا كثيراً من تطبيق سياسة اقتصادية ، ولا سيما من وضع فلسفة اقتصادية . ولعل خير ما كانوا يرجونه الا يتدخلوا في امور وموضوعات كثيراً ما اعوزتهم الحيلة لمعالجتها بعلم واصول . وما كانوا أرغموا للتمرس بمثل هذه الامور لولا اضطرارهم لمواجهة قضيتين عصبيتين هما : تأمين تموين روما ، وتموين الجيش الروماني .

فقد كانت روما ، اذ ذاك ، مدينة ضخمة جبارة ، اختلف المؤرخون وتباينوا كثيراً فيما بينهم ، حول عدد سكانها ، وذلك لقلة المصادر الركيعة التي يصح الاعتماد عليها . فقد فرط بعضهم وراح يقترح ٢٠٠.٠٠٠ ، عدد سكان هذه المدينة ، بينما القول بمليون لم يكن بمستغرب قط . ومهما يكن من الامر ، فهذه الجماهير المجمعرة التي تعمر بها العاصمة ، لم تكن لتنتج كبير امر ، منذ عهد بعيد . فقد اقتصر نشاط اليد العاملة فيها على بعض مصنوعات يدوية لسد الحاجات المحلية . فالمدينة قبل كل شيء مستهلك ، أكل ، دون اي بديل او عوض . وهي الى هذا ، مستهلك ، ألف منذ عهد سحيق ، ان يعيش حياة رخيصة ، نظراً للتدابير التي كانت تتخذها الحكومة لتبقى اسعار الحنطة ورخيصة ، ولتوزع الطحين مجاناً على المواطنين الفقراء والمعوزين . ولما كان من المستحيل مجرد التفكير بقطع هذه التقاليد المريعة وضرب عرض الحائط بها : فروما سيدة العالم ، وهي في الصميم من هذه الفتوح الرومانية العريضة ، وما الى ذلك من مشاعر ومصالح واعتبارات تتعلق بهذه الجماهير التي ترى في الامبراطور الخليفة الشرعي للحزب الديموقراطي ، ويمثل التريبون حامي الشعب ونصيره .

فكان على الامبراطور ، والحالة هذه ، ان ينظم على احسن وجه ، مصلحة التجهيزات والتوريدات ، لتأمين اود العيش ، لما لا يقل عن ٢٠٠.٠٠٠ او ما ينقص قليلاً عن هذا العدد ، في عهد اوغسطس ، من رؤساء الأجناس القاطنة في روما ، الموزعين على ٥٠ دائرة ، يتلقون على مدى ايام الشهر ، مجاناً ، كمية القمح اللازمة لاعتلتهم . اما الباقي فكان على دائرة التموين ان تسعى جهدها لتأمين حاجاتهم بصورة منتظمة ، وبأسعار مقبولة . اما في اوقات الفاقة والمجاعات ،

كما حدث، سنة ١٩ مثلاً بعد الميلاد ، في عهد طيباريوس ، فكان الامبراطور يدفع مبلغاً للتجار لتأمين أسباب العيش للشعب .

كل هذا وما اليه ، الى جانب الاعياد والالعب المعدة للترفيه عن الشعب ، كالأعطيات التي توزع عيناً ، ومقدارها ٤٤٥ ديناراً في عهد اوغسطس وهو الرقم المألوف ، ثم ارتفعت الكمية في القرن الثاني بحيث تجاوزت ٦٥٠ في عهد ترايانوس ، وبلغت ١٠٠٠ في عهد هدريانوس ، لتنزل الى ٨٥٠ في عهد مارك اوريل ، واستقرت على ٨٠٠ في عهد كومود ، وهي مبالغ كانت توزع على المواطنين ، الذين لا يستفيدون من المساعدة المجانية ، اثناء بعض الاعياد . هذا فيما يتعلق بالمساعدات النقدية . اما من جهة الادارة الفنية ، فكان ذلك انما يعني إنشاء مفوضية التموين *Annone* ، ومصادرة وسائل النقل البحري ، واعداد أرصفة نهر التيبر وتجهيزها ، الى جانب تجهيز مرفأ مدينة اوسيتي ايضاً .

اما امر تامين الجيوش ، وتجهيزها بالعدد والعتاد ، فقد وضع الدوائر المعنية امام مسؤولية ثقيلة ، كان حلها مع ذلك ابسط واسهل من تامين الشعب . فمجموع افراد الجيش المطلوب اعالتهم كان اقل بكثير من إعالة هذه الجماهير الشعبية التي يجب مساعدتها في روما . ثم ان هذا الجيش لم يكن مجتمعاً او محتشداً كهذه الجماهير المتراسة في روما والتي تعجز اخصب السهول المجاورة عن إشباعها ، بل كان موزعاً على الحدود : حاميات تحمي حى الاراضي والمزروعات التي كانت تستغل في المؤخرة . وكان يكفي لتأمين حاجته ان يحصل من الولايات القريبة منه فائضاً كافياً من محصول الارض ، وان يؤمن نقله بحيث يصل للمستهلكين بسلام . فالمشكلة الاولى كان يمكن حلها بواسطة الدراهم . اما المشكلة الثانية ، وهي ادق وأصعب لوقوع هذه الحدود في منأى بعيد عن البحر المتوسط وموانئه . وهذا ما دعا لشق طرقات برية عندما يتعذر النقل النهري . وفي سبيل هذا التجهيز وتأمين اسبابه المزدوجة الغرض - اذ ان الطرقات كانت تستعمل لنقل الجيوش ايضاً - امكن توفير اليد العاملة ، وذلك بتسخير افراد الجيش وتشغيلهم في شق الطرقات وتوسيعها .

وهذه المسؤوليات الحكومية ، تقتضي للنهوض بها المال والاختصاصيين .
العالم الروماني
وجهاً لوجه مع مسؤولياته
فاذا ما نظرنا اليها بمنظار العالم الروماني ، والمستوى الحضاري المادي الذي حققته بعض اجزاء هذا العالم ، فلم تكن هذه المهام والمسؤوليات التي توجبها ، فوق طاقته ، اذا ما توفرت له ادارة حكيمة رشيدة . فالمال الذي كان لا بد منه لتحقيق هذا كله ، كانت توفره موارد البلاد الاقتصادية ، ولم يكن ليكلف عبئاً ثقيلاً عليها .

فباستثناء مصر التي بقيت خاضعة لنظام خاص من الاستقلال والاستثمار لا رحمة فيه للفلاح المصري ، كان الوضع القائم مؤاتياً لحياة اقتصادية ناعمة تعم جميع اطراف الامبراطورية ، لا سيما والاستقرار الذي تنعم به البلاد كان يشجع على القيام بهذه الجهود . فروما والجيش ألتفا في الامبراطورية ، سوقاً للاستهلاك لا حدود لها تقريباً ، اذ كان من اتساع هذه الحاجات وتنوعها

ما يتطلب المزيد من انتاج محاصيل الارض . فالى جانب الحنطة التي كانت تؤلف اساس الغذاء وقيام أود العيش، يجب ان تضيف محاصيل غذائية اخرى متنوعة يطلبها الكثيرون من الزبائن والمستهلكين ، ومقادير هائلة من المنسوجات والمصنوعات المعدنية التي يمكن نقلها على الطرق القائمة في جميع اطراف الامبراطورية .

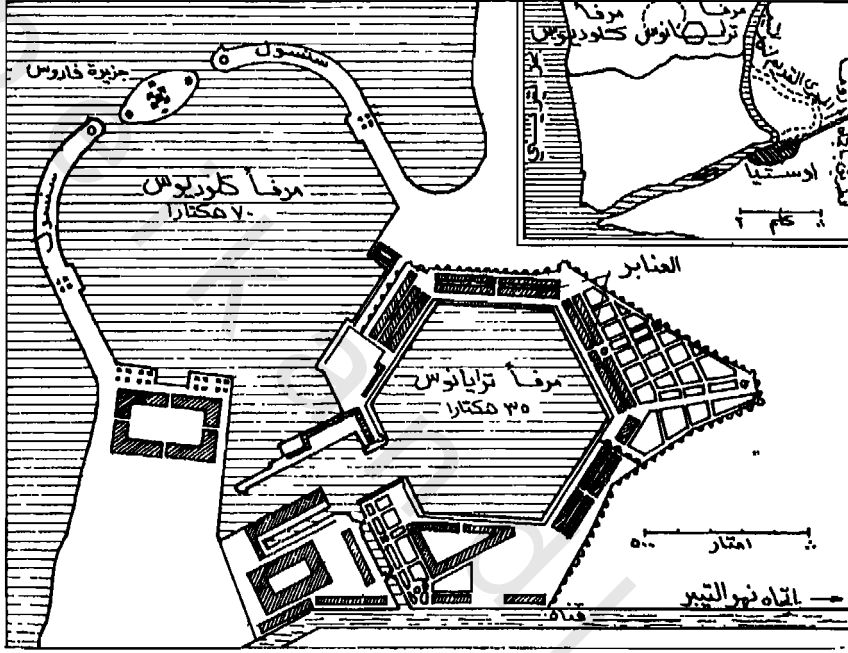
فقد كانت روما قطب جذب ومركز ثقل هائل، لكل ما يمكن ان يبلغ في طريقه الى موانئ البحر الابيض المتوسط ، حتى ما كان منها من الكماليات الغالية الثمن ، لوجود اصحاب ثروات طائلة في احيائها وصورها . اما قيام الجيوش : حاميات على اطراف الامبراطورية وحدودها المتاخمة لشعوب البرابرة ، فقد بعث في هذه الاقطار المتأخرة في تطورها عن ركب الحضارة ، نشاطاً عارماً لم تكن لتعرفه ، كان من بعض نتائج الحيرة ، احياء موات الارض وإعمارها ، وحرثها وتزايد السكان فيها ، وانشاء المصانع والمعامل في ارجائها . ثم ان إنشاء شبكة اتصال منتظمة الحلقات ، بين هذه الحدود والاقطار الواقعة في مؤخرتها امتدت الى اطراف البحر المتوسط الذي كان ، مع ايطاليا ، واسطة العقد وملقئ الخطوط ، ساعد على إنشاء المجاري المائية او النهرية الكبرى والطرق الرئيسية ، ومهد السبيل امام حركة تجارية جبارة ، لم تقتصر المبادلات فيها على بضائع الاستهلاك وحدها .

وهكذا ، فالنتيجة المحسوسة الكبرى التي تهم الى حد بعيد المؤرخين اليوم كما همت المعاصرين لهذه الحركة الاقتصادية ، تبلورت عن تشعب العلاقات التجارية وتشابكها ، وضم الاقطار الشاسعة الواقعة على شواطئ البحر الابيض المتوسط الغربية الى الوحدة الاقتصادية التي اقتصرت ، من قبل ، على شواطئ البحر المتوسط الشرقية ثم ربطتها الفتوحات الرومانية بقلب ايطاليا ، واخذت هذه الوحدة تتسع لتضم في نطاقها : قطاعات الدانوب والرين ، وجنوبي ايكوسيا . وهكذا نرى البريطانيين يتجرون مع منطقة بوردو ، كما راح سكان مدينة آرل يتجرون مع لبنان ، في الوقت الذي كان فيه التجار السوريون يجوبون جميع اطراف العالم الروماني الذي كان قبل كل شيء وحدة سياسية وعسكرية ، لم يلبث ان اصبحت وحدة تجارية واقتصادية ناشطة ، حية ، بفضل الروابط التي شددت دوانيه الى اقاصيه عبر البحر المتوسط .

وهذا الازدهار التجاري توفرت له عوامل تقنية في غاية الملاءمة . فمن التجارة وسائلها التقنية مقومات هذا الازدهار ، هذه الامبراطورية المترامية الاطراف ، ذات الانتاج المتنوع ، والغلال المتعددة ، والمحاصيل الزراعية المختلفة ، والاساليب الصناعية المتباينة . وكان السفر والتجوال والرحلة في جميع أطرافها حراً لجميع رعايا الامبراطورية ، لا يجد من امكانات الرحلة إلا هذه الازدواجية في اللغة : اليونانية في الشرق ، واللاتينية في الغرب . ومع ذلك لم تؤلف هذه الازدواجية عقبة كأداء ، استعصى حلها . وانتقال المحاصيل الزراعية حظي بالحرية نفسها ، باستثناء الحبوب المصرية التي لم يكن الامبراطور يسمح بتصديرها لغير ايطاليا إلا في ما ندر . وكانت هذه المبادلات تخضع ، بالطبع ، لرسوم وضرائب لم تكن ابداً رسوم حماية ،

معتدلة في أقدارها ونسبها . من هذه الرسوم ، مثلاً ، رسم الدخولية وهو رسم كان يجب عند مداخل بعض المدن ومنها رسم اقليمي *Portoria* ، تجبیه الدولة عندما تجتاز البضاعة شبكة طرق مركزية، كما لو مرّت في غالبا مثلاً، بما فيها المقاطعات الألبية التي تفصل بينها وبين إيطاليا، او في اقليم آسيا الصغرى. كان معدل هذه الرسوم المختلفة يوضع على نسبة قيمة البضاعة المستوردة او المصدرة . وقد بلغ الحد الأعلى لهذا الرسم في صقلية ٥٪ مع انه قلما تجاوز ٢،٥٪ عادة .

وقد أنشأت الدولة شبكة من الطرق الممتازة وتمهّدها بالصيانة والرعاية . وتبرز أهمية هذه



الشكل ١٠ - مرفأ وأسقي القديمة
في هذا الرسم تظهر القناة المؤدية الى المرفأ القديمة وتدعى الفيوميسيو

الطرق اذا ما قارناها بما كان منها ، من قبل ، اذ كانت مجرد معالم مسالك تسلكها حيوانات الجر. وقد حقق مهندسو الطرقات إنجازات هندسية جبارة تُعد بحق ، من المعجزات اذ ذاك ، لتخطي بعض النوائء الطبيعية ، من جبال ووديان ومنحدرات صعبة الاجتياز . كما ان هذه الأعمال الهندسية كانت مثلاً للجرأة. فكل عهد من عهود الإباطرة الرومانيين الذين تعاقبوا على الحكم ترك آثاره المعمارية البارزة التي تحدد الدهر في بقائها ، ولا يزال بعضها ماثلاً للعيان حتى يومنا هذا . ولكن حذار من ان نضخم أكثر مما يجب ، واقعاً متحيزاً ، لا نزال نطأطئ الرأس امام روعته . فالخرصانة الرومانية (الباطون) التي اقتضت من المهندسين جهداً كبيراً من الحيلة والتصور ، لم يعتمد عليها في رصف الطرقات ، فاستعاضوا عنها بالبلاط القوي المقصوب ، يرصفون

به الطرق رصفاً جميلاً. كذلك لم تأت وسائل استخدام الحصان كحيوان للجبر والنقل على مستوى النجاحات التي حققها الفن الروماني في مجال بناء الطرق. فبيطرة حيوانات الجر بقيت عادة محدودة لم يشع استعمالها. وطريقة كدن الحصان الى العربلة لم تعرف، على ما يظهر استعمال طوق المنكبين، بل استمروا في استعمال سيور يؤثر ضغطها على صدر الحيوان وحركة تنفسه. ولذا قلما زادت حمولة عربلة يجرها جوادان على ٥٠٠ كيلو غرام، وهي كمية قليلة تبهظها تكاليف السفر والرسوم وترهقها. فالطرق الامبراطورية التي كانت تبعث في النفس الدهش والإعجاب لانسيابها في صراط قويم غير مبالية بالنوائء الطبيعية، كانت تصلح لتنقلات الجيوش والمسافرين الذين لم يكونوا ليحملوا معهم مهاباً كثيرة، كما تصلح لسير البريد الذي ينقل المخابرات الادارية. ولهذا راحت الحركة التجارية تعمل بالأكثر، على النقل البحري. فقامت عمارات وأساطيل يقودها مجذفون، تذرع بجاري الأنهر ذهاباً وإياباً، حتى ما كان منها صعب المسالك، عسير المرتقى كنهر الرون ونهر الأود. ولو اقتضى الامر جر السفن بالليان او نقل البضائع على الظهر. فمن الغريب جداً ألا يعتمد المهندسون الرومان، الذين عرفوا يجرأتهم ومغامراتهم في مجالات التعمير ومرافق أخرى، الى حفر الترع والأقنية. ومن الأقنية القليلة التي عرفت عنهم، قناة تتعلق بمجرى الرين الاسفل، ولا سيما القناة المعروفة اليوم باسم إيسيل التي كانت تربط النهر المذكور ببيرة فليفو *Flieto* المعروفة اليوم ببيرة زويدريزي.

وعرفت الملاحة في البحر المتوسط ازدهاراً غربياً، بعد ان قضى او كاد، على انجبال القرصنة التي تعرضت لها، وذلك بفضل يقظة البوليس وحراسته الصارمة للطرق والمسالك البحرية. فالسفانة لم تسجل تقدماً ملموساً، وبقي حجم السفن على مثل ما وضعته عمارة السفن البحرية في تلك العصور، اذ كان، على الاجمال متوسطاً، باستثناء الاسطول الخاص بدائرة التموين ونقل الحبوب من مصر الى ايطاليا، اذ كانت هندسة هذه السفن تخضع لتصميم خاص اتى «بلين الأكبر» على وصفه، حتى ما كان منها معداً لنقل مسلة فرعونية او قاعدة تمثال لا يقل وزنه عن ٥٠٠ طن، بقطع النظر عن صابرة السفينة التي كانت تبلغ احياناً ٨٠٠ طن، وهي، على الاجمال، من العدس. اما الترفة التي شقت برزخ كورنثس لتفادي الدوران حول شبه جزيرة البيلوبونيز، والتي وضع تصميمها قيصر، وتابع نيرون العمل فيها، فلم يتم انجازها. وقد أدى إعداد المرافىء: البحرية منها والنهرية، وتثبيتها، الى اشغال عظيمة، حذا فيها المهندسون الرومان حذو اسلافهم المهندسين الاغريق، وبزؤهم في اشياء كثيرة. ولم تبلغ هذه الاشغال من العظمة والجهد ما بلغه إعداد مرفأ مدينة اوستي وهو مرفأ روما المفضل. ولا تزال ماثلة للعيان معالم الإنشاءات الجبارة التي قام بها هؤلاء المهندسون على شواطىء ايطاليا والشرق الادنى، في مواقع على سيف البحر، مثل شنتوميليه، وتيراسينا، وتراينزو واسكندرية-ترواد، وبمبيوبوليس في كيليكية، وبقايا الارصفة الضخمة التي اقاموها لكسر قوة الامواج المهاجرة، والجزر الاصطناعية، والمنائر الكبيرة، والارصفة التي اقاموها في وجه الامواج العاتية. ولعل

غلطتهم الكبيرة هي انهم لم يفتنوا للحؤول دون غشيان الرموز لاحتواض السفن ، او لترسب مياه الانهر . فما من مرفأ من هذه المرافئ عرف مدى كالمدي الذي عرفه ميناء الاسكندرية ، اذ كان تيار مائي يحول دون غشيانه بطمي النيل .

قام في خدمة التجارة ، حتى اواخر القرن الثاني ، نقد روماني قوي ، سليم .
النقد الروماني
والعملات المستعملة
فقد اجيز لعدد من المدن الكبرى في الشرق نعمت بالرعاية الرومانية ، سك بعض النقود من البرونز والفضة . ومثل هذا الامتياز الذي كان قابل الالغاء ، خضع بطبيعته ، لمراقبة شديدة من قبل السلطات الرومانية . ولا تامل بهذه العملات التي وصفها علماء التعمينات في عصرنا هذا « بالمسكوكات » الاستعمارية ، وكان التعامل بها في نطاق ضيق ، فتح المجال امام اعمال صرافة محلية عرفت الحركة التجارية العامة ان تتفادها ببسر ، لوفرة النقد الرسمي المتداول بين الناس اما كن سكة .

فالعملة البرونزية كان سكها حقاً محصوراً بمجلس الشيوخ ، ويخضع بالتالي ، لمراقبة شديدة من قبل الادارة الامبراطورية لانها كانت عملة رسمية للدولة . وهكذا عرفوا ان يتفادوا ، في آن واحد ، تضخم النقد وهبوط قيمته . اما هبوط قيمته ، فقد اعتمد في تقادها خليط من الرصاص والزنك مع النحاس والقصدير . فقطعة البرونز المثالية كانت قطعة الـ *Sesterce* التي كانت تساوي ربع دينار فضة . وهذه القطعة بقيت الوحدة الاساسية في التداول ، حتى في المبالغ الكبرى ، اقله في ايطاليا والغرب .

واحتفظ الامبراطور لنفسه بحق سك العملة الذهبية والفضية ، ممثلة بريال الذهب ، والدينار . وقد طبق دوماً ، خلال هذين القرنين ، القرار الذي صدر في عهد اوغسطس يجعل قيمة ريال الذهب تساوي ٢٥ ديناراً ، بالرغم من التطورات التي لحقت ، فيما بعد ، بهاتين العملتين بنسبة الواحدة الى الاخرى ، وكان من جراء سيطرة الامبراطورية على مناجم الذهب في مقاطعة داسيا ، بعد فتحها على يد الامبراطور ترايانوس ، ان اضعف القيمة الشرائية لعملة الذهب ، التي بعد ان كانت ١٢ ضعف قيمة الفضة ، في عهد اوغسطس ، اذ بها تهبط الى ٩ اضعاف . وهذا بعينه يفسر لنا الهبوط الذي لحق بالدينار من حيث وزنه وعيابه . فاذا ما بقي عيار ريال الذهب عالياً ، اي بنسبة ٩٦ ٪ ، واذا كان وزنه لم يهبط الا بنسبة عشرة في المائة ، فالهبوط الذي لحق بالدينار كان أشد ، لا سيما ما تعلق منه بالعيار ، اذ سقط من ٩٨ ٪ في عهد اوغسطس ، الى ٨٨ ٪ منذ مطلع القرن الثاني .

هذه المعطيات والارقام التي اتينا على ذكرها اعلاه ، تثبت بوضوح ، ان الابطارة ، عموماً ، باستثناء الامبراطور نيرون ، لم يلبثوا الى المضاربات والتلاعب بالنقد للتخلص من الصعوبات المالية التي كانوا يعانونها ، وهي صعوبات طفيفة ، غير ذات بال على الاجمال ، الى عهد مارك اوريل ، فصادفت الامبراطورية الرومانية ، اذ ذاك ، من جميع الوجوه ، صعوبات ارغمتها على الاخذ بالتضخم المالي الذي صحبه هبوط مريع في عيار الدينار .

التجارة الدولية بالرغم من تنوع ولاياته وتباعدها وتناثرها ، بقي العالم الروماني قبل كل شيء ، عالم البحر المتوسط ، وان أطلت بعض اقاليمه على المحيط الاطلسي . وهذا العالم الشاسع الفسيح كانت اعجز من ان يشبع مطلب الطبقات الاجتماعية وحاجاتها لبعض المنتوجات والمحاصيل التي تصنع في الخارج ، وهي منتوجات ، استبدت باذواق هذه الطبقة المرفهة ، المترفة ، التي نما فيها هذا الترف خلال اتصالاتها الطويلة العهد بسراة الشرق الهليني وأغنيائهم ، فتطبعت باذواقهم وتحلفت باخلاقهم وعاداتهم . هنالك لمعري ، اقطار ومدن عرفت الاتجار مع هذه الاقطار النائية فكان ذلك باعثاً على ازدهارها وغناها . فقطع هذه الاصناف عن رومانيه ذهب هذه الثروات عن اهلها . وهكذا اكتملت التجارة في الداخل بحركة تجارية في الخارج لم يكن ليستهان بها ، وان كانت دون الاولى اهمية وشأناً . وهذه التجارة الدولية ، على نشاطها ، اكثر من دليل وبرهان ، في اكثر من مصدر ومرجع ، كما عليها اكثر من دليل ، في هذه الآثار المادية التي خلفتها ، اذ نجد في بعض انحاء الامبراطورية حاجيات اجنبية الصنع ، كما نجد نقوداً وعملات رومانية من جميع الفئات في بلدان اجنبية مختلفة .

وهكذا راح المؤرخون يدرسون اليوم ويبحثون قضية الميزان التجاري في الامبراطورية الرومانية . والأمر الذي لا شك فيه هو ان الميزان التجاري كان يشكو عجزاً تسبب في خروج المعادن الثمينة من البلاد وانسراها الى الخارج . ويرى بعضهم ان حركة نزوح الاموال هذه ، بلغت من الشدة بحيث نشأ عنها هبوط اقتصادي محسوس .

فالانجار مع شمالي اوروبا وشرقيها لم يسجل اي هبوط من هذا الشكل . فبعد ان كان العنبر (الكهربا) يتبع في انتقاله ، طرقتاً شتى ، كان ينتهي به المطاف الى ايطاليا عن طريق مدينة اكيليه التي بقيت ، حقبة طويلة ، عقدة للمواصلات التجارية مع بلدان الدانوب . وقامت في القرن الثاني حركة تجارية انطلقت رأساً من بلدان نهر الرين الاعلى باتجاه الدانوب ، كما ان بلاد غاليا الشمالية كانت تصدر على نطاق واسع ملاقطها ومشابكها الموشاة بالميناء . واخذ الغز او السكيثيون ، في جنوبي روسيا ، يصدرون عن طريق نهر الدانوب الاسفل ومرافقه البحر الاسود اليونانية ، الى جانب القمح والسبك المعد لاستهلاك الجيران الاقربين ، الفراء والرقيق ، ثم تنقل هذه السلع الى الموانئ النائية . وكان هؤلاء الاقوام يحرصون على شراء المشابك ومصنوعات الخنزف والزجاج ، اذ نجد بعضاً منها في القبور والمدافن التي عثروا عليها في انحاء روسيا الجنوبية . كذلك نجد نقوداً رومانية السكة يجري التداول بها في القرن الثاني ، في اصقاع سكندنافيا اذ ان خروج مثل هذه العملات لم يكن يتسبب قط بنزيف مالي يهدد الامبراطورية الرومانية باي خطر .

وعلى هذا المنوال جرى الأمر مع اواسط افريقيا . فالتجارة عبر الصحراء الكبرى بقيت دوماً ، قليلة الشأن . فقد عولوا في النقل على الجمل ، مركبة الصحراء الاولى ، واتخذوا منه

الرواحل للتنقل بين الشرق والغرب ، فلم تبلغ هذه الحركة بعض الاهمية الا مع مطلع القرن الثالث . فالبدو الرحل في الصحراء ، كانوا قبل كل شيء ، اهل غزو وسلب ونهب ، ولذا لم يكن بالامكان تنظيم قوافل تعمل على مواعيد منتظمة . والاستيراد اقتصر على شراء بعض أرقاء الزنج اذ كان اقتناؤهم من سمات الغنى والثراء ، يثير وجودهم لدى البعض الشهوة والرغبة عند البعض الآخر ، في اقتنائهم . كذلك كانوا يستوردون بعض حيوانات غريبة ، مرأها يثير دهش الجماهير وحيرتها . اما التجارة عن طريق صعيد مصر ، فكانت ناشطة ، كما ان الحبشة وبلاد اريثريا ألقت سوقاً رائجة لمصنوعات الاسكندرية تصدر هي ، في المقابل ، الأخشاب الصلبة النادرة والعاج والذهب ، وغير ذلك من انتاج تلك البلاد ، الامر الذي جعل الميزان التجاري مع هذا الجانب من الارض حسناً .

اما الاتجار مع الشرق الاقصى ، فقد ألقت المشكلة الكبرى ، اذ كانت الطبقة الثرية في روما تسمى وراء محاصيل تلك البلاد النائية الثمينة . فإلى جانب الطيوب والعطور والروائح الزكية ، والبخور والمر والافاويه على انواعها ، والحجارة الكريمة ، والآلئ والماس ، وكلها مواد كانت تستورد ، منذ عهد بعيد ، من بلاد العرب والهند وأقطار آسيا الجنوبية الشرقية ، يجب ان نضبط الآن ، بالرغم من احتجاج المزمتمين من الاخلاقيين ونواهي الامبراطور بمنع الرجال عن لبسه وارتدائه ، الحرير الذي كان يستورد من الصين . وكانت هذه البضائع الخفيفة الوزن ، والغالية الثمن ، تدرّ ارباحاً طائلة اذ كانت تباع بأسعار لا تعرف حداً إلا ما يضعه لها المترفون ممن ألفتوا اقتناءها وأطلقوا العنان في امتلاكها . ولذا كانت هذه السلعة الغالية تتحمل بسهولة ، نفقات النقل : رسوماً وضرائب متعددة وعمولة الوسطاء . ولذا نشبت منافسة شديدة حول استعمال الطرق التي تتبعها في سبيلها نحو الغرب ، والمشرفين عليها والمتحكمين بها (راجع شكل ٣٠ : طرق المواصلات بين اوروبا وآسيا) وهي اصناف وبضائع من شأنها ان تثير أعنف الرغائب واقواها وان تسيل اللعاب في حلق طالبها . فبعد ان رأّت حكومة الامبراطورية نفسها ، عدم جدوى الحملة التي شنتها على هذه الكياليات ، راحت تترك الحرية لرعاياها والواقعين تحت حمايتها للاتجار بها ، ثم اخذت تشجعهم وتدافع عنهم ، ولو بقوة السلاح احياناً ، وهي الدولة التي لم يكن يهملها التدخل في الشؤون الاقتصادية .

وكانت مملكة الفارثيين التي خلفت السلوقيين وحلت بسيطرتها محلهم على بابل وقسم من ايران ، تهيمن على عدد من هذه الطرق التي تسلكها التجارة مع الصين . وكانت احدى هذه الطرق البرية تجتاز ايران من الغرب والشمال لتصل الى مدينة مرو في ولاية مراغا ، ومنها تتفرع الى مفترق ينتجه احداهما نحو التركستان والآخر نحو الهند عن طريق كبلول . وهنالك طريق بحرية كانت تنطلق من مصب دجلة والفرات (شط العرب) فتضل الى مصب نهر الهندوس . ولكي نفهم حقيقة هذه الحروب القاسية التي قامت ، غِبّاً ، بين الفارثيين وترايانوس على الاخص ، ثم تتابعت متواصلة بينهم وبين مارك اوريل ، يجب ألا نهمل من حسابنا الدور

الكبير الذي لعبه فيها اعداء الامبراطورية من وراء الكواليس الذين كانوا وسطاء هذه التجارة وعلماءها .

هنالك امبراطرة اكثر تمسكا بأهداب السلام ، اهتموا بهذه القضية وراحوا يبحثون عن يغنيهم مؤونة هؤلاء الوسطاء . فاتجهوا بأنظارهم شطر البحر الاسود بعد ان اهتمل الاغريق امره ، غب تدويخهم لايران وفتحهم لها . وما الكتاب الذي وضعه المؤرخ تيريان بعنوان : « رحلة حول البحر الاسود » سوى تقرير مفصل رفعه صاحبه الى الامبراطور هدريانوس ، هو حلقة في سلسلة من هذه البحوث حول هذا الموضوع ، سبقها كما عقبها محاولات اخرى . فبعد ان يبلغ التجار التركستان متجنبين بحر قزوين شمالاً او عابرين له ، يتجهون منه شمالاً نحو مجرى نهر الاوكسوس القديم (امو داريا اليوم) ليلتقوا بالتجار الصينيين القادمين من لوب - نور . وهنالك سبيل آخر لتفادي طريق الفارثيين ، وذلك باتخاذ مسالك الجنوب . فقد اتاحت الرياح الموسمية ، منذ عهد بعيد ، قيام علاقات بين بلاد العرب والهند ، عادت عليهم بأرياح ومغانم طائلة . فقام اوغسطس بتجريدة كبيرة ضد العربية السعيدة بين المدينة وعدن . وبعد فشل هذه الحملة انصرف الرومان لتنظيم علاقات تجارية انطلقت من الموانئ المصرية الواقعة على البحر الأحمر ، مثل ميوس هورموس على مقربة من خليج السويس ، وبرنيكي ، الواقعة على موازاة اسوان ، فربطت هذه الموانئ مع الهند مباشرة ، او عن طريق الاسكلة التي قامت الى الجنوب من شبه الجزيرة العربية قبل الإيغال في مضيق باب المندب . ويؤمى الى احد البحارة الاغريق المدعو هيبالوس اكتشافه الرياح الموسمية في الصيف ، هذه الرياح التي عرفت بموسمية الصيف . اما تاريخ هذا الكشف الجغرافي ففيه نظر ، اذ يرجع بعضهم به الى اواخر القرن الثاني ق . م ، بينما يردّه البعض الآخر ، الى بدء ظهور النصرانية ، وهو الاصح على ما يراه الثابتون في العلم .

وعلى هذا الشكل استطاعت السفن الرومانية بلوغ الهند وسيلان والوصول منها الى الهند الصينية . ويذكر الجغرافي المؤرخ اليوناني بطليموس أقصى نقطة انتهى اليها البحارة الرومان : كاتيفارا الواقعة ما وراء كيرسونيز الذهب ، وهي شبه جزيرة الملايو ، ولعلها التونكين او الصين الجنوبية . فقد عثر على حوائج واغراض من صنع الرومان ، في ضواحي مدينة بُنديشري في الهند ، وعند مداخل « او ك - ايو » في الكوشنصين ، وفي هذا دليل على ان بعض التجار الغربيين بلغوا في رحلاتهم البعيدة ، هذه المناطق النائية ، وان لم ينشئوا لهم فيها مستعمرات ثابتة . ويحدثنا التاريخ عن وفادتين ارسلها احد ملوك الهند ، تحملان هدايا سنية لاوغسطس وهو نعيم في بلدة تاراغون ، في اسبانيا ، وفي جزيرة ساموس ، عام ٢٥ و ٢٠ ق . م . وهنالك روايات تحدثنا عن سفارات اخرى وردت على ترياوانوس وبعض خلفائه ، كما تحدثنا الروايات الصينية عن جهة اخرى من بلاد : تا - تسين التي كانت تقع فيما يرجحون ، على شواطئ البحر المتوسط الشرقية ، وعن عاصمتها الكبيرة وصروحها الخمسة الشهيرة التي قد تكون مدينة انطاكية بالذات وهي تنوه على الأخص بقدم موفدين ، عام ١٦٦ ، أي في عهد الامبراطور مارك اوريل ، من

قبل أن - تون ، وبلوغهم الصين الجنوبية . والمعروف ان مارك اوريل الذي تبناه الامبراطور انطونين ، كان يحمل هذا الاسم عندما جرى تربيته . وليس ما يمنع ان يكون هؤلاء تجاراً تكتسبوا بهذا الاسم الرسمي .

فالحركة التجارية ، التي قامت على هذه الطرقات ، بلغت شأواً مهماً ، ولا شك . ويقول سترابون ان ١٢٠ سفينة كانت تنطلق كل سنة ، في عهد اوغسطس ، من مدينة ميوس هورموس في اتجاهات عديدة . والكتاب الذي ظهر تحت اسم : « رحلة في بحر اريثريا » (البحر الاحمر) ، كان يشير الى بعض السلع ، كالنبيذ والزجاج ، ومصنوعات معدنية متنوعة، ويذكر بلين الكبير ان المرجان كان نادراً في جميع أنحاء الامبراطورية ، لانه كان يصدر الى الهند . وقطع الفخار والحزف الاحمر ، ذات الرسم النافر التي عثر عليها المنقبون في الاماكن الاثرية في الشرق الاقصى ، تشهد على تصدير الادوات الفخارية . غير ان الصناعات الهندية لم تكنوا من تقليد هذه الاصناف . كذلك عثر المنقبون في هذه المواقع الاثرية ، على بعض الحلى والمجوهرات وان جاءت على نطاق ضيق جداً . وكان الرومان يقبضون ثمن هذه السلع معادن ثمينة ويقدر بلين بـ ١٠٠ مليون سسترس (٢٥ مليون فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤) مبلغ ما يصدرونه من هذه الاصناف الى البلاد العربية والهند والصين ، كان نصفها يمر عبر البحر الاحمر . وكان سكان الهند ، يبحثون باهتمام ، عن النقد الروماني ، والعملة الامبراطورية ، ثم راحوا يقلدونها ويوزونها ايضاً ، اذ ان قطع الذهب الهندية كانت من نفس عيار الريال الذهب الروماني ، حتى ان كلمة دينار *Denarius* اللاتينية الاصل انتقلت الى اللغة السنسكريتية . واكثر العملات الرومانية التي يعثرون عليها اليوم في الشرق الاقصى ، يعود تاريخها الى مطلع العهد الامبراطوري ، اي الى هذا العهد بالذات الذي تنوّه به كتابات بلين وسترابون . ولكن فلنحذر الاستنتاج بسرعة لنقطع جازمين بأن التجارة خفّت حركتها بعد هذا العهد . فسكان الشرق علقت نفوسهم بهذه السلع ، وكانوا يحرصون الحرص كله على الحصول على ذات البضائع والمصنوعات التي ألفوا تعاطيها .

وقد راح الأمبراطور طيباريوس يتعلم ، أمام مجلس الشيوخ ، من أن ثروة الامبراطورية وغناها يتسربان الى البرابرة ، والى الاعداء ، ثمناً للحريز والحجارة الكريمة ، والحلى والمجوهرات التي كان الأغنياء يسعون وراءها ويتباهون بلبسها . غير ان طيباريوس الذي عُرف بروحه التشاؤمية ، كان من هؤلاء النفر المتزمتين المنقطعين عن معاشرّة الناس . ولكي يتمكن من تقرير الأذى الذي لحق بتجارة الامبراطورية الرومانية لا بد لنا من احصاءات دقيقة حول مقادير المعادن الثمينة المنتجة اذ ذاك ، ومقارنتها بما يتسرب منها للخارج . يبقى بعد هذا أن ليس بين هذه البضائع والسلع التي كانوا يتصيدونها بأغلى الاثمان ، ما كان ضرورياً ، فراحوا يسعون وراءها ترفاً ويتباهون بحملها . فقد حالت اخلاق العصر المتمكنة من النفوس ، دور امتثال الناس لتوصيات السلطة ونواهيها ، وفوتت على الامبراطورية ، امكانية الاكتفاء الذاتي

المتوفرة لديها، وهكذا راحت طبقة غنية ثرية في روما تستسلم بكليلتها التيارات البذخ والاسراف والتنعيم التي استبدت ، منذ القدم ، بالطبقات الثرية في الشرق .

هذا الاكتفاء الذاتي توفرت امكاناته ، من حيث المبدأ ، في المجال الزراعي . ومع ذلك لم تستطع الامبراطورية ان تنسى يوماً ، او تناسى ، خطر المجاعة الذي كان يطل عليها من وقت لآخر ، فيقلق منها البال ويقض مضجعها .

الزراعة : قصور
وسائلها التقنية

ليس من الخطئ بشيء ان نرد اسباب هذا الخطر ودوافعه الى هذا الوضع الزراعي الذي كانت تتسكع فيه الاجهزة الزراعية وعتادها ، من الوجهتين العلمية والفنية . وتنقض الأيام وتجري الأمور ، والزراعة ، كالصناعة ، في شبه دوامة تدور على نفسها ، ليس من تحسين او تكامل في الانتاج . وكيف تتطور ، وقد خُيِّل الى المسؤولين وعلية القوم ومن بيدهم الامر والتوجيه ، انهم انما يأتون إذأ ما هم خصوا شؤون الحياة الدنيا وضرورات العيش ومقتضياته ، ببعض الشيء من الجهد الكريم الذي بذلوه وجادوا به ، في هذه الانشاءات العظيمة التي اقروا بمثلة بهذه الموانئ والمباني ، والطرق العريضة والصروح الشاهقة . وقد نظروا الى هذه الانشاءات ، ملوكاً كانوا ام نصراء للعلم ، كعبان لا بد منها لتأمين حاجة المدينة بالماء والغذاء ، يخلدون بانشاءها ويبدلون في سبيلها ما اوتوا من قدرات وسخاء . فأمور عادية كاحياء موات الارض ، والفلاحة والزرع ومضاعفة الانتاج قحاً وحسنة ، أمور لا تضي على صاحبها الجاه ، ولا تعود عليه باي فخر ، ولا تجعله في مأتى العين ، او تشرئب اليه الأنظار . فقد جهلوا او تجاهلوا ان في هذا كله خير ما يترتب عليهم من مهابت ، وفي تحقيق هذه الامور ، اسمى المسؤوليات التي يضطلعون بها ، وان هذا الواجب يجب ان يعلو سواه من الواجبات المترتبة على ذوي السلطان . ولعل افتقارهم للاحصاءات حال دون بروز هذه القضايا امامهم بوضوح وجلاء . غير ان الكرب المزمع الذي عانت منه بعض مناطق الامبراطورية كان من شأنه ان يفتح عيونهم ويزيل الغشاء عن نواظرهم . وبما لا ريب فيه البتة ، ان القضية ازدادت تعقيداً وارتباكاً نظراً لما كانت عليه اليد العاملة من ندرة في أكثر من ولاية ، غير ان أسباب هذه الازمة كانت اجتماعية اكثر منها ديموغرافية . ولم يكن المستوى العلمي ، اذ ذلك ، ليضيق ذرعاً عن الحد من وطأة الحاجة الماسة لليد العاملة ، عن طريق تحسين انتاج العامل .

ففي هذه الاقطار المترامية الاطراف التي تألفت منها الامبراطورية الرومانية ، كان همهم الاكبر ، وحرصهم الاشد ، الا يقع اي تغيير في محل كان . فقد هم الادارة الامبراطورية ان تعنى بصر وان تسيج حولها . او ليست مصر اهرام روما الاولى ؟ فترمم اقنيتها ، وتحجف غياضها . ومستنقعاتها في ضواحي الفيوم . كل ذلك واجب محبب في سبيل تأمين عيش روما . فقد اقتصرت عناية الادارة على الترميم والاصلاح ، دون التفكير في التعمير والاحياء . فلا عجب ان يرتفع محصول البلاد وانتاجها ، في عهد الرومان ، على ما كان عليه في ايام دولة البطالسة .

صحيح ، هنالك تطورات ملحوظة ، لا ينكرها إلا كل عنيد مكابر ، برزت معالمها للعيان في كل من اسبانيا وغاليا . ولذا يصبح من ناقل الامور التأكيد بان محاصيل هذه البلاد سجلت ارقاما لم تسجل مثلها من قبل ، لانه لم يسبق في تاريخها ان خطط احد لمثل هذه التنمية في الانتاج .

فأثارة هذه القوى والطاقات الطبيعية ، جاءت استجابة لوعي عفوي أكثر منها لتوجيه او تشجيع ، يبعثها من فوق ، وهو وعي مصدره الاستقرار والطمأنينة التامة ، وتحسين طرق المواصلات واصلاحها لتصدير السلع والبضائع الى بلاد بعيدة نائية ، وغو المدن وتطورها الاجتماعي ، مما زاد من حاجاتها ومستلزمات العيش ، واخيرا هذا التفاعل السياسي والاقتصادي الذي مهد السبيل لتلاقي الحضارات والبلدان النامية . والشئ الذي افتقر اليه الجميع ، لعمرى ، في كل قطر ومصر ، مع انه كان من حق الجميع ان يروه ماثلا امام اعينهم ، محققا ، لو ان الاباطرة الرومان اهتموا بتطبيق الاساليب والمناهج التي سبق لبعض الدول الهلينية ، ان طبقتها في بلادها فأعطت بذلك المثل الصالح ، هو مساهمة الدولة ومعاوضتها لهذه الحركة ، قولا وفعلًا ، نظريا وعمليا ، على السواء . فالدولة حاولت دوما ، انما بتردد ، وبشيء من الوجل ، ان تلطف وتحفف من هول الخطر الجلل الجاثم على الصدور ، والفاغر ابدأ شذقيه ، للانقضاء . والشئ الذي كان الجميع بحاجة اليه . هو رعاية هذه الطبقة الموجهة التي كان في مقدورها ان توجه عمل الفنين .

وهكذا لم يحدث ، على الاجمال ، أي تغيير جذري ولا أي انقلاب ثوري ، في مرافق الزراعة يقبلور عن طلوع مزروعات جديدة ، وبروز اساليب ومناهج جديدة ، وعدة فنية جديدة . فقلما نرى اعمالا واسعة لحياء موات الارض ، وان حدث شيء من هذا فندرته تعفو ذكره . وبدلا من ذلك اخذت الطبقات الاجتماعية الممتازة ، ولا سيما الطبقة الارستوقراطية في مختلف الولايات ، بأسباب هذه الرياضة البدنية وهي الصيد والقنص . فلم نرَ اعمال تجفيف ولا اشغال تصريف في البلاد . فقد اقتصر معظم أعمال الري والسقاية ، على المناطق نصف الصحراوية الواقعة على تخوم الامبراطورية الخارجية ، وذلك بدافع من اعتبارات عسكرية وسياسية أكثر منها زراعية . فنظام تحويل الاراضي ، كل ثلاث سنوات ، لم يسجل اي تطور ، كما بقي على حاله ايضا نظام فلاحه الارض الموات . وهنالك لعمرى ، بعض النباتات او بالأحرى ، بعض الاشجار تدخل الغرب . والكرمة ، هذه الغرسة الخاصة ببلدان حوض البحر المتوسط ، راح الرومان يزرعونها في اقاليم لا تصلح كثيرا لها . وهكذا استبدت زراعتها في مناطق لا تزال زراعة الكرمة مزدهرة فيها لليوم ، كما هي الحال في مقاطعة بوردولي وبورغونيا ، مع ان هنالك من يزعم ، أن ظهور الكرمة في هذه الاقطار ، سبق عهد سيطرة الرومان عليها . كذلك ازدهرت زراعة الكرمة في وادي الرين والموزيل . فالحد الذي تقف عنده زراعة الكرمة في المانيا ، اليوم ، هو حد المقاطعات التي خضعت لسيطرة الامبراطورية وسيادتها . والكستنا انتشرت زراعتها في فرنسا ، كما أن شجرة الدراق أو « تفاح الفرنس » ، كما يلقبونها ، دخلت ايطاليا ، في أواسط القرن الاول للميلاد ، بنوعها : الصيفي والخريفى .

وهكذا ، فالتطور الذي طرأ على الزراعة ، اقتصر ، في أجلي مظهره ، على الانتعاش الذي عرفته زراعة الاشجار المثمرة ، وعلى البستنة . وكلاهما مدينان بهذه الحركة لنمو الحياة في المدينة ، ولزيادة الاستثمار في مرافق الزراعة الاخرى ، انما استثمار قلما جاء مدروساً أو موجهاً ، اذ كان الاغنياء ينزعون ، اذا ما شغلوا أموالهم في الارض ، لكسب المباهاة والجاه الاجتماعي والتأمين على أموالهم ، أكثر منه الى إنشاء مزارعات يسخون عليها بالمال والجهد والعمال ، يتعهدونها بعرق جبينهم ، لتؤتي أئنيها ، لهم ولذرائعهم من بعدهم . ومهما يكن من أمر هذا التطور ، فلم يحدث ، ولم يكن في مقدوره أن يحدث أي تحسن في انتاج المواد الغذائية الاساسية ، أي الحنطة ، بل النتيجة الكبرى كانت في إشباع حاجات بعض الطبقات الاجتماعية على تنوعها ، ولا سيما ما قام منها في المدن . وبهذا يمكن مقارنتها ، الى حد ما - مع الاحتفاظ بالنسبة - بالتوسع الذي بلغته التجارة الخارجية .

كان من بعض نتائج هذا التطور الذي لمسناه في بعض مرافق الزراعة ، المجاعة : خطرهما وواقعهما أن وجد العالم الروماني نفسه ، في مجبوحة من الاثار والفاكهة ، من أي نوع كانت ، ومن الزيت والخور على ألوانها ومذاقاتها . بينما بقي انتاج القمح على غير انتظام ولا استقرار ، لا يوحى للأهلين بأي طمأنينة للغد الطالع . ومعالجة هذا الوضع المتأرجح ، أصبر الامبراطور دومتيانوس الذي ندين له بالكثير من التشريعات العصرية ، مرسوماً حذر بموجبه انشاء كروم جديدة في ايطاليا ، كما قضى بوجوب إتلاف نصف الموجود منها في الولايات الرومانية . إلا انه عدل هو نفسه عن تنفيذ قراره هذا ، استجابة منه لما لقيه قراره من المعارضة ، ولما أثاره من الاحتجاجات الصارخة ، وهو لو أراد العمل به لامتنع عليه التنفيذ لتجاوزه كثيراً امكانيات الادارة التقنية . وابعدهما يمكن ان نذهب اليه في الافتراض ، هو ان الادارة تسلمت بهذا القرار لتحول دون إنشاء كروم جديدة او لتحد من توسيع رقعتها في البلاد . وهكذا لم تسجل أية نتيجة ملحوظة في هذا المضمار . فبالرغم من التحسينات التي أدخلت على اسباب النقل ووسائله ، عرفت البلاد ، خلال القرن الثاني ، ازيمات مزعجة جرت عليها الوبال لشدتها وتكرارها .

وخطر المجاعة كان أشد بالطبع ، على الولايات الشرقية في الامبراطورية منه على الولايات الغربية . فالولايات التي عرفت دوماً ، بنقص انتاجها الزراعي وعدم كفايته ، أوصدت في وجهها اسواق التموين التي كانت تعول عليها ، منذ عهد بعيد . فمناطق البحر الاسود كانت تمد جيش الدانوب بحاجاته ، كما كانت بلاد ما بين النهرين تزج تحت سيطرة الفارثيين . واحتفظت روما لنفسها بمحصول مصر وانتاجها ، بعد ان كان هذا الانتاج ، في ظل دولة البطالسة ، نعمة الممالك الهلينية وبركتها . كذلك احتفظت ايضاً بقمح افريقيا ، مع انه سبق لهذه الولاية ان ارسلت ، في عهد مستينس ، شحنات من قمحها لمناطق بحر ايجة . وتتفق المصادر الادبية والنقائش الاثرية ، على التنويه بأخطار المجاعة التي كانت عرضة لها مقاطعات اليونان وآسيا الصغرى ، كما

تأتي على وصف التدابير المتخذة لتفادي مثل هذه الأزمات أو للتخفيف من حدتها . من ذلك ، مثلاً ، ان تعهد الحكومة ، في أكثر الأحيان ، الى اغنياء القوم وكبار الممولين بينهم في المدينة ، بتدبير شؤون التموين والاعاشة بأسعار معقولة ، فنتعم عليهم بألقاب فخرية ورتب ترفيية تضطرم عند احتفائهم بها للانفاق بسخاء ، كل بحسب امكانياته . إلا ان الادارة كثيراً ما اضطرت للجوء الى المصادرة .

بقطع النظر عن هذه الولايات التي كان انتاجها الزراعي يخضع لتقلبات الاقليم وتغيرات الأحوال الجوية ، عانت بعض مدن ايطاليا ، من وقت الى آخر من هذا الخطر الذي كان دوماً مائلاً ، وعرفت القلق فريسة لهذه الهواجس . وكثيراً ما تحدثنا المصادر التاريخية التي لدينا عن مندوبي مصلحة التموين *Curatores Annone* الذين يشبهون ، الى حد بعيد ، مراقبي الأسواق او مفتشي تجار الحبوب في الشرق الاغريقي . عرفت افريقيا ومصر ، هما ايضاً ، مثل هذه الأزمات من القحط والمجاعة ، نشأت عندهما ، على ما يظهر ، وبرجح العارفون ، عن مصادرة كميات أكبر من انتاجها الزراعي . فالولايات الواقعة غربي الامبراطورية ، ومن بينها غاليا ، في مقدورها ان تكفي نفسها بانتظام فتسد مطلب الاهلين كما كانت تلي حاجات الجيوش المرابطة على مقربة منها وتمدها باليرة اللازمة .

فاذا ما نظرنا الى وضع الامبراطورية في المجال الزراعي في كلا شطريها : الشرقي والغربي ، رأينا ان الحالة السائدة في كل منها لم تكن مؤاتية لايطاليا قط ، التي لبثت باجماع المعاصرين ، منذ عهد طيباريوس ، فريسة سهلة للمجاعة . فقد انخفض انتاج الحبوب فيها منذ عهد بعيد ، إلا ان ازدهار زراعة الاشجار المثمرة اتاح لها ، منذ عهد اوغسطس ، تصدير كميات كبيرة منها ، استطاعت معها ان تتلافى حاجتها الشديدة للحنطة . غير ان تكرار انتاج الفاكهة والأثمار في كل مكان راح ينافس المحصول الايطالي ، حتى في عقر دار المدن الايطالية وفي روما بالذات . وهكذا اصبح انحطاط مرافق الزراعة في ايطاليا ، شغل الحكومة الشاغل ومبعث هواجسها ، لا سيما بعد ان اصبحت شديدة الحساسية لكل قلق ، او لأي رسيس اضطراب يلوح في البلاد المجاورة .

والواقع الذي هم الجميع هو وحدة العالم الروماني ، هذه الوحدة التي برزت على اشدها ، في هذه الحركة التجارية التي عمت جميع اقطار هذه الامبراطورية وشملت جميع ولاياتها واخذت بالاتساع والنمو . كانت مرافق الامبراطورية الزراعية ناشطة ولا شك ، على الاجمال ، غير انه ازدهار سريع العطب ، وسرعطة ناتج ، شيء لا يصدق ، عن ازدهاره بالذات . وهذا الازدهار قوامه وفرة انتاج البلاد من الزيت والخبز ، وبلغ الكاليات ونصف الكاليات . اما سر هذا الازدهار فيمكن ، قبل كل شيء ، في امكانية تصريف هذا الانتاج وتفيقه . وهذا نفسه قائم على مستوى رفاهية العيش الذي يفسط الاستهلاك ، كما يكن في حسن شبكة المواصلات وأمنها . والذي زاد هذا الوضع حرجاً ، القلق المستحوذ على النفوس في كثير من هذه الولايات ،

لمعجزها عن تأمين حاجتها من الجبوب . فحسن سير الجهاز الاداري ودقته ، مُرتهن دوماً ،
بمعامل متعددة ، غير مستقرة لا يمكن التحكم بها . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تؤدي
الحوادث المؤسفة التي ألمت بالامبراطورية ، منذ اواخر القرن الثاني ، فارزحتها واقعدتها ، لأن
تسبب لها بعض الشلل .

والصناعة كالزراعة ، عانت ، هي الاخرى ، أعراض ركود فني وتقني ،
فقدان التجدد الصناعي
وانعدامه
ارزحتها فاقعدتها . فقد تم لمهندسي العصر ، في هذا المجال ، من العلم
والمهارات ، ما لو حاولوا معه ، صادقين ، وضع هذه المعلومات الفنية ،
موضع التحيز والتحقيق ، بعزم واصول ، لكانوا احدثوا ثورة صناعية عارمة .

ويروي لنا المؤرخ «سويتون» كيف ان الامبراطور فسبسيانوس وعدهمهندسا ميكانيكياً قدم اليه
مشروعاً ادعى معه انه يستطيع نقل أعمدة ضخمة دون كبير كلفة ولا عناء الى ساحة الكابيتول ،
بإجزال سني العطاء ، بينما اعرض الامبراطور نفسه وضرب عرض الحائط باقتراح او اقتراح
زعم صاحبه انه يمكن الامبراطور من «تدبير إعالة الشعب ببسر وسهولة» . قد يكون من
المفري والمحرك للشجون ان نضفي على هذه النادرة قيمة رمزية فنفرض بداهة او نتصور عفواً ،
ان هذا الاقتراح انما دار على انشاء مشاريع انسانية من شأنها كسب عطف الطبقات الموجهة ،
او انه تبدي لصاحب الاقتراح ، بثاقب بصره ، ما يكن في بعض الآلة من قوة مدهشة تستطيع
ان تأتي بالمعجزات ، غير ان تفرد هذه الطريقة يمنعنا من ألا نرى فيها اكثر من رمز او ثورية
للامكانيات والطاقات الكامنة في بعض ميكانيكيات العصر ، اذ ذاك .

والحقيقة التي لا مراء فيها هي ان إعالة روما ومن فيها من طبقات كادحة ، يُرزح الدولة
ويُفدحها ويؤلف وضماً استثنائياً خاصاً . فاليد العاملة في جميع انحاء الامبراطورية ، وفي كل
مرافق العمل ، لم تكن لتفيض عن الحاجة ، ناهيك عن ان حاجات السوق الداخلية ، بقطع
النظر عن الاسواق الخارجية ، كان يمكن توسيعها لو امكن تخفيض كلفة الانتاج بعض الشيء ،
وجعلها بالتالي ، في متناول زبائن جدد .

وهذا التفكير القديم الذي يكره انتاج البضائع التي يتوقف تنفيها على رغائب الزبائن
بقي مسيطراً على الناس ، وان خفت وطأته ، مع انه بقي متحكماً بالادهان في الشرق الهليني .
ولم يبلغنا انه دخل الغرب ، ولم يحل ، اقله في ايطاليا ابان العهد الجمهوري ، دون انصراف بعض
اصحاب رؤوس الاموال الى إنشاء معامل لصنع القرميد والطوب والخزف . وقد تألفت هذه
المعامل من ورش او مشاغل ، قامت جنباً الى جنب ، لكل واحد منها نشاطه وشأنه ويتولى
ادارته والاشراف عليه مربي يتمتع بثقة صاحب المعمل . ومها يكن ، فلم نرَ احداً يبذل صادقا ،
أي جهد موصول في هذا الصدد ، او يعول على رأس مال كبير ، جعل نصب عينيه اكتشاف او اختراع
آلات ميكانيكية جديدة ، او حاول ادخال تحسينات تذكر على ما كان منها قيد الاستعمال .

فعمل من هذا النوع كان جر على صاحبه ، لو وقع في بلاد اليونان ، العار والشنار ، ادبياً واجتماعياً .

فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تأتي النجاحات التقنية ضعيفة جداً ، ان لم نقل معدومة . فالطاحون المائي اخذ استعماله يطل على الناس ، مع ظهور المسيحية ، وانت تباطأ انتشاره . فتقارب الناس بعضاً من بعض بفضل هذا النمط الجديد من الحياة المشتركة ، وتواصل الاقطار بعضها من البعض ، على ما بينها من جهل الواحد للآخر ، بالرغم من تجاورها ، كل ذلك سهل ايضاً انتشار استعمال القوالب اليدوية والآلة . وقد عرفت التقاليد والاعراف المهنية المحلية ان تحافظ على نشاطها ، ولو جاءت مغايرة لكل منطق سليم . من ذلك ، مثلاً ، اختراعا نمتا على يد بعض الغاليين ، في ايطاليا الشمالية ، هما : برميل الخشب ، والمحراث ذي السكة . فبالرغم من المنافع الجزيلة التي كان في مكننتها توفيرها للناس ، فقد بقي القوم يعولون في شؤونهم المنزلية على الجرة السريعة العطب ، وعلى المحراث الخشبي الذي يكاد يחדش اديم التربة وسطحها البراني . فقد سجلت كل مهنة او حرفة على حدة ، تطورات مدهشة . فصناعة الزجاج ، مثلاً ، استطاعت ان تسجل تقدماً محسوساً عن طريقى انتقاء احسن ، للمواد الاولية التي تستخدمها ، واستعمال طريقة جديدة في النفخ او الإفراغ في القوالب ، فأخرجت للناس زجاجاً شفافاً متنوع الاشكال . غير ان انعدام البحث العلمي ، وعدم طلوع طرق ومذاهب فنية جديدة ، كل ذلك حمل الناس على الاعتصام بالتجربة الشخصية او الاكتفاء باحتذاء ما يسير عليه العمال الصناع من عدة وأاليب .

ومع ذلك ، برز النشاط الصناعي في العالم الروماني ، اذ ذاك ، على شكل لامركزية صناعية . ترك اثره العميق في الخواطر . نرى ولا شك ، ما بلغته ايطاليا من انحطاط صناعي ملحوظ ، منذ منتصف القرن الاول . فبعد ان كانت تصدر ، في عهد اوغسطس ، الكثير من مصنوعات المعدنية والخزفية ، ان لم نقل النسيجية ، فقد فقدت كل قدرة صناعية وعجزت عن تقديم اي انتاج صناعي لتسويق السفن بعد تفريغ شحنها في الموانئ الايطالية . ومع ذلك ، فوضعها من هذا القبيل هو افضل بكثير مما كانت عليه مرافق الزراعة فيها ، اذ انها عرفت ان تحافظ على البقية الباقية لصناعة صغيرة تستطيع معها ان تلبي حاجاتها الاولية ، بينما نرى عدداً من الولايات الاخرى في الامبراطورية يعرض خدماته لاشباع مطالبها الاخرى . والمثير للعجب ، هو ، بالفعل ، هذا النشاط المتجدد او الجديد الذي نرى بوادره تطل على الولايات . فبعد ان نعم الشرق الاسيوي ومصر ، بالنظام ، وخيمت الطمأنينة على ربوعها ، انصرفت هذه الأقطار الى إنتاج هذه الكماليات التي عُرف بصنعها وانتاجها منذ القدم ، صناعات مهرة ، وفرت لهم اسباب التمدن ، ما يحتاجون اليه من الخامات والمواد الاولية التي ترد من الخارج . اما الغرب ، فقد عرف نشاطاً وحركة من الازدهار لم يسبق ان عرف لها ، من قبل ، مثلاً ، ولاسيا مقاطعة غاليا التي سرعان ما تعرفت الى اسرار الحرف اليدوية عن طريق ايطاليا وقد توفرت لها اليد العاملة الماهرة والخامات الاولية . وخير مثل على ذلك ، صناعة الخزف ، اعرق صناعات ايطاليا واجدها طراً . فعند مطلع المسيحية ، كانت ايطاليا بلداً يصدر بكثرة مصنوعات

الفخار والخزف الموشى بالرسوم الناقثة . وما ان انتصف القرن الاول حتى نرى غالبا تبز ايطاليا بهذه الصناعة فتبلغ فيها المرتبة الاولى ، ولاسيما مقاطعات الاقليم الجنوبي . فبرزت فواخير *La Graufesenque* (في مقاطعة افرون) فغزت مصنوعات ايطاليا واخذت تنافسها في عمر دارها . فقد عثر المنقبون بين انقاض مدينة بومبي التي انساحت تحت حمم بركان الفيزوف ، في ثورانه التاريخي الفظيع ، عام ٧٩ ، على صندوق مليء بالمصنوعات الخزفية في غالبا ، لم يكن فتح بعد . ولم يلبث ان انتقل مركز انتاج الخزف والفخار الى شمالي غالبا وتركز في مقاطعة الازراس ، في رينانيا . وهذه اللامركزية الصناعية هي من الميزات العامة للصناعة اذ ذلك فقد شملت المقاطعات التي تم فتحها منذ عهد قريب أو أخذت حديثا بأسباب الرقي والتطور ، وراحت بدورها تساهم في هذا النشاط الصناعي الشامل . فافريقيا اخذت تصنع المصابيح وتصدرها الى الخارج . وهنالك مشروع استغلال مناجم الرصاص والقصدير في بريطانيا . كما راح الناس يستخرجون الذهب والحديد من مناجم داسيا . وهكذا قابل هبوط ايطاليا الصناعي نشاط صناعي عم انحاء الامبراطورية وزاد من انتاج السلع على اختلافها .

الانتاج ومشكلاته كل الدلائل والناتج المسجلة تشير بوضوح الى ان هذا الانتاج كان ضخما . وكيف لا يكون ضخما ، ليستطيع العالم الروماني ان يجهز جيوشه الجارية ، ويُلَبّي حاجات تجارة عريضة ناشطة ، مع ما تستلزمه من وسائل النقل ، ويحقق مثل هذه الانجازات والمشروعات العامة ، ويشيد مثل هذا العدد من المدن والصروح والفيلا ، التي تقيض رفاهية ، وترفل بالبذخ والجاه العريضين ، ويرفع مستوى الحياة لدى الطبقات المتوسطة ، اذا ما كان يفقر للخامات الضرورية والمواد الأولية اللازمة لمهنة الصناع ، فيخرجونها للناس ادوات وحاجيات ؟ والثابت فعلا ، ان نمو الانتاج وازدياده ، واللامركزية الصناعية يصحبه دوما هبوط في الجودة . فالمستوى الاجتماعي الوسط وذوق الزبائن المخط وهبط بعد الذي بلغ من اتساع وانتشار . وعلى هذا يجب ان نقيس تجربة اليد العاملة الآخذة بالازدياد وحرصها المتزايد على التجويد والالتقان . ويكفينا دليلا على ذلك تناقص صناعة الاوعية المنمقة امام ازدهار صناعة الخزف المطلي المحلى بالرسوم البارزة . ومقابل هذا تضاءلت صناعة الفخار الغليظ الصنع ، ذي الطينة الدكناء ، الخالي من كل حلية ، او على الاصح اقتصر استعماله على الطبقات الاجتماعية الدنيا . وهذا شأن كل الحضارات المادية ، فتدفع غالبا ما يترتب عليها دفعه مقابل كاليات لم يعد استعمالها مقصورا على قلة ، او فئة صغيرة من الناس محظوظة .

ومع ذلك فالتوازن لا يزال غير مستقر ، اذ نرى ، منذ اواسط القرن الثاني ، تطل علينا بعض البوادر التي جعلت فريقا من الناس يستشعرون الخطر الطالع ويعمل جاهدا على تجنبه .

وبالفعل ، نرى الدولة تتدخل رسميا لتنشيط الانتاج وتوجيهه وتنظيمه ، بعد ان كان تبدي لها انه من الافضل ترك شؤونه للمبادرة الفردية . فقد اتسعت املاك هذه الدولة واطيانها . فبعد ان كانت دوما ، وبازدياد مطرد من كبار الملاكين ، فقد رأيناها تصبح بالفعل ، المالك الوحيد

للمناجم والمقالع الحجرية المهمة، الموجودة في جميع اطراف الامبراطورية. فقد سارت من قبل، في استئثار الثروات الدفينة في بطن الارض، على تلازمها لعدد كبير من المتعهدين، بعد أن حددت مواصفات هذه الاستثمارات المتنوعة، وحددت منها الحقوق والواجبات، وذلك تسهيلاً منها لعملية مراقبة الملتزمين والمتعهدين، الذين ترسو عليهم العطاءات. ثم لم تلبث ان اعتمدت طريقة الحكر وانتهجت في ادارته نظاماً عسكرياً، اذ اسندت الى ضباط الجيش، ادارة هذه الاحتكارات ومدتها بما يلزم من الموظفين. وفي الوقت ذاته، تطالعنا استثمارات عديدة للمقالع، كما نشهد تأسيس معامل وورشات عمل جديدة او استئناف العمل في ورشات قديمة، عهد بادارتها الى عسكريين. وهكذا اخذت مؤسسات و فرق تضطلع بهام اضافية جعلت منها بحق دوائر استثمار في المجال الصناعي. فاتساع نطاق هذا النهج الجديد في الاستثمار لا يبرره عدم اطمئنان الحكومة لهذه الفئة من المتعهدين والملتزمين، بل هو امر طبيعي تلتزمه كل ادارة ترغب في ادخال تحسينات على مناهجها والموظفين التابعين لها، والاستفادة على وجه افضل، من اوقات فراغ اليد العاملة في الجيش، بل يجب ان نرى فيه وسيلة لتفادي النقص في طبقة المتعهدين، كما يشهد على ذلك، قانون صدر في عهد الامبراطور هديرانوس، عثر عليه المتقربون في منطقة للمناجم، تقع الى الجنوب من البرتغال.

والى هذا، اخذت الدولة بتنمية علاقاتها مع النقابات العمالية والجمعيات المهنية وتوطيدها. فقد وقفت، في البدء، من هذه التكتلات المهنية، موقف التسامح المتساهل الذي اعترف بوجودها، ثم اخذت تسبغ على بعض اعضائها انعامات خاصة انطلاقاً من الهيئات النقابية التي لها علاقة بتموين روما وتأمين وسائل إعاشتها، لتشمل، فيما بعد، اصحاب السفن المتخصصة بنقل الحبوب والخنطة، وذلك منذ عهد الامبراطور كلوديوس، واصحاب الأفيران والخبازين، في عهد تراجانوس. فلا عجب ان تتقاضى بانتظام، بعد هذا، رسوماً خاصة من هؤلاء العمال، وهي رسوم اتسمت بالاعتدال في بادىء الامر. فاذا ما اضطررتها الأيام الى تعميم هذه الرسوم وزيادة وطأة هذه الضرائب، فقد كان لها من مثل هذه السوابق، حجة.

هنالك ايضاً ثورة اخرى تبرز بوادرها في هذه الحقبة بالذات، لم تعتم ان قويت بسرعة وتضخم وبقي اثرها ظاهراً في الاجيال التالية. فقد عرف الشرق، منذ القدم، مصانع وورشاً صغيرة، قامت الى جانب الهياكل والمعابد الدينية المعروفة بوفرة غناها وبما تملكه من أملاك واقطان واسعة، عمل فيها العديد من الفعلة والعمال في وضع لا يختلف كثيراً عن وضع الارقاء تقريباً. وقد بقيت هذه المشاغل تعمل بعد زوال معامل الخزف التي يملكها متمولون ايطاليون، او انخفاض نشاطها. وظهر في بعض الولايات الغربية، خلال القرن الثاني، كبار الملاكين، ينشئون لهم على مقربة من استثماراتهم الزراعية، مشاغل تعنى بصنع الاغراض والحاجيات الحديدية والانسجة، صدرت منتجاتها الى مناطق نائية. فمن المشاغل الريفية التي انشئت في الشبال من غاليا، خرجت هذه المشابك او الملاقط التي تجرى تصديرها الى بلدان

وادي الدانوب ، بحيث استطاع العالم الاثري الفرنسي فرانتز كومون ان يحددنا بحق ، ولو بصورة لا تخلو من الغلو ، عن « رئيس ورشة الحدادين » في مقاطعة الأردن . وكان من جملة أهداف هذه المشاغل ان يفيد صاحب الأرض من ايراد ارضه وخيراتها ، فيستعمل خاماتها لما فيه مصلحته ونفع السكان الواقعين تحت حمايته ورعايته . وقد ينتهي مثل هذا التصرف العام الى اللامركزية الصناعية . كذلك من المستحيل الا نرى في هذا ايضاً دليلاً على ان الصناعة في المدن لم تكن لتفي بمحاجات سكان الامبراطورية .

فعدم استقرار الوضع الاقتصادي في جميع أنحاء الامبراطورية كما تشير الى ذلك الحوادث التي أتينا على ذكرها والنظر في الاسباب التي هيأتها ، كل ذلك من شأنه ان يضع المؤرخ امام مشكلة يتعذر تناولها بالنقد الدقيق ، لعدم توفر الاحصاءات اللازمة . فعليه ان يقنع من ذلك بانطباعات واحاسيس دون البراهين والادلة القاطعة . فقد رأينا ما كانت تعانيه البلاد من ركود تقني في جميع مرافقها . كذلك نوهنا بالوهن الذي عرف به التوازن الزراعي ، وهي علة مرزحة لمدنية كل ما فيها يقوم على الزراعة التي تمد الانسان ليس بالمواد الغذائية فحسب ، بل ايضاً بالمواد الأولية الضرورة له : كالمنسوجات والجلود والخشب . ولا بد من الإشارة اخيراً الى ما كان عليه النظام العام من تشابك وتعقيد يتطلب انتظام المبادلات الدولية التي تتأثر بأقل الحوادث ، مهما كانت طفيفة . وبعد هذا الذي ذكرنا ، يبقى علينا ان نذكر أشياء أخرى كثيرة ، هي بالطبع أهم وأخطر ، بحيث نبحت عنها في غير النظام الاجتماعي الذي كان عليه المجتمع إذ ذاك .

٢ - المجتمع

جاءت الامبراطورية ثورية ، في نشأتها ودوافعها ، ولا سيما تلك التي أخرجتها من مصطرح الأحزاب التي مزقت روما شرمزق ، وأقامتها بعضاً على بعض ، وراحت تحاول حمل الثورة ونقلها بقضها وقضيضها ، الى المجتمع الروماني . فقد قامت ، اصلاً ضد مجلس الشيوخ ، فجردته من كل سلطة سياسية فعلية كانت له ، ثم اخذت بمصانعة الطبقة المشيخية ومالأتها بعد ان أبقت على امتيازاتها الفخرية وما جمعت من ثروات طائلة ، ان لم 'تبق' على المرتبات التي كانت تدفعها لأصحاب هذه الطبقة . فهي لم تكن تتحسّن ، من حيث الاساس ، بأي موجدة أو حقد عليها ، انما وجدت نفسها ، عندما أطلت على الحياة ، امام وضع قائم شهد زوال الثروات المخترنة واضمحلالها ، ابان الحرب الاهلية الماحقة ، وقبلت بالامر الواقع لانها لم تكن لترضى بتجديد مثل هذه الثروات على حساب رعايا روما والمواطنين الرومانيين . وقد كان مهما الاكبر ان تبقي الطبقات السفلى في روما ، ناعمة بالهدوء والسلام ، فلا تشكل لها عبئاً يهبطها ، طالما لا تستطيع التخلص منها ، فعلى الاقل ، الحد من خطرهما باصطناعها . وهكذا بدا اوغسطس صاحب تجربة تشربت نفسه بنزعة محافظة . فما عسى ان يكون تصرف يوليوس قيصر لو كان محله ؟ شيئاً آخر ، ولا شك في ذلك ، مع الاعتراف بالمعجز ، على وجه التحديد ، فليس بين خلفاء اوغسطس من حاول

ان يحاربه او يزه جراًة في الاصلاح والتجديد ، فخضعوا في كل ما يتصل بالمجتمع الروماني ، لضغط الحوادث ، بدلاً من ان يعملوا وفقاً لتدابير حكيمة ، وخطة مرسومة .

وهكذا طلعت على العالم حركة تطويرية لم تبلغ قط حد الثورة أو الانقلاب الجذري . فهذا المجتمع الذي قام في جمهورية ارستوقراطية ، بقي هو نفسه قائماً ، في عهد النظام الملكي ، كما ان المجتمع الذي ساد مدينة فاتحة ، غازية ، اصبح هو نفسه ، مجتمعاً لدولة كبيرة سادها النظام والانضباط .

وهذا التطور الذي تم تدريجياً ، أعرق في الارض ، ورسخ وطيداً بالفعل ، ولذا تحتم علينا ان نعرف المدى الذي بلغه ، والحدود التي وقف عندها .

١ - النظام الملكي واقع اجتماعي

وعلى رأس هذا المجتمع الروماني القديم قام ملك . وهذا الحادث البارز الذي يوجز وحده التاريخ الروماني في هذا العهد ، استأثر لعمري باهتمام الكتبة والمؤرخين القدامى الذين اطلعهم ارفع طبقات المجتمع الروماني ، او خاطبوا في كتاباتهم . الا ان اعترافهم باهمية هذا الحادث لا يعني قط مقاسمة الاغلاط والمساوىء التي شابتهم .

« الاول » بين المواطنين . فالامبراطور ، هو ايضاً ، الأول بين اشراف روما الامبراطور ورأس ارستوقراطيتها . وفي مقدمة هذه الارستوقراطية : آل يوليوس وآل كلوديوس الذين جمعوا المجد من اطرافه : حسباً ونسباً ونشأ . فالاسرة الامبراطورية التي توارثت الملك بعدم وتعاقت عليه ، خرجت من الارستوقراطية الايطالية الوسطى ، كالاسرة الفلافية ، او من بين مواطنين سكنوا الولايات القديمة ، كمعظم افراد الاسرة الانطونية ، محاولة جهدها الارتقاء لبلوغ مستواهم ومصافهم . فالانتماء الى الارستوقراطية هو من حق كل امبراطور جديد . فالامبراطور ليس بالواقع ، سوى سري او نبيل من سرارة القوم ونبلاهم اضطلع بواجبات ومسؤوليات تفوق بكثير المسؤوليات والواجبات التي يضطلعون بها . وهكذا نراه بالفعل يبرز مريعاً عن الارستوقراطية ويتميز عنها ، مع ان التقاليد والاعراف الرسمية تستمر على اعتباره واحداً منها . فهذا « الأول » لا مثيل له ولا كفاء البتة . فبدون ان نعود بالفكر الى ما كان عليه من تسام وما يتحلى به في طبيعته البشرية وشخصيته الدينية ، من افضلية على الناس طراً ، وبدون ان نأتي من جديد ، على تعداد رتبة ووظائفه وسلطاته ، وما كان يحف به من حرس وجنود ، وما يعمل في خدمته من موظفين ومأمورين ، فمن الجلي الواضح ، انه على الصعيد الاجتماعي ، لا يمكن مقارنته ولا تصح مقابله ، بأي سليل لهذه الاسر الارستوقراطية ، مهما سما او تعالى . فالثروة التي له ، والتي هي دوماً في ازدياد وارتفاع مطرد من جراء الموارث والمصادرات العديدة والفتوحات الواسعة ، تبرز بكثير اية ثروة يمكن ان تتم لانسان ، اذ ان

خزيرته الخاصة وخزينة الدولة التي يرأسها ويتصرف بها، لا تختلف الواحدة عن الاخرى بشيء،
فهما تابعتان له . وهو الغني الاكبر ، والثري الامثل ، الذي يمكن بسخائه وجوده وكرمه ،
ان يأتي المعجب المعجب .

فهل من غرابة او دهشة ، بعد هذا ، ان تقوم حوله ، حاشية ، عريضة ، وان تلتف حواليه
بطانة قوية ؟ ووجه المعجب الوحيد في ان لا يكون لهذا البلاط عند تكوينه ونشأته ، ما بلغه ،
فيما بعد ، من مهابة وفخامة وعظمة . وقد قيل : اذا عرف السبب زال المعجب . علينا ان
نحسب حساباً هنا للأصول التي انطلقت منها نظام الملك الجديد ، والاتفاق الظاهري الذي جاء
عربونا له او رمزاً اليه . « فبيت » الامبراطور ، لا يمكن ان يرتفع على غير غرار البيوتات
الارستوقراطية العليا ، ليصبح بعد ان يخضع لحركة تطويرية تقدمية لا تقاوم ولا تضام « بلاطاً »
حقيقياً ، شبيهاً من جميع الوجوه ، بالبلاطات الهلينية ، الا انه يحتفظ تقريباً ، في العهد الاول
للإمبراطورية ، بطابعه الاساسي . والى هذا ، فكلما المثلين تجمع بينها اكثر من ميزة واحدة .
فنحن ان راح عظماء روما يتصلون ، في القرن الثاني قبل الميلاد ، بهذه البلاطات الهلينية ، اخذوا
يحتذون حذوها وينهجون على منوالها ، واضعين نصب اعينهم المستوى المادي لحياة ملوك
الاعريق ، سواء لجهة رفاهية العيش ، او لجهة ما تحمله الملكية من رمز للرجل السوبرمان . فقد
مثلت الملكية اليونانية في اعينهم الحضارة الرفيعة بالذات .

وكان لا بد من « بيت » للامبراطور ، في روما ، فشيدها أغسطس له صرحاً متواضعاً فوق
بابية البلاطين حيث كان سبق لفريق من سراة الرومانيين ، من بينهم شيشرون ، ان شيدوا لهم
عليها من قبل ، الصروح والحدائق الغناء . وما عتنت ان زالت هذه البيوتات الخاصة ، عندما
راح طيباريوس وكاليفولا وغيرهما من اباطرة الاسرة الفلافية ، يشيدون لهم صروحاً عليها ؛
ولذا صارت رابية (*Palatin*) رابية الصروح *Palatium* والقصور ، ومنها اشتق الاصطلاح
الفرنسي *Palais* - او المدينة الامبراطورية ، داخل العاصمة روما . وكان هذا التوسع لم
يكف اباطرة الاسرة اليوليو - الكلودية ، فقد توسلوا ، بطريقة او بأخرى ، الى امتلاك
معظم الجنائن والحدائق الواقعة على هضبة الاسكلين . ثم اغتتم الامبراطور نيرون مناسبة حريق
روما ، عام ٦٤ ، فاستولى على الاملاك الواقعة عليها وأنشأ محلها ما عرف في التاريخ بـ « الصرح
الذهبي » وزينه بأبهى حلل الزينة ، بحيث ان قبة الصالة الكبرى ، وهي صالة الطعام ، كانت
تدور على نفسها كالقبة الزرقاء ، ليل نهار ، بينما أنشأ له ، في الحديقة المجاورة ، بحيرة حاصت
البحر في موانئها ومواقعها ، احاطت بها المباني إحاطة السوار بالمعصم ، متخذة شكل المدن ،
يلينا منظر ريفي أخذ ، تنسرب فيه الحقول والكروم والمراعي الخضراء ، وتسرح فيها وتمرح ،
قطعان الغنم ، وانواع الحيوان والطير . وقد اتضح فيما بعد ، ان هذه البقعة كانت حائلاً دون
انتظام شبكة المواصلات . وما ان صار الامر الى الاسرة الانطونية حتى يادر اباطرتها الى
دك معالم هذه المباني ، وشق طرقات فسيحة فيها قامت على جوانبها المؤسسات والمباني العامة .

والى جانب هذه الابنية الرومانية الفخمة ، لم تلبث ان قامت فيلات حرص أغنياء القوم في ايطاليا وسراتهم ، على تشييدها وفقاً للتقاليد المرمية . وحرص كل امبراطور على ان يكون له صرحه الخاص ، وبعضهم عدة صروح ، يتفتنون في هندستها وعمارتها ما شاء لهم التفنن ، حسب رغائبهم ونزواتهم ، ويشيدونها على شاطئ البحر او على هضاب منطقة اللاتيوم . وأشهر هذه الفيلات وأبهاها طراً ، الفيلا التي شيدها الامبراطور هدريانوس ، في تيبور (*Tivoli*) وراح يتفنن بمحادثتها الغناء بإنشاء المناظر الطبيعية ، او المباني التاريخية التي ورد ذكرها على لسان الادباء والرحالة ، امثال الليسي ، والاكاديمي ، ورواق بيكيل *Poecile* في اثينا ، ووادي تيبه في تساليا ، وكانوب في دلتا النيل ، والجحيم عند قدماء اليونان .

وعبثاً تبحث في روما او في خارجها ، عن «القصر» الامبراطوري او الملكي بالمعنى الحديث ، الذي يستوقف منك النظر بمظهره الخارجي ، وبفخامة ريشة من الداخل ، يصلح بما فيه من اثاث وحُجَر ، وصلات فسيحة ، لمظاهر الابهة والفخامة . فالامبراطورية لم تشيد بعد لنفسها ، مثل هذه المباني الفخمة . فهي لا تقيم منها إلا ما يؤمن راحة المالك سعيدهم الفعلي او الرمزي معاً ، الا وهو الشعب ، فترتفع في طول البلاد وعرضها : الهياكل الضخمة ، والميادين الشاسعة ، والساحات العامة ، والحمامات والمسارح العظيمة . وأمثل هذه المسارح وأفخمها طراً « المسرح الفلافي » المعروف اليوم باسم الكوليزيوم ، فقد احتل قسماً من قطعة الارض التي انشأ نيرون فوقها « بصره الذهبي » . وبدلاً من قصر منيف ، يفكر الامبراطور بإنشاء الحدائق الملكية التي تحاكي من قريب ، الحدائق التي قامت في العواصم الهلينية ، حيث كانت تطالعك المباني الفخمة ، تحيط بها الحدائق السندسية . فاذا ما انعمنا النظر ملياً في هذه المنازل او البيوت الملكية رأينا لكل واحد منها شيئاً او مثيلاً يضاهيها حسناً ورواء في هذه الفيلات التي يروح اصحابها يتنافسون في فن يبرز الواحد منهم الآخر ، في زركشتها وتحليتها وتزيينها من الخارج والداخل . والفارق الاكبر الذي يميز منزل الملك عن غيره من منازل سراء القوم وعليستهم ، هو عدد الفيلات التي يملكها ، وتعاقبها الواحدة تلو الاخرى ، على هضبة البلاتين .

كذلك بقيت على نطاق ضيق مراسم الاستقبال الرسمية في القصر الامبراطوري . فالوصول الى الامبراطور ، والدنو منه ، والمثول بين يديه ، ميسور كل يوم ، لاصدقائه الخالص وخاصة ، ولاعضاء مجلس الشيوخ ، كما كانت ابواب قصره مفتوحة على مصراعينها ، للاستقبالات بالجملة في ايام الاعياد ، بأعداد كبيرة من الزوار . فهو يدعو من يشاء لتناول الطعام على مائدته ، كما يقبل بدون صعوبة ، الدعوات للخارج ، ويحرص ، مع كلوديوس ، على ان يرافقه ، فريق من حرسه الخاص ، بينما نرى الامبراطور تريبانوس يضرب بهذه العادة ، عرض الحائط . فاذا ما قال اعضاء الاسرة الامبراطورية إنعامات وألقاباً ومراتب ، فليس عملاً بقاعدة مقررة ، او اخذاً بعادة مرمية . فالألقاب : « سيد وسيدة » (باليونانية كيوريوس وكيريا) وباللاتينية دومينيوس ودومينا ، لم يجر العمل بها بصورة عامة ، مع وصول الاسرة الانطونية الى الملك ، عندما يوجه

الكلام إلى الامبراطور أو إلى أحد أقاربه. فلم تعتمد هذه الألقاب إن عم استعمالها وانتشرت بين المجتمع المثقف. كذلك سرت بين هذه الطبقة عادة القبلة أو التقيبيل بعد أن ظهرت سوابق لها في البيئـة الامبراطورية، شجـبها الامبراطور طيباريوس لأنها تنقل عدوى الامراض الجلدية، شأنها في ذلك شأن تقبيل اليد، وكلا العادتين اغريقية الاصل والمنشأ. أما عادة السجود وتقبيل القدم التي شاء الامبراطور دومتيانوس فرضها على زائريه، فقد زالت بزواله وموته لأنها مُحِطَة من شأن المرء ومهينة له.

كل هذه الأمثلة والشواهد، تدل صريحاً على أنه لم يكن هنالك أي فارق نوعي أو جوهري، بين حياة الامبراطور الخاصة وحياة سرة الرومانيين وأغنيائهم. فالشبه القائم بين الجانبين، الذي يمكن ملاحظته بسهولة، إنما يعود ولا شك، لاعتباره نظرياً على الأقل، بأنه واحد من الرومانيين. وتستمر هذه المحاكاة على أساس من الزلفى والملق، فيسارع عليّة القوم إلى الاقتداء بالمتّكّل الهابط من فوق احتذاء حذوه، فيعتمد الناس في مخاطبتهم نيرون، مثلاً وتوجيه الكلام إليه، على الصور البيانية والمحسنات اللفظية والتوريات الشعرية وعلى التنعيم، كما يعتمدون، مع مارك أوريل، الأسلوب الفلسفي. ويأخذ الرجال بارسال لحام تشبهاً بالامبراطور هدرينانوس، كما أن النساء أخذن تأتمن، بزي الامبراطورة، في لبسها وهندامها، فيأخذن بتصفيف الشعر وعقصه وتقصيه، وغير ذلك من الازياء التي تمتدّها الامبراطورة. كل هذه العادات إنما تدل دلالة واضحة إلى التطورات التي أَلَمَّتْ بنمط الحياة في البلاط. وقد ساعدت على بقاء الامبراطور على الصعيد البشري وعلى احتفاظه بأعلى مستوى حياتي لأرفع الطبقات الاجتماعية في الامبراطورية.

وهذا الامبراطور الذي يأتّم الناس به في كل ما ينهج ويشرع، هو بطانة الامبراطور أقوى الناس، وأشدّهم بأساً، وأوفرهم غنى وثروة. ليس في مقدور أحد أن يحاربه في ما ينهج، وفارق الدرجة أو الرتبة بينه وبينهم، بقطع النظر عما بينه وبينهم من قارق الجوهر، أو الطبيعة، يزداد بروزاً وظهوراً. وعلى شاكلة ملوك اليونان في العصر الهليني، فهو قبلة أنظار الارستوقراطية الرومانية، وموضوع تقليدها ومحاكاتها له، نرى الامبراطور الذي في مقدوره وحده أن يعدّ لهم وأن يبتزهم، يأخذ تحت حمايته ورعايته شؤون الفكر، وحملة الأدب، فيحتاط بعدد كبير منهم، بين فلاسفة وخطباء وعلماء، ويجزل لهم العطاء والتكريم. ويعين لامراء العائلة المالكة مهابذين ومربين لهم شهرتهم الواسعة، ويتشدد في انتقائهم واصطفائهم، فيعين الفيلسوف سنيكا مهابذاً لنيرون، والخطيب المفوّه كوتيليانوس مربياً لدومتيانوس، كما يختار من بين مشاهير الاساتذة في عهد مارك أورل، المرابين: فرونتون وهيرودوس أتيكوس. وإلى هذا العدد العديد من الاطباء الذين أوكل اليهم السهر على صحة رجال حاشيته، فالامبراطور لا يحجم أمام أية تضحية ليُلحَق ببطانته أشهر نطس الاطباء، إذ ذاك. وعندما رفع الامبراطور كلودوس، إلى ٥٠٠.٠٠٠ سسترس (١٢٥ ألف فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤)، فقد ضاعف المرتب الذي يُعطى عادة لطبيب الامبراطور، وذلك لكي

يحمل الطبيب اسكلابيازيس ألكومسي ليكون في عداد أطبائه الخاصة ، كما أصبح فيما بعد ، الطبيب المشهور جالينوس البرغامي Gallien الطبيب الاول للامبراطور مارك أوريل ، ثم للامبراطور كومود .

ومن باب التنويه بالفرق ، من حيث الرتبة او الدرجة ، بين ما عليه بلاط الامبراطور وبطانة اغنى ثري من اثرياء الرومان ، في اواخر العهد الجمهوري ومطلع العهد الامبراطوري ، هذا العدد الذي لا يحصى ، من اصحاب اللهو والتسري والحشم ، من كل لون وصنف ، والسراري ، والجواري ، والمهرجين والممثلين ، والمغنين والراقصات والقيمين على الالبسة الخاصة بالممثلين والممثلات . وكان السواد الاعظم من هؤلاء الحشم والخدم بعيداً ارقاء او من المعاتيق ، الذين انتقلوا الى حاشية الامبراطور في جملة ما انتقل اليه من مقتنيات وخدم بالوراثة ، او أهدوا اليه متاعاً من قبل اقارب واصدقاء . وبين هذا الحشد عدد كبير من الاغريق او المشاركة المتأغرقين ، صقلت طباعهم ، ورهفت اذواقهم ، فبزوا بعيداً هؤلاء الغربيين الخشوشين . فالاقاصيص والنوادر المستملحة التي نرى المؤرخ سويتون وواضعي كتاب : « تاريخ اوغسطس » يتندرون بمروياتها ، وقصائد الهجو والتلب التي يتبارى شعراء البلاط القول في بعضهم البعض ، تملأ صفحات بكاملها مع . سماء الأشخاص التي قيلت فيهم هذه النوادر المضحكة . وبين سوانح الكلم هذه ما فيه عبرة وعظة ، اذ ان الغيرة على الاخلاق حيناً ، والحسد احياناً ، اتخذ اداة للحنق او للاستساطة ، لمراى هذه الشواذات أو لهذه البدوات يأتيها بحضور ملك أبطرتة النعمة ، أو أسكرته الكأس ، فريق من الناس جرأهم الإغضاء عن الخروج على المألوف ، كما شجعهم على ذلك ، تساهل الامبراطور مع خلانه ومحظياته ، وهذه الأعطيات الجزيلة ، والالقاء الفخرية العريضة التي يُنعم بها عليهم ، وهذه الدناءات والزلفى يأتيها المتملقون المدلسون الذين يشتركون بدناءتهم أو بذهيبهم مداخلات الملك لصالحهم . ونقرأ في هذه الكتب النوادر والنكات المستملحة حول مجل فبسيانوس وخساسته ، اذ يرغم احد الاكارين العاملين في اسطبلاته ان يدفع له ، نصف ما قبضه من صاحب قضية ، تعويضاً لتسهيل مقابلة له مع الامبراطور ، او يصورونه لنا يبيع المقاعد ، بواسطة احدي محظياته ، هي انطونيا تشانيس ، وهي أمة أعقتها والددة كلوديوس التي كانت ابنة انطونيوس من شقيقة اوغسطس .

في مقدورنا متابعة هذا السرد دون توقف ، الى ما لاحد له . فاذا ما أسقطنا من هذا القصص ، ما هو اثره وهراء ، يبقى مع ذلك ، واقع مؤسف : هو هذا الدس ، وهذه الموبقات المخجلة والمجرمة احياناً . وكيف السبيل الى تجاهل هذا الزبد وهذه الرغبة الطافية التي تبرز في جو كل حاشية وبطانة ، حتى ما ليس منها بقديم ؟ والشئ المهم ، بعد هذا كله ، ان لا نقف عند هذا وحده ، بل ان نردّه الى مسبباته الحقيقية ، ألا وهو ضعف الطبيعة البشرية ، وعدم قدرع الناس بتهديب صحيح ، وفقدان تقاليد ادارية في دولة حاول الامبراطور إنشاءها فراحوا يرتجلون لها ادارة قوية . وقد اضطروا ، بعد ان أرغمتهم الحاجة ، سيراً منهم مع العادات المرجية بين سرة القوم

في روما ، ان يلجأوا ، كما رأينا ، الى خدمات من لديهم من حشم وخدم ، هم ، على الغالب ، ممن أعتقوهم من الرق . فلا نعرف في روما غير ثروة احد الخاصة المدعو نرسيس التي بلغت ٤٠٠ مليون سسترس والتي راح جوفنال يقارنها بثروة قارون او بكنوز ملوك الفرس . غير ان « حكم دولة المعتقين » الذي ازدهر في عهد كلوديوس ، زال وتوارى عن الأنظار عندما استطاعت الدولة ان تجهز نفسها بالأطر والملاكات الادارية التي كانت تفتقر اليها عند تأسيسها .

فلنعد الى ما هو أسمى من هذا وأهم بكثير ، الى هذا الجهد الموصول الذي اصل كلمة « نظام » انطلق من اوغسطس وبلغ ذروته مع الامبراطور هدريانوس فاستهدف تنظيم الطبقات الاجتماعية العليا وفقاً لمتطلبات حاجات الدولة ، من جهة ، وللخدمات التي باستطاعة هذه الطبقات ان تؤديها لها من جهة أخرى . وهذا الجهد كان الغرض منه تأمين الامتيازات والمنافع التي حُلِمت هذه الطبقات دوماً بها ، والمرتببات المعينة للوظائف العامة الموقوفة على اعضاء هذه الطبقات ، ودخلاً كافياً للحفاظ على منزلتهم الاجتماعية . فتحقيق تكافؤ من هذا النوع كان ابداً من المثل الرومانية القديمة التي دغدغت خواطر القوم منذ القديم . فجاءت الامبراطورية الرومانية تجعل من هذه الرغائب نظاماً ، كما ان اضطرارها لإنشاء دولة لها هيكلها الاداري القويم ، أوجب عليها ، توفير الأسباب التي تساعد على تحقيق هذه المثل . وهكذا باشرت مهمتها وسارت في عملها على بركة الرحمن وأخذت تكمّله وتوسّع فيه الى ان استقامت لها ادارة يزت ما عُرف من أمثاله من قبل ، فيها الكثير من أساليب مصر الفرعونية كما ابتسرت بعض عناصر الـ « تشن » *Tchin* الروسي .

وهذه الطبقات الاجتماعية العليا تتألف من « منظمين » هما المنظمة المشيخية او السناطوس ومنظمة الشفاليه . فالمصطلح « منظمة » او نظام جَبروا على استعماله من قبل ، لا سيما عند التكلم عن الشيوخ الذين كانوا يسرون على نهج يستوجب بالفعل مثل هذا الوصف او التعت . ويستبد هذا التعبير مع الاستعمال ويجري تطبيقه على هاتين الطبقتين الاجتماعيتين او هاتين المنظميتين ، اذ يتضمن دلالة جديدة لا تتوفر في كلمة « طبقة » او فئة . فاللفظ يفيد معنى النظام والتنظيم ، وهو عنصر اساسي ، يميز في حياة المنضوين الى هاتين الطبقتين ، اتضح مدلوله ، وبرز وخلص بما علق به من غموض او لبس ، مع بقاءه مع ذلك ، مرناً مطواعاً . فاذا ما أدخل عليه التنظيم والتقييد ، اصبح مفهوماً ، وسهلاً بالتالي ، على العقل ادراكه . وهكذا يجب ألا يتبادر الى الذهن من كلمة طبقة ، شيء وراثي ، ان لم يكن بالاسم فبالفعل ، ولكن مع شيء من القيد وبشروط معينة ، وعلى شيء من التسلسل او التبعية المسلسلة ، على أنساب محددة ، واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، بحيث لا يمكن لدخيل ان يندس بين الصفوف . او لصاحب درجة سفلى ان يندس بين أصحاب الدرجات العليا . وللدخول في هاتين المنظميتين او الطبقتين ، والبقاء فيها ، والترقي في معارجهما ، لا بد من رضى الامبراطور وموافقته ، وكثيراً ما يكون هو نفسه المرجع الصالح ، الأول والأخير ، للترقية والانتقال من مرتبة دنيا الى مرتبة عليا . فاذا ما نظرنا الى قيام النظام

الامبراطوري من هذه الزاوية وما كان له من نتائج اضافية على تنظيم الدولة ، برزت امامنا من جهة أخرى ، النتائج الاجتماعية الخطيرة التي ترتبت على هاتين المنظميتين .

ومع ذلك ، يجب ألا نجعل او نتجاهل ان الامبراطورية ، باعتمادها مثل هاتين المنظميتين ، قبلت مسبقاً ، أن تقيد حرية تصرفها ، من حيث اختيارها موظفيها الاداريين وترفيهم . فقد التزمت الدولة بمراعاة المبادئ العامة المرعية الإجراء ، دون خرقها خرقاً فاضحاً ، هذه المبادئ التي ترضى وتصون هذه المثل القائمة في احترام التسلسل الإجتماعي . وعلينا ان ننتظر طويلاً ، أي حتى أواخر العهد الامبراطوري ، قبل أن نرى الدولة تضرب بهذه المبادئ ، عرض الحائط ، أو أن تعبت كما تشاء بهذه الأنظمة المعمول بها .

الانتساب لهاتين المنظميتين يقتضي له الغنى الوافر ، أي مليون طبقة الشيوخ وطبقة الشفاليه سسترس لطبقة الشيوخ ، و ٤٠٠ ألف لطبقة الشفاليه . وقد حرص العهد الامبراطوري الحرص الشديد ، على أن لا يدخل على هذا الترتيب أي تعديل ، مهما كان طفيفاً أو صغيراً . وقد حرص أوغسطس على الحفاظ على هذه التقاليد . وقد طلب من هذه الطبقات الموسرة أكثر مما طلب اليها في الماضي ، وبروح جديدة غير الروح القديمة ، أن تتفرغ لخدمة الدولة ، وينقطع أفرادها لهذا الأمر . وتعويضاً لها على خدماتها ، وعربوناً للثقة التي يشرّفها بها الامبراطور ، فهو يحتفظ لها وحدها ، بهذه المنافع . فقد أصلح ببعض العطايا السخية التي جاد بها في مناسبات معروفة قسوة المبدأ وصلابته . فاقتراس الإرث ، من جهة ، ونوازل الدهر من جهة أخرى ، كثيراً ما هددت أحد أعضاء هاتين المنظميتين بفقدان رتبته وباقصائه ، بالتالي ، عن العضوية . وكثيراً ما حدث أن أغضى الامبراطور عن مثل هذا الوضع ، وبادر لم يد المساعدة لمن ذهب فريسة الأقدار أو لمن غصه الدهر ، من ماله الخاص ، اذا ما رأى انه يستحق مثل هذه المساعدة . فما بلغ علمنا قط ، خبر أو ذكر احدى هبات امبراطورية أريد بها رفع صاحبها للمستوى اللازم . غير انه لم يكن من الصعب على موظف يخدم الدولة بأمانة أن يوفر من مرتبه ما يلزم لإصلاح شأنه ، اذا ما عمل يجد موصول ، وعرف أن يقتصد من نفقاته اليومية . كذلك لم يهملوا الأخذ بمبدأ التحوط المتبادل : فالغنى والثراء وحده لا يولي صاحبه الحق بالوصول تلقائياً ، الى هذه أو تلك المنظمة أو الطبقة . فالثلاثون مليون سسترس التي أنفقت على وليمة تيملكيون ، كما جاء في الرواية « ساتيريكون *Satiricon* » للمؤلف الروماني : بيترون لم تقيد صاحبها شيئاً ، ولم تقدم أو تؤخر في إيصاله الى عضوية احدى هاتين المنظميتين . وكيف تبلغ به هذه المرتبة ، وهو لم يستمع يوماً لفيلسوف ، ولم يسمع له شعر ولا روى شعراً لأحد . فهو جاهل لا ثقافة له . كذلك تنوء القصة بأصله : فقد طلع من العدم : كان رقيقاً فاعتق ، ثم بسم له الحظ ، فجمع ما جمع بشق الطرق والأساليب الملتوية ، هذه الثروة الطائلة . فاذا كان وصول بعض المعتمدين الى مرتبة الشفاليه بعد خروجاً على المألوف وشذوذاً عن القاعدة ، فقد أوصدت في وجوههم تماماً ، أبواب المرتبة المشيخية ، وحيل بينها وبينهم مطلقاً . وكان سبق

لأوغسطس أن حظّر عقد أي زواج بين معتق أو معتقة وبين أحد أعضاء مجلس الشيوخ . فالعضوية في الطبقة المشيخية يقتضي لها العضوية في مجلس الشيوخ ، وإن يكون حاملها مارس بصورة قانونية ، صلاحيات ومسؤوليات أدنى الوظائف الموقوفة ممارستها على أعضاء مجلس الندوة ، وهي المراقبة *Questure* . ويحق له أن ينعم هو وزوجته وأولاده بامتيازات هذه الطبقة ، وفقاً للدرجة التي هو فيها . وبالفعل ، فأولاد عضو مجلس الشيوخ يصبحون دونما صعوبة ، مراقبين بعد أن يكونوا أدوا الخدمة في الجيش ، ضباطاً في بعض وحداته ، أو عملوا موظفين في إحدى الوظائف الإدارية الصغرى . والتسلسل في داخل هذه المنظمة ، يجري وفقاً لجدول أو لائحة يضعها مجلس الشيوخ ، ويأخذ بالتدرج صعوداً في سلم المراتب والدرجات . فالمناسبات عديدة أمام الامبراطور لإظهار عطفه أو عدم رضاه ، عن صاحب العلاقة . وقد أخذ يمارس أكثر فأكثر ويطبق حقه المشروع ، في تعيين من يشاء من أعضاء طبقة الشفاليه في العضوية المشيخية ، وفي المرتبة أو الدرجة التي يريدها له .

وهناك ما هو أغرب من ذلك وأوقع . فالانتماء الى طبقة الشفاليه مرتبط أبداً بإرادة الامبراطور وحده ، دون سواه . فليس في الأمر أية عملية اقتراح أو ما يشبه ذلك ، في تعيين المراقبين ، وتلقائية الإرث عند هذه الطبقة ، أقل بروزاً هنا ، منها في الطبقة الممتازة الأولى . ولذلك ، فنشاط الشفاليه ، يُصرّف ، منذ عهد أوغسطس ، في خدمة الامبراطور ، فيختار من بينهم الركلاء الذين يُدعون للخدمة في بطانته ، الى أن ينتقلوا الى الخدمة في الادارة العامة . فهو يختارهم كما يشاء . ومن الطبيعي ان ينعم أبناء الشفاليه ، هم الآخرون ، بشيء من الاطمئنان الى مستقبلهم ، انما لا بد من اختيارهم وبلور ولائهم . ومهما يكن ، فعدم لانفي بحاجة الادارة التي اتسعت وتشعبت كثيراً ، وأخذت تستوجب المزيد من الموظفين . وهكذا رأينا كيف انهم ، خلال هذين القرنين ، تقننوا كثيراً في طريقة تزويد الإدارة بحاجتها من الموظفين . فوضعوا في هذا السبيل ، القوانين اللازمة لاختيارهم وتدريبهم ، وفقاً للحاجات البادية . فبينما كان الامبراطور يفرض ، في بادئ الأمر ، على المرشحين للعمل في الادارة ، الخدمة في الجيش : ضباطاً في الفرق الاضافية ، وهم بعد في سن الشباب ، كثيراً ما نراه في القرن الثاني يختار من صفوف الادارة ، من يحتاج اليهم للعمل في الجيش ، ويرفع الى الدرجات العليا قواد المئة ، أي هذا الفريق من الضباط الذين خرجوا وبرزوا من بين صفوف الجيش . فإذا كان الامبراطور هو المتصرف الأوحده ، والمهيمن الأول والآخر ، على الانتساب الى طبقة الشفاليه ، فمن الطبيعي جداً ، ان يكون السيد المطلق في كل ما يعود الى ترقية وترفيعهم في داخل هذه المنظمة ، فيعين مرتباتهم وفقاً لدرجاتهم ، اذ كانت نهايات المرتب في السنة تتراوح بين ٦٠ ألف سسترس للصغرى ، و ٢٠٠ ألف للكبرى .

فالنظمتان المذكورتان ، هما بمثابة سلكين اداريين . فسلك الرتب الفخرية السلك وامتيازاته الذي عمل به في العهد الجمهوري استمر وبقي معمولاً به على نطاق اوسع في السلك المشيخي . فالدرجات والرتب تكاثرت وتفرعت وتشعبت مع تنوع الوظائف في العهد

الامبراطوري وتكاثرها في الادارة الجديدة. والتجديد الأكبر في هذا المجال تمثل في انشاء السلك الشفاليه الذي كان يُفضي بصاحبه : اما للسلك المشيخي ، وإما لوظائف عالية أخرى كالولاية ، التي تأتي في القمة من هذه الوظائف ، وتليها النيابة ولا سيما نيابة مصر ، وادارة مصلحة التموين *Annone* . ومن بين الوظائف التي يؤلف التدرج فيها اساساً للسلك ، هي وظيفة الكهنة والقضاة الذين لم يكونوا ليتناولوا مرتبات ولا أجوراً ، بينما اصحاب الوظائف العليا كالبروقنصل في آسيا وافريقيا ، كان الواحد منهم يتناول مليون سسترس مرتباً سنوياً . فما من احد ، بعد الذي ذكرنا ، حتى من كان من الموسوسين ، يقضي حياته معدماً في خدمة الدولة ، بل على عكس ذلك تماماً ، ففي استطاعة الموظف ان يكون ثروة له ويزيد من غناه . وعلاوة على ذلك ، يتمتع الموظف بامتيازات اجتماعية كثيرة هي سبيله الى الإثراء والغنى : كالاخلاص للمصلحة العامة ، والتمتع برعاية الامبراطور ، والنفوذ الذي يلزم الانتساب لهذين السلكين . فقد احتفظت بكل مراسم التشريعات الخارجية التي عمل بها منذ عهد الجمهورية ، كالطوغة الأرجوانية التي يُحاط على الرداء طولاً او عرضاً ، والخاتم الذهبي ، والأحذية الخاصة بأعضاء الشيوخ ، والمقاعد التي تحفظ لهم في المسارح وحفلات الألعاب الرياضية . وقد نالوا ، مع الزمن ، امتيازات ومنافع جديدة لم تلبث ان أصبحت من مستلزمات السلك ، منذ منتصف القرن الثاني للميلاد ، اذ ان كل اعضاء الطبقة المشيخية ، بما فيهم النساء والأولاد ، وجب في مخاطبتهم وتوجيه الكلام اليهم ، استعمال ألقاب وألفاظ خاصة بكل رتبة ومرتبة ، منها مثلاً « السَّيْنِي او السَّيْنِيَّة » ، بينما اعضاء الشفاليه يُخاطبون بنعوت وألفاظ فخريّة ، منها : نياقة *Eminentissimus* ، وهو نعت يوجّه لمدير الشرطة او لقائد الحرس عند مخاطبته ، او « كلي الكمال *Perfectissimus* » لكبار النواب والمفوضين ، او « سامي *Egrejius* » . وهكذا فالتسلسل الاداري يقابله تسلسل بروتوكولي او تشريفاتي في المخاطبات الرسمية وفي المعاملات العادية . وهكذا أطلّ على الادارة ، طبقة من النبلاء ، تألفت من زهرة الموظفين .

والشعب الروماني وهذه الطبقات الممتازة تهنأ ايضاً من نواحٍ عديدة أخرى . إلا انه يحسن بنا ان نقف عند هذا الحد لتتابع النظر في الأثر الذي أحدثه في المجتمع الروماني النظام الامبراطوري الجديد .

لنرّ ، قبل كل شيء ، أثر هذا النظام على سكان روما وشعبها . والشيء البارز في الأمر هو اضطلاع الدولة بمهمة ومسؤولية إعالة السواد الأعظم من مواطنين روما الفقراء ، وذلك بتوزيعات منتظمة من القمح والطحين على أقدار وأنساب معينة ، وتوزيع الدراهم عليهم ، في بعض المناسبات البارزة ، لتوفير اسباب العيش لهم ، بينما توفر لهم الاعياد والاحتفالات الرسمية والألعاب كل ما يحتاجون اليه من وسائل الترفيه والسلوى . « الخبز والملاهي » *Panem et Circenses* كلمتان اوجز بها المؤرخ الروماني جوفنال الوضع الذي هيم على روما واستبد بها . ويكفي ان نشير هنا الى هذا الهوس الجنوبي ، والاندفاع الحماسي ، والشعبية التي لاحد لها ،

التي كانت ترافق مجرد التلطف بأسماء الممثلين والمغنين ، والراقصين ، وسباق المركبات في حلبة المصارعة او حلبة الطراد اذا كان الميدان الكبير يضم أكثر من ٢٥ ألف مقعد في عهد الانطونيين ، والتنافس الحاد الذي كان يجري بين فرقاء يرتدون ثياباً من ألوان مختلفة للتمييز بينهم : احمر ، وازرق ، وابيض واخضر ، الى ان أضاف اليها الامبراطور دومتيانوس الذهبي والارجواني ، ومعارك المصارعين التي كان يحضرها ١٥٠ ألف متفرج جالسين على مقاعدهم في كولييزيه تيطس ، يشترك في احدى حفلاتها الضخمة ، وهي حفلة التدشين ، ٩٠٠٠ حيوان . فقد برهنت الجماهير ، في كل أين وآن ، عما تجيش به من نزوات الاستبداد والبطش والقوة ، كما برهنت دوماً ، من جهة أخرى ، عن عفوية حماسها ، وعن ثورة غضبها . ولذا ترتب على ذوي الأمر ان يعرفوا كيف يثيرون هذه ويتفادون تلك .

فما من امبراطور حاول جاداً ، ان يقاوم هذا الهوس حتى عندما كان يرجس شراً من نتائجه المالية وتأثيره الأدبي السيء ، بل على عكس ذلك ، نرى معظم الاباطرة يتملقون الجماهير ويتحجبون اليها بمحاولين ان يبرز الخلف منهم السلف في هذا المضمار . فقد أحيا الامبراطور ترايانوس ، بعد ان تكاثرت عدد الأسرى والعبيد ، إثر حروبه في مقاطعة داسيا (رومانيا اليوم) وقدويخه لها ، نحواً من ١٢٠ يوماً على التوالي ، من الأعياد الصاخبة وحفلات المصارعة اشترك ١٨٠٠٠ مصارع ، في هذه الأعياد الشعبية الضخمة التي أحياها عام ١٠٩ . غير ان هذه الامبراطورية لا يمكن ان تستمر على هذا النحو من الإنفاق والإسراف والاملاق . ولكن ألا يحق لهذا الشعب ان ينعم ، مقابل ما يقدمه للامبراطور ، من سلطة يولييه إياها ، وسمات ملك عريض عزيز ، وجيوش جرارة ، بالحز واللهم والمسرح ، وان ينال كل ما يطمح فيه او يطمح اليه ؟ كما يقول جوفنال . وبحقٍ نطق وقال . كل هذا يمثل بالفعل الثمن الذي يدفعه النظام الجديد تزكية لوجوده وقيامه ، وهو ثمن زهيد جداً ، امام اعتزال الشعب الملك ، أي كل السلطة الفعلية وتخليه عنها ، طوعاً واختياراً للامبراطور . ففي تأمين أود عيش هذا الشعب ، وتوفير اسباب تسليته ، والترفيه عنه ، أمّن الامبراطور نفسه وسلامة النظام ، وصوّن له من أي انقلاب سياسي يقوم به الشعب ، ودون أية انتفاضة تخطر له على بال ، كما ان نهجاً من هذا النوع يجعل الطبقات الممتازة بمعزل عن كل ثورة اجتماعية . وبالفعل ، فالخطر عليه وعليها لا يمكن ان يطل من هذه الناحية .

غير أن البطالة داء قتال بالفعل ، وفيها الخطر كل الخطر على العاصمة روما . فالشعب فيها لا يتألف من هؤلاء المواطنين المسجلة اسماءهم في سجلات الاعاشة المجانية . فهناك حشود بين هذه الجماهير لا يتألفها شيء من هذه التوزيعات ، بينهم مثلاً : المواطنون القادمون من الولايات الاخرى ، القريبة والنائية على السواء . فعلى هؤلاء ان يعملوا وابن يشتغلوا ليكسبوا عيشهم اليومي ، عندما تبوء بالفشل محاولتهم الانضمام او الانضواء تحت حماية او رعاية أو تبعية بعض الزعماء والاثرياء المعروفين بالجوّد والسخاء . فقد كان ، في روما ما يوازي اصحاب المهن الحرة عندما

اليوم . فالانصراف لهذه المهن لا يؤمن لاصحابها ثروات ضخمة أشبه بالثروات التي يستطيع تحقيقها نطس الأطباء، مثلاً . ويوجد الى جانب هذه الطبقة ، طبقة وسطى أخرى ، هي طبقة الشغيلة والمستخدمين وأصحاب الحوانيت والصناع . فبالرغم من كثرة المصادر الأدبية التي تصف لنا اخلاق العصر أكثر مما تستطيعه الرقعة والنقائش ، فهي تلتزم الصمت التام عندما تتعرض لذكر الطبقة البورجوازية المتواضعة . وهذه المصادر بالذات ، سواء أ أكثرت من النصح والموعظة ام راحت تقدح في الاخلاق، فهي لا تفرق بين هذه الطبقة وثقاله الشعب . فان لم تتخل مدينة كبيرة او عاصمة مملكة من الممالك، من رعايا تفح منهم رائحة العطن والنق، فمثل هذه الحثالة كبيرة في روما الامبراطورية الى حد مدهش . فهي تجذب في جو الاغنياء والاثرياء مرتعاً خصباً لتنمو وتتكاثر ، شأنها في ذلك شأن المدن الضخمة التي لا حركة تجارية كبرى فيها ، ولا انتاجاً ضخماً لها فتحاول الدولة ان تجعلها، مع المواطنين العاطلين عن الاشغال، في مأمن من عضه الجوع أو لسعة الفاقة ، خوفاً منها دون انحدارها الى ادنى دركات البؤس والتعاسة .

والبطالة عند هذا الفريق من الناس يجب ان يقابلها العمل عند الفريق الآخر .
 اليد العاملة
 في املاك الدولة
 فالامبراطور اعجز من ان يواجه هذه الاعباء المالية الضخمة ، لولا ما هو عليه من غنى ووفرة طائلة يستمدهما من استثمار أملاكه الواسعة واطيانه التي لا حد لها ولا حصر . فهو اكبر ملاك في الامبراطورية ، واملاكه الواسعة هذه لا قيمة لها ولا شأن الا بالنسبة ما يستطيع استغلالها واستثمار ما فيها من خيرات دفينه ، وذلك بفضل اليد العاملة التي يتصرف بها .

نحن نجهل تماماً، كم هو عدد العبيد الارقاء في حوزته . فهم ولا شك يتجاوزون بضع عشرات من الألوف بينهم قلة من الخدم والحشم . وترينا النقائش الأثرية التي عُثر عليها ، هؤلاء العمال موزعين الى فئات وطواوير، مكتتبين في كتائب شبه عسكرية، تحت أمرة عدد من ضباط صف أو باشراف بعض المعتنقين ، وقد توزعوا على أملاك الامبراطور في جميع أطراف الامبراطورية ، ليقوموا بجميع الاعمال التي يقتضيها استثمار هذه الأراضي ، بعضهم كنبه في الادارة ، وبعضهم يعمل في المناجم او المقالع . فالحياة التي يعيشونها ، والامال التي قد تبسم لبعضهم في المستقبل تختلف كلياً بين الواحد والآخر . اسعدهم حظاً وأقدرهم كفاءة لا يلبثون ان يُعتقدوا من العبودية التي يرسفون فيها ، فينالون بذلك أولى خطوات الحرية . اما الباقون الذين يكدحون في المناجم والمقالع ، فوضعهم قاس ، مرير ، إلا ان وضع « ارقاء قيصر » ، كان أخف وطأة مع ذلك ، بما كان عليه وضع الذين كان يحكم عليهم بالاشغال الشاقة ، أولئك الارقاء الذين كانوا يعملون في هذه الاشغال التي يتعهدوا ملتزمون . هنالك بعض تدابير خاصة كانت تتخذ مسكناً لهم بعض الشيء ، كاعفائهم من ثمن احذيتهم ورسوم الحمامات ، ورسوم غسل الثياب والحلاقة، كما يستدل من النظام المالي الذي عمل بموجبه في مقاطعة المعادن ، في بلدة فيباسكا ، في البرغال ، مما عثر عليه مؤخراً . وفي هذا دليل على رسيس من عاطفة الشفقة والرحمة التي تجلت بصورة اجلى في اواسط القرن الثاني . وكان كم الادارة الاكبر في ان تتمكن من تجديد هذه اليد العاملة ،

وقد استفحل امرها بحيث أصبحت مشكلة كبرى في عهد الأسرة الأنطونية عندما خفت الحروب، وقلّ بالتالي، عدد الأسرى الذين كانت تؤمنهم هذه الحروب.

ومع ذلك، فهذا العدد العديد من الأرقاء، لم يكن ليكفي قط لاستثمار أملاك الإمبراطور على الوجه الأكمل، إذ أن جانباً كبيراً من اليد العاملة الممثلة هؤلاء الأسرى، لم يكن ليصلح للعمل في الحقول والزراعة. ولذا نرى الإمبراطور يستعين بعمال أحرار. ومع ذلك فهو يجد صعوبة في توفير حاجته منهم. والطريقة التي كان يعتمد عليها عادة، هي تلزيم استثمار أراضيهم إلى متعهدين وملتزمين *Condoctores* وفقاً لمقود خاصة يعقدها معهم، على أن يترك أمر مراقبتهم لكلاء يعينهم الإمبراطور. فالكتابات الأثرية التي وجدت في مقاطعة المناجم في فيباسبكا، تبين المصاعب والمشاق التي كان يجدها هؤلاء المتعهدون قديماً بتعهداتهم الاستثنائية، وذلك لقلة اليد العاملة. وقد أصدر الإمبراطور هدريانوس قانوناً خاصاً بالمناجم، أجاز بموجبه لأي كان، أن يستثمر لحسابه الخاص، أي منجم أو مقلع أهل المتعهد الرسمي استثماره مدة ٦ أشهر متعاقبة. كما أن القانون المذكور، حدد الواجبات المترتبة على كل من المتعهد القديم والمستثمر الجديد. ويدل عدد من الرقيم والتقايش التي عثر عليها في تونس، أن تدابير من هذا النوع اتخذت بشأن أملاك الإمبراطور المتروكة بوراً من قبل المتعهدين، أوسع حرية من السابقة، وهذه الأراضي هي عادة أراضي ممسكة، لا تصلح لزراعة الحبوب، ولا لها كبير مردود. والقانون المذكور ينصح بالاستعاضة عن الحبوب، بزراعة الأشجار المثمرة كالزيتون مثلاً، والكرمة والتين، كما أنه ينص على تأجيل جباية الرسوم عنها لعدة سنوات. وعلى الاعتراف بملكية الأرض لمن يقوم، من تلقاء نفسه، باستثمارها فجعلها يجده وتعبه، ثمرة وتغل. وعندما لا يتوفر للإمبراطور متعهدون نشيطون أو يحتاج لليد العاملة، نراه يستعين بأناس يكونون بآمن من السخرة أو من تمسك للملتزمين، وهو يستجيب في ذلك، ليس لمعاطفة إنسانية، بل لضرورات اقتصادية، حتى إذا ما أعجزته الحيلة، التجأ إلى وسيلة أخرى هي السخرة.

٢ - وحدة الإمبراطورية والمجتمع الروماني

فاذا ما أثر واقع الإمبراطورية على تطوير المجتمع الروماني، وأحياناً بشكل قوي عنيف، فهناك عامل آخر لم يقل شأنه وأثراً، في توجيه هذا التطور وطبعه بميسم خاص، يتمثل بهذه الاتصالات والعلاقات التي ربطت بين مختلف أقطار الإمبراطورية وأمصارها، فكان في آن واحد، علة ومعلولاً، في تكوين دولة، أن لم نقل أمة، من هذا اللبيف من الولايات التي كانت، من قبل، متجاورة متلاصقة، غير متعارفة. وهكذا يبدو لنا، مرة أخرى، أثر هؤلاء الإباطرة البارز في بناء هذه الدولة الرومانية وترسيخ أسسها. وليس بغريب، قط، أن نرى هذا التطور يأخذ مجراه، على عكس ارادتهم، بعد أن عجزت عن الصمود في وجه التيار المعاكس.

وهذا التقارب يجري بين مجتمعات متباينة أصلاً وفصلاً ولساناً، توافرت
 روما مرآة الامبراطورية له عوامل كثيرة للالتقاء والاندماج والانصهار . وهذا الانصهار
 ووجعقتها . حركة العتق والاندماج يتم في روما : عاصمة الامبراطورية ونقطة الثقل فيها ومقر
 عظماء الرجال وأصحاب المال والأعمال ، وقبله انظار الطامحين والطامعين الذين راودتهم الحُلُم
 الذكية والأجساد الأدبية والفنية ، وملتقى المغامرين والمتآمرين ، من رجال ونساء في سعيهم وراء
 الشهرة وتصيد الحظوظ . وقد تلاقت في هذه المدينة العظيمة جميع العناصر والأقوام والشعوب ،
 ممثلة على أدنى حد ، في هذه الأعداد المتزايدة من الأرقاء والعبيد الذين يردفون الأسر الثرية
 بحشود من الخدم والحشم تتجاوز الألوف ، هم غنى وثروة الطبقات الارستوقراطية من التوابع
 والواحق ، من كل عرق وصنف ولون . والمشاركة بينهم ، كثر ، حافظون ، مَهْمَرَة ، دوماً على
 اعتماد لكل خدمة ، هم ، في الغالب ، على مستوى طيب من الثقافة والمعلومات العامة ، وعلى
 أتم اعتماد للقيام بالمهام المشبوهة ، وبكل أعمال الشطارة والحرقه حتى أحطتها وأدناها ،
 يارسون النجامة والعيافة والقيافة والعرافة ، والسحر والكهانة ، ويشاركون في كل الطقوس
 والحرققات الملتوية ، ويتَجَرَّون بكل شيء ، حتى بأنفسهم وبغيرهم من الناس ، وبالنفوس
 والألعاب حتى بأخس الأصناف . فلا عجب بعد هذا ، ان يفسد الشاعر الروماني قائلا : « منذ
 عهد بعيد راح نهر العاصي يدفق مياهه في نهر التير » ، ومثل هذا الانصباب لم يبتدىء بالطبع
 مع الامبراطورية . إلا ان هذا الدفق تضخم مع الزمن وتجاوز الزبي ، بعد ان عم الرخاء وتشعبت
 الادارة العامة وفروعها .

فلا عجب ان يوجس الاباطرة خشية من هذا التيار الجارف ، فيعهدون ، من حين الى
 آخر ، الى الشرطة بإخراج العناصر الطارئة واقصائها بالجملة ، كما حاولوا جهدهم ، ان يحدوا من
 حركة العتق التي انتشرت عاداتها وأصبحت زياً ينتهجه كبار القوم ، ومادة دعائية يتنافسون بها
 ويتبارون . ولذا قام اوغسطس يحاول ، بما عرف عنه من روح اجتماعية محافظة ، الحد من
 حركة العتق هذه ، فأصدر عدداً من القوانين الرادعة ، فنع العتق عن الرقيق قبل ان يبلغ
 الثامنة عشرة من عمره ، كما حظر عتق الخمس من العبيد ، دفعة واحدة ، وبإصدار براءة عتق
 رسمية كما كانت تقضي العادة المتبعة . كذلك شدد في تطبيق الأحكام القانونية الصادرة من قبل
 التي لم تكن تسمح إلا لحفيد المعتوق ان يتمتع بكافة الامتيازات الخاصة بالرعوية الرومانية .

وقد بقي معمولاً بهذا القانون في حياة صاحبه ، انما بصورة مخففة ، لأن الملك الذي يتمتع
 بحق الاعفاء ، لا يستطيع ان يقاوم التماسات أصحابه والمقرين اليه من معتوقيه أنفسهم . ومهما
 يكن ، فالهواجز التي أقامها ، لم تستطع سوى التخفيف نوعاً من سير هذه الحركة التطورية
 العارمة التي لا تقاوم . ويفضل حركة العتق الواسعة هذه ، استطاعت روما ان تمازج بين العناصر
 المتباينة التي تألف منها السواد الأعظم من سكانها ، بعد ان قصبتها من جميع اقطار الامبراطورية
 وأطرافها النائية . وهكذا اختلطت ذراري الفاتحين بذراري المغلوبين على أمرهم واندجت بعضاً

ببعض . وهذا الانصهار العرقي ، صحبه ، من جهة ثانية ، حتماً انصهار أدبي وخلقى .

وقد تم في الولايات شيء من هذا القبيل ، أشد فاعلية ، وأعنى أثراً ، وإن استبدال السكان ونقلهم جاء على شكل أقل ظهوراً وبروزاً ، لأنه لم يقتصر ، على العاصمة وحدها .

قلما عمد الأباطرة الى نقل السكان بالجملة من بلادهم الأصلية واقتلاعهم منها لإسكانهم في قطر آخر . فلم يكن في أي من البلدان التي دُوِّخوها وكونوا منها إمبراطوريتهم الشاسعة فائض بشري يصح استخدامه في إعمار أقطار أخرى قليلة السكان . فالاجلاء الجذري ، المنهجي ، لم يكن من الوسائل المحببة عندهم لتأديب الخارجين على السلطة او المارقين على القانون . فقد اعتمدوا بدلاً عنه ، الاستعباد ، والرق بالجملة . فالرعب والهلح الذي أنزلوه بفلسطين بعد سحقهم الثورة الدامية التي قام بها اليهود تحت أمرة شمعون بركوكبا ، في عهد الإمبراطور هدريانوس ، أجبر اليهود على الحرب والجللاء عن البلاد ، الامر الذي أدى الى إفقارها . وكذلك قُتل عن مقاطعة داسيا . فبفضل هجرة فردية موصولة ، خلواً من كل ضغط ، كما يبدو ، تَكَثَّرت هذه الولاية بعد فتح تريانوس لها . وهكذا نرى ان الإمبراطورية الرومانية لم تلجأ حتى آنذاك ، لاساليب العنف والإرهاب التي سبق لبعض الدول الغاشمة ان عولت عليها من قبل ، وان اعتمدت على مثل هذه التدابير ، فيما بعد ، حتى أصبحت عندها تدبيراً مألوفاً . وهكذا نرى بعض الأباطرة يقتلون من أقطارهم ، اقواماً من البرابرة ، غرباء عن الإمبراطورية ، ليسكنوهم مقاطعات إيطاليا الشمالية ، كما فعل أوغسطس ، في منطقة الرين ، ونيرون في منطقة الدانوب ، ومارك أوريل في بعض الولايات الدانوبية . فكان هذا التدبير الذي لجأوا اليه ، ذريعة من الذرائع التي مكنتهم من توفير ما يحتاجون اليه من يد عاملة لاستثمار الأراضي التي استباحوها ، كما أتاحت لهم ان يتفادوا الضغط الذي تعرضت له تحوم الإمبراطورية من قبل شعوب وأمم استهواها فاجتذبتها الازدهار الذي نعمت به الإمبراطورية ، لم يسبق ان رأت مثل هذا الازدهار أو ما يشبهه في بلادها . وكان وضع هؤلاء الدخلاء ، في بادئ الأمر ، وضعاً متدنياً لا يختلف كثيراً عن وضع الأرقاء تقريباً . إلا انهم لم يعمتوا ان اختلطوا بالشعوب القائمين بينها او المجاورة لهم وانصهروا فيها واندججوا معها .

وقد تفاعلت عناصر أخرى بهذا الاندماج . فقد سبق واشترنا من هذا القبيل ، الى الدور الذي لعبه السوريون في الحركة التجارية ، بعد ان انتشروا في كل قطر وصقع ، وحلوا تحت كل سماء . والشيء الذي لا يمكن ان نغربه هنا في غير مبالاة ، هو هذا الاضطهاد الديني الذي أكتوى بناره مسيحيو مدينة ليون ، في عهد الإمبراطور مارك أوريل . فقد بلغنا خبره من رسالة باللغة اليونانية أرسلها مسيحيو مدينة فيينا وليون الى أخوتهم في الايمان ، في آسيا وفريجيا . وهناك عامل غير عامل التجارة يجب الا نسقطه من حسابنا ، ساعد كثيراً في تعجيل خطى هذا التطور ، وهو يمثل في هذه المناقشات التي استوجبتها مقتضيات الخدمة العسكرية وموجبات الادارة العامة . فمعظم طوابير الجيش وفرقه كان يجري تشكيلها ضمن المقاطعات

القريبة من معسكراته . غير ان دواعي الدفاع عن حدود الامبراطورية ، والذب عن حياضها كثيراً ما تسبب في نقل فرقة بكاملها ، من الشرق الى الغرب ، فيفضل من بلغ من أفرادها ، سن التقاعد ، عند انتهاء خدمتهم العسكرية ، ان يقيموا ويستقروا حيث هم ، منصرفين الى استثمار قطعة الارض التي كانت تقطع لهم عند خروجهم من الجيش ، بعيدن عن وطنهم الاصلي . ومهما يكن فحياة الضابط في الجيش كثيراً ما تكون عرضة لمناقلات عديدة ، شأنها في ذلك شأن موظفي الادارة ، ولو كانوا من الدرجة الوسطى . فالازدواج اللغوي ، في الامبراطورية ما كان قط حائلاً دون ابناء الغرب الذين كانوا يحسنون اللاتينية ، في ما تلقوا من تربية . وهذه الازدواجية اللغوية ، لم تعد لتؤلف ، منذ القرن الثاني ، حائلاً دون الاغريق في شرقي الابيض المتوسط ، بعد ان صارت الامبراطورية ، منذ عهد هديانوس ، تعتمد على خدماتهم ، فراخوا يستسلمون الصعاب في سبيل تعلم اللاتينية ، بعد ان انفتحت امامهم ابواب الوظائف ، سواء في الجيش أو في الادارة . وقد استتبع ذلك حركة مصاهرة وتزاوج ، بين بعض طبقات المجتمع ، بين قطر وآخر وبين هذه الطبقات بالذات التي كانت دخر الامبراطورية وعمادها ، غداها بالملاكات والأطُر الادارية ، فأدت هذه الحركة الى التخفيف من حدة الفوارق الدينية والتصديقات العقائدية ، وتصادم الافكار والآراء ، والتوحيد فيما بينها . وهي حركة ستقوى وتشتد في المستقبل الطالع .

فما من شيء أثر ، مع ذلك ، أكثر من انتشار نظام البلديات الذي كانت الاعتراف المتزايد بحقوق
تشوبه نزعة غلبة نحو المزيد من التجانس والتقارب ، عملاً بالمثُل التي الرعية الرومانية للمدن
جاش بها هذا النظام ، ونتيجة لهذه الانعامات التي كانت الامبراطور
يجود بها ويسخو ، مثله بحق الرعية الرومانية التي كان يسبغها على بعض المدن .

فقد تباين الاباطرة الأول سخاء في هذا المجال ، بين أكثر من هذه الانعامات ومُقلِّ . ولكن لا نستطيع التأكيد ، لثلا نفرط في القول ونفلو ، ان اوغسطس وطيباريوس قد « اوصدا باب المدينة » ، اذا صح القول ان غيرهما من الاباطرة ، كالامبراطور كلوديوس مثلاً ، قد « فتحوا منها الابواب وشرعوها على مصراعها » . اما الشيء الثابت والأكيد ، فالقضية قضية نسبية ونزعة عامة ، اذ لم يتخلف احد من هؤلاء الملوك ، عن الإنعام بمثل هذا الحق ، ولرات عديدة ، لعدد كبير من المواطنين الجدد . وحق الرعية الرومانية يكتسبها بصورة تلقائية ، هذه او تلك من الطبقات الاجتماعية الوجيبة ، ضمن نطاق البلدية ، وفقاً لوضع مدينتهم الشرعي . ويستتبع هذا الحق امتيازات فردية وانعامات خاصة تُعطى لمن يتطوعون للخدمة في الجيش أو عند انتهاء خدمتهم العسكرية في فرق الجيش الاضافية . فاذا ما خفت الحركة أو تباطأت في عهد ترايانوس ، فقد استشرت واتسعت في عهد الأسرة الانطونية ، اذ انعم اباطرة هذه الأسرة ، على معظم المدن الكبرى وقواعد الولايات ، بحق الرعية الرومانية ، بحيث ان كل المواطنين في المدينة يكتسبونها اذا لم يكن يتمتع بها بعضهم من قبل ، بصورة شخصية . وهكذا فالظهير

الامبراطوري الذي كان كركلا سيصدره عام ٢١٢ فيعترف فيه بهذا الحق لجميع الرجال الاحرار الذين ولدوا ضمن الامبراطورية ، كانت قد تهيأت له اسباب الإعداد وزكاه شمول الحركة .

من العيب أن يحاول المرء التقليل من شأن هذه الحركة الشاملة التي كانت ترمي لإقامة وضع شرعي قانوني ، يساوي بين الشعوب المغلوبة على أمرها في الامبراطورية والشعب المظفر الغالب . وهذه الحركة تجري بالطبع تحت سيطرة ومشاركة امبراطور ، مطلق السلطة والارادة ، امتدت سلطته الى أقصى أطراف الامبراطورية ، لا تجرّ على سكان الولايات 'غنى' مادياً ملحوظاً ، بل على عكس ذلك ، تعود عليهم ببعض 'الغرْم' ، إذ يصبحون بفضل ما كسبوا من حق جديد ، عرضة للضرائب التي لا تقع إلا على المواطنين ، إلا اذا كانت مدينتهم تتمتع - وهذا شيء نادر جداً - برعاية « القانون الايطالي » ، فيُعفون إذ ذاك من ضريقتي الأملاك والمسقّفات . ومع ذلك ، فهذا الحق كان يولي صاحبه امتيازاً كبيراً ، إذ يؤمن له المساواة القانونية والأدبية بالمواطنين الرومانيين . ولكي يقدر المرء هذا الحق قدره وفضله ، في المراحل التي قطعها هذه الحركة في تطورها الصاعد ، عليه أن يرجع بالفكر الى ما كان عليه وضع سكان الولايات الرومانية في آخر عهود الجمهورية .

فالإنسانية لم تعرف في تاريخها القديم دولاً كثيرة سارت الى النهاية ، على هذا النهج الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية .

وهذه الحركة التطورية ، لم يمكن لها أن تحدث لو لم تقترن بحركة الواقع الاجتماعي في المدن :
البورجوازية البلدية تطورية ماثلة لها ، طلعت في المجتمع الريفي ولفته لفاً ، فتفاعلتا معاً وتكاملتا . فمثل هذه الحركة لم تكن بمستجدة ، في الشرق الهليني . فقد جاءت فيه تنمية لحركة بدائية ، انطلقت عنده من زمن بعيد . أما في الغرب ، فقد اقتضى لها التأسيس والتمهيد من الأصل ، وانشاء كل شيء من البداية ، أي من نقطة الانطلاق . فالأمر ، في نظر الامبراطور ، ليس بمجرد إنشاء هيئة أو منظمة محلية ، يتنازل لها عن مهام الادارة المحلية . فهي عنده بمثابة 'مشغل' ، أو بوتقة 'تطليح' طبقة اجتماعية يريد لها ان تتعاون معه وتخفف عنه بعض الأعباء . فالطبقة الارستوقراطية في هذه الولايات التي عانت ما عانت من حروب الفتح الروماني ، وتضرست بويلاته ، لم يكن في مقدورها قط أن تقدم له المادة البشرية اللازمة للادارة . وهو ، من جهة ثانية ، لا يثق بالطبقات السفلى المشاغبة ، غير المثقفة . ولذا ترتب عليه أن يشجع هنا ، وان يثبىء هنالك ، طبقة وسطى ، عريقة ، رصينة ، مثقفة ، وبالاختصار ، طبقة بورجوازية . وهكذا ترتدي السياسة التي اتبعها في حمل المدن على الأخذ بأسباب الحضارة ، طابعاً اجتماعياً له أهميته الكبرى .

ومها تنوعت طرائف تكوين هذه البورجوازية البلدية وتباينت وسائلها ، فهي لا تقتل مع ذلك ، من حيث عناصرها الموقومة ، قطاعاً مصغراً لسكان الامبراطورية . فلم يدخل فيها ، إلا في القليل النادر ، عناصر من الطبقة الريفية الأكثر عدداً ، هي طبقة العمال الزراعيين ، اذ كانت

لا تملك ، في البدء ، سوى رأس مال متواضع ، فترغمهم الحاجة للعمل في الأرض عند الآخرين . ولم يدخل ابداً في هذه الطبقة من كانوا يؤلفون اليد العاملة ، ولا سيا هؤلاء الذين كانوا يقومون بأحط الأعمال وأشقتها ، كالعمل في المناجم والمقالع الحجرية والأشغال الشاقة الأخرى . فقد كان وضع العيش عند هؤلاء واولئك ، على السواء ، على جانب كبير من الشظف بحيث لو أوتوا المعائب في ما كانوا عليه من تقشير وتوفير وحرمان ، لما استطاعوا ان يوفروا الحد الأدنى من الكفاف الذي يسد بُلغتهم ، ولما كانوا ، من جهة أخرى ، خارج المدن ، لا سمير لهم ولا عسير سوى رفقة لهم في العمل والشقاء معاً ، يفصل بينهم وبين رؤسائهم هوة اجتماعية عميقة تنعدم معها كل علاقة بين الجانبيين . ولذا لبثوا عاجزين ، متخلفين عن تحصيل أي قدر ونصيب من العلم او الثقافة حتى ولو رغبوا في ذلك ، حق من نعم بينهم بحريته الشخصية . ولما نعموا بحق الرعاية المدنية ، اذ كانوا في نظر الأحوال الشخصية مجرد « قاطنين » او مستوطنين لا غير .

وهذه الامكانيات التي حرموا منها ، توفرت مع ذلك ، لعناصر اجتماعية أخرى من الاثرياء وكبار الملاكين وأصحاب الأقطان كبيرهم وصغيرهم ، وسكان المدن . وقد جاءت السابقة من الأغنياء من بين سكان الولايات الذين لم يلبثوا ان انضموا الى الطبقة الاجتماعية العليا ، وانصهروا فيها ، كما جاءت من المواطنين الرومانيين الايطاليين المنشأ ، او من اقدم الولايات الرومانية ، او من قدماء المحاربين الذين نالوا الرعاية الرومانية ، او عن طريق اصحاب الاراضي والاطيان او صفار الموظفين الذين اصبحوا فيما بعد ملاكين بعد ان أقطعوا بعض الاراضي واشتروها . وكثيراً ما شكّل هذا الفريق ، الى جانب سكان المدن ، مجتمعاً ثانياً واستقروا معه على وضع عرفوا به قانوناً *Conventus Civium Romanorum* الذين بالرغم من قلة عددهم ، كانوا اسوة طيبة لغيرهم . وهذه الشواهد تأتي على ذكرها هنا ، ألتمت مثلاً احتذاءه معظم سكان المدن ، وقد ساعدهم على تحقيق ذلك ، التسهيلات الاقتصادية والثقافية ، التي توفرت لهم من جراء سكنهم في المدن وحواضر البلاد الكبرى . وهكذا رأينا عمالاً وصناعاً من اصل متواضع جداً لا يختلف وضعهم عن الوضع الذي كان يرسف فيه سواد المعتقدين ، يصبحون من أشد الناس ولاء للامبراطور *Seviri Augustales* ويصبحون ، بعد لأي قصير ، اعضاء في هيئة نقابتهم ، ثم يباشرون وظائف البلدية ويتحملون مسؤولياتها . وبقيت أسمى هذه الوظائف وأعلاها مرتبة ، مع ذلك ، موصدة تقريباً امام الجيل الاول هؤلاء الناس ، الى ان انفتحت ابوابها على مصراعها امام ذرائعهم فيما بعد ، عند اول بسمة يفتقر عنها ثغر الحظ ويرضى بالسير في ركابهم .

وهذه النجاحات جاءت تعبيراً عن يسر مالي متزايد ، كما كانت ، من جهة أخرى ، توجيهاً آخر للنشاط الاقتصادي . عمل الانسان بيده ، لا بد منه عند الانطلاقة الاولى ، وما ان يلبث الدكان الحشبي حتى يستحيل مشغلاً يعمل فيه بعض الارقاء والعييد . فالتجارة ، هي ولا شك في ذلك ، اوسع بدأ وأرحب مجالاً ، لا سيما اذا ما عرف صاحب المتجر ان ينظم عمله وان يقيم له عملاء ومراسلين في أماكن أخرى ، فلا يلبث ان يستوي في مرتبة اجتماعية أعلى . والفئة

المختارة بينهم كانت تحاول توظيف قسم من ثروتها في شراء الاملاك والاقطان ، وبذلك يتاح لأصحابها النهوض الى مرتبة الاعيان والوجهاء في الناحية او القضاء .

فلا اعتبار الاجتماعي للمرء كان يختلف باختلاف طريقة استثماره لما يملك من رأس مال ، والدخل الذي يؤمنه ، كان يعود عليه بأشياء لا يقل تأثيرها بشيء عن نط الحياة التي يحياها ، والمظهر الخارجي الذي يظهر عليه ، كالعلاقات التي تربطه بمن هم عيال عليه ، او بمن هو دونهم ، وكيفية استمتاعه بأوقات الفراغ التي تتوفر له ، فيتصرف بها على هواه ، والتربية التي كان يحاول تنشئة بنيه عليها ، وغير ذلك من وجوه الحياة . فالاهتمام بأمور الفكر والادب احتل محلاً بارزاً بين المثُل التي دغدغت هذه البورجوازية . ولم تكن تتحرج من استقبال اصحاب المهن الحرة التي عرفت ان تؤمن لأصحابها السعة وراحة البال . اما اهل الادب ورجال الفكر وحملة الاقلام فكانوا ، اينما حلوا ، موضع التجلّة والاكرام .

من بين المناقب التي لا بد للبورجوازية من الاتصاف بها : الكرم سخاء البورجوازية وجودها والجلود ، الذي يدفع اليه مبدئياً ، حب الوطن الاصغر ، والرغبة في رؤيته اجل وأبهى ، محتفلاً دوماً بالاعيان ، يشارك بها الناس القادمون اليها من بعيد ، فيكتسب بذلك شهرة ويذهب صيته بعيداً في الولاية بين المدن والقرى والداكر . فلا عجب ان يحتاج صندوق البلدية للمال الوافر يستطيع معه مواجهة مثل هذه النفقات ، التي لا يمكن للرؤوم المحببة ان تؤمنها ، حتى ولا تلك التبرعات التي يجود بها ، نقداً او عيناً ، وفقاً للتقاليد المرمية والشرائع المعمول بها ، من ينال من ابناء البلد ، منصباً جديداً ، مها صغر شأنه أو دق وزنه . ولذا كانت ترد على صندوق المدينة ، رأساً أو بالواسطة ، هبات شتى وتبرعات مختلفة . فلا غرو ان تشدد في مضمار التبرع ، منافسة سامية بين البورجوازيين القاطنين في المحلة ، وبين هؤلاء الذين أطلع لهم وضعهم المالي القوي ومنزلتهم الاجتماعية ، ان يعيشوا بعيداً عنها . فقد مهمهم بعد ان برزوا وترقوا في درجات السلم الاجتماعي ان يبقوا دوماً على اتصال وثيق بمنشئهم الاول ، او بالبلدة التي رأت نشأته الاولى ودرجوا صغاراً على دروبها ، ولا تزال تربطهم بها وشائج من القربى والمصلحة والاملاك ، وغير ذلك من المقتنيات ، وهي بدورها تفخر ببنيها المبرزين وتجليهم ، وتحرص على الاحتفاظ بهم ، وتحفل بهم عند حضورهم اليها ، فتسجل أسماءهم في سجل النابهين من أعضاء البلدة جذباً لهم واستمطاراً لأعطياتهم ومبراتهم .

وهكذا راح كل واحد من طلوعوا فلمعوا ، يتفنن كل على طريقته الخاصة ، بتمثيل دور النصير ، تشبهاً منهم بالباطرة والملوك في حديمهم على المواطنين ، والعطف عليهم والبر بهم ، واكتساب محبتهم وولائهم عن طريق التبرع بسخاء . وهكذا نستطيع اليوم بفضل ما بُعث عليه من الرُقم والنقاش التذكارية ، اعداد قائمة هؤلاء المحسنين لا آخر لها ولا حد . فلنقتصر من ذلك على بعض شواهد وأمثلة لنكون فكرة صحيحة عن ماهية هذه الهبات ونوعها ومقدارها . من ذلك مثلاً المبالغ التي ضرب بها أصحابها الرقم القياسي بالسخاء ، والمآدب الحافلة التي أدتوها ، والولائم

السخية التي أولموها ، والتوزيعات التي قاموا بتوزيعها عيناً ، واقامة الانصاب التذكارية ، وتقديم النفقات التي أوجبها تشييد بناء ذي مصلحة عامة او تزيينه وتحليته بالاثاث والرياش ، او خدمة مثلى أداها لبلده او مدينته ، او محله او للإمبراطور ، او تسليف الادارة المحلية ما تحتاج اليه من مال ، والاكتتاب بالمبالغ اللازمة لتموين البلدة ، او السعي لتوفير ما يلزمها من حنطة واستيرادها على نفقته الخاصة في اوقات الجذب ومواسم القحط ، والتركات التي يُوصون بها لأغراض شتى ، وغير ذلك .

وغني عن القول ان بعض وجوه هذا السخاء كانت تذهب لبعض الفئات او الهيئات الخاصة ، فيلتفع بها فريق معين دون أهل المدينة كلهم . فالحصول على ترفيع او تقدير او ترقية ؛ مهما كان صغيراً أو متواضعاً ، يكفي وحده مبرراً لإبراز أريحية صاحب الانعام وكرمه ، وإلا لما مُدَّ أهلاً لرتبة أعلى وأرفع .

وكان الترفيع من رتبة دنيا الى رتبة أعلى يستدعي حتماً من صاحب الخطوة اظهار كرمه وجوده على وجه دخل معه الناس في شبه سباق يتبارون فيه ، ويتنافسون . فان فائتنا المصادر الوثيقة هنا ، فشيء من علم النفس يحملنا على الظن ، بأن ممارسة بعض الوظائف كانت تؤمن ولا شك ، لأصحابها ، بعض المنافع المادية . فالبورجوازية البلدية كانت تؤمن ادارة المدينة ، إذ كان عليها أن تسهر ، الى جانب الموظفين الامبراطوريين ، على تأمين الشرطة واستتباب الأمن والنظام فيها ، وهي امور حرصت على تأمينها الحرص كله . فهي تعرف كيف توفى بين مصلحتها ومصلحة الأشخاص التابعين لها ، في كل ما يتصل بتوزيع الضرائب ، حتى البلدية منها ، وجبايتها . ولكن هذا الاحتمال الثاني ، لم يكن ليتوفر في المستويات الدنيا . ومهما يكن من مبررات هذه الشكوك ، فهي لا تمنعنا من أن نؤكد هنا بأن هذا النظام كلف الطبقة الوسطى غالباً . فقد كان هنالك حوافز اخرى تحفزها على العمل كالممثل التي تترسمها المدينة ، وهي مثل لا تعدى عادة ، المنفعة الشخصية المبنية على المباهاة والتفاخر في الخارج . فالواهب او المتبرع كان ينال ، لقاء سخائه وتبرعه ، مكافأة له أو تقديرأ لعمله ، قرارأ يأخذه أعضاء المجلس البلدي يشيد بسخائه وكرمه ، اذ كان خبر هذه التبرعات ينقش على الرقم والأنصاب تخليداً لاسم صاحبها ، او تُنصب له ولذويه التماثيل . وكثيراً ما كان يأخذ هو نفسه ، على عاتقه ، تكاليف هذه الكتابات أو كلفة صنع التماثيل ورفعها . وعلى كل ، فالشاهدة التي توضع على قبره ، بعد الوفاة ، كانت تحدث القوم عن ألقابه وأخبار أياده ، ووجوه كرمه ، والأشياء التي ابتدراها لمصلحة البلدة .

فأمام هذا التنويه العالي والأماديح الفخرية التي تطالعنا بها كتابات الحياة البلدية عنصر من عناصر الرقم والنقاش التي لا تحصى ، يعترى الواحد من رجال هذا العصر شيء من الإشفاق والتصاغر عندما يرى هذه المباهاة والمنافسة ينبري لها المحسنون تخليداً لاسمائهم في اذهان مواطنيهم . كذلك فهي تثير في النفوس غير هذا التأسف

ايضا. فقد كان بالامكان، ولا شك، الافادة من هذه التبرعات في وجوه أفضل اذ كثيراً ما ذهب جزافاً ، في سبيل شهوات ونزوات لا طائل تحتها ، لاسيما اذا عرفنا انه لم يكن من السهل دوماً جمعها ، الا بشق المرائر ، مسخرين في سبيل ذلك العديد من الناس .

ولكن، هل يجوز بعد هذا، ان نجعل او نتجاهل بان الولايات مدينة لهذه المشاعر والاحاسيس الكريمة بالكثير من هذه التبرعات والانعامات الجزيلة التي أسبلت عليها ، كما انها مدينة لها بالكثير من هذه المباني والزخارف الفنية المدهشة التي تنبأى بها اليوم ، والذي وحد بينها : ذوق مترف يتجلى على أتمه ، في هذه الزخارف ، بالرغم من تباعدها بعضاً عن بعض . فالادارة الامبراطورية التي عولت كثيراً على هذه البلديات في تحقيق رسالتها التمدينية ، واخذت بتشجيعها ومؤازرتها ، وجعلت من حياة البلديات ، اذ ذاك، عاملاً كبيراً وعنصراً قوياً مشتركاً في عملية دمج الأقوام التي تألف منها سكان الامبراطورية وصهرها ، وتأمين الوحدة بينها ، وذلك من جراء قيام مثل هذه المثل الفنية، في كل أطراف الامبراطورية ، والشكل الذي استقرت عليه في تحقيقها وبلورتها . فاينما دفعت حوافز الحياة ، المواطن الروماني ، وانى رمت به ظروف الوظيفة او المهنة او نزق الطبع ، فهو لا يحس نفسه غريباً عن بلاده، في كل ما يتصل بالمهام والمسؤوليات التي يضطلع بها كفرد من افراد المجتمع ، مهما كانت الولاية او المقاطعة التي ألقت به اليها الأقدار . فاينما هبط او حل ، طالعه ، في خطوطها الكبرى، نظم سياسية واحدة ، واعراف واحدة ، وتقالييد واحدة ، والقيم الاجتماعية ذاتها ، أدبية كانت او مادية ، والزخارف المعمارية الواحدة ، والاعباد ذاتها ، ومختصر القول ، الكثير من مقومات الحضارة الزومانية الواحدة . فلا عجب والحالة هذه ، ان يرى نفسه مأخوذاً بقوة هذه الحضارة وسطوها اينما برزت وكيفما تجلت ، فيقتنع في قرارة نفسه بأنه أمام الحضارة الوحيدة التي تستحق هي وحدها، دون سواها، هذا الاسم ، فتبعث فيه عاطفة نبيلة من الزهو والفخر والمجد عندما يرى نفسه جزءاً منها ، كما تمتلئ نفسه جيلاً لهذا النظام .

من الواضح ان التطور الخلاّق الذي تم من هذا القبيل ، خلال القرنين المتناهلين لهذا النظام الاول والثاني ، كان تكللة واستطالة لهذه الحركة التطورية التي أخذ الاغريق بأسبابها ونهضوا بها منذ ان جعلتهم فتوحات الاسكندر أسياد العالم الفارسي ، وهي حركة لم تنعد في الشرق رقعة ضيقة ، حدتها قيام دولة الفارثيين على الفرات ، بينما بلغ مداها الزبى في الغرب مع الفتوحات الرومانية . فاتساع المدن القديمة ، وإنشاء الحواضر الجديدة ، وتزيينها بالمباني ، وتجميلتها بالزخرف ، والتطور الذي طرأ على الطبقة البورجوازية في المدن التي كانت تتمتع بيسر مالي مكنها من ان تجود بما جادت به من تبرعات سخية دعائية ، وجمعت الى رغبتها في توفير المرفهات المنزلية الاجتماعية، اللذة في توفير ثقافة فكرية . كل ذلك جاء تعبيراً صادقاً لهذه النزعة التي حاول السلوقيون ، جاهدين ، وبكل ما أوتوه من قوة وسلطان ، تحقيقها . وأخذ الاباطرة بدورهم في تشجيع هذه الحركة ، اذ انهم ، بعد ان قنبتوا المبادئ

الحضارية ذاتها ، راحوا يعملون على توسيعها والترحيب لها والدفاع عنها ، اذ وجدوا في هذا المسلك ، الطريقة المثلى لتوطيد السلام ، في الداخل ، ومقاومة هجمات البرابرة وغزواتهم ، في الخارج . فبعد ان عرفوا كيف يفيدون من اختبارات الماضي ومن إقبال اللجنة في المدن على هذه المثل ، استطاعوا ان يبرزوا ملوك اليونان من هذه الناحية بكرمهم وروحهم السمحة ، فهاؤوا لحواضر الولايات ، في مصر اسباب الاخذ بهذه النظم التي رأيناها تطلع في ولايات رومانية أخرى ، باستثناء الاستقلال الاداري ، بالطبع .

هنالك ولا شك ، أكثر من وجه من وجوه التباين بين هذه المدنية التي المستعبدات الرومانية :
انتشرت على هذا الشكل ، في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ،
بفضل العمل الاجتماعي الذي قامت به هذه المدن ، ضمن إطارها البلدي ،
المصارعون

وبين الحضارة الهلينية التي تقدمتها وسبقها الى الظهور . فالجديد ، في الاثر الروماني ، يبرز على الأخص ، في هذه القوة او الصلابة التي انمازت بها النظم الادارية عند الرومان ، وفي اهتمام أولي الأمر الكبير ، بالمصلحة العامة . فعندما تتملى النظر في الموقف الذي وقفته الطبقات البورجوازية في الشرق من الامبراطورية الرومانية وأسيادها في روما ، لا نرى شيئاً يمكن مقارنته بهذا في الموقف الذي وقفته هذه البورجوازية من الدولة السلوقية والعراقيل الكثيرة التي أقامتها في وجهها . فلم تقتصر روما في عملها على إخضاعها وبسط سيطرتها عليها ، فراحت تغرس فيها شيئاً من كرامة الذات والمهابة الرومانية ، وذلك عملاً بفلسفة الرواقين وتعاليمهم .

من بين هذه التغيرات الأدبية التي تجلت بصورة أوضح من خلال المظاهر الخارجية ، لا بد من ان نذكر هنا ، بنوع خاص ، هذا الجديد الذي طلع به الرومان فلم يلبث ان احتل حيزاً كبيراً في حياة المدن في جميع أنحاء الامبراطورية ، وان أثار اليوم دهشة المحدثين من رجال هذا العصر وبعث فيهم النفور والاشمئزاز ، الا وهو ألعاب المصارعة . وكان سكان المدن يجحدون في معارك المصارعين ، منذ عهد بعيد ، سلوام المفضلة ، بعد النجاح العظيم الذي لقيته هذه الالاعاب أينما قامت . فاذا ما شيدوا في الشرق من المسارح اقل مما شيدوا منها في الغرب ، فلأنهم استعملوا لها ما كان قائماً من هذه المسارح والملاعب في المدن الشرقية . فالصفوة الثقافية والأدبية عند الاغريق قلما اظهرت نفرتها من هذه الالاعاب ، بل على عكس ذلك لقيت لديها الاستحسان ، بينما النخبة الاجتماعية التي رضى طوعاً واختياراً بتحمل النفقات المالية التي أوجبتها هذه الملاهي ، راحت تزورها وتفخر ، كما تشهد على ذلك النقائش العديدة ، من يونانية ولاتينية ، على السواء . فلم تثر هذه الملاهي الدموية التي طلعت علينا بها ايطاليا ، أية عاطفة نفور او اشمئزاز في هذه البلدان التي تعاقبت عليها عصور وعصور من الحضارة المرفهة .

فالظروف الواحدة والمطالب الملحفة الواحدة تلاقى متشابهة في كل مكان . فالصطلح اليوناني *Munerarius* ، *Philodoxos* ، *Philotimos* ، *Philotimia* أصبح فيما بعد مرادفاً للصطلح اللاتيني *Munus* ، وهو يفيد معنى : العطاء والبذل ، ثم اكتسب فيما بعد ، لدى كهنة عبادة

الامبراطور معنى المركة والمصارعة ولا سيما المركة بين البشر ، ثم تصارع أناس ضد البهائم والوحوش لإثارة حساسة الجماهير . وكان النظارة يحفلون بالمعارك التي يستعمل بها السلاح المثلوم وهو سلاح كان المصارعون يستعملونه . فالمركة ، في نظرهم لا قيمة لها ان لم يتخللها عطاء او بذل شيء . كذلك لم يكونوا ليحفلوا كثيراً بالمعارك التي لا تساوي فيها ولا كفاء ، او تلك التي يلتقي فيها منافسان تنقصها الخبرة لأنها اعجز من ان تثير اللذة او الحماسة ، كما ان خلوها من الشجاعة والإقدام يُعطل عند المشاهدين كل عاطفة إعجاب وإكبار وإثارة . ومنه المصارعة *Gladiature* كثيراً ما أعادت الينا وبعثت فينا صورة : « الجحيم في التاريخ القديم » ، وهي معارك فيها من اللهو البشري الوحشي ما تتضاءل دونه لذة مشاهدة مصارعة الثيران او سبق الخيل . ويكفي المؤرخ ان يسجل وقوع مثل هذه المصارعة وما كانت تثيره في النفوس من أحاسيس وانفعالات متهاجة ومبهجة . والحال ، فاذا كانوا يستخدمون لها أرقاء مدربين يتعهد بتقديمهم ملتزم معين او يبيعهم بيع خيول الاصطبلات ، فكثيراً ما كان يبرز لهذه المعارك ، رجال أحرار طمعاً منهم بالربح والجوائز التي كانوا يفوزون بها ، اذ كان يتقاضى المصارع المتمتع بحريته ، ربع قيمة الايجار ، بينما يأخذ المعتوق خمسها ، ناهيك عن التنويه بهذه الأجداد ، وذلك بحفرها على شواهد قبورهم .

ومها يكن ، فالنفقات التي كان يتحملها المتبرعون في هذا السبيل ، كانت باهظة ، مرهقة . وبلغ من شدة تنافسهم وهوسهم في التبرع ما أربى على الجنون ، بحيث اضطر مجلس الشيوخ ، في عهد الامبراطور مارك اوريل ، الى إصدار قرار نظم فيه أصول هذه المصارعة وضبط أساليبها ضبطاً محكماً جعل من اللازم اخذ نصف المتصارعين في اليوم الواحد من الفئة الأرخص والأقل كلفة . وكان المصارع الواحد من هذه الفئة يؤجر نفسه بمبلغ ١٥٠٠ سسترس . ونرى في غرة القرن الثالث ، عيناً من اعيان الغالين أصله من مدينة فيدوكاس (بالقرب من مدينة كان في نورمنديا) ، ترقى فيما بعد ، الى رئاسة الكهان في منطقة ليون ، يحافظ على أحكام هذا القرار ومنطوقه ، عندما يتعهد بتقديم ٣٢ زوجاً من المصارعين ، كل يوم ، ولمدة أربعة ايام فقط ، بأجر بلغ ٣٢٢٠٠٠ سسترس . وهكذا نرى كيف ان مبالغ طائلة هدرت هدرأ في سبيل ترهات ومجد باطل ، كان بالإمكان استخدامها في وجوه أكثر نفعاً ، وأبقى للمصلحة العامة من هذه السخافات والاستباحات التي لا طائل تحتها .

هذا الدور الذي لعبته الطبقة البورجوازية في البلديات ، لم يقتصر على المدن وحواضر البلاد الكبرى . فقد وجد فيها الأباطرة الرومانيون المعين الاكبر الذي أمدتهم بالعناصر الطبية التي ألتقوا منها طبقة الأشراف في الدولة . وكان من جراء هذا التغيير ، ومن طبيعة الحياة الاجتماعية التي طبعت نهج العيش في المدن ، ان جعل الامبراطورية الرومانية أكثر تجانساً وأشد صلابة . فعندما أنشأ اوغسطس نظامه الجديد ، تألفت الطبقة المشيخية ، في سوادها الأكبر ، من

الطبقات الممتازة :
احتياجاتها والملع الامبراطوري

أشراف روما وسرايتها ، بينما تألفت طبقة الشفاليه ، على عكس ذلك ، تماماً من أعضاء جرى اختيارهم واصطفاهم من بين الطبقة البورجوازية في المدن الإيطالية ، ولعبت الوراثة دورها في كل من هاتين الطبقتين ، إلا ان دوافع عديدة متباينة حلت الأباطرة على توسيع النطاق الجغرافي في تشكيل هاتين الطبقتين . من ذلك مثلاً ، حاجتهم المحافظة على العدد المعين أو المحدد لكل منها . فإذا كان عدد أعضاء الشيوخ ٦٠٠ عضواً كما كان في عهد سيلا ، فرضت ظروف وصروف لا يمكن التحكم بها ، على الأباطرة ان يعينوا عدداً لا يحصى من الشفاليه الجدد ، سداً منهم لحاجة الإدارة ، وإملاءً للمناصب والمراكز المختلفة التي أنشأتها الدولة تبعاً . ولعل أهم هذه العوامل كلها : الضمور والانحلال الذي اعتري تدريجياً الأمر الممتازة القديمة .

فالمؤامرات والهول الذي كان يزرعه الأباطرة في قلوب الناس ، للقضاء عليها ، حلمهم في القرن الاول ، على التخلص ، دونما شفقة أو رحمة ، ودفعة واحدة ، بعدد كبير من صفوف أعضاء مجلس الشيوخ . فجرد حوم الشبهة أو اخذ البعض بالظن في محاولة اعتداء على صاحب الجلالة ، كان كافياً وحده ، لحلمهم على الانتحار ، امتثالاً منهم للقدر القاسم ، وغيره منهم على شرف الرتبة بشكل يحرك مشاعر النفس ويثيرها . فليس من عجب ان يسيطر الملح على أعضاء مجلس الشيوخ خلال ملك طيباريوس ونيرون ودومتيانوس ، ويدفع بالكثيرين الى الانتحار تخلصاً مما يحوم حولهم من شبهات . وعندما خفّت خدة هذا الخوف وخفّت وطأة هذا الملح ، نوعاً ما ، في عهد نيرفا وترايانوس ، راح الناس يسلقون هذه العهود ، بالسنة حداد مستمرين عليها وعلى أصحابها اللعنات . فإذا ما كانت الأسرة الانطونية ، في مجموعها — باستثناء الامبراطور هدريانوس الذي لم يتردد بانتهاج سياسة البطش — عرفت ان تضع حداً لهذا العهد المرعب ، فمرد هذا يعود بالأحرى ، للحلم الذي اتصف به افراد هذه الأسرة الحاكمة ، بل لهذه الروح الجديدة التي تجلت بين صفوف المنظمة المشيخية بعد ان جددت شبابها ونفضت عنها ما تراكم عليها من غبار الماضي ، وقطع أعضاؤها كل صلة لهم بالدس والتآمر . وهكذا قطفت الأسرة الانطونية ثمار سياسة الضغط والشدة التي انتهجها أسلافها من قبل .

والثراء وقلة الإنجاب وعملية الفتك ، بالجملة ، بالعديد من أعضاء الطبقة المشيخية ، لم تكن بالطبع ، لتقضي وحدها عليها بالفناء والحق ، كما ان هذه الأحكام بالاعدام لم تكن لتلحق الأذى المادي في أبناء المحكومين ، هذا اذا ما سلمنا بوجود اولاد لهم . والمفجع في الأمر ، هو ان معظمهم لم يكن لهم اولاد . ومما زاد الطين بلة والأمر حرجاً هو ان طبقة الشفاليه لم تصب ، على الاجمال ، بسوء في عهد الارهاب والملح الذي سيطر على أعضاء مجلس الشيوخ ، لأن خطرهم كان دون خطر أولئك ، على الأباطرة . وكانوا ، على الغالب ، يموتون دون ان يعقبوا اولاداً . وقد لفتت ظاهرة الاضمحلال التي اعترت الطبقات الاجتماعية العليا ، نظر المؤرخ الروماني بوليب ، فسماها *Oliganthropia* ، وعرض للكتابة عن هذه الظاهرة في معرض حديثه عن المجتمعات اليونانية في العهد الهليني . وعندما راح يُحلل اسباب هذه الظاهرة ، ويُعلل الدوافع

التي أدت إليها، وقف في تحليلها عند الأسباب الخلقية والأدبية دون سواها ، بعد أن تدهورت الاخلاق العامة بين أبناء الطبقات الممتازة في روما ، خلال العهد الامبراطوري ، واتخذ هذا التدهور صوراً وأشكالاً من الفساد والشر. وقد تجاوز بوضوح عن ذكر أسباب أخرى ، محافظة منه ، ولا شك في ذلك ، على الاخلاق العامة ، مع ما استرسل اليه من اللوم ، والشجب والانتقاد ، ولو تعرض هو نفسه لتهمة الموعظة والارشاد .

كان المجتمع الروماني العالي يفتن بالغنى ويرفل بالثراء . فقد بلغت اكبر ثروة بلغنا خبرها ، اذ ذاك ، ٤٠٠ مليون سسترس ، ملك احداها معتوق يدعى نرسيس ، من توابع الامبراطور . اما الثانية ، فخصت احد اعضاء مجلس الشيوخ ، في عهد اوغسطس . فلاعجب اذا ما راح بلين الاصغر يشكو امام مشاهدته هذه الثروات الهائلة ، زمانه وقسوة حظه ، ويقابلها بامكاناته المتواضعة ، مع العلم انه خلف ، وراه ، كما تنص عليه وصيته الأخيرة ، وفقاً لمنطوق احدي النقائش التي وصلت الينا ، ٢٠ مليون سسترس لا غير . وقد رأى بالطبع ، مجتمع على مثل هذا الغنى ، ان يستمتع بالحياة ، على ما يرغب فيه ويشتهي . فقد شهد القرن الاول للامبراطورية بذخاً لم يعرفه العالم مثله من قبل ، كما انه بلغ حداً من الترف لا مزيد عليه ، والكل يحاول ان يبرز غيره في لذائذه ، ويتفنن بالاستمتاع بها حتى الخروج على المألوف ، وذلك ببذخ واملاق تجلى في كل مظاهر الحياة المادية : في هذه القصور الشاهقة ، وهذا الجيش اللجب من العبيد والارقاء ، وهذا الاثاث والرياش والملابس الفخمة والحلى والجوهرات ، والولائم المترفة ، وانواع اللذائذ على اختلاف طوعها والوانها . من السهل ان نورد على هذا ألف شاهد وشاهد ، هي من الواقع بحيث تبدو صعبة التصديق ثبعت الشك في النفوس لشدة غرابتها لولا اتفاقها مع النصوص الأدبية والتاريخية التي خلفها لنا الأقدمون فتجعلها فوق شبهة ومظنة . وهذه الشواهد التاريخية ، على صحتها ، هي من الكثرة والتوفر اوردها كتاب وشعراء أقدمون ، بحيث لا خوف قط من ان يعوزنا الدليل . وبالرغم من الأمثلة الكثيرة التي جمعها المؤرخ الألماني لودفيغ فريدلاندر ، في كتابه الضخم الموسوم : « تاريخ الآداب والأخلاق في روما قديماً »^(١) لا يزال هنالك مجال واسع لاضافات كثيرة من النقل والمأثورات . ومهما تكن الصورة التي تطبعها في النفس قراءة هذه الوقائع التاريخية التي أخرجت للناس حديثاً ، أفلاماً سينمائية تضوّل كثيراً أمام ما نقرؤه عنها في آثار كتبة الرومان ، أمثال بترون Petrone و مرسيال وجوفنال ، فهي تبقى دون الحقيقة بكثير .

ومهما بلغ من زهو هذه الحياة التي عاشها اغنياء الرومان ، والبذخ الذي تجلّى في مآذهم ، والتفنن الذي بلغوا فيه القدح الملعنى في ولائهم ، بحيث انهم فاقوا كل ما عُرف من أمثاله في التاريخ القديم ، فالذي يهنا هنا ، من هذا كله ، هي النتائج الديموغرافية التي ادى اليه هذا المسلك . ففي روما ، كما في اليونان قديماً ، لم يكن الاب الذي يستطيع ان يورث أولاده ثروة بعد موته

يطرحهم في الشارع . غير ان الانصراف للحياة الحرة ، الطليقة ، المترفة ، جعل كثيرين من الشباب ، يفضلون البقاء عازبين حتى اذا ما تزوجوا في ما بعد ، لم يعقبوا ، هذا ان لم يتعرض زواجهم للطلاق ، وان أنجبوا ، فبعدد قليل وتعرض اولادهم للوفاة . وهذا النقص الفاضح في المواليد جاء يُتم ، من جهته ، عمل الفتك والتقتيل بالجملة ، الذي امتاز به عهد بعض الاباطرة .

فشل قوانين محاربة البذخ
والتشريعات الديموقراطية
محتزوا الداء من الاساس . واقتداء بالقوانين التي سبق لقيصر ان سنّها
من قبل ضد بطر البذخ والاسراف والاملاق ، راح ابنه اوغسطس

يشترع بدوره قوانين بهذا الصدد للحد من موجة الانفاق باملاق وأسراف جنونيين . فحدد بـ ٢٠٠ سترس لليوم نفقة الأيام العادية ، و ٣٠٠ سترس لأيام الأعياد ، و ١٠٠٠ سترس ليوم الزفاف وللتالي بعده . ثم أصدر قانوناً جديداً ، لم يكن له اثر اكبر من غيره ، نظم فيه كيفية مراقبة المشتريات بصورة عملية . وقد رفض الامبراطور طيباريوس ، بما عرف عنه من سلامة المنطق ، الاستمرار في تطبيق هذه القوانين ، معلناً بان الاسراف على شؤون التغذية ليس سوى وجه من وجوه الاملاق والبذخ ، متسائلاً : « كيف نبتدىء الاصلاح وما الذي يجب تخفيضه ، في الدرجة الاولى ، للرجوع بالاخلاق الى البساطة الاولى ؟ هل نبتدىء بتخفيض مساحة البيوت التي نشيدها في الأرياف ؟ او هل نخفض هذه الجيوش الجرارة من العبيد والارقاء ؟ او هذه المبالغ الضخمة من القضة والذهب ؟ او بالاحرى هذه الاواني المنزلية البديعة الصنع ، من البرونز ، أو هذه الرسوم التي يعتني الرسام نفسه برسمها بصبر جميل ؟ أو هذه الثياب الفخمة الفاخرة ، أو هذه المقادير من الحجارة الكريمة والمجوهرات ؟ هذه القوانين التي سنّها السلف ، وغيرها مما استنّه اوغسطس وعفي العمل به او ما هو ادعى للخجل ، مما ألغى احتقاراً للقانون ودوساً له . كل هذه القوانين والتشريعات ، ألم تشجع على الإثم وتدعو للشر ، .

ومضى الامبراطور اوغسطس في سن القوانين الرادعة وتحسينها ، للحد من اسراف الطبقات الثرية ، ولحلها على الإكثار من الولد والبتين . وقد أوصت هذه التشريعات على املاء مناصب البروقنصل من بين اعضاء الشيوخ الذين لهم أولاد ، كما انها تصعبت في قضايا الطلاق . وفي مصلحة أرباب الاسر ، ولانميا الاسر التي تضم ثلاثة أولاد واكثر ، راحت تفرض رسوماً على العازبين وتحول دون ان يتناولوا من إرث يأتهم من ثالث او من نسيب بعيد القربي ، اكثراً من مبلغ معين . وهذه القوانين التي كان من الصعب فرضها على الناس وتطبيقها ، ازعجت الى حد بعيد الطبقة الاجتماعية الراقية ، حيث كانت عادة التوصية بالارث تتبع بسخاء منذ عهد بعيد . ولكي يحولوا دون تطبيق هذا القانون راحوا يعقدون خطوباتهم مع بنات صغار ثم يلغونها بعد قليل ليعقدوا غيرها ، الامر الذي كان يستدعي إيقاف مفعول القانون . وكثيراً ما كانوا يرمون عقود تبنتي مزيفة . غير ان اكثر الوسائل استعمالاً اسهلها على الاطلاق : فقد اعطى اوغسطس نفسه المثل على ذلك ، اذ انه اعترف لزوجته ليفيا التي لم يكن لها غير ولدين ، بذات الحقوق

المستحقة لزوجة لها « ثلاثة اولاد » . وقد احتذى كثيرون من الاباطرة ، فيما بعد حذوه ، الى حد اساءة الاستعمال والتجاوز المفرط ، الامر الذي حدا بالامبراطور تراجانوس لان يُعين حداً اعلى للمنتعين بهذا التحيل على القانون . ولكن كيف يستطيع اباطرة عرفوا بقلّة الولد ، ان يصمدوا ولا يلبثوا امام اولادهم ، هذا ان كان لهم اولاد ؟ وعلى عكس القوانين الخاصة بكافة البذخ ، استمر العمل جارياً بالقوانين الديموغرافية ، اذ ان في المحافظة عليها مصلحة لصندوق الدولة التي كانت تضع يدها على الموارث الواهية او المشكوك بها . ومع ذلك ، بقيت عاجزة عن معالجة الوضع .

وهكذا لم تلبث الدولة ان وجدت نفسها امام عجز فاضح ، ألحق الاستعانة بالنخبة في الولايات الضرر بمصالح الحكومة وبالإدارة على السواء . صحيح ان الطبقة الاجتماعية الوسطى في ايطاليا عوضت بعض الشيء ، إلا انها لم تكن تتجدد بالسرعة اللازمة بعد ان اخذت البلاد تشكو من تأخر الوضع الاقتصادي ومن هبوطه . فلم يكن بد ، والحالة هذه ، امام الدولة ، من اللجوء الى النخبة في الولايات والاستعانة بها ، وفيها معين لا ينضب ولا يحف من المادة البشرية ، بعد ان كانت هذه الولايات اخذت بأسباب الحضارة الرومانية واقبلت عليها تستمرها . وساعد الازدهار الذي نعت به أمر عديدة ، على بلوغ هذا الوضع الاجتماعي . وجاء هذا التدبير قتمة او بالأحرى ، نتيجة لانتشار حق الرعية الرومانية للمدن ، لما بين هذين الاتجاهين من ترابط وثيق . فقد سبق للجمهورية ان أعطت المثل الاول ، وذلك بتعميم هذا الحق تدريجياً على كل المدن الايطالية والشروع بإيلائه للمدن القائمة في اقدم الولايات الرومانية ، في الخارج . غير ان الدولة سارت في هذا بتمهل كلي ، كما برهنت من جهة أخرى عن إمساك مفرط في كل ما يتصل بالوظائف الكبرى ، اذ ان الارستوقراطية الايطالية استطاعت وحدها ، ان تبلغ مرتبة الشيوخ بعد ان امتزجت بالارستوقراطية الرومانية وانصهرت بها . وكان لا بد من حدوث الحرب الأهلية وما جرته معها من اضطرابات وويلات ، كما كان لا بد من ظهور دكتاتورية قيصر ، بالتالي ، لتشهد وصول سكان الولايات الى مجلس الندوة الروماني ، اذ نرى ، عام ٤٠ ق. م ، اسبانياً يُعيّن قنصلاً ، كما رأينا ، سنة ٣٥ رجلاً غالباً من ولاية تاربون ، يعين هو الآخر ، في مثل هذه الوظيفة . إلا ان هذه السياسة الجديدة لم يتسع الاخذ بها إلا في ظل العهد الامبراطوري .

وهذه السياسة الجديدة ، حريّ بنا ان نقف عندها ونتملّ فيها النظر ، اذ كان عليها ان تتغلب على عاطفة النفور ، وأحياناً على المعارضة المكشوفة ، ان لم يكن من قبل الطبقتين الممتازين ، فأقله من الطبقة العليا . ففي عام ٤٨ ، وقف مجلس الشيوخ موقفاً عدائياً صريحاً من التماس رفعه وجوه « غالباً » وأعيانها ، بعد ان تم تدوينها على يد قيصر ، رجوا فيه إعطائهم حق الوصول الى الوظائف الرومانية العليا ، أي الى مجلس الشيوخ ، بعد ان نالوا حق الرعية الرومانية ونعموا بتوليته من امتيازات لحاملي هذا الحق . فاضطر الامبراطور كلوديوس نفسه للتدخل في الأمر ،

في خطاب ألقاه بهذا الصدد، عُثِر على موجز له في مدينة ليون، مكتوباً على لوحة من البرونز. وبالرغم من تحمسه للقضية، والحرارة التي أبدتها في تأييده هذا الطلب، فلم يستجب مجلس الشيوخ لهذا الالتماس إلا تدريجياً، وعلى مراحل، مبتدئاً من شعب الأدورين (أوتون اليوم) بوصفهم أقدم حلفاء روما في غاليا قديماً، ثم جاء تباعاً دور الولايات الأخرى. فولايات أفريقيا لم يطلع منها قنصل قبل عهد الأسرة الفلافية، والشرق الأغرقي، بعد ذلك بكثير. ثم قوي التيار وأصبح لا يقاوم. وعندما انقرضت الأسرة الانطونية كانت مصر وحدها، بين الولايات الرومانية الكبرى، الولاية التي لم تُطلع قنصلاً رومانياً بعد. وسيصبح لها واحد في عهد أسرة سفيروس *Sévères*.

ولم يستفد من هذه السياسة، حتى عهد الأسرة الفلافية، سوى الطبقة الأرستوقراطية العليا التي حازت، بما تم لها من غنى وثناء، الطبقة الأرستوقراطية الرومانية، إذ كان بإمكانها أن تقتني لها، أملاكاً طائلة في إيطاليا وأن تستوطن روما مع احتفاظها بمصالح واسعة لها في منشئها الأم، أي في الولايات التي انطلقت منها. إلا أن ما كانت عليه من قلة العدد أجبر السلطة على توسيع طريقة انتقاها العدد اللازم لها، وذلك على أساس النظام الاجتماعي دون الاقتصاد على النطاق الجغرافي وحده. وقد باشر السياسة الجديدة الإمبراطور فسبسيانوس الذي خرج، هو نفسه، من الطبقة البورجوازية الصغرى. فقد كان، قبل ارتقائه العرش الإمبراطوري، الأول في مجلس الشيوخ كما كان أبوه، الشفاليه الأول من بين أسرته. وبعد أن تسلم مقاليد السلطة العليا، إثر أزمة ٦٨/٦٩، لم يتردد قط أن أدخل، إلى عضوية الشيوخ، عدداً من الشفاليه من أصل إيطالي أو اختارهم من بين الولايات الأخرى. وسار خلفاؤه من بعده على شاكلته، بحيث أن الطبقة المشيخية عدت بين صفوفها، أعضاء خرجوا من بين الطبقة الوسطى، ازداد عددهم مع الزمن.

أما طبقة الشفاليه، فلم يكثرث الإمبراطور يوماً بأي اعتراض أو مقاومة من قبل مجلس الشيوخ مما لم يضطره يوماً للدخول معهم في مساومات، إذ أنه كان السيد المطلق، والمشرف الأواحد على تعيين أعضاء هذه الطبقة، يختارهم ويصطفهم كيفما شاء. وكان يكفيه أن يكون المرشح حاملاً الجنسية، مسجلاً في دائرة الإحصاء والنفوس، معروفاً بولائه للإمبراطور الذي لم يكن غير الولاء للدولة، له الحد الأدنى من الخبرة، وعلى استعداد لاكتسابها. وعندما أطلت هذه البورجوازية في الغرب راح الإمبراطور يستفيد منها. ولكي يستفيد منها في الشرق حيث كانت طلعت وبرزت منذ عهد بعيد، ترتب عليه أن يتقلب على بعض الصعوبات منها حتى حنق الشرق على الغرب اللاتيني، كما أن الأخذ بأسباب الحضارة الرومانية كان شرطاً لا بد منه في المرشح المتبدي. ولكن هذه المحاذير لم تلبث أن فقدت شيئاً فشيئاً من حدتها، ابتداء من عهد هدريانوس. فبعد أن كانت الولايات الغربية تقدم لهذه الطبقة، عدداً أكبر من العدد الذي كانت تقدمه الولايات اليونانية في الشرق، فقد خف هذا التفاوت كثيراً وأصبحت منظمة

الشفاليه ، من حيث تشكيلها ، تعبيراً صحيحاً لوحدة الامبراطورية .

لما راح الامبراطور يُرقي الى عضوية مجلس الشيوخ من يرغب بتكريمه
وترفيعه من اعضاء منظمة الشفاليه الذين لا يرغب في الاحتفاظ بهم للتسلم
بالمنظمة المشيخية
الوظائف والنيابات الكبرى ، كانت المنظمة المشيخية قد لحق بها ، منذ
القرن الثاني ، تغييرات جذرية من نتائجها المباشرة ، هذا الشعور العام الذي بدا على الجميع ،
بالتوازن والاعتدال والجدية وغير ذلك من المناقب التي ميزت « عصر الاسرة الانطونية » .

فالأمر التي برزت في العهد الجمهوري قد انقرضت وغربت أسماؤها عن جو مجلس الشيوخ .
فاذا ما عثرت واستمرت - وهذا أمر نادر للغاية - فبتدبير مصطنع أي عن طريق التبنّي . ولذا
ألّف الأعضاء الذين جرى انتقاؤهم من الولايات ، أكثرية ساحقة في المجلس المذكور . فقد طلّعوا ،
على العموم ، من أسر برهنت ، على مر الزمن ، عن كفاءتها وتوصلت تدريجياً ، الى مصفّ
الأشراف والنبلاء ، غلاباً وجهاً ، بعد ان أُدخِل على الادارة دم جديد من الموظفين المؤهلين ،
تم لهم ، مع الزمن ، خبرة واسعة في الأمور الادارية والعسكرية . وهكذا قيّض لهذه الطبقة
ان تقدم للامبراطور مساعدين أكفاء يعتمد عليهم في تصريف الأمور وقدير شؤون الامبراطورية .
ولما كان الامبراطور يتخرج من مجلس كثير الاعضاء ، نزاع للمناقشات والمجادلات التي لا طائل
تحتمها ، فقد آثر ان يكون تعاونه مع قلة منتقاة من بين أعضائه ، يختار من بينهم الموظفين الذين
يرى نفسه بحاجة الى خدماتهم . وعلى هذا ، نما في هذا الفريق ، الحس بالمصلحة العامة ، والوعي
الوطني أكثر من ذي قبل ، وأدركوا ان الامبراطورية هي غير روما ، وانها تشرّع وتعمل
للملايين من البشر موزعين بين ولاياتها .

وقد تبدلت اخلاقهم وعاداتهم . فكان اعضاء المجلس على جانب من الثراء ، انما اقل ثراء
من اسلافهم في المجلس . وقد جمع معظمهم ما تم لهم من ثروة ، من مصادر لا تمت بأي سبب
للمضاربات وأعمال الابتزاز والاعتصار او النهب ، بعد طول عناية وجهد موصول ، استمرت
عليه اجيالاً متطاولة . ولذا كانوا يستعملون هذه الثروة بفطنة وحكمة وتحفظ . فبلين الاصغر
الذي كان يملك في عهد تريانوس ، الى جانب صرحين له في مقاطعة كوم الواقعة الى شمالي ايطاليا ،
حيث مهبط رأسه ، يسمى الاول تراجيديا ، والثاني كوميديا ، امتلك ايضاً صرحين آخرين ،
في ايطاليا الوسطى ، هما : صرح لورانتس بالقرب من مدينة اوستي ، وصرح توتشي ، عند
منحدر جبال الابنين ، كان يُمثل طبقة في سبيلها الى الانقراض والزوال . ونهج الحياة الذي سار
عليه اعضاء مجلس الشيوخ ، اذ ذاك في روما ، كان اقل زهواً وفخخة مما مضى ، لأن معظم
اعضاء المجلس كانوا يقتنون لهم اقطاناً واسعة في المدن التي تعتبر محتداً لاسرتهم . فكان عليهم ،
والحالة هذه ، ان يحتفظوا بمجد أدنى من المبلغ المخصص لعاصمتهم ، يستثمرونه في شراء عقارات
تقع في ايطاليا . وهذا الحد الأدنى قدنى وتناقص هو الآخر . فبعد ان كان الثلث ، في عهد
تريانوس ، اصبح الربع في عهد مبارك اوريل . فلم يبق لهم من اثر ظاهر على محيطهم إلا عندما

يقتنون ، ولأمد قصير ، في إحدى فيلاتهم المحببة القائمة وسط أملاكهم الواسعة في الولاية . وهذه البقية الباقية من النفوذ في محيطهم الزيفي ، يجب رده الى عوامل ادبية : فقد كان وليد إعجاب سكان المنطقة بالنجاح الذي حققه العضو الجديد من أعضاء المجلس ، وبالنفوذ او الخطوة التي كانت له عند أولي الامر في العاصمة .

بقي مع ذلك شيء هنالك : بالرغم من هذا التغيير الجذري ، وهذا الضمور الذي يلاحظ على هذه النخبة الاجتماعية ، وعلى الرغم من انقضاء عهد الدسائس والمؤامرات والاعتقالات وإحكام الاعدام بالجملة ، فلم تكن أية أسرة مشيخة لتعمر أكثر من جيلين او ثلاثة اجيال ، اذ تكون جفت فيها وماتت هذه الحيوية المجاهدة التي برهنت عنها الاسرة قبل تحقيقها ما حققته من اهداف ، وما استشرفت اليه من مآت واجداد . وذلك على اثر انغماسها بموجة الترف والبلذخ التي اجتاحت روما واغرقتها في لججها .

وهكذا فالسير الاجتماعي صُعُداً لم يكن ليقف او لينقطع . وهذا المد الارتقاء الاجتماعي التطوري ، بما بلغه من اتساع ومع ما كان عليه من استمرار نظم ، يؤلف إحدى المميزات التي اتصفت بها مدينة الامبراطورية الرومانية في هذه الحقبة المتأخرة من تطورها ، وفردتها عن المدن الأخرى التي تقدمتها .

ويحسن بنا مع ذلك ، ألا نجعل الحدود الجغرافية لهذا التطور وعدم تساوي الفرص التي وفرتها هذه المدينة ، للولايات التي تألفت منها الامبراطورية الرومانية . فقد كان من المسلّم به اساساً ، ان باستطاعة المتمدّم من الناس ان يتمكن من تكوين رأس مال له يكون ، على وضاعته ، نقطة انطلاق الأسرة في جهادها نحو الرقي والتطور ، يعمل اولاده من بعده ، على استثماره وإغناؤه . ولم نكن لنشاهد في ايطاليا أي مصير من هذا النوع ، بالنظر لما كانت عليه من تأخر وانحطاط في اقتصادياتها ، ولا في مصر ايضاً (بالنسبة لما كانت تزخر تحته اليد العاملة فيها من كابوس مرهق) . كذلك كانت ضعيفة ايضاً امكانيات الصعود الاجتماعي امام سكان الأرياف ، وفي الولايات ، إلا من جاشت نفوسهم بالطموح من أبناء الشعب ، فيُقدّمون ، وهذا أيسر السبل ، على الانخراط في خدمة الجيش ، فيقطعون مراحل الترقى على مهل ، فتنتفتح امام صاحبنا ، عندما يرقى الى رتبة قائد مائة ، ابواب طبقة الشفاليه . فسكان مدن الولايات أتيحت لهم الافادة من مثل هذا الوضع عن طريق تدرجهم من مهنة يدوية الى طبقة البورجوازية البلدية ، ومنها يتدرجون الهويناء ، الى ابواب منظمة الشفاليه ، ليصلوا منها الى ابواب المنظمة المشيخية . وهذا الصعود كان يقتضي له عدة اجيال . فقد عرف المهد الامبراطوري ان ينظم هذه الترفيعات في محاولته تجديد طبقة الاشراف ، هذه الطبقة الآخذة بالانقراض والزوال ، مها كان من الأمر . دون ان يحدث انقلاباً جذرياً في السلم الاجتماعي ، اذ عرف ان يحافظ على هذه المراحل ، تأميك عن ان تنظم الحياة الاقتصادية ، اذ ذاك ، لم يكن ليساعد كثيراً على بروز أغنياء جدد . كل هذا يقتضي له جهوداً موصولة واخذ النفس باقتصاد صارم ، وحساً مرهفاً يعرف معه صاحبه كيف

يحافظ على التوازن بين الاقتصاد النظيم والبذل الحكيم في المناسبات العارضة . كل ذلك ، الى شيء من تفتح العقل والذهن ، ومسحة من الثقافة المتوسطة ، والتمرس بوظيفة ادارية . كذلك اقتضى الأمر الاعتصام بشيء من التقاليد والاعراف المتبعة في القطاعين الاجتماعي والسياسي ، اذ ان بطء الارتقاء كان يساعد على التكيف واكتساب الخبرات . وكان على المعني بالامر ان لا يظهر ، في أية مرتبة بلغها ، انه من حديثي النعمة ، كما كانت عليه ان يحترز من إثارة الشكوك بحول ولائه للدولة .

وهذه الطريقة التي قامت على الاختبار والتي اكتملت بفضل التجارب التي مرت بها عبر الأجيال ، وفقاً لمقتضيات الظروف خلال القرن الأول ، سارت سيرها النظيم خلال القرن الثاني . فقد أمدت العهد الامبراطوري بهيكل اداري شغله أكفاء الموظفين ، كان خير ما عرفه التاريخ القديم من امثال هذه الملاكات ، وكان له فضل عيم في تأمين هذا التجانس الذي ، وان لم يبلغ تمامه ، فقد فاق ، مع ذلك ، ما عرفت من أمثاله ، اكبر دولة قامت في التاريخ الى ذلك العهد . ومن بين الاشكال التي تبلورت عنها ، فكانت قواماً لها ، كما كانت تعبيراً صادقاً عنها ، بعد ان ربطت بينها مثل المدينة الواحدة التي كانت امتداداً لها ، هذه الوحدة العميقة الجذور ، الممثلة في هذه الطبقة النبيلة التي تتألف من كبار موظفي الدولة ، الذين جيء بهم من ولايات متباعدة ألقوا معاً طبقة واحدة تمرست بهذه المناقلات التي خضعت لها وفقاً لمقتضيات الوظيفة . فالفرق بين اصل الاباطرة الرومانيين الطبقي ، سواء اطلعوا من هذه الارستوقراطية الرومانية القديمة ، كالاسرة اليوليو - كلودية ، او من طبقة البورجوازية الايطالية المتواضعة ، كالاسرة الفلافية ، او جاءت من بين هذه النخبة التي أطلعتها الولايات الرومانية القديمة كاسبانيا او مقاطعة نابون الغالية ، كالاسرة الانطونية ، لا تبرز على نصاعتها إلا متى وضعناها جنباً الى جنب مع هذه الحقيقة . فنظر هذه الطبقات الموجهة ، كانت الامبراطورية الرومانية تؤلف امّة .

غير ان حسن سير النظام الامبراطوري كان يستدعي استمرار الازدهار الاقتصادي ، مصدر كل ثروة واساس كل ارتقاء اجتماعي وكل حركة تقدمية . كذلك كان يستدعي طاعة الطبقات الاجتماعية الدنيا ، واقبالها على هذه النظم تستمرها وتمثلها .

٣ - الطبقات الاجتماعية الدنيا

والحال ، كان هذا الازدهار سريع العطب ، والطبقات الدنيا تتألم وتتضور . فغنى الطبقات الثرية يقوم على عمل ذوي الحرمان الذين لا حصر لهم ولا حد .

عرف الشرق ان يحافظ على هذه المشاغل والورش المهنية التي كانت تقوم في ظلال اليد العاملة الهياكل والمعابد ، وعلى من فيها من أيدي عاملة كادحة ، شبه مستعبدة . وعلى هذا سارت المدن فاجتفظت بدورها ، بالمشاغل الصناعية وأصحاب الحرف . ومعلوماتنا حول وضع هؤلاء العمال ، قليلة ، مُصرّدة ، لا تقي بالغرض . إلا أنه ، على الاجمال ، وضع لا يوحي بالرضى

ولا بالارتياح ، اذا ما اخذنا ببعض الظواهر العارضة . قد تكون المثل اليونانية القديمة التي اعتمدت بها النفوس فبعثت روح الثورة الاجتماعية ، بقيت تعمل في الازدهار وتختمر بها الارواح ، اذا ما كادت روما تبسط ، منذ عام ١٣٣ ق . م سيطرتها على اقطار آسيا الصغرى الغربية ، وترسخ نفوذها فيها ، حتى اضطرت لمواجهة ثورة هبت في وجهها بقيادة أرسطونيكوس قوامها هذه الطبقات الاجتماعية الدنيا في مملكة أقال القديمة . وبما لا ريب فيه قط ان مواسم القحط وارتفاع اسعار الحبوب ، في اواخر القرن الاول ، فعلت فعلتها في النفوس ، بالرغم من محاولات الحكام الاداريين للتخفيف من حدتها . فقامت في اواخر القرن الاول ، في هذه الاقطار الآسيوية إعتصابات أثارت شكوك الامبراطور ترايانوس وأهاجت حفيظته ضد الشعب في مدن مقاطعة بيشينيا *Bithynie* ، كما يبدو من مطالعة الرسائل المتبادلة بينه وبين صديقه بلين الاصغر ، حاكم تلك المقاطعة وممثل الامبراطور فيها .

وكان الأمر يتعلق ، في الدرجة الأولى ، بهذه النقابات المهنية المعروفة عندهم بـ « كوليج *Collèges* » ، وهي في الأساس هيئات دينية الهدف ، جنازية . تألفت ، على الغالب ، من رفاق متواضعي الحال ، يتناهدون فيما بينهم بدفع رسوم معينة ، للاحتفال بمراسم بعض العبادات وتأمين جنازات محترمة لذويهم ، يدخل عضويتها ، بصورة طبيعية ، أصحاب المهنة أو الحرفة الواحدة ، بدافع من شعور التضامن والتكافل ، الذي يشدهم بعضاً الى بعض . وقد قام مثل هذه الهيئات أو النقابات في الشرق قديماً ، قبيل الفتح الروماني ، ونشأت مثيلات لها في روما ، خلال العهد الجمهوري ، وفي غيرها من حواضر البلاد الإيطالية . ولما كانت هذه الحركة النقابية أخذت تلعب دوراً شبيهاً بدور النوادي ، وأخذ اعضاؤها يشاركون بالمظاهرات السياسية ، راحت الامبراطورية ، في مطلع عهدها توجس شراً منها ، وتنظر اليها بالتالي شذراً ، ولذا اشترطت عليها ان تأخذ علماً وخبراً بتأسيسها ، ووضعت لنشاطها حدوداً وسدوداً ، عرفت الشرطة البلدية ان تلتزمها بها فلا تتعداها . ولما تغير موقف السلطة من هذه الهيئات بعد ان أولتها رضاها في القرن الثاني ، أطلقت لها حرية العمل والاجتماع ، واعترفت بها رسمياً من الوجهتين القانونية والمالية . ومرد هذا التحول في موقف الحكومة من هذه الحركة النقابية ، انتشار الروح الانسانية والمبادئ التي تقول بها ، كما ان اعتبارات اقتصادية لعبت ، هي الأخرى ، دوراً فعالاً في هذا التطور ، إذ راح أولو الأمر ، يتوقعون من هذه النقابة بعض الخدمات والقيام بدور حساس في تطوير الطبقات الدنيا من الوجهة الاجتماعية .

أما في الغرب ، فقد اخذ عقد هذه النقابات ينتظم مع مطلع العهد الامبراطوري ، فساعدت بها لها من نصراء برعونها ، ومن مجالس ادارية تنتظم سلكها ، ومن أعياد تقيمها في بعض المواسم الخاصة ، في طلوع البورجوازية البلدية ، وتلقيح هذه الطبقة والمناطق الريفية بدم جديد . فاليد العاملة في المدن ، لم تكن أخذت تشكل بعد ، مشكلة اجتماعية في هذه المناطق ، وذلك نظراً لما كانت عليه التجارة والحرف المهنية والصناعية من ازدهار ، اذ كان كل شيء يتوقف على

استمرار مثل هذا الازدهار، واستبدال الشغيلة أو اليد العاملة التي لم تلبث ان برز شأنها في المجتمع.

أما وضع اليد العاملة في الريف فجاء على شكل آخر. فالملكية العقارية اليد العاملة في الريف الواسعة كانت دوماً آخذةً بالنمو والازدياد. وهنا تبرز لنا الكلمة المأثورة التي جاءت على لسان بلين الأصغر، إذ قال: « كبار الملاكين، هم الذين جلبوا الدمار لإيطاليا »، وهي عبارة يحسن تكلتها بالفقرة التالية: « وكذلك قل عن الولايات أيضاً، إذ ان ستة لا غير من كبار الملاكين، كانوا يملكون نصف افريقيا (أي تونس اليوم)، عندما حكم عليهم الامبراطور نيرون بالموت. أي ان نيرون صادر أملاكهم وضبطها »، غير ان طريقة استثمار هذه الأملاك الواسعة لم تتبدل، سواء أخضعت للامبراطور أو كانت ملكاً للخاصة. والطريقة التي انتهجها نيرون في توزيع هذه الأراضي على الفلاحين، قطعاً صغيرة بعد ان تم مسحها على أيدي مهندسين مساحين، جيء بهم من المدن، لم تخفف من تضخم هذه الملكية. فأينما استمر الاختناك هذه الطريقة، كان استثمار الأراضي الصغيرة على أيدي اصحابها أخذاً بالتدهور، قبيل طلوع النظام الامبراطوري، على البلاد.

واستثمار الأراضي بكاملها على يد فريق دائم من الارقاء يضاف اليهم عدد آخر من الاجراء عند تمام المواسم ونضجها، يعملون جميعاً، جنباً الى جنب، تحت اشراف صاحب الارض المباشر او وكيله، قل جداً بحيث. اصبح نادراً. ولم يكونوا يلجأون لمثل هذه الطريقة التي لم تكن نتائجها مرضية إلا في هذا القسم من الارض الواقع على محاذاة قصر رب الارض او على مقربة منه، اذ يصبح الاشراف على عملية الاستثمار اذ ذاك، أسهل وأيسر، فيضحي ببعض المنافع الاقتصادية. وكانوا يفضلون العبيد بأعداد كبيرة كيد عاملة في المعامل والورش الصناعية القائمة على مقربة من صروح الملاكين. اما الباقي من هذه الأملاك، فقد كان، على الغالب، يستثمر مباشرة، من قبل صاحب الارض، او بالواسطة، عن طريق شركاء مرابحين، أحياناً، لقاء قسم من غلة الارض، يعود للمعمرين، الاجرار بالاسم، وان كانوا، بالفعل، خاضعين لارادة صاحب الارض وهواه.

وهؤلاء العمال، احراراً كانوا ام عبيداً، اتسمت حياتهم بالبؤس والشقاء. ولدينا في هذا الصدد معلومات دقيقة تتعلق على الاخص ببعض الاقطار. فقد قاست مصر، مثلاً من افراد العبيد (*Anachorésis*) الذين كانوا يعملون في الأراضي الزراعية، ليختبثوا بين غياض المستنقعات وأجبات الغدران الملتفة، في الوجه البحري (الدلتا) وهو امر شكت منه مصر، في عهد البطالسة، واستفحل شأنه في القرن الثاني. وقطالطنا نقيشة عُثر عليها في افريقيا تحمل نص عريضة دفعها المعمرون الى الامبراطور كومودو يتملكون فيها مما يرهقونهم به من اعباء فيحملونهم اكثر مما يستطيعون ويسلطون عليهم الجيش لاجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه، ويزجئون بهم في غياهب السجون مكبلين بالسلاسل الحديدية، ويقاصونهم بالجلد. ونطالع في رسائل بلين الأصغر وصف الصموبات والمشقات التي يلاقها الملاكون، اذ يرفض الفلاحون دفع المتأخرات

المستحقة عليهم . وإنشاء نظام الاعاشة في الارياف الايطالية وتوسيعه على مختلف الولايات فيها ، انما يدل بوضوح على أن صغار الملاكين الذين يعملون في اراضيهم واملاكهم يلاقون صعوبات جمة في تدبير امور معيشتهم . وقد جمع نظام الاعاشة هذا بين الاسعاف العام وبين التسليف الزراعي . فمنذ عهد ترياينوس ، راح الامبراطور او بعض الخاصة من كبار الاثرياء ، يؤسسون شيئاً اشبه ما يكون بالبنك الزراعي او مصرف تسليف ، برأس مال معين عند المباشرة بالعمل ، يستطيع معه المزارعون الاستلاف بفائدة ٥ ٪ بدلاً من ١٠ - ٢٠ ٪ كما هو المعتاد ، مبلغاً من المال ، لقضاء رهن ارضهم ، على ان تخصص هذه الفوائد في توزيعات شهرية ، الغرض منها مد يد المساعدة لأولاد الاسر الفقيرة . غني عن التنويه ان مثل هذا التدبير اقتصر على ايطاليا في الدرجة الاولى ، بعد المنافسة الشديدة التي لاقتها من الانتاج الزراعي في الولايات الاخرى المعروفة بنخس تربتها ، اذ كان انتاجها الزراعي أخذاً بالتدهور والانحطاط .

من الواضح ان العمل في الزراعة لم يكن ليكفل الغنى لصاحبه ، حتى في هذه المناطق التي لم نسع يوماً ان ارتفع فيها اصوات شاكية او وقع فيها ما يثير الحفاظ .

ومع ذلك نشاهد ان الشعور الانساني والانعطاف على المساكين والفقراء الشهور بالعاطفه الانسانية اخذ يرقّ وينعم في المجتمع . والدليل على ذلك الاخذ بنظام الاعاشة ، وحركة العتق ، وتحرير الارقاء ، والاتساع الذي اتخذته ، على اساس من المباحة والدعاوة اكثر منه نتيجة تفكير سليم . ومع ذلك لم تخل هذه الحركة من تأثير طيب على حرية الفرد ، بالرغم من القيود القانونية والشرط التي قيدوا المعتوق بها بالنسبة لسيد القديم . ومن جهة اخرى نرى بمجاميع التشريعات القضائية تأتي على ذكر نصوص كثيرة هي في صالح الارقاء والمعتوقين .

سار هذا التطور سيرته الاولى ، وثيداً في بادي الامر . فقد استند أولو الامر ، في عهد نيرون ، على قانون قديم ، كما استجدوا بالجيش ، لسوق فريق من العبيد ، بلغ عددهم ٤٠٠ رقيق ، كانوا تابعين لاحد اعضاء مجلس الشيوخ عُثِر عليه مقتولاً ، وذلك بالرغم من احتجاج سكان روما ، بحجة انه كان عليهم ان يسهروا على سلامة سيدهم . وقد أخضعوا للتعذيب والتككيل ، في عهد ترياينوس ، كل العبيد التابعين لاحد سُراة القوم وجد مقتولاً ، وذلك لمحلهم على الإقرار والاعتراف بكل ما يعرفونه حول قضية مقتل هذا الرجل . وفي عهد خلفه على كرسي الحكم ، اقتصر في عملية استجواب الشهود ، على من كان منهم على مقربة من مكان الجريمة . فالتعديلات التي أدخلت على التشريع القديم الذي كان يعترف لصاحب العبد بحق الموت والحياة ، لم تظهر إلا في القرن الاول ، ثم اخذت بالاتساع والانتشار ، منذ عهد هدرينوس ، اذ اصدر امراً حظر معه على مالكي الأرقاء واصحابهم ، بيع أية أمة ما للمتجرين بالخفاصة او القوادين ، او بيع رقيق لأي من المتهدين حفلات المصارعة والمضارعين ، او باجراء عملية خصاء له ، او بالحكم عليه باسم ما كان يتمتع به سيد العبد من الحقوق المنزلية ، دون الرجوع في امره الي القضاء . وأوردت مدونة يوستينيانوس (*Digeste*) أكثر من ٧٠ نصاً او مرجعاً ، صدرت كلها في القرن الثاني ،

توصي بالدفاع عن الرقيق العامل في بيت صاحبه . والنزعة الواضحة التي تبرز ، أكثر فأكثر ، فيما بعد ، هي الاعتراف بشخصية الرقيق الفردية . وهنالك نصوص أخرى يجب وضعها بإزاء النصوص التي أثرت فيها أعلاه ، تقف الى جانب الحرية والعتق في الحوادث التي يشتهر فيها بوضع فرد ما : عبداً كان ام حراً . فالحرية والعتق هما من حق ابن ، نعمت امه بحريتها ، ولو ليوم واحد ، خلال حبسها به . ونشاهد ، في الوقت ذاته ، تطوراً يلحق وضع العتقاء ، اذ يحظر على كل منتفع من هبة او من وصية إرث ، من بين شروط تنفيذها العتق ، استعمال أساليب ملتوية للتهرب من الواجبات المترتبة عليه ، والاعتراف بصورة سريعة للعتوق بالحقوق التي من حق الانسان الحر ان يتمتع بها *Natalium Restitutio* ، وفقاً للامتياز الذي طالما جاد به الامبراطور ، بعد عهد مارك اوريل .

وهذا التشريع الجديد لا يمكن فصله بالطبع عن هذه التدابير والاجراءات القانونية التي طالما اعتمدوا عليها ، فيما بعد ، وكان الغرض منها الحد من سلطة الاب الشرعية على زوجته واولاده ، او من سلطة الوصي الشرعي على الارملة واليتيم . ومنذ عهد مبكر ، لم يعد للأب الحق بأن يفرض على ابنته زوجاً لا ترغب فيه ، او لا ترضى عنه . فحوادث المقاومة لزيجات مبكرة تُفرض على الاناث ، يجب اعتبارها خطوة لها معناها الرمزي عند الاخذ بهذا القانون والعمل بموجبه ، بالرغم من ندرة وقوعها . كذلك ، نرى الاب ، في القرن الثاني ، يجرّد من الحق الذي كان معترفاً له به ، نظرياً وعملياً ، بإلغاء زواج ابنه . وهنالك امثلة وشواهد عديدة يمكن الاتيان بها ، تكفي وحدها ، اذا ما ضمت الى زوال هذه الزيجات ، وفقاً للاعراف والتقاليد القديمة ، اذ كان للزوج فيها كل حق على زوجته واولاده ، لتبين كيف تم القضاء على حقوق السلطة الوالدية *Patria Potestas* . فقد تطور هذا الحق في مفهومه ومدلوله ، واخذ أكثر فأكثر ، بعين الاعتبار ، قيمة الشخصية الانسانية .

ان وفرة هذه النصوص التشريعية والتوافق الكبير الذي نراه بينها ، تُعبّر مجتمعة ، عن تطور عميق لحق بالاخلاق والعادات المرعية ، اذ ذاك . فبدلاً من ان تحاول هذه النصوص والاحكام التي تنطلق بها ، خلق عادات جديدة ، نراها تقتصر ، بالاحرى ، على تكريس العادات والاعراف التي في السير عليها والاخذ بها ترسيخ لها بين الناس ، والتي كانت مخالفتها تثير الشكوك وتوجب ملاحظة المخالفين لانزال ما يستحقون من عقاب . فليس بغريب ، بعد هذا ، ان يعيش الرقيق والعتقاء . في روما ، منذ زمن بعيد ، وفي عهد الامبراطورية المتأخر ، على اختلاط مع الاحرار من سكانها ومعاشيتهم . فهل من عجب ، بعد هذا ، ان تتقارب الاوضاع نصاً وروحاً ، بعد ان تشابهت بالفعل ! ففي الطبقة الاجتماعية العليا في روما ، حيث يتكاثر عدد العبيد والارقاء الشرقيون ، اخذ تأثير الاخلاق والافكار اليونانية التي عرفت بقلّة تصلبها وبانعطافها الانساني ، يتغلغل بين التقاليد الرومانية ، ويلتشر بينها أفقياً وعمودياً . فقد لاقت الفلسفة الرواقية ، على الاخص راوياً عظيماً بين سراء القوم من الرومان بحيث جعلت الفيلسوف سنيكا يتساءل بحق

قائلا : « أعبيد هؤلاء الرجال ؟ ، لا لعمرى ، انهم بشر - أعبيد هم ؟ - لا بل عشاء لنا وندامى ، ورفاق الحياة - أعبيد هم ؟ - لا بل اصدقاء حميمون ، أعبيد هم ؟ - لا ، بل إخوة لنا يرسفون في قيود العبودية اذا عرفت ان الأقدار لها عليك كما عليهم ، مثل هذا السلطان . صحيح ان سنيكا لم يأخذ هو نفسه بتطبيق فلسفة الرواقيين بصورة عملية ، لا بوصفه فرداً من أفراد المجتمع الروماني يتم بادارة ورعاية ثروة طائلة ، همه الوحيد أن ينميها وان يزيدها ، ولا بوصفه من رجال بطانة الامبراطور وحاشيته ، مهذباً لنيرون ومستشاراً له ، وكان على اتصال مباشر بهذه المؤامرات التي حيكت خيوطها ، وهدرت ما هدرت من دماء مطلولة ، كما اتصل عن كتب بالإدارة الحكومية . ومن كتاباته الفلسفية نرى جيداً ، كيف أن أغنياء الرومان ، رموا ، هم أنفسهم ، الحجر الأول ، ووجهوا الضربة الاولى لهذا الحصن الذي أقاموه من قضاظتهم الخلقية ، وما لبثوا ان انفتحوا لهذا التعاطف الانساني الخير ، والحذب على الفقراء والبائسين . فتطور هذه الأفكار التقدمية الذي اقتصر في بادىء الأمر على مجالات الفكر ، لم يلبث ان أدخل الى القانون الروماني القديم ، قانوناً « طبيعياً » يحمل الناس كلهم سواءاً ومتساوين .

حدود هذه النزعة الانسانية
تجلى هذه المشاعر الرقيقة التي ألانت الأخلاق ولطفت من حدة القوانين الرومانية ، فلم يتجمع هذا كله في ثورة اجتماعية عارمة .

ولا يحسن بنا قط أن نتخذ من هذه الظواهر دليلاً على التحسس بالخوف ، فأوحى هذا الشعور بمثل هذه التنازلات : فلم نرَ فرداً واحداً بين كبار الملاكين وصغارهم ، رأى في هذه الظاهرة نذير خطر مدام . فاذا ما راح أحدهم يلبى لأسباب دنيوية ، نداء عاطفة انسانية نحو الطبقة الفقيرة الكادحة ، فلم يبدُ لأحد منهم ، من قريب أو بعيد ، احتمال قيام ثورة في هذا المجال . إن اطلاع المؤرخين المحدثين على حوادث لاحقة لهذا العهد ، خلهم على الظن بأحقاد تتجمع وضغائن تتكدس . إلا أننا ، من جهتنا ، لم نرَ سوى شكاوى وتذمرات وتلملات لم تتبلور يوماً عن كلمة سر أو صرخة استنفار تدعو للثورة . فالفلاسفة المرشدون الذين عُرفوا ، في الشرق ، بدعوتهم للثورة ، كالفلاسفة الكليبيين مثلاً (*Cyniques*) لم يخطر في بالهم قط إهانة الجماهير وإثارتها ، بل على غكس ذلك تماماً ، دعوا لرذال الغنى واحتقاره . وعلى هذا الحال سارت الديانات الشرقية ومن بينها المسيحية الناشئة التي لم ترَ محلاً ولا زمناً تتم فيه المساواة إلا في الحياة الاخرى الباقية . وتناقص عدد العبيد والأرقاء جعل بدوره حروب الاسترقاق أثراً بعد عين . فالنظام الاجتماعي القائم ، هو في نظر المعاصرين جميعهم ، وباتفاق الرأي ، نظام قوي متين ، راسخ . وهذا النظام ، عرف أن يقيم لمراكز دفاع تحسن صد العدوان ، والصمود في وجه المهاجمين . فليس في النظام الامبراطوري نفسه أي مغمز ضعف أو مكن وهن . فالإدارة المركزية التي كانت تراقب بعين يقظة ، وعن كتب ، الهيئات البورجوازية القائمة في المدن ، لم تكن لتتهاون معها في التخفيف من شكيمتها على الشرطة . والعقوبات القانونية ، هذا السيف المصلت فوق

الرؤوس ، بقيت على شدتها ولم تتخفف بشيء . صحيح ان الحُرج الديني كان يوجب الحكم بالموت على مَنْ من كاهنات الفستال *Vestales* تعبت بنذر العفة أو تجددتها نفسها بالتحلل منه . ففي عهد دومتيانوس مثلاً ، صدر الأمر بؤاد رئيسة كاهنات الفستال حية لعبتها بنذر العفة ، كما أن شريكها في هذه الفعلة النكراء ، وهو من مصاف الشفاليه ، لقي من الضرب الشديد والجسّد العنيف ما قضى معه في العذاب . أما في ما يختص بالحق العام ، فالأحكام التي يصدرها لم تفقد شيئاً من قسوتها ولا فظاظتها ، بالرغم من المراحل التي قطعها الشعور الانساني . فالامبراطور هو نفسه بحاجة ماسة « لمن يحكم عليهم بالاشغال الشاقة في المناجم » ، فلا يستثني منها إلا من عنده الدليل القاطع ، على انه يعاني من مرض عضال مزمن ، تنفيذاً منه لواجب يترتب عليه في الدرجة الاولى . وجهاير الشعب هي الاخرى بحاجة ماسة للمحكوم عليهم بالموت ، وتنفيذاً لهذه الاحكام ، تعرض اجسامهم للوحوش المفترسة فتتناهشها وتنبها نهباً ، وتعليقهم على الصليب إمعاناً في تحقيرهم واذلالهم ، أو يجلدون وتعذيبهم ، أو يحرقون أحياناً ، كما حدث لبعض المسيحيين الذين استشهدوا في روما اثناء الاضطهاد الذي رماهم به نيرون ؛ كل هذا ألوان من التنكيل تزيد في حماسة النظارة والمُشاهدين الذين يتلذذون برأى هذه المظاهر الوحشية . وقام سنিকা يشجب بشدة بروقصلأ عاملاً لروما على إحدى الولايات في آسيا ، لقتله ، دفعة واحدة ، ٣٠٠ من فجّاج الآفاق وقطاع الطرق . ونرى موظفين في بعض المدن يبحثون جادين عن محكومين بالاعدام ، وعندما تعيهم الحيلة يلتمسون من مدن مجاورة لهم تزويدها بشيء من هذا .

فاذا ما رأينا ، من حين الى آخر ، بعض الملتطّفات تؤخذ في هذا المجال ، فليس بالطبع ، في مصلحة منكودي الحظ تبدل . فمراعاة المراتب الاجتماعية لها مقتضياتها ومستلزماتها ، وهي اعتبارات يشتد التمسك بها ، لما يقوم بين هذه المراتب الطبعية من تضامن ووشائج تشدها بعضاً الى بعض . فأعضاء منظمي الشيوخ والشفاليه يحملون شارات مميزة ويُعرفون بألقاب شريفة وكنى فضرية . وتخطو الخطوة خطوة أخرى الى الامام ، في عهد الأسرة الانطونية . فالاشراف والاعيان يُستثنون ، من حيث المبدأ ، من التعذيب والتنكيل ، ومن الحكم بتعريضهم للحيوانات الضارية . ومنذ هذا العهد فصاعداً ، اخذ التشريع الروماني ، ببطء ، في بدء الأمر ، ثم بسرعة ، فيما بعد ، يميز بين الاحكام الواحدة ، من حيث شدتها او خفتها ، وفقاً للطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها المحكوم عليه ، فلتشد وتقسو ، ان كان من الطبقات الدنيا او السفلى *Humiliores* ، وتلطّف وتخلّص ، ان كان من الطبقات المحترمة *Honestiores* . وهذه النعوت ، بما بينها من مفارقات ، تنتقل بدورها الى المعجم الرسمي . فهي تميز من جبهة الشعب ، هؤلاء الذين تجمع بينهم روابط شتى : كالمعضوية في المنظمات ذات الامتياز ، او الهيئات البورجوازية في المدن .

من العبث ان نحاول هنا التخفيف من حدة التضاد العنيف القائم بين هذه النزعة التي ترغب في ان تبرز على هذا الشكل ، والنزعة الاخرى التي لمسنا محاولاتها للتخفيف من حدة القوانين المتداولة ، في سبيل حماية الضعيف والدفاع عنه . . وهذه النزعات والميول كانت تعكس ، ولا

شك ، نظريات متضاربة ، متباينة : ادبية اخلاقية ، هنا ، سياسية هنالك . ويكفي ان نتبين هنا انها ازداداتا شدة وقوة ، من كلا الجانبين ، لنسجل ان المعاصرين نظروا اليها نظرتهم الى أشياء تكميلية .

٤ - الازمة الطالعة وأسبابها القريبة

وهكذا نرانا ، من جديد ، وجهاً لوجه ، مع المشكلة الكبرى التي تثيرها المدنية الرومانية في عهد الامبراطورية المتأخر ، من الوجهة المادية ، وهي كيف ان هذا النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي بلغ ، ان لم نقل الكمال ، فأقله جانباً كبيراً منه ، عاد فظهرت عليه ، منذ اواسط القرن الثاني ، امارات الضعف والوهن .

بعبارة تستبد بالفكر لمعها ودقتها لانها تصدم دوماً عنف ، هذه الأوهام حضارة ذات طابع مديني مغرق التي وجدت طريقاً سهلاً الى الازدهار ، هي هذه التي تقوه بها انطوان البريتيني ، بعد ان أبى عليه علمه الا ان يرى في العالم الذي سيطرت عليه الأسرة الانطونية ، شيئاً آخر « أقل سوءاً بين هذه العوامل التي عرفها التاريخ قديماً » . وقد بنى حكمه بعد ان رأى بثاقب نظره ، الوضع الخطير المائل في هذه الازمات الاقتصادية المتكررة ، وما لحقته مراراً ، في الطبقات الاجتماعية العليا ، في مناطق كثيرة تابعة للامبراطورية الرومانية ، من اوصاب وما جشمتها من مشاق . وهي حقيقة تبرز صحتها لكل عين باصرة . وليس من الغلو في المرأة بشيء ، ان نبحث عن سبب آخر ، أعم واعمق لهذا الوضع ، وان نجده ، كما نعتقد ، في فقدان الانسجام بين البناء السياسي والحياة الاجتماعية لهذا العالم الروماني ، وبين الاوضاع الاقتصادية التي استبدت بها وهيمنت عليها .

فالنظام الجديد - وهذا هو دوره - فكثر ، قبل كل شيء ، بتأمين المقتضيات السياسية والادارية التي يستلزمها العهد . فقد شجع وناصر هذا التطور الذي تمناه والذي جاء معظمه عفواً ، واوجد روابط وثيقة بين الدولة وبين الحضارة التي ساهم في بنائها وتشيدها ، متنكباً تارة ، عن العنف المنهجي ، ومتجافياً طوراً ، عن وسائل الضغط ، مقتصرأ في اغلب الأحيان ، على توفير اسباب الاغراء ووسائله ، وعلى توزيع المكافآت بالتقدير . وهي دولة لقي العهد العنت في إقامتها وتنظيمها لفرط حاجتها للموظفين الاكفاء ، وحضارة اتاحت لها النجاحات الجغرافية والبشرية التي حققتها ان تخفف كثيراً ، من وطأة هذه الحاجة بعينها ، فلم يطلع عليها من المسئل غير التي تبينها الشرق الهليني من قبل بكثير ، والجمهورية الرومانية نفسها ، التي لا تزال نصب اعين الطبقات المتطورة . وهذا الترابط او المشاركة التي رغب فيها والتي لقيت قبولاً لدى كل هؤلاء الذين دعاهم العهد للتعاون معه ، ليس من احد ينكر النجاحات الباهرة التي اصابها ، ولا عظمة الإنجازات التي استطاعت تحقيقها ، فكانت موضوع اعجاب الجميع ودهشتهم .

ولكن ، هل كانت هذه الحضارة ضخمة ، واسعة ؟ فقد تجاوزت في محاباتها وتغرضها ،

واخذها بالوجوه ، حد المنطق ، اذ قصرت عنايتها واهتمامها على المدينة دون سواها ، وحرصت على تأمين وسائل التطور والتألق لها ، لتبرز زاهية ، مشرقة على حساب غيرها .

فانشاء المدن الجديدة في جميع ارجاء الامبراطورية ، والازدهار العجيب الذي عرفته هذه المجتمعات المدنية ، وإلباسها هذه الحلل القشبية من انواع الزخرف والنقش والتحلية ، بدا ، في نظر الجميع ، اكمل تعبير لهذه الحضارة واجمل صورة لها . والنخبة التي بيدها مقاليد الامور ، وهي بمعظمها من المدينة ، أصلاً ومنشأً ، كانت تتباهى فخراً بهذا كله ، فلم يبق ما يدعو خيال الامبراطور ومخيلته للتفتق والخروج بشيء اكمل وأمثل ، اذ كان يحيد في هذه المدن الادارات الثانوية التي تخفف عنه اعباء المسؤوليات التي يضطلع بها ، والاداريين الذين ينبرون لخدمته بعد ان يتمسوا بالاعمال الادارية ويهربونها عن شديد ولائهم له . فبعد ان اهل هؤلاء الاباطرة ، عن سابق قصد وتقسيم ، امور الريف وشؤون الولايات ، امنعوا في هدر مصالحيها في سبيل مصالح المدن التي اخذ عددها يتكاثر وينمو باطراد ، وافرطوا في تجميلها وتزيينها . فقام فيها من المباني الفخمة والصروح الجميلة الضخمة اكثر مما يجب ان يقوم ، وعقدوا فيها من الاعياد والحفلات واسباب اللهو ، اكثر من المألوف ، وأنفقوا عليها جزافاً ، بصورة تقرب من الجنون ، وبدون طائل ، ما انهمك خزينة الدولة فأرزحها ، وجمعوا لها من الحيوانات والسباع والرجال ، ما لا يقع تحت حصر ولا عد . وبعد ان اخذت هذه الحضارة بألقى هذا الغنى وبالذعة التي عرف العبد ان يؤمنها لها ، شأن غرّاً أخذ بثروة هبطت عليه بغير توقع منه ولا انتظار ، فلم تستطع العيش ، فكسبت بها الحياة بعد أن أعجزها توفير مثل هذا الفياء العظيم الذي تم لها من قبل ، الا في ارتهان الحاضر ، وارتهان ما هو ادعى للخطر : ارتهان المستقبل .

ولكي تتمكن الامبراطورية من السير على هذا المنوال كان لابد لها سنوياً من تأمين حاجاتها محصول طيب من المواد الغذائية ومن الخامات الأخرى التي لا غنى لها عنها ، وان تؤمن المزيد منها ، منذ الآن على ان تضاعف هذا الانتاج فيما بعد ، بحيث يكفي كل مطلب طارئ . ولكن لم يحدث شيء من هذا في سبيل تحقيق هذين الشرطين .

فأدوات العمل وعدته لم يدخل عليها أي تحسين يذكر ، واصحاب رؤوس الاموال المتوفرة ، لم يحاولوا يوماً توجيهها في الصدد القويم والصراط المستقيم ، فأنفقوها في وجوه لا تجدي فتيلاً ، كما انهم أهملوا الافادة مما عرض لهم من عبقریات خلاقة ونوابغ مبدعين ، فواكبوا الحركة العلمية التي نشطت اذ ذاك وساروا في ركابها . هنالك مدنات عديدة قامت في التاريخ قديماً ، تكشف عن مثل هذا النقص الفادح ، وعن مثل هذه الحاجات . غير ان التفوق الذي بلغته الحضارة الرومانية في ما تم لها من الوسائل المادية والذرائع العلمية ، جعلها وجهاً لوجه امام مسؤوليات أكبر وأخطر .

وهكذا ، فأمام عدم كفاء العدة ، وقصور الوسائل اللازمة ، رأينا الانتاج مرتبطاً الى حد بعيد ، باليد العاملة . ومهما كان من الغرور في ان يحاول المرء تكوين رأي له حول هذا الموضوع ،

عليه ان يعتمد على انطباعات محتملة التصديق بعد ان فاتحه الاحصاءات العلمية الدقيقة . والحال ، فاذا لم يكن من شك قط بأن سكان الامبراطورية زاد عددهم ، على العموم ، فليس من شك قط ايضاً ، في ان هذه الزيادة جاءت متفاوتة غير متعادلة ، بين الولايات المختلفة التي تألفت منها الامبراطورية ، وذلك باختلاف النشاطات التي تجلت فيها . فولاية غاليا ، كما يبدو ، أفادت أكثر من أية ولاية أخرى . هنالك عدد من المؤرخين يعزون اعتباراً ، الى جميع ولايات الامبراطورية ما يجب إقصاره على ولاية غاليا وحدها . فالمدن ، اينما كانت ، هي التي استفادت بالأكثر من هذا التطور ، الأمر الذي أفضى الى المزيد من الاستهلاك . ومهما يكن ، فلم نر في أي محل كانت ، اليد العاملة في الزراعة او في صناعة التعدين ، مع انها عماد الانتاج في البلاد وعليها يتوقف تأمين مثل هذا المحصول الاساسي ، تسجل أي زيادة يمكن مقارنتها بالزيادة التي سجلها نحو عدد السكان في المدن .

ومن الثابت ايضاً ان عدد السكان تناقص ، هنا او هنالك ، في بعض الولايات . فالوضع الذي أحاط بالسكان لم يسو ، وقد يكون سجل ، مع ذلك ، بعض التحسن . ولكن عند معارضة هذا الوضع بالوضع الذي كان ينعم به سكان المدن ويتحملون هم ، أي سكان الارياف كل أعبائه ، فكيف لا يجحدون وضعهم أثقل من قبل ؟ ومن هنا هذا التظلم ، وهذه التشكيات ، وهذا اليأس ، وحوادث الفرار المتكاثرة ، وهرب العمال المترايد في مصر *Anachoréseis* الذي كان نذيراً بتأزم الوضع . اصف الى ذلك تناقص عدد العبيد والأرقاء . فحوادث العتق بالجملة جعلت عددهم ينخفض باستمرار . صحيح ان حركة العتق هذه أفادت كثيراً هذا الفريق العامل منهم في المنازل ، او الفريق الآخر الذي يتعاطى ، في المدن ، الحرف والمهن الصغيرة ، او يعملون مع مولايم فيهم العتق والحرية على حسابهم الخاص ، لقاء رسم يدفعونه له كل يوم ، ويحتفظون بالفائض لحسابهم ، وهي عادة جرى عليها القوم في اليونان ، قديماً . ولكن هذه النخبة من الارقاء كان يؤتى بها من الرق ، احدى نتائج الحروب ، الأمر الذي كان يوجب بقاء هذا المعين الأكبر للعبيد على معدل عالٍ . فاذا ما كان اسياذ العبيد واصحابهم ، عملاً منهم بالروح الانسانية ، او طمعاً في زيادة دخلهم عن طريق منحهم بعض الاعفاءات ، قبلوا بسخاء أكبر من الماضي ، قيام الاتحادات لهؤلاء الارقاء ، فالمواليد بقيت نسبياً ، قليلة لأن الاشغال الكبرى التي كانت تستهلك العبيد وتستنزفهم ، لم تكن لتأخذ سوى الذكور منهم . ولعل ما هو افظع من ذلك ، هؤلاء المواليد الجدد من العبيد الذين يرضى مولى امهاتهم باعالتهم وإعاشتهم الى ان يبلغوا سن المراهقة . فلم نر مدنية واحدة من بين المدنيات القديمة ، رضيت بأن تضارب بتربية العبيد ، وذلك بالنظر لما يجنبه هذا النوع من التجارة من خطر . ومن جهة أخرى كانت اسواق الرق اقل ازدهاراً في هذا العهد منها في الماضي ، كما ان مادتها كانت تتجدد اليوم بصعوبة أكثر من الماضي ، وذلك بعد ان قلت الحروب وانقطع عن هذه الاسواق ، سيل هذه القطعان البشرية التي كانت تباع في اسواق النخاسة ببيع السائمة . ومن جهة أخرى ، فاتساع حدود الامبراطورية جعل شراء العبيد أكثر صعوبة بعد ان راحت الامبراطورية تجاور شعوباً لا ترضى ببيع رجالها ببيع النعاج .

واخيراً وليس آخراً ، فمعارك المصارعين ، ومصارعة الوحوش جاءت هي الأخرى ، ضغطاً على أبالة ، وثالثة الاثافي فتحصد صفوفها ، فتنقص من عددهم ، وتستنزف دماهم في هذه المعارك الوحشية ، فأحدث هذا كله رد فعل سيء جداً . كل هذه الأسباب جعلت المورد الرئيسي الذي اعتمد عليه الرومان لتوفير ما هم بحاجة اليه من اليد العاملة يحف ، وينقطع بالتالي معينه . فإذا كان عدد اليد العاملة الخشنة ، لم يطرأ عليها أي نقص من حيث قيمتها المطلقة ، فقد سجلت ، مع ذلك نقصاً لا يستهان به من حيث قيمتها النسبية ، مع انه كان من المتوقع ان تزداد ، قيمة وعدداً ، بحيث تستطيع مواجهة الطلب وتلبية حاجات المدن والجيش معاً .

وهذه المدينة الرومانية المفرقة في حركتها الحضارية والتمدنية معاً والتي
 خطر الأزمة
 رادى مداخلات الدولة
 انحصر كل هم السلطة في الدفاع عنها والعمل على بسطها ونشرها ، لم تهتم
 هي ، الإهتمام الكافي ، بتأمين حاجاتها من الانتاج . فكانت النتائج ما لا
 بد ان تكون ، وجاءت على الشكل الذي لا يمكن ان يكون سواء . فالاستقرار الغذائي ، في
 اكثر من ولاية ، بقي تحت رحمة موسم رديء ، او مرتبطاً بعدم انتظام وسائل النقل في ارجاء
 الامبراطورية . فإذا ما أضفنا الى الجهود التي كان لا بد للدولة من بذلها لمواجهة حرب تطل عليها
 من الخارج ، والحراب الذي ينتج عن غزو طارئ ، او عن كارثة طبيعية ، مها كانت محدودة ،
 تبيّن الاضطراب الذي يلم بالبلاد ، والمدة الطويلة التي يقتضيها ليعود الاستقرار الى نصابه . فإذا
 ما تضافرت كل هذه العوامل والمسيبات واتفق حدوثها معاً في آن واحد ، رأت البلاد نفسها
 امام أزمة تهزها من الارقان .

فبعد ان كانت هذه الأزمة في الاساس أزمة انتاج ومواصلات ، كان من المتوقع لها ان
 تستفحل ويتسع نطاقها بحيث تهدد بالخطر ، اكثر ما تهدد المدن الكبرى ، أي ، نقطة الثقل في
 النظام الاجتماعي والاداري في الامبراطورية . وقبل ان يستفحل أمر هذه الأزمة كان الوضع الحرج
 الذي تتخبط فيه المدن يبدو قائماً ، مقلقاً من خلال هذه الاعراض والمظاهر الخارجية التي تطبع
 غط الحياة فيها ، والتي يجب ردها الى هذا الغلو في الترف ، وهذا الاسراف والاملاق المتجاوز لحدود
 العقل ، في البنخ والزهو ، الأمر الذي ارهق الطبقة الثرية في هذه المدن وارزحها . وقد رأينا كيف ان
 بعض هذه المدن اخذ يعاني شديداً من الضيق المالي الذي اطبق على خناقها . كذلك رأينا كيف ان
 هذه القصور التي كانت محل دعة واستجمام لسيد الأرض ، اخذت تصبح تدريجياً ، عالماً صغيراً
 باستطاعته ان يكفي نفسه بنفسه ، بفضل ما له من انتاج زراعي كاف ، وبفضل هذا الدخل
 الطيب الذي تؤمنه له معامل وورش النسيج ، ومصانع الحديد القائمة على مقربة منه . واخذ
 الاغنياء يهجر المدن الى الريف ليتفرغوا ، اكثر فاكثراً ، لاملأهم ويعنوا باستغلالها ، متفادين
 بذلك مضايقات الجماهير التي اخذت تضايقهم بتبرعات شخصية . فأمام هذه الحركة العفوية
 الاقتصادية اللامركزية ، اخذت الصناعة والتجارة في المدن تفقد قسماً من زبائنهم من سكان
 الريف ، كما انها كثيراً ما وجدت نفسها امام منافسة شديدة مع الفيلات التي بعد ان كانت ،

مدة طويلة ، عيالا على المدن ، أصبحت اليوم مزاحمة لها . فإذا ما بدت هذه الاعراض وبرزت للعيان في اوقات الرفاه والطمأنينة ، منذ اواسط القرن الثالث ، فمأسى ان يكون الوضع ، والحالة هذه ، عندما تتمتع قضية تموين المدن وتصبح مشكلة خطيرة بعد ان تتعطل حركة المقايضات التجارية ، الامر الذي يهدد بانقطاع الثروة عنها ويساعد تدريجياً ، على تقلص الثروات الخاصة فيها ، كما يهدد بنضوب صندوق المدينة ، فتقف بذلك حركة العمران ، وتنعدم اسباب الترقى والتطور ، ويحال دون انتقال ، او بالاحرى ، دون استحالة الطبقة الكادحة ، الى الطبقة البورجوازية ، وانتقال هذه الاخيرة الى طبقة النبلاء والاشراف في الدولة .

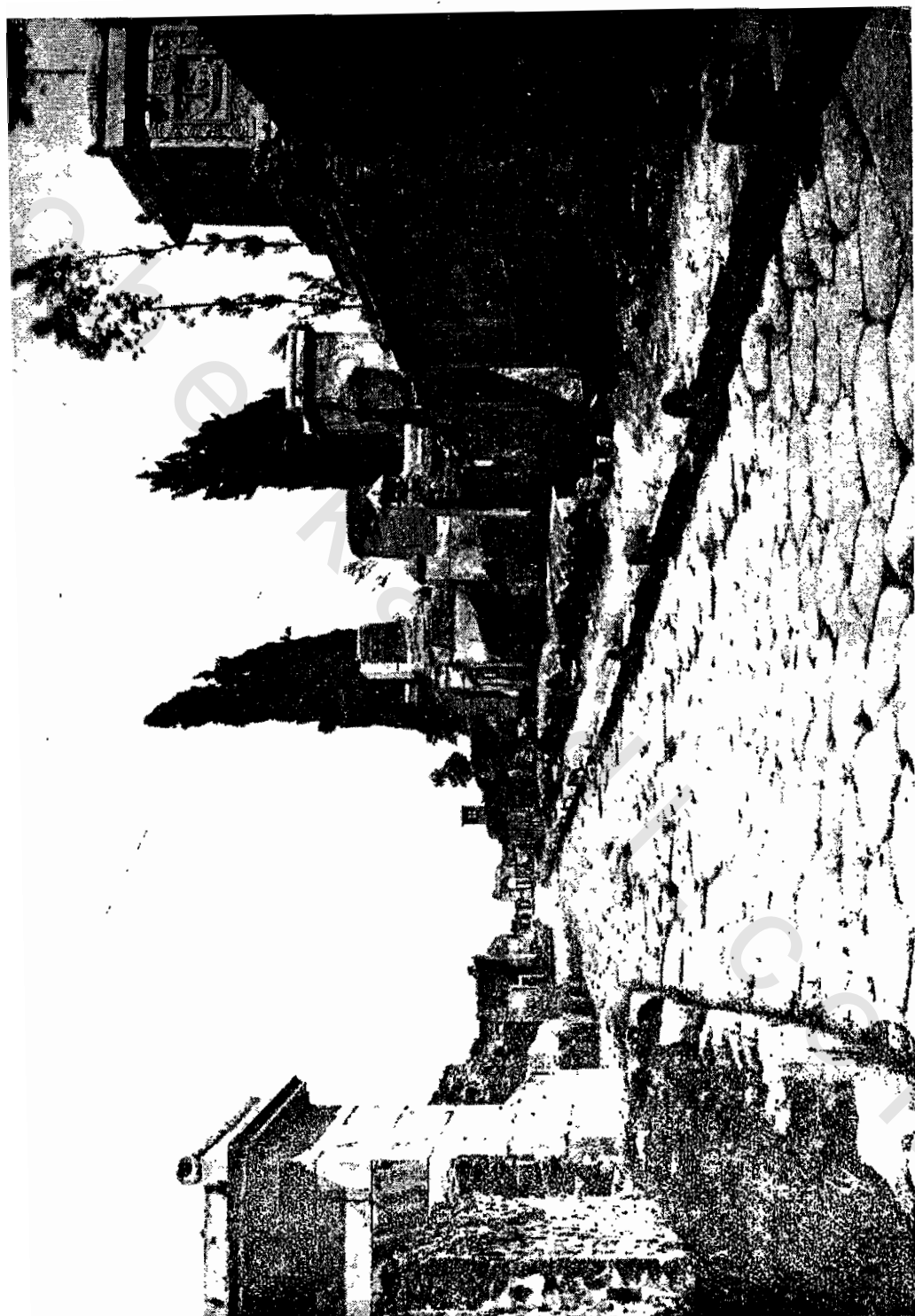
يشك المؤرخ في ما اذا كان الاباطرة الرومان تحسّسوا بمثل هذه المخاطر التي كانت تتهدد الامبراطورية في الصميم . فلم يسبق لهم ان خبروا او تمرسوا بمثل هذه الازمات . وهب ان تمت لهم مثل هذه التجربة ، لكانوا أبوا ان يُدْعَنوا للواقع ويسلموا ، انهم ورعاياهم ، أولوا بعض مظاهر الحياة في المدينة ، من العناية والاهتمام ، أكثر مما يجب : فهل في مقدور حضارة ما ، ان تقرّ وتتعرف بأذى او بعدم ملائمة المثل التي راودتها فتمثلتها ؟ وهكذا ما كادت تصدمهم المصاعب الاولى حتى راحوا ، بشجاعة واقدام ، يعالجون الوضع ، بوسائل تجريبية ، خلوا من كل خطة ومنهجية ، محدوم الرغبة الصادقة لمعالجة وضع لم تقتهم نتائجه الخطيرة ، دون ان يتمكنوا من النفاذ الى اسبابه الحقيقية وتحليلها . فإذا ما كانوا اقوياء او ظنوا انهم أقوى بكثير ، بالنظر لما هم عليه من وهم او جهل ، راحوا يعتقدون ان ليس من صعوبات تعترض سير الدولة يستعصي حلها ، او لا يمكنهم التغلب عليها ، وذلك لأنهم لم يلاقوا ، حتى الآن ، سوى احداث بسيطة ، نافهة للغاية ، وبالأكثر ، ازمات محلية لا تذكر . فالتدابير التي تسلحوا بها لا تشير بشيء الى الاتجاه الذي سيضطر ضغط الحوادث ، خلفاءهم ، لاتخاذها عندما يجردون انفسهم ، وجهاً لوجه ، امام أزمة عامة كاسحة : اهو التدخل المباشر او الشدة والعنف ؟

فالمبادئ التي تقوم عليها العاطفة الانسانية لا تكذب القول القائل : عندما تتصرف الدولة للتمكين للاخلاق والترسيخ لها ، تصبح بذلك حامية للمستضعفين ، وهو شيء لا يصعب علينا اليوم رده للزعة التي تدعو للتدخل . وستحتفظ الدولة بهذا الدور تلعبه الى نهاية التاريخ القديم ، مضيغة اليه ، ما لم تأخذ به من قبل ، الا وهو الشدة او الضغط ، وذلك حفاظاً منها على سلامة الواقعين تحت رعايتها ، اذا لم يدفعهم تحسن وضعهم القانوني للانصراف له .

فالقوانين والتشريعات التي سنّها هدريانوس بشأن الاراضي الموات ، واستثمار المناجم ، عنّت ، في الدرجة الاولى ، صفار الناس ، وذوي الحال المتواضع . غير ان ما اتسمت به من إرهاق ووقفها الى جانب القانون المعمول به ، يدل بأن الدولة كانت على استعداد لبذل كل شيء في سبيل المحافظة على الانتاج . كذلك ، فإذا كانت المنافع التي نالتها التقابات المهنية ارضت ، على السواء ، العمال ومتعهدي الاشغال في المدن ، فقد اخذت الدولة تفرض عليها رسوماً جماعية ألحقت الضرر

بالمنظمات البورجوازية في المدن وأصابها في صميم حرياتنا الاقتصادية ، كما اخذت من جهة ثانية ، تشدد على النبلاء والأشراف وتجهروهم على قبول الوظائف البلدية غصباً عنهم ، ولم يتورعوا من تجريدنا من حق ادارة شؤونهم المالية المحلية . إلا ان الامتيازات الجديدة ، من فخرية وقضائية ، التي أسندت الى الطبقات « الارفع منزلة » جاءت تعوض ، بعض الشيء ، عن هذه التدابير القاسية ، اذ كان لا بد من المحافظة على عامل الاغراء الملازم اصلاً للوظائف العامة ، والتي ، في السعي للفوز بها ، ما فيه من منفعة الدولة والحضارة معاً .

اما نحن الذين نعرف جيداً المصير الذي آلت اليه هذه التدابير ، فقد رمزت الى المستقبل وهيات له الأسباب . ولم يكن في وسع احد ، اذ ذاك ، ان يفهمها او يدركها على وجهها الصحيح ، اذ لم يكن يوسع احد ان يتصور أهمية المشكلات التي لا بدت من إيجاد حل لها يوماً . هنالك شيء واحد أكيد ، لا يمكن الاستغناء عنه ، لأنه وراء كل دولة كما انه وراء كل حضارة ، ولا سيما هذه الحضارة المذنبة بالذات ، يفرض نفسه ، في كل الظروف وفي كل مكان .



١٧ - بومبي : طريق المداخن خارج باب هرقل .



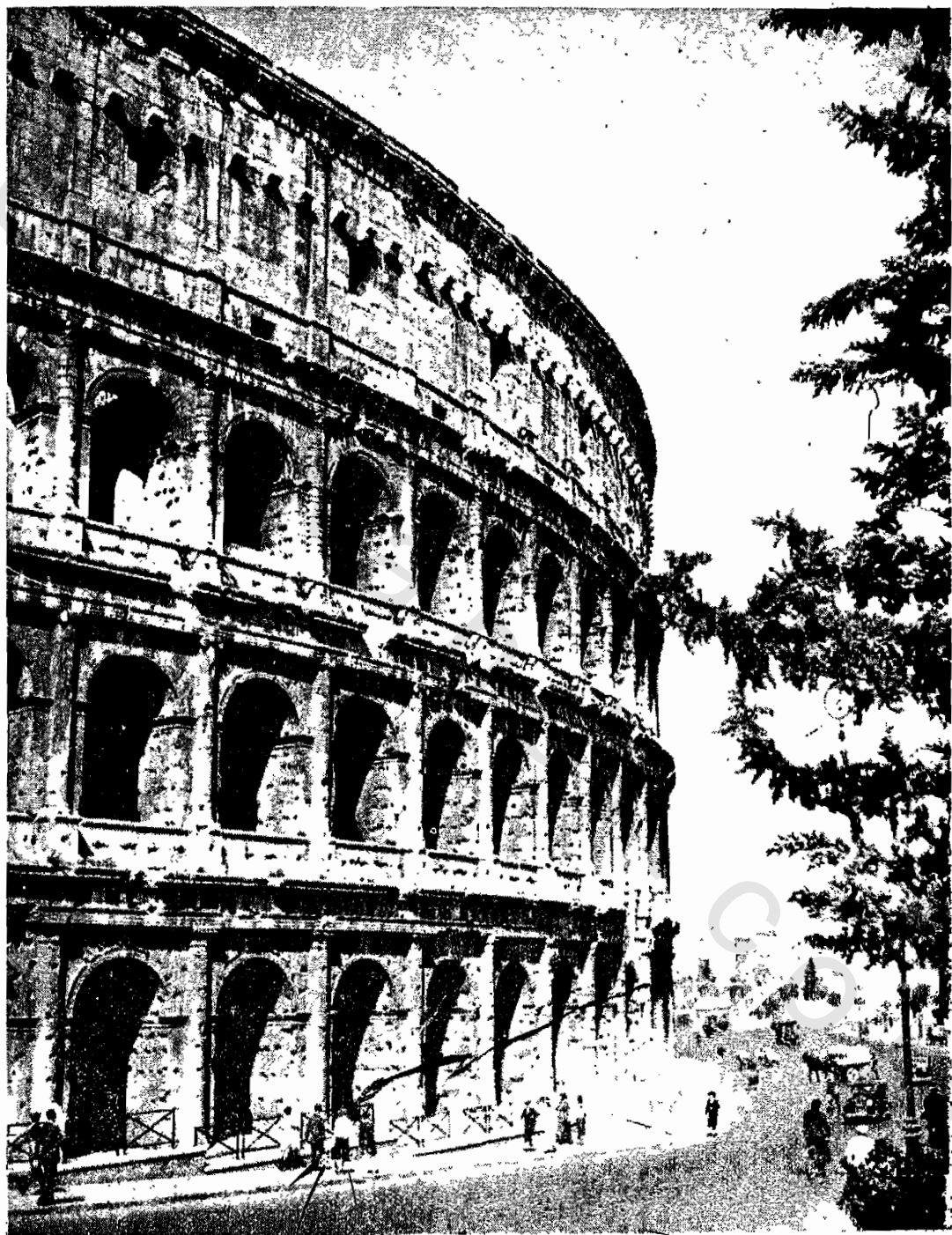


١٩ - تعلّمه خنزیر و کبش و ثور . نقش رخامی

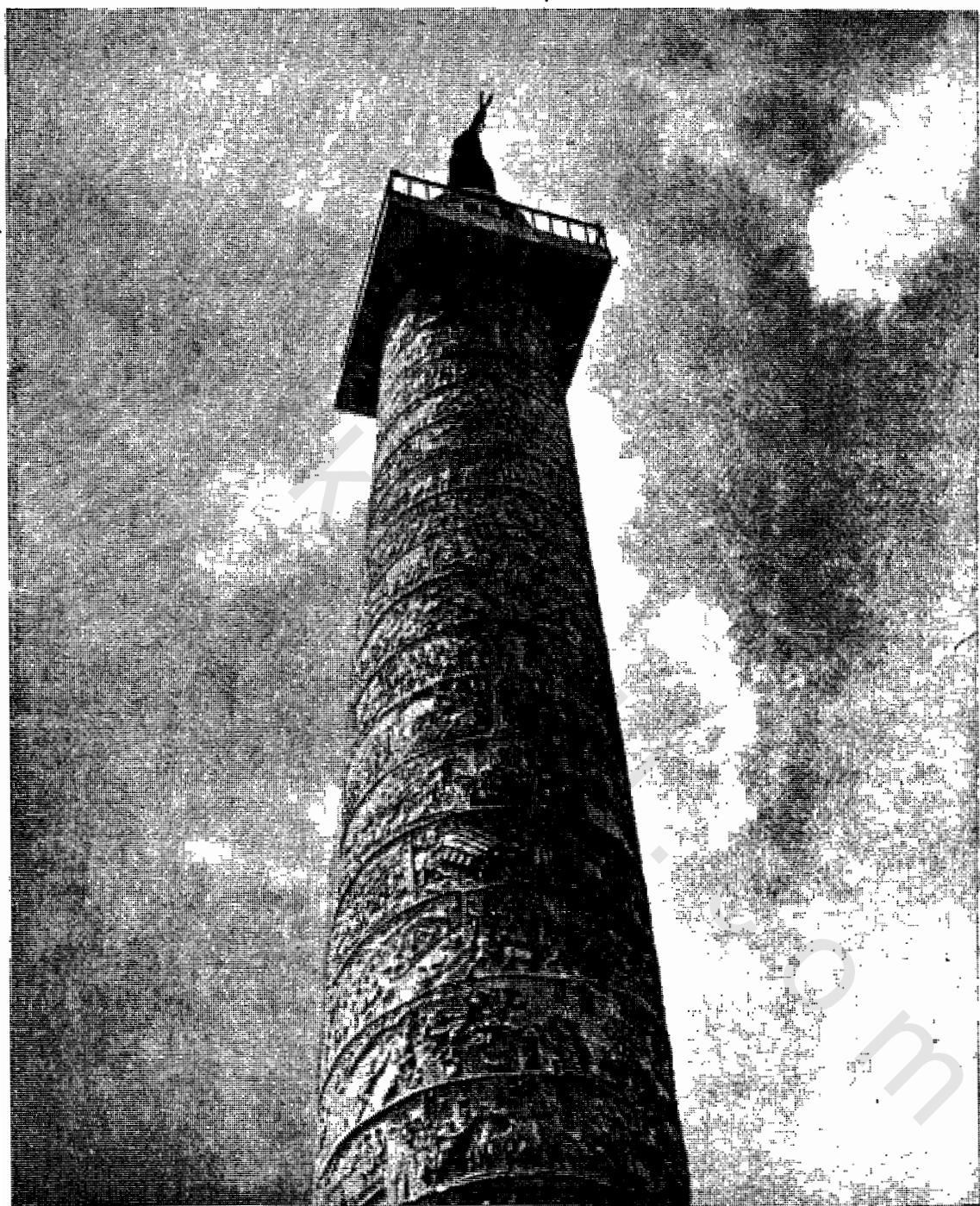




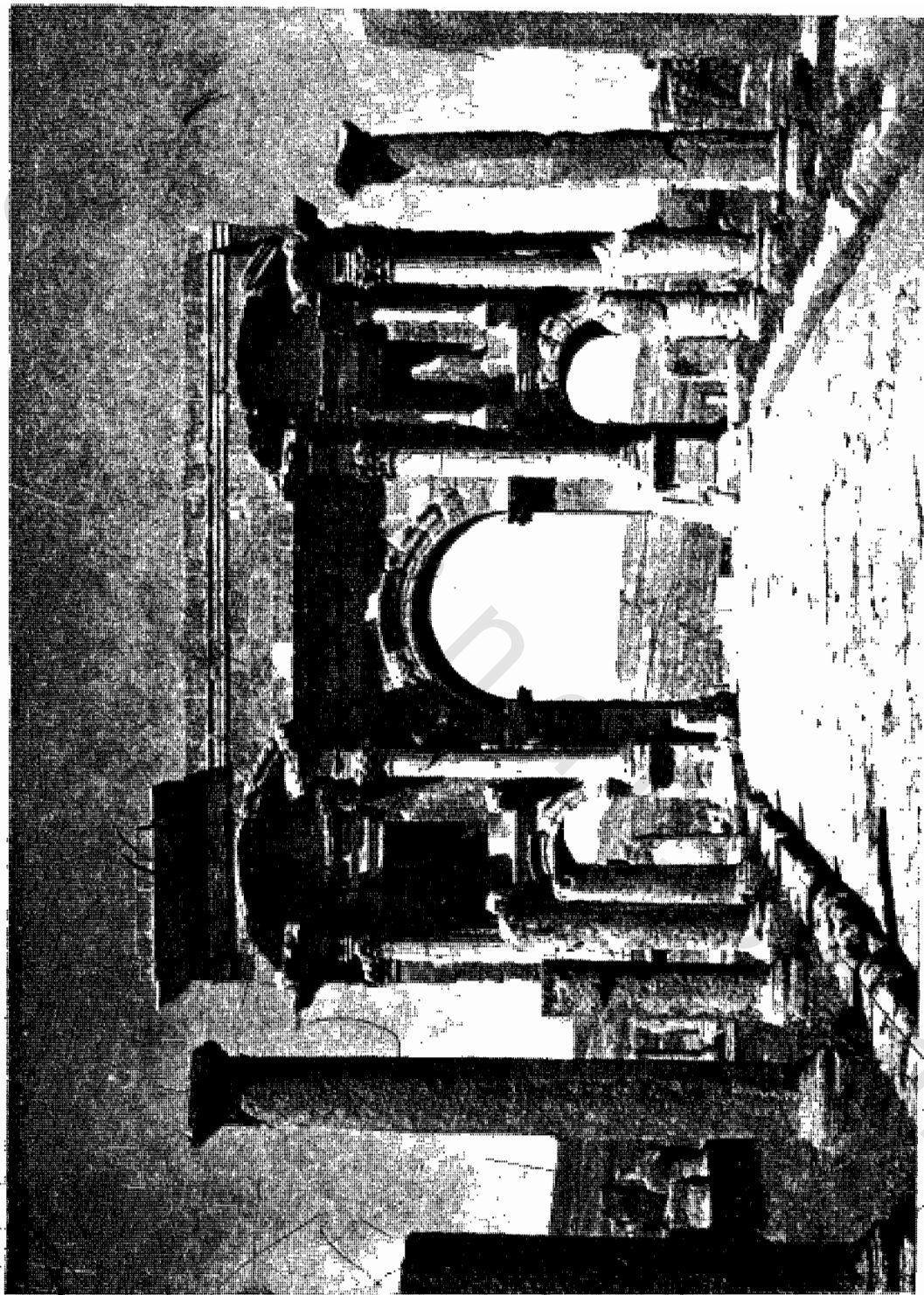
٢١ - أول الطريق الأتية من جهة روما



٢٢ - روما : الكوليزه



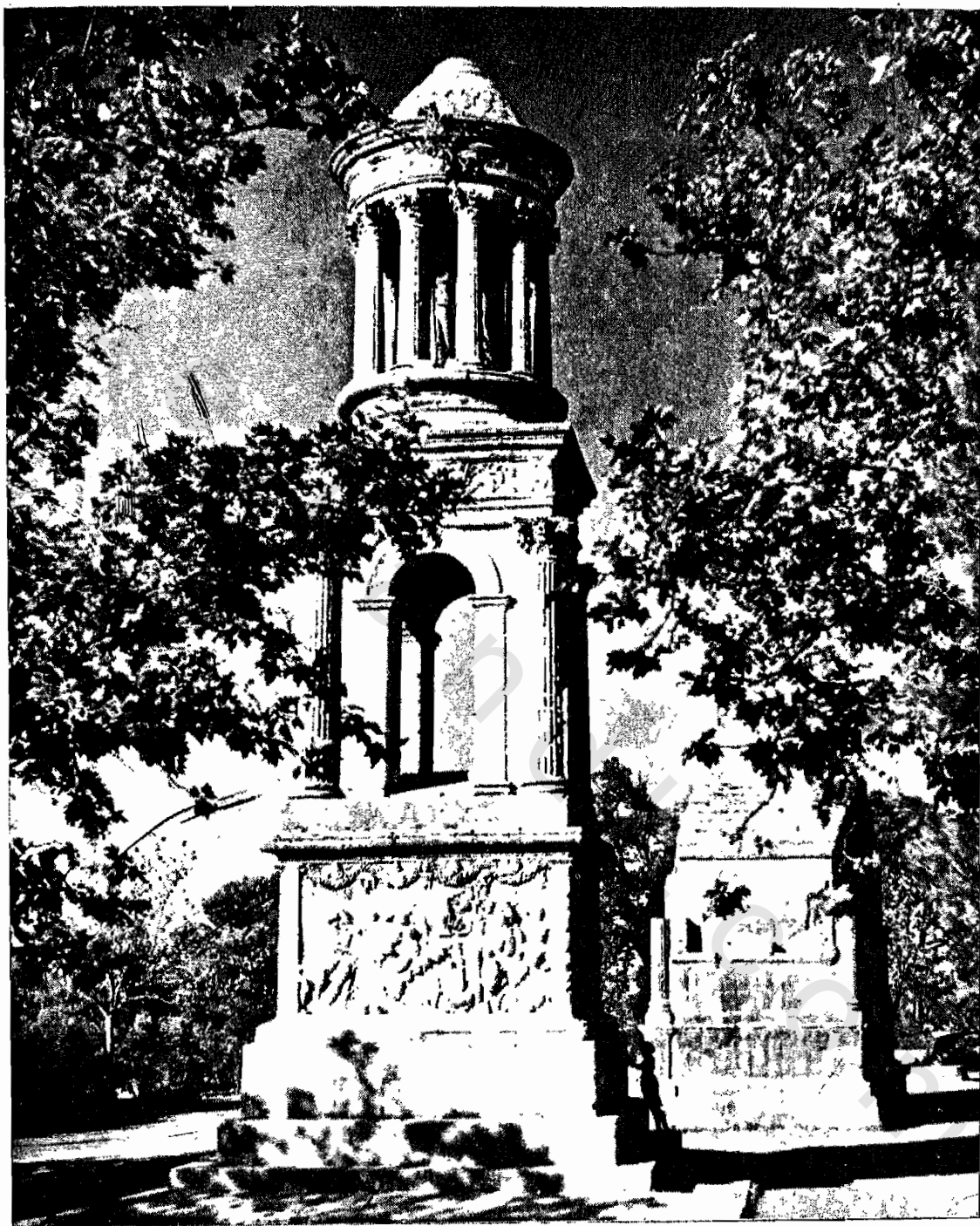
۲۳ - روما : عمود ترايانوس



٢٤ - القوس المعروف بـ «قوس تريبون» في تمغاد (الجزائر).



٢٥ - صورة محفورة تمثل ماتم احد الزعماء



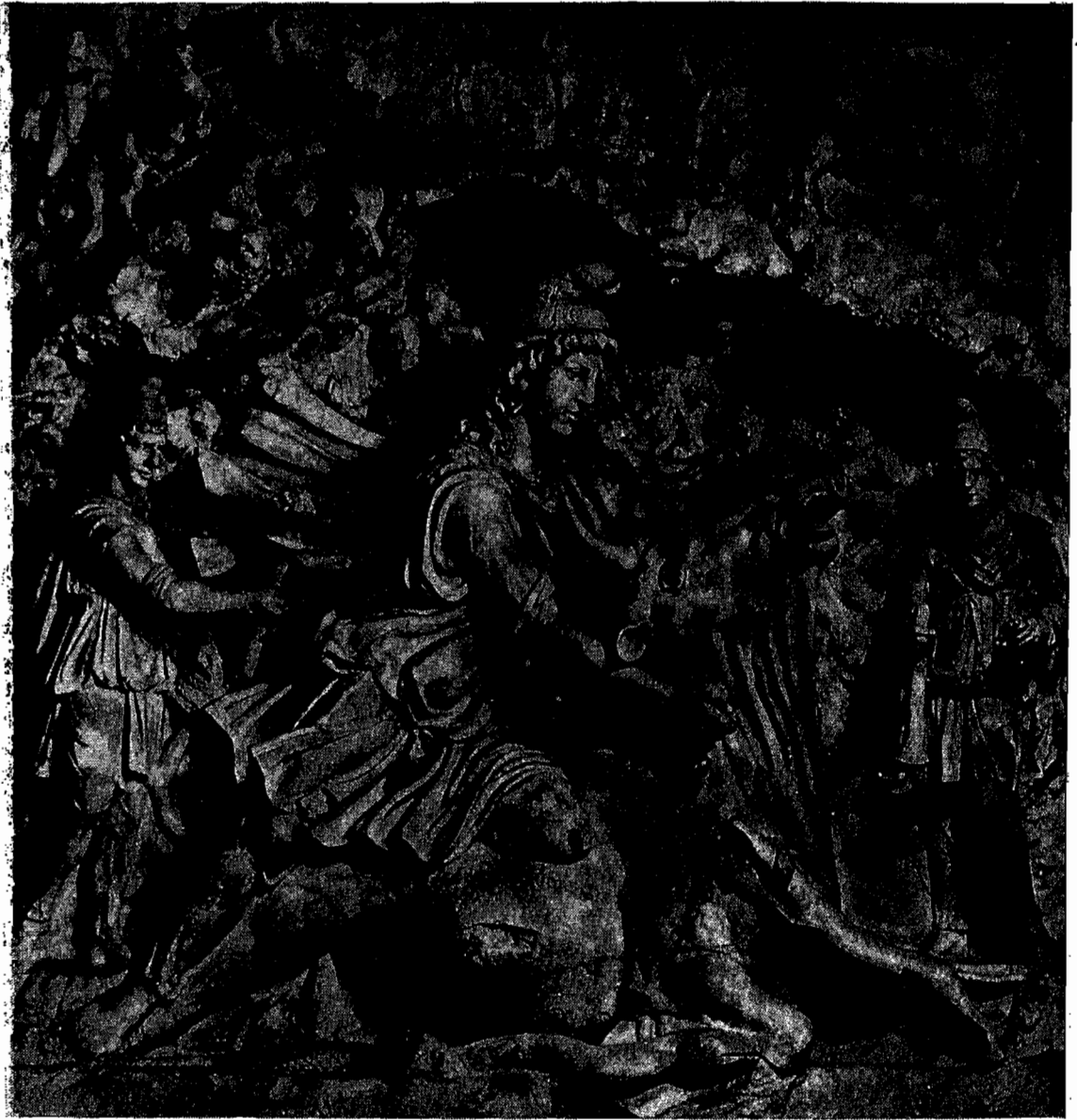
٢٦ - ضريح آل جوليوس في سان ريمي في مقاطعة بروفنسا .



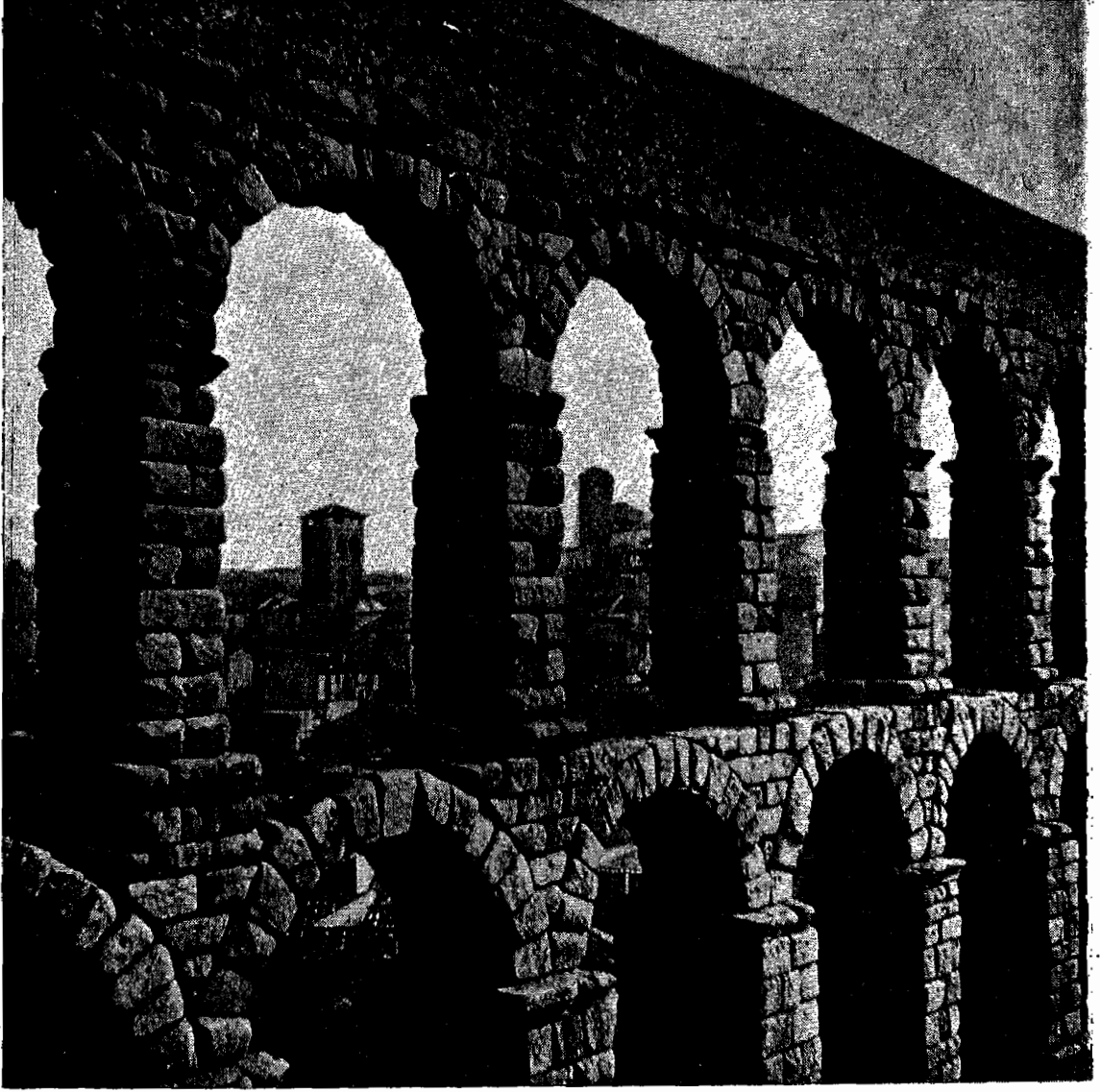
۲۷ — بقایا مسرح اوستیا



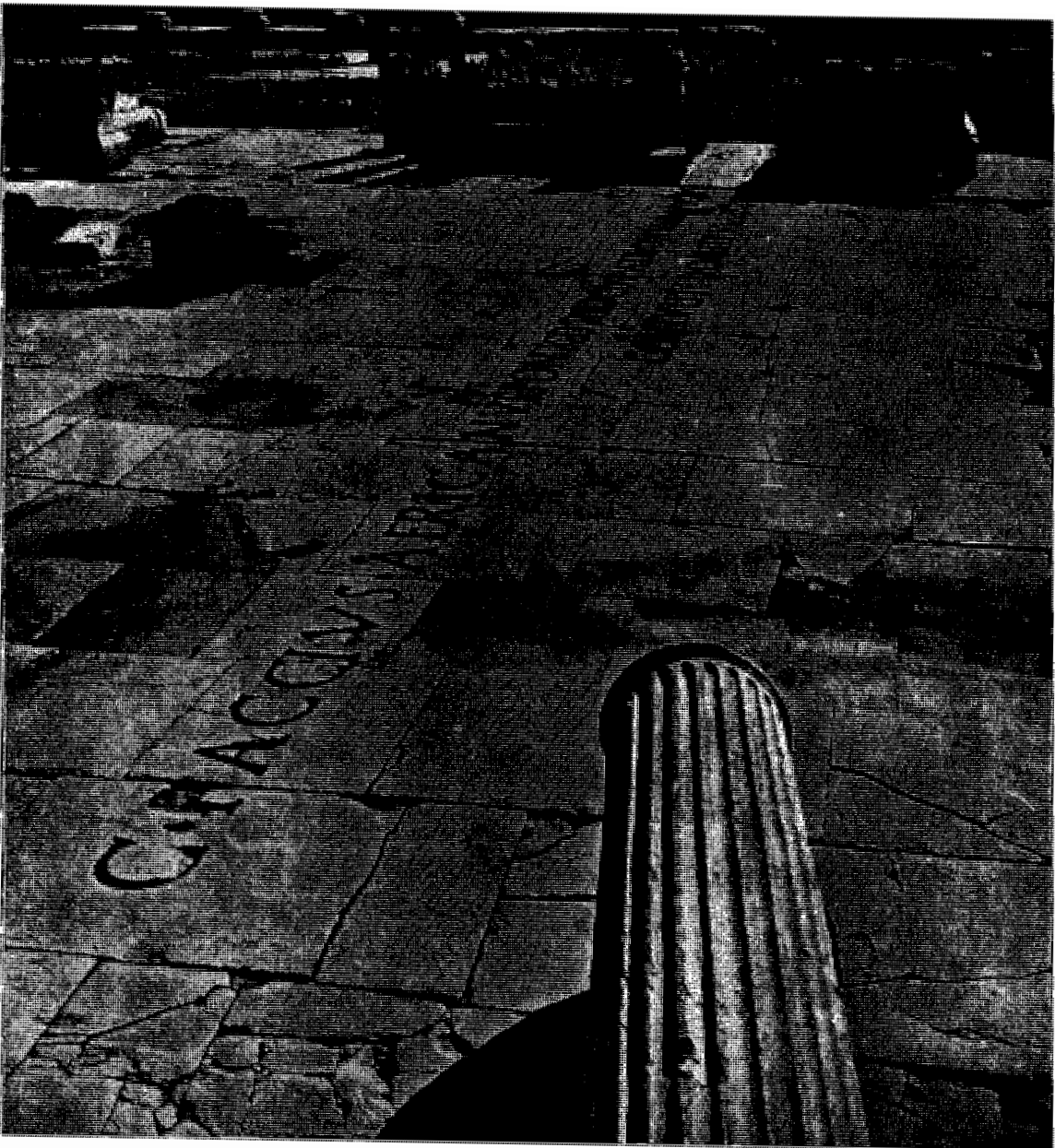
٢٨ - غنائم وأسلاب اورشليم. نقش في قوس تيطوس في روما



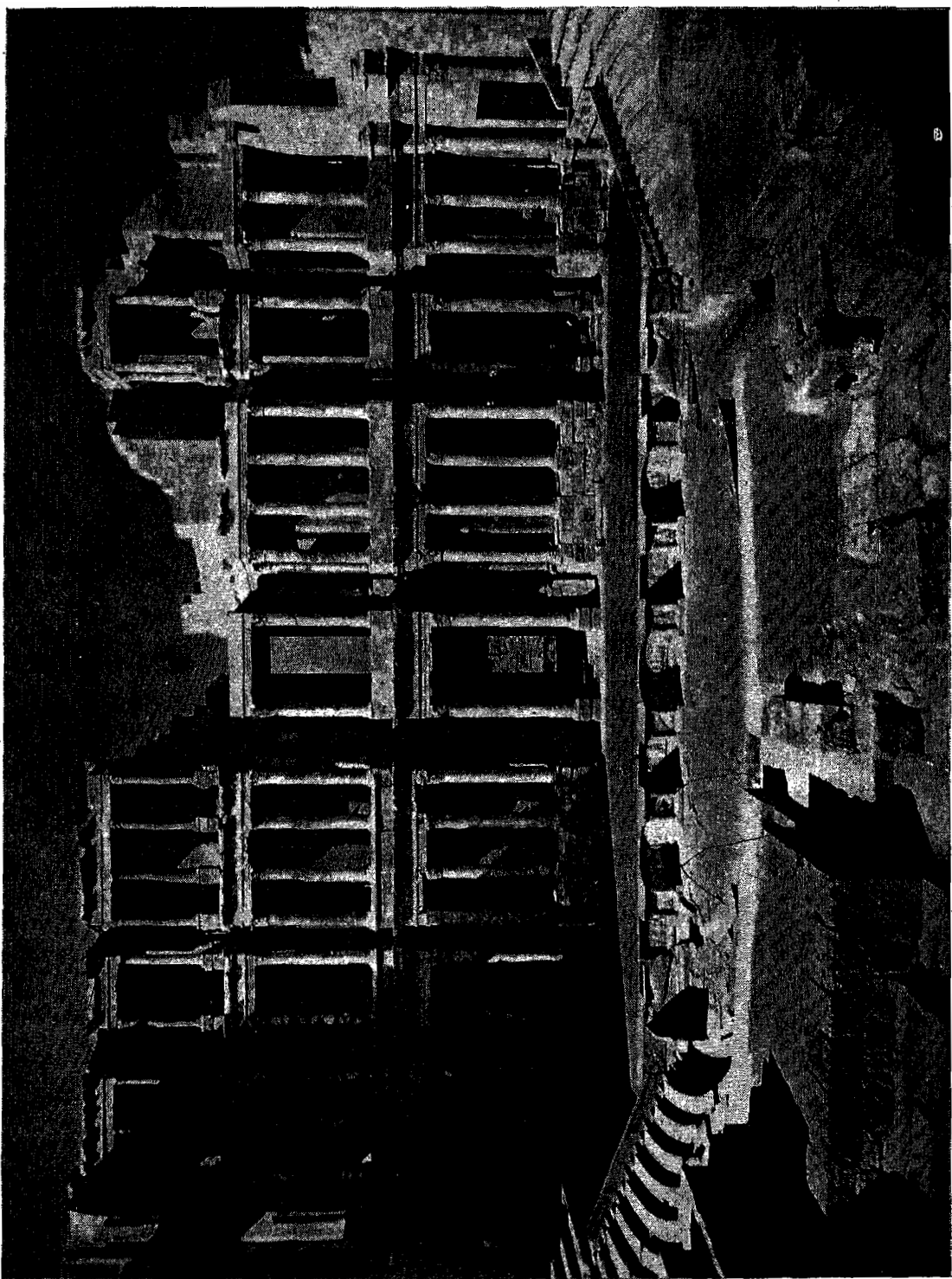
٢٩ - ميترا يقدم الثور قربانا



٣٠ - قناة ماء سيفوفيا (اسبانيا) .



٣١- الفوروم في هيبون (عناية - الجزائر) .



الديانات القديمة والجديدة

الوضع الديني في عهد الامبراطورية المتأخر كان أكثر دلالة على المستقبل من الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، يكشف عنه بصورة اوضح واجلى . فالعقائد الدينية المتباينة ، قامت في هذا جنباً الى جنب بعد ان يسّرت الاتصالات بين الولايات المتباعدة ، وسهّلت سبلها ، وانفتحت منها الابواب على مصرعها امام الديانات والعقائد الأجنبية ، فأدت المنافسة التي اشتدت بينها ، قبل نهاية القرن الثاني ، الى فوز العقائد التي حُوربت بعنف في الماضي ولاسيما مع مطلع الامبراطورية ونشأتها ، باعتبارها منافسة للنظام القائم في البلاد ومغايرة للتقاليد الرومانية . فبعد ان لقيت بعض الاغضاء والتسامح لم تلبث ان فازت بحق الرعوية وأصبحت مهياة ليس لزعة الامبراطورية فحسب ، بل ايضاً لنفخ روح جديدة فيها وبعثها من عثارها والركود الذي صارت اليه .

العاطفة الدينية

اتصفت النخبة التي تولت مقاليد الحكم في روما ، في اواخر العهد اوغسطس وموقفه من الديانة الجمهوري ، بعدم مبالاتها بالدين . فهذه الطقوس الدينية الرسمية التي ارتبطت مظاهرها بحياة الدولة ، والتي كانت تمثل بقية من هذه العقائد الايطالية الرومانية ، أضيفت اليها فيما بعد ، عناصر يونانية لم تكن تمثل في نظر هذه النخبة ، سوى مراسم لا بد منها للنظام العام القائم ، رمزاً بالاكثير ، لمبدأ ديني عانى ، هو الآخر ، من هذا القلق الروحي الذي استبد بالاذهان . فالاعباد تهمل جانباً ، ويعفو ذكرها ، ويتناسى أمرها ، والهياكل يتجافي الناس الدخول اليها ، والوظائف الكهنوتية يُزهد بها ويُعرض عنها فتبقى شاغرة ليس من يملؤها . وما ان أطلّ اوغسطس بعد ان تم له من الأمر ما تم ، حتى راح يصحح الاوضاع ويكافح هذا الإعراض ، ويُعيد من تدهور المشاعر الدينية . فقد تمنى ان يكون ، وأصبح بالفعل ، المصلح الحقيقي للديانة الوطنية حتى في اقدم مراسمها ، وأخذ يرمم المعابد ويعيد اليها رونقها ويضفي على هذه المزارات الدينية والاساطير التي تمثلها او ترمز اليها ، بهاء لم تعهد مثله من عهد بعيد ، ويملأ الوظائف الكهنوتية الشاغرة . كذلك حرص ان يعيد تشكيل المنظمات والجمعيات

الدينية وينفخ فيها نشاطاً جديداً بدخوله في عضويتها . هنالك حادثان يثلان خير تمثيل سياسته الدينية : رفضه انتزاع لقب « رئيس الاحبار » Pontifex Maximus من لبيدس Lépidus ، زميله السابق مع انطونيوس في الحكومة الثلاثية Triumvirat . فقد آثر ان ينتظر حلول أبحه حتى يكرّمه ، هو نفسه ، في هذه الوظيفة السامية ، وفقاً للقوانين المرعية لتتم له بذلك أعلى سلطة دينية دون ان يسّ الشرعية بشيء . اما الثاني ، فاحتفاله بأبيه وجمال ، طوال ثلاثة ايام وثلاث ليل ، بالأعياد القرنية Jeux Séculaires التي كانت تحيي ذكرى تأسيس روما ، وذلك باستمطار البركات السباوية على المدينة الخالدة وعلى سكانها .

وبعد الجهود التي بذلها العلماء لسبر مشاعر اوغسطس الدينية ، وتحليل نوازع نفسه الدينية ، من حيث حقيقة موقفه من الدين ، يبدو من المستحيل اليوم ، التشكك في اخلاص سلامة نواياه او الارتياب في صدق عواطفه الدينية الصادرة عن إيمان حسي . فالعمل الذي انجزه في هذا المجال ينسجم كل الانسجام مع العمل السياسي العظيم الذي قام به والذي رمى منه الى اصلاح الدولة والنظام الاجتماعي القائم في الامبراطورية . غير ان النجاح الذي اصابته السياسة العامة التي انتهجها لا تسمح لنا بان نرى فيه غير مصلح واداري ماهر ، كما ظهر بالفعل رجلاً شديد الايمان برسائله . فاخلاصه يبرز بهذا الاستمرار في العمل الذي اضطلع به ، وبمواصلة الجهد فيه ، والإستدامة عليه ، وفي مداخلاته المتكررة ، وفي سخائه وبذله على شؤون الدولة واصلاحها ، وفي هذا الاهتمام الذي برهن دوماً عنه والذي طالما نوه به وألمع اليه باسهاب وبشيء من الرضى الذاتي ، في كتابه : « امور الحكم » ، وفي خطبه التي شدد فيها على هذه الامور وبالاخص على هذه العناصر الجديدة التي لقح بها الديانة الرومانية في محاولته اصلاحها والرفع من شأنها . وقد ادخل على هذه الديانة التي كانت عبارة عن طقوس دينية تشير الى هذا الترابط بين الالهية من جهة ، وبين المؤمن او جماعة المؤمنين ، من جهة اخرى ، شعوراً حياً اتصف بالعمق ، وصدق العاطفة ، وهذا الوفاق والجلال الذي اضفاء على الاحتفالات الدينية الرسمية . فاخذته بالخرافات والاساطير جعله يستنطق الأحلام التي تراوده ، ويطلب تفسيراً لها ، ويعتمد على زجر الطير ، وتعليل الحوادث الطارئة التي تملأ النفس دهشاً : كالصواعق والالتقاءات المفاجئة ، والحوادث العادية في الحياة ، وكلها ظواهر طبيعية حاول الرومان ، منذ القدم ، ان يلبسوها معنى خاصاً ، وغيرها من الامور التي يعلقون عليها في الخارج ، مدلولاً رمزياً خاصاً ، كالطالع الذي اخذ له وهو بعد ، حدث يافع ، وبرج الجددي الذي ولد تحته ، وهي طوال خلدوا ذكرها بنقشها على احدى قطع النقود الرومانية ، كما حُفرت حفرأ ثائناً ، على رصيبة عُرفت برصيبة « فيينا » . وقد تأثر هو وبطائنه تأثيراً عميقاً بالفيثاغورية الرمزية ، كما راح يستلهم بعض الطقوس المستمدة من الشرق الهليني وأبى ان يدخل يوماً هيكلًا في مصر ليسجد للإله ايبس او هابيس (Apis) ويقدم له القرابين ، وامتنح حفيده لأنه رفض ان يقدم القرابين ، هو الآخر ، لإله اليهود في القدس ، وحظر الاحتفال بعيد إيزيس على ارض روما ، بينما أظهر مشاعره الدينية نحو الآلهة اليونانية الملشأ والمصدر ،

المشهود لها بالحسب وشرف المحتد . وقد علقت أهمية كبرى على اشتراكه بأسرار الفسيس ، والاعباد القرنية التي حدد وقوعها بدقة كلية ، هذه الاعباد التي لقت التقاليد الرومانية بأشياء كثيرة استمدتها من الميثولوجيا عند اليونان وديانتهم وطقوسهم العبادية . كل هذه الامور تشير بوضوح الى انه صدر في الحركة الاصلاحية الدينية التي قام بها ، عن يقين صادق وإيمان حي وطيدين ، وانه لم يرض او يقنع بنظام ديني ، حربي ، جامد ، بل اراده ان ينبض بعاطفة دينية مشبوبة .

ليس من يُنكر قط ان الحركة الاصلاحية الصادقة التي قام بها تركت اثراً عميقاً في التطور الادبي الذي طلع على المجتمع الروماني . فلم يستدع عمله الاصلاحى بين الطبقات الشعبية الوسطى والدنيا جهداً كبيراً ، لأنها كانت ، على الاجال ، بمنزل عن موجتي الكفر والاحاد اللتين غمرتا الطبقات العليا ، ولأن مثل الامبراطور وسلوكه كان له أكبر الوقع كما كان أكبر مشجع لها . فالشواهد الكثيرة التي يمدنا بها علم الآثار ، والرقم القديمة التي عثر عليها المنقبون في ايطاليا وفي غيرها من الولايات الرومانية ، تنطق عالياً بما كانت عليه هذه الطبقات من عاطفة دينية ملتبهة بالرغم مما شابها من خرافات صيبانية . اما الطبقة الاجتماعية العليا التي غمر الكفر والاحاد معظم بنيتها ، فقد انقلب فيها الوضع فجأة . ويميل المرء الى الاعتقاد بأن طيباريوس ، وهو من أتباع مذهب العقلين ، كان خاتمة الملحدين ، اذ ان استلطاف الامبراطورة بلوقين لتعليم الفلسفة الابيقورية ، كما تشهد على ذلك ، احدى النقائش التي عُثر عليها في اثينا ، لا يستدعي قط ، تسليم ارملة الامبراطور ترايانوس بالنتائج التي تقضي اليها تعاليمهم . وليس من الحق ولا من العدل بشيء ان نغزو الفضل كله لنفوذ اوغسطس وسطوته . فالقلق النفسي الذي استحوذ على نفوس الناس خلال الحرب الاهلية الدامية كان له تأثيره الظاهر ، ولا شك ، هو الآخر ، اسوةً بهذه العقائد والفلسفات التي قدمت من العالم اليوناني . وليس من الصدفة بشيء ان يكون عهد اوغسطس الطويل الذي شهد مطلع الامبراطورية وزاقت نشأتها ، من هذه الناحية ، نقطة الانطلاق لتطور حاسم خلاق .

وهذا التطور الذي اخذت الامبراطورية بأسبابه ، مهّد لازدهار التعاليم والنظريات الفلسفة والدين الفلسفة الكبرى ، كما اسهم في النجاح الذي لقيه الناهضون بالدعوة لها والعاملون على نشرها ، بحيث لو اخذنا نبحت ، منذ الآن ، في تعاليم هذه الفلسفات وننعم النظر في مبادئها ، قبل ان نتفرغ لدرس الحياة الفكرية والادبية التي ازدهرت في ارجاء الامبراطورية اذ ذاك ، لكننا وقمنا في مفاظة فاضحة ، ليس من حيث الشكل فحسب ، بل من حيث الاساس ايضاً .

بين هذه المذاهب الفلسفية ، يمكن ان نضرب صفحاً ، عن ذكر ، الفلسفة التشككية أو السفسطائية التي لم يكن لها أي صدى ، والفلسفة الكلبية التي اتجهت بالأخص من الجماهير والشارع وبقيت كلثاماً شبه مجهولتين في روما . فالفلسفة الابيقورية (Epicurisme) وحدها ، كانت ملحدة معطلة ، اذ أن الخوف والرجاء المرتبطين بالعمل الإلهي المتوقع ، يذهبان

بالهدوء التام الذي تتوقف عليه سعادة الانسان . فقد عرفت هذه الفلسفة ان تحافظ بكل دقة، مصنونة من كل تغيير أو تبديل ، على فكرة المعلم الذي وضع اسس هذه الفلسفة ، في مطلع القرن الثالث ق.م . كما عرفت أن تحتفظ بحب الناس له واحترامه . فقد اطلعت في روما بمثلها الاكبر لوكريس ، اذا شئنا ان نضرب صفحاً عن هؤلاء الذين بعد ان شوّها تعاليمها وغيروا من مقالاتها، راحوا يدعون ان فيها ما يبرر إشباع شهواتهم وملذاتهم . وقد خف تأثيرها، أقله في روما، بعد ذلك . أما في الشرق الهليني حيث راح أتباع هذه الفلسفة ينتظمون في نوادر وحلقات خاصة ، فقد تمكنت من ان تحافظ على نشاطها الى عهد الامبراطور مارك اوريل ، فأُسند اليهم أحد الكراسي الأربعة التي أسسها في أثينا ، ولم يتورع أتباعها من اظهار كفرهم وجحودهم في هذه المناقشات والمجادلات ، وفي هذه المظاهرات العامة التي قاموا بها إذ ذاك ، فأثاروا تشكك الجماهير ، واستهفوا ، نتيجة لهذه الأعمال ، لردود خصومهم المفعمة ولرشقهم بالشتائم وبأقذع الكلام أحياناً .

فراحت الشيع والمذاهب الفلسفية الأخرى تتكتل ضدها، بعد ان تجند من رجال الفكر بينها من تصدى لها بالرد العنيف؛ اذ لم يكونوا ليفرقوا بين الفلسفة والدين . « يا بني ، كن ورعاً تقياً » كما جاء في نص يوجز جيداً الكثير من مآثر الكلام في هذا المجال؛ « فالتقوى هي رأس الحكمة ، كما ان ليس باستطاعة أحد ان يبلغ التقوى الحقيقية بدون الفلسفة » .

أما الفيثاغورية *Pythagorisme* ، فقد تقدمت من أذهان الناس ديناً جديداً أكثر منها فلسفة . فقد عاف الناس التحدث عن نظرية الأرقام والاعداد التي قال بها مؤسس هذه الفلسفة وعلم ، كما انها تخلت ، هي ايضاً ، عن تحرياتها وتقصياتها العلمية التي كانت يوماً ، سبب شهرتها ومجدها . وبعد مرامم عديدة من التطهير، ومجادة النفس بالصبر وطول الأناة، وشطّفت العيش والاعتصام بمجمل الاخلاق الفاضلة ، راحت تعلل أتباعها بالسعادة في الحياة الأخرى . وقد راح بعضهم ينتحل القدرة على اجتراح المعجزات والتنبؤ بالكشف عن الغيب كالمجوس . فقد نهج السواد الاكبر بينهم نهجاً ليناً في الحياة ، مفضلاً الانطواء على نفسه ، رحيماً ، حليماً ، وانقطع للتأمل والتجريد العقلي ، مرتدياً لباساً من الكتان الابيض وهو مسترسل الشعر .

فالأعمال التي قام بها في روما نيجيديوس فيفلوس، في اواخر العهد الجمهوري وسكستوس، وحفيده ، في عهد اوغسطس ، عادت على الفلسفة الفيثاغورية بنجاح عظيم ، كما يشهد على ذلك نشيد مبنى « الباب الكبير » *Porte Majeure* وقد أهمل هذا المبنى ، فجأة ، في اواسط القرن الاول ، لاسباب نجهلها . ولم تحافظ المدرسة الجديدة على حيويتها ونشاطها إلا في اليونان . فوقع بلوتارخوس (بلوتارك) نفسه تحت تأثيرها ، كما عدت لها ، في عهد الاسرة الفلافية ، ممثلاً كبيراً في شخص ابولونيوس دي تيان ، الملقب بصانع المعائب *Apollonios de Tyane* .

لم يتمكن الافلاطيون من كسب أتباع لهم في روما، بينما تكاثرت عددهم في الشرق الهليني، فقد عرفوا ان يقوّوا الدعوة الدينية التي بنسبها مؤسس هذه الديانة ، وجعلوا من فكرة الله ،

أكثر من أي وقت آخر ، محوراً لتأملاتهم ، وحاولوا ان ينقّسوا هذه الفكرة من الشوائب التي علقت بها ، وان يعيدوا اليها صفاءها ورواءها ، فجردوها وأبعدوها عن صفاتية العالم المادي ، واقاموا بين الله والعالم وسطاء ممثلين هؤلاء الابالسة الذين لا حدّ لهم ولا حصر ، وبذلك انفتح المجال للأخذ بكل صور الديانة وأشكالها بما فيها من الخرافات والاساطير الشعبية .

ولم يختلف الوضع كثيراً هنا عما كان عليه في الفلسفة التي سجّلت أكبر قدر من النجاح اذ ذاك ، هذه الفلسفة التي طلع بها زينون والمعروفة بفلسفة زينون *Stoicisme* . فبعد ان كان زينون رقيقاً عند احد معتوقي الامبراطور نديون ، وطرده دوميتيانوس من روما ليعود اليها من جديد في عهد هدريانوس ، تمكن أبكتيتس من مواصلة النهج ذاته الذي وضعه بانايديوس وأكمله بوزيدونيوس . وهكذا استطاعت فلسفة زينون ان ترفع باسم الفضيلة صوتها عالياً في وجه الاباطرة الذين عُرفوا بشططهم ، في القرن الاول ، كما استطاعت ، في القرن الثاني ، ان تؤثر عميقاً في حلقات المثقفين ونوابههم وجمعياتهم ، قبل ان يساعد مارك اوريل بسلوكه على تكثير اتباعها ولو في الظاهر . وبقيت هذه الفلسفة ناشطة في الشرق طيلة هذين القرنين . فقد عرفت تعاليمها بعض التطور اثر وفاة مؤسسها زينون ، واحتلت القضايا الادبية او الاخلاقية محلاً مرموقاً من اهتمامها ، كما انها جعلت من الإله الذي آمنت به وحدة نظام هذا الكون وباعت الحياة فيه . فالقدورية بقيت قائمة كما بقي من واجبات الانسان ان يرتفع الى مستوى النظام العام ليصبح بطاعته وخضوعه « جندي القدر » . إلا ان تابع هذه الفلسفة لم يلبث ان تبين الضعف البشري الذي عليه الانسان ، والحافز الذي يحفزها للتعليق بالالوهية ، الا وهو القلق المستحوذ عليه أكثر . من دافع العقل . وكان بحاجة لمن يقنعه بأنه في حراسة الالوهية التي تسهر كذلك على الانسان ، فكلامها موضوع حبها . وقد برهن مارك اوريل عن تقوى مفرطة حتى حدود الخرافة ، مُنمياً نفسه بتقديم القرابين والاضاحي وبطوال الغيب ، حتى ان بعضهم تاهوا وراء رمزية سقيمة .

تلاقحت هذه النظريات الفلسفية الدينية وتمازجت . ولم تبق على صفائها سوى العناية الإلهية الفلسفة الابيقورية ، وذلك بفضل ما عرفت به من صلابة العقيدة ؛ وقد قبست مقالات فلسفية أخرى كثيراً من تعاليمها . وقد تكاثرت أسباب التلاقي والاتصالات بين هذه المذاهب الفلسفية لكثرة ما بينها من تجانس وتقارب في نزعاتها الدينية . وزاد هذا الاختلاط فيما بعد ، لما قام من تجانس بين المبادئ الاساسية لتعاليمها وبفضل اتصالات الحياة العامة ، باستثناء الاتصالات التي قامت بين مختلف فئات هذه الشيع . وقد تقادوا المبادئ الدينية ولا سيما بين اتباع هذه الفلسفات التي عرفت بمشاحناتها الشديدة في اقطار آسيا الصغرى المتهكئة . فلا عجب ان يوجد بينها في امور الدين ، من يقول بوجود عناية إلهية او ربانية ، وان اختلفت هذه التعاليم فيما بعد ، حول نسبة تدخل هذه العناية في تقرير مصائر الحياة على الارض ، ولا سيما حياة البشر ، اذ كان الاعتقاد السائد لدى العموم انها تتدخل في بعض الظروف الخاصة ، اما مباشرة أو بالواسطة . وقد توصلت الى عيب يشبه الإجماع فيما بينها ، إذ سلت بأن هذه

العناية هي عطفة على الانسان ، فيقف حيا لها موقفاً كله أمل ورجاء ، يستنزل بركاتها ، كلما أنيس من نفسه الضعف والتعاسة ، وهو ابدأ على استعداد ليعرب لها عن شكره وامتنانه بجميع الوسائل التي بين يديه .

ومع ذلك ، فهذه الفلسفة التي خضعت لتطور ذاتي ، هل بقيت صالحة لتكون هادياً أميناً ، أم انها اقتصرت على تطوير تعاليمها وفقاً لتيار عقائدي أو شعوري غلاب خارج عنها ؟ فبدون ان تقطع في الامر نفيًا أو اثباتاً ، يكفي ان نرى ، على الاقل ، كيف توفرت جميع الظروف الملائمة لقيام شيء من اتفاق المشاعر بين الاوساط المثقفة وبين الطبقات الجماهيرية التي سيطر عليها الجبل فوحّد بينها بقدر الامكان . وبالفعل ، لم نرَ بين كل المذنبات التي قامت قديماً وتركت وراءها ما يحدّثنا عنها ، مثل هذا الاجماع او الاتفاق التام . ومن الواضح جداً ان تحقيق مثل هذا الاجماع لا يتطلب ان يكون الشعب بلغ مثل هذا المستوى الرفيع المعقول . فالوضع ، على العكس من هذا تماماً ، اذ بقيت الاوساط المستنيرة في المجتمعات الهلينية ماضية في انطلاقها الى الامام ، منذ عهد الاسكندر ، أي مُتَنَكِّبَةً عن النظرة العقلانية ، متوقفة عن تنقية الدين من المعطيات المادية . وهذا الانطلاق اشتد قوة واندفاعاً ، اذ انه انتهى عند الكثيرين ، ولكن ليس عند افضلهم مع هذا — مثال ذلك مارك اوريل — الى الاقتناع عن بذل أي جهد قوي . أو ليس من الاعتبار بكان ، ان نجد في هذا كله ، اثرًا لنظام سياسي آسر ، سيطر على كل سكان الامبراطورية فخصموا ، في مشارقها ومغاربها لرئيس او سلطان واحد ؟ فالصورة التي تجلّت لهم في سلطنة امبراطور كلي القدرة ، اوحّت ، ولا شك ، بأكثر من سبب لمقارنتها بفكرة العناية الإلهية .

وقد نتج عن مثل هذا الوضع ، في المجال الديني ، نتائج عدة . منها ما يتفق النتائج المترتبة
لعمري ، مع هذه المشاعر التي تأثر بها أوغسطس نفسه ، الا انها تجاوزتها على هذا الاعتقاد
بشكل غريب بعد ان اضفت عليها من إتساع وشمول كان من شأنه ان يستمر الخوف في قلب أوغسطس . من ذلك مثلاً ، هذه العاطفة الدينية المفرطة التي تغلّغت الى اعماق شعور الانسان ، والتي ، ان قادته من جهة ، الى حلم معسول راودته فيه رؤى من الاماني العذاب ، فقد عرضته من جهة اخرى ، الى مواقف مخزية من التسكع والتذلل . ومن ذلك مثلاً الاعتقاد بما توجهه هذه الآلهة من وعد ووعد ، بحيث يرى المرء نفسه مضطراً للتصديق بالمعجائب والمعجزات تطالعه كل يوم لتفسير وتعليل ما يتعاقب عليه من بركات . ومن هذا الباب المسدود ، اي الذي فتحه أوغسطس قليلاً ، تدافعت الى الازدهان والنفوس والعقول اغرب العقائد تصديقاً وأصدها للعقل السليم ، فاستقرت فيها . واستبدّت بها . فكيف السبيل بعد الآن ، للبقاء على هذه الحدود والسدود التي يعزّون اقامتها الى أوغسطس ضد بعض الآلهة ، وفي وجه بعض العبادات والطقوس الغريبة المنشأ .

فقد سلموا ، بالفعل ، بوجود وسطاء او آلهة ثانوية ، بين العناية الالهية وبين عالمنا الهولي

هذا. وبين هؤلاء الوسطاء من هو مجرد فكرة، مجهول، غير معروف البتة. ومن الطبيعي جداً أن يُنزل الانسان، حتى من كان منه عالي الثقافة، جميع آلهة الوثنية، هذه المنزلة: فالتضرع اليها ليس فيه ما يضر او يسيء. وهكذا يحافظ الانسان على الطقوس والعبادات التقليدية، وعلى مراسم عبادة هذه الآلهة وتكريمها. كذلك يحافظ على الاعتقاد بهواتف الغيب، اذ يرى ان باستطاعة الجن او الالبسة تقديم النصيح لابناء البشر. ومهما يكن، فالتقليد الوطني او ما يزلونه منزلته، لم يعد في وسعه ان يقدم، في هذا المجال، ركيزة يمكن قبولها او التعميل عليها. فهذه العناية الإلهية التي تغمر الكون بأسره، لا تعرف الحدود والسدود. فالتمييز بين إله وإله، غريباً كان ام يونانياً ام رومانياً، مُتهلناً كان ام مُتليتناً، لا محل له على الاطلاق. فعلى نسبة استلطاف الناس لهذه الآلهة يأتي تأثيرها، مشروطاً بدرجة الاخلاص، وحرارة العاطفة، ونوع التكريم الذي يُرفع اليها. وفي هذه المنافسة الحرة، فلا عجب ان تحظى الآلهة الغريبة او الاجنبية، ولا سيما آلهة الشرقيين بينها، بالمرتبة الاولى، وذلك بفضل ما تتمتع به من طابع غير رسمي، وبفضل ما لها من غنى الرمز، وبفضل ما توحى من ثقة بالنجاة والخلاص.

ومع ذلك، ففوق الاسماء والكنى والالقب والجنسيات تلاحظ المشابهات بأيسر مما تلاحظ الفروق، عند الذين لم تُعطل حرارة العواطف والرغبة في التمتع بالمعطف والحماية، القوة العاقلة والناقذة في النفس. ومن هنا طلعت حركة التوفيق بين الاضداد المتباعدة التي ربما انتهت الى شيء من توحيد العنصر الالهي اينا وجد. وهذا بالذات ما حدا بأديب بئثينيا، ديون ديه بروس الذي لقب بحق: «فم الذهب» الى ان يكتب في اواخر القرن الاول ما يلي: «أخذ البعض يدعي ان ابولو، وهيليوس (الشمس) وديونيسوس هم واحد، وانت تقول القول ذاته. وأكثر من هذا بكثير يُجمع عدد كبير من الناس ببساطة كلية. على ان يروا، في كل الآلهة مجتمعة، قوة واحدة، وقدرة واحدة، بحيث لم يعد من فرق قط، بين تكريم هذا أو ذاك، من بينها».

وأخيراً أخذ الناس يعملون النفس ان باستطاعة الالبسة، اختياراً كانوا أم اشراراً، حتى الصغار منهم الذين يسمون فوق ضعف البشر بكثير، ان يرغبوا الناس، ببعض الوسائل المجرية التي لديهم، على التصرف حسب ما يريدونه منهم. وهكذا نرى بإشكالها المختلفة، اعمال السحر، والتعزيم والشعوذة آخذة بعضها برقاب البعض، في حياة الانسان.

وهكذا شهدنا طلوع ثورة دينية حقيقية، تجلت في الشعور الديني، بفوز الرمزية الفردية. أما الحياة الدينية فقد تلبست بمظاهر لا حصر لها ولا حد، لم يلبث بعضها ان زال ومات، تاركاً وراءه مغزى الطقوس الدينية التي تجلّى بها ومعناها، بينما استأثر البعض الآخر بكل الشهرة. فالمراسم الميتة هي التي أحيها أو غسطنس وبعثها حية من جديد. أما الحياة منها فهي التي أقصاها او وضع لها حدوداً لا تتعداها. والتطور السياسي الذي أخذت الحضارة الرومانية بأسبابه انما تم وفقاً للاتجاه الذي أراده أو غسطنس واستطاع ان يوجهه. أما التطور الديني فقد تم بصورة معكوسة تماماً.

٢ - الوثنية وطقوسها

من الجائز ان نمر سريعاً على ما يسمونه بالعبادات التقليدية، أي هذه الطقوس التي العبادات سيرَ عليها في الديانة اليونانية اللاتينية ، وفي عبادة الامبراطور . فقد ازداد عددها : فالاولى منها هي عبارة عن فلسفات جديدة انضمت الى الايديولوجيا الامبراطورية ، وفقاً لاعراف سيرَ عليها في روما منذ عهد بعيد ؛ اما الثانية فتقوم في هذا التقليد المتبع عند الاباطرة وأعضاء أسرم اذ يصبحون متألهين ومتألهات *Divi et Divae* عند وفاتهم . ولهذه الطقوس العبادية ميزة مشتركة تقوم في ارتباطها جميعاً بالدولة . وعلى الدولة تتوقف حياة هذه الطقوس واستمرارها وازدهارها ، والاحتفال بمواسمها بكل انتظام ، اذ ان هذه القوى او الكائنات الالهية التي تتجه اليها مراسم العبادة ، هي الحارسة لروما ، وهي التي تلهم الحكام ، وتهديهم الصراط المستقيم .

ولهذه الاسباب ، كانت اجهزة الدولة تحرص الحرص الشديد على الاحتفال بهذه العبادات بكل دقة . فالامبراطور يعطي فيها المثل الصالح ، كما ان مجلس الشيوخ لا يمكن له ان يتهاون يوماً بأمرها . فليس من منصب ديني إلا ويُمَلَأ ، وليس من رتبة دينية إلا ومن يمارسها ، اذ لكل واحد دوره وعمله المحدد ، في هذه الرُتب التي تتدرج صعوداً لتبلغ أعلى المراتب . فالوظائف الكهنوتية الصغرى والمحلية كانت تُتمهد الطريق لاصحابها الى البورجوازية ، بينما ينال الشفاليه درجات صغرى تحول حاملها ترؤس الاحتفالات الدينية التي تقام في ضواحي روما وأرباضها ، كما كان يؤخذ من بين اعضاء مجلس الشيوخ ، اعضاء الجامع الرومانية . اما الامبراطور فكان يرقى اسراً جديدة الى مرتبة الحاكمية وذلك لتوفير ما يلزم من الموظفين لإشغال بعض الوظائف الخاصة ، ككهانة المشتري وجوبيتر ، مثلاً . ولم تكن المعابد والهيكل يوماً ، أكثر منها عدداً ، ولا أبهى منها زينة ، كما لم تكن الذبائح والاضاحي أسمى منها وأبذل . والاعياد لا افخم ولا أبهى ، موزعة على ايام السنة . والرغبة في ممالأة الشعب والتزلف الى الجماهير ، والظهور بمظهر السخاء والبذل والعطاء ، كل ذلك جعل سرابة القوم واعيانهم من الامبراطور الى حكام المدن الصغيرة يندفعون في هذا المضمار . وعبثاً حاول مارك اوريل تحديد عدد الاعياد الرسمية التي تقفل فيها ابواب الحاكم يجعلها ١٣٥ يوماً في السنة . فما كاد يتوارى عن المسرح حتى عادت الامور الى مجراها الاول باندفاع لا يقاوم . وكان إطار هذه الاعياد وجوهاً خالياً من كل تقوى او خشوع حقيقي ، إلا اذا رغب المرء ان يرى فيها تعبيراً خاصاً ومدلولاً يبتعد كثيراً عن الفكرة الاولى .

ولكن لم يكن في الامكان ان نردّ هذه التقوى الى الرغبة في تقليد روما وذلك عن طريق تبني حضارتها ، ولا اضافة شيء عليها من عواطف الشكر والولاء لها . وقد راحت المدن في كل مكان ، ولا سيما في الولايات الغربية التابعة للامبراطورية الرومانية حيث حركة الليتنة كانت

ترادف التقدم الثقافي والاجتماعي والقضائي ، تدبني آلهة الديانة الرومانية . فالمستعمرات الرومانية واعضاء المجالس البلدية كان مهمهم جداً ان يشيدوا « كابيتول » أي هيكلًا خاصاً بعبادة جوبيتر « العظيم ، الخير ، الكبير » ؛ فكان ذلك التكريم موجهاً بالفعل لروما ولما حاضرتها الخارجية أكثر منها لعقائدها . قد تكون عبادة الامبراطور في الاساس ، أكثر تعقيداً ، اذ انه حدث ، تبدو مظاهره ولا شك ، عفوية طوعية ، قامت بها جماعات من متوسطي الحال ، بحيث أصبحت هذه العبادة ، بالضرورة ، متشابهة بالنسبة لاستمرارها وللزيادة المطرد لجماعة المتألهين (*Diri*) الذين كان لا بد من تصنيفهم الى فئات حسب الأسر . زد على ذلك ان تكاليف هذه الطقوس الدينية الباهظة ، كثيراً ما أرهقت ، ان لم يكن في روما ، فأقله في البلديات والنواحي الاقليمية ، موازنة هذه الهيئات والمنظمات ، كما انهكت موارد الخاصة . وعندما ذابت هذه الثروات الخاصة امام التكاليف والازمات الاقتصادية ، اخذ اصحابها يُعرضون عن الوظائف والراتب الكهنوتي ويتحولون عنها . وهكذا زهد الناس بهذه الوظائف كما زهدوا بالوظائف البلدية الاخرى ، مما حدا بالحكومة على فرض هذه الوظائف بالقوة ، كما اجبرت البعض على قبول وظيفة رئيس العشرة *Décursion* . غير ان لجوء السلطة الى الاساليب ذاتها ، انما يعني ، ان هذه الوظائف ، في نظرها ، هي على مستوى واحد في كلا الجهازين الاداري والسياسي .

فالحياة الدينية الحقة لم تكن هنا في روما . فقد كانت خارج روما ، العبادات الاجنبية : الغرب حيث كان باستطاعتها ان تجدد ، كما وجدت فعلاً ، الآلهات والعبادات التي لم يكن تبنيها من قبل الدولة والاعتراف بها ، ليجعل منها مؤسسات رسمية ، كما كان من شأنها ان تتحجر وتجمد من جراء إشراكها بالاحتفالات الرسمية . فباقتباس روما هذه العبادات : ثارة من رعاياها ، وطوراً من الخارج ، جعلها تصدر عن تقليد عرفته من عهد بعيد ، وسارت عليه طويلاً . فقد عرفت ان لا تقصر نفسها على السلبية ، بل استقبلت باهتمام كلي ، وببحث جادة ، عن مؤثرات دينية طلعت من ايطاليا واليونان . فرحابة الامبراطورية واتساعها وسع امامها مجال القبس في امور العبادة والذين ، لم تقف الحدود الجغرافية حائلاً دون عملية الاختيار والاصطفاء . فالعلاقات التجارية التي كانت تستأنف بسهولة في فترة ما بين حربين ، كانت تحمل مع السلع التجارية ، آلهة وعبادات جديدة .

فباستثناء افريقيا القرطاجية القديمة - وقرطاجة جزء لا يتجزأ من الشرق - كان من الطبيعي جداً ان يقل اقتباس روما من الديانات والعبادات المعمول بها في الغرب . فهي لم تقف موقفاً معادياً لهذه العبادات ، ولم تضطهدا قط ، انما تشددت في تحريم القرابين والذبايح البشرية ، كما راحت تحت من الاساس ، في غالبا ، لاسباب سياسة محضة ، المنظمات الدرويدية وتشكيلاتها الكهنوتية . فالمدنيات التي قامت فيها مثل هذه الطقوس الدموية ، هي من التأخر ، في نظرها ، بحيث لم يكن بين هذه العبادات ما يغري بالاقبال عليها . ورغبة من الموظفين الرومانيين في اكتساب

عطف احد الآلهة المحليين واستمالته ، وعلا بآيمانهم بقوة إلهية شاملة . تتجلى بكائنات متعددة الاشكال ، راحوا يقدمون ، هنا وهناك ، حتى من كان بينهم من أصل ايطالي ، وفقاً لظروفهم الادارية والتنقلات التي تفرض عليهم من جانب الادارة المركزية ، بعض القرابين والتذوّر لبعض هذه الآلهة التي هي موضوع عبادة محلية ، في اسبانيا او في غاليا . ثم ان طبيعة الجيش الروماني وطريقة تشكيله وتكوينه من عناصر عرقية متباينة ، وتنقل فرق هذا الجيش من مركز الى آخر ، كثيراً ما تسبب في توطين احد الآلهة الغريبة عن البلاد ، في المنطقة المربط فيها الجيش ، فتظهر فيها طقوس وعبادات جديدة . ففي بعض فرق الحباله مثلاً ، نرى الإلهة إيدونا الغالية ، تراحم بصورة غير متعادلة ، عبادة الإلهة التراقية الاصل « هيرون » التي انتشر تكريمها والتعبد لها بين الاوساط العسكرية الهلينية ، وغير ذلك من الشواهد والامثلة التي تبقى ، مع ذلك حوادث فردية . لا كبير شأن لها . فروما لم تقتبس من الغرب ، في الدين ، شيئاً يذكر . فهي ، على عكس ذلك تماماً ، اعطت الغرب كثيراً من طقوسها وعباداتها الاصلية كما اعطته عبادات اجنبية بعد ان اضفت عليها لبوساً رومانياً ، او انها كانت مراً لهذه العبادات في انتقالها من بلد الى آخر .

وقد حدث عكس ذلك في الشرق تماماً ، حيث نشاهد عملية إلباس تفوق الشرق وتساميه الديني الآلهة المحليين لبوساً رومانية . فالإله بعل ، الذي كان موضوع عبادة في مدن سوريا كهلبوليس (بعلبك) ودمشق ، والإله دوليخه الذي كانت عبادته تقام في مقاطعة كوماجين والذي اخذ الاغريق بتسميته زفس استحلال المشتري « جوبيتر » عند الرومان ، دون ان يجري تجريده من الصفات والمتاقية التي عرف بها في مواطن عبادته الاصلية ، كما حاول الغرب السير على هذا النهج ذاته مع الآلهة التي اقتبسها ، دون ان يبدل من عبادتها وطقوسها الدينية . فقد اقتبست روما الكثير ، دون ان تعطي الشرق شيئاً يذكر ، وذلك بالرغم من موقف اباطرتها المعارض ، الذين لجأوا ، للحد من هذه الحركة ، الى اساليب شتى من العنف والشدة كالنفي ، ان لم تقل الاضطهاد ، صاحبها حوادث اعدام بالجملة . فبعد ان تم لاوغسطس النصر على انطونيوس وكليوباترا ، اخذ على عاتقه إصلاح الديانة الرومانية وبعث مناسكها ومراسمها من جديد ، فوقف في وجه هذا التيار للحد منه . وسار سيرته طيباريوس ونهج نهجه بصورة اشد واعنف . ثم عقب ذلك فترة من التساهل والتسامح والقبس من جديد لم يكن الاباطرة قط بغرباء عنها .

هنالك دوافع كثيرة وبواعث عدة لهذا الاندفاع الشديد الذي لا يقاوم . فالشرق أمداً روما بالكثير من الأفكار الجديدة والنظريات الفلسفية على اختلاف ألوانها من سياسية واقتصادية وفكرية ، كما أمدها بالكثير من الرجال والأرقاء الذين امتازوا بمحبة الذكاء وبالمرونة ، وبالخدمات التي أدّوها لأسيادهم ، كما أتحث لهم حركة العتق التي نشطت بين صفوفهم ، مخالطة جميع الطبقات الاجتماعية . ومع هذا الدفق من الهجرات ، وهذه المجاري الفكرية التي دخلت روما ، دخلها في الوقت ذاته ، صدر كبير من آلهة الشرق وما لها من عبادات ومراسم وطقوس ، عرفت

ان تستبد بنفوس الرومان ، وتملك عليهم مشاعرهم ، وذلك بما أضفت على الحياة الدينية من أشياء لم تكن معروفة عندهم من قبل ، لقيت هوى في قلوب الرومان لإشباعها منازعهم الروحية ، وعرفت ان تجتذبتهم وان تفرهم على اعتناقها . وهذا الاغراء او الانجذاب خضع له الاغريق من قبل ، قبل ان تضعهم فتوح الاسكندر وجهاً لوجه مع الشرق ، فكان لها الوقع الأسر نفسه على الرومان ، للأسباب ذاتها . فهذه الطقوس الجافة والمراسم الباردة التي كان يحتفل بها رسمياً باسم الدولة وتجري برئاسة أولي الامر فيها ، كانت تتجه من الفرد دونما نظر الى وضعه الاجتماعي ، اذ كان يجد نفسه معها امام آلهة قريبة الى نفسه ، بعد ان احسن تجريدتها مما أضفوا عليها من مسحة الخلود والجبروت والقسوة ، وهي آلهة جاشت مثله بالاحاسيس والمشاعر : كالخوف والقلق والحب ، تتألم وتموت ثم لا تلبث ان تنفض عنها غبار القبر ، ناهضة مشرقة ، جياشة بالحياة ، تشبهاً بالطبيعة . وكثيراً ما كانت هذه الطقوس تثير في نفسه الشجى والأسى ، كما تثير فيه الرجاء بالخلاص بعد قيامه ، بما توجب عليه من مراسم الوضوء والتطهير والنضج ، جسدياً وروحياً ، بعد ان زكت وطابت بهذه القرايين التي يرفعها لها عن رضى وطيب خاطر . ففي مشاركة القوم هذه الاحتفالات وما يجري فيها من طقوس العبادة ، وفي مشاركتهم الأسرار الدينية ، كانت نفوسهم تقع في شبه المخطاط وذمول روحي ، بعد ان خلصت من ادران المادة . وكانت هذه الطقوس في مراسمها المختلفة ، تفسيراً لهذا الكون وتعليلاً لأسرار الحياة ، وذلك باشتراكها الفرد نوعاً ما ، في عمل القوى الغامضة التي تسيطر على مصائر الانسان ، كما تعطيه ، عن طريق السحر والنجامة ، مسحة من العلوم الطبيعية . وهكذا أشبعوا بهذه المراسم ، شتى الرغائب والمنى التي كانت تجيش في النفس البشرية ، بينا طقوس الاحتفالات الرسمية كانت تجري في جو بارد ، جاف ، عارٍ من الوقار الرسمي ، برئاسة وإشراف ممثلي السلطة .

ولكن هيهات ان يأتي هذا الفوران الديني خالياً من الشوائب . فقد الفوران الديني في الشرق
 راح فريق من المشعوذين والممخرقين ، والسحرة والمنجمين ، والمجوسية والمريدين الكلدان ، واتباع إيزيس ، ممن عجزت بهم روما افواجاً وفتراً لا حد لها ولا حصر ، يستثمرون سذاجة عاطفة هذه الجماهير الدينية ، بالرغم من سهر الشرطة واستعمالها الشدة احياناً ، وذلك بما يأتونه ، مأجورين ، من ألاعيب تنزّى بالخداع والغش والتضليل . فاذا ما رأينا انفسنا عاجزين اليوم عن تحديد التبعة التي تقع على جوفنا في ما نتم به من الافتراءات التي غلّف بها الشتام التي كالمها ، فقد وجد في هذه الاعمال المشبوهة ما يغذي حقد الحقيين . ولكي يلهبوا الاخيلة ويهيجوا الأعصاب ، لم يكونوا ليتورعوا قط عن اللجوء الى أقذع الوسائل وان يفتعلوا الحوادث الغامضة ، ليثيروا دهش الجماهير فيقيموها ويقعدوها ، فينصبون في الأماكن التي تجري فيها حفلات الاشتراك بالأسرار الدينية ، التماثيل الناطقة او المتحركة ، وأطيان من الصوت والضوء ، والابواب التي تنفتح او تغلق من ذاتها ، والتنكر بالازياء والملابس الغريبة اثناء الحفلات الدينية ، والآلات الموسيقية الصائتة ، والهناتفات المستيرية والصياح المهتاج . فمن الطبيعي جداً

ان تتحرك مشاعر الجماهير وان تهتاج ، وان يطغوا عليها زبد الطفيليات و نزق المتطرفين والروافض وأعمالهم النكراء : فالحفلات الخاصة بقطع العنق *gui* ، وتمثيل بعض الاسرار الدينية المخالفة للأداب العامة ، او حفلة رش المؤمنين بدم الذبائح ، كلها أمور وشؤون من شأنها ان تثير في نفوسنا اليوم الانقباض والاشمئزاز. ولكن ، هل كانت بعض الطقوس الدينية الأكثر مراعاة للتقاليد ، بأقل إثارة لأذواق المعاصرين اليوم ؟ ان تاريخ الاديان المقارن يقدم لنا أكثر من مثل وشاهد على ان التقوى والورع كثيراً ما تلبسوا بمظاهر انقبضت لها النفوس ، وأثارت المقت والكراهة ، ومع ذلك يجب ألا يغرب عن بالنا قط ، ان الطقوس الدينية الشرقية التي اقتبسها الرومان ، بعد اليونان ، غذت نفوساً وأعدت قلوباً عُرِفَتْ بنبل الاخلاق والمبادئ السامية .

وقد زخر الشرق بمثل هذه الديانات وخصبت فيه العبادات . وهذا الخصب الذي افتقر عنه منذ أولف السنين ، لم يبد ما يشير الى انه أصيب بالنضوب والزوج . فطُلوع النصرانية ليس بالشاهد الوحيد على هذه الخصوبة . فلنقتصر هنا على الدليل الذي تقدمنا به ، بكثير من التفاصيل المثيرة ، وان لم تكن كلها صحيحة ، الرسالة النقدية التي وضعها لوكيانوس *Lucien* بعنوان : « الكسندروس او النبي الكاذب » ، يقص فيها على لسان احد الملحدن الكفّرّة ، مولد احد الآلهة المعنّين بالكشف عن طوابع الغيب ، في احدى مدن بفلاغونيا الصغيرة ، يُعرّف باسم ابونوتيخوس ، في عهد الاسرة الانطونية . وهذا الإله تلبّس صورة أفعى لها رأس انسان ، عُرِفَتْ باسم غليكون وهي تجسيد للإله أسكلابيوس . وقد راح الكسندروس يوحى من الآلهة يستقبل الإلهة وأحلبها محلاً لانقائها ، في احد المعابد ، واخذ يحيب باسمها على الاسئلة التي يتلقاها او تطرح عليه ، ويردّ عليها بهاتف صوتي يخرج من قعقة جهاز تألف من عدة مواشير او انايب رُكِبَتْ على وضع خاص . ومثل هذا الهاتف كان يكلف طالبة أعلى بكثير من الهواتف العادية الاخرى . وسواءً أصحّت ام لم تصح ، تُهمّ التفضيل والحداد التي عزاها لوكيانوس للقائمين بهذه الألاعيب ، فالهم في الامر تلاقي مثل هذه المعلومات وصهر هذه التقاليد والاساطير المتباينة الاصل والمنشأ في ألفة تامة ، وذلك بفضل مذهب توحيد الآراء ، في الحقلين الروحي والطقسي الذي كان ضارباً أطنابه اذ ذاك . كذلك من المهم ايضاً هذا النجاح البعيد ، المستمر ، تلقاه هذه العبادة الجديدة ، وهو نجاح بلغ من الشدة والقوة بحيث ان احد اعضاء مجلس الشيوخ ممن تولوا منصب القنصلية في روما من قبل ، وأصهر فيما بعد ، لالكسندروس المذكور أعلاه ، نقل الى الامبراطور مارك اوريل ، هاتف غيب ، يدعو الامبراطور لإلقاء أسدين في نهر الدانوب فيؤمن بذلك ، النصر على البرابرة . اما شاهد الاستمرار فيقوم في ان ، بالرغم من وفاة الكسندروس ، حوالي عام ١٧٠ ، نرى نقوداً تضرب في بلدة ابونوتيخوس التي اصبحت تعرف في عهد مارك اوريل بـ : *ابونوبوليس* ، وهو اسم نهجسل وجه التسمية فيه ومعناه ، انما بقي باسمه الحديث : *ابنوبولي* ، وتحمل صورة غليكون ، بعد ذلك بخمس وسبعين سنة .

هذا المثل ضربناه ، يرينا الى اية درجة بلغ الاختيار الديني في ربوع الشرق بعد الازدهار العظيم

الذي نعمت به الامبراطورية ، والسهولة التي كانت تتم بها اتصالات الناس بعضهم ببعض ، فجاء ذلك يكمل الفوران الديني والغليان الروحي الذي طبع العهد الهليني من قبل . فعبادة الإله تبحر خسرت كثيراً من جراء الطابع الرسمي الذي اتسمت به عبادتها . ومثل هذا الأمر لم يخل من اثر بَيْن على طالع الامبراطور والمدينة او الجماعة . فالاهتمام بامر الخلاص ، وتوق النفس البشرية اليه ، كل ذلك أوجب حلولاً اكثر فردية وتحللاً من الرسمية الجامدة : فلم تلق يوماً الآلهة الصانعة العجائب ، والآلهة التي في ظقوس عبادتها اسرار ، من الزواج ، ما لقيته ، اذ ذاك . فقد تكاثرت انواع هذه الآلهة واصنافها ، وكانت تماثيل سيرابيس وهي من الفئة الاولى ، تنافس اسكلابيوس ، كما نافست تماثيل ديونيسوس ، وهو من الفئة الثانية . كذلك انتشرت عبادة هذه الآلهة الشغبية واقامت لها هياكل ومعابد في اماكن كثيرة : منها هيكل برغاموس على اسم اسكلابيوس ، حيث رأى والد الطبيب المشهور جالينوس حلماً أوحى فيه اليه بوجوب تعليم ابنه الطب ونال هذا الهيكل من سعة الشهرة ما وازى الشهرة التي تمتع بها هيكل أبيدور . فاینما يتجه المرء كان يطالع ناطقون بهواتف الغيب ، من كل شكل ونوع ، يتوافد اليهم ، للكشف عن طوابع الغيب واسرار المستقبل ، اكثر الناس اخذاً باسباب الثقافة ، وتصديقاً منهم للغرائب والمدعشات التي طالما نعتوها بالمعجزات ، او سعيّاً وراء تفسير الرؤى والاحلام . وانتشرت بالتالي اعمال النجامة لاستطلاع طالع الأقدار المخبوءة أيما انتشار . وهذا الاتجاه العام الذي بلغ الجوس ، نحو القوى الخارقة للطبيعة ادى الى حركة شاملة من تبادل الطقوس والعبادات ومزجها بعضاً ببعض .

كل هذا السيل الجراف من عديد الآلهة ومناسك عباداتها وطقوسها الغريبة
العبادات الشرقية
الطابع ، سواء أصدرت من الشرق عامة ، او من هذا الشرق الخاضع لسلطة
في الغرب
روما وسيادتها ، او من هذا الشرق الأبعد ممثلاً ببابل وايران ، الخاضعتين
للفارثيين ، اندفع نحو الغرب ، فغرق ايطاليا وروما بسيله ليتجاوزهما أبعد الى الغرب : الى
الولايات اللاتينية اللسان واللغة .

فما من إله شرقي قط ، الا ونرى أتباعه ومريديه يروجون له لدى جميع الشعوب ، وفي كل صقع وناد ، جاهدين مجاهدين لكسب المزيد من المريدين . فمن المغرب الاقصى الى اصقاع بانونيا في شرقي اوروبا ، نرى افراداً في الجيش الروماني من اصل عربي يُحيون مناسك آلهتهم الوطنية ويطبقون مراسم عبادتها ، كالإلهة ثياندروس ، ومنف . من الثابت كذلك ان بعض المواطنين الرومان من الافارقة اصلاً ، ادوا خدمتهم العسكرية ، في الفرقة « التدمرية » فادخلوا طقوسهم الدينية الى بلدة القنطرة في المغرب ، ومنها جنوباً الى لاغوات ، وقدموا نذوراً لإله بليريا : ملاغيبيل . فمن غير ان نأخذ بتعداد هذه الطقوس والعبادات المختلفة ، نقصر منها على تلك التي لقيت عبادتها رواجاً اكبر . « قربة الآلهة » سيبييل ، الفريجية الاصل ، جرى توطئتها في روما منذ نهاية القرن الثالث ق.م . الا ان عبادتها وتكريمها وفقاً للطقوس الشرقية ، لم تصبح رسمية الا في عهد الامبراطور كلوديوس ، عندما أدخل الى روما عبادة الثالوث الذي تألف من ابنها

وعشيقتها أتييس . وقد احتاط الامبراطور للامر عندما راح ينظم هيئة الكهنة الذين عهد اليهم بالكهانة لهذه الالهة . الا ان ام مادة في هذا التنظيم بقيت حبراً على ورق : ففي الحين الذي كان فيه القوامون (Archigalles) على هذه العبادة يختارون من بين المواطنين الرومان وتجري تسميتهم في روما ، من قبل مجلس الشيوخ ، وفي الملحقات ، من قبل الادارة المحلية ليتولوا رئاسة خدمة المعابد ، كنا نرى عُمداً (Galles) من الحصيان ، يمارسون ، بالرغم من الشرائع والقوانين التي كانت تمنع الخصاص وتحرمه ، هذه المراتب الدينية في بلدان لا تقع في آسيا ، وهي القطر الوحيد الذي سمح بقيام هؤلاء الحصيان بمثل هذه المراسم .

وكان هؤلاء الكهان يحتفلون بهذه الطقوس ، علانية في شوارع المدن خلال فصل الربيع ، في مواسم يستمر الاحتفال بها ١٣ يوماً متواصلاً . وكان يسبق هذه الاعياد مراسم من الصوم ، وطقوس من التطهير تشبه هذه الطقوس التي كانت تذكرنا بقصة أتييس وما اليها من نوح النائحين وندب الناديين ، وتشويه الرافضة اجسامهم بصورة وحشية تقشعر منها الابدان ، خلال حفلة الجنائز ، تازجها قهقهات ساخنة من الضحك خلال تمثيل عملية قيامها من بين الاموات . والحفلة الوحيدة المعروفة تفاصيلها لدينا بالتدقيق ، هي تلك الحفلة التي كان يرافقها ذبيحة الثور Taurobole او الكبش Criobole ، اذ كانت ترمز الى انتقال عنصر الحياة من الضحية الى الانسان الذي يُضح بدمائها ، فيكون ذلك عربوناً لخلوده ، ويُرمز الى دفنه في القبر بوجوده في حفرة ، والى تنقيته من ادران الخطيئة وتجدهه ثانية . كما ان في ذلك إشارة الى الولاء السياسي وان كنا نجعل وجه الرمز في هذه الضحية التي كثيراً ما تُقدّم لخلاص الامبراطور ، واحياناً لخلاص افراد أسرته .

وكان يشارك سيرايس في هذه العبادة ، الالهة المصرية إيزيس التي ما لبثت ان تغلبت عليها . فبعد ان حظّر كل من اوغسطس وطيباريوس الاحتفال بمراسم هذه العبادة في روما ، راح كاليغولا يمتدح لها بحق المواطنة . ومنذ ذلك الحين احتُفِلَ بأعيادها وطقوسها بكل حرية دون ان يثير الاحتفال بها أية معارضة . وما ان أطلت سنة ٦٩ حتى كان لها هيكل ارتفع على هضبة الكابيتول . واضطروا الامبراطور دومتيانوس ان يتنكر بزي أتباع ايزيس لينجو من مطاردة جنود خصم ابيه له . وكانت مناسبة الاحتفال بأعيادها مجلى لحشود شعبية ضخمة ، ويقوم على مراسمها طفعة من الكهان بثيابهم البيضاء ، حالقو الشعور ، يسرون ويبدأ ويقيسون خطاهم على وقع انغام الزمر والقيثارة . فتمتري الجميع هزة من الغبطة والفرح بعد بكاء ايزيس وذرفها الدموع سخينة على جثمان اوزيريس . وكانت تقام مع هذه الاحتفالات اسرار من شأنها تأمين الحياة في دار البقاء للمريدين . واذا كانت هذه الطقوس تفرض على المؤمنين واجبات قاسية وفرائض شديدة من الوضوء والتطهيرات ، كالاستحمام في مياه نهر التيبر خلال فصل الشتاء القارص ، فقد كانت ، من جهة ثانية ، تعبيراً ، ولا شك ، عن كفارة تعيد الى الخطاة نقاءهم الروحي . وكانت ايزيس تبرز للناس : الالهة المثلى بين اثاث الالهات ، وذلك حسباً بصورها

التقاليد المتوارثة، في حناها الأموي وضاعتها القوية. وكان أتباعها يقومون بعملية إزاحة هذه الفوارق في ما هو لصالح هذه الإلهة. «ها انا ذا»، زاماتو كدي آخر اسرار *Métamorphoses d'Apulée* ، قبل ان توحى الى الحمار لوسيوس المسموح ، بكيفية استرجاعه شكله وقوامه البشري ... «ها انا ذا ، القادرة ، الوحيدة التي تعمّ عبادتي الارض كلها بأشكال مختلفة ، وطقوس متباينة، وتحت مسميات لا حد لها ولا عدد، بعد ان عُرِفَتْ بأسماء : سيبيل ، ومنيرفا ، والزهرة ، وديانا ، وبروسيرين ، وسيريس ، ويونون وبللونا ، وهيكانا ونيزيس .

لنضرب صفحاً هنا عن الإلهة السورية أترغاتيس هيرابوليس ، وقد راحت زمرة من الخصيان تطوف المقاطعة تجمع لها ، على نغم المزمارة ، التقادم والعطايا التي يحود بها المتعبدون لها . كذلك ، لنضرب صفحاً عن الإله الساميّ الاصل : بعل ، بأشكاله وصوره المختلفة ، منها بعل حمص الذي رُفِعَ ، لفترة قصيرة ، الى مصاف الآلهة العظام في الامبراطورية ، وعقد قرانه على الإلهة شلستس ، أي الإلهة تانيت ، إلهة قرطاج ، وذلك بفضل عبادة وغيره رئيس أخبارها : إيلاغابال *Elagabal* الذي تولى ، من سنة ٢١٨ - ٢٢٢ ، مقاليد الامبراطورية الرومانية . الا ان التطور العظيم الذي عرفته هذه العبادة فيما بعد ، يحملنا على ان ننوّه هنا باسم الإله ميثرا *Mithra* .

هو إله فارسي المنشأ ومن المرتبة الثانية بين آلهة الايرانيين القدامى . وقد تطورت عبادته فيما بعد بما أضيف اليها من لواحق وزوائد اقتبسها من الطقوس الآسيوية السامية . وقد تجلّى للناس كالنور والشمس ، وارتبط اسمه بالنظام الكوني ، يحمل بين يديه الظفر والخلاص كما يجب الفضائل الكبرى : كالحيقة ، والولاء ، والإخاء ، واحترام القسم . وقد انتشرت عبادته فعمّت جميع انحاء الامبراطورية ، وأقيم له ، بفضل العناصر الشرقية العاملة في الجيش الروماني ، من الهياكل والمعابد ما نعجب لكثرتها في ضواحي نهري الرين والدانوب . وقد كان له بالطبع أتباعه ومريدوه الكثر في روما ، بحيث ان الامبراطور كومود همّ أن يشترك في اسرار عبادته ويدخل عضواً في هيئاتها . وكثيراً ما كانوا يمدونه في المغاور والمنحنيات المعزولة عن الناس ، فتبرز ثاقبة صور الاله الشاب مرتدياً ثياباً شرقيّة ومعتماً قبّعة الفريجية بعد ان أرغم الى الارض ثوراً ضخماً وأدماه . وبعد مدة طويلة من الاختبار ير بها المريد ، يخضع لمراسم أشبه ما تكون بمراسم المهاد ، واذ ذاك فقط يحق له الاشتراك عملياً بالاحتفالات الطقسية وما يتخللها من ولائم . وكانت عملية الاطلاع على اسرار المذهب لابد ان تقطع سبع مراحل او مراتب هي مرحلة : الغراب - الخاتم - الجندي - الأسد - الفارس - بريد الشمس ، الى ان يصل في خاتمة المطاف الى « ابي الآباء » . وكل مرتبة من هذه المراتب توجب على صاحبها واجبات ادبية ومراسم طقسية عليه ان يتقيد بها بدقة . وكان يترتب على الضالعين في اسرار عبادة هذا الاله ان يتحلّوا بالصبر ، وبغالدّة النفس ، وطول الأناة بحيث يُسهمون في إعلاء الخير على الارض ، لينالوا المثوبة التي عرفوا ان يستحقوها ، يوم الدينونة العظيم ، برئاسة الاله ميثرا .

وهذا النجاح العظيم تلقاه عبادة هذا الإله جاء صدمة عنيفة للعرف العام إذ جاء دليلاً ، إذا ما اعوزنا الدليل ، على مدى النوازع الدينية في الامبراطورية الرومانية وإقبالها بتوق ، على تمجيد وتبني إله ، وتعاليم دينية اقتبستها من إيران وهي إذ ذاك اعدى اعداء الامبراطورية الرومانية ، واحاطته بمثل هذه المظاهر من التبجيل والتكريم ، وأحلتها من آلهتها مثل هذا المحل الرفيع . وقد حملت عبادة هذا الإله الاجنبي المنشأ ، الغريب الاصل ، معها ، للنفوس العطش وللقلوب الظمأى تقوى حية ، وسمواً في الآداب والاخلاق لم نعرف له مثيلاً عند الرومان من قبل . ومنذ القرن الثاني اصبحت الوثني شخصاً نكاد لا نميزه ولا نتبين معالمه . فهو انسان يختلف تماماً عما كان عليه في زمان كاتون ، حتى وفي عهد اوغسطس نفسه .

٣- الديانات الموحدة وأتباعها

هذه المستحدثات الدينية تمثلت في ديانتين رأنا النور في الشرق ، هما اليهودية والشرك والتوحيد والمسيحية . فكيف نفسر ، والحالة هذه الموقف العدائي الذي وقفته منها الامبراطورية الرومانية ، بعد الموقف اللين ، العطوف ، الحليم ، الذي وقفته من الديانات الشرقية الاخرى ؟ فبعد ان وقفت منها هذا الموقف الحشن والعنيف احياناً ، عادت فألانت لها الجانب وتركت لها مجال العمل حراً طليقاً وعملت على تشجيعها . فبعد ان وقفت من اليهودية والمسيحية موقفاً متساهلاً في بادئ الامر ، عادت فقلبت لها ظهر الجن وجأت الى القوة والعنف للحد من انتشارهما .

فالمنطق السليم يدعونا للظن بان ما امتازت به هاتان الديانتان من طابع التوحيد الذي فردّهما ، جعلهما غير مقبولتين لدى الوثني المشرك . فقد كان يسلم بآلهة غير الآلهة التي يعبدونها شريطة ان يسلموا هم بالآلهة التي يؤمن بها هو ويقول بوجودها ، اذ ان تعداد الآلهة وتنوعها من شأنه ان يفتح المجال اما للاتقاء والاختيار بين هذا العديد من القوى الفائقة الطبيعة ، ولكل منها قيمته ومنزلته ، يمكن التوحيد بينها في عملية إزالة الفوارق المتضادة وبالباسها شيئاً من الصفاتية المشتركة ، نسج خيوطها الاغريق من قبل ، ونسج على المنوال نفسه الرومان من بعد . فليس شيء من هذا مع التوحيد او عقيدة وحدانية الله ، وهو قول يجمع في نظر المشرك الخلط في الرأي ، والعناد المتشاور والتعصب الشديد . ففي هذه المقالة نفي جذري وحكم قاطع ، لا استثناء فيه ولا تمييز ، في نظر القائلين بوجود آلهة اخرى ، فضلاً عن ان رفض عبادة الامبراطور من شأنه ان يخرج الحكومة عن موقف اللامبالاة تقفه ازاء الاديان .

فاذا ما اخذنا بهذا التعليل والتخريج نكون اعطينا أهمية كبيرة لمتناقضات متعاندة نظرياً . فالتاريخ السابق لليهودية وضع ملوكاً فاتحين امام مشاكل من هذا النوع ، قبل ان يواجه الرومان شيئاً منها ، وقبل ان يُعَيَّنَتِ الاباطرة الرومانيون انفسهم بها ، كما ان أمثلة مستمدة من تاريخ الامبراطورية الرومانية تنطلق جلياً بما تم من تسويات في مثل هذه الظروف العارضة . فالاصطدام

الاشد خطراً انما قام فعلاً ، على صعيد أدنى بكثير ، ونشأ من مواجهة وضع بعينه قائم في ماجريات الحياة اليومية . فالحقد والعداء ، كثيراً ما ظهر من الجماهير التي تنكرت لفرابة الطقوس الجديدة والتعاليم الاخلاقية فأحدثت فيها صدمة دونها بكثير الصدمة التي أحدثتها التعاليم الدينية المستحدثة . فالحكومة تستجيب عادةً لردة الشعب وقلّ ان تسبق الجماهير الى الخطوات الاولى ، فلا يستحوذ عليها القلق . ويضطرب منها الببال بصورة عفوية وبغير حدوث سببٍ او اضطراب الا عندما تأنس خطراً كبيراً يهدد مصالحها السياسية ، ومثل هذا الأمر لم يحدث الا ما ندر .

وعذر اليهود ، في نظر الرومانيين هو انهم يعبدون إله آبائهم . فكان تمسكهم اليهودية واليهود العنيد بالناموس وبشريعتهم ، هو مثار فخارهم عبر التاريخ الذي ربطهم بروما منذ القرن الثاني قبل الميلاد . فقد عرف زعمائهم ان يؤدوا لهم خدمات تذكر وان يظهروا ولاءهم في الوقت المناسب : لقيصر أولاً ولاوغسطس ثانياً ، خلال الحرب الاهلية التي عرقت البلاد ، فقدّر لهم اوغسطس موقفهم هذا وبدا نحوهم متسامحاً ، لين الجانب احياناً .

إلا ان خلفاءه من بعده احتلوا بلادهم واضطلعوا فيها بمسؤولية الادارة بينما حرص اوغسطس ان يترك شؤونها الداخلية للوك توابع . وقد جاء تعيينهم لبعض الولاة غير موفق ، لابل سيء الطالع ، كثير الشؤم ، اذ كان لا بد للحاكم الروماني من لباقة ومقدرة ادارية تقارب الاعجوبة ليستطيع معها تفادي الاحداث لكثرة الاسباب التي تولدها . وقد توزع اليهود الى شيع وانقسموا فيما بينهم الى طوائف عديدة متشابكة متداخلة ، اقامها بعضاً على بعض ما بينها من اختلاف في الرأي والنظر ، حول قضايا كثيرة تتعلق بالعقيدة والتشريع وطقوس العبادة لدرجة نمجز معها عن تعدادها والتعريف بها . من بين هذه الفرق : فرقة الفريسيين وفرقة الصدوقيين^(١) . فقد عرفت الاولى بتصلبها وتمسكها بتفسير الناموس وتطبيقه حرفياً بينما استمسك اتباع الفرقة الثانية بالناموس المكتوب ، ومنها كذلك فرقة الأسنيين (الورعين - القديسين) الذين كانوا يعيشون هانئين ، جماعات معاً ، في عزلة تامة عن العالم ويخضعون لنظام وقوانين القت عليها اضواء كاشفة ، مجموعة المخطوطات النادرة التي عثروا عليها حديثاً بجوار البحر الميت . من بين هذه الفرق كذلك فرقة المغالين او الرافضة (Zélotes) التي عرفت بشدة طباعها وبمحبها للقتال ، الأمر الذي حدا بالرومان الى تلقيب اتباعها بالقتلة Sicares المشتق من كلمة Sica اللاتينية ومعناها : الخنجر ، اذ كانوا دوماً على استعداد لينتصوا الخنجر ويستعملوه للتخلص من خصومهم السياسيين . وقد بلغ من شدة هوسهم وضغائنهم ان راحوا يقذفون الكهنة باقذع التهم ويرمونهم بالحجارة ، والمروق عن جادة الدين اذا ما أنسوا فيهم ميلاً الى مصانعة الحكم الروماني في البلاد . ولعل ما هو ادهى من هذا كله المنازعات التي كثيراً ما شجرت بين سكان المدن خارج اليهودية ،

(١) نسبة الى صدوق رئيس الكهنة في القدس ، خلال عهد الملك داود .

بين اليهود والوثنيين أدت الى معارك دامية بين الطرفين . ولا بد من الاعتراف هنا ان المحافظة على الهدوء والنظام في فلسطين كان عبئاً ثقيلاً ومطلباً عسيراً ، فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تضطر الفيلالي الرومانية للتدخل في الامر واعادة الهدوء الى نصابه بدون رحمة او شفقة .

غير ان هذه القضية او قضية اليهود لم تكن مقتصرة على يهود فلسطين . ففي الخارج جوالي عديدة منهم بعد ان بدأ شتاتهم (*Diaspora*) باكراً منذ القرن السابع قبل الميلاد مع سبي العديد منهم الى بابل . وقد ازدادت حركة تشتتهم اتساعاً مع توالي الحكم الاجنبي على فلسطين وانتقاله تباعاً الى الفرس ، فالبطالسة فالسلوقيين ، فالرومان . ومنذ انتهاء العهد الجمهوري ، كان يوجد في معظم مدن الشرق الكبرى جاليات يهودية قامت منها في روما نفسها جالية مهمة تجاوز عدد افرادها الألوف ، مما حل طيباريوس اولاً ثم الامبراطور كلوديوس على اتخاذ تدابير شديدة ضدهم ، منها النفي والاجلاء ، دون ان يكون لها تأثير يذكر . وبلغت هذه الجوالي شأناً كبيراً في عواصم الشرق الكبرى كإنطاكية ولا سيما الاسكندرية الواقعة على مقربة من فلسطين . وقد اخذت هذه الجوالي ، منذ عهد بعيد ، بالجانب الثقافي من الحضارة الهلينية حتى ان بعض افرادها وقعوا تحت تأثير الفلسفة والادب اليونانيين وهذا يبدو واضحاً في آثار فيلون الاسكندري الكتابية اذ راح في القرن الاول ، يفسر حوادث التوراة تفسيراً مجازياً ، منها ظهور يهوه ومداخلاته في شؤون بني البشر . وهكذا توصل بفضل ما اقتبس من نظريات افلاطون وزينون الفلسفية ان ينسخ كل اتصال مباشر لله مع العالم الخارجي . ومع ذلك بقي عدد المارقين والمعطلين ضئيلاً جداً ، بينما راح السواد الأعظم من اليهود في الشتات يعتمسون باهداب الدين ويستمسكون بالناموس الاسرائيلي . ولذا لم تذب هذه الجوالي في الاوساط والمجتمعات التي عاشت بينها ، حتى في حال تمتعها بالرعاية المحلية والرومانية منها . فليس بمعجب قط ، ان يشعر نحوها سكان المدن ، ولا سيما اليونان منهم بشيء من الكره والاحتقار ، بالنسبة لآخلاقهم وعاداتهم الخاصة ، دون ان نرى اثرأ لاي غائفة او شعور تم عن قطيعة اقتصادية . حدث ولا شك في ذلك ، ارتدادات بين الوثنيين اعتنقوا اليهودية . ولكن ليس عندنا اية فكرة عن عددها : اكثرية كانت ام نادرة ؟ ولعل هؤلاء المرتدين قد اقتصروا إجمالاً ، بسبب الحتان ، على ان يكونوا في عداد « خائفى الله » بعد ان أخذوا بالديانة اليهودية ، ففنعوا منها ببعض التعاليم والوصايا ليس الا . وقد بقيت غالبية السكان في المدن تكن لليهود بغضاً وعداءً ، كثيراً ما ادى الى مشاجرات لم تكن بذات بال الا انها لم تلبث ان استحال الى اشتباكات دامية . فقد ارسلت كل من جوالي اليهود والاغريق في الاسكندرية ، وفوداً معاكسة ، الى الامبراطور كاليغولا ، يرأس الاولى فيلون ، ويرأس الثانية العالم اليوناني أبيون . وكما رأى ولاة الرومان انفسهم مضطرين للتدخل لاعادة السلام الى نصابه والأمر الى مجارها بين الكتل والفئات اليهودية التي شجر بينها من الخلافات ما عكر صفو الأمن ، قام بعضها من جراء الكرازة بالنصرانية الناشئة حديثاً .

وبالاختصار ، فقد كان اليهود في نظر السلطات الرومانية شعباً صعب المعاشرة ، صعب

الانقياد والحكم، كما كانوا من جهتهم، برمين بسيطرة الرومانيين عليهم يستثقلون ظلها ويتخبنون الفرص السانحة للتخلص منها . فهل نعجب ، بعد هذا ، من هذا التكالب وهذا العناد يظهره كل فريق ضد الآخر ، في هذه « الحرب اليهودية » التي نشبت بين الفريقين . قام منها إثنان في فلسطين نفسها، دامت الأولى منها من سنة ٦٦ - ٧٠ وانتهت بسقوط القدس بيد القائد الروماني قيطس ، بعد حصار عنيف ممتد بضعة أشهر، استسلمت بعده المدينة وراحت طعماً للسلب والنهب والحرق والهدم . اما الثانية ، فقد وقعت في عهد الامبراطور هدريانوس ، واستمرت من سنة ١٣٢ - ١٣٥ ، بقيادة « امير اسرائيل » شمعون بن كوزيبا الذي رأى فيه مواطنوه : المسيح المنتظر الذي يخلص شعبه . وقد حدث في فترة ما بين الحربيين ان اضطر الامبراطور تريانوس الى وقف حملته ضد الفارثيين ، ليتفرغ الى إخماد فتنة واسعة قام بها اليهود في جميع مدن الشرق ، بين سنة ١١٥ - ١١٧ . وقد جرى الدم أنهرأ في كل من هذه الحروب العنيفة . ويروي لنا ديون كستوس كيف ان يهود القيروان ثاروا في عهد تريانوس ، و « ذبحوا الرومان واليونان وأكلوا لحومهم ، وتنطقوا بامعائهم ، ونضحوا أجسامهم بدمائهم ، وصنعوا لهم ألبسة من جلودهم ، ونشروا من الوسط عدداً كبيراً منهم ، وعرضوا جماعات عديدة منهم للسباع والضواري ، وأرغموا بعضاً منهم على العمل مصارعين في حفلات وملاهي المصارعة » . وهكذا فقد فتكوا بأكثر من ٢٢٠.٠٠٠ منهم ، بعد ان فقدوا هم في حروبهم ضد هدريانوس ٨٠.٠٠٠ قتيل ، ما عدا الذين قضوا لمحبتهم « جوعاً او حرقاً بالنار » . ومما يكتن من تجسيم هذه الارقام ، فهي تعطينا ، مع ذلك فكرة صحيحة عن هذه الوحشية والفظاظة التي اصطبغت بها هذه الحروب التي رأى العالم الروماني نفسه امام اليهودية ليس كديانة فحسب ، بل كقومية تمثلت في مثل هذا الشعب ، وهذه الامة ، وهذه المدينة الاسرائيلية .

اما النتائج فقد كانت خطيرة ، فادحة . فقد اتسع شتات اليهود ، ونجا كثيرون منهم بأنفسهم ورحلوا عن فلسطين . وحل محلهم فيها اقوام جديدة من عروق مختلفة . وقد قام محل القدس التي « حُظِّر على اليهود دخولها الا مرة واحدة في السنة » مدينة جديدة عرفت باسم : « إيليا » كابتولينا ، وشُيد فيها هيكل لجوبيتر ، في المحل الذي كان فيه هيكل سليمان . وأُحيوا في المدينة الجديدة عبادة الامبراطور ونصبوا تمثال الزهرة عشتروت فوق جبل الجلجلة . وأجبر اليهود في جميع أنحاء الامبراطورية على دفع رسم معين ، بدلاً من الرسم الذي كانوا يدفعونه مسبقاً للهيكل ، ويذهب لخزينة الدولة ، وهو رسم زهيد للغاية : لا يزيد على « عشر الدراخم الواحد أي ما يوازي لفرنكين فرنسين » ، في عام ١٩١٤ . وبذلك تمكنت الدولة من احصاء عدد اليهود في الامبراطورية ومن مراقبتهم مراقبة شديدة . وقد « حُظِّر عليهم البطالة يوم السبت كما حُظِّر عليهم الحتان ، وهي مراسم كثيراً ما أثارت حفاظ الناس عليهم وأهاجت الشعب ضدهم . إلا

(١) هو اسم اسرة الامبراطور هدريانوس قبل ارتقائه العرش .

ان الامبراطور انطونين رأى من الحكمة التخفيف من حظر الحتان - بالرغم من بعض الاضطرابات التي قام بها اليهود - وأقصر مراسمه على اليهود وحدهم الذين يستطيعون ان يبرهنوا عن صحة محتدم . كذلك حظر عليهم القيام بأية دعوة او دعاوة للدين اليهودي .

المسيحية واليهودية
وهذه الدعوة كان قد امتنع عليهم القيام بها امام التوسع والانتشار الذي حققته ديانة جديدة أطلقت على العالم من بين 'قطر اليهودية' ، فاطرحت جانباً طقوسها المتعارفة وقطعت كل صلة لها او نسب مع اسرائيل .

وعندما قام يسوع يبشر العالم بالدين الجديد، في عهد الامبراطور طيباريوس، ظن كل من سمع بخبر الكرازة الجديدة ، بما فيهم الوالي الروماني بيلاطس السنطي الذي صادق على الحكم بالموت - هذا الحكم الذي أصدره عليه رئيس المجمع اذ ذاك قيافا - ان الامر لا يتعدى ظهور شيعة يهودية جديدة . وهو أمر لم يأت عندهم بشيء جديد ، وطالما خبروا منه مثل هذه الدعوات ، بين شعب حرص دوماً على بقاء العاطفة الدينية مشبوبة بين بنيهِ ، وحرصت كتبه المقدسة على تغذية نفوسهم بأمل مجيء الميسيا ، وفي امة أطلعت على مر السنين ، مثل هذا العدد من الشيع والممل . ولم تكن الشيعة الجديدة ، لتختلف ، في مناهج دعوتها وانتشارها وفي اوليات تعاليمها ، ظاهراً ، كثيراً عما عرفنا من شؤون الشيع اليهودية الأخرى . وقد راح أولوا الامر والمسؤولون عن شؤون الشعب اليهودي ، يحكون بالصلب على المسيح ، تقادياً منهم لحركة انشقاق وقيام اضطرابات بين الشعب ، للحد من دعوة ناشطة رأوا فيها الخطر كل الخطر عليهم ، وقد فاتهم ، في تصرفهم هذا التصرف انهم يبتدعون جديداً .

ففي كل بساطة ودعة ، قام يسوع يعلن للناس من ذوي المسرة ، عواطف نبيلة : اقتراب يوم الدينونة ، مهدداً الطريق امام ظهور ملكوت الله ، محبة الله ومحبة القريب ، الايمان الحي ونقاء القلب وطهارة النفس من كل رجس ، وكلها تعاليم افضل من التمشي على طقوس حرفية . وعلى هذه البشارة الجديدة والمبادئ التي عمل بها وعلم ، وختم على صدقها بدمه وايدها بقيامته من بين الأموات ، اسس اتباعه لإيمانهم ، وهو ايمان ، اهل لمعري ، بان يغري على اعتناقه واتباعه ، البشر من اي امة كانوا ، ومهما كانت تربيتهم السابقة . كل هذا كان يقتضي له بالطبع ، تحديد مفهوم بعض الاشياء وتوضيحها وإغنائها ، وان يوسع نطاق الدعوة والكرازة بالدين الجديد الى مجالات اوسع من اليهود ، بعد ان اقتصرت الدعوة في بادئ امرها عليهم وحدهم .

وفي سبيل هذا التطور ، قام بولس بالخطوة الحاسمة ، وهو يهودي من ابناء الشتات ، ولد في مدينة طرسوس من اعمال كيليكيا ، حيث كان ابوه ينعم بالرعوية الرومانية . كان يزاوِل مهنة صنع المضارب او الحيايم ولا يزال الجدل يرقع بين العلماء والمؤرخين حول نوع التربية التي تلقاها والمؤثرات التي تأثر بها قبل اعتناقه المسيحية ، ومما تدن له المسيحية من اثر الفلسفة والديانة الهلينية . ومهما يكن من الأمر ، فمن الثابت انه راح يبشر الامم ، فرّذال في هذا السبيل ، وحل

الناس على رَذَل الناموس اليهودي لانه لم يعد صالحاً للاستعمال ، لا يفيد بل يضر . فالقطيعة لم تتم دون ان تحدث مشاقات بين جماعة المؤمنين الاول والكنيسة التي انشأوها في القدس وملأتهم غمًا . وقد سهّل القطيعة ، الاضطهادات التي تعرض لها المسيحيون من قبل السلطات الدينية . وكان من جراء الحرب اليهودية الاولى ان حملت جماعة النصارى المتهودين على الفرار من القدس واللجوء الى بعض المدن الشرقية حيث بقيت جواليهم ، عدة قرون ، بين بين ، لانصارى معروفين ولا هم يهود . ولولا هذه القطيعة لبقى باب المستقبل موصداً امام الديانة الجديدة . وقد انفتح هذا الباب على مصراعيه بفضل النشاط الذي بذله بولس . ولم تعتم ان رسّخت العقيدة الجديدة أقدامها في سوريا وآسيا الصغرى أولاً ، ثم في مقدونيا وبلاد اليونان ، وحملها الى روما مبشرون نجعل امرهم قبل ان يصلها بولس ، حوالى عام ٦٠ ، ويمثّل امام «قيصر» ليحكم ، أي امام والي الولاية ، بناء على طلبه بعد ان ابرز رعويته الرومانية .

طبيعي ان تحتاج الحكومة الى بعض الوقت لتستطيع التمييز بين المسيحيين واضطهاد نيرون واليهود . فقد اختلط الامر على الامبراطور كلوديوس نفسه ، عام ٤٩ ، اذ راح يأمر بنفي اليهود من روما وابعادهم عنها لما « سببوه فيها من الاضطرابات بسبب المدعو المسيح » . اما خلفه نيرون فقد كان اكثر احاطة بالامر واطلاعاً عليه ، ربما عن طريق محظيته بوبيه *Poppée* التي تزوجها فيما بعد ، والتي « قُبِضَ للمؤرخ فلافيوس يوسيفوس ان يلقاها في احدى وفاداته الى روما ، ووصفها بانها «تبارك الله» اي انها على عادات اليهود ، كما هو مرجح . وبالفعل فقد عرف نيرون ان يميز المسيحيين لما هم عليه من وضع متميز ، حتى جعلهم مسؤولين عام ٦٤ ، عن الحريق الذي شب في المدينة ، اذ ذاك ، والتهّم جانباً كبيراً منها .

وشهرة الحادث بعينه لا تمنع من بقائه غامضاً جداً . فكل محاولة لإلقاء بعض الأنوار الكاشفة عليه هنا ، لا تقيد شيئاً لا بل هي مضية للوقت . فالجماهير كانت تحمل البغضاء للمسيحيين لأنها كانت تجهل عنهم كل شيء . وكانت تحمل البغض ذاته لليهود الذين لم يكونوا احسن وضعاً بالنسبة لها ، حتى في عهد ترايانوس ، اذ راح المؤرخ تاسيت ، الذي كان في وضع يمكنه مع ذلك من الاطلاع على الحقيقة ، يأخذ بالأقاويل المغرضة والتهم التي يعزونها جزافاً الى هؤلاء واولئك على السواء دونما تمييز ، وينسب اليهم جميعاً « الحقد » الذي يحملونه على الناس أجمعين . ومع ذلك ، فقد كانوا يعرفون ان بين الجماعتين أكثر من فارق يميز بينهما ، وبالرغم من الجدل والمناقشات التي دارت حول الموضوع اذ ذاك ، وأكثر الاحتمالات اخذاً بالتصديق ، راح الامبراطور نيرون ، تفادياً لنقمة الشعب وغضبه من جراء الحريق الذي التهم روما ، والذي اتهم به هو نفسه ، ينسب هذه التهمة لأهل هذه الفئات عدداً . فاذا لم تأت المبادرة من الجماهير فقد عرف ان يستغل البغض الذي كانت تجيش به ضدهم .

ومن الثابت ، على كل حال ، ان الاضطهاد الذي اعلنه انما اقتصر على روما وحدها ، وهذا

ما يقلل من قوة عبارة تاسيت عندما يؤكد : « العدد الغفير » من اكتتوا بلهيب هذا الاضطهاد الدامي ، وهو اول اضطهاد يعلن عن سابق قصد وتصميم ، وينفذ بمنهجية ، تميزت بأساليب التعذيب وأفانين العذابات التي اخضعوا لها المسيحيين . وهل من بأس في الأمر ، بعد ان اصدر الامبراطور مرسوماً اعتبر جنابة تستوجب الموت ، مجرد اعتناق المسيحية . وهكذا فقد كان قرار نيرون فاتحة عهد وبدء تاريخ طويل مديد ، من التعصب الديني عبر الاجيال .

الامرة الانطونية والمسيحيون
فالاتجاهات التي كان يعقدها المسيحيون سراً ، وإعراضهم عن المناصب الاجتماعية وبهاجر هذه الحياة ، ومقاطعتهم العلنية لكل التقاليد المتوارثة ، والتأثير على الموغوظين من غير اليهود للنسج على منوالهم ، وعدم اشتراكهم بعبادة الامبراطور ، والدعاية التي كان يشنها بعضهم ضد الزواج والحياة العسكرية ، كل هذه الأمور وما إليها ، أدخلت القلق على أولي الأمر ، في عهد الأسرة الانطونية . فقد كان متوقفاً من واحد من أتباع الفلسفة الرواقية ، كمارك اوريل مثلاً ، ان يقدر عالياً قوة ارادة الشهداء وحماستهم ، ومع ذلك فلم يستطع ان يرى في مثل هذا التصرف سوى مظهر من مظاهر التعصب الذميمة ، وطريقة دعائية ليس إلا . « أي نفس هذه ، يا ترى ، التي تأنس من ذاتها القدرة على الزهد بالحياة والتخلي عنها في الحال ؟ قلت القدرة ، وعن سابق قصد وتصميم ، لا عن عناد او اصرار ، بل عن طيبة خاطر ، كما يفعل المسيحيون ، بحيث يؤثر اقناعهم ويقينهم الوطيد ، على الآخرين ، بدون زهو منهم او مباهاة » . كما جاء في مذكراته ، بالحرف الواحد . فالمسيحيون لم يأثروا بحركة « الابان » الحروب اليهودية ، هنالك ، الى هذا شعور ، بالعدالة والكرامة الانسانية ، كان يحول في خاطر الحكومة ويمثلها على سلوكها هذا المسلك . وفي هذا ما يكفي لملها على التحلي باللين والحلم .

فاذا صح ان الامبراطور نيرون استند في المرسوم الذي أصدره الى الجريمة التي عزوها الى المسيحيين كما يؤكد ترتليانوس ذلك ، وان دومتيانوس تأثر بهذا المرسوم الى حد بعيد ، فقد ألغت الأسرة الانطونية المرسوم المذكور وأبطلت كل مفعول له . وعندما راح بلين الاصغر يستفتي صديقه الامبراطور ترايانوس ، الموقف الذي يترتب عليه وقوفه حيال المسيحيين الموجودين في ولاية بيشنيا ، بلغه رد الامبراطور بالآي يسمي اليهم ، وألا يكثر بالسعائيات الغفل التي تردده ضدهم ، وألا يصدر أي حكم على من لا يرضى منهم بالصلاة للآلهة . فاذا ما راح ، بعد هذا ، يحتاط لسلامة الاجراءات القانونية فلأنه بقي يرى في اعتناق المسيحية جرماً يعاقب عليه القانون . إلا ان مثل هذه الحيلة زالت في عهد هدريانوس ، عندما أصدر امره لوالي آسيا بالآي يحكم إلا اذا وجّه بعضهم اتهاماتهم الى أشخاص بالذات ، وجاؤوا بالدليل على مخالفتهم لقوانين البلاد ، كما حرص على ان يأتي القصاص معادلاً « لأهمية الجرم » المقترف عمداً وعن سابق تصور وتصميم . وقد حافظ الامبراطور انطونين Antonin على هذا المبدأ ، وان لم يكن لدينا أي برهان حسي ينجولنا الجزم بأن مارك اوريل ألغاه بالفعل .

ومع ذلك ، فالأحكام بالموت لم تقل في عهد الانطونيين . فالتقليد المتبع في إحصاء سيتر

القديسين الذين استشهدوا في عهد كل من الاباطرة ، هو ان يصار الى وضع قائمة متصلة بهم ، لا يستطيع النقد الصارم ، مهما تشدد واقتطع من نوافل الاوصاف والاستطرادات التي زينوا بها قصة استشهادهم ، ان يدعي بطلانها او يقول بعدم صحتها . وقد اكتظت القوائم التي وضعت في عهد مارك اوريل بأسماء الذين بذلوا حياتهم في سبيل دينهم واستشهدوا من المسيحيين . فقتل ٤٨ شهيداً في مدينة ليون ، عام ١٧٧ ، بينهم الاسقف بوتي الذي مات في زنازته ، وله من العمر ٩٠ سنة ، بينا الأمة الشابة بلاندين التي عرضوها عبثاً ، لقتك الاسود الضارية ، أجهزوا عليها بضربة سيف وهي في الحلبة ، ثابت بفضل وثيقة تاريخية لا يمكن دحضها او تجرييحها ، هي الرسالة التي بعث بها شهود عيان هم خدام المسيح ، القاطنون في مدينتي فيينا وليون ، في غالبا الى إخوانهم بالرب ، في آسيا وقرينجيا . ولا سبيل الى الانكار ان الامبراطور مارك اوريل وافق على هذه المجزرة وأقرها بعد ان عرض حاكم المدينة الامر عليه ، اذ كان بين المحكوم عليهم واحد يحمل الجلسية الرومانية ، أجلسوه على صاج أحمر على النار ثم اجتزوا رأسه .

فهل يحمل الامبراطور الفيلسوف انطونين ، كما يلقيه التاريخ ، وزر الجريمة والمسؤولية المترتبة عليها ، كما يحمل خلفاؤه جريرة الشهداء الذين قتلوا في عهودهم ؟ لا شك في ذلك ، إنما بنسبة ما سمحوا ، لدى مراجعتهم واطلاعهم على إنزال ما أنزلوه بهم من آلام مُبرّحة ، ومثلوا بهم مثل هذا التمثيل الوحشي ، دون ان يأمرؤا بملاحقة الذين اتوا . غير ان معظم تراجع هؤلاء الشهداء ترد ، في معرض وصفها لعملية استشهادهم بكل إسهاب وتفصيل ، هذا كله ، لحاسة الجماهير وهيجانها وهي تطالب ، بالحاح ، لملاحقة المسيحيين . فلم يتمكن الحكام ، امام هذه المظاهرات العدائية الصاخبة إلا ان يرضخوا ، على اقدار من التواطؤ معهم ، قتل او تكثير ، حتى اذا ما رُفِعَ الامر الى الامبراطور وجد نفسه مسوقاً تحت ضغط الشارع ، للنزول عند الطلب . فالرأي العام بقي ، في كل مكان تقريباً ، معادياً للمسيحيين . ويطالع المرء بشيء من الدهول ، التهم الدينئة يلصقونها بالمسيحيين ، وما نسبوا اليهم من اعمال الفسق والفجور ، التي لم يتورع أناس مستنبعون امثال الكتائب الروماني فرونتون ، وهو من مشاهير رجال الفكر ، اذ ذاك ، ومن اقرب المقربين الى الامبراطور انطونين ومن جاء بعده ، من الأخذ بها وتأكيدها . فأمام الكوارث والتهديدات التي اخذت تتراكم على الامبراطورية ، في النصف الثاني من عهد الامبراطور مارك اوريل ، لم يستطيعوا ان يقاوموا الاغراء بعزو هذه الامور ، الى غضب الآلهة واستيائها من كفر خصومها ، وعدم اعترافهم بها واحتقارهم لها : هنالك قوى مجتمعة ، مادية وسيكولوجية على السواء ، لا يستطيع اشد السلاطين والملوك استبداداً وبأساً ، ان يوقفوها او يحدوا منها ، لا سيما عندما يرون في مسيرتها والنزول عندها ، المثال الصوري للتقوى والتقرب الى الآلهة والتسليم بالاساطير المحكية عنها .

وهكذا لم نلبث ان رأينا ترتليانوس ، يكتب في سنة ١٩٧ ، في اسباب هذا التقدم والنجاح كتابه : « ابولوجيا » او الدفاع ، العبارة المشهورة : « دم الشهداء بزار المسيحية » (*Semen est sanguis Christianorum*) . فللاستشهاد سيكولوجية خاصة هي

واحدة في كل زمان ومكان ، خالدة . فالاضطهادات الدامية التي أنزلوها بالمسيحيين تلقي نوراً ساطعاً على هذه القضية وتضفي عليها ادق المعلومات واوسعها . فالنخبة بين المسيحيين كانت تنتظر الى العذابات التي ينزلونها بها ، نظرتها الى معركة يخرج منها الشهيد ظافراً ، مكللاً باكليل المجد ، لانه « فاز برضوان الله » وقال الغفران الكامل عن كل خطاياه ، وتأكد عنده الفوز بالحياة الابدية الخالدة . فلا عجب ان نرى بينهم من يجودون راضين مرضيين ، بارواحهم في سبيل هذا الشرف المؤثل ، وفي سبيل هذه المغام ، أمثال هؤلاء المسيحيين الذين تقدموا ، في عهد كومود ، من الحاكم الروماني ، في آسيا ، بأعداد غفيرة للشهادة ، حتى اذا ما حكم بالاعدام على فريق منهم ، رد الآخرين بعنف ، داعياً لهم الى شتى انفسهم والى الانتحار ، مع العلم ان تعاليم الكنيسة الصحيحة كثيراً ما شجبت مثل هذه الغيرة الزائدة . اما في نظر الذين لم يعتنقوا بعد المسيحية ، فالاستشهاد وبذل الحياة رخيصة في سبيل الدين هو « شهادة » حق لصحة دينهم ، كما يدل على ذلك الاشتقاق اليوناني لهذه الكلمة ، اذ كان الاستشهاد حجة على صحة العقيدة وعلى الشجاعة التي يبعثها الايمان الصحيح ، في نفس الشهيد وقلبه ، وبالتالي لصدق الرسالة التي أوثمنوا عليها وراحوا يحملونها .

علينا مع ذلك ، ان نحذر من ان نولي ، اكثر من اللازم ، أهمية كبرى على العامل النفساني والحافز السيكولوجي لتعليل انتشار المسيحية في الامبراطورية الرومانية وتكاثر عدد النصاري ، بالتالي ، فيها . ومع انه لا سبيل لاحصاءات دقيقة ، يبقى امر عدد الشهداء ، مع ذلك ، قليلاً نسبياً . ثم هنالك أقطار بكاملها لم تعرف الاضطهادات الدينية لمدة طويلة ولم تتعرض قط بالشدائد التي انهالت على المسيحيين في غير مكان . ومع ذلك فقد انتشرت فيها المسيحية بسرعة ، وعلى نطاق واسع ، فقد كان بلغ عدد المسيحيين في افريقيا حداً بعيداً ، عندما أهرقت فيها دماء الشهداء لأول مرة ، عام ١٨٠ .

والحقيقة التي لا تماري ولا لبس فيها ولا غموض ، هنالك عوامل كثيرة أثرت بعيداً في هذا الأمر . فقد هنا ان نعرف ، على الوجه الصحيح ، المناقب التي ميزت شخصية كبار المبشرين بالديانة الجديدة ، والصفات التي توفرت لهم للقيام بمطلب الكرازة الدينية ورسالة حملها الى اطراف العالم الروماني ، اذ ذاك وكلها عوامل واعتبارات ساعدت جديداً في نشر الدين الجديد وتأمين النجاحات الباهرة التي حققها بين شعوب الامبراطورية واقوامها المتباينة عرقاً ولغة . نحن نجهل كل شيء عنهم تقريباً حتى اسماء الذين نهضوا بهذه الكرازة بعد الرسل . ولذا كان لا بد من ان نعمل هنا على الاسباب العامة والمميزات المفردة التي تميزت بها النصرانية من الداخل اي من ذاتها ، طالما لم تكن الوحيدة ، في الميدان ، لتتخذ يوماً وحدها ولتستفيد دون غيرها ، من إعراض الناس عن الشعائر الدينية ، وموقفهم موقف اللامبالاة والاستهتار بالطقوس الرسمية . فقد جمعت الديانة الجديدة جماع الصفات التي توفرت للديانات الشرقية الكبرى فأمنت نجاحها وانتشارها : قوة التأثير المنبثقة من حادث موت المسيح وقيامته ، وتعاليم ادبية واخلاقية رفيعة

سامية ، ووعدها بخلعها بالبرار منهم ، واحتفالات مهيبه تحرك مشاعر النفس في المؤمنين . ومع ذلك ، وبالرغم من هذه العوامل المتشابهة المشتركة ، فالتوحيد الذي علّمت به وعملت ، صانها من كل مصانعة خطيرة . فقد عرفت ان تنفادي كل حركة التفاف ، او محاولة انصهار او ذوبان ، يقوم بها مذهب توحيد الفروق الذي تغلغل في كل الديانات المعمول بها اذ ذاك ، محاولاً التلطيف من حدة الفروق التي تباعد بينها . فبعد ان عرفت كيف تكسب مؤمناً جديداً ، قلما خشيت من ان تفقده . وهكذا بحرية رأي واستقلال فكر ، راحت تمكّن بصورة اقوى لشرعية مبادئها ، وتنمي ثقافتها الوطيدة بالفضائل التي تعمل بها وتعلمها . زد على ذلك ، ان ابوابها كانت مشرعة دوماً للجميع من رجال ونساء ، وكبار وصغار ، دون ان يخضعوا لدور شاق ، صعب ، من الوعظ والارشاد ، فتقدم لهم مجموعة متناسقة من التعاليم العقائدية ومبادئ الايمان ، مبسطة ، تستطيع إشباع كبار الحُجج ، ويستمرئها ذوو العقول الخفيفة .

فماذا كان من امر هذه الديانة الجديدة ، في اواخر عهد الاسرة الانطونية ، النتائج الثابتة
يا ترى ؟ يؤسفنا وايم الحق ، ان نستطيع الحكم الا على انطباعات ترتبط بصحتها ، الى حد بعيد ، بنسبة ما تؤيدها وثائق ونصوص ادبية محفوظة ومصونة تعود لذلك العصر ، واكتشاف الرقم والنقائش القديمة التي تتعلق ، من قريب او بعيد ، بهذه الامور . ولعل ما هو ادهى من هذا واطهر ، هو ان نخرج من هذا بما ينفي وجود مثل هذه الوثائق . هنالك لعمرى ، مُعامل شك او ارتياب يلبس المسح الجغرافي الذي لا بد من ان نستعرض له فيما يلي .

دون ان تكثر المسيحية للحواجز الجغرافية التي انتصبت في وجهها ، فلم تلبث ان تجاوزت بسرعة ، من الشرق ، نهر الفرات . وليس ما يشير قط انها رسخت اقدامها في المقاطعات الفارسية الاصل ، إلا انها تغلغلت بعيداً في اواسط بلاد ما بين النهرين ، وفي مملكة *Osrhoène* ، حتى ان الملك أيجر التاسع كان على وشك اعتناق المسيحية ، وعاصمة ملكه اذ ذاك ، الرها ، وهو اسم مقدوني الاشتقاق والاصل ، أطلق عليها ، بعد الاسكندر بقليل ، بعد ان عرفت ، من قبل باسم *Oshoe* او *Orrhoe* وبالعربية اورفة ، التي أصبحت مركزاً لإحدى الكنائس الكبرى في الشرق ، ومنها شعت اللغة السريانية ، احد فروع الأرامية ، وانتشرت في هذه الأرجاء من الامبراطورية أيما انتشار . ومن الرها تسربت المسيحية الى الشرق ، لتدخل عبر التركستان ، مشارف الشرق الاقصى ، دون ان تتمكن ، مع ذلك ، من تتبع الصوَى التي قطعتها ، والمراحل التي سجلتها .

ومع ذلك ، فقد بقيت ، اساساً ، احدى ديانات الامبراطورية الرومانية وان اقتصر انتشارها على بعض ولايات منها لا غير .

اما من هذه الناحية من الفرات ، فقد غزت النصرانية مدن سوريا الكبرى دون الأرياف ، بعكس بلاد الاناضول حيث نرى كرازة الرسول بولس تلاقي نجاحاً كبيراً بين اهل فريجية واهل

غلاطية وانتشرت المسيحية بينهم على نطاق واسع ، ولا سيما بين سكان الأرياف . وكان الوضع على عكس ذلك تماماً في الأقسام المتبقية من الشرق حيث بقي انتشار الديانة الجديدة ضعيفاً ، باستثناء مقدونية .

أما في الغرب ، فإننا نشاهد عناصر عديدة من المسيحيين تقوم في العاصمة روما ، ملتحق بجميع الملل والطوائف ومحبة الشعوب على اختلافها ، إذ ذاك . فلا عجب أن تتجه إليها ، في تاريخ مبكر ، أنظار أتباع الديانة الجديدة . هنالك مسيحيون أنساحوا وتغلغلوا بين طبقات المجتمع الروماني العالية ، حتى أننا نراهم يغشون البلاط الإمبراطوري نفسه . أفنسم يحكم الإمبراطور بالموت ، على قنصلين سابقين ، ويأمر بنفي ابنة أخيه التي كانت زوجة لأحدهما ، هو في الوقت ذاته ابن عمه ؟ هنالك دلائل قوية تحملنا على الظن بأن اتهامهم « بالاحاد » والعادات اليهودية ، التي رموم بها لم تكن في الواقع سوى الأخذ بالمسيحية وتبني مقالبتها العقائدية . مسيحية أيضاً مارسيا ، محظية الإمبراطور كومود ، التي حاولت أن تدين له السم . ومع هذا فالأكثرية من أتباع الدين الجديد تتألف من صفار القوم وضعفائهم .

وهذا الدين الجديد ، لم ير في مكان ما من النجاح الذي حققه ما رآه في ولاية أفريقية . لا ندري كيف وصل إليها ، ولا كيف تغلغل فيها ، إذ تطلع علينا فجأة ، في أواخر القرن الثاني ، جماعة كبيرة من المسيحيين ، ناشطة في المدن والأرياف ، جعلت من قرطاجة مركزها الرئيسي ، ومقرها الأكبر . وعندما يقوم ترتليانوس يعتز مفخراً ، عام ١٩٧ بعدد المسيحيين ، فهو بالطبع يتصور عددهم في هذه الولاية التي شهدت مسقط رأسه . فاسمعه يقول : « نحن أبناء امس الغابر ، ومع ذلك فقد ملأنا الأرض ... بوسعنا أن نحصى أفراد جيوشكم ، أما عدد النصراني في ولاية واحدة من ولاياتكم ، فقد تبرز كثرتهم عدد جيوشكم بكثير . » فهو في حماسه يعمم كثيراً ويفلو ، إذ لا يمكننا أن نذكر خارج نطاق أفريقية ، بالاستناد إلى اضطهاد عام ١٧٧ ، سوى جماعة المسيحيين في وادي الرون . ثم إنه يصف عدد الذين استشهدوا في سبيل إيمانهم في مدينة ليون ، ثم أغارقة شرقيون - وليسوا قط من أهل البلاد - اعتنقوا فيها الديانة الجديدة . فإذا كان بولس ، بين دخوله روما لأول مرة وموته فيها ، قد وصل في تنقلاته إلى إسبانيا وتوقف عند ساحل غاليا ، فمروره في تلك الأرجاء لم يترك بعد ، أثراً يذكر .

وعلى هذا ، فقد سجلت المسيحية نجاحات تذكر . علينا هنا أن نأخذ بعين الاعتبار ، عدد الولايات التي تدخل في نطاق الإمبراطورية الرومانية ومساحتها الشاسعة ، التي لم تكن وطنيتها بعد ، أقدام المبشرين . ففي مطلع القرن الثالث ، نرى الأسقف الفريجي أبيركيوس يذكر في رسالة له نقشت عبارة منها على شاهدة ضريحه ، تعبر بصورة مجازية وبتوريات تقوية ، عن الانطباعات التي عادها من سلسلة من الأسفار والرحلات ، حملته تبعاً إلى روما وسوريا وبلاد ما بين النهرين ، جاء فيها : « أينما حللت ، ألفت الإيمان المسيحي قد سبقني . فقد وجدت أخوة لنا أنسى زلت وأينما هبطت . » بالطبع لم يحط أسقفنا هذا رحاله ، إلا في المدن .

نفس جيداً دون الحاجة للافصاح عنها ، اسباب هذه الحماسة وأسباب
النشاط العام ، تجيش بها الديانة الجديدة . فهي لا ترى نفسها غريبة عن
أي بلد دخلته مها كانت اللغة المحكية فيه .

حياة الكنائس الاولى
وتنظيماتها الداخلية

فاللغة الوحيدة التي عولت عليها المسيحية دون سواها هي اللاتينية . فلا يوجد للكتاب
المقدس ، في مكان ما ، ترجمة لاتينية ، حتى في افريقيا نفسها التي أطلعت اول كاتب مسيحي
تجراً ، ان يعالج ، في مثل هذا الوقت بالذات ، باللغة اللاتينية ، قضايا لاهوتية بحجة ، هو
ترتليانوس . فجماعة المؤمنين ، في روما ، لا تستعمل في طقوسها ، غير اليونانية . وكذلك مسيحيو
وادي الرون يكتبون باليونانية ، الرسائل التي بعثوا بها الى اخوتهم في الايمان ، في آسيا الصغرى .
فاللغة اليونانية هي وحدها اللغة الطقسية في جميع البلدان . فالمبشرون الاكفاء الذين يحسنون
اللهجات الوطنية الشعبية لا يزالون قلة يبقى معها أثر الكرازة التي يقومون بها ، وفعلها في النفوس ،
محدوداً ضيقاً . فأحادية اللغة ، كانت الى حد بعيد ، وراء تأخر انتشار المسيحية ، في الشطر
الغربي من العالم الروماني ، إلا أنه تأخير أفاد ، من جهة أخرى ، مع ذلك ، في الحفاظ على اولوية
اللغة اليونانية بين اللغات واللهجات المحكية ، اذ ذاك .

تبرز وحدة الكنيسة ، على الأخص ، في مراسم العبادة والطقوس . هنالك عشاء مشترك
يجمع بينها عرف باسم *Agape* . والكلمة يونانية الاصل ، إنما تعني «انعطاف» او مقاسمة عاطفية
في اجتماعات مسائية . وبالفعل ، ان كلمة « كنيسة » إنما تعني : جماعة . وبعد ان وقع مجيء
المسيح وظهر على الارض بمجده ، صار من المتوجب ، على أتباعه ان ينتظموا وان ينظمو ذاتهم .
ومنذ ذلك الحين ، اخذ التسلسل الوظيفي ينمو ويتطور على مر الزمن ، وفقاً للحاجة العارضة .
فقد نزعوا الى تأخير سر العمد او التنصير ، عن الموعوظين ، أي عن الذين بلغهم الصوت وتردد
فيهم « الصدى » ، أي من «لَقِئُوا الايمان بالصوت الحي» ، فأخروا العمد عن موعده سنتين او
ثلاث سنوات . وقد برز عن جمهرة الشعب (*Laos*) فريق الاكليروس ، لفظ اشتق من كلمة
يونانية (*Clèros*) عَنَت في بادىء الأمر : حصّة او نصيباً ، ثم اخذت في الترجمة السبعينية
معنى اكليروس او طغمة الرهبان ، وهي طغمة تألفت من رُتب ومراتب عديدة . ومن هذه
المراتب برزت كلمات : « كاهن » ، و « شماس » و « اسقف » . فالكنيسة *Presbyteroi* او الشيوخ
(المتقدمون في السن) يتألف منهم مجعاً يتولى وضع القرارات ، والشمامسة *Diaconoi* الذين
يناط بهم تأمين مهام الطقوس المادية . ولم تلبث ان تفرعت مهام اعمالهم الى شماس رسائلي ،
وقاريء ، ومُعزّم ، وحارس الابواب ، ثم الاسقف او المشرف على التعليم وعقائد الايمان ، وعلى
سلوك المؤمنين . وقد اخذ النظام الجديد ، بالنظر للخطر الخارجي ، وبالنظر لمقتضيات تأمين
خِدْمَةِ الهيكل مما يؤثر على النوع او الكيفية ، ينزع الى الحكم المطلق . ففي كل مقاطعة ، يقوم على
رأس الجماعة ، بدون استثناء ، اسقف واحد . فالشعب يصطفيه ويختاره ، بدون ان يخضع لمراسم
خاصة ، من بين اشخاص يقترح أسماءهم الكهنة . فله وحده حق القطع او الجزم في القضايا التي

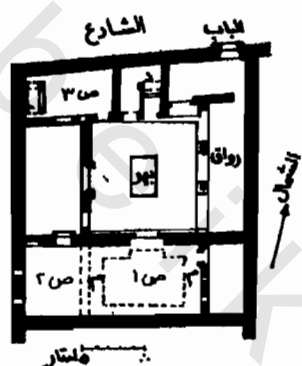
يتناقش الكهنة حولها ويتبادلوا فيها الآراء . وعندما تتكاثر أمكنة العبادة يصبح الكهنة مجرد خدام لها ، يرفعون جماعة المؤمنين فيها ، تحت اشراف الأسقف . فهو وحده يقوم بكسر الخبز وتقديس القربان ، وبدونه تنعدم الحياة المسيحية .

وهكذا تُصان وحدة الجماعة وتحفظ . وهي وحدة لا تذهب أبعد من ذلك . فبالرغم من وحدة العقيدة والطقوس فلا توجد كنيسة بل كنائس . ولكل منها إطارها الخاص ، له 'حجبرته' الادارية الاساسية ، ممثلة بالمدينة التي تمثل في المنطقة ملء الحياة المحلية في مختلف مظاهرها . وهذا الأسقف يمارس سلطته على الجماعات المسيحية في المدن القريبة طالما عدد الأتباع فيها لا يسمح بوجود أسقف خاص يتولى رعيهم . وعندما يصبح هذا العدد كافياً تنشأ كنيسة جديدة مساوية في وضعها للكنيسة التي انفصلت عنها ، مع الاعتراف لها بأولوية ادبية . فليس ما يدعو الاساقفة لإقامة علاقات فيما بينهم ، غير ان المصلحة العملية المشتركة تحدد بهم لتبادل الرأي : إما عن طريق رحلات فردية يقومون بها ، او عن طريق تبادل الرسائل او موفدين خصوصيين . ثم لم يلبثوا ان أخذوا يعتقدون 'سينودساً' والعربية مجعاً إطاره الطبيعي الولاية ، هذه الوحدة الادارية الكبرى في البلاد .

كل هذا اولى أساقفة بعض الكنائس الموجودة في حاضرة الولاية او في مركزها الإداري ، او في القواعد الحضارية التي تؤلف قطب جذب فكرياً او اقتصادياً ، نفوذاً خاصاً ، فهو بالفعل والواقع وليس شرعاً أسقف المدينة . فالسلطة التي يتمتع بها أسقف روما لم تكن لتوازي سلطة بعض الاساقفة في مدن مثل انطاكية او افسس مثلاً . فترتليانوس يعرف جيداً شأن السلطة التي يتمتع بها صاحب الكرسي التي اسسها بطرس في روما عاصمة الامبراطورية . ولكن هذا الأسقف لا يستخدم الحق الذي اولاه اياه شرف الانتساب الى هامة الرُّسل او رئيس الحوارين ، إما لانه لا يرغب في ذلك او لانه لا يستطيع الى ذلك سبيلاً . فهذه الادارة التي تتصف بنظام مطلق يتوزع بين مدينة واخرى ، لا يبدو عليها ما يشير قط انها في سبيل التكامل ، حتى اننا اخذنا نشاهد بعض الصعوبات والعراقيل تعترض سبيلها الى هذا التكامل .

من غير الممكن ان يخفى مثل هذا الوضع على فطنة الادارة المسؤولة او ان تجاهله ، لا سيما بعد ان تكاثرت عدد المؤمنين في الكنيسة بين الطبقات الاجتماعية المتواضعة واخذت تتكون الاوقاف الكنسية وتنشأ . وتكون هذه الاوقاف لم يلبث ان أثار مشكلات قانونية اخذ الجدل يرتفع بشأنها ، كما اخذت الآراء تتضارب حولها . ومهما يكن بالفعل الحل المقترح في تبريرها : سواء أُنسبت الى هيئات جنائزية او الى جمعيات غير شرعية ، فجماعات المؤمنين لم تلبث ان رأت نفسها مالكة لعقارات واملأ على وجه مختلف عن ملكية الفرد ، او لمسانة يستخدمونها في اجتماعاتهم الخاصة او يتخذون منها مدافن لهم . فمن بين الفئة الاولى من هذه العقارات ، لم يُنسخ لمعلم الآثار ان يدرس خرائب اقدم عهداً من خرائب كنيسة دورا يورويوس ، هذه المدينة التي كانت قائمة على نهر الفرات ، في الوضع الخاص الذي كانت عليه ، في الربع الثاني من القرن الثالث . فبني هذه

الكنيسة القديمة لا يتعدى ان يكون منزلاً قديماً خاصاً ، كانت الغرفة الخاصة باقامة شعائر العبادة فيه تضم مقعداً مستدير الشكل وقد زينت جدرانها بنقوش مختلفة بيدو بينها زمارات لتقليد الأصوات ، ومساخر للوجه . كذلك نرى غرفة العماد مزدانة برسوم مستمدة من احداث المهدين القديم والجديد . اما الفئة الثانية ، وهي فئة المقابر ، فقد اتاح لنا درس النواويس الموجودة تحت روما ان نتتبع توسعها وامتدادها عن طريق الدهاليز والممرات التي شُقت تحت الأرض انطلاقاً من مدفن اسرة من الأسر . وقد أنشئت مثل هذه النواويس ، في المدن الكبرى ،



الشكل ١١ - كنيسة دورا يورويس.
د ، درج يفضي بصاحبه الى الدور العلوي
المهدوم؛ ص ١، صالة لمواسم العبادة جرى
توسيعها بإضافة ص ٢ اليها وذلك بين ٣٣٢
- ٣٣٨ م ، مقاعد من القرميد ؛
ص ٣ ، جرن المعمودية .

منذ ان شاع عنها خبر احترام بقايا الاموات المدفونين فيها . فوجود نواويس اليهود ونواويس اخرى في مدينة الاسكندرية يدل على ان عادة النواويس لم تكن محصورة على المسيحيين ولا على الرومان . ففي هذا العهد كانت روما الجوفية لا تزال في بدء امرها . وقد اقتضى تطورها واتساعها ان تكون الشرطة قد أغضت عن هذه الأعمال التي تجري في الخفاء او تحت الأرض ، كما انها غضت للنظر ، ولا شك ، عن هذه الاجتماعات التي كان يتكرر عقدها في الكنائس .

والحياة العادية للجماعات المسيحية لدى تكوينها ، قامت ، مثلها في ذلك مثل انتشار الديانة المسيحية على التسامح الضمني الذي أبدته السلطات العامة ، كما تنطق بذلك الشواهد التي استعرضنا لها وكما يعلننا تاريخ الاضطهادات نفسه .

الجدل الديني والبدع
كانت المسيحية قد أصبحت ، في مثل هذا الوقت بالذات ، واقعاً روحياً عظيم الشأن والخطر ليبقي بدون صدى في مجالي الفكر والنظر .

وقد استهدفت لهجمات جاءت من أوساط مستنيرة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالوثنية ، هي من مجلى الحضارة نفسها ، اذ ذاك . فبقطع النظر عن الافتراءات والسعايات التي ألصقوها بالدين الجديد فتركت أثرها ولو الى أمد قصير ، فقد وجدوا فيها مادة ثرية لمؤلفات لم تحل من الأهمية ، وان لم يصلنا منها شيء يذكر عن طريق الكتبة المسيحيين انفسهم الذين لم يحفلوا بجمعها ولم يأتوا على ذكرها إلا بنسبة ما أفاضت لهؤلاء الكتبة من غبطة ورضى في دحضها والرد عليها . وخير ما تمثله هذه الكتابات ، الكتاب الذي وضعه ، حوالي عام ١٨٠ ، أحد اتباع الفلسفة الافلاطونية المدعو سكتس Celse بعنوان : «خطاب حق Discours vrai» والذي يمكن إعادة تكوينه وجمعه من جديد عن طريق الاستشهادات التي ضمنها أوريجينس ردوده عليه في كتابه الموسوم : «رداً على سكتس» . والطعون التي يحاول فيها الكاتب الوثني مهاجمة تعاليم الدين الجديد ، انما تصدر كلها عن نظريات فلسفية ، كما انها تركز الى نظرات سياسية واجتماعية حرة

بالنظر . فهو يرمي المسيحيين بفرية تمسكهم بالعود التي يقطعونها ، أكثر من محافظتهم على « الإيمانات المُغلَّطة » كما يأخذ عليهم ، من جهة أخرى ، مخالفتهم وتجاوزاتهم لشرائع البلاد والقوانين المعمول بها ، وإعراضهم بسخرية ، عن « التعاليم والمعائد التي غذت عقولهم يوماً وشبوا عليها » . فكتابه هذا هو عبارة عن مستودع أسلحة ، كثيراً ما عول عليها وصدر عنها ، واتخذ لهم منها يداً الكتب الجدليون من الوثنيين الذين تنطّحوا ، فيما بعد لدحض المسيحية .

فليس من عجب قط ، والحالة هذه ، أن يهبّ المسيحيون للرد على خصومهم . فما هو القرن الثاني يمتدنا بطائفة من أصحاب الردود الأوّل الذين لا يكتفون بدحض الاتهامات التي يحاول خصومهم إصاقتها بهم ، بل راحوا يهاجون بعنف الديانات الرسمية المعمول بها في الامبراطورية . فأسماءهم تؤلف قائمة طويلة ، واصحاب هذه الردود معروفة اسمائهم لدينا جيداً بعد أن وصلت آثارهم إلينا بينما عَفَت آثار خصومهم من الوثنيين ، بعد أن جرى تمقيبها وراحوا يتصيدونها للقضاء عليها وإتلافها . وببساطة كلية وجرأة لا يخشون معها لومة لائم ، نراهم يوجهون ردودهم للأباطرة أنفسهم ، كما فعل اسقف أثينا كوادراتوس مع الامبراطور هديرانوس ، وكما فعل أيضاً الأسقف ارستيدس الاثيني مع الامبراطور أنطونين ، وغيرهما . ويوستينوس ، هذا الفيلسوف الافلاطوني المنتصر ، السامري الاصل ، يطلب يجرأة من الامبراطور مارك اوريل ، وهو أيضاً فيلسوف مثله من اتباع المدرسة المذكورة ، ان يوافق على نشر كتابه المعروف باعتدال لهجته ، يرى نفسه مدينّاً باستشهاده مثلاً لحقد زميل له منافس . وتيتيانوس « الذي رأى النور على ارض الأشوريين » في مدينة نصيبين من اعمال ما بين النهرين ، قد يكون اشدّهم تهكماً وسخرية . ولكي يكون القارئ فكرة له عن عنف ردوده وشدة اتهاماته للديانة اليونانية - الرومانية ، وتعاليمها الادبية والاخلاقية ، يستهجن مستنكراً تمثالاً يُشيدونه في روما لأم انجبت ثلاثين ولداً ، عشرون منهم كانوا احياء عند وفاتها . يجب ان نشير هنا بنوع خاص الى ترتليانوس القرطاجي ، وهو اول كاتب مسيحي باللغة اللاتينية ، وضع ، في اواخر القرن الثاني ، كتابه المعروف : « دفاع » عن المسيحية ، وجهه لأولي الامر في الامبراطورية ، كما وضع كتابه الثاني : « الى الشعب » . وهذان الاثران الادبيان ينطقان عالياً ، ببلاغة هذا الكاتب وفصاحته ، ووقاره ومقدرته ، وكلها امور تثير الاعجاب .

إلا ان ترتليانوس اشتطّ في تعليمه وانتهى به الامر الى الهرطقة . فقد عرفت المسيحية في القرن الثاني شقاً وجداً حول شؤونها الداخلية ، وهي امراض ملازمة للطفولة رافقت نموها وسيرها نحو التكامل ، فعاتت منها وتضرّست بها ثمناً للنجاحات التي حققتها ، وللمقدرات الفكرية والعلمية التي وفرت لعدد من كبار اتباعها ، وللوهن الذي رافق تنظيمها في البدء ، فأوجب عليها إكمال هذا التنظيم وتقويته ، ولطراوة إيمانها وتعاليمها . وكان لا مندوحة من هذه الهرطقات لتدفعها على تقوية النظام الداخلي لكنائسها ، ولتجديد قضايا الايمان وتفسيرها وتبسيطها ، وهي بعد في مستهل تاريخ وحركة تطورية طويلين ، خصبين بالحوادث الجسام التي تخللتها .

بقيت الهرطقات قليلة نسبياً ، في ذلك العهد ، اثنتان منها طلع بها داعيتان تميزتا بالفردية . اما الاول ، فهو مونتائوس الفريجي الذي راح يلقباً مدّعياً نزول الوحي عليه . وقد تأثر توتليانوس بتعاليمه ، قبل ان يؤسس هو نفسه شيعة مستقلة ، عاشت بضعة قرون في افريقيا ، انتهج لها نهجاً صارماً مجافياً لكل الاوضاع البشرية المعمول بها ، حتى الزواج منها . اما مارسيون الذي رذله ابوه ، اسقف سينوب وحرمه وقطعه من شركة المؤمنين ، فقد راح يعلم طريقة لم تقتل زهداً وتقشفاً عن سابقتها . ولم يلبث أتباعه ان ألفتوا منهم جماعة لعبت ، مدة طويلة ، دوراً بارزاً ، في امور الشرق . وعندما راح يعارض العهد القديم ، صنيعاً غير مكتمل لباري الكون *Démiurge* ، بالعهد الجديد ، صنيعاً المسيح المرسل من الإله الحقيقي ، حل المسيحيين على الشروع بتحديد قانون الكتب المقدسة ، وهكذا امتد أثر هذه البدعة واستطال .

هنالك بدعة ثالثة هي بدعة الغنوسية التي راحت تعمل على إيهان شأن العهد القديم ، بالطريقة ذاتها التي اعتمدتها البدعة السالفة ، كما انها رأت في المسيحية نفسها ، وجهاً خاصاً من وجوه «الغنوس» ، أي المعرفة الحقيقية التي أضفت على اللاهوت تفسيراً رمزياً للكون . وكانت هذه البدعة أدهى الهرطقات التي عرفت في المسيحية ، الى هذا العهد ، لما حوته من سحر وإغراء ، وللتأثير التي أدت اليها انتشارها السريع ، اذ يصبح المسيح معها كائناً إلهياً بالطبع ، انما ينبثق عن إله أكبر ، ابدعته الفلسفة اليونانية ، كما أضفت على حياة المسيح تفسيرات رمزية او مجازية ، وجملت حياته وموته امراً صورياً وليس حقيقياً . ومن هذه المقالة المشاقة ، برزت منذ القرن الثاني ، تعاليم أخرى ، لمحارب الواحدة منها الأخرى . ولو ان المسيحية انزلت الى واحدة منها لكانت راحت ، هي الأخرى ، فريسة لمذهب توحيد الفروق . إلا انها أظهرت ، منذ الاساس مقاومة كان عليها ان تريدها أكثر صلابة على مر الاجيال ، وأكثر حيوية وبقظة .

الانجازات الأدبية والفنية

حدودها ونجاحاتها

يشعر المؤرخ بشيء من الارتباك عندما يحاول وضع صورة اجمالية لما كانت عليه الحياة الادبية والفنية في الامبراطورية الرومانية . فقد كانت تؤلف هذه الامبراطورية ، عندما أطلت عليها النظام الجديد عالماً قائماً بذاته ، تباينت منه الشعوب ثقافة ، واختلفت عروفاً وأخلاقاً وعادات . فهو عالم شاسع ، رحب ، مترامي الأطراف والنهايات ، تمت له مع ذلك من اسباب المواصلات وانتظامها ما قرب قواصيا الى دوانيا . وهذا العالم متنوع المظاهر في أقسامه وأجزائه المقومة ، بالرغم مما يشد بينها من عوامل مادية تقرب بين أشتاتها ، وتسهل لها جميعاً عيشاً مشتركاً ، وإدارة حكومية واحدة ، وتؤمن العلاقات المتنوعة بين هذه الأقاليم والمناطق التي يتألف منها ، وتبني الطبقات الموجهة كمثّل مشتركة فيما بينها ، كما تبني لها هذه الوحدة الروحية التي يقوم عليها التطور بعد ان اخذ بأسبابه . فليس ما يذهب بهذا التفاوت القائم بين المدينة والريف ، وهذه الفروق التي نراها بين أنماط الحياة التي يحياها الأهليون في المناطق الزراعية المتحضرة ، ونهج الحياة التي ينهجها سكان المناطق الصحراوية الواقعة على حدود هذه الامبراطورية ، في الشرق والى الجنوب الشرقي من البحر الابيض المتوسط . وليس ما يسد او يملأ ابدأ هذه الفجوة والهوة التي قامت بين الشرق الهليني والغرب اللاتيني . فالعامل الوحيد الذي يجمع بين هذه المفارقات المتضادة ، ويؤمن لها نوعاً من الوحدة الادبية ، هو هذا الشيء الذي يؤلف في صميمه معجزة ، لأن لا مثيل له في التاريخ ولا كفاء ، اذا ما تعدينا النتائج لنقف عند نقطة الانطلاق . فالقوارق لا تزال قائمة بالرغم من ان التطور الذي ينبع من أفكار مشتركة ، وينزع لأهداف واحدة ، ويتجه من غاية واحدة ، هي العامل المقوم لهذه الحضارة ، حسباً تتبلور في مظاهرها العامة اذ ذاك ، عند مقارنتها بهذا العالم البربري المتوحش القائم على اطرافها ، وهو عالم أعجز من ان يصل الى خط سوي ، لأنه لا يجري على حركة منسقة واحدة مؤتلفة بين جميع الأطراف . ومهما يكن ، فهذه النزعة نحو الوحدة لا تبدو للعيان في مطلع العهد الامبراطوري . فاذا ما استشعرها بعضهم ، فلم يخطر قط على بال احد انها قريبة النال ، دانية القطوف . وعلى نسبة

ما يتصف هذا الجهد البناء بالوعي، فهو يستهدف شيئاً آخر، لا مندوحة عنه في نظر أولي الأمر. وهذا الجهد الذي اقتصر سواده الأكبر على روما، لقي النجاح الكامل وتكامل بالفوز الأتم.

١ - عصر أوغسطس

هذا النجاح يصيبه المهد هو السبب بعينه الذي لأجله اصطلاح المؤرخون على تسميته بـ : « عصر أوغسطس » ، على غرار ما فعلوا بمهد آخر شابه من وجوه عدة ، وان جاء بعده بوقت طويل ، هو : « عصر لويس الرابع عشر » .

فالوضع القائم ، كما تبلور في روما من حيث تعبئة الجيوش البرية
روما منافسة
للمعاصم الهلينية الأخرى
والاساطيل الحربية في السنوات العشرة الأخيرة من أزمة الحرب الأهلية
كان تعبيراً رسمياً لا يختلف كثيراً عن المدلول الظاهر للعيان . ففي أكتيوم، جمع اوكتاف او أوغسطس الذي سيكونه، حوله كل قوى الغرب، وانتصر على انطونيوس وكتليوباترا المسيطران على موارد الشرق الهليني وطاقاته الضخمة وموارده التي لا تنضب . ولما كانت روما قد نالت الفوز بقوة السلاح ، كان لا بد لها من ان تأتي بالدليل القاطع على ان لها من الاهمية والشأن ، في المجالات الأخرى ، ما لا يقل بشيء عما تم لها في الميدان الحربي ، وانها ليست على استعداد قط لتسيء استعمال تفوقها البارز في جميع الميادين . فالشيء الذي كانت الاسكندرية تمثله او ترمز اليه ، لم يخرج عن مظاهر خارجية ، دعائية ، مثله بهذه الديانات الفاسدة ، التي طالما عبثت بالاخلاق والآداب، وبهذا البذخ المحلل ، وبهذا الترف الفكري والفني الذي يوهن النشاط ويضعفه . فان عجز هذا العالم الشرقي عن ان يرفع رأسه عسكرياً وحربياً ، فهو ، بالرغم من الازدراء له والاستهانة به ، له ، مع ذلك وقعه في النفوس واغراؤه للعقول والقلوب ، ويجب بالتالي ، اللحاق به والتساوي معه .

وقد رغب أولو الامر في روما ، دون ان يبدو عليهم شيء من هذا ، ان يحققوا لوطنهم ، هذا التجلي الفكري والادبي والفني الذي اكسب الادب الكلاسيكي : الاغريقي والهليني ، هذه الشهرة البعيدة التي تمتع بها ، وهذه التربية التي تمت له ، هذه التربية المشبعة بالفلسفات والتعاليم اليونانية الاصل التي عكست على مرآتها هذا التسلسل الأسر للقيم البشرية التي لم يكن ليخطر على بال احد الانتقاص منها لئلا تصاب هذه التربية بشيء من رذائل هذا الانتقاص ، فيخدش من روائ أديما وينتزل بها الى منسوب البرابرة . فالكل رأى ان تسير القوة في ركاب الحضارة وخدمتها . ولكي تزكي روما انتصارها الباهر وفوزها المؤثل ، كان لا بد لها من ان تظهر، عندما تم لها الأمر ، على ما ظهرت به أثينا وبرغاموس ، وانطاكية والاسكندرية . وكان عليها ان تسير على النهج الذي نزعت اليه منذ نحو من قرنين واحتضنته باحتضانها الادب ، وان تشجعه ، وان تزودان بالمباني الضخمة الجميلة والصروح الفخمة . فالإعراض عن مثل هذا المطلب انما كان يفسر بالتخلي عن تفوقها ، والاعتراف ضمناً بعدم اهليتها ، والتنازل عن حقها الشرعي في الدفاع

عن الحضارة والثقافة ، وفقدان كل أمل بالتفاف الطبقة المستنيرة وسكان الريف حولها ، والالتقاء معاً في محرابها ، والسير بهديها .

كان هنالك ولا شك ، احتمال لا يخلو من خطر ، لم يفُت بصر النخبة المستنيرة من الرومان وبصيرتهم ، وهو ألا يقتصر على جعل روما مجرد عاصمة هلينية ، على شاكلة العواصم الهلينية الأخرى ، بما يحف بها من جيران مزعجين ، ومن فيض فكري وفني لا ضابط له ولا وازع فيه ، يزرع الخوف في القلوب وينزل الرعب في النفوس . كان عليها ان تستلهم مثل العالم اليوناني بحيث تتغادى السقوط في المساوىء التي انتهى اليها هذا العالم . كان عليها ان تقتبس من هذا العالم ما حققه من وسائل تقنية بشرط استخدامها بعقلية جديدة وروح جديدة ، وان تعمل بهدي الأمور التي استبدت بخاطره على ان تصطفي منها أفضل ما توصل اليه . كان عليها انتهاز السبيل الذي انتهجه شريطة ان تعرف كيف تجانب هذا السبيل عند الاقتضاء ، فتضع هي لنفسها ، سبلاً جديدة تتفق والتقاليد الوطنية بما ينسجم مع الوقار والرصانة التي عرفت بها الرومان وبها تميزوا .

هذه هي الخطة او المنهج الموضوع تحت الانظار ، وهو منهج لا بد من النهوض به ، والسير معه الى آخر الشوط ، وفقاً للخطوط العريضة التي وضعها له قيصر قبل موقعة أكتيوم ، ولجبل قيصر فضل السبق على اوغسطس في وضع مثل هذه الخطة وترسمها . وقد باشر قيصر نفسه وشيخرون وغيرهما كثيرون من النخبة لدى الرومان بتحقيقها . وكان من نصيب جبل اوغسطس ان ينهض بهذا المنهج ويحققه على نطاق اوسع وارحب .

« عصر ، في صميمه
من صنع اوغسطس »
وأى عصر! ... فالعرف التاريخي المعمول به ، لا يتبنى كل الالقاب والنعوت التبجيلية من هذا النوع التي اعتاد المدلسون إغداقها على بعض الملوك والعهود . ولكن ما من شيء يجعل من العرف قانوناً او يقيم منه قسطاساً . وهذا أمر يجعل التدقيق في الاماديج التي تكال لرئيس دولة كيلاً ، عملية عسيرة للغاية . كذلك ، ليس بين المقاييس التي يمكن ان تختار على البال ما لا يصح تطبيقه على وضع اوغسطس بالذات ، أي مدة حكمه المديد التي تبرر إطلاق كلمة «عصر» عليه ؟ فقد مرت اربعون سنة ، منذ ان أطلقوا عليه ، لأول مرة ، هذا اللقب ، في غرة كانون الثاني (يناير) ، من سنة ٢٧ ق . م ، مع انه كان منذ عهد بعبيد ، سيد روما المطلق ، وبقي سيدها الأوحد حتى وفاته في ١٤ من آب (اوغسطس) سنة ١٤ للميلاد .

أهو لمعري ، الدور الذي لعبه ؟ فالسلطة المطلقة التي تمت له في الحقل السياسي ضاعفت من شأن الدور الذي لعبه في عالم الفكر والادب . صحيح ان عمله في هذا المجال لم يكن كله مجرداً : فقد عمل جاهداً في سبيل المجد ، وفي هذا السبيل وجّه رجال الفكر والفن ، واوحى اليهم بالموضوعات التي يمه ان يراها مجلوة . فاذا ما اخذهم تحت رعايته واجرى لهم العطاء ، فمن الغلو القول بأنه أوعز او تقدم بطلبات ، إلا ما تعلق بالمباني والانشاءات العمرانية . فلا

بفرجيل ولا يهوراتيوس بمستكتبين عنده. وقد قام بهذا كروماني من ابناء زمانه ومن ابناء طبقته، حَفِيٌّ بالأدب والفنون الرفيعة. وكلمة « هوي » Amateur يقصر مدلولها عن التعبير تعبيراً صحيحاً، كما لا يحسن التعبير عن كثيرين من اسلافه او خلفائه الذين عنوا، من قريب بشؤون السياسة. فاسم صديقه وخدينه « مكيني » اصبح رمزاً لنصراء العلم والادب بما اغدقه من مكرمات وأعطيات. وهبات كان من شأنها ان تحمل كبار القوم على الاهتمام بامور ابقي وأخلد. الا ان الاكتفاء بالتنويه، والاقتصار على استعمال نفوذ مكيني وكرمه وسخائه على هذا الوجه من شأنه ان ينتقص من قيمة النشاط النير الذي تقرد به نصير من اكبر نصراء العلم والادب في كل زمان ومكان. فقد راح يحرب، هو نفسه حظه ويدي بدلوله بين الدلاء، فيكتب، ويؤلف في كل موضوع، على شاكلة كتاب ذلك العصر، وعلى مثال الملوك الهلنيين، فراح يُقصّد القصائد ويدير المحاورات ويضع كتباً في التاريخ الطبيعي. والحال فالمثل مُعَدَّر، ولذا لم يبق وحده في الميدان، فطلع علينا وجوه عديدة تحلق بصورة ابرز بينهم اول نصراء فرجيل المدعو أزينيوس بوليون. فهو ايضاً يأخذ بنصرة العلماء والادباء نظير مكيني ويرعاهم برعايته، مع انه كان في عداد المعارضين للعهد وإن اعترف به ومالاه، فاعترافه هذا لم يتعدّ طرف لسانه، بعد ان كانت من انصار انطونيوس ومن مريديه. فراح يتم بجمع التحف والأعلاق الثمينة، وينشئ لافراد الشعب مكتبة عامة، في الوقت الذي انقطع هو فيه للتأليف المسرحي ووضع التمثيليات، وكتابة تاريخ عام للحروب الاهلية. واليه يعزى الفضل الاول في اطلاق الناس على المؤلفات التي يضعها اصحابها، وذلك بقراءات علانية منها، امام الناس، تعريفاً بها وبراضعها.

وقد عاصره، في الوقت ذاته، في موريتانيا، الملك يوبا الثاني، احد ملوك النوميدي المعروف بخصومته لقيصر. فقد جيء به يافعاً الى روما وسار في ركاب قيصر عند دخوله روما مظفراً. اعاده اوغسطس الى ملكه هو وزوجته الشابة، كليوباترا سيلانية، ابنة كليوباترا وانطونيوس التي كانت في الموكب الحافل الذي رافق دخول اوغسطس ظافراً الى روما، بعد معركة أكتيوم. وهذا الملك الهزيل الشأن، البربري المحتد، الذي ملك على قبائل بربرية استنكف اوغسطس من ان يضمها الى الادارة الرومانية مباشرة، ونشأ في روما تحت إشراف عائلة الامبراطور نفسه، يبرز، في غير مغالاة ولا زهو، من كبار نصراء العلم والفن اليوناني: كاتباً، عالماً، عرف ان يُضفي على عاصمته قيصريّة (مدينة تشرشل، اليوم، في المغرب) سناءً بهياً وإشعاعاً عالياً، بما شيّد فيها من المباني والصروح الفخمة، وبما حشد في قاعدة ملكه هذه من الآثار والتحف والمباني بحيث بدت كأنها متحفاً رائعاً، ضمت فيما ضمت، قصرأ منيفاً، عثر المنقبون في خرابئه في فولوبليس، على مقربة من مدينة مكناس، ما وجدوا من الاواني البرونزية التي تثير الدهش بدقة صنعها. وقد وضع هذا الملك، في الوقت ذاته، عدداً كبيراً من المؤلفات باللغة اليونانية، بشتى المواضيع: كالتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وغير ذلك، وهي

كتب اعتمد عليها ومنها عب ، فيما بعد ، بلين الاكبر .

فالاستشهاد ، في معرض الحديث عن أوغسطس ، بمثل هذا الملك الغريب الهزيل ، قد يبدو من الهزل بكان ، وهو ، مع ذلك ، استشهاد لا بد منه لندرك جيداً ، الى أي حد طبع أوغسطس عصره ، وانسجم محيطه به . وهكذا نرى بصورة حيّة مُشرقة ، كيف ان أثرياء الرومان وعظماهم تبنوا المسئل التي نهض بها من قبل ، الفاسيلفس الهليني ، ومنهم امتد الى مثل هذا المثلثك النوميدي الذي كان مديناً بكل شيء ، لسراة القوم في روما . وراح أوغسطس نفسه يقرض الشعر ، ويضع المسرحيات التمثيلية ، ويكتب مفكراته ، ويتعمد بالتهذيب والتشطيب مذكراته : « امور الحكم » ، احتذاءً منه بقيصر الذين كتب هو الآخر ، مذكراته التاريخية *Capitulaire* ، وألف ما ألف بما عرف عنه من مقدرة . وعندما زين روما وحلاها ، وعندما أنشأ فيها مكتبتين عامتين ، وعرض على هوراتيوس وظيفة كاتب سره ، وعندما يأخذ ببساطة ومفاكة المؤرخ تيت - ليف الذي رأى النور في مدينة بومبيي ويتعهد اليه بشرف تهذيب حفيده كلوديوس الذي اصبح فيما بعد ، امبراطوراً ، وتوجيهه وجهة علم التاريخ ، وعندما يأمر باتخاذ جميع الوسائل لتأمين نشر الانياذه *Enéide* لفرجيل بعد ان أوصى هذا عند موته ، باتلافها ، راح يحقق ، على مثل هذا النحو من الشمول والرحب الذي تتسع له نظرة الامبراطور الواسعة ، والمقدرة التي اشتهرت عنه ، وبوسائل أوسع وأشمل بكثير مما تم منها لمعاصريه ، هذا المثال الذي تبرز صورته الحققة والمثلى في خلفاء هوميروس وطفاة بلاد اليونان القديمة . وهذه الصورة التي نرسم هنا قسماتها الكبرى ، تفاعل على تركيزها وتحييزها نوازع ودوافع عدة . من المحال ان ننكر مثلاً ، رغبته في التلهي والتفريغ عن مهام الحكم ، والرغبة في استثارة إعجاب الناس والفوز منهم بالثناء العاطر والأماديح المستملحة ، والميل الشديد لاكتساب المجد والعظمة والفخار يخلد ذكرها الدهر . والى هذا ، ارادة صادقة في ان يبرز للناس رجلاً مثالياً لا يُقصر أطماعه على تأمين نجاح زمني . والى جانب هذا كله - كما يشهد بهذه العظمة النخبة الرومانية التي يكفها شرفاً ان تكون تسامت في تقديرها للرجل الى مثل هذا الحد - الارادة الصادقة في ان يطلع على الناس برجل نموذجي المثال لا يُقصر طموحه على نجاح زمني زائل .

كل هذه النظريات وما تثيره من ملاحظات ، لأعجز من ان تستنفذ مدلول كلمة « عصر » . ولكي تستحق حقبة من الدهر ان توصف بمثل هذا الوصف ، يجب ان تشهد ازدهاراً عجبياً من الروائع الفكرية والادبية والفنية ، ومثل هذه الأجيال من العظماء والمشاهير في كل علم وفن ، وتجلياً منقطع النظير من النوابع والمباقرة لم يسبق لروما ، في تاريخها المديد ان رفلت بمثلهم . كذلك من الواجب ، ان تعبر هذه الآثار الادبية والفكرية ، ربما بنسبة اكبر ، وعلى قدر اوفى ، عن نزعة نفسية ليست عادية فحسب ، بل ايضاً وبالاكثر ، كلاسيكية ، إتباعية ، أي تصلح مثلاً ، في خطوطها الكبرى ، لأجيال اخرى وعصور اخرى . فجاء ازدهار الآداب والفنون ، في عصر أوغسطس يحقق ، الى حد بعيد ، هذا المطلب المروم . فاني أجدنا النظر ، طالعنا ،

هنا وهناك ، توق عارم : للنظام والانضباط ، والاتزان والوضوح ، وكلها مطالب عقلية او بالاحرى عقلانية ، تهيم على الشاعر وتضبط انطلاقها والتعبير عنها ، وتحصنها وتنقيها مما يشتم منه العنف او العرض ، فتترك فيها بعد دويماً بعيداً ، خالداً ، يتردد صدها على مر الزمن . فوضع هذه الروائع جنباً الى جنب مع روائع الادب الكلاسيكي الاغريقي ، واتخاذها غذاءً روحياً لنفوس الاجيال الطالعة ولاذواقها ، منذ عهد النهضة والانبعث الى يومنا هذا ، في كل المدنيات التي توالى على مسرح التاريخ ، ليس فيه ما يدعو للدهش او للعجب . ففي ذلك شهادة حق ، تنطق عالياً بما فيه من جهد كريم حاولنا معه تجاوز نطاق الهواية ، وايمان رشيد قويم بصحة ما يقول ويعمل للوصول الى طريقة صورية ميسرة لا تستحيل لعبة مع نبوغ عارض ، لتمكين العقل من مراقبة تصادم الاهواء والنزعات ، ولاخضاع الشعورية الفردية لمعايير العقل ولتسطاس مثالي من التناسق والانسجام المشرق .

وهناك ملاحظة اخرى تركّسي أيضاً، اذا كان ثمة حاجة بعد للتزكية، اطلاق اسم او غسطس على هذا العصر ، تقوم في هذا التوافق البين بين تفجر هذه النزعات الكلاسيكية وازدهار الآداب والفنون ، وبين السياسة العامة التي انتهجها الامبراطور . فعندما راح يعيد تشكيل الدولة والمجتمع الروماني ، بعد الفوضى التي رزحت فيها البلاد إثر الحرب الاهلية ، استوحى مبادئ النظام والاتزان التي هي قوام الادب الكلاسيكي بالذات . فالسلام الذي نشر لواءه على الامبراطورية ، في الداخل والخارج ، شاده سلاماً لا يقوم على الضغط والإكراه ، بل على العقل والاقتناع لدى من توخى تهذيبهم ، وحذر عليهم السير مع الفتنة ، وهو سلام يعكس تماماً روح الانضباط والنظام الذي طبع الروائع الادبية التي طلع بها ذلك العصر وميزها . وهذه الانضباطية التي حققها في المجالات السياسية والاجتماعية والعسكرية كان لا بد لها ، لكي تقوى وترسخ في النفوس ، من ان تقترب بانضباط الناس في اهوائهم ونزعاتهم وطبائعهم . فقد كان يشوقه ان يرى القلوب والأفكار تنتم بحو روحى ملؤه الدعة والطمانينة بحيث ترسخ وتتوطد الانجازات التي حققها للامبراطورية . فكما ان العنصر الديني لعب هو الآخر دوره البارز في هذا البناء ، وفي هذا البعث الروحي ، ترقب على الآداب والفنون التي يشدها الى الدين اكثر من رابطة وآصرة ان تلعب هي الاخرى ، دورها الفعال في هذا البنيان القومي .

فلا عجب بعد ، ان يستجيب أهل الأدب ورجال الفن لهذا المطلب ، وان يبادروا لتحقيق رغائب الامبراطور على النحو الذي خطط وصمم . فقد تأملوا كثيراً هم ايضاً ، روحياً ومادياً ، من هذه الأحداث الدائمة التي اصطلحت على البلاد وانزلت بها ما أنزلت من الإحن والحزن ، فزعزت روما وهزت منها الأركان ، وهددت حضارتها بالدمار والزوال . وقد راحوا في زكائهم يستجيبون لهذه الرغائب ويحققون هذا الانسجام المرتجى بين نزعاتهم الشخصية وبين مقتضيات السياسة الرشيدة التي انتهجها الامبراطور . فتجاوبت مشاعرهم عميقاً لما تبينوا الأسس التي ستقوم عليها عظمة روما ، والرسالة التمدينية التي تضطلع بها لرؤية لواء السلام يرفرف خفاقاً فوق الجميع .

فقد أتاح لهم حاضرم المائل ان يدركوا جيداً ماضيهم المجيد ، وألا يقبعوا متغنين بالاعجاد مجترين ذكريات الماضي البعيد . ولذا راحوا ، طوعاً واختياراً ، يتبينون بعفوية ظاهرة ، المطالب القومية الكبرى ومستلزماتها الركينة : حب الوطن ، والتمسك بالتقاليد والاعراف الوطنية التي هذبها وصقلتها النظريات الفكرية المقتبسة من الخارج ، ولم تعتم ان انصهرت بها وتمازجت معها ، والتحدث بفضائل السلف الكريم بعد ان تعرّت من شوائبها الخسنة ، والاعتداد بهذه الاعباد الحربية التي حققها خير المغلوبين على امرهم . من هنا ايضاً هذه الأماديح والتعاريظ العطرة التي ضفّرها القوم للتليك المنتقد ، المخلص ، حبيب الآلهة ، الذي أعاد الى الامبراطورية : هذا الأمن وهذا الانسجام وهذا التناغم الذي كادت تفقده الى الأبد . وروح هذه الكلاسيكية نفسها ، كانت تأبى ان تنطلق عاطفة الامتنان المتأججة في صدور القوم ، بعبارات نابية تشدّ عن الصدود لتتنزل الى الزلفى المخزية . وهذا الأمر النهائي ، المطلق ، الذي كانه اوغسطس ، لم يأت آيةً أفضل على ما تم له من مهابة ووقار ، وعلى ما كنّه من احترام عميق لهذه المثل التي عمِل بها وعلم ، لو لم يكن على جانب عظيم من المقدرة الفائقة ، بعد ان استعصى على الناس النفاذ الى أغوار نفسه وقلبه ، اذ لم يرض قط ان يوعز ، ولو من طرف خفي ، أو ان يُلصع ولو من بعيد ، الى خاصته ، وصحبه المقربين من رجال بطاقته ، وهم بشر كغيرهم من الناس ، وله في أعناقهم ما له من أياذ بيض وغرّ الفعائل ، ودانوا له بكل ما لديهم من نعمة ورخاء ، وجاء ونفوذ ، بشيء من هذا الشناء أو من هذا التدليس ، يحسنه أهل البطانة . فكلما الجانبين عرف أن يتفادى مثل هذا الإفراط ومثل هذا الانزلاق الذي كان من مميزات البلاطات الهلينية . وبذلك صوّن لكرامة الرجل وعزته وإبائه .

ولكن هذا التوافق لم يعمّر طويلاً ، وقد تجلّى ذلك على أتمه ايضاً في الجيل الذي عايش لويس الرابع عشر وعرف بالتالي سيطرة غير سيطرته . ولد كل من فرجيل وهوراتيوس قبل اوغسطس بسبع سنوات الاول ، وبستين ، الثاني ، وماتا قبله بـ ٣٢ سنة و ٢١ سنة . وبين كبار رجال الادب في هذا العصر ، كان المؤرخ تيت - ليف وحده أصغر من اوغسطس بأربع سنوات ، كما عاش بعده ثلاث سنوات . فقد عمّر اوغسطس طويلاً ، وعاش في مجتمع اعتنق كبار مفكره فكرة الملكية وتبنوها بعد ان نسوا او تناسوا الاضطرابات العنيفة التي هيأت لها اسباب الطلوع ، كما تناسوا ، على ما يبدو ، مدى المشاغل التي جاشت في صدور اسلافهم .

وهذا السكّف اهتم كثيراً لهذا الوضع الذي نجم عن إنشاء النظام الملكي . التاريخ : تيت - ليف ولكي نقف عند أبسط هذه النتائج ، لننظر ملياً الى فن واحد من هذه الفنون الادبية الذي راج من قبل أيّها رواج في روما ، هو الخطابة فنهم كيف به ينحط ويهبط بعد ان انقطعت مناقشات الهيئات والمنظمات السياسية والجدل الذي كانت تثيره ، اذ لم يعد مجال لهذا الفن يتغذّى منه . فالتاريخ والشعر استأثرا وحدهما باهتمام الجميع ، وهو اهتمام له ما يبرره اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الصفات التي تحلّت بها المؤلفات التي وصلت الينا من هذا العهد .

هنالك بالطبع ، مؤلفات ماتت وضاعت وعفا أثرها ، بعد ان لاحقها النظام القائم وجدّ في اثرها لتجاوز أصحاب القنود والحدود التي فرضتها السلطة على حرية المؤرخ . فقد أمر مجلس الشيوخ مثلاً ، بحرق آثار كاتب من المتحمسين للعهد الجمهوري ، لما تبين فيها من نقد جازح للعهد الجديد .

فالتاريخ يتمثل هنا على أحسنه بالمؤرخ تيت ليف ، كما تبدّى في نظر معاصريه وكما نراه نحن في يومنا هذا ، تشيل كفته عالياً اذا ما قارناه بمؤرخي العصر من اليونان امثال ديودوروس الصقلي وديسيوس الهالكارناس ، كما ان المؤرخ العالي ترؤغ بيبوس الذي لا نعرف من آثاره التاريخية سوى مقتطفات ذكرها يوستينس ، ليس بشيء يذكر تجاهه . صحيح انه لم يصلنا تاريخه الضخم الذي أرّخ فيه لروما منذ تأسيسها الى منتصف عهد أوغسطس ، وهذا التاريخ الذي جاء في ١٤٠ جزءاً ، لم يصلنا منه سوى ٣٥ جزءاً لا غير ، تقسم الى قسمين متميزين . يتألف الاول من ١٠ اجزاء ، بينما يضم الثاني ٢٥ جزءاً ، يقص علينا حوادث الحقبة الممتدة من سنة ٢١٨ الى ١٦٨ ق . م . وفي هذا العمري ما يكفي لتتعرّف الى هذا الكاتب ، وتبين مناهجه وأسلوبه والطرق التي اتبعها في وضع هذا التاريخ الضخم ، وميوله الفكرية ، ونزعاته الشخصية ، ومقدرته الفنية وغير ذلك من العوامل التي تقوم عليها كتابة التاريخ .

علينا ألا نتوقع منه أي جهد كبير يبذله في البحث الشخصي وفي التحري عن الحقائق ، او أي نقد متدبر للمصادر التاريخية التي عوّل عليها واستقى منها ، ولا أي تحليل لأغوار النفس البشرية عندما تعرض للحديث عن الاشخاص والجماعات التي يحدّثنا عنها ، ولا الاطلاع الكافي ، لا نظرياً ولا عملياً ، على عوامل التاريخ والمبادئ التي يخضع لها تطور المجتمعات البشرية . فينبه وبين ثوقيديدس اليوناني ، وبوليب الروماني ، بون شاسع من هذه الناحية ، فهو يفتقر اصلاً الى تربية الرجل السياسي وحنكة القائد العسكري المحرّب ، كما ينقصه ما قد يكون فيه بديلاً عنها : النظرة السديدة المحللة في آثار السلف ، والتفهم العميق للصفات التي تحلّوا بها . فهو يرغب ، تشبهاً بمن سبقه من بعض المؤرخين ، ان يقدم خدمة نصوحة للقارئ من باب تزويده بأخلاقية صحيحة دون ان يهيئه للعمل ويسلمه له . « فالمفيد في علم التاريخ والمثمر معاً هو ان يرى المرء وكأنه على قمة بناء شامخ ، كل الامثال الصالحة التي يجب عليه الاقتداء بها لحيره وخير وطنه ، كما عليه ان يتجنب كل ما من شأنه ان يجرّ الحزبي والعار ، في هذه الامثلة ، من مفاتيحها الى مغالقها » . فبين المؤرخين الذين سبقوه في هذا الفن يطالعنا بالطبع بوليب الذي أرّخ لفتوح الرومان في الاقطار الواقعة حول حوض البحر المتوسط . ويشقّ علينا كما يؤدّينا في الآن ذاته ، ان يستعمله ، في الحين الذي عثر عليه ، على نسبة واحدة ، مع بعض الرواة الرومان ، دون ان يتبين ما تفوق به بوليب : من جمع مصادره والاستيثاق بها ، والمقدرة الفكرية التي عالج بها الاصول التي عوّل عليها ، كما ان تيت ليف لم يأبه بشيء الى ما تحلّى به تاريخ بوليب من تناسب في معطياته ، وما فيه من دقة ملاحظة وتدبر ، حتى انه يبدو عليه وكأنه لا يهتم كثيراً بفهم النص الذي بين يديه .

فهو ، اذا ما اُشتطَ "وغلط ، فليس عن سوء قصد او نية ، اذ ان اتساع المهمة التي يضطلع بها ، وبرحابة المدى التاريخي الذي وضعه نصب عينيه ، كل ذلك يرغمه على العمل بسرعة . فالاغلاط التي تنزى بها شق قلبه لا توهم بشيء نزاهته ، هذه النزاهة التي هي في الصميم من هذه الفضائل السامية التي تشكل ، في نظره هذا التراث القومي المجيد . فهذا المواطن البدواني الاصل ، والغالي المحتد ، الذي رأى النور في منطقة قاومت الفتح الروماني وحاولت صدّه ، بلغ منه التمسك برومانيته والشدة عليها بنواجذه بحيث راح يقول : « فإما انّ حيي للمهمة التي ندبت لها نفسي يعميني ، واما ما من دولة فاقت روما : عظمة ونقاءً وغنىً بهذه العظمت البليغة الحيرة التي يحيش بها تاريخها المديد » . ولكنه يتحرّز من الوقوف موقف المبرّر دوماً لروما ، ويتألك عن حل الحقد والبغضاء ضد خصومها الألداء او الأكثر خطراً عليها . كذلك ، كتاباته عن القلاقل والاضطرابات الشعبية التي وضعها ، لا تنزى بأي حقد او ضغن . فهو يقف منها موقف اللائم ، الشاجب ، انسياقاً منه مع الولاء الذي يحمله لروما . قد هتز لأمر ما وتتحرك نفسه بعاطفة الاعجاب نحوه . إلا انه يتورع عن البغض والكراهة ، ليس رغبة منه بفهم الأمور ، بل انسياقاً لما عرف به من اعتدال ومن نصفة .

وكانت وطنيته خير 'مُسْعَف' له ، وهي وطنية قوامها الانعطاف النابض والاستلطاف الذي يحمله على تقدير الحُقب التاريخية الحاسمة ، وتقدير رجالات روما الذين نهضوا بالأمر فيها . واشد ما تجيش هذه المواطف في صدره عندما يروح يقص علينا حروب هانيبيل الذي يجعل منها ملحمة وطنية تتعاقب فيها الولايات والامجاد ، الى ان أقبل اخيراً النصر المظفر ، مكافأة لهذه الروح الوطنية التي تجلت على أمتها في هذه الحقبة التي جثمت على صدرها ، وهذه التضحية والبذل السخي الكريم تجود بها الدولة دونما حساب ، وهذا الابهاء في النفس والعزة والكبر ، ومكارم الاخلاق يتحلّى بها الشعب وافراد الرومان على السواء ، واحترام الآلهة الذي ، استبد بالنفوس . فبدلاً من ان ينطلق في عظات مملّة مُنْفَرَة ، نراه يعرب عن اسفه الشديد لفقدان هذه الفضائل التي 'عرف بها السلف الكريم' ، وراح يكشف عن جذورها الاصيلية بهذه الامثلة التي يضر بها لنا وبهذه المواطف التي يسترسل فيها . وهكذا ، بفضل هؤلاء الرومان الذين يجلو لنا تاريخهم ، والذين قال فيهم لايروبير انهم « أشد رومانية » مما يمكن ان يكونه بالفعل اي إنسان ، يضع امامنا تاريخاً لروما ملؤه الجلال والعظمة . فليس من غريب قط ، انه بالرغم من تعلقه الموصول ، بالنظام الجمهوري - أقله في المرحلة الاولى منه ، طالما انه يسلم بانحلال الاخلاق فيه في المرحلة الاخيرة - يرى فيه اوغسطس عاملاً من العوامل التي يمكن الاعتماد عليها في عملية الاصلاح العام الذي نهض له . كذلك ليس بمستغرب قط ان يعتمد عليه كورنايل ايضاً كما اعتمد على كثيرين غيره من مؤرخي الرومان ، لجلو هذه الصورة البديعة التي رسمها عن روما والرومانيين .

وبالفعل فقد استطاع المؤلف ان يحافظ ، بعد سقوط روما القديمة على ما في فنه من قوة

الاغراء والتشويق ، وإلا لما تمكن ان يزوي لنا قصصه بشكل جمع فيه بين الحساسية المرفهة ودقة الوصف مع المحافظة على ما فيها من حيوية وجاذبية ، متنكباً في الوقت نفسه ، عن التصنع والتكلف . قلما نراه يرسم لنا شخصيات كاملة ، ومع ذلك فشخصه متنوعة ، لكل منها فروقها المميزة ، تتحرك على أقدار وتساهم في الاحداث التي يعرضها ، فتمر امامنا سراعاً دون أن نشعر بها أو ان نتبين حركتها ، ومع ذلك فهي تلفت اليها النظر . وهذه الشخصيات تعرف بنفسها في هذه الخطب والاحاديث التي يضعها على ألسنتهم ، وهي من الكثرة والوفرة بحيث تصدم ذوق أهل هذا العصر ، ولذا رأت برامج التربية الحديثة ان تخفف من المناهج التعليمية بالغاء تمارين الخطابة في منهاج اللغة اللاتينية التي نرى طائفة طيبة منها في المجموعة المعنونة *Contiones* ، والتي منها استمد واضعو المناهج المحفوظات النموذجية . وهذه الخطب تخلو مع ذلك ، من كل قيمة تاريخية ، اذ أنها من نسج خيال تيت ليف ، كتبها هو بنفسه أو أعاد كتابتها ، وقد سار فيها ، ولو من بعيد ، على نهج شيشرون ونسج على منواله ، وان كان دون شيشرون بكثير ، جزالة ونصاعة مهما أكثر من استعمال المحسنات اللفظية . وقد استطاع هذا المؤرخ المتخمس كثيراً لتاريخ روما القديم ان ينوع فنه بحيث يضيف على عبارته قوة تعبيرية اكبر ، لها من قوة الإيجاء والابانة ما مكن من إلهاب خيال العديد من الأجيال التي جاءت بعده .

ويزة قوة في شدة تأثيره وبلاغته الآسرة ، شاعر العصر الاكبر : فرجيل الذي الشعر : فرجيل اطلق الشعر من عقاله وألهب بحماسة أخيلة الشعراء . فهو ايضاً من مواليد مقاطعة غاليا ما قبل الألب ، وأخذ على غرار تيت ليف ، بعظمة روما وسمو فضائلها . نزع نفسه دوماً للعيش في الريف والابتعاد عن محيط المدينة ما امكن ، فبقي ريفياً في قراره نفسه . ولم يقل حبه لايطاليا ، هذه الأرض الثرية ، منبت عظام الرجال والابطال ، عن حبه لروما ، فسكب نفسه الشاعرة على سبجيتها في ذوب كلي مع هذا النشيد الكوني ، الشجي ، الخفي ، يطلع علينا من اغوار نفسه .

وقد تم لهذا القروي من ضاحية مدينة مانتو ثقافة أدبية وفلسفية 'معرفة' يونانية ولاتينية ، على السواء . ولا تخاله يغلو عندما يروح فيؤكد لنا انه استمر يشهد هذه الثقافة بالنماء والفساء الموصول . وهذا الشاعر الفنان ، المقتن ، اللبق والظريف ، النحيل البنية والقوام الذي تأثر الى حد بعيد ، بشوكريتيس ، كما يبدو من قراءة قصائده الرعائية *Bucoliques* ، عمل دوماً على صقل قريحته وشحذها . فقد تعهد عشر سنوات متواصلة ملجمته الخالدة الإنيادية ، ومع ذلك تبدت له ، وهو يحتضر ، انها غير خليقة بالحياة ، فأمر بإحراقها وإتلافها . خضعت فلسفته هو الآخر للتطور . وهذا الفيلسوف البيقوري الذي نستشف قسامته من شعره الرعائي ، نراه في «قصائده الزراعية» *Poésies géorgiques* 'يطوّب' سعيداً محظوظاً من استطاع التغا الى اسرار الطبيعة ، ووطئ تحت قدميه الخوف من القدر الذي لا يرحم . نراه يأخذ ، في ملحمة الخالدة ، بقدرة وفن عظيمين ، وعلى نسبة متساوية ، بين الفيثاغورية وبين الرواقية . فكل أثر من آثاره

الفكرية يكشف لنا عن نوع المطالعات والقراءات التي أقبل عليها بتدبر ، يتمثلها ويستمرؤها . فقد استلهم الفكرة الاولى لقصائده الزراعية من ملازمته قراءة هزودوس ومنظوماته في علم الفلك ، ولم تتبلور في وضعها الاخير الا بعد ان قرأ ما كتبه فارون . عن الزراعة . من ينعم النظر ملياً في الإنياذة ، ير ان الشاعر اتخذ له يدأ من كل ما اتصل به او بلغه خبره ، من آثار التاريخ القديم الفكرية ، منذ هوميروس الى معاصريه من علماء الآثار الرومانية . وهذا الطابع الموسوعي الذي يبرز في الانياذة ليس سوى إلفة متناغية من آداب اليونان والرومان وكان له فضل كبير في النجاح الذي اصابته هذه الملحمة الخالدة خلود الدهر ، اذ كانت تعبيراً بليغاً ، ولقاء جيلاً لهذه الروائع الفكرية التي تنائر نضيد درهما على لججائن التاريخ القديم .

غير ان فرجيل لم تُرضه هذه الثقافة الكتابية التي تمت له من عشرة موصولة للكتاب . فبالرغم مما عرف عنه من « دماثة » ولين الجانب ، فقد عرف ان يتحامى عن شقشة هذه المجادلات التي ارتقع عجيجها في عصره . ومع ذلك ، فلم يحل ما عرف عنه من استسلام للأحلام الممسولة ، دون الاهتمام بما يجري حوله من شؤون السياسة وتصرفات رجال عصره ، حتى ولو شاء ان يتجاهلها بالكلية لما استطاع الى ذلك سبيلاً ، بعد ان أقلقته ومته كثيراً ، أمر مصادرة أملاكه في الوقت الذي كان فيه منقطعاً لنظم قصائده الزراعية . ومعظم قصائده هي رجع صدى احداث زمانه ، وصدى الاحداث البارزة التي ماج بها تاريخ روما . فها هو في احدى قصائده الرعائية يغني السلام الذي أمكن تحقيقه ، ولو الى حين ، في مدينة برنديس ، بين انطونيوس واوكتافيان ، كما غنى في احدى قصائده الزراعية الجهد المبرور الذي بذله اوكتافيان لتركيز مكانة ايطاليا الزراعية والأدبية ، على أسس ركنية قوامها حياة الريف . وفي الإنياذة ، نراه يربط اوغسطس عن طريق أسلافه الذين غبروا ، وعن طريق المآتي الغر التي حققها ، بتاريخ روما ، هذا التاريخ الذي ملك عليه جماع عقله ولبه ، فراح يكتشف لأينه *Énée* أسرارها المكنونة بأسلوب ساحر ، خلاب ، كما راح يعظم هذا التاريخ ويمجده ويرسم لنا التطور العظيم الذي أخذت روما ، منذ البدء ، بأسبابه ، وفقاً لما قدرته لها ، إرادة جاحدة لا تُردّ . وهكذا نراه يتحزب لأوغسطس باكراً ، وفقاً للخطة الموضوعية التي دغدغت امانى اوغسطس العذاب . واذا ما راح ينافع عن رسالته بمثل هذا التسامي ، فقد عرف مع ذلك ، ان يتنكب عن كل خسة او دناءة ، او يميل مع الغرض او الهوى . كل ذلك بدافع من نفسه دون أي وازع من اوغسطس ، مدفوعاً بعامل الشكر والمينة لإعادة أملاكه المصادرة اليه ، ولا سيما بهذه العظمة التي تتجلى بهذا السلام وهذا النظام الذي عرف ان يؤمنها للامبراطورية . وهب ان فرجيل كان مدفوعاً ، فقد عرف كيف يتعالى كثيراً بما أوتي من نبل الأحاسيس والمشاعر السامية .

هذه الميزة طبعت شعره وأضفت عليه ما فيه من السحر الحلال والروعة المثيرة . فاذا ما وقفنا عند المعنى الاشتقاقي لكلمة « مبدع » ، نرى ان فرجيل لم يكن قط شاعراً مبدعاً ، اذ كانت تنقصه الشاعرية الخلاقة . فقد ألبس «إينه» شخصية معقدة تثير البسمة على الشفاه ، وعلى

هذا ، برزت أيضاً من شق قلبه ، شخصية جوبتير المهيّب . وبالرغم مما تم له من حدة الذكاء ، فهو أعجز من أن يحرك العواطف في النفوس ما لم تحوّل عاطفته قراءاته ومشاهداته إلى أحاسيس حية نابضة . وقد منعه طبعه الحيّي عن إظهار خوالج نفسه بصورة بارزة إلا ما ندر ، وهي خوالج من الدعة والحنان تشوبها سحابة من الحزن أكثر منها عاطفة مشبوبة . فإذا ما عرف أن يسمو بعواطفه إلى الأوج ، فأمام رهبة الموت وإمام البؤس البشري والواصاب التي تترصد للإنسان . وبهذا يُدوّنّ الصدى الذي أحدثه اثره الأدبي العظيم ولا سيما ملحمة الخالدة الإنيادة . فكل شيء روماني فيها ، يبدو ، في ظلال هذه الملحمة ، مع الدهر وكرّ السنين ، موعظة بليغة في الوطنية وحُب الوطن .

فالإنياذة واللياذة فرسا رهان ، لا بل صنوان في عملية صقل العقول وتهذيب الأرواح . فليس من عجب أن تنتقل إلى اليونانية ، وفي هذا النقل الباكر شهادة حق على قيمتها الكبرى ومنزلتها السامية . فحاول الشعراء القدماء أن ينهجوا دوماً على منوالها ، وأن يتسموا ما فيها من أصالة في الشعر وعفوية . فها هم المسيحيون أنفسهم يقفون حيالها وقفة الخاشع أمام الخشوع والتقوى التي شغّت من أغوار النفس عند هذا الشاعر الوثني ، وما تحلّ به من وقار ديني يبعث النفس على التأمل . ولا يزال يزداد كل يوم عدد المعجبين بهذا الشاعر الملهم لما يأنسون فيه من خصوصية العاطفة ، ومن انعطاف انساني وترصن ظاهري ، وحذب شغوف على كل ما ينبض بالحياة في الطبيعة ، وبهذه الأبيات الشعرية العامرة التي تبعث الكبر في النفس والاعتزاز بالقيم الانسانية .

وهوراتيوس نفسه يبدو دونة منزلةً شعرية ، إلا أنه في نظمه املك
 هوراتيوس
 والشعراء الوجدانيون
 للصناعة الشعرية من فرجيل . فلا عجب ، والحالة هذه ، أن تبرز للأنظار قدرته الواعية على قرض الشعر . فهو مشبوب العاطفة ، فياض الشعور ، صادق في تعبيره ، متحمس للتغني بأعجاد أوغسطس العسكرية ، ملتهب الخيال لا سيما في القصيدة التي نظمها بمناسبة الاحتفالات بالسنة القرنية تعبيراً عن بهجة الجميع للإصلاح الديني والأخلاقي الذي جنّد له أوغسطس ملكه العريض وعمره المديد . هو ابن رقيق أعيدت إليه حرته السليب ، ودخل الجيش ورقي صدقة ، وهو يخدم في اليونان ، إلى رتبة عالية في جيش قتلّة قيصر ، ثم طارت شهرته بعد أن عانى ما عانى من مشقات وآلام ، وقد عرف كيف يصون نفسه من العاطفة التي استسلم لها صديقه فرجيل . وقد نحت لنفسه نوعاً من الأبيقورية جاءت على هواه : مزيجاً من هذه الحساسية الناعمة ، واللذة المترفة الرقيقة على شيء من نفاذ البصيرة والتهمك الساخر حتى من نفسه ، واللباقة التي عرف معها أن يحافظ على فرديته في تشابك هذه التيارات التي أخذت بتلاييب حياة العصر ، إذ عرف أن يقف موقفاً وسطاً بين إرضاء مسراته والابتعاد عن سحر المدينة ومفان العيش فيها ، يفرغ أيامه في دارقه ، المدين بها لكرم نصيره مكيني وأريحته . فلم ينته به تجرده إلى المذهب التشكيكي وصانه من الاستملاء والكبر . وكان يصدر في سلوكه عن حكمة واعية ، وهي حكمة تجردت من كل عاطفة وحرارة بحيث أدت به

الى الاثرة وحب الذات. فلا عجب أن تلقى عقلية من هذا النوع الكثيرين من المريدين والمعجبين حتى بين مجتمعاتنا العصرية. الا انه يبدو اليوم بارداً بعض الشيء. فالأهمية التي يتمتع بها جاءته من الدور الذي لعبه في تطوير مدينة روما من الوجهة الجمالية. فقد أغنى الآداب اللاتينية بأهاليه Satires وبأغانيه وأناشيده وبرسائله الشعرية، وكلها روائع اتصفت بالاتزان بين قريحته الفياضة وبيانه المقتضب، ناهياً في ذلك منحى الممثل اليونانية والروائع الكلاسيكية التي صدر عنها، دون العَبِّ كثيراً من شعراء اللاتين القدامى أو من الشعراء الاسكندرانيين المتحذلقين.

وقد تأثر به كثيراً، أكثر الشعراء المعاصرين لأوغسطس، ممن وصلتنا آثارهم الفكرية، أمثال: تيبول، وبروبيرس، وأوفيد. ولا شك في أننا نعلمهم كثيراً وننزل بهم حيفاً كبيراً اذا لم نصفهم بأكثر من مقلدين ماهرين لهوراتيوس، نهجوا نهجه وساروا على منواله. فقد امتاز شعرهم بالركة والجزالة كما امتاز بالعاطفة المشبوبة وبهذه الحساسية المرفهة والخيال المجنح، والنكتة المستملحة، وبمقدرتهم الفنية في التعبير عن خوالج النفس الدفينة التي يعملوها تارة الفرح، وطوراً مسحة من الألم الشاكي الباكى. فقد عاجلوا، باستثناء تيبول بينهم، الموضوعات العزيزة على قلب أوغسطس، وطنية كانت أم دينية. ومن مطالعة شعرهم يبرز أمامنا مجتمع دنيوي، زاه، ثقيف رقيق بلغ في تألقه حدود الحقة، وفي أدبه الأناقة والهيام.

هذا هو المجتمع الذي خرج منه أوفيد بعد ان حز الحرمان شديداً في نفسه وهو في بلدة تومي (كونستنزا اليوم) الى الجنوب من مصب نهر الدانوب، حيث كان أوغسطس امر بنفيه وإبعاده بعد ان اشترك في مؤامرة دبرتها بطانة الامبراطور. وهكذا نرى ان الادب اللاتيني في روما الامبراطورية اخذ يتسم بطابع الصالونات الادبية.

كان على الفن ان يلعب هو الآخر، اسوة بالادب، دوره البارز في الخطة التي وضعها الفن الرسمي أوغسطس للنهوض بالامبراطورية، وحرص على الافادة منه الى ابعد حد. فهو يتبجح بأنه قسّم مدينة من اليبين وسلم مدينة من المرمر. في الامكان الاعتماد على كتابه: «امور الحكم» لتنظم قائمة طويلة من المباني والصروح الضخمة التي شيدها، او ربما، والمبالغ التي تبرع بها افراد اسرته او بعض اصدقائه الخالص لترميم او إنشاء عدد آخر من هذه المباني. ان رفيقه الاول في الجهاد، أغريبّا الذي اصبحت فيما بعد صهره، كان عنده بمنزلة وزير الاشغال العامة او التعمير. فالانشاءات العديدة التي شيدها في روما كانت غاية في الاهمية، فجملت من هذه المدينة عاصمة تليق بعظمة العهد الجديد، ثم راح كل الاباطرة الذين تعاقبوا على الحكم من بعده، يتناقسون في تجميلها وتزيينها واستبدال الكثير من معالمها الاولى. ففي هذا الجهود العمراني الموصول الذي كان يوليوس قيصر نفسه اول من أخذ به، والذي استمر العمل به طويلاً، كان ملك أوغسطس حلقة طويلة في سلسلة الحلقات التي استمر الاخذ بها قروناً، بحيث لا يجوز التغاضي عن التنويه هنا بهذا الفضل ونحن في معرض الحديث عن عصر أوغسطس.

اما في النحت والنقش ، فكان الامر بعكس ذلك ، اذ ان بعض آثار هذه الفترة ، ولا سيما تلك النقوش التي تزين « هيكل السلام » او تلك التي ازدانت بها تماثيل اوغسطس وعلى الاخص تلك التي قامت منها في قصر زوجته ليفيا في بريما پورتا ، على مقربة من مدينة روما ، فقد جاءت كلها منسجمة تماماً مع السياسة الثقافية والحضارية التي انتهجها الامبراطور ، كما جاءت متفتحة تماماً مع روح ادب العصر . الا ان هذه النقائش لا تتم بعد عن بلوغ روما ، في هذا المجال درجة من الاستقلال تستطيع معها البروز والاكتفاء الذاتي . وهذه الآثار هي إغريقية في معالمها الفنية كما هي اغريقية في طريقة صنعها وانجازها ، لسبب وحيد بسيط جداً هو وجود الفنانين الاغريق بكثرة في روما اذ ذاك ، ولهم فيها القُدح المعلن من هذا القبيل ، اذ ان بقاء هذه الآثار غفلاً من اسماء الفنانين الذين تولوا صنعها ، انما يدل صراحة على وضعهم الاجتماعي المتواضع ، اذا ما قيسوا ، من هذه الناحية ، بالادباء الذين كانوا روح الندوات الادبية وراحا . فلم يكن من الصعب قط على اولياء الامر ، ان يوحوا لهؤلاء ، بما يرغبون فيه ، بعد ان يقيدوهم بالموضوع ، ويوجهوهم في انجازهم وتحيزه الوجهة التي يرغبون .

وتبدو على هذه الآثار الفنية نزعة ظاهرة نحو الواقعية ونحو الحقيقة المجردة ، كل ذلك بما ينسجم مع اصدق التقاليد الرومانية . كذلك يبدو عليها نزعة الى التجريد البطولي ، والى الرمزية الميثولوجية انسجاماً مع هذه التقاليد ايضاً . غير ان النزعتين الفنيتين هما في خدمة المشاعر الوطنية ، ملكية كانت ام دينية ، وتؤلان معاً ، وفقاً للروح المسيطرة على النظام الجديد بحيث تؤول الواحدة الى تقوية الاخرى ودعمها . فتمثال اوغسطس لا يصدم الحقيقة الا بعري الرجلين ، وهو آخر الآثار الباقية من العري الكامل الذي لازم ابطال اليونان ، بينا تفاصيل التوجة تظهر بوضوح كلي وتبدي الدقة الكلية التي لازمت صنعها . فهامة التمثال ، بالرغم مما يبدو عليها من المثالية المصطنعة ، استطاعت ان تحافظ ، مع ذلك ، على قسمة الشبه ، والتشدد في الحفاظ على المهابة والوقار يبرز واضحاً في النظرة التي تقيض بالوقار ، وبهذه المهابة الهادئة التي تستشف من الوقفة . فرسوم الدرع النافرة تبرز قسمة هذه الوقار هي الاخرى ، لانها تستحضر في الذهن حدثاً تاريخياً ، هو إعادة احد ملوك الفارثيين ، العلم الروماني بصورة سلمية بعد ان استولى عليه العدو اثر هزيمة نزلت بفرقة رومانية ، في اواخر العهد الجمهوري ، على الحدود الشرقية للامبراطورية . والرموز المجازية تطالعنا من كل مكان في هيكل السلام . فالاجزاء المتقطعة التي وصلت الينا من افرز هذا الهيكل ، تمثل هي ايضاً حادثاً تاريخياً آخر : موكب حاشد من جمهرة الشعب الروماني من شيوخ وحكام ، وموظفين وقضاة ، وعائلة اوغسطس يرافقون الامبراطور في مسيرة كبيرة لتقديم الشكر للالهة ، عند رجوعه مظفراً ، بعد غياب طويل عن روما . فالواقعية التي تشع من خلال الملابس والوجوه والمواقف لا تمس بشيء الفكرة الاساسية الا وهي التفاف المدينة باسمها حول الامبراطور ، اذ ان الحاضرة الاولى التي تنط الى ذهن المشاهد هي القيام بعمل ديني هو تقديم الشكر .

ويحسن بنا ان نقارن هذه النقوش الفخمة بهذه التحف الثمينة المثلة بنفس الحجارة الكريمة ،

كالهجر المعروف بـ : « حجر فيينا » الذي 'نقش' ، ولا شك ، في حياة اوغسطس ، بيد النحات الآسيوي الاصل ذيسقوريدس . والهجر الكريم الآخر المعروف بـ « حجر فرنسا » - وهو دون الاول منزلة ، من الوجهة الفنية - والذي اختلف المؤرخون حول تاريخ حفره ونقشه ، ليس ببعيد كثيراً عن موت اوغسطس . وهذه التحف الفنية ، هي بدون شك ، من وحي الفن الهليني وإلهامه المباشر ، لتأييده فكرة الوراثة السلالية ، اذ شدد الفنان فيها على بعث فكرة تأليه الامبراطور . وفي حجر باريس صورة امير مسجي على سريره .

اما النقوش التي تتجه من نظارة واسعة فيبدو عليها تحفظ كبير ، اذ هما الأكبر هو ان تبرز الجلال الامبراطوري منسجماً مع العظمة الرومانية ، وان توحى للرأي بأن كليهما من مشيئة الآلهة وصنمها ، ولذا توجب على البشر التقدم نحوها بالشكر . وهذه الموضوعات تتخلل بكثرة ، الادب والفن الرومانيين . فليس من المنتظر ان يسكب فيها لمحات غير رومانيين ، روح التقوى والخشوع التي سكبها فرجيل مثلاً ، في قصائده . ان تشبيه مقاطعة غاليا ما قبل الألب بروما هو شيء آخر يختلف عن الخضوع ، حتى ولو كان خلواً من كل فكرة 'مضرة' ، للشرق الهليني . فقد قام هؤلاء الفنانون بتنفيذ هذه الطلبات بشيء من المرونة والتفهم السيكولوجي الذي فيها دليل على ما أوتوا من مهارة فنية ، وعلى انهم الورثة الخلقون بهذه السلسلة الموصولة الحلقات من هؤلاء الفنانين الذين أنجبتهم الكلاسيكية اليونانية .

٢ - الظروف والامواضع العامة

فاذا كان العهد الامبراطوري استهل بمثل هذا الازدهار البديع للآداب ، فلا بد ان ينتهي عصر اوغسطس بمثل هذه الكلاسيكية الإتباعية التي عرفنا . فذروة المرتقى برهة وتنقضي . فالحياء لا تتسمر مكانها . فاذا كان من التقاليد المتوارثة التكلم عن رومانطيقية نيرون ، فلا حرج قط من التحدث ، والحالة هذه ، عن حركة انتكاس ورجعة الى الوراء في عهد هدرانوس . غير ان هذا النوع من التصنيف يصح تطبيقه ، على ما يبدو ، على روما بالذات ، وعلى هذه النزعات التي عملت الدولة على تشجيعها . فالنتائج المسجلة ليست في نتائجها على شكل تازمنا ، وفقاً للوضع القائم في عهد اوغسطس ، الاخذ بهذه النظرية الضيقة .

فالتيار الحضاري راح يتسع ويرحب جغرافياً واجتماعياً ، والمظاهر التي تلبسها لم تكن لتصدر عن رجل فرد او عن بطانته التي واجهت مشكلة سياسية ترتب عليها حلها على اساس ادبي وطيد .

هنالك بعد ، ولا شك ، نخبة تردفها بدم جديد ، وتغذيها الطبقات الثقافية والطبقات الاجتماعية العليا في المجتمع الروماني ، على نطاق أوسع من ذي قبل ، اذ تبقى ابوابها 'مشرعة' أمام فريق طيب مختار ، قائم في الولايات . والتربية التي تتلقاها هذه النخبة تصقل فيها الذوق الذي تحمله للآداب والفنون الرفيعة ، كما تذكي عاطفة جياشة

مستمدة من مبادئها ، وان لم يلزم النجاح والتوفيق نتائجها ، في كل ما يتصل بنتائج الفكر والفن . وهذه النخبة هي مناصرة للعلم ، مشجعة له ، تتعهد بحمائه ورجاله ، وتحنو عليهم وتغفرهم بوابل من سخي الوجود وكرم العطاء ، وقد وقفت من رجال الفكر موقفاً مشرباً بالعطف والرعاية دونها نظر الى فوارق الحسب والنسب ، والعرق والدين ، وان بدت الفنون نوعاً ما ، دونهم رعاية وعطفاً ، فأمنت لهم الشهرة الواسعة ، والصيت الحسن والحال الرضي .

فرتيال *Martial* يؤلف وحده استثناء للقاعدة ، اذ بقي ، طوال حياته ، في كرب وعسر ونصب ، أصاره الى بسط الكف والاستجداء ، بينما تنفتح أمام الكاتب ابواب الرزق الحلال ، فيعيش من شق قلعه ، فيدخل عدد كبير من الكتاب الادارة ، ويساعد نجاحهم الادبي على الارتقاء سريعاً في درجات السلم الاجتماعي ليلبلغ بعضهم مرتبة القنصلية . فقد لعب الفيلسوف سنيكا هنا دوراً سياسياً مرموقاً ، وتأسست عهد اليه بمنصب بروقنصل آسيا ، كما ان بلين الأصغر عين حاكماً لولاية بثنيا ، وثال فرونتون القنصلية مرتين .

ويهم الامبراطور كثيراً ، ألا ينأى أو يمزل نفسه عن هذه النخبة المثقفة . فأباطرة هذا العصر كلهم من كبار البناء ، وقليلون جداً بينهم من لا يتذوق الأدب أو لا يرعى لرجاله وحملته حرمة . فالامبراطور كلوديوس نفسه مؤرخ كبير ، فقيه باللغة وعلومها ، بينما أخوه جرمانيكوس قد شمل بعطفه صاحب القصائد الفلكية : الشاعر أراتوس ده سولس *Aratus de Soles* .

ونثرون نفسه ، ألم يكن ذواقاً ، موسيقياً ، مغنياً ، وشاعراً . والامبراطور فسبسيانوس الذي لم يسمع أحد نعمته بالكرم ، هو اول من عين نخصصات ومرتبات عالية ، بلغت أحياناً ١٠٠.٠٠٠ سسترس ، في السنة ، أي ما يوازي مبلغ ٢٥ ألف فرنك فرنسي من العملة عام ١٩١٤ ، تدفع من خزانة الدولة لأساتذة ، أحدهم استاذ الخطابة والبيان اللاتيني ، هو كوتيلياوس ، والآخر استاذ البيان اليوناني ، ودومتيانوس نفسه الذي طالما استهدف اللسنة حذاد فتهكت منه كل ستر مقطى ، أسس الى جانب المباريات الموسيقية ، مباريات لفن النثر باليونانية واللاتينية ، لم تلبث ان استبدلت بمباراة للشعر تقام على شرف جوبتير الكابيتولي ، كل اربع سنوات . والامبراطور هدريانوس الذي كان هو نفسه كاتباً جيداً ، عالماً ، فنانياً ، امتاز بثقافة عالية ، مكنته من معالجة موضوعات موسوعية ، بينما عُرف الامبراطور الفيلسوف مارك أوريل بنزغته الروحانية ، العميقة التي شرفت ليس الامبراطورية بحسب ، بل ايضاً البشرية جمعاء .

وفي مثل هذه الاوضاع والظروف المسعفة ظاهرياً ، والتي توفرت لروما ، راح مؤرخو الفلسفة والادب والفنون ، يتساءلون ، بحق ، ومنذ عهد بعيد ، عن الاسباب التي جعلت الحضارة الرومانية التي بلغت الأوج في السياسة والحرب لم تبلغ مثل هذا التسامي في المجالات الاخرى . فاذا كان العقل السليم يأبى الأخذ بهذه الأقاويل الفارغة ، وهذه الآراء السفسطائية التي اجأوا بها ، باسم العلم تعليلاً لهذا التقصير ، فلا بد من التسليم مع ذلك بأن هنالك سراً لا تزال لنجهله . فلا تفتش الروائع الفكرية او فشلها الذريع بمرتبط بسببية يمكن تحليلها على مثل هذا الشكل المبسّر .

النظام الاستبدادي كثيرون رأوا ، وما زالوا يرون ، على أنساب وأقدار متباينة ، ان النظام الاستبدادي الذي عميل به اذ ذاك ، هو المسؤول الاول عن هذا التنافر . فكل الذين حاولوا ولا يزالون يحاولون تحليل هذا الشذوذ ، يُقصرون تفكيرهم على الامبراطورية الرومانية وحدها . فاذا ما لاقت هذه الطريقة ارتياحاً كبيراً لدى احرار الفكر في منتصف القرن التاسع عشر ، فهي تبدو مبتسرة جداً في نظر احرار الفكر ، في منتصف القرن العشرين . لا مرأه بأن نظام الحكم في العهد الامبراطوري كان نظاماً مستبداً ، وكان من بعض نتائج ان يحول دون قيام أية معارضة صريحة ، حتى ولو اقتصرت على مجال الفكر . من الثابت كذلك ان هذا الضغط الفكري تلبّس ، في بعض الاحيان ، ولفترات طويلة ، ولعدة مرات ، في نظر كل من يقيم وزناً بعد ، لحرية الفكر ، مظاهر فظة ، وحشية ، حتى درجة التحقير . كذلك من الثابت اخيراً ، وليس آخراً ، ان علم التاريخ — هذا التاريخ الذي عُرف بأخذه بالوجوه والسير مع الهوى والغرض ، بما لا يتفق ومقتضيات العلم الحديث اليوم ، أثار هواجس السلطات العامة وشكوكها . فقد رأينا اوغسطس ، في اواخر ملكه ، يأمر بحرق كتاب في تاريخ الرومان وضعه مؤرخ عُرف بنزعته الموالية للعهد الجمهوري . وفعل الفعلة ذاتها الامبراطور طيباريوس مع مؤرخ آخر ، للسبب نفسه ، فأودى صاحبنا واضطر ان يلتحر متخلصاً بما استهدف له من أذى وضرر .

ومع ذلك ، فقد عرف العهد فترات خفت فيها الضغط الفكري ، ان لم يكن ارتفع . فالامبراطور فسبسيانوس يهزأ بالهازيين وتنكيت المنكئين . وكثيراً ما سلق النقاد بالسنة خداد ، تصرف وسلوك المتوفين من اباطرة هذا العهد . فسنيكا ، مذهب ابن الامبراطور كلوديوس بالتبني وخليفته على العرش (نيرون) ، تهكم بسخرية لاذعة على الامبراطور كلوديوس ، في قصة لا تعني كبير شيء ، وضعها عنه بعنوان *Apokolokyntosis* ، أي المستثنى من شراكة الآلهة ، اذ نرى الـ *Divus* الحديث العهد لا يستحيل يقطينة ، أطلق فيها القاص الفيلسوف العنان للسانه السليط وقذف الامبراطور الراحل بقواذع الكلم . وعندما تستلم اسرة ملكية زمام الحكم ، كالأسرة الانطونية ، مثلاً ، تسترسل في قذف سابقتها في الحكم بأبشع النعوت . فلم يقف الأمر عند حد الهجو ، كما فعل جوفنال ، بل راح المؤرخون امثال تاسيت وسويتون يكشفون ، بكل صراحة وحرية في التعبير ، مساوى القياصرة الراحلين ، وعوراتهم .

ولم تقف في استعراضنا هذا عند التاريخ وحده ؟ فأسوأ عهود الارهاب يفتح الباب على مصراعيه امام التامين والنفاثين ، فاذا ما جاوزوا من فنون الحسة والدناءة ما يجعل النفوس تتقزز لسماحها ، فلدى البعض من افانين البلاغة والبيان ما يؤهلهم للتنويه بالفضل في تاريخ الخطابة . فالقضية هي اوسع من هذا بكثير وارحب ، اذ انها تتعلق بجميع مظاهر النشاط الفكري والثقافي ، حيث يمكن لبعض القطاعات ، ولا سيما لقطاعي الفن والعلوم ، ان تنعم برعاية صاحب الامر دون ان تخشى شيئاً على نفسها من رعاية ضاغطة او خانقة ، ولا من نزواته المنتقمة . كان لا بد

من بوالو ليوجه ، الى شخص لويس الرابع عشر ، كلمة جاءت على لسان مرتيال بشأن نصراء العلم من شاكلة مكيني قالها لإيهاماً لسامعيه ، بأنه : « سهل على اوغسطس ان يخلق رجلاً على مثال فرجيل » ، فهو حكم تصدمه الحوادث ويكذبه الواقع . كذلك من الجرأة بمكان ان يذهب المرء الى عكس الآية ، مهما كشّ من كان على شاكلة شيشرون ، لدى التأكيد بأن باستطاعة اشخاص على مثال طيباريوس ونبيرون ان يحولا دون بروز او ظهور اشخاص من عيار فرجيل ومنع تجلّيتهم . فاذا ما حاول المرء اطلاق مثل هذا القول على الحفّارين او على علماء الفلك ، او على علماء التاريخ الطبيعي ، على نسبة ما كان يسمح العلم اذ ذاك بظهورهم ، فيكون مثله مثل من يتشبّث بالحال او يتعلق بجمال الهواء او بمخاط الشمس .

يعلل بعضهم هذا الوضع بنظرية أخرى ، لا حرج عليهم قط باعتبارها أكثر فأكثر ،
الشعبية شريطة أن تكون على جانب من الاقتناع او تعيد الفكرة الأساسية التي عالجها الكونت دو غوبينو *De Gobineau* في كتابه الموسوم : « بحث حول التفاوت القائم بين العرّوق البشرية » . وتشدد النظرية المشار إليها بنوع خاص ، على الشأن الخطير الذي لعبته الشعوبية في روما من جراء توافد سكان الولايات إليها ، من كل جنس ولون ، وما سببته هذه الظاهرة الاجتماعية من فقدان التوازن على الصعيد الإجتماعي في روما ، وما ألحقت بالوقار الروماني من انتقاص ، بعد أن كان هذا الوقار من السمات البارزة التي طبعت الحضارة الرومانية وفردتها . ان علم الأجناس ، شأنه شأن علم تاريخ الحضارات ، يشجب بشدة الرأي القائل بأن التهجين أو الخلاسية مدعاة للانحدار والهبوط ، يجمع بين الشوائب أكثر مما يوحد بين المناقب . ففي هذا الانبساط أو التوسع العرقي والخلقي الذي شهدته روما والذي انتقصوا كثيراً من قدره بعد ما ألصقوا به من ابشع النعوت وأحطها ، لم يكن كل شيء ، بالطبع ، عاطلاً أو سيئاً . فالهلينية حملت معها ثمرات جهادها وجهودها الطبية . وهذه الفلسفات والديانات التي حملتها معها ونقلتها بما انمازت به من طابع شرقي أجنبي ، على ما بينها من فروق أصيلة او عرضية ، مكتسبة او مستوردة ، أغنت ولا شك ، عقول القوم ، وأخصبت قرائحهم ، واطلقت مشاعرهم . وليس ما يدل قط على ان فلاسفة اللاتين ومفكرهم وكتابهم فسدت منهم حيالها النفوس والاذواق . وعلى عكس ذلك تماماً نرى ، بشيء من الغرابة ان ما من واحد منهم ، باستثناء « أبولي » لا غير ، تأثر بما انطوت عليه من جمال ، ولا حاول بأي حال من الاحوال ان يعبر عن الخشوع الذي بمثته في قلوب اتباعها . فالنفس نفسه ، باستثناء روما بالذات ، لم يجد فيها اي معين يساعده على التجديد والانبعاث .

اما الغرب ، فقد قدّم لروما ، عدداً من الكتاب وحلة الاقلام الذين بالرغم من انخادهم للغة اللاتينية ، ليعبروا عن آرائهم ومشاعرهم ، كتابة وتكلماً ، لم يتخلوا قط عن ميولهم الفردية الخاصة ونوازعهم النفسية ، مع العلم انه ليس من اللائق ولا من الجائز قط ان يبادر المرء للاستنتاج ، بصورة لا تخلو من الاساءة ، استمرار الخصائص الاقليمية فيهم وعافلتهم عليها .

هالامر لا يعتمدى نزعات فردية ، شخصية ، لا يصح تعميمها الا اذا افترضنا فيهم اعتباراً مهارة وقدرة خفي علينا خيطها الممدود . فقد كشف ، احد المعاصرين ، على ما قيل ، في لغة المؤرخ الروماني تيت - ليف ، تعابير ومصطلحات لغوية ، إقليمية او محلية اللهجة ، من العسير جداً على العلم اليوم ان يلحظها او ان يتبينها لما نحن عليه من جهل مطبق لهذه اللهجة البدوانية التي رضعها تيت - ليف في حديثه . ولم نرَ احداً قط يدّعي انه وجد في عبارة فرجيل او عبارة بلين الاصغر - مع العلم ان تاسيت تشده الى ايطاليا الشمالية وربما الى غاليا الجنوبية وشائج متينة - ما يدل او يشير لغويًا ، الى ارتباط هذين الكاتبين ، بمقاطعة غاليا قبل الألب . فلقد كان لروما من قوة التمثيل والامتصاص ما استطاعت معه القضاء على هذه الخصوصيات . فلماذا يريدونها ، اذاً ، ان تفشل هنا ، وفي هذا المجال بالذات ، برسالة مهمة قامت بها على الوجه الأمثل ، في جميع اطراف ايطاليا ؟

وقد راح بعضهم يتذرع بذراية اللسان التي 'عرفَ بها الخطباء اللاتين الذين انحدروا من مقاطعة غاليا . فقد عدت منهم روما ، اذ ذاك ، عدداً كبيراً اصابوا فيها شهرة واسعة . اما ان نرميهم بجاناً ، بثروة سطحية ، فافتراء رخيص لا يستند الى دليل ، ولا يمكن ان يستحقه ، لا «دوميتيوس أفير» الذي ينحدر اصله من مدينة نيم *Nimes* ، في فرنسا ، اذ تمت له في اواسط القرن الاول مكانة عالية في الخطابة عادت عليه بالصيت الحسن ، ولا الآخر يوليوس الافريقي الذي ينسب اصلاً الى مقاطعة سانتونج ، ولا هؤلاء الاساتذة الذين يصورهم لنا تاسيت في كتابه : « حديث عن الخطباء » امثال : يوليوس سيكوندوس الذي كد وجد ، وماركوس أبير الذي كان خير من مثل الخطابة والبلاغة في زمانه والذي جمع الایجاز الى الاعجاز واشتهر ببيانه المنطوق الذي يفيض حماسة واندفاعاً . كذلك ليس من الغلو في شيء ان نرى سنيكا وابن اخيه لوقين ، وكلاهما من مواليد قرطبة ، في اسبانيا ، يبذلان جهداً ظاهراً للتبريز في صقل اسلوبها البياني للفت النظر والبروز للعيان ، وهي من مفارقات الاسبان ، كما يدعون ، اذ عبثاً نحاول العثور على هذا الاسلوب عند غيرهم من الكتبة المنتمين الى مقاطعة اسبانيا الشمالية ، امثال كونتليانوس ومرتيال . وهذا القول يمكن إطلاقه ايضاً على هذا الفريق من الكتبة المعروفين بالكتبة الافريقيين ، امثال فرونتون من بلدة سيرت (قسنطينة اليوم) ، وابولييه مادور ، وترتليانوس القرطاجي ، مع ان الأول بينهم استثمر ما عرف به من بلاغة ومقدرة خطابية في روما ، بينما لم يُعم الآخرون فيها الا لماماً . ولا يسع المرء الا ان يأنس عندهما ميلاً ظاهراً للغلو ، والعبارة المعقدة البناء ، المتعاطلة التركيب . اما حماسة ترتليانوس المناضل عن المسيحية بجرارة وإيمان ، فيقابلها ، من جهة اخرى ، المقدرة البلاغية التي يبديها مواطناء الآخرون دونما طائل ، اذ تستحيل عند ابولييه ، الى شيء من هذه الرمزية المخلخلة . فهذه الاحكام العامة لا يؤبه لها ولا يؤخذ بها ، بعد تسليط هذه الاضواء الكاشفة عليها . ومهما يكن من الامر ، فليس من يعتقد ان هؤلاء الكتبة الذين وردوا على روما من الولايات ، اسأؤوا بشيء الى هذا التجلي الذي تفتّح عنه النبوغ الروماني ، بما تم له من طاقات وقدرات كامنة فيه .

ولكي نصل الى صميم القضية ، علينا الانسنيء فهم الشجب المبطن الذي تخفيه كلمة «شموية» التي اطلقوها هنا ، وبهذه المناسبة بالذات ، ضد السياسة الثقافية التي انتهجتها روما . والتهمة الصريحة التي يوجهها اليها الناقدون هي أنها استقبلت بالترحاب الحار ابناء هذه الولايات التي سبق لها ودوختها وضمتها الى سيطرتها . لا يستطيع المرء ، على عكس ذلك تماماً ، الا ان يقدر عالياً هذه الروح الطليعة التي تميزت بها روما فراحت تحتفي بحرارة ، بهذه العلوم والافكار ، والآراء والاذواق التي حملها معهم من ورد عليها من الخارج ؛ وهذا النداء الذي وجهته لجميع الناس ، الى اي عرق او جنس او طبقة اجتماعية انتموا ، وعلى اي مستوى كانوا ، وهذه القابلية التي برهنت عنها في استيعاب هذه المؤثرات وتمثلها ؛ وهذه الحفاوة التي احتفظت بها للشرق الهليني ، والمون المؤزر الذي بذلته للغرب المتخلف ، اذ ذاك ، عن ركب الحضارة فساعدته على قطع المراحل حثيثاً واللاحاق بالمستويات المسجلة ؛ ففي هذا كله ، تتجلى على أتمها امثل الفضائل التي حققتها الحضارة الرومانية فكانت مثار مجدها. المؤثل ، بالرغم من بعض الشوائب التي اعتورتها ، فضفرت لها اكليلا من المجد الابليج الذي لا ينبغي له سناء ، مهما تراكت عليه الدهور .

وبدلاً من ان يصيخ المرء أذنأ صاغية لهذه التعليلات المحمومة التي ظاهرها رمافة الذوق عند النخبة الواعية حق وباطنها بطل ، يحسن بنا ، ونحن نسجل توقف ، ان لم نقل افول ، هذا الازدهار الذي شرف عهد اوغسطس ، من الوجهة الفكرية والفنية على السواء ، ان نتبين ما كانت عليه النخبة في المجتمع الروماني العالي من ذوق رهيف ، بعد ان اصبح البحث عن اسباب هذا الوضع الجديد والدوافع اليه ، بمنأى من مناهج التاريخ وأساليبه . وهذه النخبة القليلة العدد نسبياً ، التي هي وقف على العاصمة روما او تكاد ، والتي تتم بما تتمم به من ثراء عريض ، وبما هي عليه من ظرف عالٍ وثقافة عريضة ، والتي تهفو منها النفس الى المتعة العقلية والمادية على السواء ، كما تهفو الى كل ما يزيد منها الحياة بهجة وبهرجاً من حلي في الخارج ولذة في الروح ، وكلها أمور هيأت ، على ما يظهر ، هذا المجتمع لعبث النوادي وطيش الحلقات ، رأت نفسها مقطومة من كل غذاء ، ومقطوعة عن كل اتصال بدافع الحياة . صحيح هذا كله . ولكن ، ما الذي جعل الكلاسيكية تشيل في فرنسا وتنتصر على تيار التصنع والتحدلق ، دون ان يطرأ أي تغيير على المجتمع الفرنسي اذ ذاك ؟ والى هذا ، فليس من ميزة واحدة من بين هذه المميزات التي توفرت لعصر اوغسطس ، بقي معمولاً بها او متوفرة حتى نهاية الامبراطورية الرومانية العليا . فالارستوقراطية القديمة زالت وتوارت من الوجود ، بينا الارستوقراطية : الجديدة كانت تفتنذي دوماً ، وبدون انقطاع ، بعناصر جديدة طلعت من مجتمعات طبقية مدنية او اقليمية اوسع . ولم تكن اذواقها المكتسبة لتصدر عن نوازع وراثية ، كما لم تكن ميولها ميول اصحاب الذوق الرفيع من ابناءها . وهذا البذخ الجنوني عند الخاصة ، استبد مرة واحدة ، في منتصف القرن الاول ، وفي عهد الاسرة الانطونية ، بينا لم تحدث هذه النخبة في ما نعمت به من غنى وثراء ، كان ولا شك ، على الاجمال ، دون ما تم من أمثاله للنخبة

السابقة مثل، ما أحدثت هذه حولها من جلبة وقرقمة. غير ان ما تميزت به من نشاط فكري وثقافي وتهاقت على كل المظاهر الجالبة ، والاستمتاع بكل ما يتم عن ذوق رفيف في تعبيره اللفظي والفني، كل ذلك لم يطرأ عليه تغيير يذكر. وليس من اقل فضائل هذا العهد واخلقيته، وهو شيء لازمها حتى نهاية التاريخ القديم ، ان تحافظ هذه النخبة من نبلاء الدولة ، نزولاً منها عند رغائب الأباطرة ، وان تقدم الدليل دوماً ، على تمسكها بهذه المناقب ، كما تحافظ على هذا المستوى الثقافي والحضاري الذي تُخيل لها انه بلغ سدره المنتهى .

من الظلم الفاضح ، وأيم الحق ، ألا يقدرُوا هذه الحضارة حق قدرها ، كما انه من العمّة ألا يلاحظ المرء هذا الصفات التي شابت هذه الحضارة والتي لا يمكن الاشارة اليها كلها لكثرتها .

ليس من أقل هذه الصفات شأنًا، سوء الاستعمال في المعرفة او الافراط فيها الاعجاب بالماضي الذي أدّى الى تفضيل آثار العهود الماضية العقلية باعتبارها أقوى وقماً ، وأوفر متعة في النفوس . ولقد كان سبق لبعض الاغريق في العهد الهليني ان نسحوا هذا المنص . ألم ينشوا في مدينة «برغاموس» شيئاً يشبه المتاحف الفنية؟ وهذه النزعة العارمة نحو القديم والحرص على جمعه والاحتفاء به ، ظهر اول ما ظهر ، في روما بالذات ، اذ راحت تحفل بأدب الاغريق وتقبل على تلفظها واستمرائها ، اذ لم يكن يوجد بعد آثار رومانية قديمة سحرية بالاهتمام . وقد رغب اوغسطس بنقائش الاغريق وهذه النقوش التي كانت سبب شهرة مدينة كورنثس ، منذ القرن السادس ق . م ، ودفع طيباريوس ثناً باهظاً لصور ورسوم من ريشة الفنان اليوناني براسيوس. من مشاهير رجال الرسم عندهم في القرن الخامس بعد ان نزلت من نفسه منزلة عالية فضلها على رسوم أبيل الاغريقي الذي عاصر الاسكندر . وهذا التصنيف لم يلبث ان استبد بالنفوس فاتخذوا منه منوالاً نسجوا عليه ، بحيث ان آثار بوليكليت وميرون صادفت تقديراً أعلى مما صادفته نقائش فيدياس . ومع ذلك ، لم يظهروا أي إعراض او ازدراء بالاعلاق الادبية الكلاسيكية ، حتى ما عاد منها للقرن الثالث . وراح كل روماني على جانب من الثروة والغنى ينشئ له منها مجموعة شخصية ، فذهبوا في ذلك كل مذهب وغالوا فيه حتى خرجوا عن حدود العرف والمعقول ، واستهاموا بالآثار القديمة حتى حدود الهوس والجنون بحيث ان المهندس فثروف خطط في التصميم الهندسي الذي وضعه لمنزل نموذجي ، مجاً لحفظ مجموعة خاصة من الرسوم والصور يأتيها النور من الشمال ، كما عثروا في جميع أنحاء الامبراطورية على مخابىء لمجموعات من الجوهرات ، بينها مجموعة من ١٠٠ قطعة وجدوها في بوسكوريال، على مقربة من مدينة بومبيي، وعلى مجموعة أخرى من نحو ٦٠ قطعة ، في مدينة برتروفيل ، على مقربة من برثاني ، من اعمال مقاطعة نورمانديا. ومهما بلغ انتاج الاغريق قديماً من الآثار الفنية ، ومهما بقي هذا التراث الفني متوفرًا بالرغم مما تعرض له على مر الدهر، من سلب ونهب، وتكسّف وعبت، فلم يكن بالطبع ليسدّ او ليُلبي رغائب الهواة . ففي الحين الذي نشطت فيه حركة الاتجار بهذه المصوغات والمصنوعات الفنية القديمة منذ العهد الهليني ، راح الناساخ والمقلدون يزيّفون الكثير من هذه

النفاثس لتلبية شدة الطلب لها وإشباع نهم الطامعين فيها، المتحرقين لجمعها بعد ان اشتدت حولها رغائب القوم واقتتنوا بها دونما حساب . والى جانب هذه القطع المزيفة التي بلغ الزيف منها درجة من الدقة والاتقان ، بحيث اختلط على أهر خبراء العصر اليوم ، التمييز بين الزائف منها والأصيل ، كما نشاهد ذلك ، مثلاً ، في صورة هرمس لبراكسيثل التي عُثر عليها في مدينة اولمبيا . فقد كانت معظم الآثار الفنية الجديدة تستلمهم القديم : من هذه النقائش والأعلاق فيها ، احتذاء بالامبراطور هدرانوس الذي افتتن بهذه الهواية الى درجة الهوس . غير ان الانجذاب نحو الماضي أتى فعله السيئ على الجهود التي لا بد منها لتأمين مقومات النجاح لكل حركة تجدد وانبعثت تروم الانفتاح وتسعى الى الانتشار لتبلغ النضج والتأمام .

شيء من هذا الهوس ظهر في عالم الادب على اختلاف مجالاته وقطاعاته . قالى جانب روائع الأدب اليوناني الذي كان محط آمال وانظار من يحسنون اللغتين اليونانية واللاتينية ، توفر للادب اللاتيني محصول طيب سهل الحصول عليه لمن يرغب فيه . وقد أخذت المكتبات العامة وخزائن الكتب الخاصة يزداد عددها في روما ، بعد ان طلعت على الناس اول ما طلعت في عهد يوليوس قيصر بحيث اصبح عدد المكتبات العامة فيها ، في القرن الرابع للميلاد ٢٨ مكتبة . ومن ناحية اخرى ، اتاح توفر الارقاء والنساخ ، استنساخ الكثير وتضعيف العديد من الآثار الفكرية القديمة التي كانت من الكثرة والوفرة بحيث راح الناس يختصرونها ويؤلفون مجاميع من مقتطفاتها الأثرية ، واكثرها من هذه المختصرات الأمر الذي اقضى الى إهمال المطولات وتعرضها بالتالي للزوال ، كلياً او جزئياً ، وبذلك فقدنا الامكانية للتعرف عن كتب ، الى آثار الآداب اليونانية واللاتينية . ولكن لم يكن الوضع ، اذ ذاك ، بلغ مثل هذا الحد من الخطورة . وعلى عكس ذلك تماماً راح الناس يتدارسون هذه الآثار وينعمون النظر فيها ملياً بشيء من الاحترام تجاوز التقديس الى الوثنية ، أفسد منهم الروح ، وبهم المعنى المقصود بحيث اضطر المعنيون بأمرها الى استنباط المعاجم الخاصة ، ووضع الشروح والتفسيرات والتعليق الايضاحية ، للاساليب البيانية والتعبيرية ، بدلاً من ان يستوحوا منها موضوعات جديدة ، في معناها ومبناها ، والتعبير عن الاحاسيس التي يجب ان تفيض بها . وقد بلغ منها التبذل في التقليد والمحاكاة بحيث انتحلت شعراء وكتاب العصر الكلاسيكي . ونسج كثيرون على منوال الإنياذة عدداً من الملاحم الاسطورية ، فوضع سيليوس إيطاليكوس ، في عهد الاسرة الفلافية ، ملحمة أدارها على تاريخ الحرب البونيقية الثانية ، كما يقص لنا تيت - ليف خبر ذلك ، و اضاف اليها اضافات كنزول شيبو الافريقياني الى الجحيم رغبة منه في استشارة ابيه والعمل بنصحه وهديه ، تشبهاً بإبنه الذي راح من قبل يستفتي اياه أنكيز . وقد اوغل بعضهم بعيداً في هذه الحركة بحثاً عن غذاء اكثر استساغة لاذواقهم . نرى ، منذ اواخر القرن الثاني ، كونتيلانوس ، وهو على ما اشتهر به من تمصّب للكلاسيكيين يتساءل عما اذا كانت دواوين الشعراء الاقدمين تفيد في تربية النشء الجديد وصقل اذواقهم . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان يطرحوا على بساط البحث مثلاً كتاباً بشرة شيشرون وفرجيل ايضاً . ولم يتورع هدرانوس من ان يفاضل بهم كلتون وأنتيوس . ففي

الرسائل التي ارسلها فرونتون الى تلاميذه من امراء الاسرة المالكة والتي لم يبخل لهم فيها بالنصح والارشاد حول الكتب المستحسن مطالعتها وقراءتها ، لم نره يأتي ، ولو مرة واحدة ، على التنويه باسم فرجيل . وفي النصف الثاني من عهد الاسرة الانطونية ، كان أتيوس موضوع تقدير الجميع كما كان له الكثير من الانصار المتحمسين والمريدين الاشداء . ويروي لنا «أولوجيل» وهو من المتعصبين لأنيوس ، كيف كان يثير حماسة سامعيه في احدى المدن الايطالية عندما يقرأ لهم في مسرح المدينة قصائده القديمة .

الانحرافات الدينية القراءات العلانية، هذا ما يطالعنا من مستحدثات العصر ومن عادات المجتمع التي أطلت علينا من شيوخ هذه الثقافة الادبية وانتشارها بين الطبقات الرفيعة من المجتمع الروماني ، اذ ذاك ، والذي يشير بجلاء ووضوح الى الاتجاه الذي اتجهته هذه الثقافة . وهذه القراءات العلانية *Recitationes* التي ادخل اسينيوس بوليون استعمالها في روما لأول مرة في اواخر عهد الحروب الأهلية ، والتي جعل منها الرومان بديلا لنظام المحاضرات التي عرفها الاغريق منذ عهد السفسطائيين ولقيت نجاحا منقطع النظير بما أثارته ، لمدة طويلة من حماسة وأهبت من مشاعر . فقد عرفت ان تجمع بين المتعة العقلية وبين لذة اللقاة الاجتماعية ، كما وجدوا فيها عوضاً عن هذه المناقشات والمجادلات التي عفا كل أثر لها في المجتمعات والمؤسسات الادارية ، ولا سيما في جلسات مجلس الشيوخ . وسواء تناولت هذه القراءات الشعر او النثر ، فلم يبق مؤلف إلا وراح يقرأ تبعاً ، على حلقات من المستمعين والمستمعات يتحلقون حوله ، كلما انتهى من وضع فصل او جزء من كتاب يعمل على وضعه ، فيحاولون ، بشيء من التمثيل المسرحي الرخيص ، كالتصفيق الداوي المأجور والالقاء المتصنع المصحوب بالاداء ، ان يثيروا إعجاب القوم ، فينطلق الحضور والنظارة بالثناء والمدح الرخيصين ، قبل ان يكتمل نشر الكتاب ويرى فيه المتمكنون من العلم . ولا يخفى ما في هذا الاسلوب من أذى يقع على فكرة التأليف المنهجية في الكتب الطويلة النفس ، كما ان هذه الطريقة أفضت من جهة أخرى ، الى اضاءة وقت الكاتب وهذره جزافاً في البحث عن النكتة المستملحة والتعابير المستظرفة ، والكلمات المثيرة ، والمجازات الغريبة ، والتوريات النابية ، والاستدارات المستهجنة والمفارقات الصارخة ، والتراكيب المعبر عنها بالمعادلات ، وغير ذلك من حوشي الألفاظ والاضاع التي تنبوع عن الذوق السليم . كل هذا ظهر في ادب العهد الامبراطوري ، فصبغه بهذا البهرج الزائف وبهذا الطعم التافه الذي يمجج الذوق .

وهكذا ساعد هذا النمط من القراءات العلانية على تقوية هذه النزعات الجديدة التي طرأت على المجتمع الروماني ، فاستسلم لها منذ عهد بعيد . وهذا الانزلاق الى هذا المنحدر الأدبي ، هل نسأل عنه المرأة الرومانية التي رضعت افوايق هذه الثقافة وحلبت أشطرها فلبعت دوراً بارزاً في هذه الحلقات والصالونات الادبية ؟ انه لفخر أثيل لروما ان تسهل عتق المرأة بتحريرها اجتماعياً وفكرياً وثقافياً ، سيرا منها مع الحركة التي وجدت منطلقها في المجتمعات والمنظمات

الهلينية. ومهما يكن، فاذا كان الامبراطور هدريانوس هو خير من يمثل هذه الهواية التي استبدت برجال العصر، اذ ذلك، فليس المسؤول عن هذا التدهور او الانحدار الأدبي هؤلاء النسوة الدعيّات المتحذلقات من شاركن حياة البلاط، كهاتين الشاعرتين: بلبيلا *Balbilla* وتريبولا *Trébulla* اللتين اشتركتا في الرحلة الى مصر عام ١٣٠، وفيها ماتتا ونقش احد اشعارهما على حافة تمثال ممنون *Memnon* الى جانب أسماء الامبراطور وزوجته وعشرين غيرهم ممن اشتركوا في هذه الرحلة.

وهذه الهواية التي كانت تتم في الصميم عن فضول عام وحب اطلاع، حملت الناس على السفر والقيام بالرحلة الى الأماكن والأقطار التي كانت مثاراً للخيال بما يرافق تاريخها السحيق من أسرار، كانت ملهمة لعدد من الكتب والأبحاث في مجالات الفن والأدب، حتى ان بعض الأباطرة راحوا هم أنفسهم يستعملون ريشة الرسام ومنقش الحفار. وهكذا اخذت تدفع الناس الى الاكتفاء بالسطحي من العلم والثقافة، او الى التصنع في هذه الفنون التي هفت اليها اذواق القوم اذ ذلك، كالادب مثلاً. فالظهور بالظرف وتكلف الذكاء في الصالونات، وقرض بعض القصائد من مجزوء الشعر، وتنميق بعض الرسائل او صقلها ببهرج الكلام والمحسنات البيانية والمجازية، كل هذه السمات الصغيرة اخذت حق التقدم والصدارة على غيرها من الصفات الاصلية في صناعة القلم. ولثلاث نستفيض في هذه الشؤون ونسهب في تفاصيل لا كبير جدوى منها، يكفي ان نحيل القارئ الى الاجزاء العشرة الأولى من رسائل بلين الاصغر، اذ ان العاشر منها يؤلف مجموعة رسائله الرصينة مع الامبراطور تريانوس. ففي كل صفحة من صفحات هذه الرسائل مثال حي لسخافة هذا الاسلوب الذي ينم عن اغراف الذوق الذي تثير قراءته مع ذلك، اللذة لما فيها من رقة ومتمعة.

من التقاليد المتعارفة ان نجعل نظام التربية التي خضعت لها الشبيبة، اذ ذلك، والتي كانت تعنى، قبل كل شيء، بالبيان والخطابة، مسؤولاً الى حد بعيد، عن الاتجاه الفكري بالمجتمع الروماني الرفيع، في ذلك العصر.

بالفعل ان اثار البلاغة والبيان، كما نصح بذلك ايزوكراتيس، منذ القرن الرابع ق. م، وتفضيلها على سواها باعتبارها قوام الفلسفة الحقيقية وخير المناهج التربوية وامثلها يكوّن، ولا شك في ذلك، احد هذه الاقتباسات التي تعترف الحضارة الرومانية صراحة بنقلها عن الحضارة الهلينية.

فظهر النظام الامبراطوري في روما اوجد شروطاً جد ملائمة لازدهار البلاغة والفصاحة والبيان، فجاء هذا الظرف شبيهاً بالظروف ذاتها التي هيأها لها منذ عدة قرون، الاخذ بالنظام الملكي في البلدان الواقعة الى الشرق من البحر الابيض المتوسط. فقد انقضى عهد هذه المحادلات والمناقشات التي كانت تدور امام المجالس والهيئات البلدية، كما زال وانقضى عهد هذه الدعاوى

التي كثيراً ما تخللها قضايا سياسية كبرى . فعلى الخطيب ، الآن ، ان يلقي دفاعه في نطاق ضيق وحول قضايا خاصة ، او ان يقصر دفاعه على خطب وهمية ، تقرأ ولا تلقى ، كما فعل ايزوكراتيس ، مع وجوب التقيد بالمبنى او المعنى أو الشكل والصورة ، او ان يسهم مع غيره من الخطباء في ما يلقي في بعض المناسبات كالاعیاد والحفلات ضمنها التناء الماطر للملك والتغني بمآتيه وأعماله . وهكذا يبدو من غير المعقول ، كما يبدو مخالفاً للعرف والتقاليد المرعية في العالم الروماني والعالم اليوناني ، على السواء ، الا تنعم الخطابة بمثل هذا الشأن الخطير في النظام التربوي المعمول به ، اذ ذاك ، في العالم الروماني ، في الوقت الذي فقدت الخطابة كل اهمية عملية لها .

وكانت الخطابة والبلاغة والبيان خاتمة المطاف في النظام التربوي الذي بقي على ما كان عليه دون ان يطرأ عليه اي تعديل ، وكما انتقل الى البلاد اللاتينية كما هو ، وعمل به فيها على علاته . وقد أهمل في هذه التربية شأن العلوم ففنعوا منها باولييات الحساب بينما كان تدريس العلوم وقفاً على بعض الخاصة ، ينصرفون اليه بعد انتهاء فترة التعليم العام . والمنهج التربوي السام لم يكن ليهدف الا لتكوين ادباء وحملة اقلام ولا سياخطباء ورجال بلاغة . وبعد التعليم الابتدائي الذي كان ينحصر في الأجرومية ، من صرف ونحو ، كان الطالب يلقن بعض مبادئ الادب عن طريق تعريفه الى مشاهير الشعراء وآثارهم البارزة ، امثال هوميروس وقرجيل ، يحفظها الطالب عن ظهر قلبه مع بعض الشروح والتفاسير والتعاليق . والى هذه المبادئ في اللغة والادب كان الطالب يلقن دروساً في المعجمية والشعر والنحو ، كما يلقن دروساً في الاخلاق والميثولوجيا . وعندما يبلغ سن المراهقة يأخذ الطالب يدرس الخطابة وما اليها من بيان وفصاحة وبلاغة ، في شروح وتفسيرات تتناول كبار الكتاب والخطباء ومشاهير المؤرخين ، وأمثلة من الخطب التي ينحلونها والامثلة العديدة التي يتمثلون بها أو يأتون بها شواهد ، مع ذكر طائفة من النوادر والنكات المستملحة التي تدل على سرعة الخاطر وحضور الذهن ، كان على الخطيب ان يطلع عليها ليستشهد بها . وتدريباً للطالب على فنون الادب ، كان يطلب اليه معالجة موضوعات غير واقعية ، فيعد لها مذكرات تؤيد او تدحض ، كما يقوم بمذاكرات ومناقشات ، أو ان يقوم باعداد دفاع عن أمر ما *Suasoriae* . ولكي يلهبوا من طالب الخطابة الخيال ، وبيعثوا في 'حيات' النشاط ، كثيراً ما كانوا يضعونه ، عن سابق قصد وتصميم ، امام مواقف خيالية أو اوضاع يواجه فيها صعوبات معقدة ، مستعصية الحل من الوجهتين الادبية والقانونية . ولم يكن ليهول الحكومة او ليحركها ما كان يبلغ مسامعها او ما يُنقل اليها من الدعوة الى الحرية أو التغني بها ، او تحبذ من يدعون للطغيان والاستبداد في الحكم وغير ذلك من المبادئ الهدامة في ظاهرها مما تتجاوب ارجاء المدرسة أو المعهد باصدائه ، اذ لم يكن ليخطر على بال احد ان هناك من يستجيب لهذه الدعوة أو ينهض يها ، اذ لم يقصد من هذا القول سوى الارتياض العقلي والذهني ، والتخرج بافانين البيان .

وكان السواد الاعظم من الشبان الذين باستطاعة والديهم ان يكفلوا لهم اسباب التعلم يقتصر

على مثل هذا المنهج الدراسي ، وقليل بينهم من ينهض لدراسة الفلسفة . إلا ان التطور الذي رافق الحركة العلمية والتربوية أو هن كثيراً من الوشائج التي شدت طويلاً ، عند الاغريق قديماً ، بين الفلسفة ، من جهة ، وبين الرياضيات وعلم الفلك ، من جهة أخرى . فقد ازداد عدد مدارس الطب غير ان فريقاً كبيراً من الأطباء كان يتخرج بهذه المهنة عملياً ، بالمراس والمران ، وذلك بالتحاقه ببعض الأطباء فيلازمهم . ويأخذ عنهم . ومن فضل الرومان على تطوير التربية والتعليم ، سبقهم غيرهم الى تدريس الحقوق والشرعية بمعاهد خاصة أنشأوها لهذا الغرض ، بعد ان تبنوا الأهمية الكبرى لهذا العلم . فدرجوا على إعطاء شهادة تخرج في الحقوق لمن أنهى دراسته القانونية ، وهو أمر لم يجر ما يشبهه في الطب . فاذا كانت هذه الشهادة تفتح امام حاملها ابواب الوظائف ، فلم تكن مع ذلك بشرط أساسي لولوج الادارة ، كما ان ممارسة المحاماة بقيت دوماً حرة من كل قيد .

فليس بغريب قط ان تحتل فنون البلاغة والخطابة ، في مثل هذا البرنامج الطويل الهادف لتأمين الاختصاص ، محلاً هاماً أكثر من اللازم ، لا سيما وقد خصوا البيان والفصاحة بدروس ارادوها على مثل هذا الشكل من التقعر والتطويل ، بعيدة عن الحياة العملية ، وهي دروس ادنى الى ادب الخيال والتخصص لا تقيم وزناً إلا للقدرة البيانية والصياغة الحرفية ، بعد ان قضت الظروف بابتعاد هذه الدروس عن واقع الحياة العملي ، مما لم ينسب يوماً عن أعين ايزوكراتيس .

وكانت هذه الدروس تهدف ، في الاساس ، للبحث عن الأفكار والكشف عنها والتنسيق فيما بينها ، وفقاً للتسلسل المنطقي ، والتعبير عنها بأناقة ووضوح ورشاقة ، اذ تمكن من تلقاها من مواجهة أدق المواقف وأصعب المهام التي تعرض له . فهل حققت ، يا ترى ، الاهداف التي رُسمت لها ؟ ومهما يكن ، لا بد من الاعتراف هنا ما كان للتربية والتعليم عند الرومان من فضل ، اذ زودت الامبراطورية بالأنطر والملاكات التي شغلها افراد تسلحوا بالعلم والمعرفة ، بالرغم من بعض النواقص التي شابها والأمور المستهجنة التي اعتورتها ، وسلحتهم بفضائل ومناقب تمثلت على احسن وجه بهذه النخبة التي قامت على خدمة الادارة ، ونهضت بأسبابها .

هنالك ملاحظة لا بد من ابدائها هنا تتعلق بالسهولة التي يأخذ بها البعض في نقد هذا النظام التربوي فيرمونه بكل قريئة . فاذا ما انتسخ هذا النظام مع روما القديمة ، فقد كتب له ان يُبعث حياً فيما بعد . فعندما نرسم الخطوط الكبرى التي سارت عليها هذه التربية فاننا نلحظ ، ولو من طرف خفي ، الى النهج الذي تبنته الدول الكبرى في غربي اوربا ، منذ القرن السابع عشر حتى اواخر التاسع عشر . فقد نسجت روما في هذا المضمار على المنوال الذي تسلمته من الحضارة الهلينية . فسلكتها هذا انما يعني السير معها على المثل السامية التي سارت عليها الانسانية ، وليس مجرد التزام تقليد متبع ، وعرف مستبد . وبدون ان نحسب بان هذه المثل قد زال عهدها وانقطع ، فبالامكان ، مع ذلك ، التزام مناهج اخرى تضمن تحقيق هذه الاهداف . فاذا ما راحت مدينة هذا العصر تتنكر لهذا الدين الذي تحمله في عنقها والذي طوقها به الاقربون من الأنسباء ، فتكون بذلك قد أتت أمراً إدأ واستهدفت بحق لتهمة العقوق ونكران الجليل .

من الانصاف ألا نهمل هنا التنويه عالياً بهذه الجهود التي بُذلت اذ المدرسة وأثرها في نشر الثقافة ذلك ، لنشر الثقافة عن طريق المدرسة . فالاصطلاح الاداري نَحَت من عهد قريب كلمة : التعليم المدرسي *Scolarisation* ، وهو مصطلح يحمل بنا استعماله تنويعاً بالحاجات المشتركة ، من جهة ، وبالحلول المتشابهة التي يعتمدونها لسد هذه الحاجات ، من جهة أخرى ، اذ لو صح ان المبادرة جاءت من افراد يكلفون بالتعليم ، فالادارة الحكومية استجابت بدورها لهذا الشيء الذي طلع حديثاً وشجعتة .

ولا بد من ان نردد هنا ما سبق وقلناه من قبل وهو ان الفكرة ، ليست في الاصل ، رومانية ، بل هلمنية . وقد قطعت الطريقة الجديدة شوطاً بعيداً في نظورها نحو التكل ، سواء في الشرق او في الغرب الذي راح يضاعف الجهد ويلهب الخطى ويحث السير ، اذ كان عليه ان ينشئ كل شيء وان ينطلق من الاساس . فباستمرار الأمر الكبيرة على الاستعانة بربين خصوصيين أخذ عدد المدارس يزداد ويتسع باطراد . وكان التعليم في معظم هذه المدارس يُعَيّن له رسوم وأجور كما يعين للعلم مرتب لا بأس به ، ان لم يوفر لمعلم الصغار مستوىً كريماً من العيش ، فقد أمّن لمعلم المدرسة الابتدائية دخلاً محترماً . أما أساتذة البيان والبلاغة فكانوا ، على الاجال ، من اصحاب المقامات المحترمة في البلد . وكثيراً ما كان العبء الذي يقع على الوالدين يخف او يزول تماماً من جراء هبة او تبرع يقوم به احد الخاصة يُسبِّلُها على إنشاء مدرسة او مكتبة ، او يقفها على اقامة احتفال تذكاري ماء ، او يخصصها لبناء نصب او مؤسسة من المؤسسات . وكان الاهتمام بهذه الوقوفات وتأمين ادارتها يقع على المجلس البلدي فيخصص لها من الاعتمادات ما يكفل لها حسن سير العمل ، ولذا راحت السلطة المحلية تضطلع بالاشراف على هذه المدارس ، وتختار لها المدرسين الكفاء ، كما انها كانت تعين لها طبيباً تدفع له المرتبات لقاء سهرة على الصحة العامة في المدرسة او المؤسسة .

وكثيراً ما كانت المدن الصغرى تضطر أكثر من الكبرى لبذل مجهود أكبر من التضحيات ، في هذا السبيل بالنظر لما للأخيرة من عدد السكان وشهرة المعلمين ما يؤمن حاجتها من الاساتذة والمدرسين والطلاب . وهذا الوضع بعينه يفسر لنا كيف ان الادارة الامبراطورية لم تتدخل حالياً في الأمر إلا بعد تاريخ متأخر . فالاباطرة الذين لم يكن يستطيعوا الاهتمام بكل المدن الصغيرة اقتصر اهتمامهم على شيء بسيط جداً في المدن التي كانت تدبر شؤونها بنفسها . ولكن إيانا ورميمهم بالتهاون او عدم الاكتراث . فنحن ان ضمت مصر الى الامبراطورية أُرصدت في باب الموازنة الاعتمادات التي اقتضاها حسن سير المعاهد الثقافية والعلمية التي رأت النور في الاسكندرية في عهد البطالسة : كالمكتبة والمتحف اللذين أُلِّقا معاً معهداً عالياً للاداب والعلوم والفنون جعل منها مجتمعة ، جامعة الاسكندرية التي طبقت شهرتها الآفاق ، في التاريخ القديم . وانصرف الاباطرة ، في عهد مبكر من النظام الامبراطوري ، الى تأسيس المكتبات في روما . وعندما اخذت هذه الامبراطورية ، في عهد الدولة الفلافية ، على عاتقها تخصيص مساعدات مالية ليس

للشؤون الثقافية فحسب ، بل أيضاً للمدارس الخاصة ، فقد استجابت في ذلك ، لرغبتها الصادقة في إظهار عطفها وتشجيعها أكثر منها لواجب مفروض . فلم يكتف الامبراطور فسبسيانوس بتخصيص مرتبات ضخمة لاستاذين من اساتذة البيان والبلاغة في روما ، بل عمم مكرمه هذه على اساتذة الصرف والنحو والخطابة ، كما جعلهم يستفيدون من الاعفاءات التي تمتع بها الأطباء منذ عهد اوغسطس . وعلى هذا سار أيضاً اباطرة الأسرة الانطونية . فقد حمل الامبراطور مارك اوريل خزينة الدولة مرتبات أربعة اساتذة للفلسفة ومرتب استاذ للبلاغة والبيان ، في اثينا ، وهذه المرتبات كانت دون المرتبات التي كانت تدفع لأساتذة العاصمة ، إذ كانت معدلها يتراوح بين ٦٠.٠٠٠ و ٤٠.٠٠٠ سسترس (١٥ - ١٠ آلاف فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤) ، بينما كان يتقاضى الاستاذ في روما ١٠٠.٠٠٠ سسترس . صحيح ان الدولة لم تذهب الى ابعد من هذا الحد في امر تمويل التعليم ، إلا انها اخذت تحت المدن على مضاعفة البذل في هذا الحقل . وهكذا لم تلبث المدرسة البلدية ان أصبحت المدرسة النموذجية .

وكانت الدولة تضع نصب اعينها في هذا كله تأمين تربية الذكور بنوع خاص ، وقد ساعد تطور الاخلاق على التوسيع من الحريات للمرأة . وهكذا فلم تلبث ان قامت مدارس خاصة بالاناث ، حتى ان المربي الفيلسوف موسونيوس روفوس اخذ يتمنى ، منذ اواسط القرن الاول ، لو سير في تربية الاناث على الحطة التعليمية او المنهج الذي تخضع له مدارس الذكور . ومن النادر جداً ان نرى المدن او بعض نصراء العلم يولون مثل هذه المدارس اهتمامهم او يخصصونها بمكافئهم .

لم تكن قضية تعليم الذكور لتخفي وراءها أو لتبطن اية فكرة سياسية . بين الثقافة والسياسة : فلم يبد اي مسمى أو أية رغبة ، من اي نوع للالتزام بتفسير معين للتاريخ الاهداف والنتائج او لفرض أية نظرية او فلسفة ملكية ، استبدادية ، على المدرسة . وعلى

عكس ذلك تماماً ، كان العرف ، التشديد عموماً ، على موضوعات تتصل اكثر بطبيعة النظام الجمهوري . فابننا أجلنا الطرف وجدنا هيئات وجمعيات للاحداث *Juvenis* تشبه الى حد بعيد ، ما عُرف عند الاغريق بمنظمات الفتوة *Ephèbes* . واقتصر نشاط هذه الهيئات على احياء حفلات واقامة اجتماعات تكريمية تنجح من الامبراطور ، باستثناء الجمعيات أو المنظمات التي قامت في مناطق الحدود ، اذ كان نشاطها يُصرف في وجوه الرياضة البدنية والتربية العسكرية . وفيما عدا ذلك ، كانت هذه المنظمات تزخر لأعضائها أسباب اللهو والتسلية والتفريج . وتبدو هذه المنظمات اذا ما قارناها بشبيبتها في عصرنا اليوم ، بدائية للغاية ، عدا عن انها اقصرت عضويتها على شباب الطبقات الرخية . وموجز القول ، فالامبراطورية لم تكن لتصدر ، في التربية كما في غير قطاعات من شؤون الفكر ، عن نزعات اجماعية ، دكتاتورية ، عرفنا منها نماذج عدة خلال التاريخ الذي يحدثننا بشيء من الاستفاضة عن التربية في سبارطة قديماً بحيث لم نعد نجعل شيئاً من اسبابها بعد اليوم . فاذا ما حاز هذا النوع من التربية رضى البعض وفاز باعجابهم ، فقد اعتُبر مع ذلك قاسياً ، منفراً بحيث كان الاغريق اول من اعرضوا عن هذا النهج ، بحيث لم يخطر في بال احد ، في روما ان يتبنى مثل هذا النهج أو ان يقتبس منه ، لعدم صلاحه .

من الخطئ في الرأي الظن بأن المؤازرة التي بذلتها السلطات العامة في جميع درجاتها ، لتطوير الاسرة انما صدرت عن اهداف مجردة . فقد انطوت حتى عند اكثرهم اخذاً بالمبادئ السامية من اصحاب مذهب الرواقين من تحسوسوا بسمو واجباتهم ، على أمر مروم ومنفعة يُسعى اليها ، فهي تقوم وترتكز على هذه المعطيات الاولى التي تُعَلِّمُ بان الامبراطورية الرومانية والحضارة امران متلازمان مترابطين لا يمكن فصل الواحد عن الآخر ، بعد ان اخذت الامبراطورية على نفسها صيانة هذه الحضارة والمحافظة عليها من عوادي الدهر وعبت البرابرة ، كما ، انه اصبح مترتباً على كل مواطن روماني ان ينعم باسباب هذه الحضارة عن طريق التربية وان يُخلص لها الولاء ، وان يكون دوماً على اتم استعداد لمناصرة الامبراطور والشدة منه الازر في كل ما يبذل له من الجهود للدفاع عن المصلحة العامة وتأمين الخير للجميع .

من يعرف الى اين انتهى الامر بهذا التطور يدرك جيداً ان هذا الحسبان كان باطلاً اذ ان النجاحات التي حققها التطور لهذه الامبراطورية لم تحل قط دون تفسخها وانهارها . وهذا التفسخ والانهار الذي أتمته جاء نتيجة منطقية لاسباب خارجية تمثلت في هذه الغزوات المتلاحقة التي شنّها عليها البرابرة في أمواج متتالية ، ولاسباب داخلية ايضاً ، ولا سيما لسبب سلمي يبرز من خلال تملي النظر في هذه السياسة الثقافية التي سارت عليها الامبراطورية ، بالاضافة الى الاعتبارات الاخرى التي طالما اثرنا اليها في تضاعيف الفصول الماضية .

فالتعليم التزم حدوداً اقتصرت على سد حاجات الادارة ، ومتطلبات الحياة الاقتصادية ، والبنيان الاجتماعي الذي ساد المجتمع اذ ذاك . فهو ان اشبع ، أو سد مطلب المدينة فقد قصر كثيراً عن اشباع حاجات الولايات والريف . هنالك امثلة فردية قليلة جداً على قيام بعض مدارس في الاقاليم التي قامت فيها المناجم والمعادن . ويستدل من نصب رسمي ان هنالك مدارس قامت ايضاً في ما اصطالحوا على تسميته بـ *Vici* ، وهي كلمة اطلقوها على بعض مجتمعات او اوساط اختلفت شأنًا واهمية فيما بينها ، فلم يكتب لها ان ارتفعت الى مرتبة حاضرة او قاعدة القضاء . ومهما يكن من امر هذه المدارس ، فهي لم تؤمن سوى تعليم ابتدائي متواضع ، ولم يكن لها ، بالتالي ، اي شأن في القضاء على اللهجات المحكية المباعدة أو التخفيف من حدتها . صحيح ان باستطاعتنا ان نشاهد بعض اساقفة اعلام للصرف والنحو والبيان في مدن الغرب المتواضعة ، اذا ما قارناها بالوضع الذي قام في الماضي . ومهما بلغ من اتساع الجهد المبذول في هذا المجال ، فهو لم يتناول سوى قسم ضئيل جداً من سكان الامبراطورية . وكنت التوسيع من نظام التعليم بحيث يتناول اكبر عدد ممكن يقتضي له مبالغ طائلة لم يكن يوسع الامبراطورية ولا في مكتبة منظماتها لتقديمها ولا تحملها ، كما كان يقتضي ، على الاخص مفهوماً آخر للمجتمع ونظرية جديدة للحضارة لا تحتل فيها المدينة روما مركز الصدارة الضاغط . فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان تبقى جبهة السكان في الريف غير مبالية ولا بمكثرتة لمصير حضارة اهلهم فاسقطتهم من حسابها وكادت لا تشعر بوجودهم .

وهكذا باءت بالفشل الاماني العراض التي دغدغت خيال احسن الاباطرة وراودت خواطرهم

ولم يكن معدّ من هذا المصير المحتوم ولا محيص منه ، مع انه لم يكن لعمرى ، في الأمر شيء عسير او بمستحيل ، اذ يكفي ان نتذكر النجاح الذي حققه لدى قسم من سكان الامبراطورية . فالعناصر المدنية ، أينما كانت ، انضمت صادقة لهذه الحركة . فالتطور التدريجي الذي اخذت هذه العناصر بأسبابه وثيداً ، جيلاً بعد جيل ، من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية ، وطلبها الثراء والفنى وانصرافها نحو الوظائف البلدية وهو الباب المفضي الى طبقة الأشراف الجديدة ، رافقه تطور ثقافي وفكري . وهذه الحركة التطورية عولت على التربية واتخذت منها عماداً لها ، ومكثت لها الاسباب في المدن اذ كان في مقدور هذه المدن وحدها ، بسبب ما لها من موارد طائلة ، ان تؤمن وسائل التعليم والتربية ، اذ ان التعليم كان الشرط الاول الذي لا بد منه لمن ينبغي دخول الوظيفة والتدرج الى أعلى درجاتها . وهذا يعينه أتاح للنخبة المثقفة التي بيدها تصريف الامور ان تنصهر بعضاً ببعض ، وان تقيد ، على نطاق واسع ، بالرغم من اختلاف مصادرها وتباين المناطق التي خرجت منها ، من مصدر واحد يغذيها . ولذا رأت الامبراطورية نفسها مدينة لهذا الوضع القائم بكل ما اتصفت به من اتحاد وتضامن ، من الوجهة المادية والادبية على السواء .

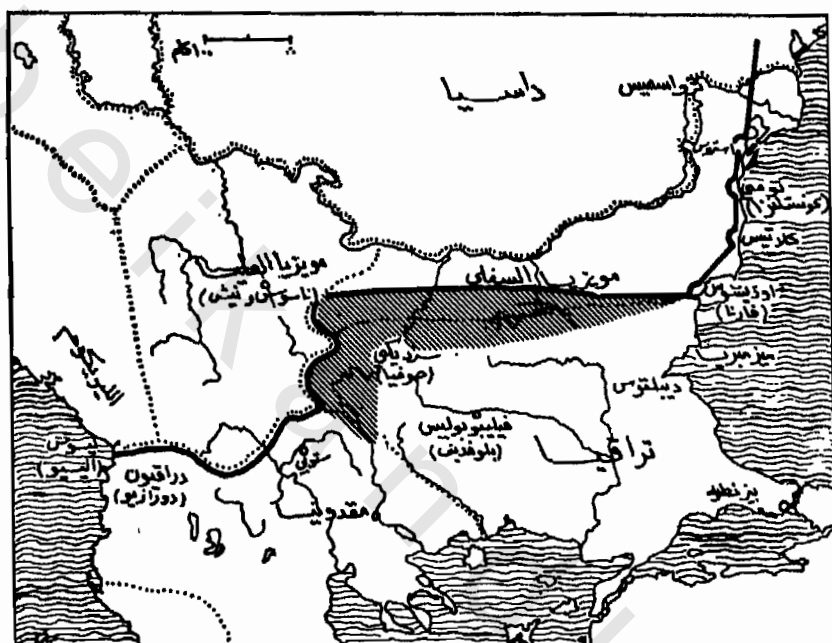
الوضع اللغوي
فوحدة اللغة كانت أمثل رمز لهذه الوحدة . غير ان حكومة الامبراطورية لم تجعل من الوحدة اللغوية هدفاً الاول لأنها كانت امام لغتين مختلفتين للثقافة اذ ذاك ، ولم يُدر في خلدها قط ان تعتمد الواحدة منها دون الاخرى . فاللاتينية كانت اللغة القومية ، وكل شيء كان يؤهلها لتصبح اللغة الرسمية الوحيدة التي لا بد منها لوحدة الامبراطورية . غير ان اللغة اليونانية كانت هي الاخرى ، تتمتع بنفوذ فكري وتكون قطب جذب لا يستهان به . فنذ القرن الثالث ق . م ، كل الذين كانوا على شيء من النفوذ في روما ، كانوا يدرسون اليونانية ويحاولون تجويدها منذ حداثتهم الاولى بحيث كانوا يحسنونها كلفتهم الام ، مستجيبين في ذلك لمقتضيات الادارة والثقافة ، على السواء . وهذا ما حدا بالجماعة للبحث عن طريقة واحدة للعيش المشترك . وفي هذا السبيل ، قام الرومان بتضحيات واسعة تجاوز بعضها المعقول ، وفي ذلك دليل على ما كانت روما مستعدة لبذله في سبيل الحفاظ على هذه الحضارة التي كانت تشد عليها بالنواجز .

وقام في الامبراطورية حد لغوي انشطرت معه الى شطرين متناظرين ، وان تعادلا تقريباً ، هما : الشرق الهليني والغرب اللاتيني . اما الى الجنوب من البحر المتوسط ، فقد وقع هذا الحد بين مقاطعة القيروان وبين ولاية افريقيا التي تبعتها مقاطعة طرابلس الغرب ، ولم تلبث اللاتينية ان غزت صقلية وايطاليا الجنوبية بعد ان كانت ارضاً يونانية اللغة من قبل . اما في البلقان ، فالحدود بين الشطرين انطلقت من شمالي مقاطعة أبيروس ممتدة نحو الجنوب من مجرى نهر الدانوب الى سواحل البحر الاسود . واستقرت على هذا الشكل بفضل مرابطة الجيش في المنطقة ، باستثناء بعض تغييرات طرأت فيما بعد .

وكل من هاتين اللغتين: اللاتينية واليونانية، راح بدوره يعمل على كسب مجالات جديدة محاولاً السيطرة على اللهجات المحكية علياً. وبدلاً من ان تحاول روما الحد من اللغة اليونانية، راحت تعمل على تأمين انتشارها، اعتقاداً منها، وبحق، ان كل كسب تحققه في البلدان المتخلفة في تطورها الفكري والثقافي انما يعود عليها هي بالمنفعة والخير العميمين. وهكذا استطاعت اللغة اليونانية ان توسع من نطاق النجاحات التي حققتها منذ العهد الهليني. وبفضل هذه المؤازرة من جانب روما تمكنت اليونانية من ان تكلل ما ابتدأت به قبل الاسكندر بكثير الا وهو السيطرة، لغة وثقافة، على مقاطعات آسيا الصغرى. اما في سوريا ومصر، فقد شهدت طلوع مدن لم يكن عددها، مع الأسف، كافياً بحيث تتغلغل بصورة قاطعة في الريف. غير ان ترك اهل الريف وشأنهم أظهر لنا واضحاً الدور الذي لعبته كل من اللغة السريانية، احد فروع الآرامية، واللغة القبطية احد فروع المصرية القديمة. اما اللاتينية في الغرب، فلم يأت نجاحها نهائياً كاملاً، في كل مكان، للاعتبارات ذاتها. فقد غزت اللاتينية شبه الجزيرة الايبيرية واستبدت بها. اما في غاليا، فقد زالت اللغة الكلتية من الاستعمال، الى ان اعاد اليها شيئاً من النشاط الرهبان الارلنديون في مقاطعة الارموريك، وبقيت جارية الاستعمال في بعض مناطق الريف حتى القرن الرابع للميلاد. اما في افريقيا فقد اندرست اللغة البونيقية كلفة محكية، على الاقل، منذ مطلع القرن الثاني. ولعل آخر استعمال لها يبرز في هذه الكتابة الثنائية اللغة، المسماة *Leptis Magna* المؤرخة عام ٩٢ للميلاد. إلا ان اللاتينية لم تصبح لغة الريف الدارجة، ولا عبرة قط هنا للنعت: «بونيقية» عندما يشير القديس اوغسطينوس ويقول ان اللغة المحكية في عهده في ضواحي هيونة كانت البونيقية، فالاصطلاح يجب ألا يؤخذ هنا بحرفيته. وبقيت البربرية الليبية قيد الاستعمال في ليبيا الى يومنا هذا. وهكذا، فكل توسع تسجله احدى هاتين اللغتين، يجب رده، في الدرجة الاولى الى الإشعاع الثقافي الذي انطلق من المدن وحواضر البلاد الكبرى، في هذا الوقت او بعده بقليل.

ومؤازرة السلطات العامة الرومانية لليونانية في تأمين انتشارها وتوسعها، انما يدل بوضوح على ما اتصف به اولو الامر في الامبراطورية، من عمق التفكير والتفهم الصحيح للاوضاع القائمة، وهي مؤازرة تبدو على وجهها الصحيح في موقف السلطة من هذه اللغة وسلوكها معها. كل الدلائل تدل على ان الادارة الرومانية أبست ان تلزم الاغريق الأخذ بتعلم اللاتينية واستعمالها في معاملاتهم اليومية ومخاطباتهم كأنما يخشون فرض شيء ينتقص من كرامتهم، يحط لهم. كذلك لم يكن بالإمكان، من جهة ثانية، ان يتخلى الرومان عن هذه الإزدواجية اللغوية التي قامت عليها ثقافتهم، وعوضاً من ذلك راحوا يفتشون جاهدين عما يؤول الى تأمين حياة مشتركة وتعايش تعاوني. ففي هذا القسم اليوناني من الامبراطورية الرومانية، كانت اللاتينية وحدها اللغة الرسمية في الجيش والقضاء، مع العلم ان المناقشات والمرافعات القانونية التي كان يقوم بها المحامون كانت تجري باليونانية مباشرة دون ترجمة. وفي ما عدا ذلك، عولت الادارة دوماً على اليونانية، كما ان الديوان الامبراطوري في روما، كانت فيه دوماً دائرة يونانية لتضعيف

النسخ بهذه اللغة أيضاً . فمن كان يرغب بين الشرقيين في احترام مهنة ما في روما كان عليه ان يتعلم اللاتينية ، وهو امر لم يقبلوا عليه الا متأخرين ، أي منذ القرن الثاني فقط . وعلى عكس ذلك ، فقد وجدت روما في الشرق ، منذ مطلع الامبراطورية ، موظفين اكفاء احسنوا اللغتين وجودهما ، كما ان نوع التربية التي سادت في البلاد اذ ذاك ، أمّن لها دوماً حاجتها من هؤلاء الموظفين . ففي الاسر الثرية ، كان المربون الخصوصيون من اهل الشرق ، من الكثرة والوفرة



الشكل ١٢ - مواطن اللغات وحدودها

الخطوط المنعكسة تشير الى المناطق التي انتشرت فيها اللاتينية في القرن الثالث . اما في الجنوب ، فالمستعمرات التي أنشأها الإمبراطور للمعمرين اللاتين ، امثال ديراكيوم ، وستوبي وديبلتوس ، فقد اقتبست اللغة اليونانية أداة للتعبير .

بحيث لم يقلوا بشيء عن المربين اللاتين . وفي روما بالذات احتل الشعر والبيان باليوناني ، في المدارس وفي المباريات الادبية ، المنزلة ذاتها التي كانت للشعر والقصيدة والبيان باللاتيني . وكان مدرسون اغريق يعملون الصرف والنحو والبيان في كل الولايات الغربية . وكان من يرغب من الشبيبة في متابعة دروسه العالية ، يذهب لمسيليا التي كانت تغخر بحفاظتها على فصاحة اللغة اليونانية ، وعلى الثقافة الهلينية التي عرفت ، في هذه الحقبة بالذات ، حركة تجديد عادت عليها بالازدهار والاشعاع ، او يذهبون لاثينا كما فعل ابوليخ الافريقي وغيره كثيرون . فانتشار هذه الحركة واستمرارها طويلا عاد بالثناء العاطر على هذه المجتمعات الغربية التي كان معظمها من اهل البلاد وكان عليها ان تجد في السير وتقطع المراحل بسرعة في سبيل تحقيق التطور المرغوب .

ومن المستغرب ، وأيم الحق ان يقتصر الاتصال مع الحركة العلمية الهلينية إجمالاً ، على نتائج جاءت في معظمها سطحية . فما مثل هدر يانوس ومارك أوريل سوى نجاح يمكن اعتباره استثناء من القاعدة . غير ان الجهود والنشاطات التي بذلت في هذا المجال ادت ، على الاجمال ، الى نتائج لا يجوز الانتقاص منها او مقابلتها بحدّ طرّف اللسان . فليس نرى بين المذنبات الحديثة ما استطاع ان يعطي على مثل هذا القدر من العطاء ، وعلى مثل هذه النسبة من العظمة او اعطت بالفعل شيئاً يصحّ مقارنته بما اعطته روما في هذا المضمار .

ثقافة واحدة ، كل هذه النتائج التي سجلناها هنا تثبت كيف ان قسمة الامبراطورية من الوجهة اللغوية ، لم يُفِض الى انقسامها ، وهو انقسام تم بعد ذلك بكثير . فالحدود اللغوية التي قامت الى الجنوب من البحر المتوسط ، أصبحت بعد وقت طويل ، حدوداً سياسية . وهذا الفارق اللغوي لم يؤلف في هذا الانقسام ، سوى سبب فرعي او عذر ثانوي افادت منه واستثمرته ، على نطاق واسع ، القوى الدافعة عن المركز ، كما يفيد الصقيع من تخاريب الصخور حتى اذا ما جمد الماء فيها عمل على تفسّخها وفلحها ، والا لبقى بدون أذى . اما في شبه جزيرة البلقان ، فالحدود اللغوية الفاصلة لم تكن لتلتقي . وهكذا نرى ان استعمال اللغتين معاً طيلة اجيال متطاولة لم يؤد الى شيء من خلخلة وحدة الامبراطورية .

ولهذا السبب ، فالمشكلة اللغوية ، لم تكن سوى وجه من وجوه مشكلة الثقافة العامة . والحل الذي لاقتنه هذه الاخيرة ترك اثره في حل القضية الاولى وزادها تعقيداً . فاذا كانت إزدواجية اللغة ، والحالة هذه ، وضعاً لا مندوحة لسكان الغرب ، في الامبراطورية الرومانية ، للاخذ به ، فلأنهم رأوا في هذه الازدواجية عاملاً يشد من وحدتهم ويزيدها تماسكاً ، وذلك توخيّا منهم الوصول للمستوى الثقافي الذي بلغه الاغريق في الشرق . وهذه الوحدة اخذت تتحقق في المجالات الاخرى من الحضارة ، تارة وثيداً ، وطوراً بصورة سريعة ، حثيثة . وكانت تنهج ، فيما يتعلق بالدين مثلاً ، سبلاً حاول الاباطرة صدها أو الحد منها ، بينما راحوا كلهم يناصرون هذه المساعي ، عندما كانت تتعلق بامور الفكر والذوق الفني ، وكلها من توابع الكلاسيكية اليونانية ومن مشتقاتها ، التي لم تكن مستوردة كهذه العبادات والطقوس الدينية التي وردت على الغرب من الشرق البعيد ، والتي اقبل الشعب الروماني يتلقفها ويتبنّاها ، بينما تلك كانت من صميم الثقافة التي لم يكن احد ليجرؤ على الانتقاص من كرم محتدها أو الخط من منزلتها السامية . والحقيقة ان الكلاسيكية اليونانية بعيدة لم يطلع عليها الرومان الا من خلال الشروح والتفسيرات والتعليقات التي وضعها كتاب العصر الهليني . واي ضرر أو بأس من هذا ، يا ترى ؟ فالكل رأى في هذه الثقافة الفنية والفكرية التي طلع بها العالم اليوناني ، الثقافة الحقّة التي يتوجب على روما اقتباسها وتبنيها ونشرها كعنصر ضام ، موّحد لهذه الامبراطورية المترامية الاطراف التي انشأتها .

فاذا ما تعرّف الغرب الى هذه الثقافة وأقبل عليها ورضع أفوايقها فالفضل كل الفضل في

ذلك لروما وحدها . فقد أشرنا مراراً الى النجاحات التي حققها انتشار هذه الثقافة في الغرب . كذلك نوهنا بخواء الابحاث التي تنطّح للقيام بها بعض المفكرين من رجال هذا العصر ، وعدم جدواها . كذلك لا بد من بعض التحفظات التي لا بد من الاعراب عنها هنا والتي لا تتعارض ، مع ذلك ، مع الشيء الذي جئنا به أعلاه ، إلا بصورة ظاهرية ، لأن الخطر المزدوج الناتج عن تجريد النخبة ، من جهة ، ومن سخافات الجماهير من جهة أخرى ، يكون خطراً على الثقافة كما عليها خطر من هذه التفاهات وهذا الاطراد والمحاكاة والفوضى على أشكالها التي تتحالف عليها . وهنا كما في اي ثقافة أخرى في أي زمان ومكان ، فإلى جانب انتاج النخبة المثقفة ، نرى الانتاج العادي جوي به طبقاً لأذواق زبائن يؤلفون الغالبية التي لم تُصقل منها الاذواق : فكان ان انحط المعدل الوسط ، لا سيما في ما يتعلق بالانتاج الفني . ومن جهة أخرى ، فهذه الثقافة التي جاءت من فوق ، ومن بعيد ، لم تكن لتمثل سوى ثقافة جماعة اقتلَعوا من بيئتهم وانقطعوا عن كل اتصال مباشر بالجماهير ، رحيل بينهم وبين كل غذاء دسم تؤمنه تربية أصيلة . فلا يجوز ، والحالة هذه ، إلا ان نتصور ، ولو بالخيال ، ما عسى ان تكون عليه النتيجة لو استعملت وسائل أخرى . والشيء الذي لا يختلف فيه اثنان هو ان هذه الوسائل كانت ستفضي الى وحدة ممتدة في السياقة دون ان تتمكن من انتاج أي رائعة من روائع الصف الاول .

وهذه الملاحظات التي لم يكن بد من إبدائها هنا والتي أبديناها بالفعل ، لا تمس بشيء عظمة هذا المشهد الذي يستبد بنظر المؤرخ ، الا وهو هذا الاجماع ، وهذه المطابقة التي اتصفت بها جهود الطبقات الموجهة ، المعيدة ، والقابلة للنمو والازدياد ، والاستجابة للتلقائية التي لقيتها نداءات الاباطرة ، لدى النخبة بين رعايا الدولة في جميع الولايات . وهذه الامبراطورية الضخمة التي تألفت في البدء من أشتات متباعدة ، متناثرة ، وعلى جانب كبير من البربرية ، أقله في مطلع أمرها ، والنازعة الى الوحدة عن طريق نشر وتعميم ثقافة واحدة ، مؤتلفة ، هي أعلى وأمثل ما عرفه الانسان او ما حلم به عبر التاريخ حتى الآن ، وهذا الايمان الذي اعتلج في صدور الجميع بأن هذا العمل كفيلاً بأن يؤمن الهيكل اللازم لهذه الوحدة السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية ، ويضفي عليها ما يلزم من زينة وحلية ، وهذا الحلم بالذات الذي راود خيال الاسكندر من قبل ، وأثار في وجهه معارضة معاونيه ومساعديه ، وسبب موته الباكر وعجل في اجهاض الفكرة قبل ان تلد وأدى بالتالي الى فشلها ، فهل من يشك بعد انه كان باستطاعة الامبراطورية الرومانية ان تخرج او ان تأتي بما هو دون ذلك ؟

٣ - العمل العقلي والادبي

هذه الازدواجية اللغوية تتلبس بها الامبراطورية الرومانية ، أفضت الى أدبين مختلفين لا بد من درسهما هنا ، على انفصال الواحد من الآخر ، غير ان الحياة العقلية والادبية لا تنطبق ، بالضرورة ، الواحدة منهما على الأخرى . هنالك مظاهر في النشاط الفكري او العقلي لا تؤثر ازدواجية اللغة فيها كثيراً على الوحدة ، في مجتمع كالمجتمع الروماني ، حيث اجادة اللغتين معاً ، أقله في

الغرب ، وعلى مستوى واحد ، لم يكن من الأمور النادرة قط . وهكذا يحسن بنا ان ننظر فيها دون ان نهتم بشيء بإداة التعبير اللغوي التي استعان بها من انقطع لمثل هذا العمل .

١ - انحطاط الروح العلمية

هذه الروح العلمية التي طلعت في الشرق المتوسطي، تجلت بزخم عارم، خلال العهد الهليني . ثم بلغت روما حيث وجدت من الظروف التي هيأتها لها الامبراطورية ، ما اتاح لها الانشاء وتوسيع الفتوحات التي حققتها في هذا المضمار . وتهيأت لهذه الروح العلمية اسباب جديدة اتاحت لها التوسع والافادة بما تم لها من هذا العلم المريض الذي امكن لها جمعه وتحصيله والتحكم به وضبطه . فانتشرت في البلاد دور للكتب ومكتبات ، وانشأت لها الادارة الحكومية دوراً للمحفوظات ، وادوات للبحث والتقصي ، بحيث استطاع البعض الوصول الى هذه الذخائر الفكرية والاطلاع على ما فيها من اسرار مكنونة . والعالم المعروف اذ ذاك ، والذي امكن قياسه واستثمار موارده ، اخذ هو الآخر ، في الامتداد والتوسع ، بعد ان توفر له ، بنسبة أكبر بكثير ، فريق من حملة العلم ، تم لهم اوقات الفراغ ، ومن الوظيفة التي كانوا يشغلونها ، ما حملهم على الرحلة والطواف في ربوعه ومجالاته شرقاً وغرباً . وهذا العالم الذي تعددت منه المناظر وتنوعت بين طبيعية ، ومناخية ، وحيوان ونبات وعروق بشرية ، تهيأت له اسباب المواصلات ويسرت بينه وبين اقطار متنوعة واقعة الى ما وراء حدوده المتناهية . ومختصر القول فقد توفر كل ما يساعد ذوي العقول المعطش الى مناهل المعرفة وحياض العلم ، الافادة من امكانات لا حد لها ولا حصر ، معظمها جديد مستعده ، باستطاعة جميع العلوم والفنون ان تفيد منها الى أقصى حد . وهذه الروح الواقعية التي عرفها الرومان وأخذوا بها على نطاق واسع ، كان بإمكانها ان تسخر العقل اليوناني المنطقي الذي انساح في هذه النظريات والتجريدات الفلسفية وهام فيها ، فينصرف بدوره يعلم الرومان كيف يملكون شؤون هذا الكون ويحللونها على وجه يبين ما بينها من ترابط وانسجام . ويحلوا للمشكلة ان يمس بالفكر فينطلق مع الخيال الجموح ليتصور ما عسى ان يكون تمّ او خرج من اشخاص كأرسطو واپراتستينس لو عاشا مثلاً ، في القرن الثاني للميلاد .

فلم يكن لأحد منها قرن او مناقس . فقد ظهرت بوادر انحطاط الروح العلمية التي ما لبثت ان اشتدت وازدادت باستمرار . صحيح ان الكفاءات لم تغب قط ولا القدرة على العمل ، ولا هذه الروح العلمية الطليعة . كنا نرى ، كما في السابق ، عقولاً تهتم بكل ألوان المعرفة البشرية وتطمح في ان يتم لها علم موسوعي ، دائري ، في كل شيء . وباستثناء بعض حالات ، فادارة للغاية ، فما من احد يطلع بعمل جدي أصيل في أي قطاع من قطاعات العلم . فالمصر الذهبي للروح العلمية التي تجلت قديماً انقضى وذهب دونما رجعة ، وكذلك عصر البحث العلمي والتجريبي عن أسرار العلم الباقية . كل ذلك ذهب وذهب معه هذا الاندفاع ، وهذه الحماسة ، وغابت عن

الوجود الروح المجددة في اهدافها ووسائلها ونتائجها وقطوفها ، ويبدو لكل عين باصرة ان الشجاعة العقلية قد زالت ، أقله من حيث ترضى بالخضوع لقواعد العقل والمنطق . فها هي الاجيال الوسطى ، بقضتها وقضيضها ، تطل علينا ولو من بعيد .

والذي يهمننا من الأمر الآن ، وفي هذا الوقت بالذات ، هاتان النزعتان التي سبق للعالم الهليني ان عرفها من قبل وأخذ يتربص بها أكثر فأكثر ، فيما بعد ، إلا انه استطاع التغلب عليهما بشخص أكبر رجاله ومثليه . فبدلاً من ان ينصرفوا نحو الواقع ويخضعوا له اتجهوا كلياً نحو الكتب يجمعون منها ما رأوا فيه خير ما يُمثّل علوم الاقدمين او توهموا انه يجمع ما سجلوه او رأوه . هذا هو عهد « الموسوعات » بالذات . فما من احد يحجل منافع هذه الجماهير التي لا تخلو من ان تعطل التفكير اذا ما اقتصر المرء عليها . قدّم لنا عهد الامبراطورية المتأخر أمثلة من هذه الموسوعات التي بقيت غذاء للعقل البشري حتى اواخر القرن الخامس عشر . وقد أسأروا من جهة ثانية ، استعمال الفلسفة ولا سيما هذه النظريات الفلسفية التي تثير الشك والريبة ، اذ انقطعوا لكل ما يثير العجب والغرابة ، او يشجع على الرمزية التي كثيراً ما آذت الجهود العقلية ، ان لم تكن حوصلته عن غايته . فاذا ما كانت هذه النزعة التي اعتبرت بديلاً عن الروح العلمية لا تقبل كفة الميزان ، فهي ، مع ذلك لا تلين إلا لاعتبارات اخلاقية ، او ادبية لم تكن لتشجع قط على تحصيل العلوم ولا على تبسيطها .

ومها يكن ، فان لم 'نفسر بعد أمام القطيعة التامة ، فنحن أمام بوادر فقدان الاهتمام التام تدريجياً بالروح العلمية واصبحنا بالتالي أمام نهاية الحركة العلمية التي ميزت العهد الماضي وطبعته . وكما تمنى لو نستطيع الكشف عن الطريقة التي اتبعها هذا التطور ، والغاية التي هدف اليها . فهي بالطبع تتصل بمجاذب لمسانها وأثرنا اليها من قبل : ضغط العقائد الدينية الاكثر رمزية والاشد إثارة للعواطف ، واحترام مآتي الماضي وانجازاته حتى حدود التعصب والعبادة ، والشغف بالعلوم اللسانية والبيانية كالخطابة والبلاغة والفصاحة والاستمساك بالمحسنات اللفظية . ولكن هذه الأمور نفسها لا تلين كثيراً للدرس والبحث والتحليل ولا تقع تحت الموضع . فالتيارات التي تتجاذب الافكار والعقول بين كر وفر ، واقبال وادبار ، تبقى دوماً بمنأى عن البحث لانها غامضة ، خفية ، سرية .

سعة الاطلاع المحصرت في تجميع المعلومات وحشدها من بين الكتب ، الاستبحار العلمي والتخصص
وبذلك تتنكر من ذاتها قبل ان تختفي لمطلب المعرفة الحق دون ان تقيم وزناً للاسناد العلمي والمرجع الاصيل وكلها امور تولى المصدر العلمي القوة والحياة .

وهذه الحركة نعمت ببعض الاهمية في مطلع الامبراطورية وظهرت في كثير من المجالات الفكرية على اختلافها ، وتغلغلت بين مناهج علماء اليونان وفي هذا التوافق بين الفيلولوجيا وعلم الاركيولوجيا . وعلى هذه المناهج بالذات ، سار في روما : فارون من معاصري قيصر ،

واللغوي ويروس فلاكوس ، احد النحاة المشهورين في عهد اوغسطس . وقد طبقا طريقتها هذه والجهود التي قاما بها في هذا الصدد ، على اللغة اللاتينية وعلى تاريخ روما ، وبذلك قاما بعمل مجيد . وقد صدر بروبيرس واوفيد عن المؤلفات التي وضعها هذان الكاتبان ، وهي مؤلفات لم يعد يوجد منها شيء اليوم ، واليهما يعزى الفضل في معرفة ما اصطلح عليه الرومان قديماً في امور اللغة والقضاء والدين بفضل الاقتباسات التي أخذت من هذه الكتب .

فالكاتب اليونان الذين سكنوا روما لمدد طويلة ، في عهد اوغسطس ، وألفوا فيها ، هم كتاب من المستوى الواطي ، بينهم سترابون الذي جاء من مقاطعة اماسيا في الشمال من آسيا الصغرى . فقد كان مؤرخاً وجغرافياً وترك لنا مذكرات تاريخية لم يصلنا منها شيء ، ومزج في كتابته بين التاريخ والجغرافيا ، الا ان بحثه عن التاريخ القديم بقي موجزاً مقتضباً . ومنهم كذلك ذيوذوروس الصقلي الذي وضع كتاباً بعنوان : المكتبة التاريخية *Bibliothèque historique* ، وهو تاريخ عام ، واسع الهدف بعيد المرمى ، اذ انه تناول التاريخ القديم الى فتح غالبا على يد يوليوس قيصر . وما تبقى من تاريخه هذا لا يفيد مؤرخي العصر الا بنسبة ما يفتقرون اليه من مصادر تخلو من النقد التاريخي والأفكار البناءة . ومنهم ايضا دنيسيوس الهاليكرناسي وهو معلم للبيان والفصاحة ، تنقصة دقة النظر ، والناظرة اللاقطة في هذه المؤلفات التي وضعها حول النقد الادبي ، بينا حشا كتابه : « التاريخ الروماني » خطباً مملّة ، جوفاء .

ومع ذلك ، فقد عرف ان يحافظ هؤلاء الكتاب اليونان ، على شيء من هذا التفوق الذي تحلى به الكاتب الاسكندرانيون ، وعلى حبهم للعلم وتعطشهم اليه ، وهي رغبة لم تلبث ان خمدت شعلتها سريعاً وانطفأت بعدهم بقليل . وفي منتصف القرن الاول نرى رئيس بلغاء العصر واستاذ البيان والفصاحة الاشهر اذ ذاك ، كونتليانوس يتمتع بسمعة ادبية طيبة لتمكنه من العلوم اللسانية ، كما انه امتاز بمقدرة على التعليم والتربية تستحق التنويه بها عالياً . إلا انه يحتاج الى فهم صحيح للتاريخ . فقد أمده تدرسه الطويل للبلاغة بمنهجية وأصول راح يطبقها على كل شيء . ونرى فرونتون ، في عهد الاميرة الانطونية ، يهيم بالكتاب القدامى اهتمام فنان يرغب في ان يجد في آثارهم ومخلفاتهم الكتابية ، الكلمات المات ، يتذوقها ويتدبرها كعلم حاذق للبيان ، دون ان يبالي قط في صوابية وجوه استعمالها ومدلولها وتمييزها ، عن الواقع الانساني ، مادياً كان ام ادبياً .

وهذا الاستاذ المتكلف الصناعة اللفظية والمتحذلق في الاسلوب ، كان بدوره استاذاً لأولوجيل *Aulu - Gelle* الذي أعجب كثيراً ، باستاذة ، ومع ذلك تنكب عن خطاه ، ولم يحفل ، على شاكلته ، بالبهرج اللفظي الخارجي ، وعرف ان يعود يحنس عقلي ، وغذاء ادبي ، أكثر تركيزاً . فقد عاش هذا الكاتب الروماني على مقربة من اثنينا ، وهذا ما حمله على تسمية كتاب له : « الليالي الاتيكية » *Nuits Attiques* وهو عبارة عن مجموعة له من الامسيات واحاديث السمر ادارها بين نخبة مصطفاه من الخللان المشهود لهم بذراية اللسان ، وبغيرتهم

الشديدة على الثقافة العالية ، وقد قرأ كثيراً وقيد الكثير من الاوابد والشوارد . قام بهذا كله كذواقة ، انتجع خير الجماهير الادبية ومختارات القطوف والمنتقيات الماثورة ، فتدبرها بنظر صائب ، ورأي ثاقب ، وشرحها بعد معارضتها ، وعرضها على محك النقد . وقد تناول في إبحائه الصرف والنحو والنقد الادبي ، والنظم السياسية والتاريخ . كل ذلك بعناية وتدبر وتفهم في طول أناة وجلد . فاذا ما رأيناه يوسّع من مطالعته وينوّع بينها ويغوص مستبحراً فليس حباً منه أصلاً ، بهذا الايغال ، ولا اخذاً منه بنهج العصر ، ولكن اشباعاً لفضوله العلمي ولزغته التشككية . فنحن مدينون له كثيراً بمعرفة الشيء الكثير من تاريخ الرومان بعد ان عرف ان ينقل البنا الكثير من النصوص المهمة لعدد محترم من كبار حملة الادب اللاتيني في ذلك العصر ، وهكذا تمكن من صيانتها . فلو قدر له وجاء قبل زمانه ببضعة قرون وان يسير على منهجية بعض الكتاب اذ ذاك ، ويتمتع على شاكلتهم ، بروح الانضباط التي كانت صانته عن الخوض في هذه الموضوعات وتعرض لها في بحثه أكثر من مرة ، كما لو عرف ان يفيد من هذه المصادر الوفيرة التي كانت تحت تصرفه وتناوله ، لأمكن ان يكون ، بالنسبة لما تجلّى به من قدرة وكياسة وطلاوة صانته عن الادعاء والاعتداد ، مساوياً لأكبر العلماء الذين عرفهم التاريخ القديم ، بعد ان تمّ له ما تم لهم من رجحان العقل وتفهم للواقع .

وهذه الكياسة الادبية افتقر اليها معاصره الكاتب الفريجي بوزانياس كما افتقر الى صفات اخرى صاحب الكتاب الموسوم : « وصف اليونان » . وهذا الكتاب وصف لليونان ، مقاطعة مقاطعة ، ومدينة مدينة ؛ فذكر لنا ووصف بالتدقيق والتفصيل النادرين ، المباني والمؤسسات القائمة فيها بعد ان زارها في الرحلة الطويلة التي قام بها . وكثيراً ما لقب المؤرخون هذا الرحالة بـ « الدليل » *Péripète* ، او بالوصاف . ويمكن مقارنة كتابه هذا بكتب الأدلة التي يحملها معهم السواح في هذا العصر ، إلا ان دليله يبدو جافاً ، مهما تجلّى بالوضوح . كذلك يفتقر للنظرة الناقدة الممعة البعيدة ، إلا انه معين لا ينضب لعالم الآثار وللإختصاصي بأمور الطقوس الدينية . فقد قام ، من هذه الناحية بعمل غاية في المتعة والافادة ، وذلك في عهد قدرت الأقدار ان تتوفر له الناذج الطيبة ، والوسائل المسعفة للبحث العلمي ، فبرز نموذجاً للعالم الجليح ، هذا النموذج الذي كان في سبيله الى الزوال ، فلم يُلهم عمله هذا ، احداً ليطلع لنا أدلة من هذا النوع في بلدان اخرى .

لم يكن حظ الجغرافيا بأفضل من غيرها من هذه العلوم الانسانية . معرفة العالم والنظام الكوني كان لا بدّ لها بوصفها علماً بأصول من دقة ملاحظة ، بعد ان عجز العلم اذ ذاك عن ان يسجل أي تقدم في العلوم الرياضية وعلم الفلك . وباعتبارها علماً يقوم على الوصف فقد رأت تحت تصرفها تسهيلات عظيمة . فلأول مرة في التاريخ القديم نرى الدولة تُعنى رسمياً بهذا العلم ، منذ ان طلع علينا العهد الامبراطوري . فقد عهد اوغسطس الى صهره أغريبّا ان يرسم على احد جدران الرواق المعروف برواق أغريبّا ، خريطة كبيرة للعالم ، مات قبل ان

يفرغ من رسمها فأكملت بعد وفاته . ولم يصلنا عملياً شيء من هذا قط . فهذا الرسم كما بدا سواداً على بياض لم يتصف بالدقة ، وذلك للفرق القائم بين طول الجدار وعرضه . غير ان النص الذي امر اوغسطس بنشره إثر وفاة أغريبّا - وهو نص قام على احصاءات ومقاييس رسمية - ضم ولا شك كثيراً من المعلومات المفيدة . وهذا مثال جديد آخر من عدة أمثلة ، تدل كلها على ما توفر من الظروف المؤاتية الجديدة التي كان من شأنها ان توسع معلوماتنا الصحيحة حول الأرض . وهذا النجاح لم يحصل او يتم بالقدر المرجو . فلم يقم سترابون بأي جهد شخصي ملحوظ لاستكمال معلوماته المقصورة على الكتب ليتجاوزها الى ما هو احسن واكمل ، اذ كان همه الاكبر ان يضع لنا كشفاً او ثبثاً دقيقاً للسفن الهوميرية ، كما رأى ان لا فائدة من ان يتخطى في رحلته إيطاليا الى الغرب والتعرف الى معامله . من الممكن كما انه من المؤسف جداً من جهة اخرى ان نضع قائمة طويلة بهذه الاغلاط التي وقع فيها كثيرون كانوا في وضع يسمح لهم ان يجمعوا معه معلومات هامة . فالملك يوبا الثاني ملك موريتانيا ، ومن نصراء العلم في عهده ، توم النيل ينبع من ضواحي المحيط الاطلسي ثم يغور تحت الأرض في اتجاه الشرق ، ليظهر ، من وقت الى آخر ، في بعض معامله ، في بحيرات الشط وغدرانه . وفي اواسط القرن الاول ، راح الجغرافي الاسباني ببونيوس ميلا ، وهو من المتخصصين بعلم الجغرافيا ، اذ ذاك ، يسلم ويعتقد بهذه الخزعبلات والتلفيقات التي يرددونها حول المنقاء ، والنساء المسترجلات ، وغير ذلك من الغرائب والكائنات العجيبة . كذلك كان يرى علاقة بين نهر الدانوب والبحر الادرياتيكي . وفي هذا العصر بالذات ، كان بلين الاكبر ينظر الى بحر قزوين ، خليجاً من هذه الخلجان التي يرسمها الاوقيانوس المحيط بالأرض ، ولم يخامر من جهة ثانية ، اي شك بان اوروبا اكبر بكثير من افريقيا وآسيا .

فالتقدم الصحيح الذي امكن تحقيقه على نطاق ضيق في علم الجغرافيا تناول هذه المناطق التي اخذ بارتياحها بحارة متاجرون . ففي القرن الاول استطاع المؤلف المجهول للكتاب الموسوم : « رحلة حول البحر الاريثري » (اي البحر الاحمر) ان يمدنا بمعلومات جديدة طريفة تتعلق بسواحل الهند حتى وبسواحل الصين الجنوبية . كذلك نرى كثيرين يضعون رحلات يصفون فيها أسفارهم وتقلاتهم في البحر الاسود ، منها « رحلات الى البحر الأسود » . وقد برهن اريانوس الذي كان حاكماً لولاية قبادوقيا في عهد الامبراطور هدرانوس ، عن اهتمامه الكبير بمقاطعة القوقاس . هذه وما اليها احداث فردية طارئة ، ولا نرى قط اريانوس نفسه الذي كتب عن الهند ، قد افاد كثيراً من المعلومات المستحدثة التي كانت في متناوله . فبعد ان كانت الروح العلمية على اشدها في العصر الهليني نرى هذه الروح التي كانت تشرئب بانظارها الى المجهول تحاول الكشف عنه ، لم تعد لكسهد العلماء ، ولا لتثورق المثقفين ، ولا تراود خواطرم . فلم نعد نشهد رحلات كبيرة بعيدة يهدف القائمون بها للكشف الجغرافي الواسع . وبالرغم من الطرقات الجديدة العريضة التي امكن شقها ، والاسفار البحرية المتواترة التي حصلت ، نرى هؤلاء الجغرافيين يقعون في اغلاط سمجة ، ويترفون هفوات لا تغتنر لهم عندما يريدون تحديد المسافات والاتجاهات . فما عاد الانسان ليكثر كثيراً ، ولا ليهتم بامه الأرض : موطنه ودار سكناه .

ففي ظروف وأحوال كالتى ذكرنا ، ليس من العجب قط ألا يتقدم البحث العلمي ، وألا يسجل أية خطوة ملموسة الى الامام . لم يعد لدينا شيء يذكر من آثار مارينوس الصوري ، احد حلة العلم في القرن الثاني . ولعل أكبر علماء هذه الحقبة وأسيرهم ذكراً واسماً هو معاصره بطليموس الذي رأى النور في مدينة بتولميس في صعيد مصر ، وعاش على مقربة من مدينة الاسكندرية . كان اختصاصياً بالرياضيات وعلم الفلك ، فوضع في هذا المجال كتابه الخالد : « المجسطي » حول نظام النجوم وعلم الفلك ، وبقي كتابه هذا معمولاً به طوال الأجيال الوسطى حتى وبعد هذا العهد . و « المجسطي » كلمة منحوتة من اداة التعريف العربية الى ، ومن الكلمة اليونانية *Megistos* ومعناها « العظيم » . والحق يقال ان هذا النجاح النسبي يحققه بطليموس منحول ، غتلس ، لأن بحثه هذا كثيره من الابحاث الاخرى التي وضعها هذا المؤلف ، عول بالاكتر على ما تقدم من العلماء الهلنيين دون ان يعتمد على مجهود او تحصيل شخصي . فقد أقصر عمله على نقل المبادئ والنظريات التي علم بها وعمل هيبارخوس ، كما انه أهمل الأخذ بالنظرية التي قال بها وعلم ارستارخوس الساموسي التي جعلت من الشمس او من النظام الشمسي محور الكون ، كما ردل ، باعتبارها مضادة للعقل ، نظرية دوران الكرة الارضية على محورها عند قطبيها .

اما جغرافيا بطليموس فلا تستحق ان يطلق عليها هذا الاسم لأن غرضها الاول هو كيفية رسم الخرائط . فالمعلومات التي تتعلق بمادات الشعوب وأخلاقهم ، وبالحاصلات الطبيعية لا يأتي على ذكرها إلا بالعرض ، ولما . فبعد ان تناول بالبحث التوائى الطبيعية نراه يضع منطقة بعد منطقة ، قوائم بأسماء الجبال القائمة فيها ، وأسماء الانهر ، والشعوب والمدن ، ويحاول ان يحدد او ان يشير ، بكثير من الدقة ، إجمالاً الى خطوط الطول والعرض . ف هذه الجغرافيا ليست سوى جريدة أسماء ومسميات حاول صاحبها ان يكسوها ما يزينها فأضاف اليها بعض المعلومات والمعطيات الجغرافية . جمع فيها ، بعد جهد مبرور من المقارنات والتصويبات ، كل ما استطاع علماء عصره جمعه من معلومات . وما كان أسرع ما يتسرب الغلط على يد النساخ الذين تعاوروا على نسخ هذا الكتاب ، الى هذه القوائم الطويلة من المسميات الجغرافية ، الأمر الذي أثار جدلاً ونقاشاً بين علماء هذا العصر حول الشكل الصحيح الذي أورده بطليموس ، لم يخفت صوته به ، حول شكل اوروبا الشمالية وافريقيا ، والشرق الاوسط . ومها يكن ، فهب ان هذا الكتاب لم يخرج عن كونه كشفاً دقيقاً وليس بعمل أصيل ، ومها شابه من نقص او شكاً من فراغ . فلقد لعب ، مع ذلك ، في التاريخ ، دوراً كبيراً .

ومها بدا بطليموس صغيراً ، اذا ما قارناه بكبار الجغرافيين في العالم القديم ، فهو يمثل مع ذلك ، آخر حلقة من كبار العلماء الذين اطلعهم التاريخ القديم . وهو الذي اوجزت واختصرت مؤلفاته لمدة قرون متتالية ، وسلمت للأجيال التالية ، النتائج التي أدى اليها البحث العلمي في هذه المجالات . فالترجمات العربية واللاتينية التي عرفت ان تؤمنها الأجيال الوسطى لهذه الكتب ، اعتبرت كحقائق مقررة ، ثابتة المعطيات التي فيها حول علم الفلك والجغرافي ، مع

كثرة الاغلاط التي انزلت اليها في كتابه الآخر . فاذا كان مارينوس استطاع ان يحصي ، بين جزر الخالدات *Iles Canaries* والصين الجنوبية ٢٢٥ درجة من خطوط الطول ، فقد احصى منها بطليموس ١٨٠ درجة أي نصف خطوط الطول في الكرة الارضية ، وليس الثلث . فاذا ما استطاع رحالة الاجيال الوسطى ، ان يحسنوا معلوماتهم حول الصين واضطروا ان يدوا خريطتها اكثر نحو الشرق ، فقد لاح الأمل الذي حدا بكريستوف كولومبوس للقيام بمغامراته الجغرافية .

التاريخ الطبيعي وعلمه
ليس ما يستحق الذكر في العلوم الرياضية . فالرصد العلمي للنجوم كان أهمل أمره واستعاضوا عنه بهذه الحدسيات والافتراضات المحتملة الوقوع التي انصرفت اليها النجامة ، وعليها اقبل في عهد اوكستس واليهما انقطع ، الروماني مانيليوس الذي وضع ارجوزة شعرية في النجوم وعلمها ، اسمها : « علم الفلك » . أما العلوم الرياضية الأخرى ، فقد اقتصر على اجترار ما سبق للعلم ان حققه من قبل ، وبقي العمل به محصوراً ضمن محافل خاصة ، في أثينا أو في الاسكندرية .

وعلى عكس ذلك ، انصرف الاهتمام اكثر فأكثر نحو الظواهر الطبيعية ، وبرز للأنظار في مجالات التاريخ الطبيعي شخصيتان ، هما : سنيكا وبلين الأكبر ، وان كانت آثارهما العلمية ذات قيمة ضعيفة .

فاذا لم يتعرض سنيكا للعلوم إلا ليأما ، من خلال بعض آثاره العلمية ولا سيما الأدبية منها ، فباحثه في « العلوم الطبيعية » وهي التي وصلت اليها من بين مؤلفاته العلمية ، تعطي الدليل على سعة المعلومات التي تمت له ، وعلى تنوعها ، ان لم تدل على الهواجس العلمية التي جاشت في صدره . فهو لم يعالج هذه الموضوعات ، بما تستحق من استعداد فكري وتهيئة سابقة . واذ كان يفتقر ، أساساً ، للاستبحار في العلم ويهزأ بفكرة البحث عن اصل بعض أسماء الاعلام الرومانية ويتساءل من ظهر قبل الآخر : الإلياذة او الاوديسة ، فقد كانت تنقصه اصلاً الروح العلمية . فقد كان فيلسوفاً ، وأكثر من ذلك ، عالماً اخلاقياً . وبالفعل ، نراه في أبحاثه عن العلوم الطبيعية يستطرد كلما سنحت له الفرصة لبحث القضايا الأدبية التي فيها موعظة للناس ، ويشجب بشدة ، الذوق المترف بمناسبة التحدث عن المرايا ، او هواية الاسفار عندما يتحدث عن هب الأرياح . ومع ذلك ، فقد برهن عن نظرة صافية ورأي صائب عندما يأخذ بتقويم النظريات المتضادة او المتعاندات . وقد استطاع بما أوتي من نفاذ البصيرة ان يأتي بنظريات تقرب من التنبؤ ، عندما استشعر التقدم العظيم الذي سيحققه العلم في المستقبل . إلا انه توقف عند طائفة من الحوادث والوقائع ، ناقصة وغير متناسقة ، التي تم للعلم اليوناني درسها دون ان يزيد عليها شيئاً يذكر من ملاحظاته الشخصية .

ومع ذلك فقد كانت بحوثه العلمية خطوة كبرى لدى علماء الاجيال الوسطى .

ولم يتم ، من جهة ثانية ، لبلين الاكبر ، ما تمّ لسنيكا من قوة الفهم وتوقّد الذهن وصدق النظر . إلا ان ما عُرف عنه من نشاط حمله على بذل الجهود في جمع ما أمكن له جمعه من المعلومات ، اّبان خدمته في الجيش الروماني ضابطاً ، ثم أثناء عمله في الادارة ، واخذ فيها يرقى سلم الدرجات الادارية حتى عُيّن أميراً للبحر . ومن آثاره الفكرية الكثيرة - وهي عديدة



الشكل ١٣ - خطوط الطول عند بطليموس

- أ و ب - التخموم التي يسميها بطليموس « الاراضي المجهولة » يصعب جداً تحقيق مواقع المدن التي يذكر اسماءها وهي كينفار ، وتبنيه ، وسيرا .
 ت - من الفرات الى تشخورغان (برج الحجر) في مقاطعة سريكول الى بلير ، ٦٠ درجة (٣٤ درجة)
 ث - من البحر المتوسط الى الفرات درجتان ونصف .
 ج - من الجزر الخالدات (كتاري) الى جبل طارق ١٧/٢ درجات ، والحقيقة ١٢ ونصف .
 ح - البحر المتوسط ٦٢ درجة (٤٢ درجة)

متنوعة تناول فيها القضايا الحربية والتاريخ الطبيعي والاجرومية - لم يبق سوى ٣٧ رسالة من كتابه « التاريخ الطبيعي » *Histoire naturelle* وهو كتاب ضخم وحصيلته جهد موصول من المطالعات ، جمع المعلومات التي أفاد منها ، على عدد كبير من الجزازات او البطاقات برؤوس الموضوعات ، وضعه في اوقات فراغه . ويحكى عنه انه كان يطالع وهو الى مائدة الطعام ، وفي الحمام . وعالج بذهن يقظ متفتح كل الموضوعات : من الجغرافيا ، الى الفنون الجميلة ، الى علم النبات ، الى علم الحيوان ، فعلم المعادن ، والمؤسف من هذا كله ، هو جعل هذا العطش الى المعرفة مشدوداً الى المطالعة المادية ، أي مربوطاً بالكتاب او المطالعة الحرفية ، دون ان يكثر او ان يهتم بما وراء الحادث والواقع المميز ، لا نلصق عنده أية نظرة ناقدة ، مفلسفة ، معلة ، إلا ما ندر ، وان فعل ، فبتزداد كلي وبشيء من الوَجَل . وقلما رأينا الشك يخامرهم او ان يستنكر لما كتبه عن الرثخ ، وعن المنقاء ، وغير ذلك مما أثبتته من الحرافات المحكية ، والأساطير المتناقلة . وهو يؤكد

في معرض حديثه عن التَّمُّ أو الازور العراقي الذي يغتني وهو مختصر ، بأنه لم يتفق له قط ان سمعه . وفي هذا ما فيه من تقويته الفرص للتقصي عن الحقيقة العلمية ، فقد تبنتى ، دون ان يختلج له طرف عين ، هذه الخرافات المضحكة المبكية حول ساحر يعسُّ ليلًا ويطوف متنكرًا بهيئة ذئب ، وخلاف ذلك من احاديث أدارها على حيوانات اسطورية . ان ما عُرف به من سرعة التصديق المفرطة ، أضرَّ كثيرًا بعمله العلمي ، وأساء اليه كثيرًا بحيث نرى فيه ، جنبًا الى جنب ، الحسيس والممتاز . إلا انه لا يجوز للمرء ، من جهة اخرى ، ان يمر مرور الكرام ، بما تقع عليه العين ، الفينة بعد الفينة ، من قوة الفراسة ، وصدق الملاحظة التي لا يمكن ان يتصف بها كاتب بين بين ، حيث تطلع علينا ، من وقت لآخر ، شطحات فيلسوف من المذهب ، شديد التشاؤم بما يشاهد من بؤس البشرية وتعاستها . كذلك ، يجب ألا يغيب عن ذهن القارئ قط ان هذا الكاتب ، يجب ان يلام لحصر البحث عن الحقيقة والتحري عنها في الكتب . فقد قضى حياته في خدمة العلم وجمع المعلومات ، وتصييدها وطلبها أينما تجلّت له . فبدلاً من ان ينبج بنفسه من الخطر المائل امامه والذي يتهده به موت زؤام ، اذخف مسرعاً ليشاهد عن كثب ثورة الفيزوف الكبرى ، عام ٧٩ للميلاد ، فكان احد ضحايا العلم ، وهلك في عداد من هلكوا في هذه الكارثة الرهيبة .

اشتهر اهتمام الناس دوماً بالطب وبالاطباء . فليس من عجب ، بعد هذا ، ان يزداد الطب عددهم في كل مكان وينمو بعد ان حرصت كل مدينة على ان يكون لها ، على الاقل طبيب واحد ، فدرّت هذه المهنة على اصحابها الكسب الوافر وتم لبعضهم ثروات طائلة . وقد عرف الطب ان يسجل تقدماً محسوساً في هذه الحقبة ، فأدخلت على الجراحة وادوات الكحالة تحسينات جمة ، وتوصل الاطباء لاجراء عملية الساذة (الماء الازرق) في العين ، كما امكن تسجيل بعض التقدم في جراحة التجميل لبعض اعضاء الجسم كالأنف مثلاً ، وتوصلوا الى اكتشاف بعض المخدرات الموضعية . وليس بغريب قط ان نرى نطس الاطباء المتخصصين بأمراض العين والاذن ، والاسنان وغير ذلك ، كما رأينا ، من جهة اخرى ، نساء يتعاطين مهنة القبالة . واتضعت للعيان بعض الطرق العلاجية التي استنبطوها ، كالاستشماش او التطبيب بالتعرض لأشعة الشمس مثلاً ، والسكنى في المناطق الجافة الهواء للمصابين بالامراض الصدرية . كذلك وصفوا لبعض الأمراض العصبية المعالجة بالمياه المعدنية وراحوا في هذا السبيل يحصون ما يصلح منها للاستعمال .

فاذا ما راح علم الاقرباذين يدرس ويتبحر بخصائص بعض النباتات الطبية فما زلنا نرى بعض الاطباء يصفون زرق الحمام وبول الحمير للعلاج ، وقرن الأيل بعد حرقه . وعلى اثر توافد الاطباء الدخاليين والعقائد المتناقضة من الأقطار الشرقية ، لم يكن من النادر قط ان يلجأ البعض لطرق التعزيم والسحر والرقية ، في الطبابة واللجوء الى وسائل المنجمين . فكم من طبيب ، مثلاً رفض المباشرة بمعاينة مريض ما ، الا بعد ان يستطلع مواقع النجوم وطُلِع الابراج ، ومواقعها في مداراتها ، وتوافقها في المكان والزمان . فالبشرية المتعذبة ، راحت تنبسط رجاءها في هذا العصر وتتطلع ،

أكثر من أي وقت آخر ، نحو القوى الفائقة الطبيعة التي تتحكم بمصائر البشر ، ويبيدها الخلاص والنجاة وتشرف على توزيع الحظوظ .

كل هذه النجاحات والتطورات التقنية التي حققها الطب ، انما تمت عن طريق التجربة والاختبار ، ولم تأت نتيجة منطقية لمبادئ علمية . فقد اقتصر الطب باعتباره علماً باصول ، على التقيد بالفتوحات العملية التي أمكن لأطباء الاغريق تسجيلها ، من بعد ان تهيب إلحاق بهم في هذا المضمار . فلم يكن ليجرؤ احد على الظن ، بالرغم من التجارب والاختبارات الهلينية ، بان الاوردة الدموية تصلح لغير نقل الهواء . ففي عهد طيباريوس ، وضع سلس Celse موسوعة تناول فيها تناول من علوم : البيان والبلاغة والزراعة وفن الحرب ، والحقوق ، كما افرد للطب في زمانه بحثاً مستفيضاً ممتاز بالدقة والجزالة ووضح ان هذا العلم لا يخرج ، في عصره ، عما كان عليه في العصور السالفة ، باستثناء بعض ذرائع وطرق جديدة أتبع في العمليات وفي منتصف القرن الثاني للميلاد توصل الطبيب اليوناني جالينوس البرغامي الى ان يستنبط بعض الموصفات الطبية التي لقيت نجاحاً واطلقت شهرته بعيداً في الارض ، بحيث اصبح الطبيب الحصاص لاوآخر اباطرة الاسرة الانطونية . من المسير جداً ان يتمكن المرء من تبيان الاشياء العملية الجديدة التي ابتكرها . فقد كتب كثيراً ووضع تأليف امتازات بالانسجام بين علم التشريح والنظريات الطبية والطرق العملية التي اختلفوا نظراً حولها وتباينوا رأياً فيها . فقد كان يعترف عنه من نبوغ طبي واختصاص ، شأنه في ذلك شأن بطليموس ، آخر عالم أطلعت العصور القديمة . وعلى شاكلة بطليموس ، حالفة الحظ بان ينقل الى الاجيال الوسطى ، عن طريق المؤلفات التي وضعها بعد ان امن لها ما أمكن من إتساق وانسجام ، هذه الكشوف والابتكارات العملية التي امكن تحقيقها بفضل ما بذله من جهود طائلة وتقصيات لا تنقطع ، فريقت من العلماء ظمئت نفوسهم الى المعرفة وجاشت صدورهم بحب الاطلاع ، وهفت عقولهم الى العلم ، فهبطوا موارده في الاجيال السالفة بروح طليعة لم تهتم ان خبت شعلتها وكن نشاطها .

الحقوق يتضح من خلال الاستعراض العام للنشاط العقلي والفكري في شتى مجالاته ، الدور المتواضع الذي لعبه الكتبة اللاتين في هذا الميدان . فقد حرص الشرق الاغريقي ان يحتفظ لنفسه بالسبق الذي سجله على الغرب ، في هذا المضمار . فالدور الذي قام به هؤلاء الكتاب يبرز على اتمه اذا ما أمعنا النظر في بعض العلوم التقنية . فعلم الفلاحة اللاتينية لا يزال مع فارون ومع زميله الاسباني كولوميل الذي جاء بعده بقليل ، عيلاً على الاساليب والطرائف الهلينية . فالهندسة المعمارية تزداد وضوحاً وواقعية في البحث الاصيل الذي وضعه فثرون حول هذا العلم ، والابحاث الاخرى التي وضعها فرونتون ، والمهندسون الآخرون . ولكن ليس من العدل بشيء ان نقصر على هذه الآثار وحدها حصيلة روما في هذا المجال . فقد استطاع ابناءؤها من ان يستبطنوا وان يبتكروا علماً قائماً بذاته .

والمقصود من هذا العلم هو الحقوق . فالطابع الفارق الذي يميز عمل روما في هذا المجال

ويؤثر لها مرتبة الصدارة هو استعمال اللغة اللاتينية ، دون سواها ، في معاهد ومدارس الحقوق التي فتحت ابوابها في الشرق ، امها على الاطلاق واشهرها طراً ، المدرسة التي طلعت في بيروت ، في مستهل القرن الثالث . ان استعمال اللاتينية دون سواها من اللغات المستعملة في الامبراطورية الرومانية ، كان لا بد منه ، في مختلف مراحل القضاء ودرجاته ، اذ ان اللاتينية كانت ، أكثر تهيؤاً من اليونانية ، وأكثر قابليةً منها للتعبير عن مفاهيم وافكار قامت في روما ، وفيها تحددت وتناسقت . وهذا الواقع لم يحل مع ذلك ، دون ان يردف الشرق العالم الروماني ويمده ، منذ منتصف القرن الثاني ، بمجمرة من اعلام الفقهاء والمتشرعين ، بينهم : غايوس ، دون ان يطبعوا الشرع الروماني بطابع الفلسفة . وقد صرف الأخير همه الى توسيع نطاق البحث العلمي في هذا المجال ، وعمل على تطبيق مناهج كانت روما اول من وضع أسسها .

وقد امتازت نخبة من رجال القانون باهتمامها الشديد بأمور القضاء ، والاقضية ، التي صدرت عن الحاكم في روما ، كما ان فريقاً منهم عرف بتضلعه العميق وباستبحاره في هذا العلم فاعتبروا بحق فقهاء *Jurisprudents* أي « حكام » متضلعين بالحق الروماني . وهذه الصفة كانوا يتقدمون بالنصح والارشاد ، ويفتون في الأمور القضائية التي تعرض عليهم فيتحدثت حولهم اساتذة وطلاب هذا العلم ورواده دون ان يحمل هؤلاء الاساتذة اية شهادة تخصص او دون ان يكون لهم أي عمل رسمي في الادارة الحكومية . وقد تألف من اجتهادات هؤلاء الفقهاء ، منذ عهد اوغسطس ، مدرستان عرفت الواحدة منها باسم رئيس كل منها ، هما : السابينيون والبروكوليانين . وعلمنا ان نقر هنا بأن ما كان يبعد اذ ذاك ، بين هذا وذاك ، من التيارين المذكورين لم نعد نرى بوضوح ما يبرره الآن . فاذا كان الفريق الاول منها تميز في الاساس ، بقبول النظام الاستبدادي ، أي الامبراطوري ، فلم يبق في القرن الثاني ما يبعد ، نظرياً ، بين الفريقين او التيارين المذكورين . وقد عهد الامبراطور هديرانوس الى تعيين البارزين من مشاهير هاتين المدرستين ، اعضاء في مجلس الامبراطور الخاص ، وكان يجعل من اتفاقهم رأياً واحداً حول موضوع معين ، قانوناً له حق الإلزام . وهكذا برز بوضوح الشأن الكبير الذي مثله من اصطلاحوا على وصفهم بالفقهاء *Jurisconsultes* ، كما برز ما لرأيهم من قيمة قانونية . وهذا الشأن تبلور عن عملية توحيد عامة للحقوق ، اذ نشر هديرانوس ما يُعرف عندهم بـ : القرار الدائم *L'Edit perpétuel* الذي حل محل القرارات التي بقيت منذ عهد سحيق ، بدون تبدل تقريباً ، والتي بموجبها كان القضاء يعلنون لدى مباشرتهم وظائفهم ، المبادئ التي يقضون بموجبها . كذلك برز التأثير في تهذيب الحقوق باضفاء العاطفة الانسانية عليها ، وما كان لهذه النزعة من شأن بعيد على التطوير الاجتماعي ، اذ ذاك . وفي الاساس من هذا التصرف المزدوج ، أطلت ظاهرياً مثال واحد انبعث من صميم تعاليم الفلسفة الرواقية ، الا وهو استواء الناس في خضوعهم جميعاً لقضاء واحد شامل .

وسيطرق اسماعنا خلال هذين القرنين اسماء عديدة من الفقهاء ورجال القانون واول من وصلنا من بينهم اثر هام ، هو غايوس احد معارضي مارك اوريل ، ممثلاً بكتابه المعروف *Institutes* . وما ان تميل شمس القرن الثاني للغروب حتى نرى من ألزم ميزات علم الحقوق : التحليل الاصولي ،

والدقة والعدالة والمنطق وبأخذ هذا العلم بالأزدهار. وهكذا 'يبيء' الجو ليشرق في سماء لبنان هذا الاشعاع الحقوقي الذي تمثل في عهد الامبراطور ساويروس ، خير تمثيل باسماء لمعوا عالياً في الفقه الروماني ، أمثال بابنيانوس وبولس واوليبيانوس . وحري بالتنويه هنا ان هذا العلم الذي هو من وضع روما، ومن هذه الأشياء التي حملتها معها الى الشرق بقي ناشطاً في هذه الحقبة . فساعة الموسوعات القانونية التي في الرجوع اليها غنى عن البحث والتقصي ، لم تدق بعد ، مع انها دقت ، منذ زمن بعيد ، لغيره من المجالات العلمية الاخرى .

٢ - الآداب اللاتينية

لا مشاحة قط ان الآداب اللاتينية اخذت تظهر عليها بوادر الانحطاط غداة عصر اوغسطس. فلم تعد تتسم بهذه الوحدة العميقة الجذور التي تألفت من هذا الاتزان بين العاطفة والعقل، ومن هذا التجانس والانسجام البديعين ، ولا من هذا الجرس الانساني النبرة والصدى ، في ما نقرأه لفرجيل ووتيت - ليف، من هذه الآثار الخالدة التي حفظت ذكرهما الى الابد. ولكن ايانا مع ذلك من ان ننبذ جانباً الآثار الخالدة التي خلفتها في هذه الحقبة . فاختلاف النزعات وتباينها ، والاهتمام الزائد بالشكل والمبنى وخفة الروح ، وتأثير الصياغة البيانية والمحسنات اللفظية من انواع المجاز والبديع ، كل هذا وما اليه ، يجب الا ينسينا بعض ما فيها من روائع جميلة ومقطوعات بديعة .

وهذه النجاحات تحقّقها الآداب اللاتينية هي، كالمألوف والمتعارف دوماً، افراد ، فنون ، مراحل انجازات افرادية نوعية . فقد تعددت مناحي العبقرية عند فريق منهم ، وعرفوا ان يبرزوا في اكثر من فن من الفنون الادبية . ولعل سنيكا هو خير مثل نضربه على ذلك ، اذ طلع علينا بأثار فلسفية وابعاث علمية ، كما وضع عدداً من المسرحيات ، ورسالة قذح ودم ضد كلوديوس . وتاسيت نفسه كان خطيباً ، مؤرخاً ، واثوغرافياً ، كما ان بلين الاصغر كان خطيباً مفوهاً ، وكاتب رسائل له شهرته . فقد رأينا بعض هذه الفنون يزدهر فجأة ويشع ثم تنطفئ شعلته ويخبو ضوءه ، كعلم الاخلاق ، مع سنيكا ، والشعر الملحمي مع لوقيين . وعلى عكس ذلك ، لا نجد شيئاً يذكر في الفنون الاخرى كالمسرح مثلاً ، بعد ان أهمل شأنه ، عقب ان حلت العاب المصارعة والالعاب الاوبرا التعبيرية محله ، بما فيها مسرحيات سنيكا ، التي وضعها لتقرأ ، وليس لتمثيل على المسرح .

وفوق هذا كله ، تطل علينا فكرة 'طور' ، او عهد ، وهي فكرة جديدة ، لا بد منها في مثل هذه الحقبة التي استطلت قرنين بكاملهما ، ألتفوا خلاها وكتبوا كثيراً ، ووصلنا من هذه الآثار الفكرية الشيء الكثير ، بالرغم من ضياع وفقدان جانب كبير منها . فسهولة التعبير التي تميزت بها ، لم تحل دون بقائها مبهمه ، غامضة ، فكانت بالتالي ، سبب ارتياب وتشكك للمؤرخين . ولعلها مع ذلك ، تبرز أقل غموضاً وتظهر بوضوح اكبر في تاريخ الادب . ولذا امكن قسمتها من هذه

الزاوية الى ثلاث مراحل او ثلاثة اطوار متباينة ، يتميز الواحد عن الآخر بوضوح .

فالطور الاول يتفق وعهد الاسرة اليوليو - كلودية ، وفيه بلغت الآداب اللاتينية الاوج ، لا سيما في عهد ملك كلوديوس ومطلع عهد نيرون . فيه برز سنيكا ولوقين ، وبترون وبيرس . وهذه الحقبة امتازت كتابها : برهافة الحس وتنوعه واتساعه ، ولو جاء ذلك على حساب قوة السبك والترابط المنطقي ، في هذا الفوران المزعج الذي أطل علينا من اختلاط الفنون بعضها ببعض ، وانطلاق النزعات السياسية نحو واقعية تفتقر حيناً ، عن جمال رائع ، وحياناً ، عن مظهر قاس متجهم ، قد يبرر وصفها بـ « الرومنطيقية » ، مهما كانت هذه النعوت التي طالما وصفوا بها الحركة الادبية في هذا الطور ، تقريبية ، وبالتالي مقصرة عن اداء التعبير .

ويلي هذا الطور ، طور ثان يمتد فوق اسرتين ، ويوازي عهد دومتيانوس وترايانوس ، فيه حلق كونتليانوس ومرتيال ، وجوفنال وتاسيت وبلين الاصغر . فالآداب تسبق النضج والتوازن السياسي اللذين ميزا الامبراطورية ، اذ ذاك . فهي تزهر وتزدهر بطولع كونتليانوس وتجليه ، وفي هذا الطور رجعة الادب الى العهد الكلاسيكي ، بعد ان تخفف وتحلل من هذه الطفح والزبد الذي لصق بالادب من قبل . فاذا ما ارتضت الحركة الادبية ، اذ ذاك ، ان تخضع نفسها للانضباط فقد عرفت مع ذلك ، الاتفقد شيئاً من طعمها الدسم ولا من الجرأة التي اتسمت بها .

وبالرغم من ان الامبراطورية بلغت الأوج سياسياً واجتماعياً في عهد الاسرة الانطونية ، فقد انتابت الادب ، اذ ذاك ، اعراض ذبول وتأخر . وأخلق الوجوه الادبية بالذكر والتنويه ، هي اسماء : سويتون ، وابولييه ، وترتليانوس ، وهم عدد ضئيل جداً لمعري ، لفترة امتدت اكثر من ٥٠ سنة ، مع العلم ان سويتون هو رجل ادب اكثر منه رجل فكر وعلم . فقد اضى ، هو وامثاله ، على هذه الحقبة ، مستوى علمياً رفيعاً ، مع العلم ان فضل الاثنين الآخرين يتصل بالادب الديني والتعبير عن المشاعر الدينية بصورة مغايرة للتعليم الرسمي . والظاهر ان الآداب اللاتينية لم يكن في مقدورها ان تتجدد الا بنسبة ما تنكر لروما وللفضائل التقليدية التي عرفت بها .

افراد وفنون واطوار : ثلاث نقاط رئيسية على مستوى واحد من الاهمية والقيمة ، في هذا العرض الذي نقوم به والذي يجعله صعباً معقداً ، ما بينها من اختلاف وتباعد وتنافر . لنختار واحدة منها ، هي الثانية ، وكلنا أسف ان يضطرنا الاختصار ، الى ترك النقطتين الباقيتين .

أفلسفة ام خطابة ؟ لا بأس من ان يتردد المرء ويتساءل بمن يبتدىء : بهذه او بتلك من الاثنين . صحيح ان الخطابة هي الميزة التي تطبع بصورة اعسق ، وبصورة اوسع على كل حال ، العقول والاذهان في هذا العصر . ولكن الفلسفة تؤثر بدورها عليهم وتطبع انتاجهم ، كما ان علم التوقيت الخاص بتاريخ الادب يكفي وحده لايلاها حق الأولية . فأكبر فيلسوف روماني لمع اسمه في هذه الحقبة ، هو الاول ايضاً بين كبار الادباء اللاتين الذين لمع اسمهم بعد عهد اوغسطس : هو الفيلسوس سنيكا . قليلون جداً بين اصحاب

العقول من أوتوا ما أوتي سنيكا من المواهب العقلية ، كما انهم قليلون جداً ، من تم لهم ما تم له من خصب الانتاج الفكري ، وسهولة العمل ويسره ، مكنه من وضع ما وضع ، من آثار فكرية ، مع ان هذا القرطبي ، بعد ان انتقل مع والده الخطيب الى روما ، أضاع فيها جانباً كبيراً من وقته في هذه الحياة الاجتماعية التي استسلم لها . وفي هذه المؤامرات والدسائس التي شهدناها في البلاط بعد ان عُيِّن مهذباً لنيرون ومريباً له ، وفي شؤون الدولة ومهامها السياسية ، بعد ان تربع تلميذه على أريكة الملك . ولعل اسوأ ما نلسه في انغماسه بهذه الحياة وفي اقباله عليها ، حياة سَيرتها ووجهتها فئات اجتماعية ضيقة ، لم يظهر ما يدل على انه تعرف الى غيرها ، برهن فيها ، الى جانب الوقت الثمين الذي هدره سدى ، عن وصولية وانتهازية انحدر معها الى درجة الانحطاط الخلقي . فلولاً هذا الهدوء والطمأنينة التي تلقى معها خبر حكم الاعدام يصدره عليه تلميذه المتوج ، الكثير الشكوك والظنون ، لاغتنظنا كثيراً لهذا التناقض يطالعنا به رجل من بطانة الامبراطور ، اصبح بفضل منصبه من كبار اثرياء زمانه .

فعل الاخلاق هزّه اكثر من الفلسفة . فلم يتحمس يوماً لعلم المقولات او علم ما وراء الطبيعة ، وقد ابى ان يوضح لنفسه ، العلاقات القائمة بين الالهية والعالم والانسان ، مقتصرأ على المذهب الروماني الذي صادف من الرواج اذ ذاك ، ما اتاح له ان يجد لمدة طويلة ، مريدين متحمسين بين المسيحيين انفسهم . والمهم عنده هو علم الاخلاق الذي دعا دوماً الى الاخذ به ، حتى في بحوثه العلمية ، وفي مسرحياته التي حذا فيها حذو يوربيدس ، والى هذا ، ان ام واكثر آثاره الفكرية تتألف من مباحث روعيت فيها قواعد الفن ، او تؤلف مباحث بشكل رسائل الى اصدقائه . وهو يتصرف كأنه معلم ذمة لأن هم من طبقته من سعداء هذا العالم الذين يمانون ، مع ذلك ، من آلام هذه الدنيا . فهو يوحى بقبول ما لا سبيل الى تفاديه من ضرور هذا العالم بما فيها الموت ، وذلك بمثابة ، من بيده ملاك امره ، وبشيء من الحكمة المدروسة ، على ضوء من التحليل النفساني الدقيق الذي يليق جيداً بأسلوبه البياني الأسمر وبهذه الطواعية الفكرية التي عُرف بها .

وهذه المثالية ، التي وضعها نصب عينيه هي ، مثالية الرواقيين التي لم تكن بعد أطلت على روما والتي لم يكن تأثيرها قارب الزوال بعد . وهذه المثالية ، تبرز اكثر تشدداً وقسوة عند بيرس *Perse* ، كما تبرز عند لوقين ، اشرق بياناً وأكثر وضوحاً . فالفلسفة بمعناها الصحيح ، لا تستأثر بأحد من مفكري اللاتين في هذه الحقبة ، والوحيد من يخصص لها ، بين هؤلاء المفكرين ، ثلاثة أو أربعة كراريس ، هو أبوليه ، تناول فيها بالبحث ، بعض تعاليم الفيثاغوريين أو الفلاسفة الارسطوطالية . وهكذا نرى اخلاقية المدرسة الرواقية ، تتفاعل على أقدار تختلف دقة ، في نفوس الكثيرين ، كما توحي ، في القرن الثاني ، ليس فقط الموقف العام الذي يقف أباطرة هذا العهد ، بل ايضاً بعض القرارات التي اتخذوها . فان كان اسلوب سنيكا البياني ما لبث ان تتساه الناس ، فأفكاره بقيت رائجة بعد موته بكثير .

لا شك في ان الخطابة واسلوبها، طبعت الأدب اللاتيني في العهد المتأخر، من
الامبراطورية الرومانية اكثر من الفلسفة. فقد أتيح لنا ان نتعرض للحديث عنها
سابقاً، وان نتبين ازدهارها، والشواذب التي اعترتها. ولذا يكفيننا هنا ان نشير ليها، الى ابرز
من يمثلونها، أقلهم هؤلاء الذين وصلت إلينا آثارهم.

كثيراً ما أتينا، في معرض الحديث، على ذكر كونتليانوس، والكتاب الوحيد الذي
وصلنا منه، هو: « فن الخطابة »، فيبرز من خلاله، مريباً كبيراً، وعالمًا سيكولوجياً
نبياً. فللطفل مُثُل، تختلف كلياً عن مُثُل الخطيب، ولذا يحرص على ان يوجهه في كل شيء. فهو
يوصيه بالبساطة، وهامم هذه البساطة، يتناول بالنقد اللاذع، سنيكا ويتهمة بالمخرف الذوق،
بينما يمتدح عالياً شيشرون وذوقه الرفيع الذي يجب ان يكون قدوة الطالب وقاعدته. إلا انه
لا يحرر على شجب التصنيفات، وهذه الأساليب الملتوية التي راجت ايام رواج في عهده، مع انه
رأى ولمس لمس اليد التعقيد الذي لحق بصناعة الكتابة، فلم يكن، على ما عُرف عنه من
وَجَل، بالرجل الذي يكيل الضربات بعنف للتجاوزات المغالية التي وقعت فيها الخطابة،
اذ ذاك، بعد ان وقع هو نفسه، تحت امرها وأخذ بها.

لم يفته النقاش والجدل الصاحب الذي قام بين المعاصرين حول التوقيت الزمني لكتاب
تاسيت المنعوت: « حديث الخطباء »، وعمله من مؤلفاته العديدة. فالكتاب بما فيه من
إستدارات بيانية تشبه الى حد بعيد اسلوب شيشرون، هل كان بين اوائل الكتب التي وضعها
تاسيت، او انه اختار له هذا الأسلوب الإنشائي الذي يليق بالموضوع؟ وراح بعضهم يشك في
ان يكون الكتاب المذكور من وضع تاسيت. ومهما يكن، فالكتاب هو من وضع ناقد يملك،
بعكس كونتليانوس، معنى علم التاريخ. فما غاب عن ذهنه قط ان المخطاط الخطابة يخرج عن
نطاق الأدب، وراح يعمل ذلك ويرده الى التطور السياسي والاجتماعي في البلاد اكثر منه لفساد
الذوق، وسوء اساليب التربية اذ ذاك.

وكان في مقدور هذه الحقيقة، لو فهمت على وجهها الصحيح، ان تخفف من الاهتمام بفن
تقادم عهده وزال اوانه. الا اننا لا نرى شيئاً من هذا البتة. فقد استمروا طويلاً في البحث
بمحاسة، شؤون المعجم والانشاء، والجزالة التي تأتي وليدة قناعة: « صارمة »، « عابسة »،
« دقيقة » واستعمال المحسنات اللفظية والاصناف الدالة على رهاقة الذوق: « ناعم »، « مشرق »،
وهو جدل انتقل إليهم من الاغريق قديماً، حول الاسلوبين البيانيين المعروفين ب: الاسلوب
« الاتيكي » والاسلوب « الآسيوي ». فالعلم الأتم هو ان يعرف الكاتب ان يستعمل، عند
الاقتضاء، الاسلوبين معاً على ما يقتضيه الموضوع والمناسبة العارضة. وقد أريق المداد مدراراً
وجزافاً، حول طبيعة الاسلوب الخطابي واهمية الموضوعات التي يجب معالجتها في المرافعات
القضائية او في الخطب التي تلقى في بعض المناسبات العارضة كالحفلات الرسمية. وهكذا نرى

الكثير من الفن المتصنع المزهر يبذل هدرأ ولو أضر بالحد الأدنى من الشعور العميق الذي لم نعد نرى أحداً يتحسس به .

ففي : « رثاء ترايانوس » ليس أحد يشك في صدق عاطفة بلين الأصغر ، صاحب هذا الرثاء الذي «عدّ» مع تأسيس أكبر خطباء هذا العصر . كان المجتمع الروماني الرفيع يحمل كرهاً شديداً للطاغية الرهيب دومتيانوس كما كانت ، على عكس ذلك تماماً ، شديد الإعجاب بخير الملوك وامثلهم على الإطلاق ترايانوس . فقد رأى كيف تحقق على يده ، كما يقول تأسيس ، واقعان برزا متضادين من قبل : الملكية والحرية ، كما ترك لهم « حرية التفكير بما يشاؤون ، والتعبير عن افكارهم كما يريدون » كما راعه ما رأى ، بتأثر بالغ ، من قوة روما وعظمتها ، ومما من بعض افضاله عليها . وهذا الرثاء ليس سوى نسخة منقحة ، مزيدة ، « لفعل الشكر » الذي رفعه بلين للامبراطور ، علماً بالعرف المعمول به ، اذ ذاك ، عندما رقاها قنصلاً ، في غرة ايلول سنة ١٠٠ ، وقد اتاح هذا التعديل للخطاب إضافة ما لا بد من اضافته من المحسنات الشعرية ، وما فيها من اماديج وعبارات تفخيم أضعفت ما فيه من عاطفة خلصة مشبوبة . وبما لا شك فيه قط ان رسائله التي أدخلت عليها بعض التعديلات لتصلح للنشر ، تحمل الكثير من سحر البيان ورشاقة التعبير ، وان كانت دون رسائل شيشرون بداهة وطبيعة ، بالرغم مما يدعيه بلين نفسه بأنه كفاء عدل لشيشرون . فقد كان الافراط في تمهد الامر الأدبي ، أبداً مفسدة له ، كما ان الافراط في الثقافة يسيء احياناً الى رهاقة الذوق .

فالتاريخ القديم لم ير ، على كل حال ، في هذا كله سوى فضائل وحسنات ، وعلى نسبة الشهرة التي تمتع بها فرونتون في عهد مارك اوريل ، برهنت الشهرة التي تمتع بها بلين الأصغر ، ما كان عليه وما صار اليه ، الذوق العام اذ ذاك . و « رثاء ترايانوس » امكن حفظه وصيافته لانه كان نموذجاً لفن ادبي راج كل الرواج في العهود التالية : فقد جاء الاول في مجموعة من ١١ رثاء ، قيلت في عدد من الاباطرة حتى اواخر القرن الثالث وبدا القرن الرابع ، فكانت مجموعة من قطوف الخطب اللاتينية القائمة على اساس تاريخي . وكما يحدث ان يجد التاريخ مصلحته في الكثير من هذه المحسنات اللفظية التي «عمل بها اذ ذاك ؟

المثقف هو من عرف ان يضع خطاباً وفقاً للاصول ، كما هو من عرف ان يقرض الشعر وينظم القصائد . ومثل هذه الرياضة العقلية اقبل عليها كثيرون وحاولوا ان يتقنوها . وهذا المران على القريض والتمرس به من عهد التلمذة ، يفسر لنا كيف ان كثيراً من الاساليب ، والالفاظ الشعرية والصور البيانية جرت على اقلام الكتاب والسنتهم في النثر . غير ان صناعة الشعر كانت أبعد من ان تموت أو تضمحل ، ولذا لاتزال آثار شعرية كثيرة تلفت النظر وتستأثر بالخاطر ، في هذا الانتاج الادبي الضخم الذي ليس كل ما فيه خليق بالحفاوة . وهذه المسرحيات التي وضعها سنيكا واتخذ مادتها ، ليس من الاسطورة رأساً ، بل من الآثار الفكرية اليونانية الفنية ، والبس شخصها لبوساً هي من نسيج خياله الفلسفي ، تتناوح بين سماجة الذوق

والجزالة ، وفجأة الاحداث التمثيلية والمواقف المؤثرة ، ورقص الاموات المرعب والرشاقة الناعمة ، وضغط العاطفة الرواقية ودقة التحليل السيكولوجي ، والاستدارات البيانية والوصفية الطويلة ومتانة السبك والحبك . وبالأجمال كل هذه المتناقضات او بالاحرى هذه الفروق وغيرها من المفارقات التي تتسم بها هذه المآسي ، ساعدت بالفعل كورناني على ان يفيد من بعض التفسيرات التي ادخلها (سنيكا) على آثار يوريندس .

وعندما قتل ابن اخته لوقين ، وهو ابن ٢٦ سنة تنفيذاً للحكم بالاعدام صدر عليه من نيرون ، فقد كان كتب وألف كثيراً . فلم يبق لدينا منه سوى ملحمة : « فرسال » ، دمه الموت قبل ان يكملها ، وهي ملحمة تدور حول الحرب الاهلية في عهد قيصر ، وقد امتدح فيها ، بعد ان فقد كل حظوة لدى الامبراطورية ، ببيوس وانصاره ، ولا سيما كاتون عتيقة ، كما راح يتفنى ، بعد ان اطلق العنان لحقده ، بالنظام الجمهوري الذي عاشت البلاد في ظله قرونًا عديدة . فللموضوع عظمتة وجلاله . وقد عرف لوقين ان يحافظ على هذه العظمة ويصونها ، اذ جعل الآلهة تتحسس لحروب البشر وتشارك في معاركهم . فقد كانت معلوماته كذلك على جانب من الصحة والدقة . فاذا ما قنع باليسير من سيكولوجية الفرد والغوص في أغوار النفس ، فقد اظهر من جهة اخرى تفهماً صحيحاً لتفاعل العوامل التاريخية المشتركة . ولذا راحوا يلومونه بمعالجة موضوعه بصورة زقاقية ، اي خالية من عنصر الجمال والسمو ، وبذلك قد يكون خان فرجيل وابتعد عنه . عندما اطلق العنان لانفعالاته الشخصية باندفاع شديد ، بعد ان استسلم لخيطة جاحشة تستبد بالخواطر حتى في ما طلعت به من غريب او خفيف . فحيلة للخطابة ، ومحاولته التأثير بأفانيتها والأعيابها واسلوبها البياني يكشف عن مبلغ تأثره بإساتذته من علماء البيان والخطابة . وقد عرف مع ذلك ان يتفادى اسوأ نواقصهم الا وهو تقليد الماعى المناهج الكلاسيكية .

كذلك عرف ان يتفادى هذه النقيصة ، ثلاثة آخرون من كبار شعراء هذا العهد ، مع الاعتذار الى ستاس ، اذ لا يمكن ان ننسى رواياته « المرجلة » *Silves* ، ان لم يكن ملاحه ، ولا الاشياء الجديدة التي طلع علينا بها . فاذا كان الأدب اللاتيني لم يحل منذ لوكيلوس وهوراتيوس المذهب الواقعي ولا الهجو ، فقد أتبع هؤلاء الثلاثة ان يعالجوا هذه الفنون بجرأة ظاهرة ، وحساسة قوية جذبة بالانتباه .

كان بيسر معاصراً للوقين ، ومثله توفي وهو في شرح الشباب وميعة العمر . فقد عالج الهجاء واتخذ منه أداة للتعبير عن خواجه ، والتفريغ عن ضواغط نفسه . من هذه الضواغط التي كشف عنها ، التقزز الذي سببه لمشئله الرواقية ، مشهد المجتمع القائم . فقد عبر عن شعوره بصراحة تامة ، دون مداورة او مداراة لأحد : لأهل القلم ، والشعب ، والاشراف النبلاء ، حتى وللإمبراطور نيرون ، الذي ورى عنه وألح اليه باسم ألقبياديس . وقد قال ما قال ، بشيء من صلابة العقيدة ، دون ان يكثرث او ان يهتم بحسن الاسلوب ، بل على عكس ذلك ، أرادته جافاً ، قاسياً ، وعلى شيء من الغموض ، بعد ان يترك القارئ تحت وطأة المشاهد الجارحة التي رسمها بما هي عليه من واقعية وعري .

اما مارتياى فلم يكن تم له شيء من هذا النقاء الادبي ولا من هذا العنف ، وعلى عكس ذلك ، فقد رموه بالملكى والتدليس والتزلف الى النبلاء ، والامبراطور ، حتى ولو كان دومتيانوس ، فلم يرض ان يكشف عن أسماء من تناولهم بالنقد . فاذا كان هذا المتسول اللجوج الذي لا يكل ولا يمل ، معذب الضمير لوضعه مثل هذه الروايات التي وضع ، وضفره مثل هذه الأماذيح التي يجعها الذوق السليم ، فهو مع ذلك خير من يمثل وخير من يعالج فن القصائد اللاذعة والاهاجي القارصة . وهي ، على الغالب مقطوعات شعرية وجيزة ، مقتضبة كالعتاد ، انما تنضح بالهزء والسخرية اللاذعة . وها نحن نراه يبذل أقصى ما أوتي من حذق ومقدرة ، ليطلع علينا بالكلمة الجارحة التي تنفذ الى الصميم فتجرح وتدمي . فقد كان أكثر من هازيء او ساخر متهم . فقد رمى ، بما تم له من روح ساخرة ومن دقة في التعبير لا بد منها في الهجاء ، الى أن تتعرف الحياة الى ذاتها وان تتطلع الى ما المحذرت اليه الاخلاق . ولذا تسليح بالملاحظة الدقيقة الناعمة . فالسرعة التي يرسم بها الصورة البشعة التي ارادها ، ويصور لنا فيه شخوصه تنبض وتتحرك وتعمل بحيث تبعث فينا الضحك ، وابرار ما يلمسه فيها من عيوب ومساوىء طبيعية او اخلاقية نمتى كثيراً معلوماً حول مظاهر الحياة الخارجية عند الرومان في ما تميز منها وبرز . إلا انه اقتصر دوماً على القسّمات البرانية للشهد او للشخص الذي يستحضره امامنا ، ويهتم بما فيه وله من عورات ونواقص خارجية ، أكثر مما يهتم بالأشياء الاخرى الحرة بالذكر والتنويه ، بحيث لا يستطيع المرء إلا الشعور بالاسف لأنه لم يهتم لنفوس الناس إلا بقدر ما يعتورها من صفائر ودنات ، او ما تنصرف اليه من سفاسف هذه الحياة .

اما صديقه جوفنال ، فقد أوتي على شاكلته ، قوة غريبة على الاستحضار ، فلم يتراجع ، هو الآخر ، امام ما وقعت نواظره على مخاز من العري والصلكف . فقد كان أطول منه نفساً ، وهذا الطول في قصائده الهجائية مكّنه من ان يتجاوز بعيداً ، هذه المشاهد الصغيرة التي رسمها مارتياى . أوتي من عمق النظر ونفاذ البصر ما لم يتم بعضه للآخر . فمن الغلو ان نقف مشدوهين حيال شجاعته . فهما بلغ من تفكيره ، قلن يذهب به بسط اليد الى تدليس مارتياى وتلفاته . فالذي هاجهم وسامهم بأسمائهم قوم زالوا وأصبحوا في عداد الموتى ، فلم يكن ليخشى شراً من الاخذ بتلابيب دومتيانوس مثلاً ، بعد ان طلعت على العرش أسرة جديدة راحت ترمي سابقتها بالاوّحال . ومهما يكن ، فالسخرية الفكّية لا تهمة بقدر ما تهمة الثورة . وكلمته المأثورة لا تزال على كل شفة ولسان : « فاذا ما رفضت الطبيعة انطلق السخط شعراً » . فكلمة « سخط » هنا لا تقي بالغرض ، فهي ضعيفة ، ليس لها من القوة ما يجب . فهو الحقد ، حقد رجل ، عاش على مقربة من متوسطي الحال ، ضد اغنياء قلما فقهوا للاحسان معنى ، او بالاحرى ، بمسكين ، قليلي العطاء ، اذ لم يُعرف عنه انه حل يوماً بين ضلوعه حباً للفقراء او كنّ لهم شيئاً من هذا ، حقد مُعجَب بالماضي بعد الذي رأى وشهد من المحذار الاخلاق وتفسخها ، حقد مواطن روماني ، عُرّ قلبه بحب الوطن ضد هذا الليم من هؤلاء الأغارقة ، وهذا الشثيت من المشاركة تفص بهم شوارع روما وأحيائها . لم تكن هذه النبذة لعمرى ، وهذه المواضع يجديدة . غير ان

«الطبيعة» أي التبوغ، شيطان الشعر هذا، لن يبخل عليه بشعر كالحلم، لاذع، لاسع، زاده المران والبيان وضوحاً، وحرافة. وفخامة، أضف الى ذلك لساناً ذرباً، ولغة غنية، عامرة، قوية، ملونة في خدمة خيال مجنح جوح، خصب، لا يلين. وكثيراً ما سلط هذا اللسان السليط، الحديد، ما يعيدنا بالذاكرة الى هيفو، في ديوانه *Les Châtiments*. فالشعر اللاتيني، بعد جوفنال، لن يحود بشيء، يستحق الذكر: فقد أغناه وأخصبه. فكفى بذلك اثرآله.

فن الرواية اذا كان الشعر اقوى تعبيراً عن مشاعر الغضب، فالنثر، من جهته، أطوع على تصوير الحياة في واقعها المتحيز في الزمان والمكان. واذا كان سبق للكتابة اهلينيون ان استعملوا في رواياتهم شخصاً لا وجود لهم الا في الخيال، فالقصص التي وضعوها، انما هدفت للتسلية والتفريج، بعد ان اضفوا عليها من نسيج الخيال والوصف الأخاذ ما يشبع البهجة والسرور في النفس. وهكذا لم يلبث الكتبة اللاتين ان كشفوا في فن الرواية، عن طاقات جديدة وقدرات في حيك الرواية وسوقها كان للخيال في ذلك شأن واي شأن.

فمن بين الآثار الادبية الاقرب الى الرواية الواقعية مما طلع به الكتاب في التاريخ القديم، الرواية المسماة: «ساتيريكون» التي وصلنا منها بعض نتف، وقد وضعها الروائي الروماني بترون احد المقربين الى نيرون، والذي يروي لنا ناسيت (تكيثوس) خبر انتحاره، بشكل يتفق تماماً وما اشتهر عنه من ظُرف. وهذه المقطوعات تفيض بالتعليقات الادبية، وتعرض بنوع خاص لفن الملاحم واورد فيها مقتطفات شعرية، منها واحد، لا ندرى ما القرض منه، أهو نقد للوقين او نقد لخصومه - اعاد فيه النشيد الاول من ملحمة فرسال، بعبارة فرجيلية تور بالميثولوجيا والحكايات الاسطورية. ولا يخفي من جهة اخرى، رغبته في التهمك: فهو من نعومة الخلق بحيث اذا رأى الا يقص الأمور على واقعها، فلا يتورع، مع ذلك من اللجوء الى التصوير الهزلي الصارخ، فالفن الزوائي يبقى معه والحالة هذه، فنأ كثير التشابك والتداخل. والصفة البارزة التي تتسم بها آثاره العملية تقوم في سهولة السرد التي تمت للقاص، كما تقوم في هذه الاضواء الكاشفة التي يسلطها على شخوصه فيبرزون في عوراتهم المضحكة المبكية، او في هذه الزقاقية التي يبدو عليها، وفقاً للمواقف والاضاع التي يهيؤها لهم. وهذا الكاتب الدنيوي الذي عُرف بمقدرته على الكشف والتحليل، استطاع ان يلاحظ اشياء كثيرة خارج الجو الذي عاش فيه واحاق به، حتى بين ثنايا الطبقات الاجتماعية السفلى. فمن الطبيعي جداً ان يتناول بالتهكم الساخر: هذا الفريق من حديثي النعمة الذين وصلوا الى الغنى في غفلة من الدهر، فراحوا يسخرّون بوقاحة، ما أوتوه من ثروة وثراء، للتنعم بلذاذ الطبقة الاجتماعية العليا، على مثال بطل روايته المدعو تريمليكيون، احد هؤلاء المتقاء الاثرياء، الذي تكوّن «مأدبته» العامرة، خير الوان هذه الرواية، على الاطلاق. فقد اضفى عليه من زهو الألوان ومن بهرج الوصف ما يحمل على الهزل والتفريج، ينطلق من كلامه وأقواله، وحر كاته وسكناته. وهذا المزاج يضيف على الحقيقة سمات تتجاوز بكثير المعقول او المحتمل، تجعل من بترون، بالفعل المبدع الاول لصورة «حديث النعمة».

اما الواقعية في الادب فتَمَسَّكَتْ ، في بعض المناسبات ، بالكاتب الافريقي أبوليه الذي قضى معظم حياته الادبية ونشاطه العام ، في مدينة قرطاج ، في النصف الثاني من القرن الثاني . فقد ترك لنا هذا المحاضر المتعدد الاثر ، انتاجاً متنوعاً ، خصباً ، وضع بعضه باللغة اليونانية ، كما يبدو لنا ذلك واضحاً من بعض النماذج التي وصلت إلينا منه . وأشهر مؤلفاته وامثلها على الاطلاق هي الرواية التي وصلت إلينا تحت اسماء مختلفة : التحول *Métamorphoses* والحمار الذهبي ، ولو كيوس . فهو يقص فيها علينا الحوادث والاختبارات والمشاهدات التي تمت لشاب استحال حماراً لدى استعماله مرهماً اخذه من يد ساحرة ، واستطاع بعد فترة طويلة ان يسترجع شكله الاول ، بفضل تدخل الإله ايزيس التي نصحته بأكل نوع معين من الورد . وهذه القصة المليئة بالفرائب والمعائب ، ذات المبنى المتخلخل والتي تحتل فيها قصة : « الحب وبسببه » اكثر من ربع حجمها ، تفيض بالاقاصيص الماجنة وبقذع التعابير ، كما تفيض بمحايات قطاع الطرق وشذاذ الآفاق ، والمآسي الغرامية والهزلية من كل نوع وجنس ، نسجت مادتها من كثير من القصص اليوناني القديم ليس من السهل علينا تبين خيوطها ، كما كانت بدورها معيناً ، ورده كثيرون من واضعي الحكايات بينهم لافونتين في مجموعته *Contes* . وقد اضفى عليها مؤلفها ثوباً فضفاضاً من اللغة والبيان افقدها شيئاً من قيمتها لما شابهها من التصنع والتحدث . غير ان وصفه لمشاهد الحياة الشعبية في الريف والمدن الصغيرة القائمة في الولايات يبعث في النفس السرور والحبور . ومع ذلك فهذا كله ليس بشيء يذكر امام هذا الشريط من المشاهد الدينية الذي امامنا في الجزء الاخير من روايته هذه ، حيث يستسلم أبوليه ، بعبارة تفيض حرارة وحماسة ، لشطحات من الرمزية والتقوى والخشوع لا ترتبط بشيء باجزاء الكتاب ، سوى انها تدور حول بطل الرواية . فالصفحات التي حبرها والتي تلقي بعض الاضواء على مؤلفاته الاخرى ، لا مثيل لها في الادب اللاتيني الذي تقدمه . كل ذلك ساهم على جعل روايته هذه *Métamorphoses* من بواكر الادب الواقعي تنطلق عالياً بهذا القلق ، وبهذه الآمال ، وبهذه الاعراب والعادات التي تلازم دوماً الآثار الفكرية الخيالية التي صدرت عن الشرق .

هناك مناهج واساليب عديدة لكتابة التاريخ وتدوينه . ورغبة منهم في توجيه التاريخ نحو النقد ، حاول بعض كتاب الاغريق من العصر الهليني ان يفصلوا التاريخ عن الادب . وهذا المنهج التاريخي قد يكون ثال رضى اصحاب المذهب الواقعي الذي تميز به الرومان ، لو ان الروح العلمية التي تعتبر الاستبحار في العلم (*Erudition*) ، مظهرأ من مظاهرها المفردة ، عرفت ان تزيد هذا المنهج قوة واندفاعاً او ان تحافظ على مستواه . ولكن لم يحدث شيء من هذا قط . فالاهتمام بالتاريخ كعلم بقي على قوته ، ولكن لأسباب بعيدة عن الرغبة في الاطلاع ، كهذه المؤلفات العديدة ، يضعها وفقاً للاسلوب الهليني ، اشخاص من الصف الاول ، من بينهم اباطرة امثال اغريبين والددة نيرون ، او امبراطور كهديريانوس صاحب المذكرات ، فقد أوحى بها اعتبارات سياسية وأخلاقية . وهكذا يبقى التاريخ قطاعاً من

قطاعات الادب . وما هو أكثر من ذلك ، فالكاتب اللاتيني الذي يعلو اسمه باقي الأسماء من بين المؤرخين اللاتين ، يجعل التاريخ هوائيه المفضلة ومسلكه المحبب ، هو تاسيت أو تكيثوس .

بينه وبين ثيت - ليف من كتاب اللاتين ، كثيرون تفرغوا لهذا العلم وانقطعوا له . وقد فُتحت معظم مؤلفات أكثرهم ولم يصلنا منها شيء خليف بالذكر . والذي وصلنا ليس له كبير شأن . « فتاريخ الاسكندر » المنسوب الى كوانت - كورس يثير مشكلة تتصل بصميم تاريخ الادب . وراح بعضهم ، امام جهلهم التام لهذا الكاتب ، يردونه الى اواخر القرن الرابع . فالافتراض الذي يجعل منه معاصراً للامبراطور كلوديوس لا يستند إلا على اقتناع شخصي . كذلك يثير هذا الكاتب قضية اخرى تتعلق بالادب . ففي الوقت الذي يُشنع فيه المؤرخون الكلام على كوانت - كورس ، نرى بعض مؤرخي الادب اللاتيني ، يكتنون له ، بعكس اولئك ، بعض التقدير . فاذا ما اخذت بقراءته ، فلا يعتريك أي حس بالملل ، إلا عندما يأخذ بإيراد بعض الخطب التي لها اول وليس لها آخر . يرضينا منه هذا الحس بالفراغ يحدثه فينا بسبب أسماء الاشخاص التي يذكرها ، والاخلاق التي يروح يصفها . فشخصية الاسكندر تتحرك سيكولوجياً امامنا بصورة مشوقة . والحزّ للنفس ان كل هذه العوالم التي يحركها امامنا لا تنهض على سند تاريخي يخلو من الشك ، كما انه يذب جانباً ويهمل كلياً ، بصورة منهجية ، جذرية ، العنصر الآخر ، الذي يتوفر ، مع ذلك . فلم لم يضع لنا ، والحالة هذه ، رواية واضحة ؟

فاذا كان كوانت - كورس لا يعني غير اسم وكتاب ، فتاسيت (تكتوس) ، معروف لدينا جيداً بفضل الانوار الكاشفة التي تلقيها مؤلفاته . اقبل على كتابة التاريخ ومعالجة قضاياها وهو في الاربعين من عمره ، بعد ان كان عنى ، من قبل ، بتحصيل الخطابة والبلاغة التي تركت فيه طابعها ، مع ان اسلوبه وانشاء بعيدان كل البعد عن التفخيم والاستطرادات البيانية . أحبّ الخطب فذكر الكثير منها في كتابه ، عدا عن تلك التي نحتها من وحي الخيال ، كهذه التآثرات التي يقوم بها الطلاب . من ذلك مثلاً ، إثباته مرافعة الامبراطور كلوديوس امام مجلس الشيوخ بشأن طلب التأليين قبولهم في وظائف الحكام والقضاة ، معتمداً في الاساس ، على نص الخطاب الاصيل ، فتوسّع فيه كما شاء له خياله . كذلك أفاده تمرسه الطويل بشؤون الخطابة في صقل أحاسيسه وتهذيب مشاعره الشخصية فترك لها العنان واطلقها على السجية . ان أكثر الخطباء ابتداءً لم يستطيعوا ، بعد ان أخذوا بسمو عواطفهم ، إلا ان يشددوا على ما تحلى به من الصفات الاصيلية ، من ذوق مرهف في التحليل الادبي ، والرغبة في الإعراب عن التشاؤم الذي سيطر عليه ، حتى باهتمامه بهذا العالم البربري الذي جهلوا عنه كل شيء ، مع انه عالم له جمالاته مها خشن ، فاضل لا ابتعاده عن هذه الحضارة المفسدة المخلعة ، وفيها كل الخطر على روما المتحللة .

هنالك عوامل أخرى أثرت على تفكيره وروحه ، يرجع أكثرها لهذه الاضطرابات التي سببتها تصرفات دوميتيانوس فسببت هلاكه فنجم عنها هذا التحالف الذي تم عقده بين مجلس الشيوخ وبين ممثلي الأسرة الانطونية ، فقد قوى فيه هذا كله الشعور بصدق اخلاصه واندفاعه

في المصلحة العامة، والامتعاظ الذي اعتراه من مشاهدة هذا التناقض بين المثالية والواقع المتحيز. كذلك ، تم له الاطلاع على بعض القضايا العامة وما كان لها من ردة شعورية في النفوس . فقد تألم في قرارة نفسه كثيراً ، من أمور لا تتعلق به شخصياً ولا بأقاربه او أنسابه بشيء ، بل به ، باعتباره عضواً في مجلس الشيوخ ومواطناً رومانياً. فقد رغب ان يفهم ويدرك ، وان يحمل غيره يدرك ويفهم ايضاً ، بعد ان أمّن الامبراطور « نروه » ، وترايانوس من بعده ، حرية الكتابة والكلام لمن يروم الكتابة عن الماضي ويؤرخ له . وهكذا قرر ان ينقطع لكتابة التاريخ وان ينصرف للتحري والتقصي ، أكثر فأكثر ، وجمع المعلومات التي يرغب فيها . فابتدأ عمله بالترجمة لمحبه أغريكولا ، ثم عقد بحثاً مستفيضاً حول جرمانيا من الوجهة الجغرافية والاثنوغرافية ، ثم انصرف الى وضع مؤلفاته الكبرى : « التواريخ » و « الحوليات » التي لم تصلنا بكل أسف ، كاملة ، والتي أرتخ فيها للحقبة الواقعة بين موت نديون وطلوع الأسرة الفلافية ، ثم انصرف لمعالجة الحقبة السابقة الممتدة من تبوء طيباريوس أريكة العرش. وقد اعرب هو نفسه عن رغبته بالسير القهقري الى الوراء ؛ إلا ان الوقت لم يتوفر لإكمال بحثه من التواريخ لعهد اوغسطس . وعندما راح يعلن عن رغبته في ان يترك التواريخ للحقبة التي عايشها، للوقت الذي يبلغ فيه سن الكهولة ، فكان به أراد ان يتخلص بلباقة، من تلبية طلبات ورغبات جاءت من فوق . فقد هتم كمؤرخ يحترم نفسه ، ان يعبر عن آرائه بحرية تامة، كما رأى نفسه مضطراً ، من جهة أخرى ، للتوسع بالرجوع الى المصادر والمراجع الأصلية ، للوقوف جلياً على بواطن الامور ، ودوافعها الدفينة ، ومسبباتها .

كان مفهومه للتاريخ ، وطريقة الأخذ به ، يؤلف ، من الوجهة العلمية المنهجية ، ومن ناحية اصول كتابة التاريخ ، بقهقراً ، بالنسبة لبعض مؤرخي اليونان ، أمثال ثوقيديدس وبوليب . فقد استقى معلوماته من أفواء معاصريه والتقليد المتواتر على ألسنة الناس ، وذلك بالرجوع الى آثار ومذكرات من سلفه ، والوثائق والأوراق الرسمية ، التي كان في مقدوره الاستفادة منها . فنحن أعجز من أن نلبين اليوم ، المدى الذي بلغته تحقيقاته العلمية ، والعناية التي وفرها لها وأحاطها بها ، وكلاهما جدير بالتقدير والثناء . ولعل الشيء الوحيد الذي نأخذه عليه في جمعه معلوماته : هو قصر نظره ، اذ انه اقتصر ، في جمعها على حاشية الامبراطور وبطائنه ، وعلى ما تلبّد به جو مجلس الشيوخ وروما من شؤون وشجون . فلم يهتم كثيراً بأمر الولايات ولا بأمر الجيش الا بالقدر الذي كانت امورهما ، مداراً ضيقاً للبحث في قاعات مجلس الشيوخ وموضوع مناقشاته . فادارة الامبراطورية الرومانية والحياة في أرجاء هذه الامبراطورية ، تختلف تماماً عما ارتسم من صورها في ذهن اعضاء مجلس الشيوخ . فالبحث الذي اقتضته معرفة هذه الامور لم يجر بأكمله ، والارجح انه لم يستفد كثيراً من الأسفار والاتصالات العديدة ، والاقامة احياناً في الريف مما كان يقوم به بوصفه عضواً في مجلس الشيوخ . كذلك لا بد من بعض التحفظ لجهة الطريقة التي استخدم معها هذه المصادر . ولكي يستطيع التمييز والانتقاء بين عدة روايات

مختلفة كان عليه ان يختار بينها، راح يستعمل بنجاح، مقياساً لها، ما هو محتمل الوقوع او الحدوث. وقلمنا نراه يحاسب ذاته في تقويمه المصاعب التي تعترض بحثه ، الامر الذي يثير فينا شيئاً من القلق والاضطراب . ففي تعليقه وتفسيره للتطورات والاحداث التاريخية التي استعرض لها ، يترك بعض الحلول للقضاء والقدر ، ويعزو الحل الى شيء من تدبير الالهة . فاذا ما كان في عقائده الدينية وتصديقاته الايمانية، بارداً جامداً، فوقفه هذا يعكس موقف الدولة الرسمي، مشوباً بشيء من النزعة الفلسفية . فقد عوّل في بعض التعليقات التي طلع بها على طوابع الغيب والقول بالاعاجيب . ولعل ما هو اهم من هذا كله ، فلم نر انه التزم دوماً ، كما يدعي ، جانب النصفية . فقد كان له من الایام ، ما صانه عن المصانعة والكذب ، حتى ما جاء او اندس تحت قلمه ، من باب الایمال ، والاحكام التي اصدرها على الافراد والملك والدولة ، صدرت كلها عما رسم لنفسه من مُثُل ، وهي احكام صادقة لا يشوبها ، على الاجمال ، الغرض او العاطفة ، فلا تلبث ان تبرز بعد صدورها والتعبير عنها ، على غير ظاهر الأمور .

ولكي نضعه في الصف الاول بين كبار الأدباء ، ليس في روما الامبراطورية فحسب ، بل ايضاً في كل البلدان والازمان ، علينا ان نلقي نظرة متمليّة على ما أوتي من معرفة فادرة لأغوار النفس البشرية ، وما تم له من فن ، كمؤرخ ومؤلف ، اذ لم يعدله ، في الاولى ، غير المؤرخ اليوناني ثوقيديدس ، وان اختلفا وتباينا منهجاً ونتائج . فقد راح ثوقيديدس يحلل الأهداف والآمال والخاوف التي ساورت الاشخاص الذين تكلم عنهم او أرّخ لهم ، كما أخذ بتحليل الحوادث وتعليلها بحيث يدرك القارئ الاوضاع السياسية العارضة ، ويبعث فيه التحرز من الناس دون ان يدع احداً يشمر بأنه يقوّمهم . اما تاسيت ، فقد رأى في التاريخ وسيلة لموعظة الناس وارشادهم : « فقد حاولت دوماً ان أبحث عن الاشياء والافكار التي تتصف بالتسامي او بالدناءة ، وانا وطيد الاعتقاد بأن الغرض من التاريخ الا تمطع الفضائل والا يُزهد بها ، وان يحسب الانسان حساب الاجيال الطالعة ، وان يتبين الضرر والاذى الذي ينجم عن الكلام الفارغ والاعمال الشريرة » . من الغلو الزعم هنا ان محاولته هذه أدت به الى النفور من الناس ومجافاتهم ، مع انه عرف بينهم حكاء افاضل ، وشهد لهم بذلك عالياً وهو مشرح الصدر ، وان كانوا قلة ، بحيث ان نفاذ نظريته التحليلية التي لم تكن لتتأني او لتهاذن ، اضفت على تشاؤمه ، حدة أكبر وعمقاً ابعد . ففي سبّره لنفوس الافراد والجماعات ، تقززت نفسه بهول ما وقع عليه بصره او صدم سمعه . فهذه الحقائق المرة من شأنها ان تصدم القارئ اذا لم يتضاعف الكاتب الفنان ، بعالم نفساني يُضفي على مشاهداته وعلى الرويات التي سمعها ... لغة جميلة ، وعبرة كريمة ، عصماء ، غنية بالشواهد الادبية والشعرية ، ولو خفض من حدة ما وقعت عليه عينه ، او ما اصطكت له أذناه ، في عبارة مقتضبة وجيزة ، مفتولة العضل ، معجزة المعنى والمبنى . فكل شيء عنده يتضاقر ليضفي على عمله الادبي قوة من الاغراء تلقي على القارئ درساً قاسياً يجعله يتشكك بأمر هذه الانسانية ، ما لم يسعفه التفكير فيرجع بالذهن ، للزمان والمكان الضيّقين ، في

النطاق الذي عاش فيه هذا المؤرخ وعمل .

بعد تاسيت ، يمكن لنا ان نضرب صفحاً عن ذكر بعض صغار الشأن من كُتّاب هذا العهد ، لنحتفظ من بينهم باسم سويتون لا غير ، الذي عالج نوعاً او فناً آخر من فنون التاريخ ، فوصف بالعالم المتقسي ، كما اصطلاح البعض على تسميته ، والشرف الذي ناله من ذلك ، لا يقلل منه ان تعرف ان علمه استأثر بالدرجة الاولى بالنكتة اللاذعة ، والتفاصيل السطحية الطفيفة الشأن غالباً ، والملحة التي تثير الغرابة . اشرأب ذهنه بما رُكّز فيه من فضول وحب الاطلاع ، الى آفاق ومجالات متنوعة : فتناول اللغة ، والصرف والنحو ، والنظم السياسية وعلم الآثار ، وغير ذلك من ابواب العلم . فقد مال لمعالجة فن السير ، وانقطع لتراجم الرجال ، وأرخ لكثير من رجال الادب ، ولأباطرة زمانه . وهذه السير التي وصلتنا ، وعددها ١٢ سيرة مختلفة ، تمتد من قيصر الى دومتيانوس . فالوظائف التي شغلها في الديوان الامبراطوري ، في عهد هدريانوس ، أتاح له البحث والتقصي في محفوظات الدولة والمستندات الرسمية والوصول الى وثائق من الدرجة الاولى في أصالتها . عُرف بالدقة ، واهتم بضبط الوقائع مجردة عارية ، وعرف ان يجانب الهوى والغرض متنبكاً عن المحايهة والاخذ بالوجوه . وكان بعيداً عن الادعاء الفارغ والغرور ، وتسليح بلغة ناصعة ، واضحة ، بسيطة ، وحرص على ان يعرض الوقائع ، كما هي ، جنباً الى جنب ، دون الاهتمام بسوقها على ترتيب زمني ، غير مبالٍ بالفكرة الرئيسية ، بحيث يرسم لنا صورة ، كيفما كانت . وهكذا يتميز في نظرنا عن تاسيت ويكمله من بعض الوجوه . إلا ان كتابة السير والتراجم ليست من صميم علم التاريخ ، والاخذ بهذا الفن من شأنه ان يضعفه . فقد عرف سويتون ان يفيد شأنًا ومنزلة من وضاعة شأن الذين نسجوا على منواله ، وحذوا حذوه ، فراحوا يكتبون ترجحات للأباطرة بعد تريبانوس ثم جمعت في ما بعد ودخلت مجموعتها في الكتاب المسمى *Histoire d'Auguste* .

يحدث بنا ان ننهي هذا البحث عن تاريخ الادب اللاتيني في الحقبة الممتدة من وفاة اوغسطس الحاتمة حتى اواخر القرن الثاني ، بكلمة مقتضبة عن تريبليانوس ، مع ان الفرصة سنحت لخصه بكلمة وجيزة ، في معرض حديثنا عن المسيحية اذ كان الكاتب الذي تصدى للدفاع عنها والنضال دونها . فهو مدين بما هو عليه من مقدرة خطابية وجدلية ، لروما ولهذه الحقبة التي عايشها ، ومنها استمد حبه للجدل وحرصه على الدقة القانونية واللهجة الخطابية التي تطبع دفاعه ، وهذه الاستدارات البيانية الإيقاعية ، وهذه التفخيمات وهذه الاستفهامات . فالشعلة التي تتأجج في صدره لا تمده بسلاح جديد يستعمله ضد خصومه من الوثنيين المشركين ، هذه الاساليب الجدلية التي طالما اتخذ منها أداة وعدة . ومع ذلك فترتليانوس هو كاتب كثير ما هاجم الحضارة القديمة : « فأني شيء مشترك بين اثينا والقدس ، وبين الاكاديمية والكنيسة » ؟ . ومهما يكن من أمر هؤلاء الكتاب الذين ناضلوا في سبيل الدفاع عن المسيحية ، وبالرغم من الطابع الثوري

لعقيدتهم ، فهم خريجو معلمي الخطابة والبيان ، تتلمذوا عليهم وقبسوا منهم . فالمسيحية ستفوز بروما ، إلا أنها تحذر من قتلها : فتتورع وتلتد .

ولكن الامر لم يصل الى هذا الحد بعد ، ونحن لسنا الا في اواخر القرن الثاني ، وفيه اصبحت روما عاصمة جميلة بدبعة للادب اللاتيني . وعرفت بعد ما تم لها من ازدهار ، في عصر اوغسطس ، ان تحافظ ، بعد عهد الأسر الامبراطورية الثلاث التي تعاقبت على الحكم ، على هذا الاشعاع الثقافي ، وان تتفادى الجذب والقحط الادبي . فقد اطلعت عدداً من كبار الكتاب اغنوا تراث اللغة اللاتينية . فضياع الحرية السياسية نهائياً لم يقعدهم او يشل منهم النشاط ، كما ان اعجابهم بالماضي لم يحل دون اصالتهم . ومع انه سبق لبعض هؤلاء الكتاب ان نكسوا المخطاط الادب في عهدهم ، فملينا ان نحترز جداً من الاخذ بتذمرات المعاصرين حول تدهور الادب ، وهي شكايات لا بد منها بعد عصر اوغسطس الذهبي .

ليس من يتجرأ ، مع ذلك ، فينكر ، بان المخطاط ذر بالفعل قرنه ، ولكن ليس بعد موت اوغسطس رأساً ، بل بعد ذلك بنحو قرن تقريباً ، عند وفاة تراجانوس او عقب ذلك بقليل ، عند موت المؤرخ الروماني الكبير تاسيت . ولكن لا بد من اشارة عابرة توضح وضع الحركة الفكرية بعض الشيء . فالادب اليوناني ، بعكس الادب اللاتيني يسجل نهضة ادبية جذيرة بالملاحظة والتقدير . فالادب اللاتينية هي وحدها التي تشكو من اعراض هذا المخطاط ، ولكن على نسبة ما هي رومانية ، اي تمثل مدينة روما العاصمة ، حيث نشأت وترعرعت .

فاذا ما عرفت هذه المدينة ، مدة طويلة ، ان تجتذب اليها حملة الأقلام ، في الولايات الغربية ، على الاقل ، فقد خسرت شيئاً من منزلتها كعاصمة للفكر في الامبراطورية ، ومناطق رحال اهل القلم حيث تختتم الميول الادبية ، وتضج النوازع الفكرية ، وتبرز الكفاءات لتعود فتنتقل منها وتشتع في جميع الجهات . فالكاتبان اللاتينيان الجديران بالذكر ، في القرن الثاني : ابوليوس ورتليانوس ، ولدا في افريقيا وفيها قضيا معظم سني حياتهما ، ولا سيما في مدينة قرطاج . وما هو اجدر من هذا بالذكر ، هو ان الكاتب الروماني ، الصميم الاصل والمستخدم ، اولو - جيل ، نزح عن روما وجاء وسكن على مقربة من مدينة أثينا . وهكذا ما لبثت روما ان اصبحت من الوجهة الادبية ، مدينة من هذه المدن الحواضر ، لا تتميز كثيراً عن غيرها من الوجهة الفكرية .

كذلك حري بنا ان نلاحظ هنا ان هذه اللامركزية التي اتسمت بها الحركة الفكرية ، برزت في مجالات اخرى . فقد اخذت الولايات تنزع الى اشد اواصرها وروابطها الاقتصادية بعضاً ببعض ، دون ان تلوي على روما العاصمة بشيء ، حتى ان اعضاء مجلس الشيوخ انفسهم كانوا يشعرون ، وهم يضطلعون باعباء مسؤولياتهم الادارية ، بشيء من الفصاة ، ازدادت مع الوقت ، لفصم علاقاتهم مع الولايات التي ولدوا فيها وترعرعوا في اجوائها . فهل في ربط هذا الشعور بالحركة اللامركزية التي بدت بوادرها ، ما يلقي ضوءاً على الوضع ؟ قد يكون ذلك ، اذن ، الجزم والقطع إثباتاً للرأي ، يقتضي له حل بعض الأمور النظرية ، والتوقيت الزمني لما بين هذه

القضايا من ترابط وتماصك بعضها ببعض، اذ كل هذه الأمور تكشف عن تطور عام انطلق بوضوح منذ مطلع القرن الثاني واخذ يتسع ويتضخم مع الزمن .

٣ - الآداب اليونانية

منذ هذا الانبساط الفكري والتفتح العقلي الذي مر على الشرق ، إثر فتوح الاسكندر ، عرف الشرق الهليني ان يفيد من هذه اللامركزية الادبية التي أخذت بوادرها تدب ، هي الاخرى ، في الغرب اللاتيني . فقد كان لأثينا منزلة رفيعة ، في كل ما يتصل بالادب والفنون الجميلة ، او ما يتعلق بتعليم الخطابة والبلاغة والفلسفة . فقد كانت قبلة انظار يؤمها مع رواد المعرفة وطلبة العلم ، كل من جاشت نفسه بالعظائم واشرب الى العلى ، او رغب في ان يستمتع بعشرة هذه المجتمعات التي صقلت منها الاذواق وحلت العقول . فقد اتخذ منها داراً ، في النصف الثاني من القرن الاول ، وفي القرن الثاني ، كل من الكتبة والمفكرين ، كالفيلسوف الفيثاغوري ابولونيوس ده تيان ، القبادوقي الاصل والنشأة ، والخطيب المفوه ديون الملقب بالذهبي الفم ، من مدينة بروس من اعمال مقاطعة بيشنيا ، والمؤرخ اريانوس النيقوميدي ، والهجاء السليط اللساني لوقيانوس السميساطي . وبين هؤلاء من أصهروا في اثينا ، واستوطنوا فيها ودخلوا الوظائف الادارية وتولوا ادارة الاكاديمية امثال امثونيوس المصري الاصل ، كما سكن غيرهم فيها وقالوا حق الرعوية ، ورقنوا الى منصب الاروباغوس ، امثال فيلوبابوس الكثير البذخ ، وهو حفيد ملك صغير على مقاطعة كوماجين ، جرّده الامبراطور فسبسيانوس من الملك . وهذا الاشعاع الفكري ينطلق من اثينا ، يبرز على أشده في كل من عواصم الشرق الهليني الكبرى : كالاسكندرية وانطاكية ، وأفسس وبرغاموس . زد على ذلك ان الشرق الهليني ، ألّف منطقة ممتازة لفريق من الاساتذة والمحاضرين المتجولين ، ينتقلون من مدينة الى أخرى ، يلقون فيها من الخطب والمحاضرات ويعالجون من الموضوعات ، ما يثير حولهم لغَظاً ، قد ينتهي ببعضهم الى شيء من الشهرة والى بروز كفاءات نخبة . وهكذا أمكن للأدب اليوناني ان يزدهر ويحظى ببعض الألق في أماكن مختلفة ، وهي حركة كانت روما وغيرها من حواضر البلاد في الغرب تحفل بها وتشجعها : وهكذا استقطبت روما عدداً من كبار ممثلي الثقافة اليونانية ، في هذا العهد ، امثال : سترابون وذوذوروس الصقلي ودينيسيوس الهاليكراسي ، كما ان الامبراطور فسبسيانوس رحّب احسن ترحيب ، بمقدم المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس الى روما ، وأنعم عليه بالرعية الرومانية بعد ان استسلم ، عام ٦٧ ، للقوات الرومانية التي قمعت ثورة اليهود بقيادة تيطس . وفي روما وُضِعَ يوسيفوس تاريخه المعروف عن الشعب اليهودي ، كما أرّخ لثورة اليهود الكبرى التي أخذها تيطس بالنار والدّم .

هؤلاء الادباء الاربعة الذين ألمعنا الى اسمائهم أعلاه ، كان إشعاعهم ضعيفاً بين انحطاط ونهضة بحيث لا يتألك المؤرخ ان يرى الثقافة الهلينية ، خلال هذين القرنين ، تصاب بالمعجز والقصور ، اذ لم تعرف ان تسجل بين حلة الفكر ، اذ ذاك ، من يفضلهم اثرأ ، بعد ان لم

يُحسبوا لقيمتهم الأدبية حساباً، في عملية تقويم القيم الفكرية. والصحيح ، انه لا بد من الاعتراف هنا بوضاعة الانتاج الفكري الهليني خلال القسم الاكبر من القرن الاول للمسيح . فالكشف عن الاسباب التي أفضت بالادب الى مثل هذا الوضع الزري ، قضية أخرى ، لا يمكن ردها ، بحال من الأحوال ، لهذا الموقف السيانى والاداري المتسم بالحذر وعدم الثقة ، يقفه الاباطرة اذ ذاك ، من الشرقيين ، الذي لا يمكن ان يحر لوحده الى مثل هذه النتائج .

ووضاعة الانتاج الادبي هذه ، اتخذت ذريعة او ازادة يستتر بعض مؤرخي الادب وراءها ليتجاهلوا او ينكروا هذا الانبعثات أو اليقظة الفكرية التي ظهرت بوادرها ، منذ أواخر القرن الاول وشملت القرن الثاني بكامله . فكلمة « انبعثات » ، لا تبدو هنا ، فضاضة ، يا ترى ؟ ومها يمكن ، فهي الكلمة التي اصطلح مؤرخو الادب على استعمالها تعبيراً منهم عن هذه الظاهرة الفكرية ، وان راح البعض الآخر منهم يُورّي عنها بكلمة : ازدهار رجبى او رجبى . وسواء اكان هذا ام ذاك ، فالامر سيان عندنا . فالنشاط العلمي يبذله بطليموس الاسكندري وجالينوس البرغامى ، يصحبه انتاج ادبي أخذت قيمته تبرز أكثر فأكثر وتتنضح . ففي الحين الذي اخذ الهبوط أو الانحطاط يدب بالآداب اللاتينية ، نرى الآداب اليونانية ، تأخذ من جهتها ، بالاشعاع بعض الشيء . وهذه اليقظة دليل قاطع على انتعاش الحياة في عالم اخذ ، في هذا الوقت بالذات ، يد الامبراطورية الرومانية بقنصل من أصل اغريقى ، بانتظار الساعة التي يزودها فيها بأباطرة اغريقى او متهلينين ، ويبعث ، الى الغرب ، ما لم تكن سبقت ونشأت فيه من قبل ، بعقائد دينية جديدة . فالتأكيد هنا بان الثقافة الهلينية بقي لها سطو شديد ونفوذ قوى في روما ، خلال الاسرة الانطونية ، لا يفيد شيئاً . فلم تتمتع هذه الثقافة يوماً في روما ، برعاية وكفالة مثل التي نعمت بها في عهد هدريانوس مثلاً ، الذي كان بثقافته يونانياً أكثر منه رومانياً ، وعندما راح الامبراطور مارك اوريل يميز بنات افكاره ويسجلها سواداً على بياض ، قرر كتابتها باللغة اليونانية .

بلوطارخوس Plutarche بين رجال الفكر في هذه الحقبة ، لا بد من التنويه عالياً ببلوطارخوس ، لانه أسبقهم في الزمن ، ولانه لا يمكن ان نفرق بين المفكر وبين الكاتب الذي كانه هذا الاديب الخصب بعد ان تناول في كتاباته شؤوناً عدة من شؤون الفكر . ليس أبسط لعمري ولا أكثر وحدة ، من هذا المساق الهادي الذي انتظم سلك حياة هذا السيد الاغريقى ، الرخي البال ، الذي رأى النور في مدينة بيوتيا ، في غرة القرن الأول . فبعد دروس عالية ناجحة في اثينا ، واسفار عديدة القى خلالها محاضرات في الفلسفة الأدبية ، نالت استحسان روما ودويأ بين منتدياتها وصالوناتها الادبية ، استقر ، وهو في الاربعين من عمره ، في وطنه الام ، في اليونان ، الغافية تحت السيطرة الرومانية ، يتولى منصباً ادارياً في مسقط رأسه ، ويقوم بوظيفة كهنوتيه في دلفي ، يعيش ايامه في عشرة موصولة بين صحبه ورفاقه ، يتناقشون ويتذاكرون ، يتفرغ للكتابة ، ولهذه الاعمال الموكولة اليه ، مدة اربعين سنة . فساعدت

مناقشاته ومجادلاته مع صحبه وخلانه ، على توضيح افكار هذا الرجل الوداع ؛ وهذا الحلم الذي استنكف عن ان يستخدم ثقافته العريضة الواسعة ، وكفاءاته ككاتب لامع ، لتوفير اسباب الشهرة له ، فأتته صاغرة طائعة ، دونما صخب أو لَجَب ، على اجنحة من اعجاب الناس وتقديرهم العالي له .

تقسم مؤلفات بلوتارخوس الى مجموعتين ، اطلق مؤرخو الادب على الاول منها نعت : « الآثار الاخلاقية » ضمت ٨٠ بحثاً مختلفاً في موضوعات ادبية شتى ، ساق بعضها احاديث حية ، مرحلة ادارها بينه وبين صحبه وخلانه . ومع ان معظم هذه الابحاث تناولت قضايا فلسفية ، أدبية ، دينية ، ، فلا نرى بينها ، مع ذلك ، ما يمكن اعتباره مذهباً عقائدياً خاصاً به . افلاطوني النظر والمنهج ، فقد تفاعل ، بعض الشيء ، بتعاليم بعض المقاتلات الفلسفية الاخرى ، ما عدا الابيقورية منها . وقد تركت الرواقية فيه بعض اثرها ، مع انه تناولها بالنقد والجرح ، اذ قام بينه وبين هذه الفلسفة ، من الوجهة الدينية ، هوة عميقة الغور ، حالت دون قيام تقارب بينهما . ويمكن لنا وصفه بعبارة وضعها هو على لسان احد جلسائه : « هدف الفلسفة اللاهوت » ، واستطاع بما وضع من تفسيرات وشروح رمزية المعنى والمدلول ، ان يوفق بين اهتمامه بهذه العقائد الشرقية — اذ له بحث يفيض بالمعلومات الدقيقة حول « ايزيس واوزيريس » — وبين احترامه العميق للطقوس الدينية القديمة في اليونان . وهذه النزعة ينزع بها نحو الوثام ، جعلته بالفعل ، يفيض ، بوصفه مرشداً دينياً ، بنصائح وارشادات تتناوح بين التشديد والتسامح . فقد عرف ، بما تم له من نفس مستقيمة ، صافية الاديم ، ان يجانب الضغط القاسي الذي لا يرحم ، وان يعتصم بلهجة كل ما فيها جديد .

اما مجموعته الثانية ، فلنحذر ، في تقويمها ، الاخذ بالشهرة التي اضفتها على : كتاب الابطال ، الثورة الفرنسية . فقد وضع في كتابه هذا ٢٥ زوجاً من السير المتوازية ، اذ يضع تباعاً حياة رجل دولة يوناني ثم يردفه بحياة روماني . وفي سبيل وضع هذا الكتاب ، لم نره قام لأجله ، بتحريرات وتقصيات دقيقة من الدرجة الأولى . فقد راجع ، في هذا السبيل ، كثيراً ، وخير ما وصلت اليه يده في الموضوع ، بحيث ان المؤرخ لا يزال يجد فيها اليوم ، مادة طيبة له . صحيح انه يتعمل في سرده ، بحيث يورد لنا ملحاً مستظرفة صغيرة ، ودقائق وتفاصيل يرى فيها ما يفرد الرجل ويميزه ، من خلال عمله او وظيفته . وهذا المرشد الاخلاقي الذي كانه ابدأ ، والذي يتخذ له من التاريخ وحده كتاباً ، ينتصب امامنا ، بلحمه ودمه ، في هذه الملاحظات الشخصية والتعليقات التي يبدئها بشيء من الافاضة والاستطراد . فالاستقامة التي اتصف بها تصونه من زيف التاريخ . فهو يرفع ابطاله الى مصاف العظماء ، تقوم مقدرته الحقيقية باساعة الحياة في شخوصه فينبضون بها بصورة دراماتيكية ، بفضل ما اضى عليهم من الوان وافياء ، وانوار وظلال . وبفضله استطاعت اجيال متطاولة ، ان تفهم ، كل على هواها ، التاريخ القديم حسبما تريده . فاذا ما زينت للبعض نفوسهم ان يروا في هذه الأبطال او العظماء ، الفضائل المثالية التي يهفون اليها ،

اوان ترى سيدة ، كمدام رولان ، في هذه التراجم : « زخراً للنفس الكبيرة » ، فليس بلوتارخوس بمسؤول عن ذلك .

والطريف واللاذيق معاً عند بلوتارخوس ، هو انك لا ترى عنده أي أثر خطابة ، تاريخ ، فلسفة
للاسلوب الخطابي إلا ما وضع منها في شرح الشباب ، هذا الاسلوب الذي راج أياً رواج ، هنا في هذا العالم اليوناني ، وهناك ، في العالم اللاتيني ، مع ما رافق ذلك من جدل ونقاش بين مختلف التيارات الادبية ومذاهبها ، وان كانت النزعة الاتيكية هي الغالبة ، اذ لم يحلّ تمسك انصار هذه النزعة بالشكليات اللسانية واللفظية ، من تدوهم الاسلوب البياني الخطابي . بعض هؤلاء الخطباء تبلغ منهم البلاغة ، شهرة واسعة ، فتطير اسماء اصحابها بعيداً ، بينهم مثلاً : ديون ، الذهبي الفم ، الذي ابعده دومتيانوس عن روما ، ثم اعتنق مقالة الرواقين فراح يدعو لها متنقلاً بين مدينة واخرى ، وايلوس ارستيدس الذي يُعدّ من هؤلاء الكتاب الاسويين الذين طارت شهرتهم في عهد الاسرة الانطونية ، والذي راج في خطابه : « الى روما » يشيد عالياً بما في هذه المدينة الخالدة ؛ وهيرودس أتيكوس ، صديق الامبراطور هديانوس ، ومعلم مارك اوريل ، من نصراء العلم الاغنياء الذي هت ان يزين اثينا وغيرها من المدن اليونانية بأبدع الحلي ، ويبنى عدداً من المعابد والهيكل . و نراهم ، في القرن الثاني ، يفاخرون مباهين بتسمية أنفسهم : « سفسطائيين » وهي تسمية تكالب افلاطون على تحطيمها وانهاكها . فاذا ما تمت لهم جميعاً هذه المقدرة الخطابية التي عرفها السفسطائيون اثناء حرب البلوبونيز ، وعرفوا ان يثيروا ، على شاكلتهم وأكثر ، الفضول والحماسة ، أينما حاضروا او خطبوا ، نسبة لما كان عليه اهل العصر من تدوق البيان الرفيع والثقافة العامة ، فلم يكن في مقدور أي واحد بينهم ، باستثناء جورجياس وزملائه ، ان يطلع ، على اهل زمانه ، بأثر خليق بالذكر ، بالفريق الآخر الذي لقب نفسه بـ « السفسطائية الثانية » ، او ان يحدثوا ثورة روحية .

اما التاريخ ، فلم تكن قسمته ضئلي ، اذ اطلع لنا اريانوس Arrien من مدينة نيقيوميديا في بثلينا .

فنصل قبادوقيا وحاكمها في عهد هديانوس ، جاء أريانوس ، اثينا ، بعد انتهاء مهمته ، واتخذ منها دار سكنى له ، وانصرف فيها يكتب ويؤلف ، ويضع بضعة ابحاث في موضوعات شتى . وأهم آثاره على الاطلاق : « تاريخ الاسكندر » الذي لم يكفه ان هذا فيه حذو كسينفون في بساطة الاسلوب والعبارة ، بل راح يسميه كما سمي كسينفون نفسه كتابه : « أناباز Anabuse او « الرحلة » . ومن فضله البارز انه عرف ان يفيد كثيراً من هذه المصادر الاصيلية التي رجع اليها - ومعظمها مفقود اليوم - المتعلقة بفتوحات المقدوني الكبير ، هذه المصادر التي أهملها كوانت - كورس . والمؤرخان المعاصران له : بوزنياس البريحييت ، وأبيانوس الاسكندراني اللذان لم يبرهننا قط عن روح نقدية في ما وضعاه من كتب : الاول في الوصف الجغرافي لليونان ، والثاني

في تاريخ حروب روما : مع السمينين والاسبانيين وقرطاجة . وبعدها بقليل ، يطل علينا ديون كستوس ، حفيد ديون الذهبي الفم ، الذي بعد ان نال القنصلية مرتين في عهد اسرة ساويروس ، وضع لنا كتابه : « تاريخ الرومان » الذي يمور بالاسلوب الخطابي ، مع انه جمع كثيراً من المصادر الاصلية . ومع هذا ، وبالرغم من التحفظات التي لا بدّ من ابدائها بحق الآثار التي خلفها لنا هؤلاء المؤرخون اليونان ، تجدر الملاحظة هنا ان الكتب التي وضعوها في تاريخ روما ، تفضّل بكثير ، هذه التواريخ التي وضعها لها ، معاصرون لهم من مؤرخي اللاتين ، في هذه الحقبة .

فلا افكار الفلسفية المنتشرة في جميع أرجاء الامبراطورية الرومانية ، هي هلينية الاصل والمنشأ ، وبقي العالم الروماني يحتل المرتبة الاولى في تعهده لهذه الفلسفات الدينية . ويكفي ان 'يحمل القارئ هنا، على ما ورد بهذا الشأن في البحث المعقود حول الوثنية واليهودية، لنندرك لماذا لم تلتق الرواقية ، وهي أكثر التعاليم الفلسفية نفوذاً وشيوعاً، من كشف عنها ، في بعض مؤلفات خاصة مهمة للغاية . فقد حفظ اريانوس في كتابه : « خواطر » *Entretiens* ، وفي كتابه الآخر : « الدليل » *Manuel* ، اللذين لا يخلوان من مقاطع لها سحرها وفتنتها ، اثبتنا بوضوح ، هنا وهناك من مظان الكتاب ، حول تعاليم هذا الرقيق القديم ابيكتيتس . وقد وضع مارك اوريل في « الافكار » وهو المعروف بانشائه المتقطع المتفاوت — كأنّ به مجرد رؤوس اقلام وضعت على عجل — وهي مفكرة يومية لأحد الاباطرة . فالتعليم واحد هو : الخضوع الاداري للعناية الإلهية ، التي بدلاً من ان تقضي على نشاط الانسان ، تحرّكه وتوجّبه . إلا ان الامبراطور ، في ما تم له من مجد وعظمة ، يلاقي من المشقات والعناء في تطبيقه هذه التعاليم ، ما لم يفرض هذا الرقيق تنفيذه ، من قبل . وهذا لا يعني ان مارك اوريل كانت تعوزه القوة ، انما يبدو عليه انه أكثر تصنعاً ، واقل قسوة ، كما انه اقل وثوقاً بنفسه . وبدون أية شفقة على نفسه ، وببصيرة شعزتها ارادة قوية ، وضّح التكامل النفسي نصب أعينه ، نراه يدوّن شكوكه ومجالدات النفس وكبح ميوله ، ومقاومته للضعف البشري ، ووقوفه في وجه المؤثرات الخارجية التي تجرّب اخراجه عن جادة الحق والرشد . فما من أدب من آداب العالم ، وما من أثر فكري بلغ مسامعنا ، يشهد بأعلى واحسن ، على هذا الاخلاص الصافي في محاسبة النفس ، عند شخص خليق بالاحترام والحب ، وجدير بأن يشفق عليه لأنه وضع نصب عينيه ، طوعاً واختياراً ، راضياً مرضياً ، بلوغ مثل هذه العظمة .

لا بد من ان نختم بحثنا هذا بكلمة حول لوقيانوس الذي يحتل مرتبة خاصة .
 لوقيانوس *Lucien* فبين مؤلفي الحقبة الموافقة لعهد الاسرة الانطونية هو اكثر هؤلاء الكتاب فردية ، ولذا يخرج على كل تصنيف وعلى اية صيغة ترابط . فبقدر ما يمكن ان نعتبر رسائل الهجو *Pamphlet* فناً من فنون الادب ، فهو خير من يمثل هذا الفن ، وخير من اتخذ منه أداة لجلد الآخرين ولنقد الناقدين انفسهم .

سوري الاصل والمحدث من مدينة 'ميميساط' ، في مقاطعة كوماجين ، فقد تأغرق ثقافة وعقيدة ،

فبعد ان بلغت شهرته الخطابية أرجاء غالبا ، نراه يقاطع السفسة ليقم طويلا ، في اثينا ، قبل ان يعين لوظيفة ادارية في مصر . فالادب اليوناني مدين له بعدة آثار كتابية ، بعضها رصين ، رزين ، وهي ليست قط بأجودها ولا بأفضلها ، والبعض الآخر ، ادب سليل ، هازئ ، ساخر ، متهم ، بشكل محاورات ، له منها مجموعة تعرف بـ « محاورات الاموات » . سدد سهام نقده للفذاهب الفلسفية اجمع من خلال نقده للفلسفة ، فلا تفلت من لسانه شيعة او ملة أو مذهب ، أو مقالة ، حتى الفلسفة الابيقورية والفلسفة الرواقية او الكلبية . فاذا لم يُثر كل مذهب في نفسه الامتعاض والقرع ، فقد يسبب ما يقرب من ذلك إذ ان العقل الفلسفي والروح الدينية هما ، في نظره ، اعدى اعداء المثالية الهلينية على الاطلاق بما يضيفان عليها من رمزية غائمة ، هذه المثالية التي كانت تتمثل بهذا المنطق الجلي ، الواضح المعالم ، الذي كان في نظره ، ابرز خصائص الحضارة الاثينائية ، ومن اظهر سماتها المفردة . الا انه على شيء من قصر النظر ، اذ فاتته ، على ما يظهر ، ملاحظة قوة التجريد التي جاءت تكل عند أمثل رجال الفكر الاغريق ، في القرن الخامس ق . م ، فلسفة العقلين الجافة . فلم تضعه التربية التي تلقاها ، وجهاً لوجه امام مشكلات العلم وقضاياها . نراه يصول ويحول عندما يخطر له ان يسلط سياطه ، على هواة الخطب الهوائية الجوفاء ، والاساطير الرمزية ، وهؤلاء المدجلين ، المدلسين الذي يهيمنون على معرفة امرار الغيب وفوائحه المطبقة ، واتباع مذهب زينون وتعاليمه الكالحة الجافية ، واتباع الفلسفة الافلاطونية ، المتظاهرين بالعظمة . فخياله الحصب الولود يستنبط دوماً اوضاعاً تبث على الضحك وتثير الجون ، يسري بها على القارىء ، لا يتهبب من التعريض بالآلهة ويسلقها بالسنه حداد ، كل ذلك بلغة عامرة ، بليغة ، وعبارة رشيقة ، وتعبير دقيق ، واسلوب يور بالحياة والحركة ، والتهكم . ففي عصر من سماته الفارقة التشبه بأساليب الأقدمين ، فهل ألتبق من لوقين لتمثيل اصحاب التيار « الاتيكي » ؟

للقيانوس مقلدون كثر ، حذوا حذوه ، فلا عجب . ان يشك ، والحالة هذه البعض ، في بعض الآثار الفكرية المنسوبة له . وعلى كل حال ، فهذا الكاتب اللامع الذي اسلوبه يلسع وينفذ الى الصميم ، لا يمكن إلا وان يترك له في الارض تلاميذ ينسجون على منواله . فلم يكن ليعالن المستقبل بكفاحه المير ضد التيارات الجارفة التي كانت تجر معها الحاضر . فالنشاط الادبي والفكري في العالم الاغريقي ، بقي على سيره المطرد الذي حاول لوقيانوس ان يزحزحه عنه ويخرجه منه . والحق يقال ، فهذا الكاتب السوري الاصل ، الذي استهواه سناء تاريخ اثينا في قرونها الكلاسيكية العظمى ، والذي راح يكافح ، وينافح ضد النزعات والتيارات التي انبثقت من هذا التآلف بين اليونان والشرق ، فأدّى الى مثل هذا الازدهار ، يُعده ظهوره أكثر من مفارقة ، فقد جاء في غير اوانه وزمانه .

٤ - الانجازات الهندسية والزخرفية

اذا ما اردنا ان نقف عند المدلول الحرفي لهذين المصطلحين ، كان لزاما علينا ان نأبى الاعتراف

بأي فضل لهذين القرنين ونرفض التسليم بأي يد لهما على الانشاءات والانجازات الفنية . لما من انشاءات فنية جديدة فيها ، وان حدث وتم شيء من ذلك ، فأمر نادر جداً ، والنادر لا يقاس عليه . فليس من الغلو بشيء ، والحالة هذه ، ان نرى في هذه الانجازات ، أية قيمة فنية جديدة بالذكر . غير ان من واجب تاريخ الحضارات ان ينظر اليها من ناحية اخرى . فالعمل البنائي الذي أنجز وتم ، باعتباره واقعاً تاريخياً حدث في الزمان والمكان ، هو تعبير للنشاط المجتمعي ، تحيز في دور معين من أدوار التاريخ الروماني ، وهو عمل ضخيم ، لم يفقد شيئاً من قيمته بزوال الامبراطورية الرومانية . فاذا كانت هذه الخلفات ليست اليوم بالوحيدة ، كما بدت عليه في عصر النهضة والانبعاث لتعطينا فكرة صادقة عما كان عليه وضع الفن في التاريخ القديم ، فبإمكان هذه الآثار الباقية معروضة في المتاحف او منتسبة تنطق وتحدث ، في هذه المشاهد التاريخية القديمة ، يستطيع المعاصرون اليوم بواسطتها ان يتصلوا بهذا التاريخ . ولذا تبقى لها ، على الأقل ميزة واحدة الا وهي تزويدنا بفكرة عن عالم تم له من اسباب الغنى والثروة ، وجاش بمثل هذه الاماني العراض ، لا يمكن ان يشيد له الحضارة التي راودت خياله ، بدون ان يبذل مجهوداً فنياً ما .

والحق يقال ، لم يبدُ على الفن ، في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ما يدل قضية الأصالة على انه حاول التجديد في كل ما يتصل بالبحث والكشف . فجل ما طمع فيه وطمح اليه ، هو ان يواصل وان ينشر على الملأ ، المجهود الذي بذله الفن الهليني الذي عرف ان يحافظ على نشاطه ، وعلى قدرته على الانتاج . فكانت هذه الآثار التي ينتجها تتجه مع الفنانين أنفسهم صوب روما ، التي لم تكن في ما مضى معارضة لمثل هذا التيار . ومهما يكن ، فقد كان للاغريق من المرونة ، والطواعية والقدرة ، ما استطاعوا معه ، تكييف أنفسهم وفقاً لمتطلبات الذوق الروماني ، وتطوير ما يقتبسونه من عادات القوم وأعرافهم ، لينالوا حظوة لديهم وليزدادوا منهم تقرباً وتقية . قليلون جداً هؤلاء الفنانون الذي بلغتنا أسماءهم ، ممن عاشوا وانتجوا في هذه الحقبة ، حتى من كان منهم في روما وعمل فيها . معظمهم اغريق بالطبع ، عني بعضهم بالحفر والنقش ، امثال ستيفانوس ، ومينلاوس ، والمهندس ابولودوروس الدمشقي الذي كانت موضوع ثقة الامبراطور تراجانوس . وليس بغريب قط ان يُخلّقوا لهم ، في الغرب ، تلامذة ومساعدين ، بحيث نتبين سبب هذا الانتاج الوافر الذي ظهر ، اذ ذاك . وقد نشأوهم ، على شاكلتهم ومثالهم ، وفقاً للقضايا والمشاكل التي استبدت بتفكيرهم . فما من شيء هام ظهر في الغرب ، اذ ذاك ، كان يعمل وحده في الميدان مستقلاً إلا وتنتقل عدواه الى الشرق . فليس من الغلو بشيء ان ننظر الى الفن في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، في ما تم من مظهره العام ، اذ ذاك ، كحقة من حقب الفن الهليني ، بلغ فيها هذا الفن ، جميع اطراف العالم الروماني .

من المعلوم ان كل تحديد هنا يبقى تحديداً مقتضباً ، مبسطاً ، فهو يحتاج الى بعض الايضاحات التي يتباين الاخصائيون حولها ، رأياً وقولاً ، وبغف احياناً ، من حيث تحديدها وتقييمها .

هنالك فريق كبير بينهم ، يؤكد باصرار ، أصالة الفن الروماني ، في هذا العهد ، بينما يحاول فريق آخر ان يميز ، بنوع خاص ، الفنون التي تجلت في الولايات . كل هذا يتطلب ابحاثاً وتحريات دقيقة ، مكنت لها النجاحات التي حققها علم الآثار ، إلا ان بحثنا هذا لا يتسع لها ، بكل اسف . علينا ان نقتصر هنا ، فيما يتعلق بفن النقش والهندسة المعمارية ، على أهم العناصر التي تقتضيها كلمة تكميلية عامة للتعريف ، تبقى مع ذلك عرضة للنقاش ، اذ رأينا ان لا مندوحة من التقدم بواحدة منها .

فن النحت والمذهب الواقعي
تحرّز الرومان انفسهم من كل اعتداد او مباهاة لم يستحقوها . فقد كتب فرجيل بهذا الصدد في ملحمة الانياذة الخالدة قائلاً : « لينحت سوانا ، بهارة أكبر ، كما اعتقد مخلصاً ، تماثيل من البرونز تستنشق الهواء ، وليحفروا لنا في المرمر وجوهاً تطفح بالحياة ، بينما يحتفظ الرومان بفن حكم الشعوب وادارتها » . ولكن هذا التواضع الذي يخفتي وراء هذا الاقرار العلني ، لا يصح إلا في المجال الفني الاستثنائي او عندما يُطبّق على جنسية هؤلاء الفنانين ، اذ ليس من ينكر ان النحاتين اليونان الذين كانوا يعملون في خدمة الرومان ، اضطروا ان يكيفوا ابحاثهم وفقاً لمقتضيات الفن الاغريقي ، التي وان لم يكونوا يحلوها - وهل كان الفنان الاغريقي يحيز لنفسه ان يحلها بعد ان أوتي مثل هذه الروح الطليعة التي لا تتي ولا تمل - أهملوا مع ذلك ان يتقيدوا بها ، او اسقطوا العمل بها بالكلية .

وقد استعان الفنان الاغريقي في انتاجه هذه الآثار الفنية التي ظهرت في عهد اوغسطس ، بهذا الوقار الديني وهذه الأنفة القومية ، وقد يكون حدث ذلك بعد ان كانت ضعفت لديه هذه المشاعر ، في بعض الاحيان ، وخلال بعض العهود . فهي تظهر في اوقات اخرى ، في هذه النقوش النافرة التي طلعت علينا في عهدي ترايانوس ومارك أوريل لدى ترؤسهم احتفالات دينية رسمية . فقد كانت جزءاً لا تتجزأ من فلسفة الحكم ، لازمته وفرضت نفسها عليه ، عندما كان يشترط ان تأتي وفقاً لمشاعر المواطنين واحساساتهم وتقديراتهم . ولكن لات ساعة الانجازات الفنية العظيمة التي تمت في عهد اوغسطس . فتماثيل الاباطرة وهم مرتدون التوغة (La Toge) او الدروع المعلقة ، وهذه المواضيع التي ترمم لنا تقوى الاباطرة وكرمهم ، كلها غامت في التقاليد والاعراف التي استبدت ، وفقدت من جراثيم تمتعها المفرط بالحرية ، ما لها من قوة التعبير والمداول ، التي كانت تشع منها .

فالزعة الواقعية استمرت مدة اطول وظهرت في اكثر من شكل وصورة اولها على الاطلاق تحيز قسما صورة الشخص . فهذا العدد العديد من التماثيل والتماثيل النصفية ، وهذه الانصاب الجنائزية ، كلها تم وضعها ، اذ ذاك ، وقد افرغت معظم رسوم الرجال والنساء في وقفة تظهر منهم الملابس وملامح الوجوه ، حتى في عريها ، اذا ما اقتضى الامر ، وفقاً لنماذج تقليدية

وجدوا منها الشيء الكثير بين هذه القوالب التي تم صنعها على يد الفنانين الاغريق، وزادت عليها روما الكثير، بفضل المثالية التي طلع بها صديق الامراطور هدريانوس المهندس انطينوس. غير ان اشتداد الطلب على هذه الآثار، اضطر رجل الصنعة، بنسبة اكبر مما عرف عنه في مصر الفرعونية وفي الحضارة اليونانية، على صنع تماثيل شبه جاهزة، يضيفون اليها، عند الطلب او التقدم بشرائها، رأساً يُصنع على عجل، يمكن استبداله احياناً، حتى ولو كان التمثال لاستخدام الاباطرة انفسهم. الا انه في بعض الحالات، كان النحات يتفانى في نحت قسبات الوجه بدقة معجزة، فيرسم اسارير الوجه، وما ارتسم عليه من سمات وعلامات فارقة او شوه طبيعي، وغضون الجبين او بثرة ظاهرة، او خال، مع موقع الشعر ومفرقه على الرأس. من النادر جداً ان تتجاوز هذه الروح الواقعية الفرد او الحادث، فيحاول النحات ابرازهما بصورة تعبيرية تبرز مكنونات النفس البشرية، وبعض الانطباعات والاحاسيس الداخلية، وكلها امور لم تتم الا في هذه التحف والروائع الفنية المشهورة التي قلما جاد العهد بمثلها. وهذه الدقة المعجزة، أتاح لنا اليوم، ان ننعم برسوم فنية تعبيرية، واحياناً، عند تغيير الازياء النسائية (الموضة)، ببعض مواقف ثابتة للزينة النسائية، فيتوفر للمؤرخ بذلك، قواعد للتأريخ وتحديد الازمنة بصورة ادى. وهكذا لا بد لفن نحت التماثيل الرومانية، من ان يثير اهتمام المؤرخ، مع انه كثيراً ما يجعل هوي الفن الروماني جامداً لا يتحرك.

وعلى هذا قس عدداً من الرسوم الناتئة التي تمثل حوادث تاريخية بلغ من دقة نحتها وشدة مطابقتها للواقع ان كونت مستندات ثمينة للغاية، لا يتوفر مثلها في النصوص الادبية التي وصلتنا، او تبقى هذه النصوص حيالها مقتضبة موجزة. بالامكان الاتيان بأمثلة عديدة. من ذلك مثلاً، قوس النصر الخاص بالامبراطور ترايانوس، والمسيرة المظفرة مع الاسلاب المأخوذة من القدس. وفي صورة ناتئة تقوم على فوروم ترايانوس، في روما، او على احد الاعمدة التي يقوم عليها قوس النصر الخاص بترايانوس، في مدينة بنيفانت حيث تبرز مؤسسة الاطعمة *Alimenta*. لا بد من ان نذكر هنا، بنوع خاص، الرسوم الناتئة، على اكليل اعمدة المرمر المعروفة بأعمدة ترايانوس ومارك اوريل، اما الصور التي تمثل المعارك التي تقع في وقت واحد مع غيرها من الحوادث، فشيء معروف في الفن الهليني، كما يظهر على افريز جداري. وصورة البرقع المتدلى بشكل حازوني، شيء جديد على الفن في روما، وان كانت له جذور في مشاهد سابقة، في الشرق، وفكرة التعبير عن متابعة السير مع مرور الزمن، مع مشاهد متنوعة من مفاوضات، ومعارك وحصار مدن، ومذابح، وصور استسلام، كلها صور ترسم سلسلة من الحملات العسكرية تشير هنا، الى حروب ترايانوس ضد قبائل الداس - وهي ١٢٤ مشهداً يشترك فيها ٢٥٠٠ شخص منحوتة صورهم على حائط طوله ٢٠٠ متر - كما يشير هنالك، الى حروب مارك اوريل على الدانوب. وقد ابى الضمير المسلكي عند الفنانين ان يتأثر بعدم استطاعة المشاهد، التقاط هذه المناظر، بالدقة المطلوبة، اذ يوجد بعضها على ارتفاع ٣٠ متراً. فايما وقع نظر الانسان، طالعة هذه الدقة تبرز على أتمها في مشاهدة الملابس والاسلحة، وكلها متشابهة،

والمباني وانشاءات المهندسين الرومان تبرز بدقة كلية وكأن بهذه الرسوم الناقصة على هذه الاعمدة مطروفاً (ألبوم) من الصور الحية ، لا بد للمؤرخ من الرجوع اليها ، ليس فقط للتمييز بين البرابرة والجيش الروماني ، بل ايضاً ليستحضر في ذهنه سلسلة من الحوادث تبقى حيالها المصادر التي عول عليها ، شبه صامتة ، لا تثبت بينت شفة .

وليس بغريب قط ان يسير الفن الخاص على منوال الفن الرسمي ، اذ كثيراً ما نجد الرسوم الناقصة على القبور والمدافن ، تمثل حوادث ومشاهد حياتية تمت للتوفى او للبيئة التي عاش فيها بصلة وثيقة . من ذلك مثلاً ، المشاهد المأخوذة من المقاطعات الغالية حيث لم يستنكفوا قط ، كما سبق وأشرنا الى ذلك من قبل ، من تمثيل مزاوله المهنة بشيء من الفخر والمباهاة ، اذ اخذ الفنانون يمتنون عناية خاصة ، بالحوادث اليومية وحاولوا ابرازها على شكل يبدو عليهم تقصيرهم الفني ، ومع ذلك فنظرها بيعت الارتياح . وهكذا نرى المجموعات العامة للرسوم الناقصة ، في غالبا الرومانية وجرمانيا الرومانية ، تؤلف مصادر ثمينة جداً لمن ينبغي من المؤرخين درس المجتمعات البشرية في هذه الحقبة وما كانت عليه اخلاق القوم ، اذ ذاك ، ووسائل النقل التجاري وأدواته المستعملة ، والاساليب التقنية والعمل المهني . ولكي يعثر المرء على شيء شبيه بهذا في الفن اليوناني ، عليه الرجوع الى الرسوم الموجودة على بعض الآنية التي يعود صنعها لقرون الفن الكلاسيكية ، مع الفارق الناجم عن ان الفنان اليوناني لم يكن ليستوحي عمله من الوضع الحياتي للزبون الذي يوصي بصنع التمثال بل يستلهم منه ، من ماجريات الحياة الخارجية . كذلك ، كثيراً ما استمد الفنانون موضوعهم من العمل في الارض وهو شيء لم يخطر يوماً على النحاتين الغالو-الرومانيين الذين لم يتقدم يوماً اليهم احد من سكان الريف الاثرياء بطلب من هذا النوع .

ففن النقش عند الرومان هو دوماً مجرد نسخ او تقليد أعمى للنقش عند الاغريق . فالآثار التي استعرضناها وأتينا على ذكرها هنا تؤلف جزءاً صغيراً من هذا الانتاج الفني الذي تم اذ ذاك . على كل هي المجازات فنية تميّزت ، يبدو منها ان روما عرفت ، في بعض الحالات والعهود ، ان تضيف لونا جديداً الى هذا الفن الذي برهن الاغريق في مزاولتهم على له انهم اربابه وأساقذته .

الهندسة المعمارية : مناهج ومناذج
من حق المرء ان يتوقع من الهندسة المعمارية أصالة أكبر مما وجد عند الرومان ، في النحت والنقش . فالاصالة هنا ، بالفعل هي أعمق وابرز . فكما ان المذهب الواقعي هو من التقاليد الرومانية المتوارثة في فن النحت الذي أفسح العهد الامبراطوري له المجال للتجلي والبروز ، في المناسبات الكثيرة ، فالانجازات الهندسية الرومانية ظهر الكثير منها قبل العهد الاخير للامبراطورية بكثير . كل ما قام في الامبراطورية او أطل عليها كان يدعوا للتجديد والابداع : هذه التقنية التي توفرت للمهندس ، وضخامة الموارد والامكانيات المتنوعة التي وجدها تحت تصرفه او متناوله ، وهذه الجدة والاهمية التي طبعت الطلبات والتوصيات تصدر عن عالم اخذ ينظم ذاته على نطاق لم يألفه من قبل لا سيما

وأحد نصفه خال من كل شيء تقريباً ، مع الملاحظة ان التجديدات الاولى ظهرت في العهد الجمهوري . فالامبراطورية لم تستنبط نماذج جديدة للبانى ، فاتجه خيال المهندس بالاحرى للتفاصيل وعنى بالمقاييس بالنسبة لما كانت عليه في القديم .

ولما كانت الضرورة تقضي عليهم بأن يبنوا بسرعة . فقد اضطروا ان يهملوا استعمال الحجر المقصوب الذي طالما عول الاغريق على استعماله ، بالرغم مما يقتضي اعداده من وقت ، وراحوا يستعملون بديلاً عنه حجارة غير مقصوبة تختلف شكلاً وحجماً ، كما انهم استعملوا احياناً ، الطوب ، يُعشّقونها بعضاً ببعض بملاط يصنعونه من الشيد وكسارة الحجارة ، قال شهرة واسعة ، مع ان هذه الطريقة افقدت فن العمارة شيئاً من الجمال الاستيكي ، جربوا ان يعوضوا عنها بالزخرفة من الداخل . وهذه الطريقة اتاحت لهم استعمال القنطرة والقوس والقبّة ، وكلها عناصر كادت الهندسة الممارية عند الاغريق تهملها تماماً مع انها اقتبستها من الشرق . وعلى هذه الطريقة حلّت قضية السطح ، وهي طريقة عرفوها في العهد الجمهوري ، إلا انهم طبقوها على نطاق اوسع فيما بعد . وخير مثال على ذلك هو مبنى البانتيون ، احفظ مباني روما القديمة ، جدد بنائه هدرانوس ، وهو اليوم احدى كنائس روما ، ورفعوا على مبنى اسطواني الشكل قطره ٤٣ متراً ونصف المتر ، قبة على ارتفاع ٤٣ متراً ونصف المتر ، هي الاخرى عن سطح الارض ، تركوا فيها فتحة قطرها ٩ امتار ، ينفذ منها النور الى كل المبنى . ولا بد من الملاحظة هنا ان سماكة الجدار بلغت ٦ امتار وذلك لتتحمل ثقل القبة وشدة ضغطها . وهكذا راح وقع تأثير القبة من الداخل يعوض عن غلاظة المبنى من الخارج . وهذه الجراءة في تشييد سقف هذا المبنى لم تتكرر بعد ذلك ابداً .

والبانتيون هيكل مستدير الشكل ، اذ انه لا يؤلف ، من حيث تصميمه الهندسي ، شيئاً جديداً ، لا في العالم اليوناني ، ولا في روما . هنالك ابنية كثيرة قامت في كلا المدينتين لم يدخل عليها الرومان سوى تعديلات طفيفة . فالطراز الهندسي المتعارف عند الاثروسك ليكل كلاسيكي ، هو الشكل الدائري ، وليس كما كان عليه عند الاغريق ، قائماً على ثلاثة سطوح ، وكذلك الأمر مع المسرح ، اذ جعلوا القسم الخاص منه بالاوركسترا على نصف دائرة ، بعد ان انقضى تماماً وزال ، العهد الذي كانت فيه الجوقة (الكورس) يتغير مكانها وفقاً لمقتضيات الفن ، وينتهي بحدار عالٍ قد يبلغ ارتفاعه احياناً ١٥ متراً ، تُنشأ امامه شرفة ومشكاة من شكل خاص ، وركيزة مستطيلة ، وصف من الاعمدة على شاكلة ما يقوم امام القصور .

فقد قام الى جانب هذه الاشياء ، إنشاءات رومانية بمحطة : هي المدرج *Amphithéâtre* وهي كلمة مشتقة من كلمة مقعد باليونانية ومن الزائدة *Amphi* التي تعني : حول ، وهذه المقاعد تقوم حول حلبة أو ساحة ميدان ، إهليلجي الشكل ، حيث كانت تجري معارك المصارعة . اما البعض من اصحاب الاختصاص ، فقد يرى في هندسة مثل هذا المبنى تصميمياً اثروسكي المنشأ ، جرى اقتباسه من الشرق أو اليونان ، وهو رأي لا يزال العلماء يختلفون حوله

ويتناقشون ، إلا ان الرومان أدخلوا عليه من التعديلات الأساسية بحيث يصح معها اعتباره من مستنبتاتهم الخاصة . وهذا الطراز المعماري ، برز في هندسة السرك ، اذ لا يختلف تصميمه الهندسي لدى الرومان عنه عند اليونان ؛ وجعلوه كله من البناء ، بدلاً من استخدام سفح جبل أو منحدر هضبة . كذلك برز في تصميم البازيليك *Basilique* المستوحاة هندسته من هندسة الأروقة الملكية الهلنسية ، التي أصبحت على مر الزمن صالة كبيرة مستطيلة ، تنقسم من الداخل ، طولانياً الى ثلاثة صحن ، بواسطة صفين من الأعمدة ، وفيها كان يجلس قضاة العدل للنظر في القضايا المعروضة للنظر . وقد برز ذلك أيضاً في وضع الحمامات التي لم تلبث ان اتخذت ، فيما بعد ، مساحات كبيرة (راجع الشكل ٢٥) فضمت من الداخل العديد من الغرف والحجر وفقاً للفرس : هذه الحمام البارد ، وتلك للحمام الفاتر ، وثالثة للحمام الحار أو الساخن ، ورابعة لحمام البخار *Sudatorium* ، مع ايها وساحات للالعاب الرياضية ، وما الى ذلك من غرف اضافية للمكتبة ، واروقة للرسوم والصور . وبرز هذا التصميم كذلك في قوس النصر يتكون عادة من ثغرة او فتحة تعلوها قنطرة ، تفتح في سور المدينة ، ثم اصبح شكلاً من اشكال الزينة ، او تذكراً يعيد الى الازهان عهد اسرة ملكية أو عهد سلطان ، كما برز في هذه المدافن والاضرحة التي اتخذت في روما اكثر منها في اليونان ، شكل بناء شامخ ، او هرم من الأهرام ، اسطواني الشكل ، أو مكعبه ، مع حجرات واسعة من الداخل تحمل جدرانها كوى لوضع جثث الموتى . وهذا التصميم يبرز في وضع المنازل الخاصة التي سنخصصها بكلمة على حدة ، بعد قليل . ولا بد من الملاحظة هنا ان انماط هذه المباني في اشكالها المختلفة ، جرى استنباطها او الحقت بها تعديلات كثيرة ، في اواخر العهد الجمهوري ، او في مطلع عهد اوغسطس . فالهندسة المعمارية في الطور المتأخر من تاريخ الامبراطورية ، لم تطلع بأي تجديد ولا استنبطت شيئاً في هذا المضمار .

من اهداف هذه السيطرة على الطبيعة والتحكم بها ، التأثير على أخيلة الناس وادهانهم ، في مجتمع ترفل الطبقات العليافية بالمال الوفير والغنى الجزيل . فالتحسينات التي ادخلتها الوسائل التقنية ، وفاعلية الادوات والعدة المستخدمة مكنت بالفعل من تحقيق انجازات جبارة . فالتمثال الضخم الذي تجاوزه علوه ٣٠ متراً ومثل الامبراطور نيرون مرقدياً شعار الإله الشمس ، ارتفع على مقربة من « البيت المذهب » عرف عندهم باسم *Colosseum* اي التمثال الضخم ، وهي كلمة تحولت الى كلمة كوليزه وبها تعرف اليوم ، اذ لا تزال تطلق على المدرج الذي شيده اباطرة الاسرة الفلافية . وكان هذا المدرج من الضخامة بحيث كان يتسع لـ ٣٠.٠٠٠ مشاهد جلوساً ، بينما ذكرت المصادر القديمة انه كان يتسع لـ ٨٠.٠٠٠ مقعداً طول دائرته ٥٢٧ متراً وعلو جدرانه ٥٧ متراً ، وفي هذه المقاييس ما يضيفي عليه هذه الضخامة دون ردفه . بتمثال نيرون القائم على مقربة منه . والهرم الذي تكوّن من مدفن المقدّم تشستوس الذي توفي سنة ١٢ ق . م ، ارتفع ٣٧ متراً . اما ضريح اوغسطس الذي

تركزت عليه صروف الدهر وتقلباته أثرها الظاهر، فيُعرف اليوم بقصر سانت أنج، وهو يتألف من مبنى قطره ٨٩ متراً، يرتفع على أربعة طوابق من الأروقة، يحف به صف من السرو والشربين كأنها ثلة من الحرس شاكي السلاح تقدم التحية العسكرية، تتوسطه دعامة علوها ٥٥ متراً، ارتفع فوقها تمثال الامبراطور، ونُصبت امام مدخل الضريح مسلتان فرعونيتان، وعمودان عُلقَت عليهما لوحات من البرونز تحدث الناس بأعمال الالهى اوغسطس، بينما لا يزال ضريح الامبراطور هدر يانوس قائماً بعد ان أُدخلت عليه ترميمات عديدة ترجع الى الاجيال الوسطى.

لا نجد في أي محل آخر، غير هذا المكان، ولا تقع العين على ما تقع عليه هنا من عناصر الفن الشرقي: من هرم ومسلات فرعونية وقبور ومدافن مخروطية الشكل وكلها عناصر جيء بها خصيصاً لتوحي للرائي فكرة الضخامة والعظمة. ولكن هذا الشعور بالعظمة كان بالإمكان اشاعته في النفس بواسطة اشياء اخرى لا تحصى. فقد آثروا الاستمانة بمثل هذه العناصر الشرقية لما فيها من قوة إيماء وتأثير بالغ على النفوس. فالهندسة اليونانية التي مهما دوماً الاتصاف: بالاعتدال والاتزان والانسجام لم تتنازل عما تم لها من وقع إلا بصورة عابرة.

هنالك نزعة اخرى كانت تميز المهندس الروماني عن زميله الاغريقي. تصرف المهندس الاغريقي بعدد اقل من الشغلة واليد العاملة، كما كان تحت يده القليل من المواد الاولى. ورغبة منه في دمج عمله بالاطار الطبيعي المحيط به، فقد حاول ان يفيد الى أقصى حد من طواعية الطبيعة لمساعدته بتكليفها وفقاً لرغائبه، على عكس المهندس الروماني الذي جعل من مبانيه الهندسية انجازات ضخمة هي من صنع يديه ومن ثمة تحكمه بالطبيعة وسيطرته عليها بقوته وبأسه وعلمه. فقد اشرنا لماماً اعلاه، الى ما من فرق بين السيرك وميدان السباق، وهو فارق يبدو على اشداه ايضاً في مفهوم المسرح هنا وهناك. والجدار المنتصب عند مؤخرة المسرح، والذي يعدل ارتفاعه بارتفاع اعلى صف من المقاعد، لم يكن ليحد بشيء من مدى النصر. فاذا لم يتوفر لكل مسرح «الجدار» الذي توفر لمسرح مدينة اورانج وكان سبب شهرته، فكل المدرج كانت تضم، على شاكلة مسرح نيم، كل المشاهدين يشاهدوا الالعب، وقد مدت فوق رؤوسهم، سحائب من الستائر ترد عنهم وطأة حرارة الشمس وان حالت، الى حين، بينهم وبين منظر السماء. وهكذا كان المهندس يسيطر معاً على المدنى فيتصرف، على هواه، بقسم منه، معطياً بذلك، الدليل على سيطرته على الطبيعة وهيمنته عليها. ففي مدينة برغاموس الهلينية التي شُيّدت على منحدر هضبة متدرجة السطوح، لم تبلغ سيطرة الانسان على الطبيعة ما بلغت عند الرومان، اذ ان هذه المدينة رتبت مبانيها على مستويات متباينة، وفقاً لانحدار التل.

وهذه الارادة التي روضت الطبيعة، وسيطرت عليها ان لم نقل طوعتها بالعنف والقوة،

تبرز على شيء من الكبر والتعالي والتيه ، في عدد من الانجازات الفنية التي نثر حباتها المهندسون الرومان في جميع أرجاء الامبراطورية . من هذه الاعمال الانشائية الجبارة ، تغيير معالم طوبوغرافية بعض الاماكن ، بعد ان نقلت مقادير هائلة من التربة والحجارة بعمق يوازي علو عمود ترايانوس وتمثاله الذي بلغ ارتفاعه ٣٨ متراً ، فأتاح للمهندسين انشاء ميدان (الفوروم) المعروف بفوروم ترايانوس ، بين هضبي الكابيتول والكويرينال ؛ وانشاء مثل هذه المرافق الضخمة على شاطئ البحر ، كما نشاهد عند مدينة اوستي (الشكل ١٠- ص ٣٤٣) ، واقامة جسور وكباري فوق الانهر ، كجسر القنطرة على نهر التاج ، الى الشرق من البرتغال ؛ وانشاء أقنية لجر المياه مارة فوق الوهاد والوديان ، بين هضبة واخرى ؛ وانشاء الجسور كجسر نهر التيسار الممتد بطول ٢٧٥ متراً وبارتفاع ٥٠ متراً فوق النهر المذكور ، أو جسر غاردون على مقربة من مدينة نيم ؛ وشق أنفاق لمرور الطرقات في الصخور أو بين الغياض والأجاص والمستنقعات . كل هذه الاعمال وما إليها ، قام بها المهندسون الرومان ، وأمنوا نجاحها بنجاح عظيم . فلم يسبق ان خطر للانسان من قبل تحقيق مثل هذه المشاريع ، كما لم يسبق له ان انجزها على مثل هذا النطاق الواسع . والذي يبدو لنا ان الانسان أخذ يشعر بما تم له ، اذ ذاك من غلبة ، بفضل ما أعطي من قوة وبأس ، سخّرها في سبيل الدفاع عن الفتوحات التي تمت على يده ، فأحال جانباً منها وسائل ترفّه من عيشه وتبعث فيه الطمأنينة والسلام .

عدد كبير من هذه الانجازات ، يؤلف بحق ، نجاحات تثير الإعجاب ،
 الفن الزخرفي
 من الداخل والخارج
 سواء من الوجهة الفنية أو من الوجهة الزخرفية والجمالية . ولعل سر ذلك كله يقوم في هذا الاتقان الذي بلغه في نسبة تكييف الفن للغاية التي أريد لها . فهذا التناسق العظيم ، بين ارتفاع طوابق الجسر الثلاثة وبين عرض فتحات القناطر ، ومقاييس العواميد ، أضفت على الجسر القائم ، فوق نهر الغار ، هذه الصفات التي تميزه ، وعُرف بها . وهذا الانسجام له أثره العميق في النفس ، يزيد وقعا فيها انسياب هذه القناطر وتتابع انسحابها . فيما من زخرف او نقش او حلية اخرى ، من أي نوع كانت ، تخفف من حدة عرى هذه الخطوط والمساحات والحجوم الجافة التي لها وقعها البعيد في الخاطر ، بما يتم لها من تناسب واتزان وتعادل ، وكلها صفات تشير بذاتها الى تاريخ الجسر وتجعله من عهد اوغسطس .

ويبرز في المهندسين ، اكثر فأكثر ، ميلهم للزخرفة ، بعد ان اتضح للجميع ان الزخرف يرفع من تأثير المبنى ويزيد من أثره في النفس ووقعه عليها ، اذا لم تكن هذه المباني معدة للاستعمال او كانت نفعية ، او عندما تكون أنشئت على عجل ، او استعملوا لها مواداً اولية بقيت على خشونتها الاولى . فيروح المهندس يضيف عليها ، من الخارج ، اشكالاً ورسوماً يستعمل الاغريق مثلها من قبل . فالجدران تُفرشت بالرخام من الداخل ، كما تحلّت وتزخرفت على الوجه ذاته : بالركائز والأعمدة ، والتأثيل والأفاريز والأضابير المنحوتة تحتاً ، ولم يلبث ان تغلب استعمال الطراز الكورنثي ، وعمّ استخدامه ان تبيّن ان زهرة شوكة اليبود (Acanthe) البارزة

على أكليال العمود يفيض منظرها في النفس ارتياحاً وبهجة امام افترار الطبيعة، كما تخفف من حدة نشووة وجفاف الخطوط الهندسية التي تنبعث من الاطرزة الهندسية الاخرى (الإيوني والدوري). واخذ الميل للزخرف يزداد ويتسع بتأثير الفن الهليني المنطلق من أرجاء آسيا الصغرى وسوريا، يصحب ذلك شيء من الطباق والمجانسة، بطلوع الادب الزاهر المشعشع الذي أطل علينا في عهد كل من الامبراطورين كلوديوس ونيرون . ومنذ ذلك الحين ، لم نأنس أي رجوع الى البساطة الاولى . وقد تشابك هذه الرسوم الزخرفية الناتئة التي تطل علينا من عمود ترايانوس، أكثر مما تطل من النقوش الظاهرة على عمود مارك اوريل .

حمل الرومان في جنباتهم ميلاً شديداً للرسم . فقد فُقدت وضاعت هذه الآثار التي تم وضعها على المسند ، إلا انه بقي منها نماذج ، بعضها على الجدران تغطى بملاطها برسوم نافرة ، ناتئة . وقد عثر على بعض هذه الرسوم في روما ولا سيما في مدينة بومبيي . فالصور التي كانت تزدهر بها جدران المنازل في هذه المدينة الريفية الصغيرة ، لا تحصى لكثرتها . فالهوس الذي تملك الناس فيها، فجعلهم يقبلون بداعي مآم عليه من غنى ورفاه، على الزخرفة والاكثر منها في منازلهم ، ليس ما يمنع ان يكون هو نفسه الهوس الذي تملك الطبقة البورجوازية في القسم الأكبر من ايطاليا، فراحت ، اسوة بسكان مقاطعة كمانيا ، المعروفة برخاء سكانها ، تقبل باندفاع كلي ، على الزخرف الهندسي . جرى العرف على تمييز اربعة اطرزة من الصور والرسوم التي وجدت في بومبيي ، اقدمها جميعاً طراز اسبق لعهد سيللا ، اقتصر فيه على تقليد الرخام المرقق . اما الثاني ، فهو الذي ظهر مع مطلع الامبراطورية ، اذ تألف معظمه من أشكال من الصور الديني والاسطوري الى جانب رسوم هندسية ومنظر طبيعية مع اهتمام ظاهر بالمدى . ويحدثنا فتروف في بعض كتبه عن « زخارف المسارج » ، وليس من النادر قط ان نرى صورة حديقة مرسومة على الجدار الامامي في حديقة صغيرة . اما في النماذجين الآخرين ، فالصورة تتألف من عناصر زخرفية لا ترمي الى بعث أي إلهام في خلد الراي او الناظر ، بل هما الاكبر ، ان تراعي الذوق والانسجام بين الألوان ، حتى ما كان منها وهماً . وهكذا نرى الفن الروماني يستلهم هنا اقل نزعات الفن الهليني اعتدالاً .

وفن الفسيفساء الذي عرفه الشرق منذ عهد بعيد ، ازدهر في جميع انحاء الامبراطورية ، أيما ازدهار ، مما اقتضى له عدداً كبيراً من الصنّاع المهرة . ففي مدينة بومبيي التي انساحت تحت انهيار حمم الفيزوف ، في ثورته الكبرى عام ٧٩ للميلاد ، تعثرت معاول المنقبين بعدد كبير من هذه الفسيفساء في اقبية المنازل او على جدران البيوت حتى المتواضع منها . والاكتشافات الاثرية التي تمت في انطاكية تثبت بصورة لا تدع مجالاً للشك ان سوريا كانت اذ ذاك ، من أكبر المراكز لهذا الفن الزخرفي ، مع انه لم يرجع ، منذ القرن الثاني ، في أي مكان من الامبراطورية ، رواجه في افريقيا . فقد انصرفوا مدة طويلة لتقليد هذا الفن عن طريق استعمال مكعبات ملونة صغيرة . وقد وجدوا في بومبيي فسيفساء تمثل اندفاع جيش الاسكندر في هجومه الساحق على

داريوس (دارا) في معركة اسوس ، بحيث نستطيع معها ان نكون لنا فكرة عما كان عليه فن الرسم الهليني على السببية . وهكذا رسموا ، محاطة بأشكال هندسية ، مناظر ومشاهد ريفية من شتى الأنواع وصور الأفراد . ثم اقتصروا ، عقب ذلك بكثير ، بعد ان بسطوا الألوان والرسوم على زخارف خالية من صور الاشخاص ، وهو نمط او طراز أقصروه على الفسيفساء المستعملة في فرش الأرضية . وهذا الانتاج الوافر من زخرف الفسيفساء ، اقتضى له من الفنانين ، مقدرة عجيبة على الخلق والابداع ، كما اقتضى له صبراً طويلاً وطول أناة . ففي فسيفساء معركة اسوس ، في مدينة بومبي ٥٠٠ ٠٠٠ مكعب صغير موزعة على اربعة ألوان .

والى هذه الفنون الزخرفية الخاصة بتزيين المسطحات وتحليتها ، يجب ان نضيف تلك التي تتعلق بزخرفة المفروشات والاثاث مما كان يستعمله الرومان بين اغراضهم المنزلية . فقد اقبل القوم على استعمال الخزفيات المطبّعة او الحلاة بزاويق حمراء بعد ان يدمغوها بطوابيع 'قفرغ' في قوالب خاصة . وهذا النوع من الخزف حل محل الخزف المحلي بالرسوم ، عند الطبقة المتوسطة كما اتخذوه بديلاً عن الآنية المعدنية المنقوشة . اما الطبقات الرخية الحال والوضع فقد كانت تفضل الحلي والمجوهرات ، بما حدا ببعض الاسر الثرية ، الى تكوين مجموعات ثمينة منها . من اشهر هذه الكنوز على الاطلاق المجموعة المعروفة باسم : « كنز بوسكوريال » التي ضمت المرايا والاقنواح والكؤوس . واستمرت صناعة الزجاج في انتاج قطع منه غاية في الروعة والجمال ، ثم اخذت تنتشر في الغرب حتى بلغت ضفاف نهر الرين . وهذه الحبايا التي عثروا عليها بين انقاض مدينة بومبي المصنوعة من الرخام ، والآنية البرونزية ، من جميع الاشكال والمقاييس ، والتأثيل الكبيرة والصغيرة ، والمصابيح والشمعانات ، والوجاقات والمدافئ والسّيَب والأميرة المتخذة من الابنوس المطعم ، كلها تشير الى ما اعتلج به صدور القوم من 'مثل فنية' جمالية ، في مدينة صغيرة من مدن الريف . كل ذلك يعطينا فكرة عما كانت عليه منازل سراة القوم وعليتهم ، او منازل هؤلاء الاغنياء الذين رفلوا باوسع ما يرقل به مجتمع من رفاهية في تلك العهود .

ففي كل هذه الفنون يبقى العنصر الابداعي الروماني قليل الشأن . فلاشكال والموضوعات والاساليب الفنية او التقنية كلها مستوحاة اصلاً من العالم الهليني . وهذه النزعات الخفيفة التي ادخلت عليها مراعاة لذوق الرومان ، كليل للذهب الواقعي مثلاً ، لم يلبث الفنانون ان تكيفوا بها وراحوا ينفذونها ويتقنون بها حتى حدود الغرابة احياناً ، وكلهم اجانب اغراب اصلاً في عهد اوغسطس ، اذ قد وفدوا من الشرق المتوسطي . وقد قصر هذا الشرق ، فيما بعد ، عن تلبية الطلبات المنهالة عليه ، وتقديم العدد الكافي منهم ، انما راح يدمم بالمعلمين ورؤساء الورش ليبقى محتفظاً بهينته وسيطرته ، حتى اذا لم يُرض انتاجه كل الاذواق ، صدر تماذجه الى الخارج ، حيث يأخذ الناس بتقليدها والسير على نخطها . وهكذا نرى تطور الفن الهليني يمتد ليبلغ دوماً تعديلاً يذكر ، جانباً كبيراً من الامبراطورية الرومانية . الا ان هذا الفن يراعي مقتضيات الاذواق المستبدة بالاهلين في الولايات الاكثر ازدهاراً ، اذ ذاك ، والاكثر نشاطاً ،

اي في آسيا الصغرى وسوريا . وهذا الفن الشرقي اخذ يتصل رأساً بالغرب دون المرور باليونان ليسيطر على روما ، في القرن الثاني ، اي في هذه الحقبة بالذات التي تسجل الطقوس والديانات الشرقية فيها ، انتصاراتها ونجاحاتها الكبرى ، بحيث تم الظاهرتان معاً وبحركة تعاونية ، في وقت واحد . ففي كل المجالات يبرز الاعتدال المنطقي ويتغلب على كل ما من شأنه ان يحدث صدمة في الانواق .

المدينة
مركز الانصهار الحضاري
ففي هذه المدن وبواسطتها ، تمت في هذه الحقبة بالذات ، هذه الإلفة ، وحدث الإنصهار بين هذا الازدهار العمراني والانطلاقة في فن الرخرف الذي استعرضنا تطوره في مختلف المجالات التي تجلج فيها .

وهذه الحضارة تبرز مزة أخرى ، وفقاً للفكرة الملمنية التي جاءت حاجات الامبراطورية تشد من أزرها ، وهي حضارة لها سمة المدينة وطابعها . فالمدينة تسهل الروابط بين الافراد والجماعات ، وتنظمها وتغنيها . فعندما تعمل على تيسير الاتصالات واللقاءات بينهم ، فهي تستدرج بالتالي ، ما يؤمن النجاحات التي لا بد منها في الحقلين الاقتصادي والفكري وتساعد على التطور والنمو والتكامل . واذ كانت لها القدرة والطاقة لتدرك عنها تعديلات شذاذ الآفاق وكيد الطامعين وغزو البلاد ، فقد عرفت ان تبعث روح الانضباط بين الجماعة ، وتؤمن العدل والعدالة في دولة تشرب باعناقها للعيش الكريم . من الاعتقاد السائد هو ان ما من دولة قوية تتوطد لها الدعائم بدون بورجوازية تأخذ بأسباب الحضارة وترسخ لها في القلوب والنفوس ، وتهتم لاكثر من تأمين اسباب العيش ووسائله المادية ، وتزنع ، دونما ضعف منها او استجداء ، للسلام ، لانها لا ترضى عن هذه الاشياء كلها بديلاً ، لانها عماد النظام ولبه وصميمه ، هذا النظام الذي لا بد منه للخير العام ولمصلحتها الخاصة . ولكن ليس من بورجوازية بدون مدينة ، اي بدون مجموعة من المنازل والمساكن ، ومن ادارة تجهيز وتموين ، ومبان عامة تطلع وفقاً لمقتضيات الحاجة والذوق في الفرد والجماعة . فالحكومة تشجع ، اذاً ، مادياً وادبياً ، حركة تنظيم الامبراطورية وتجميلها . وهذه البورجوازية التي تهيأت لها اسباب الظهور والانفتاح ، او اقله اسباب التطور ، تنصرف بدورها ، لتهيئة مثل هذه الانطلاقة . وهكذا ، فالمدينة تمثل اكثر من اي شيء آخر ، واكثر مما تمثله الفنون ، هذا التأليف والانصهار الحضاري ، لا بل ، هي بالفعل ، هذه الإلفة الحضارية بعينها ، اذ ان الواقع المدني الذي يأخذ مثل هذا الاتساع ، وهو واقع سياسي وعسكري واداري ، واقع اقتصادي واجتماعي بقدر ما هو واقع ثقافي . ولما كانت قد سبق ودرسنا ، في الفصول السابقة ، هذا الواقع ، من وجوهه العديدة ، بقي علينا ان ندرسه هنا ، في اطاره المادي .

المدينة الامبراطورية
زينة المدائن وعروسها ، هي بالطبع روما ، التي تؤلف في كيانها وواقعها : ومبانيها العامة استثناء ومثالاً .

اما الاستثناء ، فلأنه لا يمكن لها ان تأتي مدينة بورجوازية او ريفية . فلو حدث ، مثلاً

وصح هذا الافتراض وبرزت على هذا الشكل أو الطابع ، لما كانت سوى مقر نبلاء الدولة ومجتمعهم الامثل ، أي هذه النخبة الرسمية في هذه الامبراطورية جمعاء . فالامبراطور لا يترك لمجلس الشيوخ سوى الاضطلاع بالمهام الصغرى في الادارة البلدية ، وهي مهام تقع مع ذلك ، تحت اشرافه ، بواسطة المفتشين والمراقبين الذين يلتقيهم لهذه الغاية . والحقيقة ان روما هي المدينة الامبراطورية ، مقر الامبراطور ، شاهدة على عظمته وعلى كرمه وسخائه ، وجبرؤوت سلطانه . فما من مدينة اخرى ترتبط بها ، تستطيع مزاحمتها في هذا المجال .

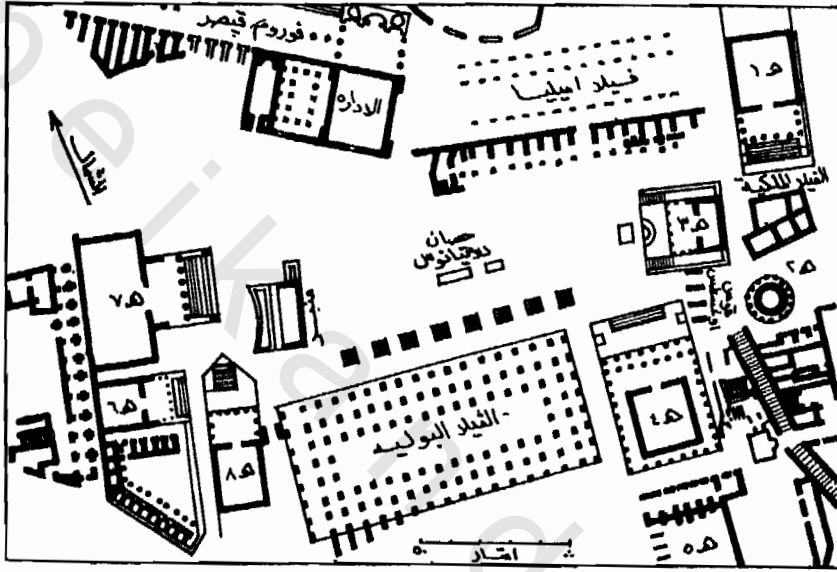
اما كونها مثلاً ، فلأنها ملتقى ممثلي كل الولايات وكمبتهم ، وقبة كبار الموظفين الذين يتولون زمام الادارة في هذه الولايات حيث أقاموا وقاموا بوظائف ادارية او عسكرية . فهي فتنة لهم جميعاً ، تجتذب هؤلاء وأولئك ، بما تم لها من سحر وجاذبية ، وهي الوطن الاكبر للجميع ، وان كانت لهم اوطانهم الصغرى ، فينظرون اليها لعمرى ، نظرم الى المثال الذي لا يرام ، ويرون فيها الصورة المثالية للمدينة ولكل مدينة . فكل ما سواها من مجتمعات وتجمعات لا تستحق ان تسمى مدناً إلا بقدر ما تحاول الاقتداء بها والسير على منوالها ، ومحاكاتها .

وهذه المدينة التي يفاخر اوغسطس بأنها تسلمها من ابن وطن فسلمها رخاماً ومرمرأ ، لا يزال مجال العمل بعد فيها واسعاً ، ومجال الانشاء رحباً ، ولذا راح كل من الاباطرة الذين تعاقبوا على الحكم بعده يحاول ان يترك له فيها اثرأ يحدث بما شئت فيها من مبانٍ وما ترك عليها من نظم ومؤسسات تبرز بمقاييسها وضخامتها كل ما عداها . كل من فيها يتذوق الفن ويسعى اليه ويفخر بمناصرتة ومناصرة سحلتته ، كما يحاول فريق من بينهم ، ممارسته والانقطاع له . وكل هؤلاء الاباطرة ، يدركون جيداً ، بفضل دروس التاريخ التي لفتنوها ، وعلى ضوء عظات عهد الطفلة من اليونان قديماً ، ومن سلوك فراغة السلالة الرابعة في مصر ، ان سبيلهم الوحيد للبقاء حديثاً بعدم ، هو إلهاب خيال الناس ، بما يشيدون من المباني والمؤسسات الضخمة . ولذا كان لا بد من ان تضرب صفحاً هنا وان نمر سراعاً عن سرد ووصف ما قام من هذه المباني ، وبينها ما اقتضى المجازة أكثر من عهد واحد .

وهكذا ، فالفوروم الذي شرع دوميتيانوس ببنائه ، حمل اسم الامبراطور نروه *Nerva* لأنه هو الذي أكمله وأنجزه ، نكاية وتشفيأ بسلف بفيض ، كرية الاسم ، ترك من سوء الذكر بحيث تفاضوا عن اغتصاب الشرعية وجعلوا من اللاشرعية شرعية . والى هذا هنالك مباركة تعهدوها اجيالاً طويلة بالتعديل والتحويل ، والتوسيع والتجميل ، منها مثلاً السيرك الأكبر *Circus Maximus* الذي كان يقع بين هضبي البلاتين والافنتين في المكان الذي خصص له منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، وخضع مراراً للتوسيع بحفر جنبات الهضبتين المذكورتين ، بحيث اتسع في عهد قيصر لـ ١٥٠.٠٠٠ مشاهد ، فاذا به يستوعب في عهد تراجانوس ٢٥٠.٠٠٠ منهم ، طوله ٦٠٠ متر وعرضه ٢٠٠ متر وطول ميدانه ٢١٤ متراً وعرضه ١٨٠ متراً . فتعداد هذه المباني الذي لا ينتهي ، من شأنه ان يسبب ، ولا شك ، الملل ، اذا ما اخذنا بذكر عمليات الترميم

التي ألحقت بها ، كما نسب الضجر والسأم بإيراد اسماء هذه المآثر التي لا حصر لها ولا عد التي راح كل امبراطور ينشئها في عهده : من هياكل وميادين ، *Forums* ، ونوادير ، وحمامات وغير ذلك . فلنكتفِ هنا ببعض النماذج التي تمثلها خير تمثيل .

ففي روما (راجع الشكل ٩-ص ٣٢٣) ، خضع هذا القطاع الواقع منها بين الكابيتول والبلاطين والتشيلوس والاكيلين والكويرينال ، لتغيرات جذرية . فالمكان الذي بقي فارغاً في هذا القطاع



الشكل ١٤ - الفوروم الروماني والمباني القائمة عليه في القرن الثاني

هياكل : ١ - انطونين ؛ ٢ - فستا ؛ ٣ - قيصر ؛ ٤ - كستور وبولوس ؛ ٥ - اوغسطس ؛ ٦ - فسبسيانوس
وتيطس ؛ ٧ - الكونكورديا ؛ ٨ - زحل او ساتورن .

كان يتألف من الفوروم الجمهوري القديم ، وهو ميدان ، ضيق ، محشور ، بقي معروفاً فيما بعد ، باسم «الفوروم الروماني» . ولكي ينشئوا في قلب المدينة - العاصمة مجموعات من المآثر الضخمة ، خلقة بالعاصمة ، كان لا بد من استعمال مساحات جديدة من الاراضي . فالحريق الكبير الذي منيت به روما عام ٦٤ ، حرّر الكثير من هذه المساحات المطلوبة ، مما أتاح لنيرون ان يشيد عليها «المنزل المذهب» *La Maison dorée* ، بحيث امكن في ما بعد ، استخدام هذه الاراضي لإقامة ساحات ومباني ضخمة . وهكذا ارتفعت الى الشرق من المدينة مآثر ضخمة ، منها : الكوليزه ، وحمامات تيطس ، كما شيدوا ، على هضبة الاسكيلين : حمامات ترايانوس التي بلغ طولها ٣٤٠ متراً وعرضها ٣٣٠ متراً ، واخيراً هيكل الزهرة ، وهيكل روما ، وكلاهما من انشاءات الامبراطور هدريانوس .

هنالك مشاريع تجميل اخرى ، جرت في اتجاه آخر ، أي بين الكابيتول والكويرينال ، حيث كان سبق لقيصر أن انشأ الفوروم الجديد ، الذي يحمل اسمه . ثم عقيب ذلك انشاء عدد

آخر من الميادين الامبراطورية ، تتالت من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، منها : فوروم فسبسيانوس مع هيكل السلام ، وفوروم نروه *Nerva* ، وفوروم اوغسطس مع هيكل مريخ - أولتور *Mars - Ultor* (أي « مارس المنتقم » لموت قيصر ، الذي قتل في ١٥ آذار) ، واخيراً الفوروم الذي يحمل اسم تراجانوس . وهذا الفوروم كان يؤلف جزءاً من وحدة هندسية ضخمة أشرف على تخطيطها المهندس ابولودوروس ، بعد ما توفر له من الموارد الطائلة ، إثر وضع يده على كنوز داسيا وما فيها من مناجم الذهب الغنية . وقد اشتملت هذه الوحدة ، فيما اشتملت عليه ، ما عدا ميدان فسيح ، سوقاً تجارية (هال) تألفت من خمسة ادوار ، ومنتدًى ومكتبتين : إحداهما للغة اليونانية ، والثانية للغة اللاتينية ، قامت في طرفي الساحة التي ارتفع فيها عمود تراجانوس . وأضاف هديانوس الى هذه الوحدة ، هيكلًا يحمل اسم تراجانوس ، بعد ان أرسى الحجر الأسامي وأودع قاعدة العمود ، تحقاً يضم رماد الامبراطور الراحل .

وجاءت بعدها ، باتجاه نهر التير ، الحدائق المعروفة باسم : شان ده مارس *Champs de Mars* وهي حدائق غناء : طليقة ، مفتوحة ، اخذوا ، منذ العهد الجمهوري ، يقيمون عليها المباني والعائز ، زيد عليها ، في العهد الامبراطوري ، الشيء الكثير ، ابتداءً من اوغسطس الذي انشأ فيها ، هو نفسه ، مسرحين واربعة أروقة ، والحمامات الأربعة الفخمة الاولى التي عرفتها روما ، والتي عُرفت باسم أغريبا ، وبضعة هياكل ، بينها هيكل البانتيون ، أي هيكل السلام ، ثم ، وابتعد الى الشمال : ضريحه . وحذا خلفاؤه حذوه ، فربطوا بالفسور العديدة التي أقاموها فوق نهر التير ، ضفته اليمنى بحدائق شان ده مارس . وهكذا تم دمج هذه الوحدة بالشبكة الهندسية التي انتظمت مباني العاصمة .

أتينا على الكثير من اسماء هذه المباني ومسميات العائز ، وقد كان من الممكن إيراد المئات منها . وهذه الشواهد والأمثلة ، نضربها هنا ، فيها ، على ما نعتقد ما يكفي من دليل لنذكر معه مدى ما تناوب على هندسة المدينة من تعديل وتحوير وتغيير بدلت منها المعالم ، خلال قرنين من الزمن . وهكذا تمت لها صورة ولا اجل ازداد بها منظر العاصمة ، بهاءً وسناء بما تمهدوها به من تزاويق وتحلية ، في الاجيال اللاحقة ، جعلتها خليفة بعاصمة العالم .

نوقف عدد سكان هذه العاصمة على المليون ، فبزت بهذا العدد سكان اية مدينة التجميل والمنازل اخرى قامت في ذلك العهد ، وهو عدد لم يكن ليكفي وحده ليؤمن لها مثل هذا المرتبة اذ كان من الضروري ان يتمكن مثل هذا العدد من السكان ، يقطنون في مثل هذا الاطار وفي ظروف مثل التي تحيط بهم ، وسائل العيش الكريم ، خليق بشعب دوخ الكثير من الشعوب وبسط عليها سيطرته وسيادته .

فهل من عجب ، بعد هذا ، ان يخلق قيام مثل هذا الحشد الحاشد من السكان وتأمين اسباب معيشتهم ، مشاكل طائلة تتعلق بتنظيم المدينة وادارتها ؟ فكان على المسؤولين ان يضطلعوا بها ،

وهي مشكلات عرفت عواصم الشرق الهليني الكبرى ما شابهها ، كما عرف اباطرة روما انفسهم ان يفيدوا ، على نطاق واسع ، من الحلول التي وُضعت لها . وقد رأينا كيف ان هؤلاء الاباطرة ، أنشأوا ، في سبيل تيسير اعمال الحكم ، مصالح ادارية وبلدية رئيسية ، عهدوا بمهامها وادارة شؤونها ، الى حكام وولاة يؤمنون لها حسن سير الاعمال ، كمصلحة التموين ، والشرطة ، ومصلحة مكافحة الحرائق . واقتضى حسن سير الاعمال في بعض هذه المصالح وانتظامها ، القيام ببعض اشغال عامة ضخمة . من ذلك مثلا ان اخذ الامبراطور كلوديوس ، ومن بعده ترايانوس ، بإنشاء مرفأ ضخم في مدينة اوستي (راجع الشكل ١٠ - ص ٣٤٣) تسهيلا منها لرسو السفن التي كانت تقوم بنقل الميرة والسلع من مختلف الولايات لتغذية هذا الجيش اللجب من السكان ، حاملة على الاخص ، القمح من مصر . وهكذا قام على ضفاف نهر التيبر ارسفة طويلة كانت تقضي الى روما ، وهي ارسفة لا تزال نجعل ، لليوم ، الكثير من اوضاعها ، كثيراً ما تعرضت المدينة من جرائها ، ولعدم توفر الانشاءات الفنية اللازمة ، لاختطار الفيضانات . كذلك أنشئت في المدينة ، مصلحة تُعنى بشبكة المجاري وتسهر على صيانة وحراسة ونظافة المدينة ، كما أنشئت فيها قناطر عديدة لجر المياه تلبية لاشتداد الحاجة المتزايدة لها ، ولا سيما بعد ما قام من هذه الحمامات الكثيرة . فقد أنشأ اغسطس لوحده ، اربعة من هذه القناطر المائية ، وأنشئ غيرها ، فيما بعد ، بحيث بلغ عددها ١٤ قناة لتأمين مقطوعية المدينة ، من الماء التي بلغت في اواخر القرن الاول لليلاد ، مليون متر مكعب ، في اليوم الواحد .

ويصاب المرء بشيء من الخجل والدهش امام ضخامة الانشاءات التي اضطرت ادارة المدينة ان تقوم بها ، لتأمين حسن سير الاعمال ، وهي اعمال وانجازات كانت ، مع ذلك ، اعجز من ان تحل كل مشكلات روما من هذه الناحية ، أو ان تحول دون ما كانت تتعرض له من الإحزن والحزن ، وما يتهدها الفينة بعد الفينة ، من اوبئة وافدة . فحالة الطرقات أقل من ان تفي بالحاجة ، وهي في الغالب ، طرقات ضيقة ، متعرجة . قليلة جداً بينها ، الجادات المريضة التي تفضي الى قلب المدينة لتتصل منه بالشبكة الرئيسية التي تنطلق في مهاب الارياح الاربعة لتتغلغل في جميع ارجاء الامبراطورية ، اذ كان اكثر هذه الطرقات عرضاً لا يتجاوز ستة امتار ونصف . وتقادياً للازدحام ، سبق ليوليوس قيصر ان اصدر امره بمنع دخول العربات والمركبات اليها . وكثيراً ما ارتفعت عقيرة مرتيال وجوفنال بالشكوى والتذمر من قرعة وجلبة اصوات العربات ليلاً ومن عرقة السير نهاراً ، كما كانوا يتأففون ويتبرمون من تراكم الاوساخ والاقذار والنفايات في الشوارع غير المرصوفة يلقون بها في جادة الطريق . صحيح ان الانشاءات الصحية ، كالمراحيض العامة كانت جميلة بما تحلت به من المقاعد الرخامية والتأثيل والانصاب ، انما استعمالها لم يكن بالمجان اذ يترتب على من يستعملها دفع رسم طفيف ، في حين لم نكن نرى اصحاب المباني والعمارات الخاصة ينشئون شيئاً من هذه المرافق ، في سبيل المستأجرين عندهم . وكانت المنازل خلواً من المداخن بحيث ان استعمال المواقد والمدافئ ، شتاء ، كثيراً ما تسبب عن حرائق

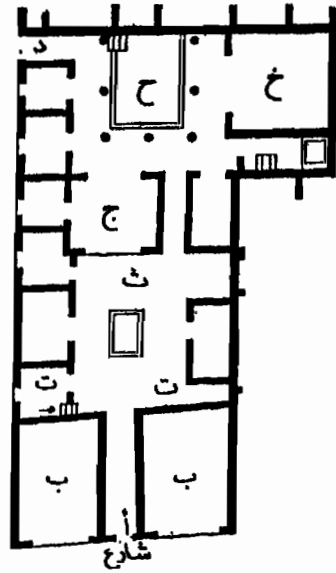
ساعد ضيق الشوارع ، على امتدادها بسهولة فتنزل بالمدينة اضراراً جسيمة لا تلتئم ان تتحول الى نكبة نكباء لا يحتاج معها ليد أثيمة توسع من نطاقها . كما راح الرأي العام يتهم نيزون بذلك ، وهذا ، المسيحيين ، في الحريق الهائل الذي التهم جانباً كبيراً منها عام ٦٤ للميلاد .

يجب ان نغزو السبب الحقيقي لهذه المصائب الى ضيق المساحة وقلة المكان بالرغم من توسيع حدود المدينة الادارية ، في عهد اوغسطس . فلتشييد هذه المباني الضخمة في قلب المدينة شغل منها المساحة المعدة للسكن ، وهي عمائر لم تقم مكان الحدائق العديدة الواسعة التي توفرت لها في مطلع الجمهورية والتي لم يبق منها فيما بعد شيء ، إلا ما جاء منها في الضواحي والارياض ، او حول القصور الامبراطورية . فانشاء ضواحي جديدة لم يؤلف حلاً للمشكلة بالنظر لبعدها عن المدينة ، فاضطروا والحالة هذه ان يزيدوا من ارتفاع البناء ، الامر الذي فتح المجال واسعاً امام المضاربات المالية ، من جراء غلاء الاراضي او من ارتفاع اسعار الايجارات . فقد وضع اوغسطس حداً أعلى لارتفاع المنازل ٢٠ متراً ، خفضه ترايانوس ، فيما بعد ، الى ١٨ متراً ، ثم راح المسؤولون يفضون النظر ، كما يبدو ، عن بعض التجاوزات هنا ، والمخالفات للقانون ، هنالك . وكان الطابق الارضي يؤلف عادة مسكناً ثرياً او يتخذ منه مخازن ودكاكين للاستثمار . ويقوم فوقه خمسة او ستة طوابق يرقى اليها بواسطة ادراج من الخارج . ولم يكن من النادر حدوث انهيار بعض هذه المباني ، لانعدام المراقبة من قبل السلطة او من اصحاب العلاقة . وكان كل دور من هذه الدور يتألف عادة من بضعة مساكن ضيقة ، قلما تتفصل نوافذها ، وان أقفلت فبستائر شفافة ، فيها يحتشد المستأجرون بعضاً على بعض ، ليموتوا شتاءً ، دنقاً من وطأة الزمهرير ، وليختموا صيفاً ، من شدة وطأة القبيظ . فمن المعقول جداً ان يقضي السكان ، نهراً ، معظم أوقاتهم في الخارج ، وهذا ما اوجب على الاباطرة الاكثار من الساحات العامة والاروقة والحمامات العامة ، حيث تحتشد جماهير عاطلة عن العمل ، تؤمن لها الدولة ، ما فيه أود العيش والكفاف ، تتلهى بالفرج على بعضها البعض ، ان لم تذهب لمشاهدة الالعاب في المدرج والمسارح .

وهذه المنازل العالية ، المشتركة السكنى ، توصف عندهم بـ « الجزر » *Insulae* او « مربعات » لأنها كانت تقوم عند مقاطع اربعة شوارع . ومن هذه المنازل كان يتألف معظم المساكن في روما وفي مدينة أوسقي ، كما دلت على ذلك الحفريات ، اذ عثروا على جدران بعضها قائم على ارتفاع الدور الثاني ، بينما لا نعرف عن اوضاعها في روما غير ما جاء عنها في الكتب الادبية .

ومع ذلك فقد كان تحت تصرف الطبقة الثرية في روما — وهي طبقة ازداد عدد افرادها ايضاً في المدن الايطالية الاخرى — منازل *Domus* او دارات خاصة (فيلاها) من طابق واحد بالأكثر ، ابرزت النماذج الاولى منها ، اثر الفن الهليني . فقد سيطرت العادات والاخلاق اليونانية في مدينة بومبيي ، حيث يمكننا ان ندرس هذه المنازل او الدارات ، كما كانت عليه في هندستها الاولى ، وتتبع التعديلات التي خضعت لها فيما بعد . ففي أبسط النماذج كان المنزل يتألف بعد رواق مركزي ضيق يُفضي الى الشارع ، من حجرة رئيسية هي الدار او فناء البيت *Atrium* كان يقوم على سطحه حوض لجمع ماء المطر شتاءً . وفي هذا الفناء او الدار كان رب

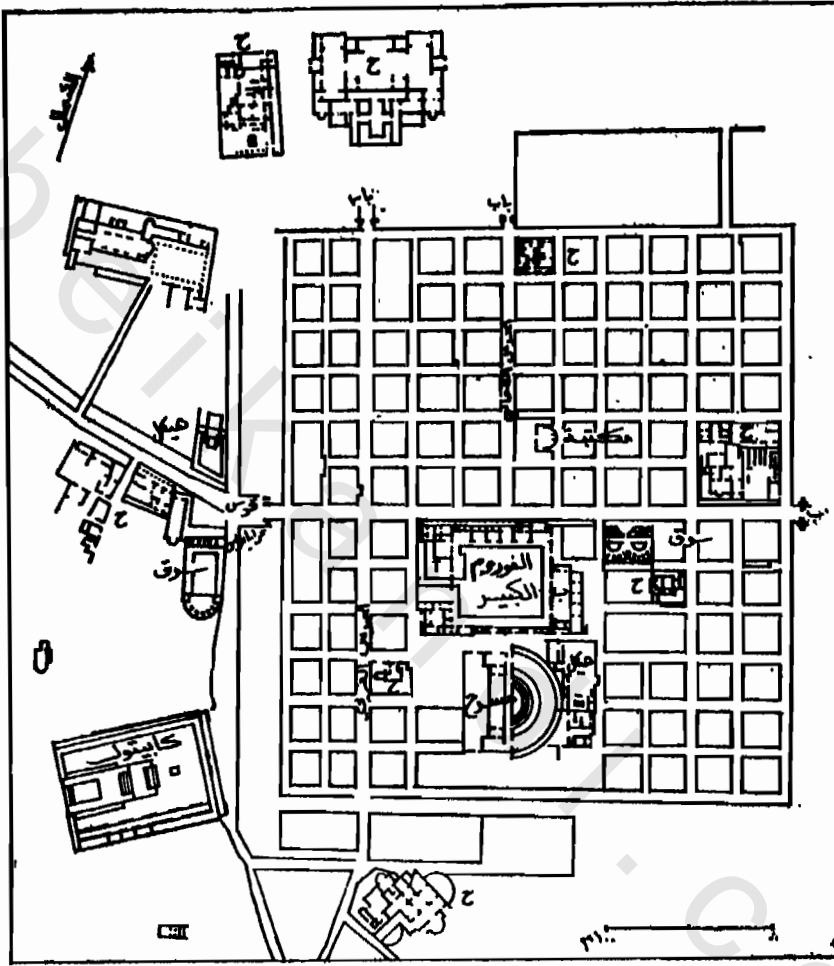
البيت يقضي معظم ساعاته يستقبل الاتباع و «الازلام» ، ويلي الدار حجرة هي حجرة الأسرة *Tablinum* ، وفيها تحفظ ، كما يدل عليها اسمها ، الاوراق والوثائق والقراطيس الخاصة ؛ ويقوم الى جنبها غرفة اخرى هي غرفة الطعام *Triclinium* . ويلي ذلك ، الى الراء ، مساحة غير مشغولة هي من اثر النموذج الهليني ، حديقة تحت رواق يقوم على أعمدة *Péristyle* مقسمة الى مريمات واحواض ماء ، بينها فستقية ، وتناثيل ، وغير ذلك مما يبهج منظره العين . وهذا النموذج المبسط ، العاري ، هو بالطبع عرضة للتغيير والتبدل ، كلما استطاع صاحب الدار الى ذلك سبيلا ، فيضاعف مثلا عدد الغرف والحجر تسهلا لعملية تهوية البيت وتعريضه لأشعة الشمس ونورها ، او بإضافة حدائق جديدة حول المسكن . وعندما كانت تتوفر لصاحب الدار الوسائل المادية كان يضيف الى منزله جهازاً خاصاً للتدفئة ، تقيّد منه كل الغرف ، يُعرف عندهم بـ *Hypocaustes* ينقل البخار بواسطة قطع قرميد، مثبتة تحت ارض الدار او يمر داخل الجدران اذا كانت مزدوجة ، وهو تطور جديد لم تعرفه منازل الاغريق من قبل ، وجهزت به بعض المنازل في روما . فايطاليا الجنوبية لم تعرفه ولم تستعمله ، اذ ان استعماله اقتصر على بعض الولايات المعروفة بقسوة شتائها وبردها القارس .



الشكل ١٦ المنزل المعروف : « بنزل الشاعر المسرحي » في مدينة بومبي :
 أ - المدخل ؛ ب - مخازن ؛ ت - الدرج ؛
 ث - دار مع فستقية ؛ ج - حجرة الأسرة ؛
 ح - رواق بأعمدة ؛ خ - غرفة الطعام ؛
 د - مدخل فرعي . مزين بفسيفساء ورسوم ، منها على العتبة رسم يمثل كلباً مربوطاً بسلسلة ، مع الكلمات : احذر الكلب . في غرفة اخرى حوائج تتعلق بالتمثيل ، ومنها عرف المنزل بهذا الاسم .
 حتى بدون هذا الجهاز ، كانت الدارة تختلف من جميع الوجوه عن المسكن العادي المتواضع .
 وما لا شك فيه قط ، تناقص عدد الدارات في روما ، خلال هذه الحقبة التي امتدت قرنين ، بعد ان بلغ الغنى ذروته في عهد الاسرة اليوليو - كلودية ، ثم اخذ بالانحدار تدريجياً . فالاحصاءات الوحيدة التي لدينا تعود للقرن الرابع . فهي تجعل عدد هذه الفيلات نحواً من ١٨٠٠ مقابل ٤٦٠٠٠ مسكن . كان يوجد ، بالطبع ، اذ ذاك ، طبقة من النبلاء ، يعيش افرادها على المرتبات التي يتناولونها من الدولة ، او من ريع ما تدره عليهم املاكهم في الولايات خارج روما ، حيث كانت تجد راحتها ومتعة العيش ، بعد لم تعد السكنى المترفة في روما ، في متناول الخاصة .

اذا ما وضعنا المدينة - العاصمة جانبا ، فكم تعد الامبراطورية من المدن ، يا ترى؟
 مدن الولايات
 أينما اجلنا النظر وقعت العين على مدن جديدة تخرج الى النور بدافع من الحكومة بعد ان تفاضت عن المدن القديمة وصردت لها تصريداً ، المؤازرة والمساعدة ، مفضلة الاحتفاظ بهما

للمدن الناشئة تتمهدها بالتخطيط والتجميل والتوسيع .
وهكذا نرى الامبراطورية تستعيد ورشة عافة للاشغال . وكلما اتاحت طبيعة الارض
للمدن التغلغل من القلعة الضيقة ، حيث كانت تجثم منكفئة على نفسها ، ضمن اسوار تحد من انطلاق

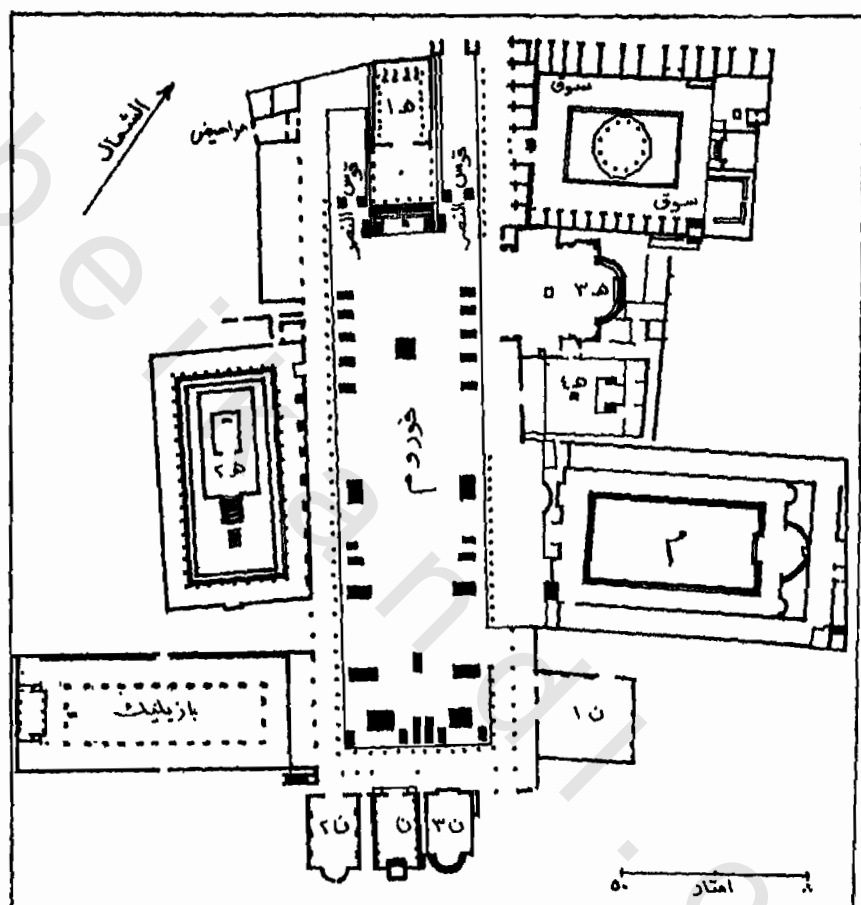


الشكل ١٧ - مدينة تفاد في نوميديا

ح - حمامات ؛ ب - بازيليك ؛ ت - هيكل صغير في الفوروم مع منبر للخطابة عند واجهة المبنى - مستعمرة
المهاجرين القدماء انشأها ترايانوس ، انما القوس المدعو بقوس ترايانوس ، هو بعد ذلك بقرن .
وقد اتسعت المدينة وتجاوزت كثيراً السور القائم حولها ، دون أي تخطيط هندسي .

البصر الى الافق البعيد ، او من الحصن الذي كانت فيه والذي طالما ردد عنها عاديات الدهر وطواريء
الزمن ، او من المقل الذي كثيراً ما اعتصم فيه القائمون بانقلاب عسكري ، لتنبسط في السهل حيث
تقوم ساحاتها العامة ومبانيها ومنازلها . اما المدن التي لا سبيل لديها لتغيير موقعها ، فقد قنعت
باقامة احياء سكن جديدة لها . وكل هذه المدن كانت بحاجة ماسة للفراغ تشيد عليه من

المباني ما فيه حليتها وزينتها ، والدليل على ما تتمتع به من يسر وازدهار ، والشاهد على سخاء وأريحية كبار المواطنين وسراة القوم فيها ، بعد ان تحققت منهم المني والرغائب المادية وبالتالي الحضرية .



الشكل ١٨ - ميدان بومبيي

م - مبنی علی اسم کونکورڈ اوغست و علی اسم التقوی ، شیدته اوامخیا ، رئیس نقابة القصارین ؛ کان يستعمل مقراً لهذه النقابة .

ن - الندوة :

ن ١ ، ن ٢ ، ن ٣ - مبان أخرى لاستعمال الإدارة .

٥ - ميكل ؛ ١٨ - الكايتول ؛ ٢٨ - ابولون ، ٣٨ - الآلهة المنزلية (؟) ؛ ٤٨ - فسبسيانوس .

وقد يكون النموذج المثالي لهذه المؤسسات «المستعمرة» مدينة خططت وفقاً لترتيب هندسي فوق اراضٍ طليقة استوحوا مقومات تخطيطها من الطراز المستوحى من معسكر للجيش . وهذا التخطيط الهندسي المربع الاضلاع، يستلهم عموماً، المبادئ العامة التي انتهجها الاغريق في

هندستهم ، منذ القرن الخامس ق . م اضاف اليها الرومان ، بدافع من عقائدهم وتقاليدهم الدينية ، هاجس او ضاغوط الاتجاه ، بحيث يستطيع المرء ان يحدد ، في مدينة كمدنية ليون ، في غالبا ، مثلا اليوم الحقيقي لتأسيس المدينة ، وذلك بملاحظة النقطة التي يلتقي عندها خط ينطلق من نقطة تقاطع الخط الرئيسي من هذه الطريق ، *Decumanus maximus* مع الخط الرئيسي للطريق ذي الاتجاه الشمالي الجنوبي ، حيث يجب ان تقوم الساحة العامة في المدينة او الفوروم . وعلى موازاة هذه النقطة المركزية تنطلق خطوط كبرى وصغرى بحيث تتحدد معها مواقع القطاعات الاخرى . فالمباني العامة ذات الشأن تحتل من هذه المواقع مراكز غير قابلة للتغيير ، بحيث لم يعد موجب ليتكىء المسرح على منحدر هضبة او سفح تلة . وهذا النموذج القياسي تولى وضعه بالطبع مهندسون يعملون في مصالح حكومية خاصة .

الا ان تطبيق هذه الهندسة لا يمكن ان يأتي كاملا ، على الوجه الاحسن ، الا في حالات المدن التي تنشأ دفعة واحدة بجميع مقوماتها وقطاعاتها . اما تلك التي تنشأ حول معسكرات للجيش ، فتأتي عادة ، على غير نظام وانتظام وان كانت قيادة الجيش تسهر على هذه الضواحي وتنظيمها . فالتشويش لا يوجد الا في المدن القديمة ، او بالاحرى ، في الاحياء القديمة من هذه المدن ، اذ ان الجديدة منها تضطر للزول عند قواعد التنظيم المعمول بها . وهكذا ، فالمدينة المعروفة بمدينة « هديالوس » التي تقع الى الشرق من قلعة أثينا ، تلتصق تماما مع قلعة مدينة *Thésée* .

ونجد في معظم الاماكن ، اكثر من جو عائلي لاننا نواجه مباني من نموذج واحد لا بد منه ولا مندوحة عنه لكل مدينة . في اي مدينة كانت ، نجد ميدانا (فوروم) هو قلب المدينة ، وباحتها المركزية ونقطة الجذب منها . وقد يشاد فيها ، احيانا منبر للخطابة يسمى عندهم *Rostres* ، كما هي الحال في روما ، مع ان المواطنين انقطعوا ، منذ زمان بعيد ، عن عقد مثل هذه الاجتماعات . ويقوم الى جانب الفوروم ، عادة ، ادارة المدينة (*Curie*) حيث يعقد المجلس البلدي جلساته ، كما تقوم البازيليك او النادي ، وعلى مقربة من الفوروم تقوم ايضا السوق التجارية (هال) التي تتألف من مجموعة من المخازن ودكاكين الباعة ، في صف واحد . وفي الاحياء تنتصب هياكل ومعابد على شرف آلهة متنوعة . والمدن التي تود ان تأتي بالدليل على رومانيتها وتحرص على المباهاة بهذه العاطفة ، تقيم لها في مكان تختاره لهذا الغرض « كابيتول » اي هيكلا على اسم الإله جوبيتر الكابيتولي ، او اكثر من واحد ، لعبادة : « روما - اوغسطس » او « اوغسطس » ، ولهذا وذاك من هؤلاء المؤلهين (*Divi*) . والحاجة للملاهي تقضي بإنشاء مسرح تكاد لا تخلو منه مدينة ، وكثيرا ما مدرج . ولا بد في كل مدينة من حمامات ، وملعب للالعاب الرياضية . اما المكتبة ، وأن كانت اقل انتشارا من غيرها من هذه المؤسسات ، فهي موجودة ، مع ذلك ، في مدن عديدة . ويكتمل العقد النظيم اذا ما اضعنا الى هذه السلسلة القناطر المائية . والفارق الاكبر بين مدينة وأخرى ، والمميز بينها هو ما فيها من المباني الرسمية ، وما هي عليه

هذه المباني الرسمية من العظمة وغنى الزخرف والنقش . وعندما أُصيبت مدينة بومبي بالخراب التام ، عام ٧٩ للميلاد ، كانت تعد ميدانين (فوروم) ، أحدهما مثلث الاضلاع أو الشكل ، وهو شيء غير عادي ، وعشرة هياكل ، بينها اثنان لعبادة الامبراطور ، وصالة للحفلات الغنائية (أوديون) تسع ٩٠٠ مقعد ، ومسرحاً يضم ٩٠٠٠ مقعد ، ومدرجاً يتسع لـ ٢٠ ٠٠٠ مشاهد ، وثلاثة حمامات ، وملعبين وغير ذلك من الانشاءات العامة . وبالفعل ، فقد كانت بومبي مدينة غنية . غير ان القرن الثاني ، الذي هو عهد الأسرة الانطونية ، يؤلف العصر الذهبي للمدن ، التي راحت اذ ذاك ، تتنافس فيما بينها لتجميل معالمها ، كما كانت تحت مواطنيها على ان يتبرعوا ، في حياتهم او ان يوصوا ، بعد وفاتهم ، نقداً او عيناً ، بما يساعد على تشييد المباني . وهكذا راحت الميادين تزدان بأنصاب التماثيل ، كما راحت تمتد وتتسع ، وترفل بالرخام والمرمر ، وبأقنية لتصريف المياه ، حجارتها من المرمر ، شريطة ألا تكون مقالعه بعيدة كثيراً عن المدينة ، وبالأروقة القائمة على العمود بحيث يأمن المارة حرارة الشمس صيفاً والأمطار شتاءً . وهكذا لا تلبث حصون المدينة وقلاعها ان تزول وتختفي معالمها . وقد يقوم أحياناً اقواس للنصر مع ما لها من أرتاج ضخمة . كل هذا حدا بأحد الخطباء في آسيا الصغرى — مع ان مثل هذا المنظر ليس بغريب عن النظر في مدن الغرب — هو ايلوس ارستيدس ان يهتف قائلاً : « والظاهر ان العالم كله في شبه عيد ، فقد نزع عنه أثمانه البالية ومبازله الرثة المصنوعة من الجديد ليستسلم بكليته للحرية ولذعة العيش . كل المدن تناست منازلها بعضها مع بعض ، او بالاحرى اخذت تتنافس بعضها مع بعض بحيث تحاول الواحدة منها بز الاخرى جمالاً وبهاءً وسناءً . أينما وقع الطرف ، وجد ملاعب واحواضاً للماء وادراجاً ضخمة ، وهياكل ، ومصانع ومشاعل ومدارس . وبالفعل ، لا نجد مدينة من بين مدن الامبراطورية لا ترتدي ، بين عهدي ترايانوس ومارك اوريل ، حلة جديدة وزينة جديدة — كأنها تسهم من جهتها في تجميل للعالم الروماني ، بهذه الانصاب البيضاء من تماثيل وعواميد وملعب بيضاء ... لا — كان ينقصها كما نقص الكاتدرائيات ، في زمانها ، هذا اللون الزنجاري الذي تضيفه الاجيال والعصور على المباني .

الدارات Villas استمرت حركة اتساع المدن وتجميلها ناشطة في عهد اسرة ساويرس . ومع ذلك ، سيراً مع سُنّة التطور التي تقتضي أن يهيء الحاضر المستقبل ، وألا يطلع شيء بالطفرة ، أطل منذ عهد الأسرة الانطونية شيء جديد . فقد وجدت المدينة نفسها ، وجهاً لوجه ، مع منافسة عرفت حظاً كبيراً ، هي « الدارة » . فقد جاء الحديث عنها في معرض الكلام عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية : فالملكية العقارية الضخمة اخذت تنتظم وحدة متكاملة متكافلة ، كما اخذ كبار الملاكين يتأون عن المدينة هرباً من هذه المراسم والاعراف والعادات وما تجره من مضايقات ، وتقدياً منهم للنفقات الباهظة التي كانت تفرضها عليهم مستلزمات الحياة في المدينة . فلنلقِ الآن نظرة دقيقة على جوهر الوضع الذي قامت عليه « الدارة » في الاساس .

بالطبع ليس المقصود هنا المنزل الريفي *Villa rustica* الذي كان يضم المباني اللازمة لاستثمار

الاقطان مع مساكن الشغيلة والعمال ، وغير ذلك من اصطبلات وصرير ، ومزارب الحيل والمرائب ، والاهراء والمشاغل . فليس في هذه كلها مجال لمراعاة الذوق الفني والأخذ بأصوله ، والتقييد بقواعده : من عمارة وترتيب وتنظيم : فالشيء الذي يستبد بالانتباه ويستأثر به هو مسكن صاحب هذه الاقطان . فهذه الدارة ، عند قيامها ، كانت تقع على مقربة من البيت الريفي ، بحيث يتاح لرب الارض مراقبة الاستثمار والاشراف على ما يجري فيه من اشغال واعمال . ليس من المفروض قط ان يقوم مثل هذا النزل في كل الاملاك والاقطان الكبيرة . ولكن لكل من هؤلاء الملاكين الكبار دارة واحدة ، على الاقل ، وقد يكون له أكثر من دارة أحياناً . أفلم نَرَ كيف ان بلين الاصفر كان له منها اربع : منها اثنتان في غاية الابهة والغنى ، احدهما بالقرب من مدينة اوستي ، والثانية في مقاطعة توسكانا .

عرف الشرق دوماً مثل هذه الدارات التي كانت عادة تقوم في وسط الاملاك الواسعة الشاسعة التي يملكها كبار الاقطاعيين ، اذ كان صاحب الارض يحرص دوماً على إقامة دارة له في قلبها ، يعيش فيها عيش السراة والنبلاء الإقطاعيين . وهذه النزل الريفية كانت تبدو كأنها حصون حصينة ، تحيط بها الحدائق الغناء حيث يتوفر القنص والصيد على انواعه ، تعلوها الابراج والقلاع . ليس عندنا فكرة قط عما كانت عليه بالفعل هذه الدارات في عهد الامبراطورية ، ولعلها قد تكون على شاكلة هذه الدور الافريقية المرسومة في بعض القسيفساء .

واكثر النماذج شيوعاً وانتشاراً هو النموذج الذي أطل علينا في مكان آخر من ايطاليا . فاذا كان على الملاك الكبير في شبه الجزيرة الايطالية ان يسكن بين املاكه واقطانه ، فقد اتخذت الدارة ، قبل نهاية العهد الجمهوري ، طابعاً مستقلاً عن استثمار الارض . وقد اخذ الناس بالزي المستبد بالعرف : فراحوا ينشئون لهم مراكز للاصطياف ، بالقرب من شواطئ البحر او في بعض المواقع الجبلية ، ذات المناظر الطبيعية الفتانة ، من جبال اللاتيوم ، او في نقاط معينة مشهورة ، مثل توسكولوم وتيبور . ففي عهد الاسرة اليوليو - الكلودية كان كل ابناء الطبقة الارستوقراطية العليا قد انشأوا لهم ، في هذه المراكز ، بيوتاً جميلة للغاية حيث تتوفر كل اسباب الراحة والهوى . وهذا النمط بعينه انتشر في الولايات الغربية اكثر من اي نمط آخر ، لما يوفره لاصحاب الدارة وسكانها من هدوء وطمأنينة وسلام ، ولسيد الدارة ، من نفوذ وشأن بين سكان الريف ، حيث كانت تتم للسيد : المشافرة على مزارعه ومزروعاته ، وتتوفر له كل اسباب الاستجمام والراحة .

فالدارة السكن ، وحدها مشروع قائم بذاته ومنهاج . والذي يتوق اليه صاحب هذه الدارة ويرغب فيه هو تقليد المنزل الثري في المدينة ، بحيث لا يلبث ان يصبح هذا المنزل الدارة المفضلة . بالطبع ، ليس من المتوقع قط ، ان يكون عدد الوافدين والزائرين ، من ضُحْبٍ وخلان ، على نسبة ما هم عليه في المدينة ، كما تنقص بالتالي وتقل ، علاقة سيد الأرض برجال الادارة وبالرسميين من ممثلي الحكومة . ولذا تصغر مساحة البهو أو صالة المنزل ، ويقتصر فيها على ما يؤمن لاصحاب الدار ولذويه ، متعة الحياة وهناءة العيش الرخي ، كالاروقة المنتصبة على العواميد ، والحدائق

والرياض الغناء بعد ان اتسعت الأرض ورحبت منها الارحاء ، وعلى نسبة الموارد والدخل الذي يؤمنه الاستثمار لتوفير اسباب الراحة واللذة . ينفرج الرئاج عن غرف يزداد معها المنزل طولاً ، كما يزداد عرضاً بما يضاف عليه من اجنحة جانبية تقوم بينها افنية واسعة رحبة ، وأروقة مستطيلة . ويأخذ بعض سراة القوم بمضاعفة الغرف بحيث يتوفر بينها اكثر من ردهة للاستقبال ، واكثر من غرفة للطعام ، والعديد من الغرف ، لفصلي الصيف والشتاء ، تجهز الاخيرة منها بشبكة للتدفئة على الهواء الحار . وكثيراً ما نرى في الدارة مكتبة عامرة بالكتب والمؤلفات مع كوى في الجدران ، لاقامة الانصاب والتأثيل ، كما نرى الحمامات . وتفرش ارضية الحجر بالفسيفساء كما يتدلى من الجدران رسوم وصور فنية . وكثيراً ما كانت الجدران والعواميد تغطي بانواع فاخرة من الرخام الجميل كالبرفير ، كذلك كانت تقام في الحدائق أكشاك تلتف حولها الاغراس المتعرجة يتخللها متزهات وملعب وميادين ، لضروب الفروسية على انواعها وسباق الخيل ، واحواض للسباحة وفستقيات تنطلق منها المياه واحواض لتربية الأسماك على أشكالها . ويقوم تحت تصرف سيد الدارة الكثير من العبيد والارقاء لتأمين أعمال الفلاحة والزراعة والاشغال الاخرى التي يتطلبها حسن استثمار الارض ، تحت اشراف وكلاء ورؤساء ورش ، مما يزيد من نفوذه وعلو شأنه في المنطقة حتى وفي المدينة القريبة ، فينصرف بعد انتهاء عمله الرسمي في الوظيفة ، أو بعد إحالته على التقاعد والمعاش ، الى العيش الرخي يستمتع بما تم له من نعمة سابقة وبما يوفره له غناه وثروته الطائلة من متع ذهنية ، ومسررات مادية .

وقد تختلف هذه الدارات التي عرفت منها ايطاليا عدداً كبيراً ، بعضها عن بعض بنسبة غنى اصحابها واخديم باسباب الحضارة . ومن هذه الدارات الفخمة : دارة آل لورنتس ودارة آل توشي ، التي خلد بلين الاصغر ذكرها من خلال الوصف الأخاذ الذي تركه لنا في رسائله المشهورة التي وضعها في عهد الاسرة الانطونية . اما في الغرب ، فالحفريات الأثرية التي جرت هناك ، كشفت لنا عن العديد من هذه الدارات في مقاطعات بريتانيا ، ورينانيا وغاليا ، ويعود معظمها للقرن الثاني ، وهي بعد ، لم تبلغ الذروة في تطورها نحو التكامل ، كما لم تبلغ هذا البذخ الذي تم لها بعد ذلك . وهذا البذخ وهذه الابهة التي تجلت في الدارات الريفية يؤلف تكذيباً لمن يدعي وقف الحضارة وإقصارها على المدن دون سواها ، انما يبدو في الريف اكثر فردية واثرة ، واقتصر على طبقة معينة من الناس اقامت رخاءها على بؤس الشعب وشقائه .

خاتمة المطاف

يجب ان نوسع من نظرتنا الى الافق . فعندما لا تفرض الانجازات الفنية التي طلعت بها مدنية ما ، نفسها بنفسها ، بما لها من قيمة جمالية ، فالفن يبقى لا قيمة له إلا بنسبة ما يؤلف عنصراً زخرفياً للبناء القائم . ليس من عجب قط ان نختم بحثنا هذا عن الجهود البنائية الزخرفية بملاحظات تتناول كل حضارة الامبراطورية الرومانية ، في طورها الاخير .

بين هذه الملاحظات ، ملاحظة ليست جديدة ، طالما سبق وأبديناها من قبل حضارة نبلاء أكثر من مرة. فبالرغم من هذه النزعة الانسانية التي انبثقت عن هذه الفلسفات اليونانية بقيت هذه الحضارة ، قاسية ، لا ترحم ، شديدة الوطأة على الطبقات الاجتماعية الدانية ولا سيما على هذه الطبقات الريفية منها ، فسخرتها بلا رحمة لتأمين حاجاتها ولما نعمت به من كماليات. والحال ، فالكماليات استنفذ انتاجها قدراً كبيراً من الوسائل التقنية المعروفة اذ ذاك ، وفي سبيل تأمين هذه الكماليات ، هُدر جانب كبير من ثروة الدولة ، وقدر كبير من الجهد البشري لتأمين رفاهية أقلية ضئيلة ولتوفير ما يضمن على حياتها : البهجة والغبطة والسرور ، او ما يؤمن لها زينة الدنيا ، دون ان يعود هذا الجهد وهذا الانفاق بشيء يذكر على تطوير وسائل الانتاج ، كما ان هذه الطبقات الكادحة لم تقدر ، حتى في أكثر الحالات ملاءمة لها ، سوى شيء يسير من هذا كله. وبأحسن الحالات ، لم تجهد هذه الطبقات سوى درس ثقافي لم يُثر فيها على الصعيد الديني اية عاطفة او شعور يعوض عليها ما سَخَتْ به من عمل شاق. ففي مدينة بومبي المزدهرة كما في روما الامبراطورية ، نرى السواد الاكبر من المساكن والمنازل في حالة مدقعة من الفقر والقدارة . فماذا نقول عن أكواخ الفلاحين التي تكاد تخلو من الضروريات ، فلم يبق او يصلنا منها شيء ؟

مشكلة التوازن لم تكن مشكلة النظام الاجتماعي الوحيدة . فتى يا ترى ، وحدة اطراد فقدت هذه الوحدة قيمتها وأصبحت اطراداً ؟

فن أشتات هذه الولايات المتباينة ، كونت الامبراطورية دولة ، تولى الامر فيها رجل فرد ، كان من أولى واجباته نحو روما ، تحقيق مثل هذه الامبراطورية او السعي نحو هذه الغاية بعد ان تنكبت العهود الماضية عن تحقيق مثل هذا الامر ، او باءت المحاولات التي بذلت في هذا السبيل بالفشل ، فكان ذلك كله مبرراً في نظره لمعاودة الكرة وتحقيقه . ولكي يؤمن لهذه الدولة ، ما يلزم من قوة وسلطان ، راح هذا السيد المطلق يحاول ، عن سابق قصد وتصميم ، افرار هذه الولايات الاقليمية في قالب واحد . فكتب له النجاح في ما يتعلق بالادارة وما يتصل بها ، وتدخل شخصياً لكي يزيد من قوه التطور الذي اخذت الامبراطورية باسبابه في المجالات الاقتصادية والاجتماعية ما لا يمكن لاحد نكرانه . إلا انه باء الفشل عندما راح يحاول تحقيق الوحدة الدينية لهذه المرامم وطقوس العبادة الرسمية ، وهي وحدة تمت فيما بعد لغیر هذه الطقوس والعبادات . اما في المجال الفكري ، فالوحدة تحققت بالرغم من الازدواجية اللغوية . ولكن ماذا من الفن بعد هذا ؟

لا يستطيع احد ان ينكر ما تم من وحدة في هذا المجال . كذلك لا يصح اطلاقاً لأحد ان يتجاهل بعض الفروق والنزعات الاقليمية التي طبعت مظاهر هذا الفن . فاليونان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر ، لم تكن اراضي جديدة او شبه جديدة ، كما كانت افريقيا واسبانيا او غالبا . ففي مصر ، الامبراطور هو قرعون ، ولذا لا نراه يتنكر للفن المقدس . ففي عهد ترايانوس ، أقيم

الكشك الذي اشتهر به هيكـل فيليه . فـعلبك المشهورة باسم هليوبوليس ، وتدمر بما تم لهـما من العـائـر الفـخمة ، ومن الاعمدة الضخمة وما فيها من وفرة الزخرف ، لا تشبهان بشيء ، مدينة تمغاد او كولونيا . ومع ذلك ، فهذه الفروق زالت وانتفت امام هذه المثل المشتركة التي هدفت كل المدن الرومانية لتحقيقها .

اما المشكلة الصميم ، فمشكلة هذا الغرب المتخلف عن ركب الحضارة . فلو عرف هذا الغرب ان يتدرج في اقتباسه ، بتؤدة وتمهل ، حضارة ادبية ومادية ، أقل ضغطاً وعنفاً من تلك التي فرضها عليه فاتح غاز ، بقوة السلاح ، انما كان استطاع ان يحقق مثل هذه الحضارة ، بالاعتماد على ما فيه من طاقات اصيلة كامنـة ؟ فالفضل في إثارة مثل هذا الشك يعود لكيـل جوليان الذي عرف ان يقف وحده ويعارض نظرية تقليدية استبدت بالمؤرخين . وعلى شاكلته ، يمكن لنا ان نفترض طلوع حضارة اسمى بكثير من هذه المدنية الغالو - الرومانية ، كما يجوز لنا ان نفترض طلوع مدنية اسبانية واخرى افريقية .

ولكن ، هذه كلها افتراضات من وحي الخيال ، واحلام خطرت في البال .

الكتاب الثاني

حضارة العهد الإمبراطوري الثاني

(القرنان الثالث والرابع)

لقد أطلق على هذا العهد اسم العهد الإمبراطوري الثاني : ولا يعني هذا الإطلاق سوى التوقيت الزمني فقط .

ليس هذا العهد محدوداً بتاريخ واضحة . وليس في بدايته وفي نهايته ما يتصف بجلاء تلك الوبائات السياسية - الحروب الميديدية ، حملة الاسكندر ، الحروب الاهلية التي لقب اوكتافيانوس عنده نهايتها بـ « اوغسطس » - التي تعين او ترافق احياناً ، اتجاهها جديداً في الحضارة العامة يراه المعاصرون أنفسهم . فتمت ينتهي العهد الإمبراطوري الاول يا ترى ؟ كثيراً ما يلحق به عهد سلالة ساويروس (١٩٣ - ٢٣٥) ، مع ان التجديدات التي حققها هذا العهد أعظم عدداً وتأثيراً في نظرة هذا المجلد الشاملة ، من ان لا تؤثر على هذا الحلّ حلاً آخر . ولكن الاخذ بهذا الرأي لا يعمي بصيرتنا عن الاعتراضات التي يثيرها . وهناك سؤال أكثر دقة ايضاً لأن الهامش فيه أعظم اتساعاً: أين ينتهي العهد الإمبراطوري الثاني ، أي الإمبراطورية نفسها ؟ هل في السنة ٣٩٥ ، تاريخ وفاة آخر امبراطور مارس وحده السلطة على مجموع العالم الذي احتلته روما في ما مضى ؟ ام في السنة ٤٧٦ حين فقد الغرب آخر امبراطور له الحق في هذا اللقب ؟ ولكن تواريخ أخرى قد اقترحت ايضاً ، منها ما يسبق هذين التاريخين ومنها ما يتوسطهما ومنها ما يتأخر عنها . واذا ما اقتصرنا على التاريخين الاولين اللذين يجمعان حولهما العدد الاكبر من الانصار ، فالمجادلات ابعد من ان تهدأ حول الأهمية الحقيقية او الرمزية للحدثين الاول والثاني وحول وعي المعاصرين لهذه الأهمية فوراً او بعد حين . لذلك فبالفضل ألا نختار حتى نحفظ بمرئتنا ، عند الحاجة ، في ان نتخطى قليلاً او كثيراً حدود القرن الخامس .

وليس هذا كل ما في الأمر ولا أخطر ما فيه . فما هو مفهوم العهد ؟ هل هو المصور القديمة المتأخرة ام هو مقدمة القرون الوسطى ؟ غالباً ما يختار كل مؤرخ بحسب أصوله الشخصية ، وكل مؤرخ على حق في ما يفعل : فتتفكك المصور القديمة تدريجياً وتشيد الاسس ، الزمنية او

الروحية، لما سيفقد القرون الوسطى ، لا سيما اذا ما درسنا هذه الاخيرة في بيزنطية . كل ما هو بشري ينطوي، في كل آن، على بعض القديم وبعض الجديد . بيد ان العهد القديم ، في ما يعيننا ، هو الذي لا يزال حياً في جوهر مفهومه للانسان وللجتميع الذي يحاول التكيف حتى لا يدركه الفناء .

نحن نسلّم جدلاً ان في ذلك تجاوزاً زمنياً . ولكن المهم ليس في ذلك . فمن السهل جداً ، لا بل من الفطري جداً ايضاً، ان نرى في هذه الامبراطورية، «التأخرة» زمنياً ، وفي حضارتها، الاشكال الذابلة والمريضة وحتى الميتة لحقائق سابقة سليمة . بيد ان هذه الحقائق ليست سليمة بهذا المقدار ، واما « روماني الانحطاط » فلا وجود له إلا في مخيلة الرّسامين والشعراء . فهو ليس براء من المعاضل الجديدة او المتزايدة خطورة التي عليه ان يواجهها فحسب ، بل انه لا يبدو أقل نشاطاً ولا اقل ابتكاراً من أسلافه في محاولة حلّها . اجل ان من يدرس العهد القديم ويراه ينتج هذا القدر من الآراء التي لا يزال العالم المعاصر يتغذى بها ، لا يستطيع الامتناع عن ابداء حكم ازدرائي امام اهمالها التدريجي . ولكن من يرى آنذاك ايضاً كل تعلقه بالحياة ومقاومته لهجوم القوى المضادة لا يستطيع الامتناع عن ابداء شعور اعجاب بهذه الحيوية المستمرة . امانحن فلنحاول تجنب حكم الاول وشعور الثاني، فالرؤية والفهم هما اهم بكثير من توزيع المديح والمذمة.

الفصل الأول

أزمة القرن الثالث

في شهر نيسان من السنة ١٩٣ أعلن جيش بانونيا سبتيموس ساويروس امبراطوراً ، وفي شهر ايلول من السنة ٢٨٤ ، نادى الجيش الذي حارب الفرس بديوكليسيانوس امبراطوراً ايضاً . ان هذين التاريخين يحددان عهداً — هو القرن الثالث اجمالاً — مليئاً ببؤابر ازمة متعددة الاشكال ينجم عنها العهد الامبراطوري الثاني . فليست الوثبة السياسية والعسكرية اذن نادرة الحصول بين هذا العهد الاخير والعهد الذي سبقه . غير ان استطالة هذا العهد النادرة وحدها قد تهيب بنزع هذا الطابع عنه ، فليس من معاصر عاشه كله ؛ وليس من معاصر ذاق آلامه النفسية المبرحة كلها ، الموزعة في الزمان والمكان . وليس من معاصر استطاع التخلص من خداع الوقفات المضحكة التي تخللته ، وليس من معاصر استطاع بالتالي استخلاص معناه الحقيقي . ولكن اكتشاف وحدة العهد يسهل امره اليوم على من لا يتلهى بالاحداث العارضة ، وللمجموع هذه الحوادث من الاهمية في تطور الحضارة العام ما جعل هدف هذا الكتاب بالذات يفرض تحديد مظاهره الرئيسية .

نحن لم نحفر قط ان التوازن الذي حققه العهد الامبراطوري الاول كان توازناً مترجحاً ؛ وان الصعوبات التي برزت في القرن الثالث هي بالضبط ما افاح في اغلب الاحيان استقصاء وتبيان جرائمها في القرنين الاولين . كانت مجرد جرائم آنذاك وكان بالامكان ان تجبض . ولكنها نمت شيئاً فشيئاً . وجاءت الظروف والإعدادات تعطى الأزمة اتساعها الفائق . فبدأ العالم الروماني ، بعد أن عاش عدة قرون عيشة مشتركة ، وكأنه يتفتت جواراً في انهياره الحضارة التي وفر لها الاطار .

ان اول جرثومة اختمرت وخلقت البلبلة التي افادت منها كافة الجرائم الاخرى الفوضى العسكرية هي الخطر العسكري الداخلي . وهي اخطر جرثومة حقاً لانها استهدفت القاعدة نفسها لنظام نشأ عن انتصار الاقوى خلال الحروب الاهلية . وهي اقل ما جهله الرومان من الجرائم : فقد سبق وبرهنت عن مفسادها خلال ازمة السنتين ٦٨ - ٥٩ . لذلك اتخذ ضدها

المزيد من الاحتياطات : وكان ثلثي شرها السبب الموجب للنظام الذي اعطته سلالة الانطونيين طيلة قرن تقريباً ، دوام الحياة وسنى العظمة .

اقبل الرومان ، منذ ترايانوس ، عن سياسة الفتح حادثين جهد المستطاع من دور الجيش . واتخذوا حينذاك ، بنوع خاص ، من الخلافة بالتبني ، مبدأ وعقيدة واعتمدها مستفيدون من ان بعض الاباطرة قد ماتوا دون ان ينجبوا اولاداً . فاباح ذلك اختيار الاجدر بغية التأثير على القادة قبل الجنود .

غير ان الاحداث اخذت على نفسها ، حتى قبل وفاة مارك — اوريل ، اظهار ركافة هذه الاحتياطات . فعلى الرغم من تصميم روما على السلم ، جدت مبادرة العدو الخارجي عهد الحروب الكبرى التي اعادت للجيش شعوره بقوته الحقيقية . فبرهن اقدام اوفيد كاسيوس على اغتصاب السلطة ان القادة ما زالوا معرضين للتجربة وقضى اخيراً انتقال السلطة الى كومودوس على ما في نظام التبني من ايها : كان من شأن الوراثة ان تبرز ، وقد ابرزت فعلاً مرة اخرى ، اباطرة غير جديرين جازت ضدنهم ، بعد قطع اي امل آخر ، كافة المؤامرات .

وهكذا فان اغتيال كومودوس قد اعاد الى الجنود ، منذ السنة ١٩٢ ، حق اختيار الامبراطور . فاسرع رجال الحرس ، لاسيما وهم في خير مركز بفعل وجودهم في روما ، الى وضع لقب الامبراطور ، في مزايده علنية بين طامعين : يختارون بينهما ذاك الذي يعتلي جدار معسكرهم ويعدهم باعظم عطاء ، اي ما يعادل ٦٠٠٠ درهم للجندي الواحد . ثم جاء دور جيوش الولايات التي تعلن قائدها امبراطوراً ثم تحارب احداها الاخرى وتتجه نحو العاصمة لفرضه فيها . خرج سبتيموس ساويروس منتصراً من المباراة الاولى وبدا انتصاره بشيراً بتنظيم المستقبل . فخلفه ابناؤه ، ودامت سلالته ، ببعض الصعوبات أحياناً ، اربعاً وعشرين سنة بعد وفاته . ولكن اغتيال آخر انسابه ، في السنة ٢٣٥ ، كان فاتحة نصف قرن من الفوضى العسكرية نصبت الجيوش فيه وعزلت عدداً كبيراً من الاباطرة . فعدد هؤلاء اكثر من ان يحصى ، وان المصادر الادبية التي حاولت احصاءهم لم تأت على ذكر بعضهم : ولولا بعض النقود المضروبة باسمهم ، لجهلنا وجود بعضهم . فنادرون لميري الاباطرة الذين استمروا في منصبهم بضع سنوات . وان غالينوس الذي اعترف به امبراطوراً في روما لمدة ١٥ سنة ، منها سبع بالاشتراك مع والده ، قد تفوق على كافة الاباطرة الآخرين بطول ولايته ؛ ولكن اقاليم كثيرة لم تخضع له . اما اسعدم حظاً بعده ، اوريليانوس وبروس ، فلم يتجاوزا خمس او ست سنوات . وكان نصيب الاكثية الساحقة بضعة اشهر فقط ، ولم يمش احدهم ، بعد المناادة به امبراطوراً ، سوى ثلاثة ايام . اما موتهم فقد كان ما يجب ان يكون . فمذبذبة كومودوس حتى ديو كليسيانوس مات احداً لاباطرة اسيراً في بلاد اجنبية ؛ وآخر متأثراً بضربات العدو ؛ واثنان ، احدهما سبتيموس ساويروس ، مصابين بمرض خلال العمليات الحربية ، وسمح اوريليانوس بتنازل منه لا نظير له ، للعظماء الذين استعاد منهم تدمر وغاليا بان يعيشوا ويموتوا بسلام في ايطاليا ؛ ولكن الباقين دون استثناء ماتوا

ضحايا اقاربهم او ضباط اركانهم أو جنودهم أو جنود احد منافسهم

ان الفكر بكل والعقل نفسه يتيه حين نحاول جمع وترتيب التفسيرات التي توفرها المصادر - ويحدث ان تستغني عنها - لاختيار وزوال خطوة هؤلاء الاباطرة المتعاقبين ، والحاكمن غالباً في آن واحد . فالجيوش تنتخب طامعاً سخياً بالأعطيات الحقيقية الفورية ، او بالوعد ، وقائداً يوحى لها الثقة بان يقودها الى النصر ، واي شخص آخر تقريباً في بعض الاحيان ، كما لو كان ذلك بدافع اناي ، رغبة منها بالاقتراء بالجيوش الماهرة . ثم تقتل بمثل سرعتها في الانتخاب ، بسبب فشل أو خيبة أمل ، أو شدة قصوى في النظام أو مجرد هوى ، حتى توفر لنفسها اللذة والكسب في انتخاب الخلف . والانتخاب يوازي الحكم بالموت : فاذا امسك البعض في التغلب على القدر ولم يتراجعوا امام الديسيمة ، فان البعض الآخر ترتعد فرائصهم خوفاً ولا يقبلون الا تحلصاً من الموت الفوري . ويحدث احياناً ، في هذه السلسلة الطويلة من الاغتيالات ، ان يتغلب الوجه المضحك الغليظ على الوجه المسرحي المنفر : فهي توفر ، لو ان المصادر اكثر تصريحاً ، حقلاً دراسياً واسعاً للشغفين بالسيكولوجيا الخاصة بالجماعات .

لنفض الطرف هنا عن أوجه الزيفان ، مفتنة كانت ام غير مفتنة . ان هؤلاء الرجال ، المحشوشين بفعل منشأهم ، يسكرون بقوتهم ولا يتقيدون بالنظام في غالب الاحيان . ولكن انفلات هيجانهم الصاحب والاولي يعتبر ، كما نرجح ، عن اندفاع قوى عميقة سنحاول فيما يلي تحديدها . ولا يجوز ان نفعل ان هؤلاء الرجال انفسهم ، وفي الوقت نفسه ، يرضون بالقيام بيوهر واجبه . انهم يتعارفون بين جيش وجيش ، ولكنهم يحاربون العدو ايضاً . ويعرف رؤسائهم عند الحاجة ، وهم المستفيدون من هذه الهبات والمقدمون على هذه الاغتيالات ، كيف يعطون المثل في الحزم الانساني وفي القسوة على السواء . وهو الجيش ، في آخر المطاف ، من يخلص الامبراطورية بعد ان اسهم في ايصالها الى شفير الهاوية . وتكفي هذه الملاحظات لاقضاء النظرية الساذجة القائلة بمنحون جماعي لا يعقل ، على كل حال ، ان يدوم بهذا الاستمرار طيلة قرن تقريباً .

ان الخطر البربري ، الذي شجعتة فوضى حولت الجيش عن مهمته الحقيقية والذي الخطر البربري شجعه بدوره لأن تهديده ربط السلامة العامة بحسن ارادة الجنود ، قد ارتدى بسرعة فائقة طامعاً خطيراً خيفاً . كان العهد الامبراطوري الاول قد حمى العالم المتمدن منه : فوقف في وجه الغزوات ، وحرس الحدود بتيقظ ، وطوق وراقب نقاطاً نادرة برزت فيها وادر الشقاق داخلي . فجاء هذا الحل منطبقاً على عالم بربري هادىء نسبياً . ولكنه ما لبث ان أثبت عدم فعاليتة حين اخذت تهز هذا العالم ، مرة اخرى ، تيارات عنيفة ، منذ عهد مارك اوريل : ففي السنة ١٦٧ ، اُتُح اختراق خط الدانوب لبعض جماعات قفم ، في ماتقم ، كواديين وماركوماثين ولومبارديين ، اجتياز جبال الألب وبلوغ منطقة فينيشيا . فكان

ذلك ، اذ ما استثنينا بعض عهود مصر الفرعونية ، نهاية أمتن وأثبت أمن عرفه مجتمع قديم :
نهاية « السلام الروماني » الذي تفتحت في ظله ، طيلة قرنين ، حضارة العالم الروماني .

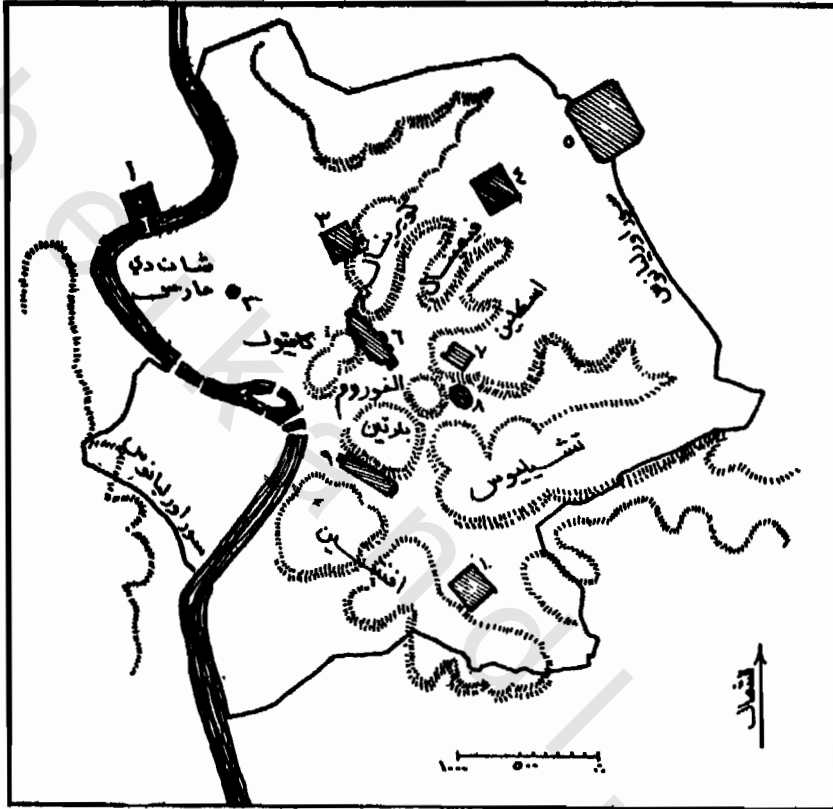
اشتد ساعد شعوب صغيرة ، أهملت عن قصد حتى ذاك العهد لأن احتلال جبالها او صحاريها
بدا باهظ الثمن قليل الفائدة . وفي داخل الامبراطورية نفسها تجمع واحتاج بعض المستائين من
أثقلت كاهلهم الحياة النظامية التي ارادت الادارة فرضها عليهم ، وبعض الريفين البؤساء من
ضحي بهم لأجل عظمة المدن . وابتان الحروب الأهلية التي اسندت السلطة الى سبتيموس ساويروس ،
خلق اشترك قائد جيش بريتانيا في التنازع واستعانت به بأفضل جنوده بغية تحقيق آماله في غاليا ،
وضمها أسرع الجبليون الشماليون الى استغلاله على الفور ؛ وتوفي سبتيموس ساويروس في ايبورا كوم
(York) Eburacum اثناء حملة لم تنجح في استعادة سور انطونين بشكل حاسم : فاعتبر
الرومان انفسهم سعداء اذا استطاعوا الاحتفاظ بسور هدرانوس . وارتدى مثل هذا
الطابع من السرعة التطور في افريقيا ايضاً حيث قطع البرابرة العصاة خطوط المواصلات بين
الموريتانيتين بموازة جبال الريف وغامروا بغزوات بحرية حتى على الشواطئ الاسبانية . وما
لبث البليميون كذلك ان هددوا مصر العليا عند عالية الشلال الاول ، وايزوريو جبال
طوروس ، آسيا الصغرى الجنوبية .

ولكن ما ذكرنا ليس سوى مناقشات لا شأن لها بالنسبة للأخطار الجديدة الكامنة في
اوروبا الوسطى والشرقية من جهة ، ايران وبلاد ما بين النهرين من جهة ثانية .

اوروبا الوسطى والشرقية
فقد أخذت تحركات بعض الشعوب ، وهي تحركات واسعة وغامضة ،
تقلق السهول الاوروبية الشاسعة . ويفلب على الظن ان مصدر هذه
التحركات لم يكن آسيا الوسطى بعد ، بل يبدو بالتفضيل ان ما بعثها ، في القرن الثالث ، هو نزوحات
انطلقت من سواحل بحر البلطيق ، فافضت بالقوط *Goths* جنوباً حتى نهر الدون ، وبحر أزوف .
فغلى العالم الجرمانى ، بفعل تجمعه في الغرب ، طامعاً بثروات العالم الروماني ، وعاجزاً ايضاً ،
في ارض اسىء استثمارها ، عن تغذية شعوب يستنهضها مثل اعلى قاس هو مثل المحارب المرتبط
إقتساماً لرئيس اختيار طوعاً ولا تقبل بالتنظيم الا في سبيل الحرب .

نحن نجمل التفاعل الذي حدث . فقد زالت قوميات قديمة وبرزت اخرى جديدة . وحدثت
انصهارات لمصلحة شعوب كانت وضعية جداً في الماضي . وتعلم سكان الامبراطورية ، بذعر يبرره
الاختبار ايماء تبرير ، معرفة اسماء جديدة لشعوب لا يهدتها ولا ينهكها شيء : الساكسون ،
المستوطنون جوار مصب نهر الإلب ؛ والفرنك *Franks* المستوطنون ضفاف نهر الرين السفلي
والاوسط ؛ والألمان *Alamans* المستوطنون ضفاف الرين العلوي والدانوب العلوي ، وقد
دفع بهم الى الامام البورغوندي والفاندال ، بينما احتاج الكارب والسامرات الإيازيين ، على طول
نهر الدانوب وحدود آسيا ، بعد ان حرّكهم القوط والهيرول *Hérules* .

اختل اذ ذاك حبل الأمن في كل مكان ، وباستمرار تقريباً ، حتى داخل الحدود ، منذ موت سبتيموس ساويروس . فقام الساكسون بأعمال القرصنة ، حتى في بحر المانش ، وعلى شواطئ المحيط . وحدث ان اجتاز الفرنك غاليا ووصلوا حتى اسبانيا . ودخل الألمان ايطاليا ولم يهزموا الا في بافيا . واجتاز القوط تكررراً نهر الدانوب بغية غزو تراقيا تارة ومويسيا واليونان



الشكل ١٩ - روما في القرن الرابع

احاط سور اوريليانوس بمساحة ١٣٧٢٠ هكتاراً ، في حال ان مساحة مدينة ارغسطس قد بلغت ١٧٨٣ هكتاراً . ١ - ضريح هديانوس ؛ ٢ - الزون ؛ ٣ - حمامات قسطنطين ؛ ٤ - حمامات ديوكليسيانوس ؛ ٥ - معسكر الحرس ؛ ٦ - ساحات عامة امبراطورية ؛ ٧ - حمامات ترايانوس ؛ ٨ - مسرح فلافيانوس (كوليسايوس) ؛ ٩ - ميدان سباق العربات ؛ ١٠ - حمامات كراكلا .

تارة اخرى . واندفعوا نحو البحر الاسود ايضاً وعاثوا فساداً في البوسفور وبحر مرمرة وبحر ايجه نفسه ونهبوا المناطق الساحلية : فاحتلوا افسس وحاصروا تسالونيكي ، ولكن اثينا قاومتهم . عبثاً بذل أباطرة كثيرون مزيداً من الجهد او لاقوا حتفهم في مقاومتهم . اجل غالباً - لا دائماً - ما حققوا النصر في المعارك بين الجيوش وحلوا الالقاء الجيدة ، ولكن زمن ماريوس وقيصر ، حين كان باستطاعة روما افناء الجرمانين ، قد ولّى . وقد توجب اكثر من مرة ،

منذ ذلك العهد التخلي عن بعض الحقوق وشراء الانسحاب بالمال وبوعد باطل بالهدوء لقاء فريضة سنوية . ثم عمت طريقة أعطى مثلها العهد الامبراطوري الاول : فمن حيث ان اليد العاملة الزراعية تصبح نادرة في المناطق التي تحتاحها الحرب ، اقيم البرابرة في الاراضي الرومانية وأخضعوا لنظام عطوف نسيباً . واستخدم بعض الاباطرة زمراً أجنبية مأجورة بغية تقوية جيشهم . ولكن كل ذلك لم يحد قتيلاً . استمرت العاصفة حتى ديوكليسيانوس ، فاقفرت الأرياف ، واضطرت المدن الى الانزعال داخل اسوار محصنة أسرع الى بنائها أو الى ترميمها : وأحيطت روما نفسها ، في عهد اوريليانوس ، بالأسوار ، متخفية عن بعض الضواحي التي ضمها أوغسطس الى تنظيمها الإداري ، ومستندة في تحديد مكان الأسوار الى أبلية سابقة . وحين عاد بعض الهدوء ، في اواخر القرن الثالث ، كان الثمن تضحيات اقليمية ملموسة : فقد أخليت أقاليم الحدود الملحقة بأملاك الدولة ، كما أخليت داسيا نهائياً . وتراجع الدفاع عن الامبراطورية من ثم الى الرين والدانوب ، حيث ركّزه أوغسطس : فحدث للمرة الاولى ان اجلي ، على غير أمل بالعودة ، عن اراض راسخة الاحتلال .

ربما كان من الممكن أن تبدي الامبراطورية مقاومة أجدى ، لو لم تضطر
 الشرق
 الفرس الساسانيون
 في الوقت نفسه الى مقاومة عدو رهيب : وهي لم تغار بقط ، خلال القرنين الاولين ، في خوض عدة حروب كبرى في آن واحد لأنها كانت عالمة بمعجزها عن تعهد الجيوش التي تفرضا هذه الحروب . وها هي منذ الآن مرغمة على ذلك . كان عدوها على الفرات ، حتى ذلك العهد ، المملكة الفارسية : جارسجس ، قادر على شن الغارات الجريئة ، وعدو يصعب اللحاق به في فلولات يسهل فيها هرب فرسانه ، ولكنه قليل العناد في الهجوم والعداء العقائدي للحضارة اليونانية التي أخذت روما على نفسها الدفاع عنها في هذه المناطق ، وخضع ضعيف ، خصوصاً بفعل السهولات التي يوفرها للدسيمة الأجنبية تراخي أجهزته ، وجحوش امراء العائلة الملكية وكبار الأشراف . وقد أحرز عليه سبتيموس ساويروس ، بعد جهد عسكري عظيم ، انتصارات مدوية ، واحتل في اعقاب ذلك ولاية ما بين النهرين ، أي ما يقارب نصف البلاد المنبسطة بين منعطف الفرات ودجلة .

تبدل الوضع بعد ذلك بزمان قصير . فقد برز تيار قومي ، يستغل زوال الخطوة الذي استحقته السلالة الارشاسية بفعل هذه الهزائم ، ويساند تمرد نبيل فارسي يدعي انه حفيد الاخمينيين . جاء النجاح كاملاً في السنة ٢٢٤ : زالت المملكة الفارسية من الوجود وحلت محلها المملكة الفارسية بقيادة السلالة الساسانية . فطمعت هذه الاخيرة في استعادة امبراطورية داربوس الاول ، من الافغانستان حتى المتوسط . اجل انها لن تبلغ ما تصبو إليه . ولكن المملكة الجديدة اعظم قوة الى حد بعيد من سابقتها . لجأت الى حصرية حقيقية ، ارغم الأشراف بموجبها على الاخلاص وازدادت موارد الملك . أضف الى ذلك ان الديانة المازدية التي اعتمدت بتصلب متمصب قد وفرت للروح الوطنية قوامها وكيانها . وتمتع كهنة الهوس بتنظيم رسمي

وبامتيازات ، فقدم للملكية عضداً فعالاً . وغدت الملكية من ثم متحدة بذات حضارة هي العدو اللدود للحضارة المتوسطة .

لم يلبث الرومان ان ادركوا خطورة التبدل . فقد تعرضت بلاد ما بين النهرين لهجمات متكررة ؛ واخضعت ارمينيا حيث استطاع أحد الارساسيين المقاومة أولاً ؛ واجتيز الفرات أكثر من مرة ، وغزيت سوريا ، وسقطت عاصمتها انطاكية . وجاء دور كيليكيا وقبادوقيا *Cappadoce* أخيراً حين حدثت ، في السنة ٢٦٠ ، الهزيمة النكراء النادرة : انكسار وأسر فاليريانوس ، الامبراطور منذ سبع سنوات بالاشتراك مع ابنه غالينانوس ، على يد ملك الملوك ، ساپور الاول (شاهپور الايرانيين) . فأمر هذا الأخير باعداد نقوش ثالثة ضخمة تمثل الامبراطور متصاعراً ، جاثياً أمام الظافر . وتوفي فاليريانوس في الاسر . ويريوي التقليد المسيحي ، الذي حقد عليه حقداً شديداً ، ان جثته حشيت بالتب وصبغت باللون الاحمر ، وعلقت في احد المعابد ؛ غير ان الرواية غير مقبولة ، أقله فيما يتعلق بهذه الناحية ، لأن المازدية لم تشيد معابد حقيقية . ومهما يكن من الامر ، فقد كان للكارثة الرومانية دويها البعيد في الشرق ، ولم تتمكن الامبراطورية من استعادة بلاد ما بين النهرين إلا قبيل جلوس ديوكليسيانوس على العرش .

ان الحكومة المركزية ، أو بالأحرى الحكومة التي اطلقت على نفسها هذا أخطار الانقسام الاسم ، لأنها سيدة روما ، قد عجزت ، بفعل مواجهتها الصعاب العديدة والخطيرة ، وبفعل الانقلابات العسكرية المستمرة التي شلتها ، عن الوقوف في وجه الخطر الخارجي المائل ابدأ في كل مكان . كان عجزها من ثم عاملاً جديداً من عوامل الفوضى . فضعف تضامن الامبراطورية الضروري للدفاع عنها على يد مسؤول واحد يقدر المهام اللازمة نسبياً بغيره ، فكيف توزيع الموارد عليها . وملت بعض الجيوش والناطق بتقديم المساعدة لغيرها بالرجال والضرائب ، بينما احدثت بها الاخطار من كل جهة . وبرز زعماء محليون متفاوتون جسارة في البدء ، يفرهم التحرر باستئثار الخدمات التي يؤدونها للسكان والهزائم التي يمني بها الامبراطور المعترف بسلطته في غير مكان . فذب الانقسام الى جسم الامبراطورية في تفتت الدفاع الاتاني وفي استقلال الاقاليم الدائرية المتروكة لأمرها .

وما يدعو الى الدهشة ان هذا الانقسام لم يكن أشد بروزاً بفعل قوة الاسباب وموادة الظروف التي من شأنها تطوير هذا الانشقاق بسرعة . فان النطاق الضيق الذي برز فيه ، اذا ما قورن باتساع الاراضي الرومانية ، لدليل على فعالية عمل الالتحام الذي قام به العهد الامبراطوري الاول . وللمقاومة مثل هذه الازمة ، يجب ان يكون العالم الروماني قد حقق في السابق وحدة أدبية مستقلة عن الوحدة المادية التي أصبحت الآن أترأ بعد عين . فهو قد اجتاز دوغما انقسام مرحلة الحروب الأهلية التي طبعت آخر العهد الجمهوري بطابعها الخاص . ولكن العاصفة كانت أقصر زمناً ولم تلبسها الفوضى العسكرية ولا الهجمات الخارجية الجدية . فعند نهاية القرن الثالث بالذات يمكننا حقاً تقدير متانة مركب متعدد الاجزاء اوجده الفتح وألمه ملاط وحدة الحضارة .

أُصِفَ الى ذلك ان ما يلفت الانتباه هو ان الدولتين الهماتين اللتين قامتتا على اساس اقليمي واسع ودامتتا بعض الوقت ولعبتا دوراً غير عرضي لم تقوما بمحاولات انفصالية حقيقية .

يطلق عادة اسم « امبراطورية الغاليين » على تلك التي حكمها بوستوموس ثم تيتريكوس ، خلال خمسة عشر سنة تقريباً ، في اوائل النصف الثاني من القرن ، في جو سلام عكسه أكثر من حادث خطير . وينطبق الاسم عليها ، لعمري ، مع انها تمتد الى بريطانيا ، والى اسبانيا مؤقتاً ، ومع انها لا تشمل غالباً الناربونية التي لم تنفصل عن ايطاليا . فهي تكرر القوى التي تجمعها للدفاع عن خط الرين والساحل الغالي غير مبالية باحتياز نهر الرون وجبال الألب . ولكن هذه الامبراطورية تبقى رومانية ، ومن المحال البحث عن أي أثر للقومية الكلتية في أسياها الذين يمينون القناصل ويحملون الألقاب الامبراطورية التقليدية ويدونون على نقودهم الاساطير الغائلة بأزلية روما .

اما الدولة الاخرى التي قد تثير الشبهة فهي تلك التي قامت في جوار واحة عربية سورية ، تدمر السامية ، او بليرا . جمعت ثروتها بفضل تجارة القوافل . وكانت في القرن الاول تابعة للامبراطورية ثم ضمت الى ممتلكاتها ، ثم انعم عليها هديانوس بنظام تطور مع الزمن حتى غدت مستعمرة . وكانت تختار مجلس شيوخها بين افراد ارستوقراطية من التجار المضطرين للدفاع عن قوافلهم ضد غزاة الصحراء ، والطامعين الى حق المواطنة الرومانية . وفي القرن الثالث احدث فيها الخطر الفارسي القريب تطوراً نحو الملكية . فكان الاباطرة سعداء جداً بتشجيع هذا التطور لأنهم اكتشفوا في زعماء احدى العائلات الكبيرة مواهب عسكرية اسرعوا الى استخدامها لا سيما غداة هزيمة فاليريانوس وسقوطه في الاسر . وفي الواقع قام اذينة بنجاح بهجوم معاكس على سابور : فاستحق اللقب الملكي وحظي بألقاب رومانية على بعض الغموض . وفي السنة ٢٧١ اخيراً ، صمدت ارملة زونوبيا على القطيعة ، بعد ان اتضحت لها استحالة كل تسوية ، فحملت اللقب الامبراطوري وحملت ابنها الذي كانت تحكم باسمه . فسيطرت تدمر آنذاك على الشرق الروماني أي على سوريا ومعظم آسيا الصغرى ومصر . في هذه المدينة التي أتمت تشييد أبنيتها الفخمة في قلب الصحراء ، ازدهرت في ذاك العهد حضارة مختلفة ، هلينية وسامية في آن واحد ، وبمجة بالحياة الفكرية بفضل وجود الفيلسوف والخطيب لونجينيوس في بطانة زونوبيا ، الذي سيموت ضحية القمع الروماني ، وعاطفة على مذهب توحيد الآراء الدينية الذي شجعه ، على ما يبدو ، مستشار الملكة الثاني ، مطران انطاكية ، بولس الساموزاطي الذي حكم عليه أخيراً بحرم الهرطقة . فمن ذا الذي يستطيع يوماً كشف سر الاحلام التي راودت زونوبيا ، احد تلك الوجوه النسائية التي يحيطها الشرق بسرابه والتي تسحر الخيالات المعجبة ، على غرار « الجواهر المفقودة في تدمر القديمة » ؟ ولكن يكفي ، لاثبات قوة الطابع الروماني على « الملكة الشهيدة والتقبة سبتيميا باتراباي » - او على مواهبها كمثلة مهالزة - ان نلفت النظر ، وفقاً لما جاء في « التاريخ الاوغوسطي » الى انها كانت تحطّب في الجماهير على طريقة الاباطرة الرومانين معتمرة الخوذة

ومرتدية المعطف الأرجواني ، وانها كانت تفهم اللغة اللاتينية دون ان تتكلمها ، فأرادت ان يتعلمها ابناؤها ، حتى انهم تكلموا اليونانية بصعوبة ، او نادراً على الأقل . . اضيف الى هذا ، من جهة ثانية ان الشرق كان قد قدم لروما احدى سلالاتها ، اعني بها سلالة ساويروس التي انتقل احد اعضائها ، ايلغايل من كهنوت إله حصص الى حكم الامبراطورية الذي استولى عليه طيلة اربع سنوات .

ندرك من ثم بعض الشيء كيف ان مجدد الوحدة ، اوريليانوس ، بعد انتصاره على تدمر وتخريبها واقصاء قائد جيش امبراطورية الغالين ، وبعد ان اشرك في موكب نصره زنوبيا وتيتريكوس وأبناءهما على السواء ، اسكن ، في احد مقاصف « تيبور » ، التدمرية التي سرى احفادها في روما بعد مرور قرن كامل ، وأعاد الغالي الى مجلس الشيوخ والى الادارة ايضاً . وينم هذا الحلم ، على الأرجح ، عن شعوره بأن فائدة عمل هذين الملكين ، بعد كل حساب ، املم وهن السلطة المركزية ، فاقت اضرامه للقضية الرومانية .

أعار المؤرخون القدماء هذه الحلال السياسية والعسكرية ما تستحقه من التضخم النقدي الاول أهمية . ولم يقف منها مؤرخ معاصر موقف اللامبالاة . وليس من ريب في ان الجماهير قد تأثرت بها من خلال انعكاساتها الاقتصادية . واذا كانت مسؤوليتها واضحة من هذا القبيل ، فان البلبل التي نزلت حينذاك بحياة الامبراطورية وسكانها المادية تدخل في مجموع هو اعظم اتساعاً الى حد بعيد . فالخلل الاقتصادي في القرن الثالث يشكل ظاهرة نادرة الامة بفعل خطورته وشموله وطابع الجدة في بعض مظاهره .

للمؤرخ اليوم عذره اذا ما شدد على ظاهرة التضخم النقدي الذي زاد الازمة خطورة ، فبعثته هي بعثاً مستمراً ايضاً . وهو ليس اول تضخم يمكن تتبع تطوره المتزايد باطراد فحسب ، بل هو ايضاً اول تضخم عرفته البشرية . واذا لم تستطع ضحاياه تحليل اسبابه وجوهره ، فان عاقبته كانت قاسية جداً .

برز الخطر باكراً جداً بوقائع نقدية . ومنشأ هذه الوقائع قديم العهد لان العهد الامبراطوري الاول ، لا سيما فيما يعود للقطع الفضية ، لم يستطع المحافظة على استقرار تام . فنذ سبتيموس ساويروس ادى المجهود العسكري الى زيادة النفقات . فزادت باستمرار بينما كانت الواردات الاميرية آخذة بالتناقص . وقد الحت الحاجة ، لسد العجز ، على الرغم من المصادر ، الى تقرير التضخم يشكله البدائي أي بافساد معدلات المعادن المركبة الذي حتمه فيما بعد انخفاض الانتاج في المناجم ثم الانفصال الذي قطع الولايات الغربية ، وهي اغنى الولايات بالمناجم ، عن باقي الامبراطورية . وتمزق المصادر الى كركلا ، ابن سبتيموس ساويروس وخلفه ، مبادرة هذا التطور الكارثة . ولعله اقتصر ، كما نرجح ، على اتخاذ قرارات رسمية ، بدلاً من التدابير الحفية ، فمنذ عهد والده انخفض عيار الدينار الفضي بمعدل الثلث . ومهما يكن من الامر ، فان كركلا قد انقص ١١٪

من وزن الـ « اوريوس » واحداث قطعة فضية جديدة ، الـ « انطونيانوس » ^(١) الذي مالبث وضرب بكيات كبيرة وحل اخيراً بصورة نهائية محل الدينار القديم : فقد خفض عياره ٥٠ ٪ بالنسبة للدينار وكان ضعفه وزناً ، اي اكثر من خمسة غرامات بقليل ، وضعفه قيمة . وقد بدأ الافساد ببعض السرعة ثم ازدادت هذه السرعة ازدياداً فائقاً منذ السنة ٢٥٠ بنوع خاص . اما عيار القطع الذهبية فلم يفسد ، ولكن ما ضرب منها كان قليلاً ومتفاوت الوزن جداً . وانخفض وزن « الانطونيانوس » حتى ثلاثة غرامات تقريباً ولم يتوقف انخفاض عياره عند حد : فعنصر الفضة لا يتجاوز الـ ١ ٪ في بعض قطع النقود المضروبة باسم غالينوس أو باسم كلوديوس الثاني . ولما كان النحاس نفسه غالي الثمن فقد اتجهوا الى الاستعاضة عنه بالخارصين والقصدير والرصاص .

نتيجة لذلك ، تعددت اصدارات هذه القطع الفضية المزعومة ، لا سيما وان ارتفاع الاسعار قد فرض مضاعفة وسائل التسديد وان كل امبراطور جديد ، مهما ضاقت رقعة سلطته ، كان بحاجة الى سك النقود بغية تأمين الموارد . فارتفع عدد المصانع النقدية ارتفاعاً كبيراً ، مما جعل الرقابة عليها امراً صعباً وافسح المجال امام الكثير من الاختلاسات . وقد اكتشفت ، ولا تزال تكتشف ، مئات الالوف من قطع القرن الثالث هذه التي تم عيوبها عن السرعة في المجازها . ولم تتحسن السياسة المالية بعض التحسن الا في عهد اوريليانوس الذي اضطر ، من جهة ثانية ، الى قمع ثورة ضاربي النقود في روما حين اقفل مصانعهم ، والذي توفر له المعدن الثمين بعد استعادة تدمر وغاليا .

الف العالم المعاصر ، منذ اربعين سنة ، التضخم ونتائجه التي لا يستقرها احد : غير ان ما لم تتوصل التقنية المحككة الى التغلب عليه قد ناء بثقله على مجتمع غر واعزل .

بدى ان انخفاض وزن وعيار القطع النقدية الجديدة قد ادى الى اختفاء القطع القديمة الجيدة التي جمعتها السلطات للصهر او خزنها الافراد . وعندما اختل الامن ، اهلكت هذه الكنوز المكدسة في مخابئها بعد وفاة مكديسها : وتساعدنا خريطة المكتشفات التي تنظم اليوم ، وتواريخ طمرها ، التي يمكن تعيينها على التقريب بواسطة احداث القطع عهداً ، على استعادة تاريخ تنقل زمر الغزاة ، لا سيما القرنك والالامان منهم ، في غالبا ما بين السنة ٢٧٥ والسنة ٢٧٨ .

بدى ايضاً ان التضخم قد افضى الى ارتفاع الاسعار بسرعة . بدأ هذا الارتفاع في عهد مبكر ، وقد فرضته اسباب اخرى اهمها انخفاض الانتاج العام . ولكن هبوط النقد الى الحضيض قد اسهم في ذلك اسهاماً عريضاً . غالباً ما فسرت النصيحة التي يقال ان سبتيموس ساويروس قد اسداها الى اولاده تفسيراً حرفياً - « اغنوا الجنود واسخروا من الباقين » - بغية نسبة زيادة الاجر العسكري ، بمعدل النصف ، اليه ، في حال ان كركلا هو الذي حققها . غير انها في

(١) ارتبط سبتيموس ساويروس ، بتهن صوري ، بسلالة الانطونيين ، وقد دعي كركلا رسمياً « مارك اوريل انطونين » . - وينكر بعض العلماء ان يكون « الانطونيانوس » قد سار ديناين .

الواقع تكاد لا تعوض عن انخفاض النقد ، ويغلب على الظن ان الغاية منها كانت اعادة القيمة الشرائية للاجر القديم . ثم ارتفعت الاسعار باستمرار . وتوفر لنا البرديات المصرية ، وهي في العهد الروماني اكثر منها في العهد اللاجي ، ابلغ ايضاحات بهذا الصدد: فقد ارتفع سعر الحبوب عشرين ضعفا بين السنة ٢٥٥ والسنة ٢٩٤ . وقبل التسليم بمرسوم الحد الاعلى الذي اصدره ديوكليسيانوس ، حاولت زيادة الاجور والهبات عبثاً للحاق بهذا الارتفاع . فوزعت بعض القطع الذهبية حين يكون ضربها امراً ممكناً . ثم املت الحاجة بتسديد اجور الجنود والموظفين عينا . ولكن الاختبارات المعاصرة تحملنا على الاستنتاج ان اية حيلة من هذه الحيل لم توفر لذوي المصالح ما يعادل النقد الثابت .

وبديهي ايضاً ان المضاربات النقدية قد رافقت تضخم النقد وانخفاض قيمته الذاتية . عبثاً حاولت السلطات ايقاف تيارها قسراً ومعاقبة تجارة النقد في السوق السوداء والمحافظة على السعر الرسمي . وماذا تستطيع الدولة عمله ، في عهد الفوضى هذا ، ضد تيار على مثل هذه القوة ؟ فقد حدث ، في مصر نفسها ، ان المصارف المرتبطة بالادارة ارتباطاً وثيقاً ، قد رفضت احياناً النقد الامبراطوري . وتهافت الناس على القطع البرونزية الصغيرة على الاقل التي لم تبع بأكثر من قيمتها . ولكن مجلس الشيوخ والمدن الذين كانوا قد احتفظوا بحق ضربها اوفقا للاصدار الذي غدا باهظ الكلاف بسبب ندرة المعدن . فكانت النتيجة ، مع فقدان السمات النقدية التي توحى الثقة ، تجميد التداول وتهدم الأسس الاولى لحياة اقتصادية تركز الى شيء آخر غير المقايضة .

وبديهي اخيراً ان التضخم قد قضى على كل ما بني منذ قرون على امتلاك واستثمار رؤوس الاموال المنقولة: يسار الطبقات الوسطى ، ومؤسسات عديدة ذات صالح جماعي .

وهكذا ، فان التضخم النقدي ، في موجة معقدة من الاحداث وانعكاساتها الكثيرة ، قد لاشى موارد الدولة في الوقت الذي ازدادت فيه نفقاتها ، وحكم على نفسه من ثم بتصاعد دائم لا حد له ، وغذى الفوضى ، وقلب المجتمع ، وألقى على الارض ، في انهيار عام ، ينجبت كاملة من حضارة درج الناس على الاعتقاد بأنها الحضارة المتينة الوحيدة التي باستطاعتها اسعاد البشر .

ولكن الازمة الاقتصادية برزت في ذاتها ، مستقلة عن التضخم النقدي الذي فرضته الضائقة المالية على الاباطرة . وان اسبابها ونتائجها أكثر من ان وعواقبها الاجتماعية تعد ، وغالباً ما تكون نتائجها اسباباً ثانوية تسهم في زيادة خطورتها . واذا ما شعرنا هنا بمرارة فقدان الاحصائيات ، فان ذلك لا يمنعنا من مشاهدة تشابك البلية العظيمة التي تجتاح العالم الروماني الشاسع .

انخفضت كثافة السكان بفعل تطور الاخلاق السابق ، وبفعل الغزوات ، والحروب الاهلية ، واعمال السلب ، والابوثة التي تعقب كل هذه الشرور . اجل لم يبرز هذا النقص ، في بعض المناطق ، إلا في عهد متأخر . ولكن افريقيا ، التي نجت منه حتى آخر عهد سلاسة ساويرس ،

قد منيت به ايضاً ابتداء من الاضطرابات التي انفجرت في السنة ٢٣٨ .

كانت النتيجة نقصاً في اليد العاملة النشيطة برز اثره في الارياف والمناجم بنوع خاص ، فكان كارثة شاملة لأنه أفضى الى هبوط في انتاج يمول عليه . فانتهز الأشقياء فرصة القوضى وخرجوا من الامكنة المحددة لهم : وقد حدث أكثر من مرة في صقليا وغاليا ومصر ان عاثت زمر الفارين والفلاحين والعمال الهاربين في المناطق الريفية فساداً . وزادت في الطين بلة المصادرات الوحشية بغية سدّ حاجات الجيوش ، او حاجات سكان المدن حين يكون عضدهم ضرورياً . فنزلت الكارثة بمناطق الحدود خصوصاً : فأسكن البرابرة فيها ، في البقاع الخالية من السكان . ولكن الغزوات الموعلة وتنقلات الجيوش وهجوم الواحد منها على الآخر خلقت القلق المضرب بالانتاج : فان بعض الفرنك المستوطنين في تراقيا مثلاً قد نجحوا بجرأ ولجأوا الى المنطقة الريمانية .

وبوجه أعم ايضاً ، توقف تداول المصنوعات . فلا مجال من بعد ، عملياً ، لقيام تجارة دولية . اما التجارة بين مدينة ومدينة ، وولاية وولاية ، ومنطقة ومنطقة ، فتقهقرت ايضاً امام اللصوصية مرّة اخرى في البر والقرصنة في المتوسط وبحار اخرى نجح البرابرة في التسرب اليها ، وامام خطر المصادرات وما تستتبعه من تخريب في مواد النقل وانقاص في عدد الزوامل . فمقرت المدن الفاقة ، حتى تلك التي لم تعرفها قط في سالف الازمان . وانقطع اتصال روما احياناً بمصر او افريقيا اللتين تؤمنان لها ، في الظروف العادية ، معظم مؤنّها . ثم أصاب الشلل نشاط الصناعة البدوية والتجارة الذي هو نشاط المدن في الدرجة الاولى .

أضف الى ذلك ان كافة مظاهر الحياة البلدية ، التي كانت مزدهرة من قبل ، قد اخذت في الهبوط والسقوط . وانخفض دخل الضرائب البلدية ، كما تناقص سخاء البورجوازية التي كانت تستنفد رؤوس أموالها دون امل بتجديدها ، والدخل العقاري ايضاً . فكان ذلك نهاية التحسينات التي تنشط الاقتصاد وتوفر الاجور للطبقات العاملة . ولم تبن آنذاك سوى الاسوار تقريباً بغية الدفاع عن المجموعات السكنية التي غدت قليلة السكان .

وهكذا ، بتجمع هذه الاسباب ، ليس الازدهار الماضي وحده ، على تفاوت توزعه ، ما انتهى الى الزوال . فان ما زال ايضاً هو العناصر الجوهرية للجهاز الاجتماعي في العهد الامبراطوري الاول : تنظيم اليد العاملة للمشاريع الكبرى والانتاج الزراعي ؛ نظام الرقي البشري التدريجي الذي يقابل الرفاهية في المدن ، وهو المثل الأعلى للحضارة المتوسطة . لذلك فان الازمة الاقتصادية تمثل احد العوامل الرئيسية للاضطراب الذي سيطر آنذاك على المجتمع .

كانت نتيجة هذا السيل من خيبات الامل والبلبله والمصائب العامة أو الخاصة إثارة الازمة الدينية التي اخذت بالظهور منذ القرن الثاني .

ابتعدت النفوس عن العبادات الرسمية ، ولم تكن لتفكر بالعودة اليها . فقد غدت وعود هذه

العبادات ، امام واقع النكبة ، موضوع هزء وسخرية . للسلطات حريتها في تأدية اليماءات التقليدية ، التي تناقصت ايمتها من جهة ثانية ، وفي توزع القاب « إلهية » جديدة ، ولكن كل ذلك ليس سوى طقوس باطلة بعد اليوم . واخذ قلق البشر ، فرديا كان ام جماعيا ، يبحث عن ضمانات اخرى في تعزيات اخرى . فوجدها حيث قام بالبحث عنها من قبل ، اي في العبادات الشرقية ، بما فيها النصرانية ، وفي مذهب توحيد الآراء الذي يعتبر عن نزعة واخزة الى حماية اعظم لانها توفق بين كافة القوى الفائقة الطبيعة . ولكن البلبلة الدينية قد اتخذت ايضا ، في الصراع ضد النصرانية ، اشكالا سلبية وحاكمة .

لا ريب في ان اكثر من مسيحي ، آنذاك ، قد فسر على طريقته الخاصة واستغل احوال هذه الحياة . زوال الوثنيون بالفطرة الى جعل اتباع هذه الديانة المنشقة مسؤولين عن هذه الاحوال : ان القوى الالهية ، ايا كانت ، تثار من عموم السكان ، انتقاماً من جسارة الملحدين . فحدث من ثم ، احيانا ، وعلى غرار ما حدث في العهد السابق ، ان طالبت الجماهير بالتدابير العنيفة ، واذا هي لم تطالب بها فانها تستصوبها وتهلل لها ابداً .

بيد ان غضبها ، في الواقع ، لا يفضي ، في حال تدخلها ، الا الى خلق الحوادث المحلية او تجسيمها . وان الاضطهاد ، على الصعيد العام ، ابعد من ان يكون مستمرا . اجل اتصف هؤلاء الاباطرة الكثيرون بالشدّة ؛ فقد قدروا ثمن الوحدة الادبية ، وكانت غريزتهم كافية لان توقفهم في وجه عقيدة بدت لهم وكأنها تثني مؤمنيتها عن واجباتهم نحو الدولة . الا ان المصاعب الخارجية والداخلية ، بصرف النظر عن تنوع ميّزاتهم الشخصية التي يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار ، قد حدثت من حريتهم في العمل .

استفاد المسيحيون اذن ، في اغلب الاحيان ، من تساهل السلطة . وتساهلها لامبالاة مقسورة ، وعطف في بعض الظروف الاستثنائية فقط . فقد استدعت الاميرات السوريات ، ابنة شقيق سبتيموس ساويروس ، الى انطاكية ، المعلم السابق في مدرسة الاسكندرية المسيحية ، اوريجينوس وبادلتها اطراف الحديث . وقد وضع ابنها ، الامبراطور ساويروس ألكسندروس ، صورة يسوع في مُصَلّاة ، الى جانب صور ابراهيم واورفيوس وغيرهم من عظام الرجال . وربما كان فيلبوس الاول « العربي » مسيحيا — اول امبراطور مسيحي — كما نلاحظ او نقدر بعض العطف على المسيحيين في بطانة بعض الاباطرة . ولكن العداء المستحكم واقع يتكرر غالبا .

وقد برهنت الاعمال عن هذا العداء احيانا . فان سبتيموس ساويروس ، الذي كان مسابرا تقريبا ، انتهى الى منع ومعاقبة الارتدادات الى اليهودية والمسيحية . وصدرت آنذاك احكام عدة بالموت ، تحت ضغط الجماهير ، في كل مكان تقريبا : فان « آلام القديستين بريتوا وفيليشيتا » اللتين نفذ الاعدام بهما في قرطاجة في السنة ٢٠٣ مع مسيحيين آخرين كثيرين ، واحد من اعرق النصوص تأثيراً في سير الشهداء .

ولكن الحوادث كانت متفرقة آنذاك ولم تتناول التدابير ، في أسوأ الحالات ، سوى منطقة واحدة . اما التجديد العظيم فقد ظهر في منتصف القرن الثالث . ففي السنة ٢٥٠ أولاً ، ثم في السنتين ٢٥٧ و ٢٥٨ ، دشنت بعض البراءات الاضطهادات العامة النظامية : ارغم داسيوس المسيحيين على تقديم الذبائح للآلهة او اقله على تقديم شهادة تثبت القيام بذلك ، ثم جدد فاليريانوس هذا الأمر وحدد سلم العقوبات للمخالفين ، الموت لاعضاء الكليروس والنخبة اطلاقاً ، والاشغال الشاقة للآخرين . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى ديوكليسيانوس ، على ان العمل بالبراءات لم يدم طويلاً . فان هوماً اخرى كثيرة قد شغلت بال هؤلاء الحكام وخلفائهم : مات داسيوس في حربه ضد القوط منذ السنة ٢٥١ ؛ ولم يسر غالينوس على سياسة ابيه الذي اسره الفرس منذ السنة ٢٦٠ . ومع ذلك فقد كان الاضطراب عميقاً وكانت الضحايا كثيرة بين الطوائف المسيحية .

لا نستطيع هنا اثبات ما اذا كان غزو هذه الطوائف قد تأثر بهذه الاضطهادات التي لم توقفه على كل حال : فمشاهد وآلام الحياة الارضية تقوي بالضرورة الامل بمكافآت الحياة الأخرى . ومنذ قبل نهاية عهد الانطونيين ، كانت جذور الديانة المسيحية أعمق من ان يستطيع العنف اقتلاعها . فهي ، من حيث عدد اتباعها ، ومن حيث مزاييم الاجتماعية غالباً ، تمثل قوة لا يستطيع احد ، في ايام تلك المنافسات ، ان يهملها .

غير ان وجودها وانتشارها في قلب الامبراطورية قسداً زائداً في اضطراب وتصدع مجتمع انقضت عليه آنذاك كل هذه الأعاصير .

فالأزمة من ثم واقع راهن متعدد الأشكال ، وقد شدتنا الكلام عن الثورة الاجتماعية وداعي المصلحة العليا قصد ، في تحليلنا اياها تحليلاً مستفيضاً ، على ما فيه من ايجاز ، بالنسبة لواقع الحال ، على تعدد وتشابك مظاهره وأسبابه . ومن العبث محاولة رد هذه وتلك الى الوحدة .

من الواجب ، والحق يقال ، ان نغير اهتماماً كبيراً التفسير العام الذي قدمه منذ ثلاثين سنة مؤرخ روسي الأصل ، هاجر بلاده بعد ثورة السنة ١٩١٧ - وكأنه معد لفهم اشياء كثيرة - هو ميخائيل روستوفتزييف *Michaël Rostovtzeff* . فقد عبرت الفوضى العسكرية في القرن الثالث ، من وراء احداثها اليومية ، عن ثورة اشد الطبقات الفلاحية خشونة ، التي ينتمي إليها الجنود ، على كبار الملاكين العقاريين والبورجوازيات البلدية ، أي على كافة المنتفعين بالنظام الاجتماعي والسياسي السابق الذين دانوا بسلطتهم وترفعهم لاقتسار واستئثار الوضعاء . فهي من ثم ثورة اجتماعية شبيهة بكل الحركات المماثلة ، يرافقها انفجار الاحقاد وفضاعة الانتقام وانفلات الغرائز البدائية . ونحن نلص الدافع اللاواعي الذي خضع له منفذوها الرئيسيون بفضل بعض الدلائل : معاملة قاسية نادرة عوملت بها بعض المدن التي رافقت احتلالها اعمال التقتيل والنهب ، (بيزنطية) في السنة ١٩٥ ، و (ليون) في السنة ١٩٧ ، و (قرطاجة) في السنة ٢٣٨ ، و (أوتين) في السنة ٢٦٩ مثلاً ؛ الارهاب ، لا سيما في عهد أباطرة سلالة ساويروس الأولين ، الذي استهدف

الطبقة المجلسية ، فتعرضت لأحكام بالموت ، ولمصادر لا تحصى ؛ التدابير السياسية والادارية التي حصرت دور المجلس والشيوخ ؛ التدابير التي فرضت على العناصر الميسورة من سكان المدن أعباء مالية واقتصادية ثقيلة جداً .

ولكن كلا من هذه الأحداث ، أو مجموعات الأحداث ، اذا ما استجاب لنزعة عامة لا شك في وجودها ، يستجيب ايضاً لضرورات ملحة مباشرة : معاقبة وتقويض كل مقاومة ؛ المعجز المالي والضائقة الاقتصادية ؛ التصميم ، مهما كلف الأمر ، على تسيير الدولة ، كيفما كان التسيير ، على الرغم من الحروب الأهلية والخارجية التي تشل حركتها . لذلك ، فان التفسير الاجتماعي ، مهما بلغ من اتساعه ، يبدو محدوداً ، ولا يعالج سوى ناحية واحدة : وان ميخائيل روستوفتزييف ، بعد ان قدمه في السنة ١٩٢٣ ، قد ادخل عليه بعد ذلك ، اكثر من تصحيح ومفارقة .

ان ما يلخص الحركة العامة ويرمز إليها جيداً ، على ما فيها من تعقيد وتشويش ، في هذه السنوات المظلمة ، هو طابع الأباطرة المشترك وعملهم الذي أفضى الى تفريغ الأزمة . أجل ، لقد تم اختيار الرؤساء المتأثرين ، بحسب قاعدة مطردة ، عن تفضيل اجتماعي : فقد كانوا رؤساء عسكريين ، لا شك في ذلك ، ولكنهم ، أتوا عن طريق غير عضوية المجلس التي اكسبت فسبسيانوس ، أو ترائانوس قيادة توكليهاها . ولم تكن الجيوش ، وشأنها في ذلك شأن ملهميها ، حين ترضى بالسير وراءهم ، لتقدم على عمل دام ، يقوم به أشخاص عادمو الحزم يثيرون السخرية ؛ فهي تبحث ، برجفات محيرة ومتناقضات وتقلبات في الرأي يفسر انفلات الغرائز وجه الغرابة فيها ، عن زعيمها ، أي عن ذاك الذي يشاركها الميول الصاخبة ، ثم يكون سعيداً في تحقيقها . وهكذا يبرز ، ويتعاقب في كرسي الحكم ، خلال الثلث الأخير من القرن الثالث اجلاً ، ذاك الجيل المدهش من « الأباطرة الأثريين » ، الذي بشر به داسيوس ، ومثله كلوديوس الثاني ، وأوريلييانوس و بروبوس *Brobus* وكاروس خير تمثيل ، قبل ديوكليسبانوس الذي فرض نفسه مدة طويلة . فزالت مع هؤلاء ، بانتظار قيام غيرها ، سلالات الأباطرة المثقفين ، هواة الفن والآداب الجميلة والفلسفة ، وتلاشى احترام صيغ التسوية المداهنة التي تراعي الظواهر وترسخ في المناصب أفراد النخبة المستنيرة . أجل ، لقد حدث ، منذ اغتيال كومودوس ، ان تسلم الحكم أباطرة ينتسبون الى الطبقات الشعبية في ايطاليا أو في الولايات ؛ ولكن ذلك لم يتعدّ العرض قط . وهما نحن أمام سلسلة من رجال وضعاء المنشأ ، متوسطي الثقافة ، ولدوا في اليريا *Illyricum* ، أي في الولايات الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة البلقانية ، حيث توطدت حضارة لاتينية فظة ، لم ينخرطوا سوى في الجيش ، منطلقين من أدنى مراتبه ومرتفعين ، بفضل أهليتهم وحدها ، الى المراكز الهامة .

فاذا ما جاز لنا ان ننتظر منهم التحلي بضمير نطلق عليه اليوم صفة « الطبقي » ، فان هذا الضمير ابعد من ان يلهمهم وحده ، وحق ان يكون الغالب فيهم . لا ريب في انهم احتقروا تسلسل المراتب القديمة وجعلوا مفاتيح الحضارة الرقيقة . ولكن ما يشجعهم قبل كل شيء هو

وطنية شبه متعصبة ، وحزم لا يثنيه أي وأزع ، وتصميم فولاذي ، لا يرحمهم ولا يرحم سواهم بعنفه ، على انقاذ الامبراطورية وعمل روما التي يشعرون بانهم ابناؤها. وقد شجعهم ، في الوقت نفسه ، بما فيه الكفاية لمقاومة الميل الى العطف على ثورة دائمة يقدم عليها الوضعاء ، الاقتناع بان ما من شيء يتحقق دون اعادة نظام شديد : فان هذا النظام ، الضروري للجيش في الحروب التي ينهض بها ، يشكل ايضا العلاج الوحيد للصعوبات الداخلية .

بفضل المجهود العنيد المتواصل الذي بذله هؤلاء الاباطرة وكلفهم حياتهم ، انتهت الازمة الكبرى اخيراً ونجم عن الاطلال التي كدستها نظام جديد يكاد يكون مستقراً . ومع ذلك ، فان الجنود والطبقة التي عبروا عن غضبتها ، لم يحققوا اهدافهم . فاذا كان المحظيون القدماء قد تواروا ، فقد حل محلهم محظيون آخرون : ولم تقض الثورة الاجتماعية الى تحقيق المساواة . وما لا شك فيه ان قوى اخرى كثيرة ، غير تصميم الريفيين ، الثملين بامكاناتهم ، على الانتقام لبؤسهم ، قد فعلت فعلها في هذا الاعصار الغريب . ولعلمهم افتقروا الى قادة الفكر الذين لم تفتقر اليهم بعض الحركات الثورية اليونانية ، وحتى الرومانية في عهد الجمهورية . فهل كان ممكناً ، بما اشتهروا به من خشونة وفظاظة ، ان يفهموا هؤلاء القادة ويسيروا وراءهم ، لو انهم توفر لهم بعد قرنين من النظام الاجتماعي والادبي ؟ ومهما يكن من الامر ، فارت موانع كثيرة قد اوقفت وحبت وحولت عملاً لم يخضع لبرنامج .

وهكذا فان المصلحة العليا ، التي تفقدها انتهازيتها معنى الرحمة ، قد أفلحت في اعادة نظام مادي يتيح للجاعة العيش ، مسائراً نزعاتها الروحية ، ومضحياً بها عند الحاجة .

الفصل الثاني

تجدد الأخطار والاضطرابات خلال الأصلاحات الهزلية في القرن الرابع

انقذ حزم الإباطرة الاتيريين الامبراطورية من الغزو والثورة الفوضوية. وأعادوا في الوقت نفسه تنظيمها بسلسلة من التدابير املتها عليهم ذهنية العهد وحاجاته الملحة. ثم جاء ديوكليسيانوس وهو اوفرهم مواهب في حقل الادارة ، على الرغم من انتهازيته ، فوسّع هذه التدابير وأعاد النظر فيها طيلة عشر سنوات على الاقل ، قبل ان ينظم عملاً اكمله قسطنطين بدوره . وعلى الرغم من بطء ومشقة هذا الاصلاح ، فلم يفت المعاصرين ان يتذكروا اوغسطس . فقد بدا ، فعلاً ، في اوائل القرن الرابع ، ان انطلاقة جديدة قد حدثت ، في القوة والوحدة المستعادتين ، قوة خارجية شبيهة ، اقله فيما يعود لسلطة الامبراطور والمركزية ، بتلك التي استطاع اوغسطس تأمينها للامبراطورية الحديثة ، ووحدة تفوق الى حد بعيد تلك التي اوجدها . وليس من ريب في ان حضارة قد برزت آنذاك من الحواء : هي تلك التي يجب ان نعتبرها حضارة العهد الامبراطوري الثاني لانها وحدها بلغت درجة كافية من التلاحم العضوي ، حين لم تعد مجرد مظاهر عرضية متلاصقة .

فهل اعطت جميع امكاناتها الكامنة يا ترى ؟ مهما يكن من الأمر ، فان فترة ازدهارها كانت قصيرة جداً . ومهما يكن من الأمر ايضاً ، فانها قد اصطدمت بعقبات شديدة ، يجدر بنا ان نحدد منذ الآن ، حتى ندرك شوائبها وقصر مدتها .

١ - الجهود الباطلة ضد البرابرة

ان اشدّ خطر تعرضت له جاءها من الخارج .

توفى القادة العظام في اواخر القرن الثالث ، باقل تضحيات اقليمية ممكنة ، الى استعادة مناطق الحدود وقمع حركة المنشقين في الداخل . وقد حدث في عهد ديوكليسيانوس وقسطنطين ان اجتازت جيوش رومانية نهري الرين والدانوب اللذين نظم عليهما مرة اخرى ادفاع متين . واستعاد ديوكليسيانوس بلاد ما بين النهرين ، لا بل ارغم الساسانيين على التخلي عن بعض الاقاليم

وراء دجلة : ولم يسبق لروما ان حققت مثل هذا التقدم في الشرق .

وفرت هذه الانتصارات والتنظيم الدفاعي الذي وطدها سلماً نسبياً استمر ثلاثة أرباع القرن .
اجل كانت هذه القوة وهذه الطمأنينة سريعتي الزوال . ولكن المجهود العسكري الذي نهض به
العهد الامبراطوري الثاني ، على الرغم من ان الانهيار الاخير قد برهن عن عدم جدواه ، ليس
بمجهوداً يحوز اهماله ، وما من امبراطور ، حتى وفاة ثيودوسيوس Theodose في السنة ٣٩٥ ،
إلا وقام بواجبه العسكري خير قيام .

١ - الجيش في العهد الامبراطوري الثاني

أثبت الاختبار قصور الجيش القديم ، وعدم انطباقه على ظروف الحرب التي يفرضها
الاعداء الآن . فزيد عدد المهندسين وعُدل تنظيم الجيش .

ما زال المثل الأعلى مثل كل دولة عرفت الاستقرار ، أي حماية كافة الأراضي
تنظيم الحدود
الرومانية : وهو يوجب عدم اهمال مناطق الحدود . ولم يتغير طول الحدود
قط ، اذ انه ازداد بفقدان المناطق الملحقة بالاملاك الأميرية ، ونقص بفقدان داسيا . ولكن
حدوداً محصنة كثيرة قد زالت ، وعلى الرغم من الجهود المبذولة لم يتوفر الوقت لاعادتها الى
مثل ما كانت عليه من متانة . ويبدو ان العمل الذي انجز على طول نهري الرين والدانوب ،
لا سيما في عهد فالنتينيانوس الأول كان أهم عمل نظامي . فقد املت الحنادق المتصلة واستميعض
عنها ، انطلاقاً من أهمية الطرق والانهيار ، ببناء المزيد من الابراج والقليعات والحصون
والمعسكرات ، وفاقاً لتقنية غدت أعظم مهارة بفضل العلائق بالفرس : فاقتبست في الغرب
بعض النماذج الشرقية . واعتني كذلك بأسوار المدن فأدخلت التحسينات عليها : فكانت المدن ،
أمام البرابرة الذين ما زالت وسائلهم بدائية ، معاقل تكاد لا تقهر .

بفضل هذه الأشغال ، حدث تطور بطيء جداً ، بدأ منذ نهاية عهد سلالة ساويروس على
الأرجح ، وبلغ الذروة في عهد قسطنطين . أضف الى ذلك ان لا مجال للخيار : فالافتقار الى
العدد الكافي من الجنود الممتازين اقتضى ابقاء أقلهم نشاطاً وقوة في مناطق الحدود التي تسهل
التحصينات فيها المهمة العسكرية بمعناها الحصري . وقد حُددت لهم اجور أقل ارتفاعاً ،
وخصصوا بقطع ارض يتولون زراعتها لتأمين معيشتهم ومعيشة عائلاتهم . ووكل إليهم امر
المراقبة في الدرجة الأولى وأمر رد الهجمات في الدرجة الثانية ، وأمسى الكثير منهم ، في الواقع ،
جنوداً لا كفاءة عندهم يلجأون الى التحصينات أثناء الغزو ، فكانوا من ثم يتلقون الصدمة الأولى
ولا يفلحون في مقاومتها إلا نادراً . اجل ؛ لقد بلغت الصدمات اتساعاً وعنفاً لم يضطر جيش
العهد الامبراطوري الاول ، الذي لعب كله تقريباً جوهر هذا الدور ، لتحملها إلا في ظروف
استثنائية . ولكن رجال وحدات الحدود ، قد أعوزهم آنذاك ، كما يبدو ، التدريب والمناورات
التي انقطعت القيادة عن فرضها عليهم .

جيش الريف ليست هذه حال الوحدات الأخرى . في فترات الهدوء تؤلف هذه الوحدات حاميات تقيم على مسافة كبيرة من الحدود ، وحتى في قلب الأراضي الرومانية في أغلب الأحيان . ويفرض الأمن الداخلي احتياطات تفوق بعددها الاحتياطات السابقة . فقد رغب المسؤولون بنوع خاص في أن تعبأ هذه الوحدات بمعرفة تامة ، وأن تجمع أولاً حتى يؤلفوا منها جيشاً ريفياً . واخضعوها لهذه الغاية إلى تنقلات هامة أحياناً ، من طرف الامبراطورية إلى طرفها الآخر ، وقد ازداد تكرار هذه الحركات بفعل الاغتصابات التي تستلزم حملات داخلية .

تتألف هذه القوى ، في الدرجة الأولى ، شأنها في الماضي ، من الحرس الامبراطوري . ولكن فرق حراسة القيصر ، التي مقتتها الوحدات الأخرى على الدوام ، بسبب امتيازاتها ، زالت من الوجود على اثر الهزيمة التي انتزها قسطنطين بـ « مكسانس » عند جسر ميلفيوس في السنة ٣١٢ . فحلت محلها تدريجياً فرق من الجرمانيين الذين قدموا منذ اوغسطس حرس الامير الخاص ، وابقى ايضاً على وحدة « المظاهرين » التي انشئت في للقرن الثالث والتي استجابت وجودها في الوقت نفسه لاهداف أخرى .

يحمل الجنود الآخرون في الجيوش الريفية اسماء تم عن ميزة وربما عن اصل وحداتهم ، كـ « البلاطيين » و « المرافقين » مثلاً : والمقصود بذلك الإشارة إلى فصلهم عن الجيش أو أقله التذكير بانهم يؤلفون الوحدة التي يتولى الامبراطور قيادتها شخصياً في زمن الحرب . وقد عسكر بعضهم ، في الواقع ، في الولايات ؛ بينما كان طبيعياً أن يقيم عدد كبير منهم على مقربة من المقر الامبراطوري .

بيد ان الصعوبات التي واجهها العهد الامبراطوري الاول في ادارة حرب هامة لم "تحل" بفعل هذا الفصل بين جنود الحدود و جنود الإحتياط . فقد ثبت ابدأ خطر إخلاء منطقة كاملة من فرقها الريفية . وليس من ريب ، حين جهز ليسينيوس ١٦٥٠٠٠ رجل في السنة ٣٢٤ ، وقسطنطين ١٣٠٠٠٠ لمهاجمته ، في انهما كليهما تصرفا بكل امكاناتها في فترة استثنائية من الهدوء الداخلي . ثم تبدلت الأمور تبديلاً هاماً بعد انقضاء اربعين سنة تقريباً : فان جوليانوس على الرغم من اهمية الاعدادات ، لم يستطع قيادة اكثر من ٦٥٠٠٠ رجل في حملته على الفرس . وفي السنة ٣٧٨ ، لن يجمع فالنس منهم سوى ٣٠٠٠٠ جندهم في الحقيقة من الشطر الشرقي في الامبراطورية فقط .

التجنيد كانت هنالك اذن ، على غرار ما حدث في العهد الامبراطوري الاول ، حاجة إلى الرجال ، على الرغم من الجهود المتزايدة ، من حيث قيمتهم النسبية — بسبب نقص السكان — وقيمتهم المطلقة على السواء .

ليس لدينا اية دلالة يوثق بها لتحديد عدد المهندسين الاجمالي وتتبع ما طرأ عليه من تغييرات . ولكن ما لا ريب فيه هو ان ديوكليسيانوس قد تعهد جنوداً أكثر منهم عدداً في عهد سبتيموس

ساويروس الذي سبق وحدث ثلاث جوقات جديدة من الطراز الكلاسيكي ، وان قسطنطين قد رفع عدد وحدات الجيش ايضاً . وقد تكلمت وثيقة نظرية عن عدد يبلغ ٥٠٠ ٠٠٠ رجل تقريباً ، في اواخر القرن الرابع . ومها يكن من الأمر ، فان العدد يفوق الى حد بعيد ما بلغه في القرن الثاني .

مها يكن من الامر ايضاً ، فان هذا العدد لا يزال غير كاف ، لان المهام الواجب تنفيذها امست ، من جهتها ، صعبة جداً . فخمسمائة الف رجل لا يفون بحاجة دولة عليها آنذاك ان تعبى كل قواها ، ولديها موارد بشرية عظيمة لم تستطع ، لا بل لم تحاول ، تجنيدها . اجل يجب ان لا نحكم عليها بمقياس الجمهوريات البلدية القديمة ، ولا بمقياس الدول المعاصرة : فمعد العهد الجمهوري ، استبعدت روما مبدأ الخدمة الاجبارية . ولكن ما هو اخطر من كل ذلك هو ان مبرر الاعتبارات المالية الذي خضع له اوغسطس في اكتفائه بجيش محدود ، قد توارى الآن امام مبرر آخر هو فقدان الاعتبار الملازم لصفة الجندي بالذات .

يبدو ، اقله في بعض المناطق ، كالتيريا مثلاً ، ان الدعوة للتطوع الاختياري كانت تؤدي الى نتائج حسنة في القرن الثالث . ثم غدت نتائجها العملية دون جدوى في القرن الرابع فعوض اللجوء الى الاجبار عن هذا العجز ؛ ولكنه زاده خطورة ايضاً ، لان هذا الانتساب لمهنة الجندية قد فقد طابعه الطوعي .

تناول الاجبار في الدرجة الاولى ابناء الجنود . منح سبتيموس ساويروس هؤلاء حق عقد الزواجات الشرعية : فكان ذلك بمثابة تعميم واقع راهن يجعله قانونياً . وكذلك ، فان الدولة ، بتخليها عن قطع الارض لجنود الحدود ، قد عممت نظاماً قديماً لم يستغد منه الا بعض جنود الحصون فقط . ثم فرض مبدأ الوراثة في المهنة الوالدية على كافة الطبقات الاجتماعية ، فطبق بكل شدة في الجيش . فاضطر ابناء الجنود الى الانخراط فيه ، ما لم يكونوا ضعفاء البنية ؛ وخلفوا بالتالي آباءهم في الانتفاع بالاراضي التي كان يستثمرها هؤلاء .

غير ان ارتفاع نسبة الوفيات جعل هذا المورد غير كاف . ولم يفكر احد بمراعاة المساواة في قيد الشبان البالغين سن دخول الخدمة العسكرية . بل اقتصروا على جعله وقفاً على الملكية العقارية . فقد فرض على الملاكين ، منفردين اذا كانت املاكهم على بعض الاتساع ، ومجموعين ومكتتبين اذا كانت املاكهم على عكس ذلك ، ان يقدموا المجندين . وهم يختارونهم حيث يستطيعون ، في أدنى طبقات السكان الريفيين وحدها تقريباً ، محاولين استئالة المتطوعين بالمال ، او بين العبيد ، محاولين استئالتهم بالإعتاق : وقد ظهر بعض التجار الذين سهلوا هذه المهمة . وحاول الامبراطور احياناً حماية الضعفاء الذين يقدمون مرغين ، وفي أغلب الاحيان معاقبة المتمردين : وصدر اخيراً قانون اقرت بموجبه عقوبة الاحراق لمن يبترون احد اصابعهم . فكانت نتائج طريقة التجنيد هذه من الضعف بحيث ان الحكومة فضلت ان يقدم لها المحضعون مالا لا رجالاً : فهي تستطيع عن طريق المال تأمين حاجتها في غير مكان .

ويعني « غير مكان » البرابرة الحشنيين ، المتعبرين جنوداً ممتازين ، لا سيما لمحاربة برايزة آخرين ، و اقل ميلا الى التمرد على الامبراطور الشرعي . وقد سبق للامبراطورية الاولى ان ادخلت بعضهم في خدمتها ساحة لهم بالاحتفاظ بعاداتهم القومية . وبسبب الافتقار الى نظام احسن ، انتشر هذا النظام في القرن الثالث وزاد انتشاراً في القرن الرابع . وبديهي ان الرومان قبلوا بتطوعهم الفردي كما قبلوا بهم في المجتمع ايضاً . ولكنهم نظموا في النهاية تجنيدهم . ثم أسكن عدد كبير من الاسرى واللاجئين في اراضي الامبراطورية بغية تعمير واستثمار المناطق التي تندر فيها اليد العاملة : وتقوم مهمة الادارة في مراقبتهم ، ويفرض على أبنائهم ، على غرار ابناء الجنود ، الانخراط في الجيش . ونعم آخرون بنظام « الحلفاء » وقدّموا وحدات منظمة بحسب عاداتهم يرئسها ضباط قوميون : وقد حدث في الواقع ، تدريجياً ، ان الذين دخلوا الامبراطورية عنوة تعذر طردهم منها وسمح لهم ، لقاء معاهدة ، ان يعيشوا في منطقة معينة كشعب غريب الى جانب من بقي فيها من الرومان .

من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن اللجوء الى هؤلاء البرابرة لم يخفى سوى الغيوم للامبراطورية : فلولاهم ، لحصل انهيارها قبل موعده بزمان بعيد؛ اصف الى ذلك انهم ، بفعل اخلاصهم للامبراطور الذي يدفع لهم اجورهم ، قد منعوا او قمعوا كثيراً من الاعتصابات ، وبالتالي من الاضطرابات التي طالما أثارها الجيوش المدنية في القرن الثالث . ولكن وجودهم قد أسهم في اقصاء المواطنين عن الجيش ، وربما كان الخطر يقضي بعاداتهم اليه . فهم يمثلون حلاً سهلاً قد تكون عواقبه ، وستكون ، خطيرة جداً . فبصرف النظر عن الرغائب التي قد يبعثها فيهم الشعور بقوتهم وبالخدمات المؤداة ، لم يعد الجيش الروماني المزعوم ، الذي انتهبوا الى تشكيل أكتريته الساحقة ، تلك الأداة الممتازة لنشر الحضارة الرومانية كما كان في القرنين الاولين : بل غدا أداة للشر البربرية . وكان كل شيء ، في الحقيقة ، قضية تقدير ونسبية . ولكن من ذا الذي استطاع ، في ما يتعلق باللجوء الى غير الرومان ، الاستشهاد بسوابق قديمة جداً تظهر فيها حدود الخطر ؟ وفي أي وقت ، خلال القرن الرابع ، اجتيزت هذه الحدود ؟ فأولى بنا من ثم الاكتفاء بأن نلاحظ ان الآراء الخاطئة القديمة ، ذات الطابع الاجتماعي والثقافي معاً ، التي دفعت الى إلقاء مهمة الدفاع عن المصلحة العامة على أشد عناصر السكان فظاظة ، تحمل عبء مسؤولية هذا الوضع وازدياد خطورته .

تأثر الجيش بأعدائه وتسليحهم وأساليبهم الحربية فأثره بانخراط البرابرة التنظيم وفن الحرب فيه . فميزته فروق عظيمة عن جيش العصور السالفة .

عرفت الجوقة التقليدية البقاء . ولكنها كانت كثيرة العدد بطيئة الحركة . وما كانت لتستطيع العمل إلا بضم وحدات مساعدة متنوعة محصورة العدد اليها . وقد صنف التجنيد الرجال ، بينها وبين هذه الوحدات ، وفقاً لنظامهم القانوني ؛ غير ان هذا التمييز قد زال ، منذ براءة كركلا في السنة ٢١٢ ، بفضل شمول حق المواطنة الرومانية كافة الرجال الاحرار

العائشين في الامبراطورية باستثناء المعتقين ؛ فلن ينظر الجيش بعد الآن الى الفئات القانونية ولن يرفض سوى السبيد. لذلك فان تكرار استخدام فصائل الجوقات ، منذ العهد الامبراطوري الاول ، قد أفضى بالنتيجة الى تجزئة هذه الجوقات - لا يزال الاسم يطلق عليها ، ولكن نادراً ما يتجاوز عددها ألف رجل في ذاك العهد - والى مساواتها عملياً بالوحدات المساعدة . وقد ارتفع العدد الاجمالي لهذه الوحدات المختلفة ارتفاعاً كبيراً .

وتبدل التسليح على طريقة البرابرة . فأهمل المشاة الاسلحة القومية ، البيوم ، والمفصل ، والترس الكبير ، والدروع المعدني ، واعتمدوا الرمح ، والسيف ، والخنجر ، والقوس نفسها احياناً ، والترس المستدير ، والدروع الجلدي . وتسلمت بعض وحدات الفرسان ، على غرار الفرسان ، بالاقواس الجبارة ، وحدث في بعضها ان ألبس الرجال والخياد صفائح حديدية او زروداً .

منذ القرن الثالث ارتفع عدد الفرسان ارتفاعاً عظيماً مطرداً . ويعود ذلك الى ان الجيش يجب ان يكون سريع الحركة . كما يعود الى ان الفرسان الثقيلي التسليح ، القادرين على الانقضاض على العدو ، فرقا متلاحمة في المناورة ، قد أحدثوا اتجاهاً جديداً في التاريخ العسكري وأثبتوا مجدداً تفوقهم على المشاة . ويمكننا القول ، دون مبالغة في أهميتها - لأن هنالك سوابق ، ولأن هذا المثل لا يحدث تقليداً - ان معركة اندرينوبولس (ادرنه) في السنة ٣٧٨ ، التي ربحت بفضل كثر الفرسان القوط ، يمكن اعتبارها مقدمة للفن الحربي في القرون الوسطى . ولكن الرومان ما زالوا يتلمسون طريقهم . فان اوريليانوس ، قبل استلامه الحكم ، كان قائداً لكافة وحدات الفرسان في الجيش ، المكونة فرقة مستقلة للنهوض بحركات جماعية : غير ان هذه الوحدات الهامة لن تظهر في القرن اللاحق . ومع ذلك فقد أصبح الكر مهمة الفرسان الرئيسية الذين حملت وحداتهم اسم « الاسافين » المميز .

وتحسنت القيادة اخيراً تحسناً كبيراً . وقد لعب الحذر السيامي دوره في ذلك لأن القيادة الرومان ما زالوا يخشون ، في القرن الثالث ، طموح اعضاء الطبقة المجلسية الذين كان لهم وحدهم الحق ، دون المرور بالدرجات الدنيا ، في تولي قيادة جوقة او جيش . ولكن الاهتمام بالنوع قد لعب دوره ايضاً الذي أسمى في النهاية أهم دور : فقد ارادوا ، بعنادهم في إلغاء امتياز النسب ، اكتشاف الافاضل وتخصيصهم في دورهم العسكري . فحدث من ثم تطور مزدوج . أقصى الشيوخ من جهة عن القيادات . وقد سبق لسبتيموس ساويروس ان وضع فرساناً من الاشراف على رأس الجوقات التي أحدثها . ويعزو التقليد الى غالينانوس براءة تجعل من هذا الاقصاء مبدأ . اجل هنالك وقائع ثابتة تناقض هذا التقليد ؛ ولكن الغلبة في النتيجة للنزعة التي تكلم عنها هذا التقليد . وارتسمت من جهة ثانية ، وبصورة اجدى ، ثم انتصرت ، مع قسطنطين ، النزعة الى فصل الوظائف المدنية عن الوظائف العسكرية .

وهكذا ، فان تعيين المراتب ، وعرفيع ذوي الأهلية دون غيرهم ، اللذين يمثلان التجديد

الاجتماعي الرئيسي في القرن الثالث قد عمل بها في القرن الرابع ايضاً . فبينما لم يكن الجندي من قبل ليتجاوز الاستثناء ، درجة قائد المائة ، أي درجة صفار الضباط ، أصبح الآن من شأن جدارته أو حظه ، ان يقوداه الى أعلى الوظائف في سلم المراتب ، وبما ان هذه التمييزات الاجتماعية ، فقدت أو كادت تفقد كل أهمية سياسية ، فانه قد احتل مع الزمن مرتبة الفارس الشريف ، ومرتبة عضو مجلس الشيوخ بعد ذلك . ويرافق هذا الوضع ذيله الطبيعي : فكافة القادة العسكريين ضباط ممتنون لا يخدمون طيلة حياتهم إلا في الجيش .

بفضل زوال كل تمييز قانوني ، غدا التدرج ممكناً للبرابرة انفسهم . وكثيرون هم الذين أقادوا منه . وقد أخذ بعض المعاصرين على قسطنطين انه خصّ الفرنك بمحبته ، ووجه اللوم عينه الى ثيودوسيوس بصدد القوط . وباستطاعتنا فعلاً وضع لائحة طويلة بالقادة البرابرة الذين اشتهروا ولعبوا دوراً خلال النصف الثاني من القرن الرابع ، فاهيك عن القرن الخامس . بيد اننا نقتصر على الاشارة الى وجود القوطيين غيناس والاريك والفاندالي ستيليكون والقفقاسي باكوروس على رأس وحدات الجيش الرئيسية التي اتاحت لثيودوسيوس ، في السنة ٣٩٤ ، الانتصار على جيش المقتصب اوجينيوس بقيادة الفرنجي اربوغاست . فالاريك وحده بين هؤلاء ، وهو ملك الفيزيقوط الخلفاء ، لم يكن ضابطاً رومانياً ، في حال ان جميع الآخرين قد كسبوا القيادة في خدمة الامبراطورية .

مر كثيرون من هؤلاء الضباط ، الرومانيين او البرابرة ، في اوائل خدمتهم ، في وحدة « الحماة » . وقد تشكلت هذه الوحدة ، منذ احداثها في القرن الثالث ، من صفار الضباط ذوي المناقب والكفاءات فقط . ثم اجيز الانحراط فيها ، في القرن الرابع ، لابناء الشيوخ ، ولكن دون ادخال تغيير جوهري عليها . وكانت هذه الوحدة تؤلف جزءاً من حرس الامبراطور الخاص ، حتى ان افرادها لقبوا اخيراً بـ « المنزليين » فالفوا البلاط وكيفوا عليه تصرفاتهم . ولكنهم لعبوا دور الاركان العامة ايضاً واسندت اليهم المهام الخطيرة . واختير بينهم قواد الجوقات الذين اتيح لهم بعد ذلك تسم مراتب اعلى . فان هذه الوحدة ، التي اوجدت لاعداد النخبة ، قد حققت هدفها : ومن عناوين فخر العهد الامبراطوري الثاني انها لم تعرف الانحطاط .

فرضت تجزئة الجيش وحدات محصورة العدد تنظيم حشود لم يكن الفصل بين الوظائف المدنية والعسكرية ليسمح بوضعها ، كما في السابق ، تحت امرة حكام المناطق . وانما احدث لقب « القائد » ، في القرن الثالث ، لرؤساء هذه الحشود بالذات . فمنذ ديوكليسيانوس رئس من يحمل هذا اللقب ، مبدئياً ، كافة الجنود في احدى ولايات الحدود ، التي اصبحت اراضيها ، من جهة ثانية ، من جراء التقسيمات النظامية ، اضيق منها في السابق . وقد حدث احياناً ان مارس بعض القادة سلطتهم على اقليم اوسع ؛ فاطلق عليهم آنذاك لقب « الكونت » (رفيق) ، ولكن هذا اللقب لا ميزة نوعية له . اما جيش الريف ، فقد عين له قسطنطين « معلمي جنود » *Magistri militum* احدهما للمشاة والثاني للفرسان : وقد راعت هذه الازدواجية سلطة

الإمبراطور بكل عناية . ثم وزع هذا اللقب على نطاق اوسع ، فعين « معلمون » لجيشين . ولكن مالنا ولهذه الاصطلاحات التي يكفي ابتذال الألقاب تدريجياً لأن يجعلها غامضة جداً . فالهم هو أننا نادراً ما نرى أحد هؤلاء الموظفين الكبار متهماً بعدم الاهلية . أجل كان هؤلاء الرجال نقائصهم ، وقد لجأوا الى الدسيسة . ولكنهم لم يبلغوا في ذلك ما بلغه شيوخ القرن الاول . وهم قد عرفوا مهنتهم خير معرفة .

وفي القمة اخيراً كان الامبراطور وحده الذي ما زالت صفته العسكرية مهيمنة ، ان لم يكن نظرياً . وما زال الجنود يهتفون للأباطرة ، الذين غدت سلطتهم ، في القرن الرابع ، سريعة الزوال ، ان هم لم يعنوا بواجبهم : وغالباً ما دانوا بالتماداة بهم اباطرة ، كجوليانيوس وفالنتينيانوس الاول وثيودوسيوس ، للبراهين التي أعطوها من قبل عن أهليتهم العسكرية . ولا يقبلون بالتوازي لتسليم القيادة العليا الى القادة ؛ بل يشتركون شخصياً في الحملات ولا يترددون في المخاطرة بحياتهم ، وحتى في التضحية بها . فولايتهم سلسلة متواصلة الحلقات من الجولات يفرضها عليهم الصراع ضد الأعداء في الخارج وفي الداخل .

ونلاحظ بالتدقيق في عداد التبدلات المموسة التي أفضى اليها موت ثيودوسيوس نهاية النشاط العسكري الشخصي الذي كان يقوم به الامبراطور . فهذا الأخير ، منذ السنة ٣٩٥ ، ينزوي في قصره في القسطنطينية او في رافيننا ، « جلسة » ومنفرداً ، تاركاً لبعض القادة من تقف لهم دسائس البلاط بالمرصاد امر قيادة الحملات العسكرية . وفي حين ان المزيد من الصعوبات يدعوم للعمل ، نرى في اعراض هؤلاء الرجال الذين لا يشكون من ضعفهم بل من بعدهم عن عامة البشر بفعل عظمتهم ، - لن يظهر أي امبراطور شرقي في الجيش قبل السنة ٥٩٢ - مقاطعة للتقليد الامبراطوري الروماني . ولعل هذا الإعراض سبب آخر لنهاية الامبراطورية او دليل عليها على الأقل .

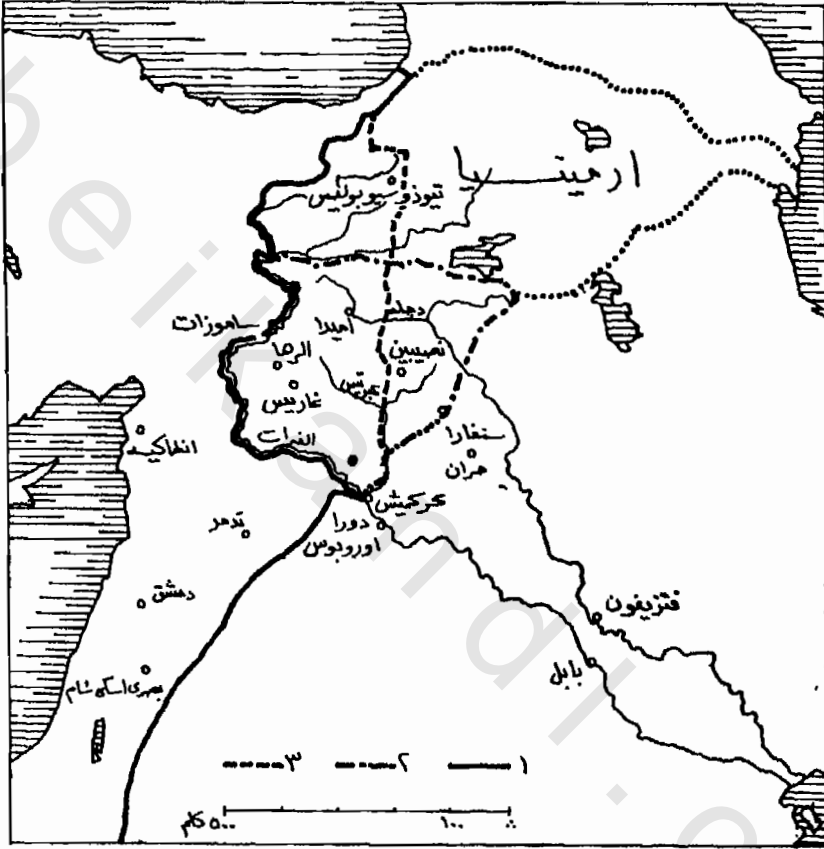
٢ - هجوم البرابرة

ذاك هو جيش العهد الامبراطور الثاني في خطوطه الجوهرية . آمن سلامة الاراضي الرومانية حتى منتصف القرن الرابع . حينذاك ، ودون ان تتمكن من رؤية التراخي فيه او بداية المخطاط داخلي ، اخذ يبرهن عن انه دون المهمة الملقة على عاتقه . والحقيقة هي ان هذه المهمة قد أصبحت اعظم ثقلاً : فمن كل جهة ، جدد العدو هجومه ، بحيث لن يترك الامبراطورية تذوق طعم الراحة حتى انهيارها .

لا ريب في ان الفرس شعب اتصف بالصلابة ، ولكنهم لم يكونوا مع ذلك أكثر الفرس
الاعداء اقلاقاً للرومان .

كلوا الاول في الانتقال الى الهجوم حين بلغ ملكهم الشاب ، شاهبور الثاني ، سن الرشد ، في اواخر عهد قسطنطين : وبقي شاهبور هذا حتى مماته (٣٧٩) عدو الرومان العنيد . توفرت

لديه الوسائل القوية والفيلة الهندية والآلات لمحاصرة الحصون . ولن تواجه الامبراطورية ، في أي مكان آخر ، عدواً على مثل هذا التنظيم وهذا التصلب توفيق في السنة ٣٥٩ ، بعد ثلاثة وسبعين يوماً ، الى دخول « اميدا » عنوة (ديار بكر الحالية على دجلة) . وكانت ضرباته قاسية . فقسم جوليانوس على وضع حد لهذه التعديات بشن هجوم على الطريقة القديمة ، وسار على



الشكل ٢٠ - حدود الامبراطورية شرقاً في القرن الرابع
١ - الحدود بعد هزيمة فاليريانوس في السنة ٢٦٠؛ ٢ - بعد حملات ديوكليسيانوس؛ ٣ - بعد الاتفاق الذي عقد في عهد ثيوديسيوس .

كتيزيفون ، وأصيب ، أثناء انسحابه ، بمرح ممت . فاضطر خلفه ، بقية إنقاذ الجيش ، للتخلي عن جميع الأراضي الواقعة وراء نهر الخابور : وهي لن تستعاد بعد ذلك .

بيد ان الفرس لم يدخلوا سوريا قط كما فعلوا في القرن السابق . فهم أيضاً واجهوا مشاغل اخرى : الغزاة الرحل في تركستان والقفقاس ، والنصرانية التي لم يفلح تصليبهم في استئصالها من مملكتهم ، والهيجان في ارمينيا التي ارادوا اخضاعها او فرض حمايتهم عليها على الاقل . وكان

خلفاء شاهبور الثاني دونه حزمًا وتدبيراً . فارسل احدهم الى ثيودوسيوس وقدأ قدم له الهدايا ، وتحلى اخيراً للرومان عن الجزء الغربي من ارمينيا حتى كارنا (ارزروم الحالية) التي اطلق عليها اسم « ثيودوسيوبوليس » .
اما الخطر الحقيقي ، الخفيف ، فقد اتى من مكان آخر .

برزت المصاعب مرة اخرى على نهر الرين منذ السنة ٣٥٠ حين نودي بالقائد ماغانس الرين امبراطوراً . فدفع آخر ابناء قسطنطين ، كونستانس الثاني ، الذي ما زال على قيد الحياة ، احد ملوك الألامان الى اجتياز النهر في عملية تلهية ، بينما توجه المغتصب على رأس خيرة فرقته الى بانونيا وايطاليا كي يستطلع حظه فيها : فشمل الغزو كافة انحاء غاليا الشمالية الشرقية .

استعيدت الحدود بعد ذلك ببعض المشقة لا سيما على يد جوليانوس الذي سحق الألامان على مقربة من سترا سبورغ في السنة ٣٥٧ . ولكن كونستانس الثاني كان مشغولاً بالدس حين انتقل للقب الامبراطوري الى جوليانوس الذي توجه هو ايضا الى البلقان على رأس خيرة جنوده .

توجب من ثم بذل المزيد من الجهود ، وعلى الرغم من الهمة القعساء التي برهن عنها اسيااد الغرب المتعاقبين ، فالنننيانوس الاول وغراسيانوس ، فان امد سلامة الدولة لم يطل قط . ومنذ نهاية القرن الثالث سمحت الامبراطورية لبعض القبائل الجرمانية ، ولا سيما الفرنجية منها ، بالاقامة عند مصاب نهر الرين ، مسندة اليها مهمة المحافظة على هذا الجزء من الحدود . فاتسع آنذاك نطاق التعدادات الجرمانية حتى شمل المنطقة الشمالية الشرقية من بلجيكا الحالية . ويعود تاريخ آخر حملة رومانية اجتازت نهر الرين من جهة كولونيا الى السنة ٣٨٨ ، وقد انتهت بهزيمة منكرة . ولن يلبث الغزو ، على طول نهر الرين ، ان يقذف بالبرابرة الى كافة انحاء غاليا .

كان تصدع خط الدانوب ، بفعل حصوله قبل تصدع خط الرين ، أدهى خطورة وصول الهون وتعدّي القوط ايضا ، لأنه عرض البلقان وايطاليا مباشرة للخطر .

جاءت الهزة من بعيد ، من قلب آسيا الوسطى ، التي اتجه منها نحو اوروبا جمهور غفير من الهيونغ - نو (أي الهون) الذين أقلقوا الصين زمناً طويلاً : دفعة لا تقاوم تعاضمت باستمرار بين البدو المحتلّفي الاجناس الذين تغلبت عليهم وجرتهم ، بقيادة رؤساء نجعل كل شيء عنهم ، مع اننا مضطرون للاعتراف بانفطارهم على قوة عزيمة نادرة ، وتحت ضغط ظروف بشرية واقتصادية ملحة ، وبدافع الاحتقار للحضريين وجاذب الثروات التي ينتظر استلابها رجال الاخبية . دفع هؤلاء المنقول جنوباً بقبائل التركستان ثم ضموا اليهم الـ « ألين » وبلغوا روسيا الجنوبية حيث واجهوا القوط . فقدموا ، وسقدمون طيلة قرن وأكثر ، اول مثل تاريخي معروف - يتيح تصور هجرة الهنود الاوروبيين على غرار الغزوات التي غمرت مصر وبلاد ما بين النهرين في الالف الثاني واوائل الالف الاول - لجولات وصولات شعوب وامبراطوريات

السياسب الشاسعة التي كان انهارها النهائي صاعقاً على غرار نجاحها .

لم يكن القوط حينذاك جيراناً مقلقين للامبراطورية . فقد عرفوا الاستقرار ، ويقسمهم المعاصرون فئتين^(١) . ويبدو ان فئة الاوستروقوط الشرقية قد ألقت دولة حسنة التنظيم فرضت حمايتها على بعض قبائل السياسب الروسية : فوضع بذلك حدّاً لأعمال قرصنتها . اما قسمة الفيزيقوط الغربية فقد كانت أكثر اهتماماً . اقام احد افرادها ، اولفيلا ، مدة طويلة في آسيا الصغرى في عهد قسطنطين . اعتنق الديانة المسيحية على المذهب الآري وسم اسقفا وعاد الى موطنه وشرع يبشرهم بالانجيل : وفي سبيل ذلك نقل الكتاب المقدس الى اللغة القوطية التي اضطر لأن يضع لها أبجدية . بيد ان تبشيره قد اثار بعض الهيجان . فاضطر ، بعد سبع سنوات قضائها واعظاً ، الى الالتجاء الى الاراضي الرومانية ، مع جمهور من المؤمنين ، في السنة ٣٤٨ . فاستقل الامبراطور فالنس ، الذي شك من الغزوات ومن المعصد الذي لقيه احد المفتبين ، هذه الاضطرابات الداخلية لبعت منافس مسيحي للزعيم الوثني . وبالاختصار ، لم يكن القوط ، بعد ان تأثروا بحضارة اعظم تطوراً ، ليشكلوا وحدهم خطراً ذا شأن .

ولكن هاهم الهون يمتازون نهر الفولغا حوالي السنة ٣٧٥ وينطبق عليهم آنذاك ، لا على ما سيكونون عليه بعد قرن ، وصف اميانوس مرسلتينوس الشهير : « هذه الحيوانات المفترسة السائرة على قدمين » ، هؤلاء الفرسان المزدرون بالتعب ، المختلفون شكلاً خارجياً عن الاوروبيين ، المرتدون الالبسة المربعة ، المتمشون على عادات تقز منها النفس ، الزارعون الحريق في كل مكان . قضوا على مملكة الاوستروقوط ثم قطعوا نهر الدنيستر ودنوا من الفيزيقوط الذين ما لبثوا ان انهزموا وطردهوا نحو ترانسيلفانيا أو الدانوب حيث التحق بهم الاوستروقوط الذين لم ينصهروا في زمر الهون .

استجار المسيحيون بالامبراطور . فسمح لهم فالنس باجتياز النهر املاً منه بالاستفادة من رجالهم . ولكن القطيعة بينه وبينهم وقعت منذ السنة ٣٧٧ ، ومع ان عدد محاربيهم لم يجاوز الـ ١٠٠٠٠ ، فانهم قد حطموا ، في التاسع من شهر آب من السنة ٣٧٨ ، الجيش الامبراطوري في الشرق امام اندرينوبولس على الرغم من تفوقه عدداً ، وهلك فالنس نفسه ، واستحال العثور على جثته . سار الظافرون حينذاك نحو القسطنطينية . واذا هم لم يستطيعوا دخول اية مدينة ، فانهم قد نقلوا الخراب الى الارياف . فلم ير ثيودوسيوس بُدأ ، على الرغم من بعض الانتصارات التي ابدت اسوأ الاخطار ، من ان يتفق معهم بادخالهم في خدمته ، وبإغداق الوعود عليهم بالخدمات ، وبالساح لهم بالعيش بين الدانوب والبلقان .

امسى القوط منذئذ في الامبراطورية ، على غرار الفرنك ، ولكنهم توغلوا فيها توغلاً ابعد ، والفوا كتلة اعظم تراصاً وبرهنوا عن مزيد من الجسارة . وبمكنتنا هنا ان نستعيد تعبيراً

(١) « اوستروقوط » لا تعني « القوط الشرقيين » بل اللامعين . وكذلك « الفيزيقوط » هم « القوط المعتدلون » .

لارنست ستاين ونقول ان يوم اندرينوبولس يحدّد « بداية نهاية » الامبراطورية الرومانية
كامبراطورية العالم المتوسطي .

فان المثل الذي اعطاه القوط والضربات التي سدّت لقوة الامبراطورية ونفوذها
المهجوم الشامل قد دفعت باعدادها الآخرين الى التآدي في جسارة مطامعهم ومحاولاتهم : فانتقلوا
الى الهجوم في كل مكان بعزيمة متزايدة واحرزوا انتصارات كثيرة .

قام بهذا الهجوم أصغر الشعوب عدداً : الايزوريون في آسيا ، والاسماعيليون في الصحراء
العربية والبيميون في مصر العليا . وفي افريقيا ، خرج البدو من الصحراء الكبرى ، والمنشقون
من جبالهم ، مستغلين البلبلة التي اوجدها الاضطراب الاجتماعي في البلاد تحت ستر الهرطقة
الدوناوية (نسبة لدونات اسقف قرطاجة) ، والثورات التي نظمها بعض زعماء البرابرة او بعض
الموظفين . وفي بريطانيا أكثر البكتيون والسكوتلنديون والاييرلنديون من هجماتهم على الحامية
المسكينة الرومانية التي عجزت عن المحافظة على سور هدرانوس ؛ ثم جاء السكسون عن
طريق البحر الشمالي ؛ وفي اوائل القرن الخامس جرّ احد المفتصبين فرق الجيش وراه الى غاليا ،
فأخليت الجزيرة التي لم يبق فيها ، في السنة ٤٤١ ، أي بعد اربع وثلاثين سنة ، أي اثر للسيطرة
الرومانية .

ما كان كل هذا ، باستثناء الانشقاقات الافريقية الكبرى التي أوقفت تصدير الخنطة الى روما ،
ليرتدي طابع الأهمية العظمى لو لم تنتقل العدوى ، في الوقت نفسه ، الى قلب الامبراطورية .
فالبرابرة ، القدماء والجدد منهم على السواء ، شنوا الغارات على حدود الدانوب والالب وغاليا .
فحدث ان قاومهم اسلافهم ، ولكنهم توقفوا اخيراً الى شق طريقهم . ولم يبق للحكومة
الامبراطورية نفسها ، التي انقسمت ، بعد موت ثيودوسيوس ، الى بلاطين ، متعادلين غالباً ،
منشقين بالدسائس ابداً ، من مورد آخر سوى محاولة استغلال المنافسات بين الزعماء والزمر
والشعوب .

ستتوفى القسطنطينية ، بفضل استنادها الى آسيا الصغرى ، الى ابداء مقاومة اجدى .
ولكن شبه الجزيرة البلقانية كانت الاولى التي تعرضت للخراب في كل اتجاه : بعد وفاة ثيودوسيوس ،
اجتاز الفيزيقوط « الارليك » تراقيا واليونان حتى البلوونيز . فلنصنع الى الاحصاءات المحزنة التي
ذكرها القديس ايرونيموس في السنوات الاخيرة من القرن الرابع : ها هو الدم الروماني يسيل
كل يوم منذ عشرين سنة وأكثر بين القسطنطينية وجبال الالب الجوليانية . قبلدان سكيبيا
(بلاد الغز) وتراقيا ومقدونيا ودردانيا وداسيا^(١) وتساليا واخيا والابير ودملاتيا والبانونيتان

(١) توافق ولاية سكيبيا آنذاك منطقة دوبرودجا الحالية تقريباً . وبعد اخلاء داسيا الحقيقية ، اطلق اسمها
على ولايات جديدة جنوبي الدانوب توافق ، مع دردانيا ، القسم الشرقي من سربيا القديمة .

أضحت فريسة القوط والسارمات والآلين والهون والفاندال والماركومان الذين اجتاحتوها ومنزقوها واستلبوها .

بعد ان عم الخراب البلقان ، جاء دور الغرب الذي لم يتردد بلاط الشرق في ان يحول اليه الغزاة المتكالبين على الثروات السليمة البكر . استهوتهم ايطاليا بنوع خاص فبلغوها بعد ان داروا حول الادرياتيک . وفي الرابع والعشرين من آب من السنة ٤١٠ ، دخل « الاريك » روما ، التي كانت تحت رحمة طيلة الستين السابقتين ، وأخضعها لسلب دام ثلاثة ايام . ثم جاء دور غاليا واسبانيا حيث تدفق غزاة آخرون سبغوا اليها القوط عن طريق الرين . وجاء دور افريقيا نفسها اخيراً . ففي السنة ٤٥٥ دخل الفاندالي جنسريك ، المستقر في قرطاجة ، الى روما التي أباح سلبها طيلة اسبوعين . ولكن مراكبه ، في السنوات الاخيرة ، غزت السواحل والجزر اليونانية : وهذا دليل على ان الشرق لم يحصل على سلام حقيقي بتخليه عن الشرق .

لنقف هنا في عجالتنا الحاطفة هذه : فلم نقصد من ورائها سوى ان نبين كيف نشأت الفوضى وبأي عنف انفلتت عاصفة فوضوية ليس من هدف هذا الكتاب تتبع تطورها وعواقبها من قريب او بعيد .

وفي الواقع ، عبثاً يبحث المؤرخ ، في هذه الفوضى ، عن حدث او تاريخ يستطيع ان يربط بها عرضه ويكتشف منعطفاً حاسماً في التطور . فاحتلال روما نفسها ، في السنة ٤١٠ ، قد أذهل المعاصرين . ولكن الرمز الذي يشكله هذا الاحتلال يستخلص قيمته الوحيدة من ماضي المدينة لا من حاضرها آنذاك — لا يستطيع الاريك ان يختطف شخصية رسمية سوى غالاً بلاسيديا ابنة ثيودوسيوس وشقيقة الامبراطور هونوريوس ، التي تزوج منها صهرها وخلفها اتيولف بعد سنوات ، باهة عظيمة في ثاروتا — ولا من مستقبلها . والفكرة التي يوحىها اليوم هي تلك التي ادلى بها القديس ايرونيوموس على الفور : « من كان يستطيع الاعتقاد بان روما ، التي يؤلف سافاتها هذا العدد الكبير من الانتصارات المهرزة على العالم بأسره ، ستنهار يوماً ؟ » ولكن في هذا الذهول بعض السداجة ، اذ ان شيبون اميليانوس قد عرف ، قبل ذلك بخمسة قرون ونصف ، ان هذا الانهيار سيحصل يوماً بصورة محتومة . ولكن ما هو اقرب للصواب الدهشة التي يبعثها تدقيق يسمح به بعد الاحداث في التاريخ : فان هذا الحدث ، الذي يستهونا وصفه بالمعظم ، ليس نتيجة أو بداية لاي شيء ، بل مجرد عرض في مركب ابتداء قبل ذلك بكثير ، وسيمتد الى ما بعد ذلك بكثير ايضاً .

كيف لا نعتبر ان هذا البطء وهذا الاندراست بالذات هما من عناوين مجد روما ايضاً ؟ فلم يقتض لهدم ما شيدته مدة طويلة فحسب ، بل كانت هي نفسها منتشرة في عالم اصبح سكانه ابناءها ايضاً : وكان باستطاعتها الاستمرار في الحياة خارج الاسوار التي دخلها السلايون عنوة . قضى الانسجام مع تقاليد ماضيها ، بالضبط ، ان يسي هؤلاء البرابرة ابناءها بدورهم . وقد

خدمها اكثر من واحد باخلاص حتى ضد بني جنسهم . وأوحى ، حتى بعد سقوطها ، الاحترام للعدد الاكبر منهم فتركت لهم إرثاً ما . ولكن الاستساعة لم تحدث . فهم كانوا كثيري العدد وهي لم تظهر امامهم ، كما في الماضي ، مزدانة بفتنة النصر . فهي قد ماتت ، لمعري ، لانها لم تستطع متابعة عملها التربوي .

لم يحل طول نزاعها دون موتها في القرن الخامس . واذا ما استطاعت القسطنطينية البقاء حينذاك ، فانها قد عاشت حياة حقيرة قبل ان تعرف ، في زمن لاحق ، ايام عز جديدة .

٢ - الصعوبات الداخلية

اذا كانت عودة الاخطار الخارجية واستمرار تجسّمها بعد منتصف القرن الرابع يفسران اموراً كثيرة ، فيجب الا يجهلنا على امال الصعوبات الداخلية التي بلبلت بجهود الامبراطورية بلبلة دائمة وشلتة شلاً احياناً . كانت القسم الاكبر من هذه الصعوبات قديم العهد . وقد حاولت الامبراطورية ان تضع حلولاً جديدة لعدد منها دون ان تتوفق مع ذلك الى السيطرة عليها .

بديهي ان كل الصعوبات لا تستحق ، منذ الآن ، ان ندرس كلا منها على حدة . ولم تخل جماعة بشرية من المهوم الكثيرة التي اعاقها كل منها في تفتيحها . بيد ان تسلسل هذه الصعوبات بحسب اهميتها يتضح للاجيال اللاحقة ، ان هو لم يتضح للمعاصرين . فلنقتصر اذن على الخطرين الاعظمين .

١ - انتقال السلطة والحروب الاهلية

سنفكر دون ابطاء ، بسبب الاضطرابات المادية التي تجرّ اليها الحروب الاهلية ، بأزمات الخلافة في الامبراطورية وبالاعتصابات ، تلك الامراض المزمنة في العهد الامبراطوري الذي لم يتوصل قط ، طيلة مدته ، الى وضع وتطبيق قواعد ثابتة لانتقال السلطة . بيد انه أفرغ كل مجهوده ، آنذاك وقبل ذلك ، وبصورة مبتكرة جداً احياناً ، وبيع بعض الفعاليات اخيراً ، وفي ظروف دقيقة جداً ، بغية سدّ هذا النقص .

فالصعوبة ، في العهد الامبراطوري الثاني ، مصدرها الاول دروس الفوضى التي الظروف العامة لقنتها ازمة القرن الثالث . واذا ما قدر لبعض هذه الدروس البقاء آنذاك ، فانها قد مزقت كافة الحجب : ولم يشك احد ، بعد رؤية هذا العدد الكبير من الاباطرة السريمي الزوال ، في ان رضى الجنود ، الخاضع نفسه لكل تقلب مفاجيء ، يتيح تسلّم السلطة والحفاظ عليها . فأسمى السمي وراء السلطة ، على ما في ذلك من مغالطة ، أكثر من طموح عادي بالنسبة للقائد : فهو احياناً حظه الاخير في النجاة من الموت الفوري الذي قد يجرّ اليه زوال حظوته . ففي السنة ٣٥٥ مثلاً ، حاول الفرنجي سيلفانوس ، الذي سبق له وأدى خدمات جلّسى لم تمنع

أعداءه الشخصيين من ان يقدموا لكونستاس الثاني كل وشاية كاذبة عنه ، تخلص حياته بحمل أنصاره على المناداة به امبراطوراً في كولونيا: غير انه ارتكب خطأ فادحاً، اذ ان الامبراطور، الذي اكتشف ، في هذه الاثناء ، ما انطوت عليه هذه الوشايات من تجنّ وافتراء ، قد اضطر مع ذلك الى اعدام المعتصب قبل مرور شهر على المناداة به . نحن امام حادث لا طائل تحته في حدّ ذاته ، ولكنه يكشف عن المحاولات التي كان يدفع اليها الاتصال الدائم بالجنود .

نجمت الصعوبة ايضاً عن ثقل وشمول المهام المنوطة بالامبراطور . فمن حيث ان وجوده في كل الجبهات أمر مستحيل ، قضى عليه بأن يرى باستمرار بروز منافسين جدد ، حيثما يتجمع جيش وتسنع فرصة لاكتساب مجد ما او شعبية ما لدى الجنود . واذا ما اضطر للتغيب لمحاربة عدو داخلي او خارجي ، فان غيابه يكون كافياً لبروز منافسين آخرين . اجل كان بالامكان اشراك امبراطورين او أكثر: فهناك سابقة مارك اوريل ولوسيوس فيروس (*Lucius Vèrus*) في العهد الامبراطوري الاول . ولكن هذا الحل يفرض اختيار الشركاء والمحافظة ، باتفاقهم ، على وحدة الدولة .

كان من شأن هذا الحل ان يبدو مغرياً جداً لأنه يوافق نزعة فطرية الى الاستمرار السلالي . فممن ان كان بشر وملكيات ، كان اشراك الابن في سلطة أبيه طريقة دارجة جداً لأنها تحول دون شغور السلطة عن طريق تأمين الوراثة . وقد اعتمدت الامبراطورية الاولى هذه الطريقة أكثر مرة غير مكتفية حتى بلقب الامبراطور للخلف المعين على هذه الصورة : فان مارك اوريل قد منح ابنه كومودوس لقب « اوغسطس » محتفظاً لنفسه بالحبرية العظمى دون شراكة وبالنفوذ الذي يوليه اياه فاروق السن . ومن جهة ثانية ، كان هذا الفارق حجر العثرة ، اذ ان هذا النظام ما كان ليسير سيراً حسناً إلا اذا بلغ الابن ، عند وفاة أبيه ، سناً تسمح له بفرض نفسه . ولذلك فقد استفيد ، في عهد الانطونيين ، عملاً بمبدأ اختيار « الأجدد » ، من عدم وجود ابن شرعي للامبراطور ، طيلة أجيال عدة ، للجوء الى التبني .

وبالاختصار ، كان باستطاعة الملكية في العهد الامبراطوري الثاني ، التي ألجئت الى تعيين مساعد ، بل عدة مساعدين ، للامبراطور ، بغية تأمين المهام الحكومية ، لا سيما العسكرية منها ، والتي نزعّت مع ذلك ، على غرار سواها ، الى الوراثة السلالية ، ان تستند الى سوابق كثيرة . وهي قد عملت ، وفقاً للظروف والبشر ، بهذه السابقة تارة وبذلك السابقة أخرى ، لا بل أدركت خير ادراك ، غداة موت قسطنطين ، صعوبة تكاد تكون جديدة - فقد سبق مثل نيرون وبريتانيكوس ، ومثل ابني فسبسيانوس ، وخصوصاً مثل ابني سبتيموس ساويروس - بل هي جديدة على كل حال بمجدة المنازعات التي أثارها ، اعني بها تلك الناجمة عن امبراطور يترك عدة أبناء لا يفصل بينهم أي فاروق كبير سناً او نفوذاً . فلا عجب من ثم اذا كلتها الاقتتار الى حق ملكي صريح وثابت ثمناً باهظاً من الحروب الاهلية .

نظام ديوكليسيانوس
الرباعي

قد يكون من المملّ حقاً استعراض كافة الحلول التي جرّبت آنذاك. ففي القرن الثالث وحده نماذج وافرة عنها . وقد حدث في السنة ٢٣٨ م اختار مجلس الشيوخ اثنين من اعضائه ومنحها بالتساوي الألقاب نفسها والسلطات عينها بما فيها الخبرة العظمى التي أسندت للمرة الاولى الى شخصين في آن واحد . دام هذا التدبير الثنائي تسعين يوماً وانتهى ، شأن غيره ، بقتل المستفيدين منه . لنهمل إذن هذه المحاولات الفاشلة حتى نتوقف عند محاولة ديوكليسيانوس التي تنطوي على أهمية أعظم واقعية . فهي لم تكن سريعة الزوال - دامت أربع سنوات - وامتازت بأنها كاملة ومبتكرة ، إذ أنها اضافت عنصراً جديداً ، هو الاستقالة في موعد محدد ، الى غيره من العناصر التي اوجدتها الاختبارات السابقة .

كان نظام « التتارشية » ، أي الحكومة الرباعية ، منذ زمن بعيد ، موضوع جدل ونقاش . فنذ قرن ، فسرها يعقوب بوركرات ، بأنها نظرية عالم ، ربما انتسب الى « اسرة سييتيس Sieyès » على حد قول احدهم . ولكن هذا القول ، لم يعد له من قيمة كبيرة في هذه الأيام : فان ديوكليسيانوس لم يتوصل الى هذا النظام إلا تدريجياً ، بخضوعه لشتى ضروب الضغط وتبديل مقررات املتها انتهازية عملية . ولكن ما لا ريب فيه مع ذلك ، هو ان نظام حكومة رباعية قد قام بعد تسلمه الحكم ، وان واضح هذا النظام قد اعتقد بأنه وضع حداً بواسطته للأزمات التي غالباً ما تعرض لها العهد .

قضى هذا النظام بتعيين امبراطورين في آن واحد ، يكون أحدهما ، رسمياً ، شقيقاً للآخر ، ويكون لهما الصلاحيات نفسها والألقاب عينها ، على ان يعتبر احدهما بمثابة البكر اي « الأقوى » و « الاول » بغية تحاشي كل خلاف بينهما . كما قضى بأن يعين ، الى جانب هذين الامبراطورين « قيصوان » يكون كل منهما مساعد الامبراطور الذي اختاره لجدارته دون أي اعتبار للنسب الطبيعي - فقد أقصي بعض الابناء - وتبناء حين اختياره . أضف الى ذلك ان كل قيصر كان يخلف امبراطوره حين وفاته او استقالته . ولم يتردد ديوكليسيانوس في اصدار قرار يقضي على كل من الرؤساء الاربعة بالاستقالة في مستهل السنة العشرين لممارسته السلطة . وقد استقال هو نفسه في اول ايار (مايو) من السنة ٣٠٥ ، متجاوزاً الأجل بسبعة عشر شهراً فقط بغية ارغام « اخيه » مكسيميانوس على احترامه ، ومتيحاً بذلك ارتقاء القيصرين الى مصف امبراطور ، واختيار قيصرين جديدين .

أمام هذا النظام ، لا نعلم في الحقيقة ، ما هو الأجدر باعجابنا : الابتكار ، أم الصرامة ، أم السذاجة . فهو قد استازم مبدئياً المحافظة الدائمة على الاتفاق ، أقله بين الامبراطورين . وقد أهمل بعض المواطنين الفطرية : الرغبة في الاستمرار عن طريق الابناء والأحفاد ، النفور من الاستقالة ، وجزع القياصرة بالتبني ، وبأس الابناء المحرومين من الإرث الوالدي . اجل قضى الاختبار بأن لا يستسلم لهذه الأوهام امبراطور استقال في سن الستين . ولكنه استطاع التأكد ،

قبل ان تدركه المنيية في السنة ٣١٣ ، من فشل نظامه وتحلي المسؤولين عنه نهائيا . فقد سددت له الضربة الاولى منذ السنة ٣٠٦ ، حين سارع الجيش المرباط في بريطانيا ، الذي توفي الامبراطور كونستانس كلور بين وحداته ، بالناداة بابن الفقيده ، قسطنطين ، دونما اكتراث لقيصره . ومنذ السنة ٣١٠ كان في العالم الروماني عشرة اشخاص يحملون لقب امبراطور ، لا يدخل في عدادهم ديوكليسيانوس الامبراطور الشرقي : فأخذت الفوضى تخيم مرة أخرى .

بعد حروب طويلة باهظة الثمن ، استعادت الامبراطورية السلم الداخلي حل قسطنطين المترجرج بقيادة سيد فرد ، هو قسطنطين الذي لم يأبه للعودة الى النظام الرباعي . واذا استحال القول بأنه لم يفكر بأمر الخلافة ، فمن غير المعقول ان المقررات الوحيدة التي اتخذها تقابل مشاريعه النهائية . فهو قد اقتصر ، قبل وفاته بسنتين ، على تقسيم الاراضي الامبراطورية خمسة اجزاء ، أسندت ولاية ثلاثة منها ، وهي الاجزاء الكبرى ، الى ابنائه الثلاثة ، وولاية الجزئين الآخرين الى اثنين من ابناء اخوته .

فهل هذا حله الحقيقي يا ترى ؟ اذا كان الجواب ايجابا ، فمعنى ذلك انه كان قبل المير وفنجيين Mérovingiens والكارولنجيين Carolingiens ، بزمان بعيد ، اول من ذهب حتى المحال في تطبيق مفهوم غريب هو مفهوم الدولة الملكية كإراث عادي . ولكن ذلك يعني اما تصديق الدولة واما الالتقاء بها في منازعات جديدة ، في حال انه يستحيل الاعتقاد بإمكان وجود مثل هذا العمه عند ذاك الذي صادف صعوبات كثيرة في اول عهده . فالأجدر بناء من ثم ، الاعتقاد بأنه احتفظ لنفسه ، بعد امتحان الامراء الخمسة ، بحق الاختيار وتعيين الامبراطور الحقيقي الذي يخلفه في دور التنسيت . ولكن الموت لم يترك له الوقت اللازم لذلك .

لنضع حدا لهذه النظرة التاريخية التي لم تضعنا ، على كل حال ، امام اي حل جديد . اما الجديد الذي تحقق ، فعملي اكثر منه قانوني ، وفي ذهنية حكم الجماعة في استمرار الوحدة المسؤولين والرعايا اكثر منه في المقررات الامبراطورية .

فمن جهة ، ما عادت السلطة العليا لتتجسد الا استثناء في امبراطور فرد . فقد ملك قسطنطين وحده ثلاثة عشر سنة ، من السنة ٣٢٤ حتى وفاته . ومنذ السنة ٣٥٣ ، تعاقب طيلة عشر سنوات الاباطرة : كونستانس الثاني وجولييانوس وجوفيانوس . ولكن الملك الفردي ، لن يعود بعد ذلك ، إلا خلال الاشهر الاربعة التي سبقت موت ثيودوسيوس في شهر ك ٢ (يناير) من السنة ٣٩٥ ؛ ولا وجود له مع ذلك الا عمليا ، لا قانونا ، اذ ان اخوين ، هما ابنا الإمبراطور ، قد حملا حينذاك لقب امبراطور ايضا . فمدة عودته قصيرة جداً : اذ ان الشراكة كانت ضرورة ملحة لأسباب عملية .

بيد انه يحذر بنا ان لا نخطئ في فهم هذا الواقع : فالمقصود شراكة وبمحبة لا تقسيم اقليمي ، او دستوري اذا جاز التعبير . الامبراطورية واحدة نظريا مع ان كل امبراطور ، سواء عين

معه قيصر ام لا ، او امبراطور آخر أقل نفوذاً ، كان مكلفاً عملياً ادارة قسم منها او الدفاع عنه . ولم يكن أي امبراطور جديد ليُقبل رسمياً في هذه الهيئة إلا بعد موافقة زميله او زملائه ، ولم تكن وحدة التشريع شيئاً نظرياً فحسب -- دون ان نرى حتى اليوم ، على كل حال ، كيف توصلوا الى الابقاء عليها . والمصير المختلف الذي قرره البرابرة « لشطري » الامبراطورية هو وحده بالنتيجة الذي أفضى الى التمييز بين امبراطورية شرقية وامبراطورية غربية ، وقد تكرس هذا التمييز في الوقائع زمناً طويلاً قبل الاعتراف به رسمياً . لا بل ان الاعتراف الرسمي لم يحصل قط في العصور القديمة مهما تجاسرنا في اطالة هذه العصور . ففي السنة ٤٧٦ ، حين اعاد « الاسكير » اودواكر (ابن اتبلا) الى القسطنطينية ، التي كان متربعاً على عرشها الايزوري تاراسيكونديس باسم زينون اليوناني ، الشارات الامبراطورية الموجودة في ايطاليا ، اعتبر رجال القانون الشرقيون ان وحدة الامبراطورية ، التي ما زالت قائمة في نظرهم ، قد توطدت في الواقع : وهذه المزاعم هي التي يستند اليها جوستينيانوس في وقت لاحق قريب . ولكن « الاجماع » ، وهو موضوع تغن دأب ، قد فقد معناه منذ زمن بعيد .

قبل ان يتحقق كل ذلك ، أضرت تعدد الاباطرة بالامبراطورية . وكان عجباً ان يسود الاتفاق فيما بينهم بصورة دائمة . وجرت اقامتهم في مقرات بعيدة الى ازدواجية البلاطات والجهزة المركزية . وقد اصطدم تصميم الملوك على الاتفاق ، حتى ولو كان مطلقاً وحازماً ، بشق بوادر البطء او اقله بانائية مستشاريهم ودوائهم وحتى الاهالي انفسهم . اضاف الى ذلك ان العمل العسكري ، الذي يستلزم وحدة القيادة ، قد تجزأ أو تقهر أو ارتدى طابع السرعة بفعل الجهل أو الحساسة : فان فالنس مثلاً ، رغبة منه في احراز النصر منفرداً ، قد هاجم القوط امام اندرينوبولس دون ان ينتظر وصول الامبراطور الآخر الذي كان متوجهاً لنجدة . وهكذا فان العهد الامبراطوري الثاني ، الذي جلبته الظروف الى الحكم الجماعي ، قد تأثر بمساوئه .

هناك جدة اخرى لامراء فيها ، الفكرة السلالية . لم يعرف القرن الرابع الفكرة السلالية ما عرفه القرن الثالث ، وحتى القرن الاول ، من اضطرابات . فبعد ان شهد وفشل الاغتصابات سلالة قسطنطينية وسلالة فالنتينيه ، ترك للقرن الخامس سلالة ثيودوسية . أجل لم تكن الجدة في اشتراك الابن أو الابناء مع ابيهم ، ولا في استمرار حكمهم ، زمناً طويلاً أو قصيراً ، بعد وفاة هذا الاخير ، بل في لجوء الامبراطور نفسه الى عائلته : فقسطنطين قد فكر بابناء اخوته ، وفالنتينيانوس الاول قد اشرك اخاه فالنس معه . وبلغت الفكرة العائلية من القوة ما حملهم على ايجاد رابطة زواجية بين سلالة واخرى : حين بلغ غراسيانوس السادسة عشرة من عمره تزوجه ابوه فالنس من حفيدة قسطنطين البالغة من العمر ١٣ سنة ، ولم يتزوج ثيودوسيوس من ابنة فالنتينيانوس لمجرد جمالها فقط .

لا يعني كل هذا ان تاريخ هذه السلالات قد استمر هادئاً ابداً . فان تاريخ العائلة القسطنطينية

بنوع خاص يقدم لنا امثلة متعاقبة وافرة عن مآسي البلاط والاعتيالات والخصومات بين الاخوة التي ادت الى الحرب الاهلية . وحدثت ايضا ثورات واغتصابات رافقها اغتيال الامبراطور الشرعي . بيد ان اية حادثة من هذه الحوادث العنيفة ، على نقيض ماجرى في القرون السابقة ، لم تنته بانتصار المقتصب . ولعله من حسن طالع جوليانوس ، الذي نادى به جنوده امبراطوراً في لوتيسيا ، ان مات ابن عمه قسطنطين الثاني قبل ان يصطدم بالجيشان . وهو الثائر الوحيد في ذلك العهد الذي نجحت محاولته ، وليس انتاؤه الى العائلة القسطنطينية بغريب عن نجاحه .

يبدو جلياً من ثم ان شعوراً بالاخلاص للسلاطة قد بدأ يظهر ويؤثر حينذاك على الرغم من موانع كثيرة . ولعل افضل دليل على ذلك ان عدم كفاءة أعقاب ثيودوسيوس سياسياً وعسكرياً لم تحل دون موتهم موتاً طبيعياً . ولم يحدث ان اغتيل احد حفدته إلا في السنة ٤٥٥ : ومنذ نشأة الامبراطورية لم يقدر قط لأباطرة على مثل هذا الهزال ان يستمروا في الحكم هذا الوقت الطويل . والدليل الآخر هو عدد القادة البرابرة الضئيل - ثلاثة او اربعة - الذين حاولوا ، على الرغم من القوة التي تمتعوا بها ، اغتصاب اللقب الامبراطوري . فقد اقترب الهدف الذي كثيراً ما طمح اليه دون جدوى كافة الاباطرة منذ اربعة قرون : ان احترام الارجوان الامبراطوري كان سائراً ، تدريجياً ، في طريق الاستقرار . ويموز لنا ، بهذا الصدد ، ألا نجزم بعدم جدوى جهود الملكية في العهد الامبراطوري الثاني في تنظيم انتقال السلطة .

ومع ذلك ، فمهما يكن من ضالة عدد الاضطرابات بالنسبة استمرار داء الامبراطورية المزمع استمراريات منطق تخلخل النظام ، فان الاضطرابات قد قامت ، ويمرضنا افعالها لعدم فهم حضارة هذا العهد . اجتاحت الامبراطورية حملات داخلية تصادم فيها جيشان تتمهدهما الامبراطورية للدفاع عنها . وقد عرفت الامبراطورية ايضا مذابح الحروب الاهلية وشدة وطأتها بالاضافة الى ما عرفت من وطأة وعنف الحروب الاهلية . وقد رافق هذه النزعات ، أكثر من مرة طلبات التدخل الاجنبي التي شكلت خيانات حقيقية . فهي قد حولت الجنود ابدأ عن القيام بواجبهم ، وخدمت ، باضعاف حراسة الحدود ، العدو الذي كان يتحين الفرصة للاعتداء عليها : فادت كل حرب اهلية الى تجسيم الخطر الخارجي .

قام النظام بما لم يقم به أسلافه لمعالجة داء الامبراطورية الوراثي هذا . ولكنه لم يتوفق إلا الى تخفيف ضرره فقط . ولكن هذا الضرر ما زال كافياً لأن يلحق بالناس إساءة فوق إساءة في ممتلكاتهم وألماً فوق ألم في أجسادهم وحزناً فوق حزن في نفوسهم .

٢ - النزاعات الدينية

كان باستطاعة الديانة وحدها ، امام هذه الاحزان ، ان توفر التعزية والسلوان . وسنبين في الصفحات التالية انها لم تتخلف عن القيام بهذا الواجب : فان الآلام النفسية المبرحة والمستمرة

قد ساندت الانطلاقة التي أحييت الشعور الديني ووطدته منذ القرن الثاني . ولكن الحرارة التي رافقت هذا الشعور قد أثارت بدورها بعض النزاعات التي غالباً ما تشابكت بالنزاعات الأخرى ، الحروب الأهلية وحتى الخارجية ، التي زاد هواها عنف التعصب الديني .

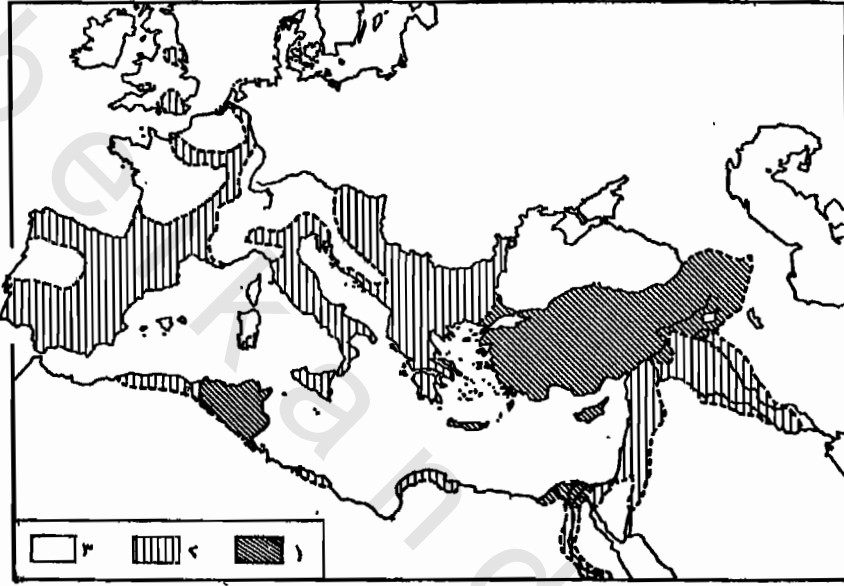
إذا كان القرن الثالث قد دشّن الاضطهادات الكبرى ضد المسيحيين ،
 فإن هذه الاضطهادات ، قد توقفت في السنة ٢٦٠ وعرفت الديانة
 المسيحية حينذاك أربعين سنة تقريباً من السلم الخارجي أفادت منها
 السلم الديني وانتشار الديانة المسيحية في أواخر القرن الثالث
 أفادة كبيرة .

ما كانت الحكومة لتستطيع تجاهل وجودها أو انتشارها العلتين . فلم يتستر رؤساءها واتباعها بل عملوا على مرأى من الجميع : فقد شيدت الكنائس الجديدة وأحدثت المدافن . وبعد ان استعاد أوريليانوس انطاكية من التدمريين اضطر للفصل في نزاع قسم المسيحيين في هذه المدينة : ففصل فيه لمصلحة أولئك الذين يؤيدون أساقفة روما وإيطاليا ضد اسقف انطاكية السابق ، بولس الساموزاتي الذي عزل بسبب الهرطقة المنسوبة اليه . لا ريب في ان علائق بولس بزنوبياً ، كان لها أثرها في القرار الإمبراطوري . ولكن في هذا القرار ، مع ذلك ، اثباتاً لتساهل رسمي لم يدخل عليه ما يعكسه طيلة النصف الأول من ولاية ديوكليسيانوس . فلا عجب من ثم اذا تكاثرت الارتدادات التي حصل بعضها في بطانة الإمبراطور نفسها . ومنذ القرن الثالث أصبح المسيحيون أكثرية في آسيا الصغرى وفي جزء من تراقيا ؛ وفي الأماكن الأخرى ، لا سيما في الشرق ، كانت الديانة المسيحية آخذة بالانتشار . ورغبة في الاختصار نقول ان افسيفيوس ، اسقف قيصرية ، ربما اعتمد المغالاة في « التاريخ الكنسي » رغبة منه ، عن طريق المقابلة ، في اظهار فظاعة الاضطهاد القريب ؛ بيد ان اللوحة المطوقة التي يرسمها حينذاك عن علائق المسيحيين بالمجتمع العلماني تبدو ، في خطوطها الكبرى ، منطبقة على الواقع .

وفجأة ، تبدل كل شيء .

اضطهاد ديوكليسيانوس فما هو سبب هذا التبدل يا ترى ؟ لكل مؤرخ تقريباً تعليله الخاص . فدون أن ندخل في التفاصيل ، نرى أن أقرب الأدلة للعقل والمنطق هو ذاك الذي يربط بين اضطهاد ديوكليسيانوس والنظام السياسي الديني الذي انتهى الى إقراره : وسنرى ان الانحراف عن الوثنية كان معناه ، في نظر المسؤولين ، التباهي بعدم الإخلاص وعدم الموالاة . أضف الى ذلك ان بعض الحوادث قد جرت في الجيش ، أقله في افريقيا : كإقدام بعض المجندين الجدد او القدماء ، وحتى الضباط ، على رفض القيام بالخدمة العسكرية . ولم يبرهن المسيحيون جميعهم عن انهم رعايا خاضعون تماماً للموجبات المدنية . وما زالت الهرطقة المونتانية ، التي رأى رأيها تروتيانوس Tertullien الافريقي في البداية ، تنبت فروعاً على الرغم من حكم الكنيسة عليها . فقد يكون ديوكليسيانوس ، ذلك الجندي الذي أصلح الدولة ، قد رغب في إعادة الوحدة

والنظام الادبيين يمثل النشأة التي اعاد بها الوحدة والنظام في الحقول الاخرى. ولعله ، اخيراً ، بحسب التقليد المسيحي ، تأثر بالحاح قيصره غاليريوس ، الوثني النشط ، وبآراء العرفيين . ولكننا مضطرون للاعتراف بأن هذه التفسيرات كلها لا تشبع نهم العقل ، لأن كلا منها يقابله تفسير آخر يضعفه . ولا تزال معضلة أسباب الاضطهاد ، دون حلٍ منطقي. ولكن الامبراطور نفسه ، بصرف النظر عن كل الاعتبارات ، لا يخضع دائماً للمنطق وحده .



الشكل ٢١ - النصرانية في اواخر القرن الثالث

١ - مناطق تضم نسبة مرتفعة ، وربما اكثرية ، من المسيحيين ؛ ٢ - مناطق دخلتها النصرانية ؛ ٣ - مناطق لم تدخلها النصرانية بعد .

ولكننا ندرك ادراكاً أفضل التدبير المتعصب الاول الذي استهدف المانويين في السنة ٢٩٧ . فقد اشعت عقيدتهم بنوع خاص من اراض خاضعة للمملكة الساسانية ، أي من اراض عدوة . وان البراءة ، التي ساوت بين ممارسات تقواهم وممارسات السحر والتي قضت بنفيهم أو بموتهم ، قد صدقت في الاسكندرية في اعقاب استعادة مصر حيث ساند الملك الفارسي أحد المفتصبين . فكانت من ثم تدبير حرب وتدبير سياسة دينية معاً .

وكان ما صمم ديوكليسيانوس على تنظيمه ضد المسيحيين تدبيراً لا يعرف للشفقة معنى ايضاً . ولكن عمله هذا قد نفذ في عهد متأخر وبصورة بطيئة ولم يصل إلا تدريجياً الى تدابير مماثلة لتدابير داسيوس وفاليريانوس بشمولها وعنفها . فتقرر في الدرجة الاولى تطهير البلاط والجيوش والادارات واقصاء الذين يرفضون تقديم الذبيحة . ثم جاءت المراسم . فتعاقب اربعة

منها خلال السنة ٣٠٣ وفي اوائل السنة ٣٠٤ ، وارتدى كل منها ، بالنسبة لما سبقه ، مزيداً من الشدة بسبب اشتداد الصراع : وبنوع خاص ، عزيت الى المسيحيين الحرائق التي اندلعت في قصر نيكوميديا الامبراطوري حين اقامة ديوكليسيانوس وغاليوريوس فيه . اقتصر الرسوم الاول على حظر الاجتماعات و اقرار هدم الكنائس ومصادرة الكتب المقدسة واتلافها . ثم أرغم العلمانيون أخيراً ، على غرار ما حدث قبل ذلك بخمسين سنة ، على تقديم الذبيحة ، تحت طائلة عقوبات متفاوتة الصرامة قد تصل الى الموت احراقاً .

يعتبر التقليد المسيحي هذا الاضطهاد أقسى الاضطهادات شدة . ومما يكن من الامر ، فانه أطولها امداً . ولكن مدته وشدة قد اختلفتا كثيراً باختلاف مناطق الامبراطورية . وبسبب ازدياد عدد المسيحيين الذي زاد من المحالطات في الحياة العامة ، لم تنفجر الاحقاد الشعبية انفجارها في الماضي ، على ما يبدو ، بغية ارغام الموظفين والقضاة على استمبال الشدة . فقد خضع كل شيء بالتالي ليمول هؤلاء الشخصية ، الحليمة جداً في أغلب الاحيان ، وفي الدرجة الاخيرة للتعليمات المتفاوتة شدة التي يتلقونها . وقد صدرت هذه التعليمات عن الامبراطور او عن القيصر الذي ترتبط به الولايات . ففي غالبا وبريطانيا المرتبطتين « بكونستانس كلور » ، أرفق بالاشخاص وأسمي الى الممتلكات أدنى إساءة يفرضها احترام سلطة ديوكليسيانوس : ومال كونستانس شخصياً الى التساهل لا سيما وقد بدا ضعف الديانة المسيحية في ولاياته خلواً من أي ضرر ممكن . اما في أنحاء الغرب الاخرى فقد كان الاضطهاد عنيفاً ولكنه كان قصير الامد ايضاً لأن مكسيميانوس قد استقال منذ السنة ٣٠٥ . ولم تشتد وطأته اشتداداً طالت مدته إلا في الشرق حيث توقف في السنة ٣١٣ وتجدد حوالي السنة ٣٢٠ ولم ينته إلا بانتصار قسطنطين على ليسينيوس في السنة ٣٢٤ .

اعاد هذا الانتصار وحدة الامبراطورية تحت سلطة سيد فرد ، سيد مسيحي تنصر قسطنطين : هذه المرة . هكذا انتهى - بعد ان أصبح قسطنطين مسيحياً - العهد اقتناع ومصلة المضطرب الطويل الذي ابتدأ في السنة ٣٠٦ ، حين نادى به امبراطوراً ، في بريطانيا ، جنود أبيه المتوفى . ولا مجال للدهشة امام الأهمية التي ترتبها هذه الأحداث وهذا الارتداد ، اذا ما نظرنا الى نتائجها بالنسبة لتطور الانسانية جمعاء في العصور اللاحقة . وقد أثارت هذه الأهمية شتى المناقشات منذ زمن بعيد .

وان ما سهل هذه المناقشات الصفة التاريخية الركيكة والتحيز الواضح في المصادر الأدبية المسيحية التي تعظم قسطنطين على حساب أعدائه المتعاقبين . اصف الى ذلك ان العوامل المختلفة الكثيرة التي كان لها أثرها حينذاك قد زادت في البلبلة والغموض . ثم ان الخصومة قامت بين أشخاص عديدين . ولم يتظاهر أي واحد منهم باللامبالاة الدينية ، لا بل لم يشعر بها : فقد كان العصر مندفعاً بالكلية ، ومن الجهتين ، نحو الحراقات بالتفضيل على العنادية . ومع ذلك فقد جاش في الجميع طموح وحشي ايضاً بحيث يتمدّر معرفة أية عقيدة أو أي طموح قد سيطر على

كل منهم في هذه الفترة او تلك وفي هذه الدرجة او تلك من المنافسة بينهم ، ما لم تتوصل الى الوقوف على سرّ كل نفس على حدة . ولنصف هنا ان كلا منهم قد استند الى اقليم وطمح الى أقاليم أخرى . ولكن المسألة الدينية ، في كل مكان ، قد عبرت عن وجه خاص متميز من أوجه الظروف المحلية . فقد كان بالامكان الاعتقاد بأن لباريس قيمة قداس ، او قيمة براءة فانت على الاقل ؛ غير انه كان بالامكان ايضاً ، من جهة ثانية ، القنوط من الحصول على مساعدة طائفة تسير وراء منافس ، او على حيادها ، وبالتالي القنوط من القضاء عليها . لذلك فان تبدلات السياسة الدينية قد أملاها آنذاك ، في وقت واحد ، الهوى والمصلحة ، بنسبة تختلف باختلاف الطبائع ، والظروف ، والمعلومات والتخمينات حول واقع الرأي العام ، ووحى وحتى رهان الساعة . ولا يمكن لمنازعات متعددة المعطيات كهذه إلا ان تكون معقدة جداً : فكيف لا تبقى حتى اليوم على جانب كبير من الغموض ؟

انها لمنازعات غامضة ولكنها خلاصة . ويعترينا الحجل لاننا لا نستطيع هنا ان نقدم ، الا بإيجاز هزلي ، ام قضية تنجم عنها : قضية ارتداد ، أو بالأحرى ، تنصر قسطنطين . فقد وجدت لها حلول كثيرة وان قريحة المؤرخين من علماء النفس لم تنته بعد ، في الأرجح ، من اكتشاف حلول اخرى جديدة . والجدل قائم اليوم ، انطلاقاً من المصادر المختلفة ، التي يولي النهج النقدي فيها مركزاً ممتازاً للسكوكات ، حول تاريخ هذا الارتداد ، واسبابه ، ونتائجه المباشرة ، وبالتالي حول صدقه وحتى حقيقته . يفسره البعض بوحي الهي نزل على قسطنطين في احدى الليالي التي سبقت المعركة التي شنها على مكسانس ، على ضفة التير اليمنى ، فوق جسر ميلفيوس ، الى الشال من روما ، في الثامن والعشرين من شهر ت ١٠ (اكتوبر) من السنة ٣١٢ ، وهؤلاء يرون عادة في الامبراطور مسيحياً مقتنعاً . وعلى نقيض ذلك فان غيرهم يفسرونه كتظاهر املته ، دون اي اقتناع ، انتهازية سياسية مدروسة . وهنالك ، بين هذين الحلين المتطرفين ، حلول اخرى كثيرة لن نتولى تحديدها أو درسها . فيكفي قولنا اعلاه ان اللامبالاة لم تتمكن من النفوس آنذاك للدلالة على اننا نصرف النظر عن كل حل تستلزمه : فعلى غرار اوغسطس من قبل ، تصرف قسطنطين تصرفاً آخر . ولكن يبدو من المستحيل ايضاً ان ننكر انه قد اعتقد ، باقدامه على تخليص شخصه ، الذي لم يفصل بينه وبين الامبراطور ، بأنه انما يخلص الدولة ايضاً : وان الاله الذي كان قد اولاه النصر على مكسانس ، ثم على ليسينيوس بعد مرور اثنتي عشرة سنة ، لن ينقطع عن ارشاده وحمايته وارشاد وحماية خلفائه . فكان الارتداد بهذا المعنى ، بالنسبة لقسطنطين ، عملية سياسية ايضاً : واذا اعوز تنصره الرقة ، وبقي « خشناً » ، كما قال المطران دوشين ، فقد اعوزه التجرد ايضاً .

تسامل وامتيادات
مهما يكن من الأمر ، فقد كان سيد الامبراطورية مسيحياً : فهل تسير
الاضطهادات في اتجاه آخر ؟

تمشي قسطنطين على مبدأ التساهل . وهو قد ورث التساهل عن والده ، ذلك التساهل الذي

بدا ، خلال هذه الحروب ، لكثير من الناس ، وكأنه الحل الوحيد . وقد اضطر غاليريوس نفسه ، عدو النصرانية اللدود ، الى القول به . فحين أصيب بمرض عضال ، قبل وفاته بأيام معدودة ، في ربيع السنة ٣١١ ، سلم بنشر براءة اعترف فيها صراحة بفشل الاضطهاد وأعاد للمسيحيين حرية عبادتهم : « عليهم أن يبادلوا حملنا بالصلاة لأجل خلاصنا ولأجل الدولة ولأجل نفوسهم ، حتى تنعم الدولة بازدهار تام ، وحتى يستطيعوا العيش في بلادهم بطمأنينة » . ولم تلغ هذه البراءة قط من بعده . وفي اوائل السنة ٣١٣ ، قبل ان يصطدم ليسينيوس « بمكسيمينوس دايا » ، الذي لم يعمل بها في الشرق ، اجتمع ليسينيوس هذا في ميلانو بقسطنطين ، الذي سبق له وانتصر على مكسانس واصبح سيد الغرب . فاسفر هذا الاجتماع عن تعليمات بمكثتنا ان نحفظ لها ، اصطلاحاً ، اسمها التقليدي « براءة ميلانو » . وقد اصدر ليسينيوس امره فيها باعادة الممتلكات المصادرة من المسيحيين ونادى بالتساهل حيال كافة المعتقدات : « بعد البحث بكل عناية عما يمكن ان يكون نافعا لخير وسلام الدولة ، وعما يمكن ، في جملة ذلك ، ان يؤدي خدمة لاكثرية الناس ، رأينا قبل كل شيء آخر وجوب تسوية كل ما هو مختص بالاحترام الواجب للذات الالهية ، بغية اعطاء المسيحيين وكافة المواطنين حرية التمشي على الدين الذي يختارونه » . ولم يضيف قسطنطين شيئاً الى ذلك بعد ان انتصر على ليسينيوس في السنة ٣٢٤ واصبح مضطهداً بدوره ، حين اعلن ، محاولاً طمأنة وثنيي الشرق : « ليسر كل منكم على الرأي الذي يفضل » .

غير ان هذه التصريحات لم تحل دون فقدان توازن كان من المستحيل على كل حال المحافظة عليه اذ ان الرجل والامبراطور كانا شخصاً واحداً .

انه لمن الشطط لعمرى ، على الرغم من بعض الحوادث النادرة ، الكلام عن الاضطهاد ضد الوثنية . فقد استمرت طقوسها في الحياة الرسمية ؛ وهي الضرورات المالية التي اوجبت جرد ممتلكات المعابد ، دون ان يكون لدينا اي دليل على المصادرة . ولم يقصد كذلك سوى ايجاد المساواة من ترميم الكنائس القديمة ، وتشيد الكنائس الجديدة ، واعفاء الكليروس المسيحي من الموجبات المالية الذي تتبع به الكهنة الوثنيون من قبله والذي لن يلبث الكهنوت اليهودي ان يحصل عليه . وكان من الطبيعي ايضاً ان تبدل الشرائع التي لا تأخذ الاخلاق المسيحية بعين الاعتبار : بالغاء العفويات القانونية التي اصابته منذ اوغسطس ، في مادة الارث ، إلغازين والمتزوجين الذين لم يرزقوا اولاداً .

ولكن قسطنطين ذهب الى ابعد من ذلك . فان بعض الذبائح على الاقل - ونحن لا نعرف اياً منها - قد حرمت . وغدا يوم الأحد يوم الراحة القانونية وحظر القيام فيه بأي عمل رسمي غير الاعتاق . واعتبر القانون الاعتاق الذي يحصل في الكنيسة ثابتاً شرعياً كذاك الذي كان يحصل بحسب الاجراءات السابقة . وتقلد الاساقفة حق السلطة القضائية على اعضاء اكليروسهم . واعترف بتحكيمهم المبرم في الدعاوى المدنية بين العلمانيين حتى ولو لم يطلب هذا التحكيم سوى احد الطرفين فقط . وقد بلغ من افراط هذه الامتيازات ان فرض احد خلفاء قسطنطين رضى

الطرفين وارتد الاعتراض على السلطة القضائية الجنائية على الكهنة قد توالى حتى اواسط القرن الخامس .

ان مثل هذه التدابير تتخطى إطار الاقتناع الشخصي . وليس لها من تفسير سوى الرغبة في جعل الكنيسة جهازاً رسمياً واشراكها في حياة وسير الدولة وتقوية الدولة بما لرؤساء الكنيسة من تأثير على المؤمنين . وهكذا فان الديانة المسيحية ، بفعل انقلاب الوضع انقلاباً غريباً وشبه محتوم ، اصبحت تدريجياً دين دولة بعد ان كانت في الأمس القريب ديناً محرماً .

ومع ذلك فان الديانة المسيحية كانت ابعد من ان تحرز غلبة نهائية عند وفاة نهاية الوثنية . فما زالت الوثنية محتفظة بمراكز قوية جداً . كان الجيش ، باكثرية ، متمسكاً بها . وما زال ينتسب اليها كافة رجال الفكر المشهورين تقريباً . وما زالت تعتنقها ، بنسبة كبيرة ، لاسيما في روما ، العائلات المجلسية التي تمتلك ثروة عقارية طائلة وتقدم للدولة عدداً لا يستهان به من كبار الموظفين . وكان من الممكن ، لو قدر لامبراطور وثني ان يتولى السلطة بعد قسطنطين مباشرة ، ان يبدل الاتجاه الذي سار فيه قسطنطين تبديلاً دائماً .

أخفق جوليانوس لأنه تأخر في الهيماء وزال بسرعة . وارتسمت ردة فعل وثنية بعده بثلاثين سنة ايضاً ، غذاها فيريوس نيكوماخوس فلافيانوس الاديوب والموظف الكبير ، بعد ان استفاد المجتمع الروماني الرفيع ، حيث نشأت ، من فتور الشعور الديني المسيحي في المفتصب اوجانيوس الذي أصبح امبراطوراً بفضل الفرنجي « اريوغاست » وأخذ يبحث عن عون على ثيودوسيوس الذي رفض الاعتراف به . فهبت « الريح الشمالية » بعنف في وجه جنود اوجانيوس وشلت جهودهم على ضفاف « النهر البارد »^(١) ووضعت حداً لردة الفعل في شهر ايلول من السنة ٣٩٤ . وهكذا فلمرة الثانية كانت الغلبة « للجليلي » بتوجيهه الريح الشمالية كما سبق له ووجه الرمح الفارمي الى جنب جوليانوس . انتحر فلافيانوس ؛ فارتد ابنه البكر وحصل بذلك على استعادة ممتلكات أبيه كما حصل ، مرتين متواليتين ، على وظيفة « حاكم المدينة » التي سبق له ومارسها في أيام المفتصب .

اذا ما استثنينا هذه الفترات القصيرة التي لم تجد قتيلاً ، فان السلطة قد بقيت في أيدي المسيحيين منذ قسطنطين . وبدني ان كل امبراطور قد تصرف بحسب مزاجه الشخصي ، وبحسب الظروف احياناً . فعاد بعضهم الى فكرة التساهل : فأشهرها فالتيانيانوس الاول واخوه فالنس في قانون سنائه في السنة ٣٩٤ وجدداه بعد ذلك بسبع سنوات . ولكن التطور جاء على العموم متصلاً : فقد سيطرت التقوى على الجميع يدفع اليها كثائر الارتدادات والخوف من التوسلات السحرية وتشجيع هاتفي القيب للمتأمرين . ولا تفسير لاحتفاظ الامبراطور بلقب الحبر الاعظم سوى رغبته في مراقبة الوثنية مراقبة اجدى . وكان ثيودوسيوس اول من انقطع

(١) يعرف اليوم باسم « فيباكو » وهو احد زواقد الـ « ايسوتزو » .

عن حمله حين اعتلائه العرش: فجاء انقطاعه هذا اثباتاً لفصل الدولة عما حاول مكسيمينوس دايا وجوليانوس تنظيمه كنيسة وثلية مع ما يستلزمه ذلك من مراتب كهنوتية . وقد سبق لكونستانس الثاني ان امر بأن ينزع من قاعة جلسات مجلس الشيوخ الروماني المذبح المنسوب امام تمثال إله النصر الذي كان الشيوخ الوثنيون يحرقون عليه بعض البخور ؛ بيد ان جوليانوس اعاده في وقت لاحق ؛ ولكنه ازيل في السنة ٣٨٢ ، ولم يظهر مرة اخرى ، ولفترة قصيرة ، على الرغم من الاعتراضات المتكررة ، إلا في عهد اوجانيوس . ونحن نعرف تمام المعرفة قضية «مذبح النصر» هذه بفضل الجدل الادبي الذي أثارته ، ومن الجائز ان نولي حوادثها قيمة الحوادث الرمزية .

ولكن الأخطر من ذلك هو خنق الوثنية اقتصادياً بمصادرة او تدمير ممتلكاتها وبتحریم تقديم الذبائح واستشارة هاتفي الغيب والعرافين وزيارة المعابد ، أي كل ما يدر دخلاً عارضاً . ولعل ما هو أدهى من ذلك ان هذه التجريمات قد استهدفت مثل هذه الاعمال بالذات كظواهر الايمان الفردي . فسنت شرائع صريحة وقاسية في السنة ٣٥٦ قضت ، تحت طائلة عقوبة الموت ، بالكفّ عن « الاحتفال بالذبائح » ، و « عبادة الاصنام » ، و « الدخول الى المعابد » . كانت هذه التدابير سابقة لأوانها ، فاضطر المسؤولون الى تعديل هذه القوانين . ولكن ثيودوسيوس قد نشر في ٨ ت ٢ (نوفبر) من السنة ٣٩٢ قانوناً سرى مفعوله هذه المرة قضى بفرض غرامات ثقيلة على المخالفين والموظفين المهملين وحظر كل عمل عبادة ، ولو لم تراققه الذبائح ، حتى داخل المنازل والاملاك الخاصة . ففضي منذئذ على الوثنية التي ما لبثت ان زالت عملياً خلال القرن الخامس .

فلا ريب من ثم في ان مساندة الدولة القوية قد خدمت انتشار الديانة المسيحية الكنيسة والدولة التي ما كانت ، لولا هذه المساندة ، لتنتصر بمثل هذه السرعة . وهل كلف من المقدّر ان تلتصق يا ترى ؟ ان هذا الاعتقاد لجائز . اما تبياناه فأمر آخر ، وليس باستطاعة التاريخ ان يفصل في هذه المسألة . وكذلك فان التاريخ لا يستطيع البت فيما اذا كانت الكنيسة ، في النتيجة ، قد رضيت حقاً عن هذه المساعدة . فالارتدادات الحاصلة تحت الضغط الرسمي تمثل في نظرها مكاسب قد تكون ظاهرة أكثر منها واقعية : وان نفوساً كثيرة لم تتناولها حينذاك عملية التطهير المسبقة الضرورية . اصف الى ذلك انها ، من حيث علاقاتها بالدولة ، قد فقدت بعض استقلالها بمسارعتها الى طلب مساعدة « السلطة المدنية » على الهراقة والحصول على هذه المساعدة : ففي الشرق حال استمرار السلطة الامبراطورية دون اقلاتها من قبضة رضيت بها في السابق ، ولكن اصدار الحكم في كل ذلك منوط بالمفهوم الشخصي الذي نكوّنّه عن المسيحي والديانة المسيحية والكنيسة .

يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالدولة ، اقله من زاوية نظرنا اليها في هذا الفصل . فقد رغبت الدولة ، بشخص قسطنطين ، في توطيد سلطتها ، ان لم يكن بالوحدة الأدبية التي قد يوفرها لرعاياها ، في أجل قريب ، انتصار ايمان يحل محل الوثنية الخائفة ، فأقله بالعهد الذي قد تجده

في الكنيسة بغية تأمين اخلاص المؤمنين الكامل . ورضيت ببعض التضحيات سعيًا وراء هذه الغاية . ولكن لن يتجاسر أحد على القول بأنها حصلت على المكافأة المرتقبة : فهي ، على نقيض ذلك ، قد اصطدمت ، بفعل هذا الواقع ، بعراقيل جديدة .

خسرت هي أيضاً بعض استقلالها . وقد سبقت الإشارة الى اعطياتها وتنازلاتها الاميرية والقانونية . واضطر الامبراطور من جهة ثانية لأن يحسب حساباً ، لا لأخلاق فحسب ، بل لنصائح أيضاً قد ثبتت له قيمتها منذئذ ، بحجج جديدة ، رجال يتصفون بالتصلف احياناً ، وقد حدث أكثر من مرة ان الرجل السياسي ، في ذاته ، قد خضع للمؤمن . وان في مجزرة تسالونيكي التي أدت في السنة ٣٩٠ الى استحكام الخلاف بين ثيودوسيوس وأسقف ميلانو القديس امبروسيوس أشهر مثل عن هذه الحوادث التي نرجح انها لم تكن مكدرّة فقط لكبرياء الامبراطور . ففي أعقاب شغب انطلق من الملعب وأدى الى قتل موظف كبير ، اصدر ثيودوسيوس ، تحت تأثير الغضب ، أمراً لم يرجع عن رأيه فيه إلا بعد قوات الأوان : طوّق الجنود الملعب ثم قتلوا طيلة ساعات ، ألوفاً من المشاهدين . أنذر امبروسيوس الامبراطور آنذاك بأنه لن يحتفل بالقداس ، بحضوره ، قبل ان يكفّر عن عمله . تردّد المذنب طيلة ستة أشهر على الاقل ثم تواضع اخيراً : فاعترف بخطيئته علناً وسمح له ، في عيد الميلاد ، بتناول جسد الرب . يستحيل علينا هنا لسوء الحظ ان نبين بالتفصيل في أية مجموعة معقدة من القوانين المنشورة والمفاعة تدخل هذه القضية . ولكن لما اوردنا عنها ، على الاقل ، فضل اظهار مدى السلطة الادبية التي تعرض سيد الدولة المطلق للخضوع لها منذ الآن . فعلى الرغم من العطف الذي قد يثيره فينا موقف الاسقف من هذه القضية بالذات ، علينا ان ندرك حقيقة مغزاها : ان مبدأ السلطة المدنية نفسه في خطر ، وان المنازعات مقبلة كثيرة أصولها في ما أوجزناه .

على ان ذلك لم يقد ، على القور ، أسوأ ما تعرضت له الدولة . وما كانت الدولة والمهرطقات قسطنطين ، بعد ان جعل من الكنيسة نصيراً له ، ليرضى بأن تنقسم على نفسها ، فادارة النفوس يجب ان تكون واحدة على غرار ادارة الاجساد ؛ ويجب بالتالي منع كل انشقاق . ولكن المصادفة قضت بأن يصبح الامبراطور مسيحياً . في فترة قيام مشادات عنيفة خلقت البلبلة في صفوف الاكليروس وبين المؤمنين .

نشأت احدى هذه المشادات عن الاضطهادات . فقد اخذ على بعض الأساقفة وقوفهم موقفاً مرناً جداً من السلطات او قبولهم ، بمزيد من الحلم ، بعودة الملحدين . انفجرت مشادة من هذا النوع في مصر ولكنها بقيت محصورة ولم تدم طويلاً . وانفجرت اخرى أشد خطورة في افريقيا ، زادت في حدتها المخاصمات الشخصية والخلافات حول أصول الاجراءات ، فأفضت منذ السنة ٣١٢ الى تعيين اسقف منشق في قرطاج . كان هذا الانشقاق ، المعروف بالدوناطي نسبة لباعثه الرئيسي ، دوناط ، معداً ، طيلة أكثر من قرن ، لأن يعرف نجاحاً كبيراً لا سيما في نوميديا ، متعهداً في مدن كثيرة اساقفته وكهنته وكنائسه ؛ وكان لا يزال مستمرّاً

في اواخر القرن السادس ، مستعداً للاستفادة من كل فرصة مؤاتية .

اضفت المشادة الاخرى خطورة خاصة على المجادلات الكبرى حول المسيح التي يحذر بنا ان نمود اليها فيما بعد رغبة منا في تبيان التقدم الذي حققته في ايضاح العقيدة . منذ كانت ليسينيوس حاكماً في الشرق ، اقدم كاهن اسكندري اسمه آريوس على اتهام اسقفه بالهرطقة . القى عليه الحرم ، فذهب الى آسيا حيث استفاد من قوة حجته وتضلعه في اللاهوت وحتى في الفلسفة واستمر في المجادلة موضعاً بقوة منطق حقيقة العقيدة التي دعيت بالآرية نسبة لاسمه . كان لدعاوته صداها البعيد حتى بين الاساقفة ، وحين استولى قسطنطين على الشرق بغد انتصاره على ليسينيوس ، علم واجماً بقيام هذه المشادة التي اوجدت في كل مكان انقسامات عميقة .

امام هاتين المشادتين ، رأى قسطنطين التدخل ضرورياً لاسيما وقد طالبه الجميع بذلك . فلجأ الى المجامع اعترافاً منه بعدم الاختصاص : مجمع « آرل » في السنة ٣١٤ لمعالجة الهرطقة الدوناتية ؛ وجمع نيقيا في السنة ٣٢٥ لمعالجة الهرطقة الآرية . بيد انه لم يسمح لهذا الاخير بالمذاكرة بحرية كاملة ، فضغط الامبراطور ، الذي كانت مستشاره الاول هوسيوس اسقف كوردوبا حتى تعتمد الصيغة التي اصبحت « قانون نيقيا » . ولمس من نفسه القدرة على اعتمادها فنفي آريوس وانصاره الرئيسيين . وهكذا تدخلت الدولة في خلافات النصرانية الداخلية حتى تلك التي لا علاقه لها بها .

وليس هذا كل ما جرى . ففي كلتا القضيتين لم يثبت قسطنطين على قراراته الاولى . فعني طوعاً او قبل باعادة النظر فيها ، واصفى الى الاعتراضات ونزل عند تأثير اعضاء عائلته أو اهل البلاط . حله ذلك على اجراء تبديلات دائمة . فلوحق الدوناتيون ثم اغضي عنهم ثم لوحقوا مرة اخرى . ومنذ السنة ٣٢٧ ، بعد ان استدعى آريوس للتحديث اليه ، اعتبر قسطنطين عقيدته عقيدة قوية ، اما اسقف الاسكندرية الجديد ، اثناسيوس ، الذي رفض الانحناء امام اعادة الاعتبار هذه ، فقد عزل واقصي . وقد رافق كلا من هذه التقلبات ضغط على مجامع الاساقفة وتعليمات الى الموظفين .

ان هذا التصرف المستبد يتصرفه قسطنطين اوجد تقليداً سار عليه خلفاؤه الا القليل منهم ، فوضعوا هم ايضاً القوة العامة في خدمة وحدة الايمان والنظام . وقد جرّم ذلك الى التحزب بحسب اقتناعهم الشخصي الذي غالباً ما تملبه تربية تلقوها او دسائس تحاك من حولهم . اجل لقد لمسوا عادة ان رأيهم تعوزه السلطة الادبية . ولكنهم كانوا يحاولون حينذاك اثباته شرعاً عن طريق مجامع تتفاوت شمولاً وتحضراً وتراقب وتوجه بكل عناية . وزعيت الادارة ، من جهة ثانية ، في فرض الطاعة . فاستنفدت الدولة جانباً كبيراً من قوتها باستخدام هذه الاساليب . واصطدمت بمقاومات افقدتها الاعتبار احياناً . وما زاد في الطين بلة ان تدخلها نفسه ، الذي اعوزه الاستمرار ، قد زاد في امد وخطورة اضطرابات كان بالامكان تهدئة بعضها في وقت مبكر قصير .

لم يتبدل موقف الأباطرة المبدئي من الدوناتية الافريقية : ولم يساندها أي منهم علناً . ولكن أكثر من واحد ، ابتداء من قسطنطين ، قد سلكوا بتخفيف أعمال القمع . أضف الى ذلك أن الانشقاق قد استمر لأنه جسد استياء وهياج الريفين البائسين الثائرين على النظام القائم . فتضررت الكنيسة ، بهذا الصدد ، من جراء الحماية التي رغبته الدولة في توفيرها لها .

بيد ان المشادات حول الآرية بنوع خاص هي التي اظهرت المساواة المتبادلة الناجمة عن التدخل الامبراطوري في الشؤون الروحية . فلم تعرف هذه الهرطقة عملياً انتشاراً واسعاً في الغرب . وقد اصطدمت في الشرق نفسه اخيراً بالشعور الشعبي الذي اثاره وغذاه تصلب اثناسيوس ، ولكنها مدينة بقوتها وديمومتها الى انها حصلت تكراراً على ايد الامبراطور : كونستانس الثاني ، سيد الشرق وحده اولاً وسيد الامبراطورية جمعاء آخرأ ؛ وفالنس ، في الشرق ؛ واخيراً جوستينا ارمة فالنتينيانوس الأول والوصية على ابنها ، في أليريا وايطاليا وافريقيا . فنشأت عن ذلك منازعات ملتوية لانهاية لها يتعذر درس طفوراتها الكثيرة . وقد انتقلت المشادة الدينية بين الاباطرة الشركاء أو بين الاباطرة الشرعيين والمغتصبين الى الصعيد السياسي احياناً فرافقتها تبدلات وحوادث لا يحصى لها حد . ويكفيها لاعطاء فكرة عن تصلب بعضهم فيها بمن بلغت جسارتهم حد إهانة السلطة الامبراطورية ، ان نذكر ان اثناسيوس ، الذي عاد عن المنفى بعد وفاة قسطنطين مباشرة ، ارغم ، قبل ان تدركه المنية في السنة ٣٧٣ ، على مغادرة الاسكندرية ثلاث مرات يضاف اليها نفيه ، في هذه الاثناء ، بسبب مقاومته لجوليانيوس الوثني .

بعد اخفاق الآرية في الغرب ، بفضل الحرب الشعواء التي شنها عليها هيلاريون اسقف بواتيه والقديس امبروسيوس ، كان الفضل لحزم ثيودوسيوس في القضاء عليها اخيراً في الشرق . ففي السنة الثانية من ولايته ، اي في السنة ٣٨٠ ، اصدر براءة تنص على ان لمستقيمي الرأي دون غيرهم حق حمل لقب « المسيحيين الكاثوليكين » . ثم استند الى مقررات مجمع القسطنطينية الكبير الذي انعقد في السنة ٣٨١ وانتزع من الاساقفة الآريين كنائسهم . فلم يبق عملياً ، عند موته ، آريون في الامبراطورية سوى البرابرة . ومرد ذلك الى ان المسيحيين بين هؤلاء - وعددهم كبير - قد تنصروا على يد القوط ، الذين تنصروا على يد اسقفهم اولفيسلا ، الذي تنصر هو نفسه على يد اسقف آري في آسيا الصغرى . وما كان الامبراطور ليستطيع اتخاذ اي تدبير ضد البرابرة .

كانت الآرية اهم هرطقة عرفها القرن الرابع . غير ان الدولة ساعدت الكنيسة على الوقوف في وجه هرطقات اخرى كثيرة . فنذ قسطنطين حكمت براءات عديدة بالزيف على مذاهب قد لا نعرف عنها شيئاً تقريباً . ولكن اول حكم باعدام الهراطقة المسيحيين لم يصدر الا في عهد متأخر نسبياً . وفي براءة السنة ٣٨٠ ، التي خطأهم جميعاً ، اكتفى ثيودوسيوس باستردادهم مضيئاً : « ان الرب سيأثر منهم ، ونحن ايضاً » . ولن يذهب الى ابعد من ذلك سوى احد المغتصبين ، ففي السنة ٣٨٦ ، حين حكم مجمع بوردو على تعليم بريسيليانوس اسقف لوزيتانيا

بالزيف ، اعدم الاسقف مع بعض انصاره : وقضت الضرورة ، تبريراً لهذا العمل بتشبيهم بالمانويين ، الملاحقين بكل شدة منذ ديوكليسيانوس ، والمصنفين ، منذ قسطنطين ، بين الهراطقة المسيحيين المقيتين . وقد احتج اسقف تور القديس مارتينوس على تقتيل البريسيلانيين ، ولكن احتجاجه لم يلق اذناً صاغية . فقد سلم الجميع بتدخل السلطة المدنية حتى ولو ادى الى نتائج القسوى . ونحن سنرى ان ضحاياه كانت كثيرة جداً .

وهكذا فان الدولة ، بتحالفها مع الكنيسة ، قد اوغلت في الخلافات الدينية ، وان في تاريخ القرن الرابع لدلالة كافية على انها ، في عملها هذا ، قد زادت في الاضطرابات التي هزت الامبراطورية .

الفصل الثالث

الملكية المطلقة والبيروقراطية

لقد أطلق بعضهم على العهد الامبراطوري الثاني اسم « الخراب المرمم » . ولكن هذا التحديد غير منصف . فهو يهمل الاخطار التي كان على هذا العهد مواجهتها ، والهزات التي خلخلت ركائزه باستمرار . ويهمل بصورة خاصة تحقيقاته الجديدة ، اذ انه لم يكتفِ بالترميم لا في المقصد ولا في الواقع . شعر هذا العهد ، بحنين الى الماضي ، لا سيما الى « السلم الروماني » . ولكنه اضطر ، في محاولة استعادته ، على الرغم من تبدل معطيات المسألة ، الى اكتشاف واعتماد أساليبه الخاصة التي رافقتها بالضرورة بعض الذبول . أضف الى ذلك ان الزمن ، مهما طال أمده ، يعمل عمله في خدمة اولئك الذين يجرّهم وراءه . فما هو شأن مدى التطور الملازم للحياة ، حين يتعرض لأزمة على مثل ديمومة وشمول أزمة القرن الثالث ، ولثورة روحية على غرار انتصار المعتقدات الجديدة ؟ ان صرح العهد الامبراطوري الثاني يمثل بناءً متميزاً ، مشيداً ، شأن اكثرية المساكن البشرية ، وفاقاً لتسويات شاقة ، تعدل باستمرار ، بين التقاليد القديمة ومقتضيات العصر والمثل المتناقضة .

وتمثل تقوية الدولة ، أهم تبدل على الصعيد السياسي : فقد غدت الملكية الامبراطورية مطلقة وبيروقراطية .

أسباب تحول الدولة
سبق للامبراطورية الاولى ، ان أخذت تتطور في هذا الاتجاه . ولم تسلك هذه الطريق ، كما رأينا ، بدافع الميل أو اللذة ، بل بحثاً عن الفعالية والتلاحم في العمل . لقد بقي النظام ، في عهد الانطونيين ، خاضعاً لمثل أعلى في الحرية . وكان جل ما يتمتع به ، ان تحكم المدن نفسها حكماً ذاتياً مستقلاً ، محتفظاً للحكومة المركزية ولمثلها الاقليميين بدور التنسيق فقط . وبدلاً من ان يحاول خنق هذه الحياة البلدية ، حيث قامت من قبله ، بذل جهده في إيقاظها ، حيث لم تستند الى أي تقليد . فهو قد أثر ، بسبب افتقاره الى الرجال ، أي الى الموظفين الأكفاء ، عدم الاهتمام للشؤون الصغرى . ولكن ضغط الأحداث القاهر ، لا سيما الصعوبات المالية التي تعرضت لها المدن ، قد أرغمته على التدخل ، في سبيل المساعدة أولاً ، واحتكار السلطة اخيراً . وحدث الشيء نفسه لمجلس الشيوخ ، اذ ان التطور الذي يعيننا قد

فرضه بسرعة ، منذ البدء ، الحذر السياسي ؛ ولكن ، اذا كان لهذا الحذر أثره العظيم ، فإن الضرورات التقنية كان لها أثرها أيضاً . وهكذا فقد ازدادت سلطات الامير ، عملياً او قانوناً ، ازدياداً مطرداً ، جرّ بالضرورة ، تحت اشراف هذا الاخير ، الى تنظيم جهاز دولة ازداد تعقيداً وتكاثر اجزائه باطراد أيضاً .

انطلقت الحركة اذن . ولعله كان باستطاعة ثورة أدبية ، او « فلسفية » ، بحسب مفهوم القرن الثامن عشر الفرنسي ، ان تقضي على هذه النزعة بأن تعيد الى مثل الحرية قوته الاولى . ولكن هذه الثورة لم تحدث . فإن التيار العقلي ، الذي برز من قبل في العهد الامبراطوري الاول ، قد جرّ النفوس الى حيث اجتذبتها الوقائع ايضاً . ثم ان الشرق قد قدم ، بالاضافة الى دياناته ، ذكرى ومثل ملكياته المطلقة ذات الحق الالهي : وكانت مصر بينها دولة لا تزال الادارة فيها تراقب كافة مظاهر حياة ونشاط الرعايا ، ان لم توجهها توجيهاً كما فعلت في زمن الفراعنة والبطالسة . وجاءت من الشرق ايضاً مثل محبة البشر والعطف على الضعفاء التي تسربت تدريجياً الى النفوس : وجلي ان هذه المثل مرتبطة بمثل الملك الكلي القدرة المطالب ضميرياً باستخدام قدرته الكلية لسعادة رعاياه ، والقادر وحده على ان ينشر بينهم عدالة انسانية تفضل العدل في معناه الحمري . وقد صادفت هذه الاختبارات والآراء والمشاعر عضداً قوياً لدى سلالة ساويروس التي كانت مؤسسها ، المولود في افريقيا ، متزوجاً من سورية : فطيلة أربعين سنة تقريباً ، في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ، كان للشرق أثره البعيد عن طريق الاباطرة أنفسهم ونساء عائلتهم وكثير من الموظفين .

علينا ألا نتجاهل هذه السوابق وهذه التأثيرات . ومع ذلك ، لم يكن لأي عامل ، في تكوين دولة العهد الامبراطوري الثاني ، فعالية الظروف التي أرغمت هي على العيش فيها . فطيلة قرن كامل هددت وجودها بالخطر أزمة فريدة ، ولم يحل ثقلها عليها دون الاخطار والاضطرابات التي كان من حسن طالع الامبراطورية الاولى أنها لم تحدث في آن واحد . فهناك البرابرة على الحدود ، وفي قلب الاراضي الامبراطورية احياناً . وهناك ، في الداخل ، الاعتصابات والحرب الاهلية والفوضى ؛ وفي الداخل ايضاً ، المعجز المالي والازمة الاقتصادية وزوال الازدهار والامن في المدن التي كانت حتى ذاك الحين مراكز اولى للحضارة . لم يكن من علاج لهذا الواقع ولهذا الخطر الدائم ، سوى جمع كافة السلطات في ايدي الامبراطور والاعتراف بحقه في مصادرة كافة الموارد البشرية والمادية ، ووحدة العمل في مجهود متزايد وحازم . اجل ان الحرية قد ماتت منذ زمن بعيد ، أي منذ آخر العهد الجمهوري . ولكن ما زالت هنالك بعض الحريات : فهذه هي التي زالت ، وكأنها بذخ غدا مستحيل .

١ - اموال الدولة

يتوجب علينا ، انطلاقاً من هذه الملاحظة ، ان نستهل هذا البحث بمطالب الدولة من رعاياها . سبق ورأينا كيف أمنت الرجال لجيشها . ولا تزال اماننا المطالب التي لا مفر من تسميتها

بالمالية ، في مفهومها الواسع ، مع ان الدولة غالباً ما تحاول تحصيلها عن طريق غير طريق النقد .

التنفقات
جر ازدياد الاعباء الى ازدياد المطالب . وقد نشأ هذا الازدياد خصوصاً عن ارتفاع عدد المجندين وعن ارتفاع اعظم في عدد الموظفين . وتلقى اصحاب الحقوق القسم الاكبر من اجورهم او من مرتباتهم عيناً ، اي حصصاً غذائية أو البسة : وفي ذلك ضماناً لضرورة ارتفاع الاسعار ، وظرف مؤات ، كما لا يخفى ، لتبذير وخسارة تثقل وطأتها بالنتيجة على المكلفين . اضاف الى ذلك ان تجهيز الامبراطورية المادي ، تحقيقاً لهذه الغاية او لغيرها ، يتطلب تمهيداً وتحسيناً : فالضرورة تقضي بايجاد المخازن للمحاصيل والمكاتب للادارات ، والطرق ووسائل النقل وسعاة البريد ، الخ . فالجيش والبيروقراطية يمثلان عبئاً ثقيلاً جداً ، لعله اثقل عبء اطلاقاً على الرغم من افتقارنا الى الاحصاءات المالية .

غير ان كل شيء يحملنا على الاعتقاد بان النفقات الاخرى لم تتدن قط . فالباطرة ، على غرار اسلافهم ، ارادوا ربط اسمهم بالانشاءات الكبرى . وبما ان هنالك عدة اباطرة في اغلب الاحيان ، فهنالك عدة بلاطات ايضاً . فهم يتركون روما وينتقلون بسهولة ، مما يؤدي الى تشييد وتعهيد قصر لكل منهم . انفق قسطنطين اموالا طائلة حين شيد على البوسفور روما ثانية والى خلفاؤه تجميلها من بعده . ولا يعني ذلك ان سكان العاصمة الساقطة من مرتبتها قد حرموا نعم الدولة ؛ وقد امبرع قسطنطين الى شمل سكان القسطنطينية بها ايضاً . ولم يكنف اوريليانوس بتوزيع القمح مجاناً ، بل شرع في توزيع الخبز ايضاً ، ثم عمد خلفاؤه الى التوفير بتخفيض نوع الطحين ، ولكن فالنتينيانوس عاد فاقر الخبز الأبيض ، وافر اوريليانوس نفسه توزيع الزيت والملح ولحم الخنزير في بعض المواعيد ، كما اقر توزيع القمصان الذي لم يعمل به قط . ولم تنقذ الالعب شيئاً من سناها ، لا بل ادخلت زيادات على ايام الاعياد .

الموارد
اقتضى من ثم زيادة الجهود الجبائي . اجل كان الاقتصاد اقل ازدهاراً منه في الماضي . ولكن كركلا* منح المواطنة الرومانية كافة الرجال الأحرار في الامبراطورية ؛ فمن حيث انهم أصبحوا كلهم متساوين قانوناً امام الدولة ، أصبح ممكناً اخضاعهم للموجبات الاميرية ، واستطاعت الحكومة ، دونما اهتمام للامتيازات القديمة ، ان تأتي بشيء جديد .

اما هذا الجديد فقد حققه ديوكليسيانوس الذي توصل في اوائل القرن الرابع ، بعد ان تلمس طريقه ، كما فعل حين اقام النظام الرباعي ، الى اعداد ما اصبح منذئذ الضريبة الرئيسية ، أعني بها الضريبة الشخصية (الاعناق) . ان المعاضل الكثيرة التي تثيرها هذه الضريبة والتي يدور حولها جدال عسير لا تسمح بأن نعطي هنا سوى فكرة موجزة عن مبدئها ، لا سيما وان تطبيق هذا المبدأ قد تفاوت شدة بحسب المناطق . كان الهدف منها استبدال الضريبة المقاربية المتنوعة الاشكال والمعدلات ، والضرائب على الفلاحين او على المواشي ، بضريبة موحدة يكون مطرحها ثابتاً وعادلاً . يجري لهذه الغاية مرة كل خمسة عشر سنة ، تقدير مبني على مسح الاراضي

والاحصاءات، تجمع بموجبه العناصر المختلفة الضرورية للإنتاج الريفي، أي الأراضي والأشجار والمواشي واليد العاملة، وتُردّ، بالاستناد إلى معدلات محدّدة بحسب جنس الأشخاص، وطبيعة المواشي، والأقليم، ونوع التربة، والمزروعات، إلى عدد معين من الوحدات الاصطلاحية المعتبرة متساوية بين بعضها، ومن ثم قابلة للجمع. هذه الوحدة الجبائية الاصطلاحية هي «النير»، أو «الرأس»، كما درجت تسميتها. تقف الإدارة بهذه الطريقة على مجموع الرؤوس المحصاة في الامبراطورية وتوزيعها بين الولايات والمناطق والملاكين. ويكفيها من ثم أن تقدر حاجاتها السنوية حتى تحدّد تدريجياً، بصورة آلية، الفريضة المطلوبة من كل مكلّتب.

تجبي الضريبة الشخصية عيناً بكليتها تقريباً: وتتسحب منها رسوم عدة أهمها الضريبة العينية السنوية التي تخصص لتموين الجيش والمدن الكبرى. ولكن الدولة بحاجة إلى مداخل نقدية أيضاً، ولا يمكن، من جهة ثانية، أن تبقى الزراعة وحدها حقل نشاط السكان. لذلك أبقى على بعض الضرائب غير المباشرة، المحدودة الدخل، على الرغم من ارتفاع معدلها. ولذلك، خصوصاً، أحدث قسطنطين ضرائب تدفع ذهباً أو فضة وتتناول بالتالي أعضاء بعض الطبقات الاجتماعية. وفرض على أعضاء الطبقة المجلسية، وجلّهم من الملاكين الأثرياء، أن يدفعوا ذهباً رسماً عقارياً إضافياً تراوح معدله بين ١ و ٤ خلال القرن الرابع، بحسب ثروتهم. ودفعت العائلات الكهنوتية في المدن ضريبة «ذهب التاج»: والمقصود بها مبدئياً تقديم تاج للامبراطور لمناسبة حدث سعيد؛ ولكن فالنتينيانوس زرع عنها الطابع الاختياري دون أن يجعلها دائمة على كل حال. وكان على التجار، والصناعيين، والبغيات أنفسهم، والفلاحين الذين يقصدون المدينة لبيع محاصيلهم، أن يدفعوا، ذهباً وفضة، مرة كل أربع سنوات، رسماً نجمل معدله.

تضاف إلى كل ذلك إيرادات ممتلكات الدولة وممتلكات الامبراطور الخاصة، وقد ميز بينها سبتيموس ساويرس. أن هذه الممتلكات، التي كانت واسعة جداً في العهد السابق، قد ازداد اتساعها بفعل المصادرات التي كان ضحيتها أعضاء الطبقات الغنية خلال أزمة القرن الثالث. ثم ازداد اتساعها في القرن الرابع أيضاً، إذ وضعت الدولة يدها على أملاك المدن، ولم تتنازل لهذه المدن أخيراً إلا عن ثلث إيرادات هذه الأملاك وثلث المكوس المفروضة عليها. وعلى الرغم من الاعطيات الامبراطورية التي تكاثرت في القرن الثالث وما بعده، ما زالت هذه الممتلكات شاسعة جداً. وعاش البلاط، اجمالاً، من مداخيل الممتلكات الخاصة التي أوكل أمر استثمارها إلى القيمّين. بينما سلت الإدارة الممتلكات الأخرى إلى بعض الملتزمين.

واكتمل النظام المالي في العهد الامبراطوري الثاني بما فرضه على الأفراد من خدمات كثيرة مجانية أو شبه مجانية ساعدت على تخفيض نفقات الدولة دون أن تساعد على تخفيض العبء الحقيقي الذي يتحمله الرعايا. وهذه الخدمات هي ما ندعوه اليوم بـ «السخرة» وما أطلق عليه الرومان اسم *Munera*. وكان لهذا التعبير، منذ البدء البعيد،

مفهوم مبهم اذ انه قد استخدم للدلالة على المهام الممارسة وعلى النفقات والموجبات الاخرى. التي تستلزمها ، مع فارق سخاء يتجلى في القبول بـ « معارك المسايين » التي يقدمها للشعب اولئك الذين ينالون شرفاً ما . اما الآن فقد انتفى عنه أي معنى من معاني التلقائية ، بحيث ان تطور معاني المفردات يعكس تطور العلائق بين الجماعة والفرد بالذات : فقد غدا الواجب يقضي بتنفيذ ما كان يقام به في السابق شكراناً او غيرة او مجرداً باطلاً . وتجدد الاشارة الى ان طبيعة « التسخير » واطار الخاضعين قد عرفا في الوقت نفسه اتساعاً عظيماً : فليس المقصود به بعد اليوم المهام الشريفة فقط ، التي تستهوي الاثرياء او اليسورين .

تنوع المهام تنوعاً لا حد له كما تنوع لائحة الخاضعين لها بحسب مرتبتهم الاجتماعية و ثروتهم ، ومهنتهم ومكان اقامتهم أو مكان أملاكهم ، مع ان هناك نزعة جلية الى فرضها على كافة الاهالي بغية التخفيف من وطأتها عن كل فرد . قد نحاول عبثاً وضع لائحة كاملة بهذه الخدمات أو وضع نبذة تاريخية عنها لتحديد تاريخ ظهور كل منها وتتبع تطورات تطبيقها : اننا في اغلب الأحيان نفتقر الى المعطيات . فالدولة تفرض ايواء رجالها من موظفين أو مجندين ، وتلزم المكلفين بنقل الضريبة العينية السنوية الى المخزن القريب ، ومن مخزن الى مخزن احياناً ، وتصادر اليد العاملة وادوات العمل والمواد اللازمة لتعهد ابنيتها والطرق والجسور، وتلزم بتقديم الزواهل وحيوانات الجر تأميناً لخدمة البريد العام الذي اعسف المقيمين على جوانب الطرق بعد ان اثقله تقدم الادارة. ولكن « التسخير » يطلق على موجبات متنوعة ايضاً : كاستئجار الأملاك العامة التي لم يستأجرها احد ، وتسليم كميات تعينها الدولة من المصنوعات أو من المواد الغذائية بأسعار محددة ، وتأمين وظائف عامة ، وضعية جداً احياناً ، في المدن ، واخيراً وخصوصاً - وهذا اثقل تسخير - جباية الضرائب اي تحمل مسؤولية ايرادها .

هذا هو النظام باجزائه المختلفة اصلاً ومفهوماً ؛ لم توجه اية فكرة نظرية ، بل النواقص الحاجة فقط . وهو لا يختلف بذلك عن اكرثية الانظمة في كل البلدان وفي كل الازمنة . فان التجديد الرئيسي نفسه فيه ، أي إلزام كافة المواطنين ، بمن فيهم اولئك الذين يقيمون في ايطاليا التي اعفيت اراضيها من الضريبة منذ السنة ١٦٧ قبل المسيح ، ليس نتيجة لبراءة كركلا الاجزئيا . فقد سبق ، قبل هذا الاخير ، ان دفع الضريبة العقارية مواطنون كثيرون جداً ممن يقيمون في الولايات . وقد اقضى الغاء الامتياز الايطالي الى اغتصاب ، اذ ان مكسانس قد استفاد في السنة ٣٠٦ ، من الاستياء العام . ولكن الدولة تصلبت بسبب حاجتها الى الضرائب الايطالية . وكذلك فان الاعباء الاميرية المفروضة على الطبقة المجلسية لا ترد الى عداء استهدف هذه الطبقة . ولو ان هنالك نزعة الى ايجاد المساواة ، وراء السياسة المالية ، لظهرت في امكنة اخرى حيث لا نلمس لها أثراً . ولكن من الطبيعي ان تطلب الدولة المال حيث هو متوفر .

لا مراة في ان هذه الضرورة قد اتاحت تحقيق بعض التقدم اقله نحو توزيع الاعباء توزيعاً كثر انصافاً . ولكن ، ما اكثر الشكاوى اهنالك ، كما هو طبيعي ، شكاوى المكلف المزمعة .

وقد اعترض لاكتانس بقعة ساذجة على دقة مأموري الاحصاء في تنفيذ عملهم . ومع ذلك فان سير النظام سيء ، واذا لم تعرف الدولة في القرن الرابع الضائقات التي عرفت في القرن الثالث ، فانها كثيراً ما تتخبط في العسرى وتضطر في مدار السنة لزيادة رسم اضافي على الضريبة الشخصية التي حددت هي نفسها قيمتها في اول السنة . وقد يحدث احياناً ان تتكدر المتأخرات الاميرية بحيث يجب الغاؤها ، فتسمح لموظفيها ، اقله لصغار موظفيها ، ذوي الدخل المحدود ، بأن يؤمنوا لأنفسهم دخلاً عارضاً بتقبل هبة ، لا يحددها قانون ، من المكلفين المرتبطين بهم .

ثبتت جميع هذه الدلائل عدم انطباق النظام على الحاجات . وتقوم سيئته الكبرى في تعذر ضبط جدول الضريبة الشخصية يومياً بالتبعية تقلبات مطرحها . اضاف الى ذلك ان حسن سيره يفرض ألا يمنح أي إعفاء وألا يتهرب أي مكلف من واجباته . ولكن كلا هذين الشرطين لم يتوفرا : فهناك إعفاءات رسمية من هذا المطلب او ذاك ، كما ان هنالك شخصيات كبيرة كثيرة لا تدفع الضريبة الشخصية المتوجبة على املاكها الى جباة لا يتمتعون حيالها بأية سلطة . فتزداد من ثم أعباء الجيران ازيداً ومرهقاً احياناً ، اذ ان الدولة تتمسك بمطالبها من كل مدينة وتتجه ، في سبيل الحصول عليها ، الى المأمورين البلديين دون غيرهم .

لو ان الدولة ، التي أمنت الاجهزة الادارية القديمة وأحدثت العديد غيرها ، او كلت الى موظفيها ، بمساعدة القوة العامة أمر تحصيل الضريبة المباشرة ، تخضعت لعمري لمنطقها الخاص . اما ما اعوزها فهو الجراءة على التخلص من عاداتها المتأصلة ، او بالاحرى ، على ما نرجح ، الرجال الكفاء المستعدون للخدمة . والدليل على ذلك ان فالنتيانوس الاول قد حاول الاصلاح وأوكل الى مكاتب حكام الولايات امر جباية الضريبة الشخصية ، ولكن وجب العدول عن هذا الاصلاح ، بعد مرور عشرين عاماً ، امام اعتراضات هذه المكاتب نفسها : فألقيت الجباية مرة أخرى ، شأنها في السابق ، على عاتق المأمورين في كل مدينة .

ولكن هذا العمل الذي اضيف الى أعمالهم الكثيرة قد أنهكهم ، فأضاعوا وقتهم في الجولات والمساعي . ومن حيث هم مسؤولون جماعياً عن ايراد الضرائب ، فانهم تعرضوا لشتى ضروب الضعف والانهيار . فكانت النتيجة انهم انتهوا الى الافلاس .

٢ الادارة المحلية والاقليمية

ويقودنا ذلك ، عن طريق اموال الدولة - ولكن العامل الرئيسي هو نقص التنظيم المخطط للمدينة الجبائي - الى احد الفوارق الحقيقية العظيمة النتائج بين العهد الامبراطوري الثاني والعهد الذي سبقه . فلم يعد هنالك من بورجوازية بلدية تتبرع بادارة الشؤون المحلية ، بل « قواد عشرة » ، « مرغون » ، كما حدث بين حين وآخر في عهد الانطونيين تفرض عليهم الدولة القيام بدور الموظفين المجانين المقوتين في نظر مواطنيهم ونظر انفسهم . فلم يعد بالتالي

من مدينة بالمعنى الذي اطلقه الاغريق والرومان على هذا الموصوف في السابق . فزال بزوالها ، عنصر مقوم جوهرى من عناصر الحضارة التي تنبأ بها العالم المتوسطي ، ذلك العنصر الذي تعلق به الناس ايماء تعلق يسبب قربيه في الزمان وحيويته .

على الرغم من الصعوبات التي بدأت تعرفها الموازنات البلدية والتي حلت الاباطرة على توسيع جهاز الاوصياء ، فان عهد سلالة ساويروس الامبراطورية ما زال عهداً خيراً بالنسبة للمدن - لا بل عهداً ذهبياً ، كما يبدو في بعض المناطق ، كإفريقيا التي ينتسب اليها مؤسس السلالة والتي خصها برعاية خاصة . وقد برهن سبتيموس ساويروس عن تنازل هام بادخال النظام البلدي الى « قواعد الولايات » في مصر وباعطاء الاسكندرية الـ « بولي » ، اي مجلس الشيوخ الذي طالب به سكانها دون جدوى منذ زمن بعيد . ولكن سرعان ما قامت الأزمة الكبرى التي لم تنهض اكثرية المدن العظمى ، بعدها ، نهوضاً حقيقياً .

انكشفت المدن آنذاك داخل اسوارها ، ومات قسم من سكانها أو صغروا من المال ، ومع ذلك فقد بدت للسلطة الامبراطورية درجات ادارية مريحة من حيث ان سكانها يؤلفون الجماعات الوحيدة بين الرعايا التي تتقيد بانظمتها وتسهل مهمتها . وما زالت هناك في الظاهر بعض الاجهزة البلدية . فاذا ما زالت جمعية الشعب من كل مكان ، فهناك العائلة (Curie) والقضاة الذين تنتخبهم . وقد يقوم في المدن الكبرى ، التي حافظت على نشاطها التجاري أو استعادته ، متطوعون يطمحون الى هذه المراكز ويبسطون يدأ سخية امام الجماعة . اما في المدن الاخرى فليست هذه المراكز سوى ضرب من « التسخير » ، ففدت وظيفة ممثل العائلة - الذي أخذ اسمه محل تدريجياً محل اسم « قائد العشرة » ، على ما بينهما من فوارق - واجباً تفرضه الدولة على كل من يملك حداً ادنى من ثروة زهيدة نسبياً .

سنعود الى المظهر الاجتماعي الذي ينطوي عليه هذا التبدل العميق ، مقتصرين هنا على المظهر الاداري . فلا تزال اجهزة المدينة مستقلة . ولا تعتمد الدولة الى جانبها اي موظف أو ممثل دائم . فان الوصي (Curateur) نفسه الذي عينه الامبراطور في السابق ، تنتخبه اليوم عائلته انتخاباً . ولكن هذه الاجهزة تتلقى الاوامر وكافة اعضائها يتعرضون للعقوبات اذا لم ينفذوها . فالبقاء الظاهر على الاستقلال ليس بالتالي سوى حيلة تستهدف ارغام ما تبقى من الطبقة المتوسطة على التكرس لخدمة الجماعة المحلية والدولة ، ليس بالمجان فحسب ، بل بالمجازفة بالثروة ايضاً . فهم ملازمون ، على الرغم من كل العراقيل ، بتأمين المهام البلدية العادية ، المحافظة على الامن ، والعناية بالابنية والشوارع ، والتموين ، والاعياد ، الخ . ، وتلبية الأوامر الحكومية بتولي جباية الضرائب ، وجمع الجندين ، وتنفيذ اعمال « التسخير » المختلفة . فهل ما يدهش والحالة هذه اذا لم يحسنوا القيام بجميع هذه الاعمال ، حتى بمساعدة « حامي المدينة » الذي لن يلبث ان يسيى واحداً منهم ؟

بدد اغتصابات تقوم الحياة الحقيقية خارج نطاق ادارات المدن التي تسير نحو الزوال ولا يبقيا الاملاك الكبرى سوى القسر .

اخذت هذه الحياة تنتقل الى املاك الاثرياء الذين تهزأ سلطتهم العملية من الاوصياء ، ومن

الموظفين انفسهم ، مع ان الانظمة لم تعترف لهم بعد باية سلطة قانونية . ان ارتباط الفلاح (المستعمر) بالاملاك ارتباطاً شرعياً ، الذي اقرته الدولة حينذاك للعبولة دون فرار اليد العاملة ، لا يولي الملاك اية سلطة ادارية . ويصح القول نفسه في الحماية التي يمنحها الملاك بعض الفلاحين الاحرار في الجوار . ولكن الواقع غير ذلك . فالافرياء يوزعون ويجمعون الضرائب كما يطيب لهم في الاراضي العائدة اليهم دونما اكتراث منهم لتسديد حصة الضرائب . ولما كانت الشرطة لا تتجاسر على التعرض لهم ، فانهم يمارسون حق الحماية ، ويحصلون حقهم بأيديهم ، ويستولون على ممتلكات واشخاص مدينهم . ويعود تحريم السجون الخاصة لاول مرة الى السنة ٣٨٨ ، ثم يعقبه تحريمات عدة في القرن الخامس ، وسيصدر في الوقت نفسه امر بتحريم تعهد الزمر المسلحة . فبدأ من ثم القضاء على حقوق الدولة ، بفعل اغتصابات يستحيل قمعها ، لمصلحة ذوي الاملاك الكبرى .

بيد ان كل ذلك ليس سوى تبشير تطوراً سيقود الى نتائج بعيدة جداً . وانت
البيروقراطية
أجهزة الدولة ، على نقيض ذلك ، لم تعرف يوماً مثل هذا العدد ومثل هذه القوة . فالمركية ، مع ما تستتبعه من ادارات وموظفين ، احدى الميزات الخاصة بالعهد الامبراطوري الثاني . ليس لدينا ، بصدد العهد السابق ، مصدر افضل من « لائحة الوظائف » التي تضع امام امام اعيننا « بياناً بالوظائف » والقوات العسكرية في كل من « شطري » الامبراطورية ، الشرقي والغربي ، في اواخر القرن الرابع . ومع ذلك فلا يجوز لنا ان نشك دققة واحدة في النمو العظيم الذي طرأ على المصالح الاقليمية والمركية . فالواجب يقضي على الحكومة ان تواجه اعباء لا تسمح لها نواب الدهر بعد اليوم باعمالها . اصف الى ذلك ان تقسيم العمل غدا ، الى حد ما ، فرضاً واجباً : فهي ، بدافع الحذر ، وحرصاً منها على الكفاءة والفعالية ، فصلت فصلاً نهائياً بين الادارة المدنية والقيادة العسكرية . واضطرت اخيراً الى احداث درجات وسيطة بغية تخفيف عملها الخاص وتنسيق النشاطات المحلية تنسيقاً افضل . ولكن ، اذا طرأت هذه الزيادة العظيمة على عدد المصالح ورؤسائها من موظفين كبار ومتوسطين ، فاننا نلمس هذه الزيادة في عدد صغار الموظفين في المكاتب ايضاً : في اواخر القرن الرابع ، كان لكل حاكم ولاية ١٠٠ مستخدم ؛ ولكل نائب ٣٠٠ ؛ ولكونت الشرق (القائد العسكري) ٦٠٠ ؛ ولكونت الاعطيات المقدسة في الغرب ٨٥٠ ؛ ولرئيس الحرس الامبراطوري في الشرق أكثر من ١٠٠٠ .

خضع صغار الموظفين هؤلاء لتنظيم عسكري على الرغم من صفتهم المدنية . فوزعوا فرقاً فرقاً ، لابل سجلوا اسماً في وحدة عسكرية احياناً . فقد اعتبرت الوظيفة النامة ، في حد ذاتها ، Militia أي « خدمة عسكرية » . وخضعت لتسلسل داخلي دقيق ، ولنظام خاص ، ولقواعد ترفيع ؛ وحق عادة للموظف ، بعد قضاء عشرين او خمس وعشرين سنة في الخدمة ، التمتع « بالشرفية » أي الاحتفاظ باللقب والامتيازات الشرفية . لم يبق كل ذلك دون نتيجة على الصعيد الاجتماعي ، وأسهم ، على الصعيد الاداري ، في توفير التلاحم الشديد لما يجب تسميته

بالبيروقراطية الامبراطورية ، وهي الاولى ، بوضوح معالمها ، بعد البيروقراطية المصرية . هذا واقع لا شك فيه ، ولا أبسط منه ايضاً . ولكن ما هو جوهرى ، على استحالة تحقيقه ، هو التمكن من تقدير قيمة هؤلاء الموظفين تقنياً واخلاقياً . فللوراثة دورها الاول في تعيينهم ، وللديسيسة ، الى جانب الاستحقاق والاقدمية ، دور في ترفيعهم . وعلى الرغم من ان كافة التعيينات منوطة بالامبراطور الذي يتحرّر ، حتى عند ملء المراكز الرفيعة ، من الواجب القديم القاضي باختيار الموظفين بين اولئك الذي شغلوا هذا أو ذاك من مناصب القضاء ، فانه يشعر بالحاجة الى مراقبة موظفيه . وهو يستخدم لهذه الغاية « موظفي الشؤون » الذين يكلفون تنفيذ مهام تستوجب الثقة ويقومون بأعمال التجسس في المصالح ايضاً . ونحن نرجح ان هذا الجهاز كان ضرورياً ، اذ انه ، بعد اقدام جوليانوس على إلغائه ، قد أعيد مرة ثانية ، وضم في النهاية عدّة ألوف من هؤلاء الموظفين . بيد اننا لا نستطيع الفصل في فعالية هذا الجهاز . فما هي الأهمية التي يجدر بنا ان ننسبها ، لأجل الحكم على هذه الادارة ، الى القرارات الامبراطورية في سبيل تقويم الاعوجاجات والى شكاوى المكلفين ؟ ان البيروقراطية لا تنتظم دون تلمس وتردد ، ولم تنظر الطبقات الاجتماعية ، التي تعبّر مصادرها عن آرائها ، نظرة رضى الى تسلط الدولة الثقيل على الممتلكات والاشخاص . ومهما يكن من الامر ، فيجب التسليم للمستأثرين من النظام انه يفضي الى البطء ويقضي على روح المبادرة ، ولكن الانتقادات تتلاشى امام هذه الحقيقة : لولا هذه الادارة لصارت الدولة الى انهيار سريع .

ما زال اسم « الولاية » قائماً ؛ ولكن مفهومه قد تبدل تبدلاً كبيراً . وها نحن نشير الى التبدلات الرئيسية دون ان نغامر في ردّها الى اطارها التاريخي ، وهي مغامرة عملة لا تفضي بنا الى الحقيقة الثابتة على كل حال . لم يعد هناك من تمييز بين الولايات وايطاليا : باستثناء روما التي قسّمت ، منذ ديوكليسيانوس الى دواثر شبيهة كل الشبه بالولايات ، دون ان يطلق عليها هذا الاسم الذي قد يثير النزق والانفعال . ولم يعد من تمييز كذلك بين الولايات المجلسية والولايات الامبراطورية : فالامبراطور وحده ، دون مداورات ، يعين الحكام أجمعين ويشرف على الادارة جمعاء . وليس هناك عملياً ، باستثناء حالات نادرة جداً ، من قيادات عسكرية يمارسها الحكام : فقد عادت هذه القيادات الى الرؤساء العسكريين . ونجّزأت الولايات القديمة خصوصاً ، بدافع الحذر السياسي ، وتخفيفاً من العبء الملحق على كاهل الحكام ايضاً . كان عددها يناهز الخمسين تقريباً حين تولى ديوكليسيانوس الحكم . فرفعها هذا الأخير الى ضعف هذا العدد تقريباً وأحدث سبع ولايات في ايطاليا . وعند وفاة ثيودوسيوس أضيفت سبعة عشر ولاية ايطالية الى أكثر من مائة ولاية .

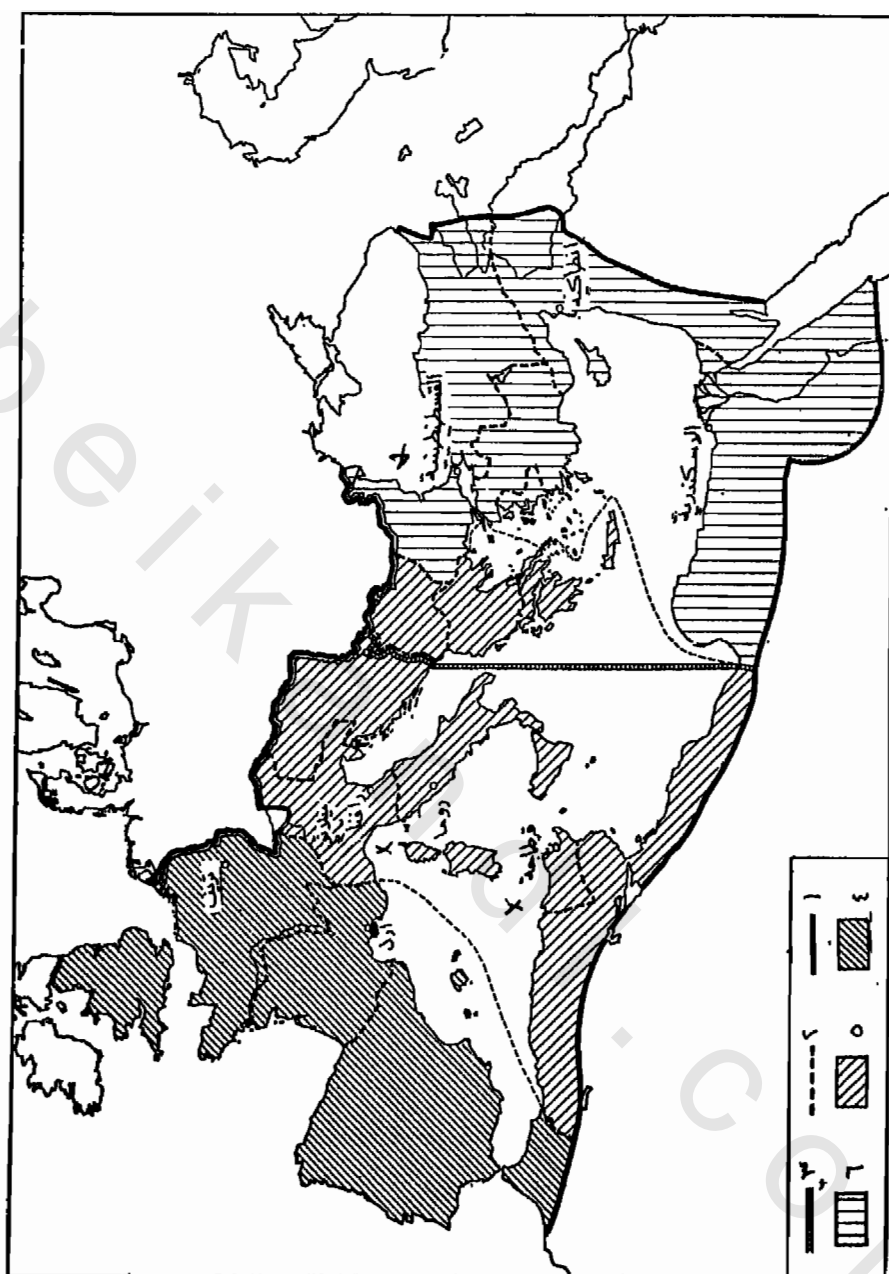
لم تتساو هذه الولايات ، لا أهمية حقيقية ولا مرتبة ، وتنعكس منزلتها في لقب حاكمها . ولا يزال ثلاثة من الحكام ، بقوة استمرار غريبة ، يحملون لقب « بروقنصل » القديم : وهؤلاء هم ، بحسب تقليد العهد الامبراطوري الاول ، حاكما آسيا وافريقيا اللذان أضيف اليها ، احتراماً

لماضي اليونان ، حاكم آخيا . ويقسم الآخرون ثلاث فئات . ولكن أهمية هذه التمييزات الوحيدة محصورة في تحديد درجة الحاكم في سلسلة مراتب الموظفين . وتتفاوت حرية الحكام في العمل بنسبة قريهم من الرئيس او بعدهم عنه ، او بنسبة أهمية الرئيس العسكري الموجود في ولايتهم . وكان عليهم ، قبل أي شيء آخر ، حتى اذا ما نجوا من مثل هذه القيود ، تأمين تنفيذ الاوامر الصادرة عن رؤسائهم . وما كنا لنرى فيهم خلفاء الحكام القدماء لو لم يتعاظم دورهم القضائي في أعقاب انحطاط المدن : فدرجت تسميتهم كلهم « قضاة » . ولكن أحكامهم قابلة الاستئناف .

ان نزعة العهد الى السطوة المطلقة ، بما تنطوي عليه من تناقض ظاهر أكثر منه حقيقي ، لم تقض به الى إلغاء الجمعيات في الولايات : فهو على نقيض ذلك قد احدث جمعية في كل ولاية . والاغرب من ذلك ان اعتناق الامبراطور للديانة المسيحية لم يبلغ واجب هذه الجمعيات ، حتى في عهد متأخر ، في القيام بطقوس العبادة الامبراطورية : فهي تعين ، شأنها في الماضي ، كاهن الولاية ، والعبادة الامبراطورية هي الوحيدة بين « أجماد » التنظيم القديم ، اقليمياً ومحلياً ، التي حافظت على ملء رونقها . واستمرت الحكومة المركزية في السماح للجمعيات بتهنئة كبار الموظفين ومحاولة افقادهم الخطوة ، ولكن نجاح هذه المحاولة ما زال عسيراً كما في السابق . لا بل سمحت لها آنذاك بأن تتقدم منها بتمنيات ، جريئة جداً أحياناً : وهكذا في السنة ٣٩٩ لم تتردد جمعية ولاية « المدن الخمس » *Pentapole* الافريقية في اثارة النقاش لمعرفة رأي الاعضاء في ارفاق تقدمه تاج ذهبي للامبراطور اركاديوس والتماس تخفيف الضرائب بطلب إلغاء القيادة العسكرية التي تخضع لها . وان هذا التساهل ، الذي لم ينجم عنه أي خطر ، قد اتاح للامبراطور الحفاظ على حد أدنى من الاتصال بالرأي العام في المواضيع ذات الصالح المحلي : وهو حد تحتاج اليه كافة الانظمة ، حتى المطلقة منها .

لم يكن يمكن بحكمة حكام الولايات ، بسبب كثرتهم ، الاتصال اتصالاً مباشراً دائماً بالبرشيات
والوكلاء
بالحكومة المركزية . لذلك احدث ديوكليسيانوس درجة وسيطة هي « البرشية » اسندت السلطة فيها الى « وكيل قائد حرس القيصر » . كان عدد البرشيات في البدء اثنتي عشرة ثم أمسى خمسة عشر في اواخر القرن الرابع . ضم كل منها عدداً معيناً من الولايات في وحدة اقليمية كبرى . بيد ان مدينتي روما والقسطنطينية والولايات الثلاث التي اسندت السلطة فيها الى بروقنصل فلم تدخل في هذا التقسيم ، بل ارتبطت مباشرة بالحكومة المركزية . فالفت بريطانيا ابرشية ؛ وغاليا ابرشتين ، احدهما للنصف الجنوبي والثانية للقسم الشمالي ، وكانت مدينتا « تريف » وفيينا مقر الوكيلين ؛ ومصر وكيرينا ابرشية ؛ الخ . وقامت في هذه البرشيات جمعيات على نط الجمعيات في الولايات .

راقب الوكلاء عمل الحكام ومارسوا سلطة قضائية استثنائية . واستفاد « كونت الشرق » ، وهو وكيل البرشية التي ضمت الولايات حول سوريا ، من مركز استثنائي بسبب جوار بلاد



الشكل ٢٢ - الأبرشيات وقيادات الحرس في السنة ٣٩٠ .
 ١ - حدود الامبراطورية؛ ٢ - حدود الأبرشية؛ ٣ - الحد الفاصل بين شطوي الامبراطورية الشرقي (اركانديوس) والغربي (هونوريوس) في السنة ٣٩٠ ؛ ٤ - قيادة حرس غاليا ؛ ٥ - قيادة حرس ألبانيا وإيطاليا وأفريقيا ؛ ٦ - قيادة حرس الشرق .

فارس . اما في الابريشيات الاخرى فلم يحظ الوكلاء بهذا المركز الهام . كانوا يرسلون الامبراطور مباشرة ، ولم تحدث وظائفهم الا لاضعاف قيادة حرس القصر ، ولكن التنظيم الجديد الذي ادخل على هذه الاخيرة اخضعهم لها في النهاية . وما لبثوا ان اصبحوا مجرد جهاز للتحويل ، وما عتمت بعض المراكز ان بقيت شاغرة . فتغلبت النزعة الى المركزية ، مع ما تستلزمه من تسلسل دقيق في المراتب ، على النزعة الى النظام الاقليمي التي لم تبرز يوماً بقوة على كل حال .

ادخل قسطنطين تعديلات عظيمة على قيادة حرس القصر . منذ العهد قيادة حرس القصر الامبراطوري الاول تعدت صلاحيات هذا الجهاز ، الى حد بعيد ، قيادة فرق الحرس التسع : فقد مارس قادة الحرس سلطة قضائية وتوصلوا من جهة ثانية ، لاسيما منذ القرن الثالث ، بفعل اشرافهم على تموين الجيش ، الى فرض رقابتهم على كل الادارة المالية تقريباً . ومع ذلك ، لم تحدث تجزئة اقليمية قط ، على الرغم من ازدواجية الحكم غير النادرة . بيد ان النظام الرباعي قد ادى الى هذه التجزئة عملياً بتخصيص كل امبراطور ، ان لم يكن كل قيصر ، بقائد حرس . ومع ان قسطنطين قد اعاد الوحدة الامبراطورية في شخصه ، فقد رجع تدريجياً الى تقسيم الامبراطورية دوائر اقليمية كبرى اسندت الى قادة حرس مختلفين . اجل كان هؤلاء القادة ، لمدة طويلة ، معتبرين وكأنهم هيئة واحدة . ولكن مبدء التجزئة الجغرافية قد سيطر في النهاية . اما بصدد التجزئة نفسها ، فالتردد والغموض امران غير نادرين ، ومرد ذلك الى اختلاف عدد الابطرة و « الحصص » المخصصة لكل منهم . قامت في اغلب الاحيان ثلاث قيادات : واحدة للشرق ، من كيرينا حتى تراقيا ، واخرى لايطاليا وافريقيا والمناطق الباقية من شبه الجزيرة البلقانية ؛ وثالثة لبريطانيا وغاليا واسبانيا ومراكش . اما المعضلة ، التي برزت منذ قبل وفاة ثيودوسيوس ، فكانت في التوصل الى التوفيق بين هذه التجزئة وتقسيم الامبراطورية الى شطرين بفعل ازدواجية الابطرة التي افضت الى ازدواجية الامبراطوريات . وقد طالب الشرق بزيادة حصته في شبه الجزيرة البلقانية ، فجر ذلك الى نزاع حول ابرشيتين .

بعد ان انفى قسطنطين فرق حرس القصر ، انفى سلطات القادة العسكرية وجعل منهم موظفين مدنيين فقط . كانت صلاحياتهم واسعة ومتنوعة ، ويتناول اهمها ، بالاضافة الى البريد العام والتعليم والتسمير والمحافظة على النظام بصورة عامة ، النخ ، الضرائب والقضاء . وهي في الحقيقة صلاحيات هامة جداً ، على الرغم من ان عطف ثيودوسيوس وحده يفسر مكانة قائد الشرق العالي روفينوس الايلوزي - من بلدة ايزوز في مقاطعة الاكيتين - ، وقد تركه لابنه اركاديوس في السنة ٣٩٥ . وروفين هذا هو الذي عرف كيف يسوي قضية تسالونيكى بالاتفاق مع القديس امبروسيوس . اما القادة الثلاثة الذين اقاموا في القسطنطينية وميلانو وتريف - نقل هذا المركز الاخير الى « آرل » في السنوات الاخيرة من القرن الرابع - فقد اشرافوا على التشريع واقتروا كافة تعيينات الموظفين في الولايات وسيدروا الادارة ، ومارسوا سلطة قضائية تمييزية اصدرها بموجبها احكاماً مبرمة ، فكانوا ، اذا ما وضعنا قيادة الجيوش جانباً ، اشبه بنواب الملك : لذلك

ارتأى الامبراطور احياناً اسناد منصبهم الى هيئة مؤلفة من قائدين .

تتضح بالتالي ، في الادارة المحلية والاقليمية ، حتى تلك التي ابقى فيها على الاسماء القديمة ، الخلافات العميقة بين العهد الامبراطوري الثاني والعهد الذي سبقه . ويوضح القول نفسه في العواصم ، على الرغم من ان رواسب العهد السابق تبرز فيها بروزاً على جانب اقوى .

العاصمات

روما والقسطنطينية

يجب الا نخطئ في صيغة الجمع هذه : العواصم . فليس لاي من قادة الحرس مكاتبه في روما . ولا يقيم الامبراطور فيها الا استثناء ولفترات قصيرة . ففي الغرب نفسه ، نراه مفضياً ايامه في تريف ، أو ميلانو - ولن يلبث ان يمضيها في رافنا التي تتصل بالبحر ويسهل الدفاع عنها - أو سيرميوم (ميتروفتزا الحالية على نهر الساف) الخ . ولكن ليست هذه كلها سوى مراكز اقامة ، لا عواصم ؛ فلا تزال روما هي « المدينة » ، ولا تزال الامبراطورية « رومانية » .

غير ان قسطنطين قد احدث روما ثانية ، خاضعاً لاعتبارات لا يزال الخلاف قائماً بين المفاصرين حول طبيعتها وأهميتها . ليس باستطاعة احد ان ينفي رغبته في تخليد اسمه بمشروع هندسي عظيم : فان قسطنطينوبولس ، « مدينة قسطنطين » ، المبنية في موقع يضمن له قدم بيزنطية الأهمية الاقتصادية ، ستكون مدينة تختلف عن سيرتا النوميديّة التي رمت وأطلق عليها اسم قسطنطينية . وليس باستطاعة احد ايضاً ان ينفي الاعتبارات العسكرية : مناعة الموقع الطبيعي ؛ أهميته الاستراتيجية عند مصب البوسفور الذي اجتازه القوط في القرن الثالث ؛ قربه من الدانوب السفلي الذي يهدده خطر البرابرة ؛ جوار الولايات الشرقية التي يهددها الخطر الفارسي والتي خضعت لسلطة ليسينيوس الذي هزم في شهر ايلول من السنة ٣٢٤ ، بينما تقرر اختيار الموقع منذ شهر تشرين الثاني . ولكن الاتفاق حول اعتبارات روحية ممكنة ليس أمراً بسيطاً . قد يكون قسطنطين اراد عاصمة مسيحية غير روما المتسمة اتساماً عميقاً بالطابع الوثني ؛ ولكنه ، اذا لم يدرك مسبقاً ان توارى الامبراطور ، في عداد اسباب اخرى ، سيفضي الى جعل روما عاصمة النصرانية الغربية ، لم يفته مع ذلك ، في القسطنطينية ، ان يوعز بالقيام بكافة الطقوس الوثنية المعدّة للتأسيس ، ثم للتدشين في السنة ٣٣٠ ، وبتشديد أكثر من معبد . ومن جهة ثانية ، اذا كان هذا الامبراطور الذي لم يتقن اليونانية قد فرض اللاتينية لغة رسمية في القسطنطينية ونقل اليها كثيراً من العائلات الرومانية ، فانه قد ارتكب خطأ فادحاً اذا كان قد اعتقد بأنه يوطد ، بهذه الطريقة ، الحضارة اللاتينية في البلاد اليونانية : فما لبثت مدينته ، في الواقع ، ان باثت حصن الحضارة اليونانية في وجه روما نفسها .

لقد خاب امل قسطنطين في هذا المقصد او ذاك من مقاصده ، ولكنه مع ذلك قد حقق منها ما هو جوهرى : فالقسطنطينية ، التي استلمت منه صدارة العاصمة والتي اشتركت فيها مع روما قبل ان تغدو عاصمة الشرق الوحيدة ، لم تفقدها قط إلا في القرن العشرين . وقد أثر الامبراطور نفسه الاقامة فيها على الاقامة في روما . فكثيراً ما أقام قبل تأسيسها في نيكوميديا

او انطاكية حين كان يقصد العيش في الشرق . وما زال ، بعد السنة ٣٣٠ يقيم في هذه او تلك من هاتين المدينتين : ولكنها اقامة قصيرة في مجموعها ، إلا اذا انصرف الى اعداد الحرب ضد الساسانيين ؛ ولكننا لا نرى ، على كل حال ، الى جانب القسطنطينية ، مدناً توازي ميلانو ورافنا .

ان روما مدينة لماضيها بالابقاء على أنظمة خاصة ، كما ان القسطنطينية الرواسب الشرفية في العوامس مدينة لمساواتها لروما نظرياً بالتمتع بأنظمة مماثلة . ولكن هذه الانظمة ما لبثت ، في الاولى كما في الثانية ، ان فقدت سلطتها كلياً بفعل تطور ظهرت بوادره منذ أمد بعيد .

في كلا العاصمتين مجلس شيوخ ، منظم على غرار مجلس الشيوخ في اليهود السابقة ، أي خاضع لسلم المراتب وفقاً للوظائف التي يمارسها القضاء او يسندها الامبراطور اليهم اسماً . اما مجلس روما فقد فاق مجلس القسطنطينية عزاً ، لأن باستطاعة ايطاليا ان تنتدب اليه ممثلين عن العائلات الكبيرة أكثر من الشرق البلقاني . وقد بقي ، لمدة طويلة ، المجلس الوحيد الذي يبلغه الامبراطور جلوسه على العرش ، فكان يسرع ، كما هو بديهي ، الى الاعراب عن استحسان هذا المجلس . الى هذه المبادرة انتهت النظريات والمشادات الكثيرة المختلفة حول تعيين الامبراطور ، او أقله تثنيته ، من قبل المجلس : فالامبراطور الاخير الذي اختاره هذا المجلس هو تاسيتوس الذي ملك عدة أشهر في السنة ٢٧٥ . وهكذا دواليك : فليس بعد من ولايات مجلسية ؛ وليس من خزانة باستثناء الصندوق البلدي ؛ وليس من ضرب نقود ؛ وليس من احتكار في ممارسة بعض الوظائف ؛ وليس من سلطة قضائية . ولا تتناول مناقشات الجمعيتين سوى المواضيع العادية . ولا يأخذ الامبراطور امانيتها بعين الاعتبار إلا كما يطيب له شخصياً : فلم يفلح المجلس الروماني مثلاً في استصدار قرار باعادة مذبح إله النصر الى قاعة جلساته الخاصة .

لم يحافظ اي من مناصب القضاء الجمهورية القديمة ، على نقيض ما حدث في العهد الامبراطوري الأول ، على اهمية اثره في الحصول على الوظائف العامة : فهذه قد غدت مستقلة عن «سلم الامجاد» . لا يزال الامبراطور يسند الى بعضهم مناصب قضاء اسمية ، لا سيما القنصلية ، ولكنه يفعل ذلك بغية مكافأة الذين خدموه خدمة صادقة ، اثناء تقاعدهم على العموم ، لا سعياً وراء مزيد من الحرية في العمل ، عند اختيار وترقيع الموظفين ، كما في السابق .

اصبح ارفع هذه المناصب القديمة لقباً على مستوى الامبراطورية دون روابط عملية بالعوامس . فعلى الرغم من ازدواجية هذه الأخيرة ، لم يبق هناك سوى قنصلين اثنين يعود أمر تعيينهما للامبراطور دون سواء . وفي حال تعدد الاباطرة ، لا يتم الاختيار ، الذي يحاول ايجاد المساواة بين الشرق والغرب ، الا بالاتفاق بينهما . ورغبة في تلافي المخاصمات ، قرّر الرأي منذ السنة ٣٩٦ ، اذ كان الامبراطوران ، ابنا ثيودوسيوس ، قنصلين في آن واحد ، على ان يعين كل منهما القنصلين مناوبة ، كما قرّر الرأي ، بعد فترة قصيرة ، على ان يعين كل منهما احد القنصلين . غير ان هذا المنصب لم يبق لهما من امتياز سوى تنظيم الالعاب العامة . ولما كان الامبراطور يفتق عن

« القناصل » ، بما لهذا التعبير من مفهوم قديم ، فلم يقدم الا نادراً على تعيين القناصل القضاة . فازدادت من ثم قيمة اللقب الشرفية ازدياداً كبيراً ، واحيط بابهة عظيمة . ونحن لا نعرف ، الى جانب الاباطرة ، سوى حالة واحدة حصل فيها قنصل قديم على قنصلية ثانية في القرن الرابع ، هي حالة قائد فرنجي .

لم يدم عملياً ، بين المناصب الأخرى ، سوى وزارتي المالية والعديلية . وهما قد نظمتا في القسطنطينية ايضاً . وكانت وزارة العديلية بنوع خاص كثيرة النفقات بسبب الالعب التي تقع اكلافها على كاهل شاغلي هذه الوزارة . فانتهوا الى تعيين هؤلاء قبل موعد الاستلام بعشر سنوات : حين عين ابن سيمناكوس وزيراً للعديلية ، اقيمت العايب استمرت سبعة ايام واستلزمت نفقات باهظة ، مع ان البنخ فيها كان عادياً - انفق آخرون ضعف ما انفق عليها ، اي ما يزيد عن اربعة ملايين فرنك ذهباً بسعر الفرنك في السنة ١٩١٤ - غير ان الوقت قد توفر لسيمناكوس حتى يطلب من اصدقائه الحيوانات المفترسة والألأهي . اما بالمقابلة فالصلاحيات شبه لاغية لا تتعدى واجب القيام ببعض الاعمال القانونية . فنحن اذن امام « تسخير » حقيقي ، ولن تلبث التعيينات ان تصبح من نصيب الذين يضبطون حسابات ثرواتهم لاجل الضريبة الخاصة المتوجبة على اعضاء الطبقة المجلسية . ولكن هؤلاء القضاة ، على نقيض ممثلي الوحدات العائلية في المدن العادية ، لا يكسفون وجوههم لانهم قادرون على تحمل ضخامة مثل هذه النفقات .

ان الشخصية الاولى ، في العاصمتين ، هي « حاكم المدينة » الذي احدثت وظيفته في روما في العهد الامبراطوري الاول ، وفي القسطنطينية في أواسط القرن الرابع . فهو يمثل الامبراطور الذي يعينه ، وكثيراً ما يستبدله . يرئس مجلس الشيوخ ويفصل في دعاوى المدينة والمحقات المحددة في روما بنطاق المائة ميل التقليدي . يسهر على النظام والتموين متغلباً بذلك على حكام الامن والضريبة العينية السنوية . فيكسبه كل ذلك سلطة حقيقية لا سباً في روما التي لا يقيم فيها الامبراطور : ويختاره هذا الاخير ، بالتالي ، في صفوف الارستوقراطية الوثنية ، كسيمناكوس مثلاً ، حين يكون ساعياً وراء اظهار رغبته في تحقيق الوثام .

يتضح لنا ان حياة العاصمتين ، بفعل التوزيع المجاني على الشعب وسخاء الاغنياء ، أعظم بهاء منها في المدن الاقليمية . ولكنها ، على الرغم من الرواسب ومظاهر المراعاة المعدة للحفاظ على نفوذها ، لا تتمتعان ، بالنسبة لها ، بمزيد من الاستقلال الحقيقي . ومها يكن من الامر ، فان التقليد يرغب في ان تسهم اجهزتها المحلية ، وهي وريثة أسماء مجيدة ، في شؤون الدولة : ولكن هذا الموضوع اقل وروداً آنذاك منه في الماضي .

٣ - الحكومة المركزية والامبراطور

أنيطت شؤون الدولة هذه ، بالاضافة الى رقابة الادارة والدفع بها الى الامام ، بالامبراطور دون سواه .

الدولة والنظام الشخصي
اقتضى لمثل هذه الدولة ، التي ترى توسع أعمالها وتعتمد ، بغية تنفيذها تنفيذاً أفضل ، أساليب مركزية ضيقة ، تنظيم حكومي قوي . لم يخل العهد الامبراطوري الثاني من هذا التنظيم . لا بل بلغت النظر انه توصل ، على الرغم من قصره ، الى تحقيق تنظيم يمثل هذه القوة ، ويمثل هذا الاستقرار نسبياً ، أقله بصدد المصالح ، ان لم يكن بصدد الرجال . وقد توصل ، في بعض المواضع ، الى التمييز بين مفهوم الدولة ومفهوم الامبراطور .

بيد ان مفهوم الامبراطور ما زال يسيطر على مفهوم الدولة ، ويلاشيه ملاشاة في أكثر الاحيان . ولكن هذه الظاهرة ليست نتيجة الطابع البدائي الذي تنسم به دولة في طور التكون ، كما حدث في العهد الامبراطوري الاول ، بقدر ما هي نتيجة السلطة المطلقة التي تفسح مكاناً كبيراً لاهواء الامبراطور الشخصية وللتأثيرات الخاصة التي قد يخضع لها . وكان تجنبها يستلزم ملكة عقلية ووضوحاً منطقياً يسيّرهما نهج فكري ساد في عهد الانطونيين ، ولكنه أهمل بعد ذلك . ومتى ميزت الدول العصرية بين هذين المفهومين يا ترى ؟

قامت ، في ما يعنيننا ، مصاعب أخرى أيضاً : تعدد الاباطرة أولاً ، وتبدل عددهم ثانياً وخصوصاً . فقد وجب لكل منهم حكومته ودوائره المركزية المحدثة تقسيماً او دمجاً بحسب التقلبات السياسية . ولحسن الطالع ، انتهى هذا التعدد في أغلب الاحيان الى نظام ثنائي قسمت الامبراطورية بموجبه الى شرق وغرب . ومها يكن من الأمر فان هذا النظام هو الذي وطده وجود ابني ثيودوسيوس في اوائل القرن الخامس ، واذا ما زالت حكومة الغرب بعد ذلك ، فان حكومة الشرق قد استمرت في الامبراطورية البيزنطية .

ان للتقدم الذي احرز في مثل هذه الظروف أهمية يزيد من شأنها ان النزعة التي الكونتية
يعكسها لقب الـ *Comes* ، أي « الرقيق » الذي اشتقت منه كلمة « كونت » ، كانت قادرة على إيقافه نهائياً .

لم تجهل الامبراطورية الاولى هذا اللقب الذي عرف باسم « الصديق » آنذاك ، ولكنه لم يفض قط الى ما يشبه الرتب البلاطية في الملكيات الهلينية . أعاده قسطنطين ، بعد فترة زوال ، بمنحه موظفين او كلت اليهم في البداية مهام خاصة تحل بالنظام السائد . ولكنه لن يلبث ان يفرط في توزيعه ، فيحتدي حدوده خلفاؤه . وعلى الرغم من ان اللقب ، في بعض الحالات ، — سبق وأشارنا الى كونت الشرق — لا يتميز عن اسم الوظيفة الرسمي ، فانه قد أصبح سمية تزيينية قبل كل شيء آخر استلزم احداث ثلاث درجات اطلق عليها اسم « الرتب » .

ان الكونت ، نظرياً ، لا يخدم الدولة بل الامبراطور الذي تربطه به صلة شخصية قوامها المودة والشكران والاعجاب ؛ كما ان مجموع الكونتية يؤلفون « معيته » نظرياً ويرافقونه في تنقلاته . ولكن ليس لهذه النظريات من نتيجة عملية : كانت هذه المثل ، منذ أمد بعيد ، اساس التنظيم الحربي عند البرابرة الجرمانيين . وليس ما يمنع الاعتقاد بتأثير هؤلاء على قسطنطين .

ومن المحتمل جداً أيضاً ان تكون هذه المثل حينئذ الى العادات والاعراف الهلينية والرومانية على السواء : فما زالت الملكية الامبراطورية ، في جوهرها ، ملكية شخصية مبنية على مفهوم الانسان المتفوق . ويغلب على الظن ان ما اوجب الاخذ بها ، في البدء ، هو واجب حل بعض الصعوبات حلاً سريعاً . ثم فقدت جدواها ، في التطبيق العملي ، بفعل حتمية صيرورة الالقاء البلاطية الى الابتذال والحاجة الى المحافظة على الآلة الادارية العادية . ومهما يكن من الأمر ، فان « معية » قسطنطين وخلفائه ليست مسؤولة قط عن انقسام الدولة في القرن الخامس ، وانما اقتصر الـ « معية » التي كانت لها الغلبة بعد ذلك ، والتي كانت ابعد تأصلاً جرمانياً ، على استخدام مفرداتها .

بعد اجهاض هذا الخطر ، قامت على رأس الدولة ، بغية ممارسة أهم صلاحياتها ، أجهزة وظائف ثابتة . واذا ما كان بعضها ، من هذا القبيل ، موروثاً عن العهد الامبراطوري الاول ، فان التقدم في الطريق التي شقها هذا الاخير ، واقع راهن .

يطلق على « مجلس الامير » القديم ، بفعل متطلبات آداب المجتمع ، اسم « الموقف » (الجمع) اذ ان اعضاءه يشتركون فيه وقوفاً . تعود رئاسته ، في غياب الامبراطور ، الى « وزير مالية القصر » . يدرس شتى الشؤون ، ويشترك كبار رؤساء المصالح في جلساته . وللموقف ، بالإضافة الى ذلك ، امناء سره الذين يؤمنون استمرار اعماله بواسطة الاختزال .

اما اولئك الذي يمكن تسميتهم بالوزراء فلا يزالون قليلي العدد جداً . فهناك « رئيس امناء السر » الذي يضبط يومياً جدول الموظفين والرؤساء العسكريين ويمارس بالتالي وظيفة على بعض الاهمية . ويدير الخزانة ، بحسب مصدر الواردات ، « كونت الاعطيات المقدسة » و « كونت الاملاك الخاصة » . ويرأس دوائر المستشارية « سيد الدوائر » الذي تتعاظم اهميته باستمرار ، كما يبدو ، ولعل السبب في ذلك انه رئيس « موظفي الشؤون » ايضاً ، الذين يمارسون ، بفعل انتشارهم في كل مكان ، عملاً اتهامياً لا يختلف عن الجاسوسية احياناً . ويجدر بنا ايضاً ان نضيف الى هذه القائمة قائد حرس القصر المعين على رأس الادارة الاقليمية .

تجدر الاشارة هنا الى ان الحكومة المركزية خلو من وظيفة وزير اول . وربما كان « وزير مالية القصر » مؤهلاً قبل غيره لشغل هذا المركز . وربما اسندت الوظيفة الى رجال لم يعرفوا كيف يستثمرون طاقاتهم : ومهما يكن من الأمر فقد فقدت اهميتها . ولكن السبب الرئيسي ، في الارجح ، هو ان اباطرة القرن الرابع كانوا حذرين فقسما السلطة بين مساعديهم حفاظاً على سلطتهم الخاصة . ولنشر مرة اخرى هنا الى فصل الوظائف العسكرية عن الوظائف المدنية : « فساد الدوائر » هو من يرأس الجنود البرابرة في الحرس الشخصي ، ولكن « للحمامين » رئيساً خاصاً هو « كونت المنزلين » ، كما ان « اسياذ الجنود » يرأسون الجيوش ، حتى تلك المقيمة في جوار المقر الامبراطوري . فقد فرضت امثلة العديد من الاختبارات المؤسفة اللجوء الى التبصر والحكمة . ولن يحدث الا بعد

وفاة ثيودوسيوس ان يبرز اشخاص يصبحون اسياد الحكومة الحقيقيين، على الرغم من تعرضهم الدائم لفقدان الخطوة بصورة مسرحية مفاجئة : القائد ستيليكون في الغرب ، وقائد الحرس روفينوس وافتروبيوس مدير غرفة الامبراطور في الشرق ، الذين سيبرز بعدهم كثيرون سواهم . بيد ان تنوع الوظائف الرسمية التي يشغلونها يبين ان لا صلة عضوية بين اية وظيفة منها وسلطتهم . فهم لا يدينون بهذه السلطة الا لعطف الامبراطور الشخصي ولعدد الزين ، وحتى للقربات اللامعة التي اتاح لهم هذا العطف تكوينها : تزوج ستيليكون من ابنة عم الامبراطور في السنة نفسها التي ولد فيها هذا الأخير ، فعين وصياً عليه ثم زوجه ابنته على التوالي . ولكن الملكية ، حتى في زمن اباطرة ضعفاء من امثال اركاديوس وهونوريوس ، لم تسمح بقيام وظيفة قد تعطى صلاحياتها الرسمية دور تنسيق ، وبالتالي دور ادارة حقيقية لمن تسند اليه .

كان للامبراطور مفضلوه المقربون : وهل خلا منهم اي حكم مطلق ؟
دسائس البلاط
قام هنالك بلاط اقل فجوراً منه في العهد الامبراطوري الأول - ومرد ذلك الى ان النصرانية ، بعد ارتداد قسطنطين ، قد تركت اثرأ قوياً في الاخلاق - ولكنه ليس دونة بطانة أو حقلاً خصباً للدسائس . وقد يحدث فيه ان تتدخل النساء في السياسة . ولكن ذلك لم يبلغ قط ما بلغه في بلاط سلالة ساويروس حيث تذكرنا الاميرات السوريات جوليا دومنا امرأة سبتيموس ساويروس ووالدة كركلا وشقيقتها جوليا ميزا ، وابنتا هذه الأخيرة جوليا سوامياس وجوليا ماميا ، والدتا ايلغابال وساوروس اسكندر ، بطموحن وعزمهن اللذين لا يقفان عند حد ، باكثر الملكات السلوقيات او اللاجيات افتاناً وتهيجاً . ومع ذلك فاذا كان من الطبيعي ان تتوارى النساء في فوضى القرن الثالث ، فانهن قد ظهرن مجدداً في القرن الرابع . فقد ادمت بعض المآسي البلاطية ملك قسطنطين الذي اعز بقتل ابنه كريسبوس بتحريض من امرأته الثانية فوستا التي ما لبثت ان اعدمت الحياة بعد اشهر معدودة . وافاد جوليانوس افادة جلي من عطف الامبراطورة افسافيا عليه لدى كونستانس الثاني . وجعل موت فالنتينيانوس الاول من ارملة جوستينا ولية العهد ، واسرع ثيودوسيوس في ترفيع ستيليكون بعد ان وافق على زواج ابنة شقيقه منه . ويمكننا الاستشهاد بمزيد من الامثلة التي يوفرها لنا خلفاء ثيودوسيوس .

كان للرجال ايضاً تأثيراتهم ولم تكن دون تأثيرات النساء طابعاً شخصياً . فانت « للقصر المقدس » ، بالضرورة ، مصالحه التي يحتل رؤساؤها مركزهم في تسلسل الموظفين . وقد وفرت احدى هذه المصالح بنوع خاص ، « الغرفة المقدسة » ، لمن ينتمي اليها ، تقرباً شخصياً وحميماً من الامبراطور . فعلى نقيض كافة المصالح الاخرى التي أقفلت في وجه العبيد او المعتقين ، إلا في بعض المراتب الدنيا ، ما زالت هذه المصلحة مخصصة بهم تقريباً : لا بل كان بينهم شرقيون كثيرون ، وخصيان كثيرون ايضاً بحسب عادة يفسرها منشأهم . وعلى الرغم من هذا الذل ، وربما بسببه ، فقد حدث احياناً ان توصل بعضهم الى التأثير على الامبراطور نفسه . اجل قامت

سوابق مماثلة في عهد سلالة كلوديووس، ولكنها سوابق غير مشينة. اما الآن فاننا نشاهد خصياناً « يتولون شؤون الغرفة المقدسة » ، أي مدراء غرفة كباراً يسند اليهم القيام بالمهام الدقيقة والدورات التفثيشية وبأكثر من ذلك . تلك حال افسيفيوس الذي أوحى بأكثر من قرار من قرارات كونستانس الثاني ، ثم اعدم في اوائل ملك جوليانوس . وتلك خصوصاً حال افثروبيوس الذي كان متقدماً في السن حين دخل في خدمة ثيودوسيوس وتوصل بسرعة الى احدى الوظائف العليا ، فتركه ثيودوسيوس لابنه الذي كلفه بعد ذلك القيام بحملة عسكرية ورفعته الى رتبة القنصلية .

نعتقد بأن هذه الأمثلة كافية للتكهن بما عزم به بلاط القرن الرابع من دسائس وبما سيكون من امره في القرن الخامس حين ينقطع الامبراطور عن العيش مع الجيش حيث كان ينجو من بعض هذه التأثيرات . واذا ما انجز في القصر عمل حكومي واداري جدي ، فقد حيك في فيه ايضاً مؤامرات مظلمة تفرز منها النفس احياناً ، ناهيك عن الرشايات والحيافات وما تجرّ اليه من تحاسد وما تثيره من تنافس حاد بين موظفين يساندونهم اقرباؤهم او زبائنهم .

كان كل هذا ثمن الحكم المطلق . بيد ان الامبراطور لم يتمتع يوماً ، في الواقع ،
الامبراطور :
الرئيس العسكري :
بمثل هذا الحكم .

فهو لا يزال رئيس الجيش ومختاره . وقد سبق وألحنا اعلاه الى حقيقة اعتراف مجلس الشيوخ به ؛ اما اتصالات الشعب الوحيدة به فلا تجري ، كما هي الحال منذ امد بعيد ، إلا في الملعب أثناء الالعاب . بيد ان الأمر على خلاف ذلك مع الجنود . فالحدث الرئيسي ، الفعلي والنظري معاً ، الذي يرافق جلوس امبراطور جديد على العرش هو تقديمه الى فرق مختارة تتنادي به امبراطوراً ؛ ثم يلي الاحتفال اعلان توزيع الهبات . هذه هي الحال حين يجري كل شيء في ظل النظام ، فإذا نقول اذن عن الاغتصابات ؟ ان خير ما نعرفه عنها في أصوله الاجرائية هو ذاك الذي استفاد منه جوليانوس في لوتيسيا في اوائل السنة ٣٦٠ . فحين خضع للتمرد ، الذي اعدته الاركان خير اعداد على كل حال ، رفع على ترس احد المشاة ووضع على رأسه ، عوضاً عن التاج ، عقدٌ احد حملة الاعلام الكتلتين . وعد حينذاك بتوزيع الذهب والفضة (ما يعادل ١٤٠ فرنكاً بسعر السنة ١٩١٤ لكل جندي) . وفي اليوم التالي ألقى خطبة في ميدان مارس فصق له الجنود وأعربوا عن استحسانهم بضرب تروسهم بالرماح . ظهرت للمرة الاولى في هذه المشاهد طقوس بربرية ، أهمها اعتلاء الترس الكبير ، تدل على التطور الذي طرأ على التجنيد ، ولن تستقر إلا في عهد لاحق على الأرجح . وبقي اخيراً دور الجيش كجيش ، الذي يتفق وأغرق تقاليد النظام : والجدة الوحيدة هي ان الجيش قد غدا وحده منذئذ صاحب الحق في منح السلطة .

ان هذا الطابع العسكري لا يزول يحلوس الامبراطور على العرش . فالوظائف الذين يعتبرون جميعهم ممثلين للامبراطور او معاونين له يعتبرون جميعهم جنوداً ايضاً . بزتهم تستلزم النجاد . والنجاد يدخل كذلك في بزة الامبراطور الاعتيادية مع المعطف الارجواني الذي يرتديه الرئيس

الحربي . وإذا ما ندر الاحتفال بواكب المنتصرين ، فإن فكرة النصر تدخل في الاحتفالات التي حلت عملياً محل هذه المواكب في اعياد الجلوس التي تقام برونق خاص كل عشر سنوات : فكان هنالك الذكرى العشرية الاولى والذكرى العشرية الثانية ، وحتى الذكرى العشرية الثالثة لجلوس قسطنطين . واستمرت هذه الفكرة في النعوت التي ما زالت تضاف الى الالقاب الامبراطورية .

بمثل الاله إلا ان الجيش ، الذي هو القوة فحسب ، لا يستطيع ان يعطي السلطة إلا مرتكزاً أدبياً خشناً اذا ما اكتفي به . وقد ساد الاعتقاد ، تصريحاً او تلميحاً ، بأن الجنود ، الذين لا ينتخبون باختيارهم ، يكتفون بأن يعترفوا وينادوا بذلك الذي أسماه ثيمستوس « الكائن السماوي » و « رسول السماء » . وسين كان الجيش الجمهوري ينادي بقائده امبراطوراً بعد النصر ، كان يحبي فيه حبيب الاله . وكان للامبراطور منذ القدم ارتباطات خاصة بهذا الإله . ولكن طابع الملكية الديني ومظهر الامبراطور الإلهي قد برزا بقوة منذ الامبراطورية الاولى التي حرصت على ألا تنقل الى روما مثالية الملكيات الهلينية كاملة .

برزت قوة هذه النزعة منذ اواخر القرن الثاني بنوع خاص حين احرزت التأثيرات الشرقية غلبة حاسمة . ولم يبلغ النظام يوماً ، في سلوكه هذه الطريق ، ما بلغه قبيل جلوس ديوكليسيانوس . ولنهمل هنا تجاوزات ايلغا بال التي ليست سوى حدث عابر . ولكننا نلاحظ ، طيلة القرن الثاني ، التقدم المستمر في العلاقة بين فكرة « الاله الشمس » ، سيد الكون ، وفكرة الامبراطور بمثله على الارض ، بل أقنومه البشري . لقد رغب بعض الاباطرة في السابق بأن يمثلوا على قطع النقود حاملين تاجاً مشعاً يرمز الى الشمس : اما الآن فيظهر هذا التاج على رأس كافة الاباطرة . وقد بلغ هذا التطور ذروته في عهد اوريليانوس . فقد درجت منذ سلالة ساويروس عادة غير رسمية تقضي باطلاق لقب « الاله » على الامبراطور . اما اوريليانوس فقد أرفق اسمه ، على النقود ، بالصيغة الرسمية « المولود إلهاً وسيداً » : ويستلزم هذا التحديد عبادة شخصية تؤدي فروضها للامبراطور وهو على قيد الحياة .

لا مراء في ان ديوكليسيانوس قد خطا خطوة الى الوراء . بيد ان الحل الذي اعتمده أبعد تقدماً من ذلك الذي اعتمده أباطرة القرنين الاولين . اقتصر هؤلاء على اعتبار أنفسهم أبناء سلفهم « الاله » . اما ديوكليسيانوس فقد أطلق على نفسه اسم « جوفوس » وأطلقه على قيصره ، بينا اختار الامبراطور والقيصر الآخرين اسم هرقلوس . ومعنى هذين الاسمين « ابن جوبيتر » و « ابن هرقل » ، أي ابنا إلهين هما أوسع آلهة الزون الروماني شهرة آنذاك ، الاول كسيد العالم والثاني نظراً لوضع قوته في خدمة سعادة البشر . تسلم أبناء هؤلاء الآلهة النعمة الالهية من آبائهم . فكانوا وسطاء بين الآلهة والبشر يحظون بالهام وعضد اولئك ، بينا يقدم لهم هؤلاء الطاعة والاحترام الديني دون ان يستلزم ذلك العبادة بالذات .

قد نجد احياناً ، حتى ابان الاضطرابات التي عقيبت اعتزال ديوكليسيانوس الحكم ، استمرار عرف اعتماد هذه الالقاب الرسمية في كلا السلالتين . وعلى كل حال فان مفهوم الطابع الإلهي في

الاباطرة قد امتد حتى ظفر الامبراطور المسيحي قسطنطين . على ان هذا الظفر لا يكون ثورة من هذا القبيل . فقد سلت النصرانية على الدوام ، كما قال القديس بولس ، بأن « لا سلطان إلا من الله » ، ولا يعقل ان يسمح قسطنطين بزوال الاساس النظري لسلطته في نظر الوثنيين من رعاياه . ولا يلزم لذلك سوى حد أدنى من التوفيق بين الاتجاهين ، أي إلغاء الابوة الالهية ، وأسمي جوبتير وهرقل دون ابداهما بأي اسم آخر : وقد درجت الوثنية نفسها ، منذ زمن بعيد ، على الكلام عن « الالهة » و « الإله » بمعناها الواسع . فجوهر الفكرة من ثم لا يزال باقياً لخير الجميع : الله يختار الامبراطور نائباً عنه ؛ يده تمده الصولجان ؛ يقويه ويلهمه .

الحقوق والواجبات يستتبع ذلك واجبات على الامبراطور لا يجد الوثنيون من امثال ثيمستوس وسينيزيوس - الذي لم يكن بعد أسقفاً على بتوليايس في كيرينا حين وجه الى اركاديوس ، في السنة ٣٩٩ ، خطابه « حول الملكية » - او المسيحيون من امثال افسيفيوس أسقف قيصرية ، صعوبة في الاتفاق عليها . ولا تختلف هذه الواجبات ، في الواقع ، عن تلك التي حددها أكثر الفلاسفة منذ اواخر القرن الرابع قبل المسيح . وقد انطوت عليها كلها تقريباً مثالية الملكية الهلينية نفسها ، كما انها لم تكن بعيدة عن مثالية الامبراطورية الاولى . غير ان الامراطورية الثانية تتكلم عنها بمزيد من التشديد وتضفي عليها طابعاً يتسم بمزيد من الصوفية . لن يتميز الملك عن المستبد اذا هو بنى سلطته على الخوف لا على المحبة ؛ واذا هو لم يمارس كل الفضائل ، لا سيما العدل ومحبة البشر ؛ واذا هو لم يقدم لرعاياه مثل الخير بغية ارشادهم وتخليصهم ؛ واذا هو لم يقتد بالاله ، « مثاله الاول » بالنسج في بناء الدولة وادارتها على منوال المدينة السماوية . عرف الاباطرة جميعهم هذه الواجبات ؛ وقد سمح كثير منهم للخطباء بتوضيحها وتفسيرها امامهم بلهجة تعليمية لا تخلو احياناً من درس ضمني على الاقل ، دون ان تنقلب يوماً الى انتقاد صريح . فقد قال سينيزيوس لاركاديوس : « اما انت فعليك ان لا تسقط من المرتبة التي عينت لك ، وان لا تحط من لقب الملك الذي تحمله على غرار الله ، وان تتقيد ، على نقیض ذلك ، بهذه القدوة ، وان تغمر المدن باحسانات لا تحصى ، وان توفر كل سعادة ممكنة لكل من رعاياك » . وليس من امبراطور ، على كل حال ، يعترض على تبني هذه الافكار . فان بياناتهم الرسمية وبراءاتهم تستوحي باستمرار هذه الفضائل التي يعرفون ان من واجبه التحلي بها . فلنكتف ، بين نصوص كثيرة مماثلة أخرى ، بأن نقرأ هذا المقطع من مقدمة براءة ديوكليسيانوس حول الحد الأعلى : « فإلينا نحن الساهرين ، نحن آباء الجنس البشري ، يعود واجب احقاق الحق حتى تجد الانسانية ، التي لم يحالفها الحظ في الدفاع عن نفسها ، انفرجاً يؤول الى الخير العام ، بفعول تدابيرنا الاحترافية » . وان في التشريع ، الذي يتميز ، في القرن الرابع ، بالقسوة في مكافحة الزنى والخطف ، لتعبيراً عن تصميم المسؤولين على الزام الرعايا بالتقيد بالانظمة الاخلاقية . بيد ان هذا المفهوم يمنح الامبراطور سلطات غير محدودة ايضاً . عرف الملك ، في العهد الهليني ، بانه « الشريعة الحية » ، فرجع اليه غالباً آنذاك ، وهو يقبل تفسيرين : اما الانسان الذي

يعطي الشريعة حقيقتها الحية بفرض التقيد بها ، واما الانسان الذي تكون ارادته الحية الشريعة بالذات . ويتجنب كثيرون توضيح فكرهم ويحتشمون وراء تأكيدات مطمئنة ، فقد قال ثيمستوس : « الملك هو شريعة حية ، شريعة الهية آتية من العلاء ، هبة زمنية من الكرم الازلي ، انبثاق من طبيعته ، ... لا بد له ان يتجه اليها وينزع الى الاقتداء بها » . ولكن ثيمستوس هذا نفسه لا يتردد في مكان آخر في ان يقول للامبراطور : « انت الشريعة الحية ، ودونك الشرائع الكتابية » . غير انه لا يلبث ان يضيف بان واجبه يقضي عليه ، والحالة هذه ، بتفسير الشرائع وتخفيف صرامتها .

مها يكن من الأمر ، فمن ذا الذي يستطيع الحكم في استعمال الامبراطور لحقوقه وفي طريقة قيامه بواجباته ؟ فليس سوى القديس امبروسيوس ، الذي يهول امام المؤمن بالسلح الروحي الذي تعطيه اياه الاسقفية ، من يستطيع حمل ثيودوسيوس على الاعتراف بخطيئته . ولذلك فالامبراطور عملياً هو « الشريعة الحية » بكل ما لهذا التعبير من معنى .

ينعكس كل ذلك في اصول الاحتفالات . ابقى الاباطرة المسيحيون على الكثير العادات الجارية في الاحتفالات مما خلفته لهم الوثنية . حملوا حتى ثيودوسيوس لقب الحبر الاعظم الذي تخلى عنه غراتيانوس في السنوات الاخيرة من ملكه . وفي الولايات استمر الاحتفال بالعبادة الامبراطورية باستثناء تقديم الذبائح فقط . وما زالت طقوس التأليه توافق الجنائز الامبراطورية في القرن الرابع ، كما ان النصوص الرسمية ما زالت تلقب كل امبراطور ميت بـ « الالهي » . اضيفت الى ذلك عناصر اخرى خالية من اي طابع مسيحي أو وثني يميز ترمز كلها الى سلطة الملك النظرية واشترাকে في طاقات لا تتوفر للبشرية العادية . وانه لمن الصعب ، في الحقيقة ، توقيت ظهور كل منها وتحديد أصلها وتفسيرها الحقيقيين . فالوراثة الهلينية واضحة في كثير منها . ولكن ما هي السوابق المتفرقة التي قدمتها الامبراطورية الأولى ؟ وما هي العناصر المنتقلة من التقليد المستمر في الشرق ، داخل حدود الامبراطورية ، الذي ازداد رسوخاً آنذاك بفعل الغليان الشرقي ؟ وما هي اخيراً نسبة استيحاء مثل الملكية الساسانية التي انتقل اليها ايضاً بعض الارث الهليني وقسم كبير مباشر من الارث الايراني ؟ تبدو بعض المصادر المعادية لديوكليسيانوس ميالة الى المغالاة في الكلام عن ابتكاراته وتقليده للاعداد . اما نحن فيكفينا ، دون الدخول في هذه المجادلات ، ملاحظة اتجاه ملموس نحو غاية واحدة .

حلت الكلمة (« سيّدنا ») ، اخيراً ، في اعلى لائحة الالقاب الامبراطورية ، محل اللقبين التقليديين (« الامبراطور القيصر ») . وكان كل ما يعود للامبراطور « مقدساً » : قصره ، غرفته ، مجمعه ، صوانه ، الخ . يحمل التاج ، رأسه يحاط بالهالة في صورته . تمارس « العبادة » امامه بالسجود وبتقبيل اسفل معطفه . يسك الكرة بيده رمزاً للقوة الكونية .

اخذت اصول آداب المعاشرة تنظم حياته . غير انها لم تحرمه الملذات الشاقة . فهو يتعاطى الفنص حتى ولو انقطع عن التوجه الى الجيش . وتعد المأكذب في البلاط حيث تؤدي معاورة

الخمرة الى المشاجرات . ولعل وجود القادة البرابرة قد ساعد على استمرار هذه الاذواق الخشنه . ولكن الابهة تتجلى في ايام الاحتفالات باحمرار الارجوان ، ولعان الذهب ، والمينا ، واشعاع عرق اللؤلؤ والحجارة الكريمة ، والجواهر ، بما وصفه سينيذوس ، في السنة ٣٩٩ ، بـ « سطوع الوان متقلب شبيه بسطوع الوان الطواويس » ، يأتون من بعيد بالرمل الحماوي الذهب ويذرونه على طريقه ، من رأسه حتى قدميه - اذ ان الحجارة الكريمة تثبت في وشاح التاج والالبسة والنجاد والاحذية نفسها - يحمل الامبراطور بيتاً ثقيلاً وزاهياً يحمله على العرش الذي يستقر فيه وراء طنفسة تراح في البرهة الأخيرة ، بينما يراقب « الصامتون » القاعة . واذا وصف يوحنا الذهبي الفم ، حتى في السنة ٣٩٩ ، في كلامه عن الامبراطور حين يخرج الى المدينة ، « الجنود المجللين بالذهب ، والزوامل البيضاء المزينة بشتى انواع الزينة الثمينة ، والعربات المنزلة بالحجارة الكريمة مع اغطيتها الناصعة البياض وصفاتها المعدنية المترجحة ، والتنانين المطرزة على الملابس الحريرية ، والتروس المزدانة بالسرر الذهبية ، والحجارة الكريمة المنثورة على الخنازل .. » والاحصنة المتوشحة بالذهب مع حكاياتها المذهبة ، « فانه يسارع الى القول ان زينة الامبراطور الفاتنة تفوق بذخ الموكب .

ان مدينة بيزنطية القديمة أصبحت القسطنطينية . ولكن الابهة البلاطية في بيزنطية القرون الوسطى انتقلت ، منذ ذاك الحين ، الى روما الجديدة .

الحكم المطلق سبق ورأينا ان دسائس البلاط وحظوة المقربين غير المستقرة قد لازمت هذه الابهة بالضرورة . ويصح القول نفسه في الحكم المطلق الذي أوحى بهذه الابهة دون ان يفيد منها افادة تذكر .

لنعد اليه في آخر هذا الفصل الذي دار كله حوله . بديهي ان قانون الجلالة القديم لا يزال يحمي العرش وتسهر على تطبيقه محاكم عادية او خاصة برعت الشرطة في تموينها بالدعاوى مع ما يرافقها من اعمال تعذيب ماهر في الاستجواب وتنفيذ الاحكام . فقد زال مفهوم « المواطن » منذ زمن بعيد ، عملياً . اما الآن فالتعبير نفسه يتلاشى امام التعبير « رعايا » وتبرز في اللغة اليونانية كلمة *Douloi* « العبيد » . والحقيقة هي ان سلطة الدولة ، التي يحسدها الامبراطور ، تلجأ الى الاقتسارات الكثيرة : فهو يتولى ، كما رأينا ، فرض معتقداته على غيره ، ويدعي ، كما سنرى ، بحق فرض العمل والمنزلة الاجتماعية على الغير .

الفصل الرابع

التجديدات الاقتصادية والاجتماعية

تتسم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العهد الامبراطوري الثاني بثلاثة طوابق رئيسية . هنالك في الدرجة الاولى تدخل الدولة . فالدولة لم تتمش على مذهب جديد اخذت على نفسها تطبيقه ونشره ، بل نزع ، بتأثير أرسخ المفاهيم قديماً ، وعلى غرار كافة الدول ، الى اعتبار حقها النظري في التدخل في هذه الحقول غير محدود تقريباً . ولكنها شأن النظام السابق أبعد من ان تفكر باستخدام هذا الحق استخداماً تلقائياً . اما التشريع الذي توحى به لها ، خدمة للضعفاء ، آراء الفلاسفة حول محبة البشر والتعاليم الاخلاقية المسيحية ، فلم يؤمر تأثيراً حقيقياً في التطور العام . فالى أية نتيجة كان من الممكن ، في الظروف العادية ، ان يؤدي التيار الذي يعبر عنه هذا التشريع ؟ ليس باستطاعة احد ان يجيب على هذا السؤال . والحقيقة الثابتة هي انه اصطدم منذ القرن الثالث بمجاهات مباشرة اعتبرتها السلطة السياسية اعظم إلحاحاً . وهذه الحاجات هي بالضبط ما أدركته السلطة . فطبقت في معالجتها حلولاً بدت لها غاية في البساطة - وهي غاية في البساطة فعلاً - ، ولكن هذه الحلول ، المعتمدة في البدء كحيل فقط ، كان نصيبها الاستمرار والشمول ، اذ ان شئنة ونهجاً قد تكوناً ، هما شئنة ونهج التدخل المستبد اللذان كان الخضوع لهما امراً محتوماً : ان بعض الآلات الملتصبة ، اذا ما اخضعت للحركة ، لا تتوقف بل تلتقف الجسم بكليته .

وهناك رسوخ الحضارة بين الأغنياء والفقراء وبين المقتدرين والضعفاء ، ليس على الصعيد الاقتصادي فقط ، بل على الصعيد الاجتماعي والقانوني ايضاً . وان في ذلك لعمرى مغالطة بل مغالطات . فواجب الدولة ، وفاقاً للمثالية المسيطرة ، يقضي عليها بحماية الضعفاء . وتقضي مصلحتها والمخطط العام لسياستها المستبدة بالحوول دون تعاضل قوة الأقوياء القادرين أكثر من غيرهم على الوقوف في وجهها . ولعل مهمتها السلبية اخيراً تجد تسهيلات نادرة في اضمحلال القسم الأكبر من النخبة الاجتماعية القديمة الذي تحقق في القرن الثالث . ولكن شيئاً من كل ذلك لم يحدث . فقد برزت ارستوقراطية جديدة كان قوامها ، حتى ولو حملت أسماء اعرق العائلات ، حفدة جامعي الثروات اiban الاضطرابات ، ولاسيما حفدة كبار الموظفين الذين جمعوا بفضل المعطف

الامبراطوري ممتلكات عظيمة جداً في غالب الاحيان . وقد بلغت في الواقع من القوة ما أرغم الدولة على ان تحسب لها حساباً . فلم تقدم على التدخل ضد تجاوزاتها إلا نادراً وبدون جدوى . لا بل انها كثيراً ما شجعت التطور لا سيما بصدد العلاقات بين الملاك الكبير والعاملين في اراضيها . فكانت النتيجة محاولة المقتدرين التوسط بينها وبين الطبقات الدنيا .

اما الطابع الاخير فهو تنظيم مجتمع خاص ، أعنى به الكنيسة ، داخل الجسم الاجتماعي . كان للكنيسة ممتلكاتها وتنظيمها وتعاليمها الاخلاقية . فشكلت بفضل هذا الاستقلال قوة يزيد في عظمتها ان الدولة لم تقدم جدياً ، لأسباب مختلفة ، كجمل الخطر او تقوى المسؤولين مثلاً ، على الحد من انتشارها .

فماذا كانت النتيجة ؟ صحيح ان تسلط السلطة السياسية على الحياة الاقتصادية وعلى التنظيم الاجتماعي لم يواجه بعد مقاومة جديده . ولكن بعض القوى اخذت تتكون وتسمي مستعدة لأن تخلف الدولة حين تضعف سلطتها .

١ - تكييف الاقتصاد

لم تتوفر للنشاط الاقتصادي السهولة التي توفرت له في العهد الامبراطوري الاول ، ولكنه في القرن الرابع لا يقتصر على الاشكال البدائية . قد يلقي الصعوبات بعد ان فقد حريته السابقة ، ولكنه يلبس لكل حال لبوسها ويبلغ توازناً معيناً ، بل درجة معينة من الازدهار .

نترامى لنا هذه التسوية اذا ما القينا نظرة على الوضع النقدي الذي هو ميزان الوضع الاقتصادي والذي تركت تقلباته اكثر الآثار المموسة ، على ما يكتنفها من غموض . افضى اختلال الأموال العامة ، في القرن الثالث ، الى هبوط النقد . فكان توطيد سلامة النقد شرطاً من شروط الاقتصاد المنتظم . ولكن الاباطرة ، على الرغم مما بذلوه من جهود ، لم يتوصلوا الى تحقيق هذه الغاية تحقيقاً كاملاً .

عاد ديوكلسيانوس الى ضرب النقود الجيدة . فلم يطرأ اي تغيير على عيار الذهب ، اما وزن القطعة الأصلية فقد بقي على ما حدده قسطنطين : ٤٥٥ غرامات ، وهو الوزن الذي ابقت عليه الامبراطورية البيزنطية ، بينما سينتهي الغرب الى ١٥١ غرام . وضربت النقود الفضية الجيدة ايضاً ولكن باوزان مختلفة . وتبدلت نسبة القيمة بين المعدنين لصالح الذهب : فانتقلت من ١٢/١ تقريباً في البداية ، كما في زمن اوغسطس ، الى ١٣/٧١ في زمن قسطنطين ، و ١٤/٤ في السنة ٣٧٩ ، و ١٨ في السنة ٤٢٢ ؛ وسيعود بها جوليانوس ، بعد مرور قرن الى ١٤/٤ . ولكنها تغييرات غير مزعجة في الحقيقة : ولم تؤد الا الى حل العالم الروماني على اعتماد الذهب قاعدة ، وهذا ما لم يفعله حتى ذاك الحين ، كما لم يفعله العالم اليوناني من قبله .

قضت الضرورة باصدار كميات وافرة من هذه القطع تأميناً لحاجات التداول . ولكنهم لم يستطيعوا ذلك . فراجت قطع نحاسية ادخلت عليها نسبة ضئيلة من الفضة ، وقطع برونزية ايضاً :

بواسطة هذا النقد غطت الخزانة عجزها دونما حاجة الى التقيد بالوزن القانوني. لذلك فقد هبطت قيمة النقد مرة اخرى . وبإستطاعتنا تتبع هذا الهبوط في مصر بفضل مصادرنا من البرديات؛ غير ان هذه البلاد خضعت لنظام نقدي خاص بحيث ان ملاحظاتنا فيها قد لا تكون ذات قيمة بالنسبة لمجموع الامبراطورية . ومهما يكن من الأمر ، فاننا نرى قيمة الذهب ، خلال القرن الرابع ، تزداد فيها ١٨٠٠٠ مرة على الأقل ^(١) بالنسبة للنقد العادي .

كانت نتيجة هذا الانخفاض في سعر النقد المحصاراً شديداً في العلاقات الاقتصادية، على ما نرجح. ومع ذلك فهي دون ترجيحنا. فالتقد الذهبي قد بقي ثابتاً . كما ان النقود الجيدة المتداولة كانت قليلة ، وكان باستطاعة اي كان من الناس ان يكتزها . ولكنها ، قليلة او كثيرة، كانت نقداً متداولاً، وقد ازداد في ايام ثيودوسيوس ضرب القطع الذهبية والفضية الصغيرة والصغرى: ولم يكن القصد من ذلك ، في الأرجح ، سوى تسهيل تداولها .

لم تكن المعادن الثمينة ، في الحقيقة ، وافرة كما في الماضي ، ولكنها لم تنضب . وما اشد دهشتنا أمام الكميات الضخمة من الذهب المضروب التي استطاع جمعها اثرياء افراد : فقد انفق سيمناكوس مثلاً ما زنته ٦٥٥ كيلوغراماً ذهباً على الألعاب التي اقامها لمناسبة تعيين ابنه قاضياً. وقد حصلت الدولة على المعادن : فقد استثمرت المناجم المتبقية في الامبراطورية بعد فقدان داسيا ، ورافق اقبال المعابد أو تخصيصها لغاية جديدة مصادرة كنوزها ؛ وجمعت بعض الضرائب اخيراً ذهباً وفضة . غير انها لم تحصل على الكفاف منها .

كان من ثم لازماً عليها ، بفعل حاجتها الى النقد الثابت ، ان تلجأ الى التحصيل والدفع عيناً : كما جرى ذلك في استيفاء الضريبة الشخصية ودفع معظم الأجور العسكرية ومرتبات الموظفين . واعتمد الناس اقتصاداً مختلطاً ايضاً بني على المعايضة تارة وعلى الدفع النقدي اخرى. فحين حاصر أليريك روما للمرة الأولى في السنة ٤٠٨ ، أرسل اليه وفد من المحاصرين يقدم له ٥٠٠٠ لبرة ذهباً و ٣٠٠٠٠ لبرة فضة و ٤٠٠٠ قبض حريرية و ٣٠٠٠ جلد مصبوغ بالأرجوان و ٣٠٠٠ لبرة من التوابل : وقد اقتضى جمع هذه الفدية ، من جهة ثانية ، بالإضافة الى ما طلب من الاغنياء ، تذويب تماثيل ذهبية وفضية اخذت من المعابد . وان في هذا المثل دلالة كافية على ما كان يفرض عليهم من تساويات .

واضطروا كذلك الى تعود ارتفاع الاسعار ، وهو النتيجة الحتمية الاسعار : « الحد الاعلى » لانخفاض قيمة النقود الرائجة .

لسنا نعلم حقيقة أسباب الارتفاع الذي حاول ديوكليسيانوس الحد منه في السنة ٣٠١ مع

(١) وهناك من يتكلم عن ٤٥٠٠٠ وحتى ٦٦٠٠٠ مرة. نحن نجعل التحديد الصحيح لما عرف به « الدرهم » في مصر ولما عرف قديماً بـ « الدينار » الذي يختلف عن الدينار الفضي في العهد الامبراطوري الاول . وجلي ان الدولة كانت اعجز من ان تضرب نقوداً برتزية كافية بهذا السعر ، فما هو الحل الذي اعتمدته يا ترى ؟

انه قد وضع في التداول قبل هذا التاريخ نفوداً ذهبية وفضية جيدة . غير ان هذه المحاولة لا ترد الى رغبته في التنظيم فقط ، اذ ان في المقدمة الطويلة لما يعرف بحق بـ « مرسوم الحد الأعلى » وصفاً لوضع خفيف . فهي تذكر بالمصلحة العامة ومصلحة الجنود المحرومين من مكاسبهم الشرعية ، وتعتف التجار المحتكرين والمضاربين « المصمتين على الاثراء » ، ليس خلال سنوات او أشهر ، ولا خلال يوم واحد ، بل خلال ساعات وفي برهة واحدة ، الذين ينزلون الى الاسواق ، حين تثقل وطأة القحط ، مواد غذائية بمجموعة في السنوات السابقة . وهذا ما يبرر التدابير المتخذة : عقوبة الموت لمن يخفي البضائع المخزونة ولمن يفرض او يدفع سعراً أعلى من الحد الأعلى القانوني . وبلي هذه المقدمة جدول يعين هذا الحد الأعلى لأكثر من ألف صنف : المواد الغذائية ، والحامات ، والمصنوعات ، وأجور النقل ، ومرتبات المهن الحرة ، والاجور ، وقد رافقت هذا التعمين تميزات دقيقة جداً تناولت الكمية والنوع .

ان هذا النص ، الذي أتاح مكتشفات كتابية كثيرة جمع القسم الأكبر من متنه ، ينطوي على أهمية عظيمة بسبب هذه التميزات وبسبب المقارنة بين الاسعار : وهكذا فان الأجر اليومي الأعلى لمعامل ريفي ينفق على مأكله من جيبه يوازي على وجه التقريب السعر الأعلى لكليلو غرام واحد من لحم العجول او لنصف كيلو غرام من لحم الخنازير او الضأن او لحمة ليرات من الحنطة . ويكون هذا النص أول تجربة تحاول في ارض على مثل هذا الاتساع وبمنطق على مثل هذا الشمول بغية تحديد الاسعار التفصيلية . غير اننا ، مهما كان من أمر عظمة المجهود ، لا نشعر بحاجة الى التشديد على عظمة خرقه ايضاً : اذ انه لم يأخذ بعين الاعتبار تقلبات الاسعار الاقليمية ، التي لا نشك في ما يمكن ان يكون من أمرها في داخل هذه الامبراطورية الشاسعة ، بل اقتصر على لفت انتباه الشارحين الى ضرورة حساب أكلاف النقل وغيرها مما يسهم في رفع سعر كلفة المحاصيل التي يرغبون في بيعها . ولم يتكلم عن تدبير ديوكليسيانوس هذا سوى مصدر أدبي واحد : ويغلب انه أفضى الى اراقة دماء كثيرة ولم يؤد إلا الى اختفاء المحاصيل وارتفاع أسعارها وفي النتيجة الى إلغاء المرسوم . وليس هذا المؤلف سوى لاكتانس ، وهو مسيحي اشتهر بعدائه للامبراطور المضطهد . فيجوز لنا بسبب تحيزه ان نشك في أمر الأحكام بالموت . بيد انه لا يجوز لنا الشك في الفشل الكامل . فمنذ السنة ٣٠٤ ، حين ألزمت الحكومة الأثرياء المصريين بأرب يتخلوا لها عن الذهب ، عرضت عليهم ثمناً له ، كما يبدو ، عشرة أضعاف سعره المحدد في المرسوم . لم تحدث ، على ما نعلم ، سوى محاولة ثانية مماثلة . في السنة ٣٦٢ أدت الاستعدادات للحرب ضد الفرس الى ارتفاع عظيم في الاسعار غذى نقمة الانطاكين على جوليانوس الوثني . فأصدر هذا الأخير مرسوماً يحدد السعر الأعلى ايضاً . لا نعلم شيئاً واضحاً عن نصه ، ولكننا نرجح انه لم يكن سوى تسعير محلي فقط . اما الشيء الثابت فهو انه لم يعط أية نتيجة .

ليس افضل من مصر ، بالاستناد الى بردياتها ، لتتبع ارتفاع الاسعار هنا ايضاً . لننتقل من سعر الحنطة في السنة ٢٩٤ ، اذ انه قد تحدد أعلاه بالنسبة للأسعار السابقة . فمنذ السنة ٣١٤ ، ارتفع ٣٠ ضعفاً ؛ وفي السنة ٣٣٤ ، ٢٦٠ ضعفاً ؛ وبُعِيد السنة ٣٤٤ ، ٦٦٨٠ ضعفاً ؛ الخ .

وطاب لبعضهم اجراء حساب المال اللازم ، مبدئياً ، لشراء الحنطة في آخر القرن ، فتوصلوا الى ان ثمن ٢٥ كيلو غراماً قد بلغ آنذاك ١٦ طنناً من النقد البرونزي . ولكننا نجعل كيف حلت ، علياً ، الصعوبات التي أوجدها مثل هذا الوضع . كما نجعل نسبة أثر هذا الوضع في خلق وضع مماثل في الأقاليم الأخرى من الامبراطورية .

ولكن هنالك قاعدة ثابتة هي الذهب الذي يوزن وزناً او يعدّ قطعاً نقدية . فقد سمح ثباته باجراء المقايضات ، وتولت سلطة الدولة كل أمر آخر .

مطالب الدولة الاقتصادية كانت الدولة مستعدة لاتخاذ أي تدبير يقتضيه بقاء وتسليم الانتاج الضروري للحياة العامة . وليس من ريب في أنها اتخذت فوق ما نعرفه من تدابيرها ، ولكن ما نعرفه كافٍ لإزالة كل ريبة حول اتجاه سياستها . فالأولوية المطلقة ، حتى ولو لم تنفذ أعمالها بالأمانة المباشرة ، مضمونة في كل مكان بقطعاتها ومصادراتها ومشتراتها وطلباتها على أساس الضريبة او بأسعار تحددها هي ، ولا تخضع رأسمالية الدولة إلا الى اقتصاد توصلت الى تصميمه واقراره ، عن طريق ما فرضته من ميسر وخدمات ، وراقبت العديد من نطاقاته .

كان عليها تأمين الغذاء للعناصر المحلية من السكان . فامتنت الضريبة المستوفاة عيناً ، التي اتاحت تسديد أجور الجيش والموظفين . وخصصت احدى ابرشييتي ايطاليا لتموين ميلانو ، كما فرض على مصر تموين القسطنطينية ، على ان تصل ضريبة الحنطة العينية الى الاسكندرية قبل العاشر من ايلول . اما روما فقد احتفظت بافريقيا بسبب عجز ابرشية ايطاليا الثانية عن سد حاجتها . وهكذا تتضح التدابير الشديدة المتخذة تأميناً لاستيفاء الضريبة واستثمار الاملاك العامة ووجود اليد العاملة الريفية في الاملاك الخاصة .

ليس كذلك من نقص ممكن في انتاج الخامات والمصنوعات . فالمناجم والمهاجر بكليتيها تقريباً ملك للدولة التي تمتلك من جهة ثانية مصانع يدوية مختلفة . لا بل انها احتكرت بعض الصناعات ايضاً . فقد اخضعت الاقمشة الثمينة على الدوام لتنظيم قاس تناول بصورة خاصة اللون الامبراطوري ، اعني به الأرجوان : كان على صيادي « الموركس » ان يسلموا كل حصيلة صيدهم التي لا يجوز ان تنقص عن حد ادنى معين ، وحظرت صباغة الحرير ارجواناً كما حظر انتاجه في غير المصانع الامبراطورية ، الخ . اما المصنوعات التي لم يتناولها الاحتكار ، فقد نزعَت الدولة ، بصددها ، الى تعميم نظام « الهيئات » الذي ظهر في أيام الامبراطورية الأولى . فكانت التعاونيات الأولى المنظمة تلك التي تتولى تموين روما بالمواد الغذائية : الخبزون ، والقصابون ، الخ . وكان ثمن الاحتكار والامتيازات الممنوحة لها التقيد بموجبات عمل قانوني مستمر . ثم شمل النظام تدريجياً المهن الأخرى في كل مدينة : فكان على كل هيئة – وهيئات كثيرة جداً بسبب تجزئة العمل – ان تنتج حداً ادنى من المصنوعات .

يصح القول نفسه في النقل البري ولا سيما البحري . فتنظيم اصحاب المراكب الذين يمولون روما عن طريق اوستيا قديم قدم تنظيم الخبازين . ثم عم هذا التنظيم تدريجياً . فصودر مجهزو

المراكب في كل مكان وجمعوا شركات ذات مسؤولية جماعية وتوجب عليهم ان يؤمنوا في الدرجة الأولى ، وبسعر محدد ، عمليات النقل التي تفرضها الدولة .

تتألف مستنداتنا ، بنوع خاص ، من قرارات رسمية تهدف الى دعم اقتصاد الدولة هذا بتوسيع نطاق تطبيقه ، وتلافي الصدوع ومعاقبة الغش وانذار الموظفين الفاسدين أو المتهملين . وتشتمل كذلك على شكاوى الرعايا الكثيرة من وطأة الاعباء عليهم ومن تجاوزات المنفذين . ولكننا لا نعرف دولة في التاريخ لم تدخل تحسينات مستمرة على نظمها ولم يستغل الرعايا أو المواطنون مطالبها . أجل ان هذه السيئات حتمية : ولا تنجو منها الدول المعاصرة نفسها عندما تنهج النهج نفسه ، على الرغم مما يتوفر لديها من وسائل عملية اقوى . ولا يحيز النقد الزية ان تستوقفنا هذه السيئات وقتاً طويلاً . فنتائج النظام الاجتماعي كانت في الحقيقة اعظم خطورة من نتائجها الاقتصادية .

فهل لم يؤد الى الخراب ، اذا ما نظرنا الى الناحية الاقتصادية فقط . ولعل مرد نظره عامة . ذلك الى ان تنظيم الدولة قد تمتع بصفات لم يمن أي مصدر معاصر يلفت انتباهنا اليها . وقد قام من جهة ثانية ، في جميع حقول النشاط ، ما يعرف اليوم بـ « النطاق الحر » الذي يموت التهريب والفائض الذي لا تضع الدولة يدها عليه : وليس من شك في واقع هذا النطاق على الرغم من عجزنا عن تقدير أهميته . ومها يكن من الامر ، فان القرن الرابع يخلق فينا شعوراً — لأن الاحصاءات تعوزنا — مختلفاً جداً عنه في القرن الثالث .

لا يزال السكان ، واليد العاملة اذن ، اقل عدداً ، كما ان توطين البرابرة ، الذي لم يحدث في كافة أنحاء الامبراطورية ، لم يسد هذا المعجز إلا جزئياً . اجل هنالك ميل الى اهمال الاراضي المهدبة . ولكن الاراضي الاخرى تزرع خير زراعة . وقد يجذب الاهالي احياناً ولكن جديهم أقل خطورة منه في العهد الامبراطوري الاول ، باستثناء روما حين يوقف المغتصبون عنها المستوردات الافريقية . وانتشرت بعض التحسينات التقنية . فالعربة الحاصدة ، وهي اختراع غالي أشار اليه « بلين القديم » ، يصفها مرة أخرى مهندس زراعي في القرن الرابع ويؤكد آنذاك ان استخدامها أكثر رواجاً في السهول الغالية . وكثرت المطاحن المائية . وفي السنة ٢٨٠ ، ألغى الامبراطور بروبوس كافة موانع زراعة الكرمة ، أقله في الاقاليم الغربية . لا بل يغلب انه اصدر اوامره الى الجنود بزراعة الكرمة في منطقتي الساف والدانوب . وفي الواقع انتشرت هذه الزراعة وتحسنت انواع العنب في ألبانيا وغاليا : فقد امتدح « اوزون » عنب منطقتي بوردو والموزيل . وغدا انتاج المناجم والتعدين وافرأ . اما مصانع الزجاج الرينانية ، التي كان مركزها كولونيا ، والتي حققت نجاحات تقنية هامة ، فقد صدرت مصنوعات الى الاسواق البعيدة لأن التجارة بين الاقاليم قد استعادت نشاطها . وقد لفت الانتظار ، في اواخر القرن الرابع واولال القرن الخامس بنوع خاص ، وجود التجار « السوريين » في كل مكان . فلم ينض احد الجغرافيين الاغفال ، في ما كتبه حوالي السنة ٣٥٠ عن غنى المصنوعات وتعديدها ونوعها ،

باعجابه ومدحه ، إلا على مصر وشبه الجزيرة البلقانية . وقد جاء علم الآثار يؤيد تحفظه حيال مصر حيث أدى النقص في سكان الإرياف ، الإهمال في تمهيد الألفية الى اختفاء بعض القرى القديمة في الفيوم تحت الرمال المتركمة . ولكنه يؤيد أقواله في أماكن أخرى أيضاً بصدد الألفية الجديدة او الموسعة وبنوع الأشياء المنقولة .

برزت نهضة الازدهار في أكثر من ولاية ، ولكن الشرق استفاد منها أكثر من الغرب . فهي قد بلغت الذروة ، أقله بعد الفتح الروماني ، في بعض مناطق آسيا الصغرى ، ولا سيما في سوريا . استعادت التجارة مع الشرق البعيد نشاطها وحركتها . ويبدو ان العالم الروماني ما انفك يصدر اليه المعادن الثمينة بنوع خاص ، وما زال يستورد منه المصنوعات البديخة والعمود التقليدية والتوابل والجواهر والحجارة الكريمة والحزير الذين ازداد طلبه في الاسواق . وإذا احتفظ بالحزير للقصر الامبراطوري حين تتخلله الخيوط الذهبية أو حين يصبغ باللون الأرجواني ، فانه ما زال ضالة الأغنياء المنشودة حين يكون مطرزاً بالرسوم أو مصبوغاً بالألوان النباتية . وقد أهملت بصدد هذه التجارة العلائق المباشرة عن طريق المحيط الهندي . ولكن البضائع ، والتجار أحياناً ، يرون في المملكة الساسانية التي عقد معها صلح دائم في أواخر القرن الرابع . وحين تبلغ البضائع نهر الفرات حيث تتولى الدولة اعمال رقابة جركية شديدة في سبيل استيفاء الرسوم ، تتجه الى الموانئ المتوسطية ، كما تتجه اليها صموغ الجزيرة العربية الجنوبية وعمورها التي تتولى نقلها عبر الصحراء السورية قوافل يقف لها الأسعيليون السجسون بالمرصاد . لذلك فان انطاكية ، والمدن الفينيقية ، والاسكندرية التي ما زالت تتمون عن طريق البحر الأحمر ، قد جافظت على صناعاتها الفنية الخاصة .

غير اننا نخطئ ان نحن غالبنا في تجميل هذه اللوحة . ليس من ريب ، اذا ما نظرنا الى الامبراطورية في مجموعها ، في ان الانتاج الزراعي والصناعي كان كافياً لسد حاجات السكان . اما المقايضات فلم تتجاوز قط مستواها السابق ، لا بل لم تبلغه الا في مناطق معينة . فهناك ظاهرة كافية لابرار الفرق بين هذا العهد والعهد الامبراطوري الأول : ان اكثرية المدن الصغرى والمتوسطة قد تدهورت وتأخرت . ويرد ذلك الى منافسة « المقاصف » حيث نمت المصانع التي باعت مصنوعات من الريفين المجاورين . كما يرد الى منافسة المدن الكبرى أيضاً التي تميل الادارة بدافع طبيعي الى تشجيعها بسبب سهولة الرقابة فيها . أجل كان انهيار روما الاقتصادي ، بين هذه المدن الكبرى ، عميقاً جداً : فهي لم تعد ، بعد انتقال البلاط منها ، مركز الجذب العام ، كما كانت في القرون الأولى . ولكن العواصم الاقليمية ، قرطاجة والاسكندرية وانطاكية ، قد احتفظت بأهميتها ، حين لم تستطع انماها . اما بين المقرات الامبراطورية الجديدة ، فان « تريف » قد نمت نمواً كبيراً . ومع ذلك فليس من تقدم يمكن مقارنته بتقدم القسطنطينية ، العاصمة الجديدة للامبراطورية . فنهنا تنطلق كل التجارة البحرية في الشرق المتوسطي . والطريق البرية التي ربطت بين البوسفور ونيكوميديا ، مروراً بآسيا الصغرى ، قد شهدت حركة سير ناشطة جداً . ويمكن القول نفسه عن طريق الغرب أيضاً . فليست « الطريق الاغناطية » القديمة ما يقود ، كما

في السابق ، الى الأديراتيك ، مروراً بمقدونيا والايبر ، بل تلك التي تجتاز سيرميوم وتتجه مباشرة الى غاليا أو إيطاليا الشمالية دون ان تمر بروما .

ليس من السهل وضع ميزان هذه العناصر المختلفة ، والمتناقضة في أغلب الأحيان . غير ان الامر الثابت هو ان الامبراطورية لا تشكو من فقر الدم في اواخر القرن الرابع ، وان شطراً كبيراً من الشرق يعرف ازدهاراً حقيقياً . فمن ذا الذي يستطيع التكهن بمصير كل ذلك لو لم يحدث ما حدث في القرن الخامس ؟ مهما يكن من الأمر ، فان أحداث القرن الخامس ستكرس أولوية القسطنطينية التي حلت منذ الآن محل روما كمقدمة المواصلات بين اقاليم الامبراطورية .

٢ - المجتمع العلماني

ما كانت الدولة لتستطيع توطيد سلطتها على الاقتصاد لو لم توطدها في الوقت نفسه على المجتمع ، او لو لم توطدها بقوة على بعض الطبقات على الأقل .

لم تقف الامبراطورية الاولى نفسها موقفاً حيادياً على هذا الصعيد . مرسوم كركلا على الرغم مما انطوى عليه سلوكها من اعتبارات اخرى ، فان باستطاعتنا القول ان انعامها بالمواطنة الرومانية على عدد مطرد الزيادة من الاقليميين ، أي من المغلوبين السابقين ، هو نوع من التدخل . وقد حصل على هذه المواطنة كل الذين رضوا بالاحتكاك بالحضارة . فهم قد انضموا بذلك الى روما التي استطاعت من ثم توجيه واستخدام ارتقائهم الاجتماعي وارتقاء أنسأهم من بعدهم . أفصى هذا السخاء المفيد للنظام ، في السنة ٢١٢ ، الى مرسوم كركلا الذي انعم بالمواطنة على كل الرجال الاحرار المولودين في ارض رومانية، باستثناء البرابرة الذين اقاموا آنذاك في الامبراطورية واخضعوا لنظام ادنى خاص . ولعل مرد هذا التدبير الى اسباب جبائية كان الهدف منها فرض بعض الضرائب على الجميع دون استثناء . ولكن المرسوم كان نهاية تطور بدأ منذ زمن بعيد واستجاب بعد ذلك لمقاصد اخرى . جاءت الامبراطورية الثانية لتعمل به ايضاً، فشملت مفاعيله آنذاك البرابرة الذين يدخلون في خدمتها من غير « الحلفاء » . ولم تحاول الامبراطورية الثانية قط فرض نتيجته المنطقية، اعني بها تطبيق القانون الروماني الخاص على كافة المواطنين الجدد ، بل سمحت بان تبقى بعض القوانين البلدية سارية المفعول في الشرق . اما نتيجة المرسوم الرئيسية فكانت تبسيطاً لعمل الدولة بإيجاد المساواة في الخضوع لها : فلم يعد من اهمية عملية للتمييز بين المواطن والاجنبي الا عندما يتوطن البرابرة جماعات منظمة .

جدة السياسة الاجتماعية قامت السياسة الاجتماعية الحقيقية في العهد الامبراطوري الأول على تنظيم الارترقاء من درجة الى درجة في السلم الاجتماعي، دونما قسر ، ووفقاً لما ترى فيه خيرها . ارادته تدريجياً يمتد على عدة أجيال رغبة منها في تجنب الفوضى . كما ارادته

مدرجاً بحسب عدد من العوامل كانت الثروة والتأثر بالحضارة اليونانية أو الرومانية بينها عاملين رئيسيين ، وأرادته مفيداً للدولة أخيراً يبعث طوعاً تكوّن وتجدد النخب التي تنتقي كبار موظفيها من بينها .

هذه هي السياسة التي اضطرت الامبراطورية الثانية الى التخلي عنها تحت تأثير الظروف . فاحتفظت لنفسها ، من جهة ، بحق اختيار خدامها حيث تريد ، وبترفيهم كما يطيّب لها ؛ ورأينا فيما سبق ما كان من هذا الأمر في الجيش ؛ وقد الغي ، في السنة ٣٦٤ ، بتأثير الذهنية نفسها ، تحريم دخول مجلس الشيوخ على أبناء المعتقين . ولما كانت بحاجة الى ان تنفذ جميع المهام الاجتماعية ، فقد عمدت من جهة ثانية الى محاربة فرار الموظفين واقترت انتقال المهن بالوراثة ؛ وبحث عن مسؤولين غير الأفراد المتفرقين والزائلين ، فارغتهم على التجمع وحملت ارزاقهم مسؤوليتهم حتى بعد انتقال هذه الارزاق الى ايد غير ايديهم . فشجعت الطريقة الاولى الارتقاء الاجتماعي السريع ، اما الطريقة الثانية ، التي طبقت على نطاق أوسع ، والتي ما انفك التشريع يحسنها ويكملها ، فقد لاشت الطريقة الاولى بتنظيم الطبقات وبفرض حقوق الارتفاق على ممتلكات اعضائها . وان في التناقض الصريح بينها لدليل على فقدان كل برنامج مدروس : تمتعت الدولة بسلطة مطلقة على رعاياها فاستخدمت هذه السلطة استخداماً انتهازياً .

اضرت هذه السياسة في الدرجة الأولى بالطبقة الوسطى ، تلك البورجوازية البلدية التي ادت مزيداً من الخدمات الجلي في العهد الامبراطوري الاول ، والفت درجة وسيطة بين الكادحين المدنيين وطبقة الفرسان ، وامنت حياة المدن التي شعت منها الحضارة .

درجت العادة تقليدياً على ان تقدم نخبة هذه الطبقات الموظفين الذين يشغلون «الأمجاد البلدية» : اذ ان أعضائها يمثلون العائلات الصغرى . وقد سبق لنا وتكلمنا عن وطأة مطالب الدولة المالية عليهم وعن مصيرهم الى الافلاس في تنفيذ هذه المطالب . ولذلك فان القانون يفرض عليهم هذه الوظيفة ويعتد في منع تهرّبهم او فرارهم . فان الانتساب الى «الجماعة» التي يؤلفونها في كل مدينة الزامي لكل شخص لا ينتمي الى الطبقة المجلسية والادارة او الجيش ويمتلك ، مع ذلك ، في ارض المدينة ، ارزاقاً لا تقل مساحتها عن ٦,٢٥ هكتارات على الاقل . وقد يحدث في حال ملء بعض المراكز الشاغرة - مراكز الممثلين المحليين - ان يقفوا عند حد أعلى ، او ان يعينوا حداً أدنى من هذه المساحة . ومهما يكن من الأمر ، فلا يجوز بيع ممتلكات الممثل دون مبرر . وترث «الجماعة» ممتلكات الممثل الذي يموت دون ان يخلف ابناً او وصية . وعلى الوريث ان يتحمل أعباء هذه الممتلكات . وبديهي ان الابن يخلف أباه في وظيفته ؛ وكان في النهاية ان النساء أنفسهن قد استفدن من هذا الحق ايضاً . ولا يستطيع أي ممثل الانتقال الى الطبقة المجلسية اذالم يمرّ مسبقاً في كافة «الأمجاد» البلدية واذا لم يخلف ابناً يتوجب عليه ان يكفله ايضاً ، كما لا يستطيع ان يصبح كاهناً اذا لم يجد من يحل محله او لم يتخلّ عن ممتلكاته . وعلى الفار ، اذا حالفه الحظ في

قراره ، ان يعود الى صفوف المثلين حال أقصائه عن الإدارة أو الكنيسة. لذلك فقد رعى الجميع لهذا الوضع الذي يؤدي بأفراد هذه الطبقة الفاضلة الى الافلاس ويدفع بهم الى الحرب. ويزيد بذلك مساحة الاراضي المهمة التي يتوجب على المثلين الباقين تأمين زراعتها او اقله تحمل أعبائها. اما وجه المسألة في ذلك فهو ان هذه النخبة ما كانت لتتجدد، كما في السابق ، بارتقاء رجال توصلوا الى اليسار عن طريق ممارسة الصناعة اليدوية او التجارة . فقد استازمت حاجات اقتصاد الدولة تنظيم المهن المختلفة في كل مدينة وفقاً لتشريع دقيق مماثل يلجأ الى التدابير نفسها. ونحن لن نحاول هنا تعداد كل التعاونيات التي احدثتها السلطة العامة بغية تأمين ممارسة المهن وتقديم الخدمات الجماعية ، بل نكتفي بالقول ان المناجم نفسها قد اعتبرت «ضرورية» في آخر المطاف؛ ولم ينبج من اعتبار «الضرورة» هذا سوى المهن الحرة ، كالطب والتعليم والحمامة ، التي تتمتع ببعض الحصانات، ولكن الذين مارسوا هذه المهن ، ممن تفرض عليهم طبقتهم ممارسة مهن أخرى، قد تعرضوا للطاردة الشديدة . ولن نحاول ايضاً تعداد كافة الاقتسارات التي استهدفت الحيلولة دون تدني أهمية هذه الهيئات ، فهي متشابهة كلها وتوحي بها الذهنية نفسها ، وتدور جميعها حول ثلاثة مواضيع رئيسية : خطر الحرب من الوظيفة ، الوراثة ، المسؤولية عن الممتلكات التي تتفاوت الشدة فيها وفقاً للحالات النوعية وطابع الاضطراب النسبي فيها . وليس أهم ، كما هو بديهي ، من شؤون النقل والتغذية . لذلك فلا أسهل علينا من ان نختار ، بين الأنظمة الكثيرة حول هذه المهن ، بعض امثلة تقارب الغرابة بتعقيدها وتحكمها . فالهبات التي يتقبلها الحجاز ، ومهر زوجته والهبات التي تتقبلها ، تضاف الى مجموع ممتلكاته وتخضع الى حقوق الارتفاق نفسها التي تخضع لها ممتلكات الحجاز . وماذا يحدث من ثم اذا كانت هذه الممتلكات الجديدة نفسها مرتبطة قبل ذلك بهيئة أخرى يا ترى ؟ فالبحار الذي يرث خبازاً مثلاً يرتبط بهيئة البحارة لجهة بعض ممتلكاته وهيئة الحجازين لجهة البعض الآخر. لذلك نكتفي بهذا القدر من الدلائل التي تبين بوضوح كاف ما يمكن ان تتوصل اليه الدولة تدريجياً .

ان هذا العدد الكبير من القوانين الدقيقة والصارمة يتم عما ينطوي عليه النظام من شوائب . ولا يؤخذ على الامبراطورية الثانية وحدها ان تتقلب مساعي المحالفين المبكرة على احتياطات المشترع حين يكون موضوع المخالفة مغرياً . فقد توفق كثير من الصناعيين اليدويين وممثلي العائلات الى الحرب مثلاً واستقبلت الحكومة نفسها بعضهم وعينتهم في وظائفها على الرغم من الجهود التي بذلتها لاعادة الفارين الى مراكزهم الاولى . وقد وضعت جداول بالطلاب الذين ورد ذكرهم في مراسلات ليبانيوس الذي درس الحقوق طيلة اربعين سنة تقريباً في النصف الثاني من القرن الرابع : فمن أصل ٦٢ بينهم من عرف منشأهم الاجتماعي واتجاههم الاول اللاحق ، أصبح ٢٢ من أبناء ممثلي العائلات ممثلي عائلات كآبائهم ، وسلك ١٨ طريقاً أخرى تمكن ٥ او ٦ منهم السير فيها دون صعوبة .

اما عاقبة هذه المضايقات فيمكن معرفتها بسهولة . فمن حيث ان الطبقة الوسطى قد توزعت فرقاً أ سند لكل منها خدمة عامة او سد حاجة اقتصادية ، ومن حيث ان كلا من

أعضائها قد ألحق بشخصه وممتلكاته بأحدى هذه الفرق ، ومن حيث انها ترغم قسراً على القيام بواجبها الأول حين تحاول المخالفة ، ومن حيث انها حرمت المبادأة الحرة وامكانات الارتقاء التي هي سبب وجودها ، فقد اعرضت عن القيام بالدور الذي عينته لها السياسة الاقتصادية ، وحتى العامة ، في العهد الامبراطوري الاول . لذلك فان ضرراً كبيراً قد لحق بالحياة البلدية التي هي جزء أساسي لا يمكن فصله عن حضارة لا يتنكر احد آنذاك لمثلها الاعلى . فقد توقفت التبرعات الخاصة بغية سدّ عجز الميزانيات المحلية . وتضاءلت الحركة العمرانية بسبب الحاجة الى المال وعدم توفر المكان داخل الاسوار التي يكفي تمهدها لاستنزاف الموارد . وتدنى عدد الأعياد لأن المسؤولين اقتصروا بصدها على « التسخير » المفروض . بدعي ان تفاوت النشاط الاقتصادي يفتر بعض الاستثناءات . فما زال البنخ مسيطراً في المدن الكبرى ، وما زال حكامها أسخياء نحو عامة الشعب . وقد وصلت البنا تفاصيل مدهشة حول عظمة انطاكية بنوع خاص والملاهي المتوفرة لسكانها : فالشوارع تضاء ليلاً ؛ وقد فوجيء السكان ، وهم في المسرح ، بهجوم الفرس في السنة ٢٦٠ ، كما فوجئوا أثناء مشاهدتهم لسباق عربات ، في السنة ٢٧٢ ، بوصول اوريليانوس على رأس جيشه ، في طريقه الى تدمر ؛ وقد ازدادت هذه الملاهي طيلة القرن الرابع وحتى في اوائل القرن الخامس . ولكن هل نستطيع تعميم ازدهار انطاكية وسوريا على كافة أنحاء الامبراطورية ؟ فان الحضارة المدنية القديمة ، لا سيما في الغرب ، قد فقدت سناها وفقدت بالتالي جاذبيتها : وهي لم تبعد لتستجيب لأية بداهة بعد ان غدا استمرارها مصطنعاً في اطار ضيق ومفقر .

وقد أبرز انعكاسها على حياة المدن وكثرة القوانين والشكاوى العائدة لحالة الاشراف الرسميين البورجوازية البلدية هذه المضادة بين مجتمع الامبراطورية الثانية ومجتمع القرنين الاولين . وحدثت تغييرات هامة ايضاً في الطبقات الاجتماعية الاخرى لم تبق الدولة غريبة عنها ، على الرغم من ان تدخلها فيها أصبح نادراً وأفسح مجالاً لعوامل أخرى تتفق تارة وتتنافس اخرى . اثبت تدخلها جدواه في تنظيم طبقة الاشراف . مال المجتمع الرفيع منذ زمن بعيد الى ان يصبح طبقة شرفاء رسميين . وقد حقق التطور في هذا الاتجاه تقدماً حاسماً بفضل الاقتطاعات والمصادرات التي رافقت الأزمة الثورية في القرن الثالث ، وبفضل حاجات الجيش والادارة من جهة ثانية . فزال الفروق المبنية على النسب والثروة . ورفعت الضريبة عن طبقة الفرسان . ولم يعد للضريبة المجلسية من وجود قانوني . فاستطاع عبد قديم ان يصبح شيخاً وقنصلاً : ولم تقدم حكومة هونوريوس في الغرب ، احتجاجاً على قنصلية افثروبوس ، سوى خصاء مدير الغرفة هذا . وكان على الدولة ، لو انها كانت منسجمة مع نفسها ، الاعتراف الا بالنبل الذي تتمتع به على خدماتها من مدنيين وعسكريين والذي تخضعه لتسلسل يوازي التسلسل في وظائفها .

غير انها اكتفت ، في ما يعنيننا ، باقتفاء اثر نظام الانطونيين الذي تقرر في ظله سلسلة

الألقاب رسمية . فانتهت ، منذ أحداث المرتبتين العليين في ٣٧٢ ، الى الدرجات الاربع التالية ، من اعلى الى اسفل : المجيدون ، المحترمون ، اللامعون ، الكاملون . وقد وزعت عليها الموظفين المنظورين والمروقين وفقاً للوظيفة المشغولة . وتمثل الدرجتان الاخيرتان إرثاً من القرن الثاني . اما الاوليان اللتان اقرهما الانطونيون فقد نشأتا عن الاستعمال : وعادةً اساساً الى طبقة الفرسان التي زالت دون ان تترك أثراً سوى لقب « الكامل » .

بديهي ان مثل هذه الألقاب مصيرها الابتذال لان كل وظيفة تحاول الارتقاء في سلمها . ولو اننا تتبعنا مراحل التوزيع ، لوقفنا على امثلة كثيرة تثبت ذلك . فلنكتف هنا بالإشارة الى ان الحكام الوحيدين الذين بقوا في فئة الكاملين هم حكام أقل الولايات شأناً . ولما كان هذا الانزلاق محتوماً فقد جر بالضرورة الى أحداث القاب عليا جديدة والى قبول صفار الموظفين في الدرجات الدنيا : وقد عمدت الامبراطورية الى استخدام هاتين الطريقتين استخداماً متكرراً .

يقضي منطق النظام اساساً بهذه الموازنة الدقيقة بين التسلسلين ، تسلسل الألقاب وتسلسل الوظائف : وهذا هو المثل الاعلى للتشن (*Tchin*) الروسي . ولكنه قد اصاب في الواقع ببعض الالتواءات .

من هذه الالتواءات أولاً وجود لقبين آخرين لا يدخلان في تسلسل الألقاب وينحان مستقلين عن وظائف معينة . أولهما لقب الكونت الذي سبق الكلام عنه ؛ والثاني لقب *Patricius* . استخدمت هذه الكلمة في السابق للدلالة على رتبة الاشراف (بطريق) بمفهومها الديني . ولكن هؤلاء الاشراف قد زالوا ، ولم يعد للدولة ، التي لا تهتم للتقاليد الوثنية ، من حاجة لتعيين سوام كما سبق لها وفعلت في العهد الامبراطوري الأول . فاعاد قسطنطين هذا اللقب الجاهز الذي درج المؤرخون منذئذ على ترجمته بـ « بطريق » وانعم به على شخصيتين كبيرتين . وضم خلفاؤه في القرن الرابع بمنح هذا اللقب ، فحافظ من ثم على سحره ونفوذه : وقد تكلم المعاصرون بصدد البطاريق ، عن « آباء الامبراطور » .

ومنها ايضاً ابهام لقب « اللامع » . احدث هذا اللقب في العهد الامبراطوري الاول واطلق على جميع اعضاء الطبقة المجلسية ، وما زال وفقاً عليهم وحقاً وراثياً للغاية منه اكرام هذه الطبقة الشريفة القديمة ، على انه فقد من اهميته بعد أحداث لقب « المجيدين » و « المحترمين » . لذلك يستطيع بعضهم حله دون القيام باية وظيفة ، بينما يحمله آخرون بسبب الوظائف التي يمارسونها . غير ان هؤلاء اكثر عدداً الى حد بعيد من اولئك الذين ينحدرون كلهم تقريباً من موظفين سابقين ايضاً . فليس من ثم للطبقة المجلسية ، شأنها في ذلك شأن مجلس الشيوخ ، من كيان مستقل عن الدولة .

ومنها اخيراً التعيين في وظائف اسمية غير مادية اطلق على المستفيدين منها لقب « المشرفين » أو « الشرفيين » كما ندعوم اليوم . وغالباً ما يكون ذلك في الترفيع ، حين الاحالة الى التقاعد ، الى مرتبة اعلى من تلك التي تستحقها آخر وظيفة مارسها المتقاعد . وقد يحدث احياناً ان

يستفيد منها فرد من الافراد ، ولا سيما ممثل العائلة ، مما حمل الامبراطور ، احتياطاً من سخائه بالذات ، على وضع نظام عام يحدد الشروط المفروضة على « الممثل » قبل الخروج من اطار « جماعته » .

يتضح من ثم ان النظام ، اذا ما نزعَت الدولة وتوصلت في الغالب الى الجمع بين الوظيفة والنبيل ، يحافظ مع ذلك على بعض المرونة . والهدف الاول من هذه المرونة توفير مزيد من السهولة للامبراطور في توزيع احساناته : وبماثل الحكم المطلق ، في ذلك ، بين الامبراطور والدولة . بيد ان هذه المخالفات لا تنطوي في الواقع على أهمية تذكر : فقد نظم الاشراف في الامبراطورية الثانية وفقاً لتسلسل الالقب ، فهم بالتالي اشراف دولة او اشراف رسميون .

لقد نجم عن صفتهم هذه أعباء وامتيازات . وكانت الغاية من هذه التعويض أعباء وامتيازاتهم عن تلك ولكنها فاقتها الى حد بعيد لأنها استهدفت في الوقت نفسه مكافأة الخدمات المؤداة والحث على طلب الوظيفة والتفاني في ممارستها .

يدخل في عداد الأعباء ، مثلاً ، الضريبة الخاصة المفروضة على الطبقة المجلسية ، وربما أعفي منها الاعضاء الموظفون . ويدخل في عدادها ايضاً ، اذا اراد هؤلاء الاعضاء قطع ثمار الأعباء المجلسية ، واجب الانفاق على الألعاب عند تعيينهم في منصب القضاء ، ما لم يعين الامبراطور دراكماً ، في مجلس الشيوخ ، قضاة او قناصل سابقين .

ويدخل في عداد الامتيازات امتياز هام هو اعفاء كل من يحمل لقباً ما من «التسخير القذر» ، أي من المصادر الشخصية . وبديهي ان الأشراف معفون من واجبات « الممثلين » ايضاً . اجل لا يزالون يقدمون الحماية للبدن ، ولكنهم لا يهتمون لصعوباتهم المالية ، وقلما يهتمون لمعيشتهم . فهم يفلحون في تسجيل أراضيهم على حدة لأجل تحديد الضريبة الشخصية بغية تجنب المسؤولية الجماعية المترتبة على الاراضي البلدية . وقد عين « محامون عن المجلس » ، بمعدل واحد او اثنين في كل ولاية ، أسند اليهم أمر السهر على مراعاة امتيازاتهم الجبائية .

أبطلت المساواة ايضاً لمصلحتهم في الحقل القضائي . وكان الانطونيون سباقين هنا ايضاً في فرض عقوبات مختلفة على « الاشراف » و « الادنين » . أحصي « قواد العشرة » في الفئة الاولى آنذاك ، فأقصى الممثلون عنها الآن . ولكن الفرق في العقوبات ما زال قائماً : فقد استبدلت عقوبات المحظيين الجسدية والعمل في المناجم بالغرامة النقدية او النفي ؛ كما منع عنهم التعذيب والموت المشين إلا في حال الخيانة العظمى . ولم يكن للحكام اخيراً حق النظر في دعاوى الاشراف . وما القول عن الوراثة ؟ فهل كانت عبئاً عليهم . ام امتيازاً من امتيازاتهم يا ترى ؟ اقرها قسطنطين للموظفين قاطبة : فالدولة بحاجة الى ابنائهم كما هي بحاجة الى ابتناء الجنود و « الممثلين » والتجار والصناعيين . ولكن ليس من مهنة انفع من مهنة الموظف : فالمحامون انفسهم . يتوقون اليها كما يتضح من مراسلات ليبانيوس . لذلك فنحن لا نرى وجوباً ، فيما يتعلق بهذه الطبقة الاجتماعية ، لان نرى في مبدأ الوراثة اي جزاء

الثروة العقارية
ومعيشة الاغنياء في املاكهم
بيد ان كثيراً من الاشراف اثرياء ، اذ ان مرتبات عالية ، تمنحها
الانعامات الامبراطورية ، تخصص للوظائف الرفيعة . ولا تتكلم
مصادرها البتة عن مخالفات لواجبات الوظيفة ، ولكنها غالباً ما تتكلم
عن زواجات موفقة . فكان باستطاعة هؤلاء الاشراف ان يعيشوا عاطلين عن العمل لو أرادوا .
ولكن الذين يرضون بهذه الحياة قليلون : اذ ان الميل الى الاجساد والرغبة في العمل اللذين كان لهما
ابداً مكانهما في المثل الاعلى الروماني ، يجذبانهم نحو خدمة الدولة . ومهما يكن من الأمر ،
فان الاغنياء جميعهم اشراف ، ان لم يكن بسبب عملهم الشخصي ، فاقلة لان احد جدودهم
قد رفع العائلة الى الطبقة المحلّية .

بلغت بعض الثروات نسبة عالية جداً وفاقت اعظم الثروات التي جمعت في عهد سلالة
جوليوس - كلوديوس . ويؤكد احد مؤلفي اوائل القرن الخامس ان املاك عدة عائلات في
روما تؤمن لها ٤٠٠٠٠ ليرة ذهبية (١٣١٠ كيلوغرامات) دخلاً سنوياً ، يضاف اليه دخل
عيني يوازي ثلث هذا المبلغ . فكيف يجوز لنا ، على جهلنا الايراد الوسطي للاملاك العقارية ،
الشك في ضخامة مثل هذه الثروات ، لا سيما وان تقديرها يجب ان يأخذ بعين الاعتبار ما تهمله
هذه الأرقام : مساكن الاسياد وممتلكاتهم المنقولة . وما نحن نورد مثلاً من شأنه اعطاء فكرة عما
يمكن ان تمثله هذه المساكن : حين تولت القديسة ميلانيا وزوجها فاليريوس بنيانوس ، في السنة
٤٠٤ ، رغبة منها في تكريس كل ما يملكانه لعمال البر ، بيع « بيت » عائلة فاليريوس في حي
شيلوس ، لم يجدا ، على الرغم من مساعدة الامبراطورة ، مشترى مستعداً لدفع قيمته الحقيقية ،
الا في السنة ٤١١ ، اي بعد ان نهب جنود الاريك من القوط .

لسنا نستطيع الكلام عن مراحل تكون اية ثروة من هذه الثروات . ولكننا على نقض
ذلك نعرف وجهة استخدامهما . فمن البديهي انها لم توظف في مشاريع صناعية أو تجارية خوفاً
من اقتصاد الدولة ، بل في ابنية تدر دخلاً محترماً في المدن الكبرى ، كما نرجح ، مع ان هذه
الابنية لم يشر اليها قط في مصادرها . وعلى نقض ذلك ، فهناك ، بكل تأكيد ، الى جانب
الحلي والمصنوعات البذخية ، كثير من الذهب المسكوك او غير المسكوك : ولكن الذين يتماطون
المراة قليلون جداً . فلا يبقى من ثم سوى الأرض . وكان جميع الاغنياء في الواقع اصحاب
ثروات عقارية طائلة . فكان لعدد كبير منهم ، بفضل الهبات الامبراطورية والارث والزواج
والمشتريات التي تجري حين ينقل الموظف من مركز الى مركز آخر ، أملاك موزعة على عدة
مناطق في الامبراطورية . وان في هذا التوزيع في المكاتب لتعبيراً ملموساً عن وحدة هذه
الامبراطورية : فقد كان على القديسة ميلانيا وزوجها مثلاً ، عندما يابعا قصرهما في روما ، ان
يبعيا في الوقت نفسه املاكهما في ايطاليا وصقلية وافريقيا واسبانيا ، الخ .

امتلك ثري القرن الرابع اذن ، بالاضافة الى قصره الخاص في المدينة ومنتزهاته في مناطق
الاصطياف - وقد اختارها الروماني ابدأ في مرتفعات اللاتيوم وشواطئ كمبانيا - المقصف
الذي يتوسط املاكه الكبرى والذي علمه ثري القرن الثاني كيف يؤمن فيه كل اسباب الراحة

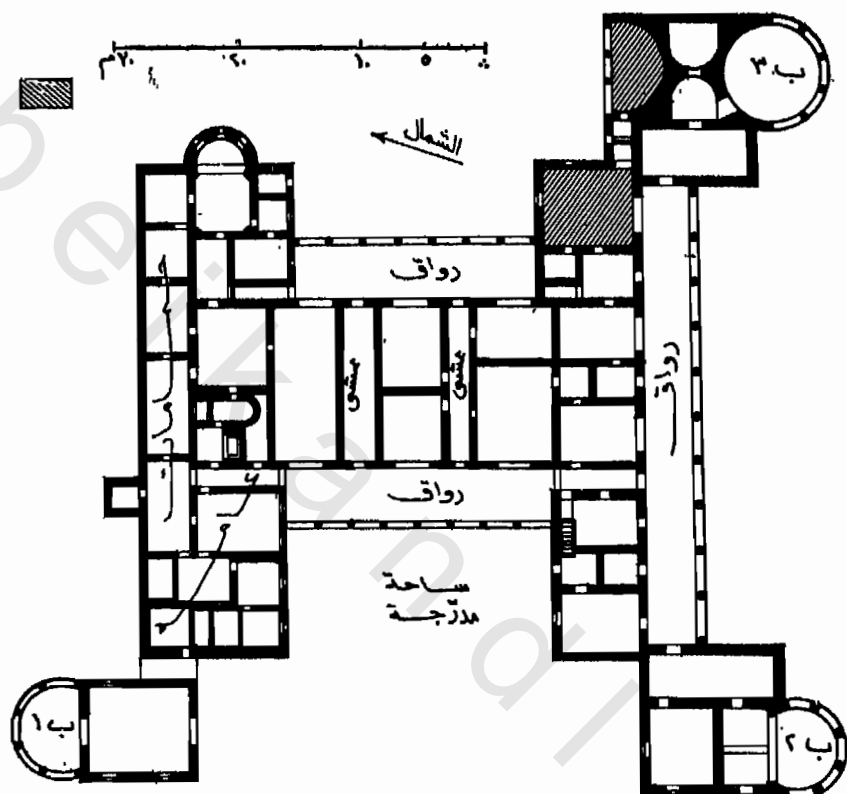
المادية والألاهي الضرورية للمجتمع الرفيع . فتوجب عليه إعادة بنائه لأنه قد تهدم في هذه الاثناء . واستفاد من هذا الظرف لتوسيعه وتجميله ، كما استفاد منه أحياناً لتقوية جدرانها الخارجية ولتحصينه ببعض الابراج لجعله بئامن من هجمة قد يفاجئه بها قطاع الطرق او فرسان برابرة . في هذا المقصف يطيب له تمضية اوقات طويلة ، والى هذا المقصف يجيء ، بعد صرفه من الخدمة ، ليقضي شيخوخته في هناء وسعة عيش . ولنقرأ هنا وصف حلم السعادة الذي استسلم له « بولين دي بيللا » حفيد اوزون : « لم اتق يوماً إلا الى حياة متوسطة تقارب سعة العيش وتبعد عن الطمع . اشتريت بيتاً مريحاً واسع الغرف صالحاً لقضاء فصول السنة المختلفة ، وطاولة لامعة وملأى بالانصاف ، وخدماً كثيراً في سن الشباب ، وأثاثاً متنوعاً يستخدم لأغراض مختلفة ، وفضية ثمينة بصنعها لا بوزنها ، وفنانين في شتى الحقول قادرين على تنفيذ الطلبات بسرعة ، واصطبلات ملأى بالخياد ، وعربات متينة وأنيقة للنزهة . حين نظم بولين هذه الأشعار في السنة ٤٥٩ ، كان في سن الثالثة والثمانين ، ولعله كان معتمداً على حسنات المحسنين لتأمين معيشته في جوار مرسيليا ، بعد ان قضى البرابرة على ثروته . ولا شك في ان هذا الحلم الذي يصفه بالتواضع كان متواضعاً حقاً اذا ما قورن بواقع البذخ الذي عاشه ، خمسين سنة من قبل ، وسط الكروم المحصنة في منطقة بوردو ، مسقط رأسه . ويجب ان نضيف الى هذا الحلم ، اجتماعات الاصدقاء ، والاحاديث العلمية او المازحة ، والملابس الحريرية المطرزة ، وميدان السباق والمسرح في الحديقة ، وقصص الطيور في الاملاك المحيطة بالمقصف وألف تسلية وتسلية أخرى ، كلعبة الكرة التي كان بولين يستحضر لوازمها من روما .

وهكذا فان مثل الارستوقراطية القديم ما زال قائماً . ففي الوقت الذي فرضت الدولة التضحيات على الجميع ، لا يزال هناك محظيون لا تؤثر موجباتها في طمأنينتهم وهناءة عيشهم .

استلزم هذا المثل وهذا الواقع عنصراً جديداً ، أعني به سلطة كبيرة وواسعة على الناس آخرين لا تعرف لها مثيلاً في السابق .

اجل كان هنالك عبيد في السابق . وما زال هناك عبيد في ذاك العصر . ولا يسع المؤرخ البت في ما اذا كان عددهم قد تدنى ، اذ انه يفتقر الى الاحصائيات فيما يعود لهذا العصر ولما سبقه . فالرق لا يزال قائماً ولا يزال يتمون من المصادر نفسها ، أي من الحرب خصوصاً ، كما في السابق . يلقي الرومان القبض على البرابرة : وقد أكد سينيوس الذي عاش في كيرينا ، في منطقة بعيدة عن العمليات الحربية ، ان في كل بيت عبداً من القوط . ويلقي البرابرة بدورهم القبض على رعايا الامبراطورية ويحدون بسهولة من يشترى مفاتهم . وما زال العبيد — يقدروهم القديس يوحنا فم الذهب بين ألف وألفين — يدخلون في خدمة كبار الأثرياء . واذا كانت الكنيسة قد سهلت الاعتراف باجرام مبسط اعترفت الدولة بشرعيته منذ قسطنطين ، او اذا هي شجعته أخيراً ، فانها لا تلازم نفسها ولا أتباعها به ، بل تصدر حكماً قاسياً على العصاة والمهيجين منهم . « اذا اقدم شخص ما ، بداعي الشفقة ، على حث العبد على احتقار سيده والتحرر من

المبودية والاعراض عن الخدمة بحسن نية واحترام ، فليكن 'مُبتسلاً' : ان هذا القرار الصادر عن مجمع «غانغر» ^(١) سيلقي تأييداً دائماً. وبالاختصار، كان المنطق يقضي بأن يتدنى عدد العبيد الى حدٍّ بعيد . ولعل هذا التدني يفسّر نمو استخدام الطاحون المائية ؛ كما ان الصعوبات الكثيرة التي واجهتها الطبقة الوسطى في المدن لم تبق ، في الأرجح ، دون نتيجة ايضاً . ومع



الشكل ٢٣ - « مقصف » اودرانغ شمالي تريف
ب ١ - المدخل؛ ب ٢ و ب ٣ - كشكان؛ كانت بعض أقسام المقصف، على الأقل، تستأجر طبقة عليوة.

ذلك فنحن مضطرون، ربما بسبب النواقص في مصادرتنا ، للاعتراف بأن الوقائع لا توفر لبرهاننا الاثبات الحاسم الذي نود لو نكتشفه فيها .

كان من حقنا ايضاً ان نتوقع تشريعاً أقلّ صرامة بصدد العبيد . ولكن الديانة المسيحية لم تعمل ، كما يبدو ، على تقوية النزعة التي أوجدتها الفلسفة الانسانية في عهد الانطونيين والتي لم تجرّز تقدماً يذكر . فان قسطنطين قد منع ملاحقة السيد الذي يموت عبده المذنب متأثراً

(١) مدينة بافلاغونيا *Paphlagonie* . التأم هذا المجمع في القرن الرابع في تاريخ يتعذر تحديده .

بالعبودية المفروضة عليه ، ولن تلغى قبل القرن السادس الشروط التي قيّد بها أوغسطس حق الاعتاق .

ثم ان للأخلاق أهمية دونها أهمية الانظمة والقوانين . لم يتبدل مصير العبيد المزلزين تبديلاً كبيراً ، بل بقي مُطابقاً شأنه في السابق ؛ بيد ان التطور في الاخلاق الجنسية قد كبح جماح أهواء السيد في الارجح . ولم يطرأ كذلك تبدل يذكر على مصير العبيد المدنيين : تدنى عدد مصارعات المسافين ، وغدا بعض العبيد يمارسون صناعة يدوية في حوانيت خشبية . أُلغيت المصانع في المعابد الشرقية ، ولكنها ختمت الى مجموع المصانع الامبراطورية ، وليس ما ينبئنا بمصير العمال الذين تستخدمهم هذه المصانع . وعلى نقبض ذلك ، فنحن نرى الدولة جاهدة في توفير اليد العاملة لمشاريعها الكبرى ، ولا سيما لمناجها ، بواسطة الأسرى والمحكومين من البرابرة ، الذين ينهضون بأعمالهم الشاقة دونما أمل بتحسين حالهم . اما التبدل الرئيسي ، كما نرجح ، فهو زوال «عائلات» العبيد العاملين فرقاً في الاملاك العقارية الكبرى . وليس ذلك سوى نهاية تطور طويل بدأ منذ زمن بعيد ، اذا صح ان طريقة الاستئثار الريفي هذه قد اعتمدت في غير بعض المناطق الايطالية . ومع ذلك فان حياة العبد الريفي العملية ، اذا ما وضعنا نظامه القانوني جانباً ، تشبه حياة الفلاح الحر قديماً .

وان لهذه الظاهرة تفسيرها ، من جهة ثانية ، في التبدل الذي طرأ على مصير الفلاح الحر .

لا نتوقف عند الكادحين المدنيين . فنحن لا نشاهد لهم إلا في الكادحون الريفيون ؛ القطافون
العواصم لمناسبة التوزيعات المجانية والألعاب ؛ فهم ، من هذا القبيل ، ما زالوا كما نعرفهم : عاطلين عن العمل ، متطلبين ، سجنين ، سريمي الاحتداد والتشيع ونزع الثقة . فان ما يهمننا هو تطور الكادحين الريفيين .

كان بين هؤلاء ، منذ القدم ، أجراء كثيرون - وافريقيا هي المنطقة الوحيدة ، في هذا العهد بالضبط ، التي يلقي فيها بعض الضوء عليهم . اطلق عليهم آنذاك اسم « Circoncillions » الذي يعني بالتدقيق « القطافين المتنقلين » ، أي العمال الذين يتوجهون نحو الشمال في اواخر الربيع وينتقلون من بستان الى بستان عارضين خدماتهم المأجورة للقيام بالقطاف . اما مصيرهم فيزداد سوءاً ، او يتميزون بمزيد من الجراءة عندما يشد أزهرم العبيد الهاربون وصغار الملاكين المقتقرين والبلديون الثائرون على كل ما هو روماني . وعندما حدثت الاضطرابات الدينية بفعل مقاومة الدوناتيين للكنيسة الرسمية التي تساندها الدولة بصورة عامة ، سحنت لهؤلاء المستائين المتكتلين فرصة الانتفاض على النظام القائم فأطلق عليهم مستقيموا الرأي اسماً واحداً هو « القطافون المتنقلون » الذي وازى ، في نظرم ، اسم « قطاع الطرق » . فجعلوا منهم « لصوص نخامر » يعمدون الى اشعال النار واعمال العنف في كل مكان ويوقفون العربات ، ويحلبون فيها العبيد محل السيد الذي يرغمونه على الهرب سيراً على الاقدام ، وينشدون في كل أعمالهم الأناشيد الدوناتية ، ويصيحون صيحة التجمع الخاصة بالهراطقة . ويساعد هذا الغليان على تفسير محاولات

الاغتصاب المتكررة في افريقيا . اما اعمال القمع ، التي لم تعرف للشفقة معنى ، فلم تتغلب على هذا الغليان إلا في النصف الاول من القرن الخامس .

كانت هذه الاضطرابات محصورة في افريقيا . فاللصوصية المسلحة المتفرقة ، الفلاحون الشركاء في المناطق الاخرى ، لم ترتد هذا الطابع من الخطورة ، لابل ان وطأتها قد خفت في مصر نفسها - سنرى بعد ذلك ما سيحل محلها - أقله في أشكالها التقليدية . ولعل السبب في ذلك ان العمل الريفي المأجور شيء نادر في المناطق الاخرى : ففي كل مكان تقريباً تألفت طبقة الفلاحين ، بصورة عامة ، في اواخر القرن الثاني ، من صغار الملاكين الاحرار ومن فلاحين شركاء ، أي من مزارعين يتقاضون أجورهم حصة من الاثمار .

غير ان تطور الامبراطورية الثانية ، الذي شجعت الدولة حيناً وحاربت حيناً آخر ، قد ربط الفلاح بالارض وحدت في الوقت نفسه من حرية الملاك الصغير لمصلحة جارة القوي ، ومال بالتالي الى تعميم نظام المشاركة الزراعية الذي يختلف كل الاختلاف - باستثناء الاسم - عن العقد الحر نظرياً والملقى ، في عهد الامبراطورية الاولى ، بين الفلاح الشريك وصاحب الملك . ولنحاول هنا اعطاء فكرة عن هذا النظام دون اخفاء صفة التحكم في عرضنا الموجز السريع . ولكن هل يجوز لنا التفكير ، على ما في ذلك من فائدة نظرية وعملية ، بالتطرق الى مسائل معقدة وشائكة يثيرها هذا التطور الشرعي الذي يفوق بقوته القوانين والذي يتحول وفقاً للوضع الزراعي وكثافة السكان في المناطق التي تتألف منها الامبراطورية ؟

في الاصل كانت الصعوبة ، في كل مكان ، بمثابة لتلك التي تؤدي الى وضع نظام سكان المدن . ففي سبيل تأمين الغذاء للجماعة وجمع المطلوب للدولة ، يجب ان يعهد باستثمار الارض الى يد عاملة مستقرة ، جهد المستطاع . وبما انهم قد اقتصروا على استثمار الاراضي الجيدة المخصصة ، بسبب الافتقار الى اليد العاملة ، فقد ازدادت المساحات البائرة ازدياداً مطرداً . لذلك سارت الدولة على تشريع هديانوس الذي يميز لأي كان الاقامة فيها . ثم أدخلت بعض البرابرة الى الامبراطورية وفرضت عليهم واجبات متفاوتة شدة ولينا بحسب نسبة القوى المتقابلة . ولكن هذه التدابير كانت غير كافية ، فاضطرت الى معاملة رعاياها أنفسهم معاملة قسرية .

من الطبيعي ان تهدف هذه المعاملة الى خير الاملاك العامة في الدرجة الاولى . فأفضت الى عقد اتفاقات تأجيرية طويلة المدى ، او دائمة احياناً ، وانتهى الامر ، عملياً ، الى الاعتراف ، قبل سن قانون بذلك ، بأن اقامة تدوم ثلاثين سنة تكفي لاعطاء حق دائم . ثم اعتمدت هذه التدابير لمصلحة كبار الملاكين ، بانزلاق تفسيره توزيعات الاملاك الامبراطورية ، ولا سيما واجب الملاكين في تنفيذ المطالب الاميرية . فصدرت حينذاك سلسلة من الأنظمة متفاوتة تاريخياً بحسب المناطق ، وأهمية قانونية بحسب بدء الاقامة في الاملاك ، وتربط الفلاح الشريك بالارض وحتى بالملك . وقابل هذه الأنظمة نظام آخر يحول دون فصله عن الارض التي يزرعها . ولكنه لا يستطيع مغادرتها ، كما لا يستطيع ابناؤه الابتعاد عنها إلا لأجل الخدمة في الجيش او بموافقته

السيد . وإذا جاز له اقتناء ملك خاص خارج هذه الارض ، فانه يحظر عليه بيعه بدون اذن السيد الذي قد يكون له بعض الحقوق عليه . وهكذا يمكننا القول ان وضعه يتوسط وضع الرجل الحر ووضع العبد . اجل ما زالت هنالك بعض الانظمة الاخرى في اوائل القرن الخامس . ولكنها تميل كلها الى الانصهار في نظام المشاركة الزراعية . كان المشارك الزراعي في السابق خاضعاً لسيطرة الملاك الاقتصادية فقط ، فخضع الآن لسيطرته القانونية ايضاً .

شجعت الدولة هذا التطور بقدر تعلقه بالاملاك التقليدية ، ولكن موقفها منه قد اختلف حين كان يتناول الفلاحين الاحرار . ولا يرد ذلك الى ان هؤلاء قد ضايقوها ، بل الى انها قد لاحظت ان التطور قد حصل آنذاك يرافقه تصميم على مقاومة مطالبها الاميرية بالذات . يسعى الفلاح ، في أغلب الاحيان ، وراء « حماية » الملاك الكبير ، هرباً من دفع الضرائب مباشرة ومن مطالبات الجباة ، فيتخلى له عن ارضه ، ولكن ملاكاً كبيراً واحداً لم يفكر بانتزاعها منه فعلياً . فيبقى فيها ويستمر في استثمارها . ولكن هذا الامتياز يستلزم واجبات مختلفة تميل في الواقع الى تمثيله بالمشارك الزراعي . والى أكثر من ذلك احياناً . فيحصل من معلمه ، بالمقابلة ، على حماية امام القضاء وامام السلطات .

لم يكن انتقال الرجال الاحرار هذا الى مزارعين يحميهم ملاك كبير ليروق لأي مسؤول ، لا للممثلين ولا للدولة الذين أصبح عليهم التعامل مع فريق اعظم قوة . لذلك حاول بعض الاباطرة مقاومة هذا التطور . وعلى هذا الاساس ، كما يبدو ، يجدر بنا تفسير ما اقدم عليه فالتيثيانوس حين احدث في كل مدينة وظيفة « المدافع عن عامة الشعب » الذي وكل اليه امر انصاف المساكين ، لا سيما في حق الجباية ، بغية صرفهم عن اللجوء الى الحماية القوية ، ولكن هذه الوظيفة ما لبثت ان انحرفت عن غايتها الاولى ، فلم تتميز في النهاية عن وظيفة « محامي المدينة » الذي ما كان ليهم لأمر عامة الشعب . وصدرت كذلك عدة قوانين بمنح الحماية ، تفرض العقوبات على الفلاحين والملاكين على السواء ، يعود اولها الى السنة ٣٦٠ . ولكن الحركة أقوى من القوانين التي نجد الدليل على عدم جدواها في عددها وتكرارها . ستلجأ الامبراطورية الشرقية اليها زمناً طويلاً بعد ذلك ، اما الامبراطورية الغربية ، الضعيفة ، فقد عزفت عنها منذ اوائل القرن الخامس .

أفضى التطور أحياناً الى المغالطة ، أي أنه جاء ضد الملاك نفسه . فإن الدولة ، منذ عهد مبكر ، بغية تحديد المسؤولية الاميرية الجماعية في القرية ، قد شجعت وأوجبت أحياناً انشاء الجماعات الريفية ، على غرار الجماعات المدنية ، ولكنها منحت الجماعة امتيازاً على ممتلكات أعضائها . فأخذ الفلاحون الاحرار وغيرهم في بعض المناطق ، لا سيما في الشرق ، يتجمعون على أساس القرية ، حتى ولو عادت كافة أملاك القرية الى ملاك واحد . ولكن هذه الجماعات ، التي بحثت عن سيد جماعي يحميها من الدولة ، قد بحثت أحياناً عن يحميها من الملاك نفسه ، هادفة الى أن تفرض عليه تخفيف اعبائها . وهكذا فان ليبانيوس قد رأى نفسه

وجهاً لوجه أمام قائد يحمي فلاحيه بالذات . أما نحن فنميل الى الاعتقاد بأن مثل هذه الحوادث كانت نادرة حين يكون الحماية أقوى حقاً . ولكن الدولة شعرت بالخطر يهددها فسعت الى منع هذا النوع من الحماية الجماعية في الوقت نفسه الذي سعت فيه الى منع الحماية الأخرى ، ولكنها فشلت في المحاولتين .

الاسياد والاتباع كل ذلك يتيح لنا ادراك التزايد العظيم في القوة والثروة العقارية ، والمنقولة أحياناً ، اللتين استفاد منها الملاكون في القرن الرابع . وقد سبق لنا وأشرنا الى الحقوق التي يحصلون عليها او يدعون بها في الحقل الاداري : فالاملاك تصبح غريبة عن المدينة التي تمتد هي في أراضيها ، وسيدها يتصرف فيها على هواه تقريباً . لا يهتم إلا لان يؤمن ، بأشراقه أو أشراق قهرمانه ، أفضل استثمار لاملاكه . وقد توفرت لديه منذئذ تسهيلات متزايدة لبلوغ هذه الغاية . فهو لا يتخلى عن استغلال « الاحتياطي » استغلالاً مباشراً يعود اليه محصوله الكامل . لا بل يبدو بصورة عامة ان مساحة هذا الاحتياطي تتسع باطراد . ولكنه يعتمد في زراعته طريقة اقل كلفة من تعهده ، على مقربة من مقصفه ، عبيداً كسالى لا يقومون بعمل مشر ، لانه يستحيل مراقبة علمهم مراقبة مستمرة . فيعامل عبيده معاملة الشركاء الزراعيين ويسكنهم في اراض يكل اليهم أمر زراعتها . وبالمقابلة ، يفرض على كافة محبيه أو مزارعيه ، وشركائه أو عبيده ، اعمال تسخير مختلفة تتيح له استثمار احتياطيته . وهكذا ، بعد تطور طويل الامد ، حلت المسألة الاقتصادية التي أوجدها قيام الاملاك الواسعة في ايطاليا ، اعني بها مسألة افضل طرق الاستثمار ايراداً : فمن جهة ، قطع ارض مستقلة يستثمرها الاتباع بأشراف سيدهم لقاء حصص من الاثمار ، ومن جهة ثانية ، احتياطي يستثمره السيد مباشرة بفضل خدمات اتباعه الشخصية . وسيتماد هذا الحل ، ببعض المرونة ، طوال قرون عديدة .

ان استخدام كلمة « اتباع » ، في هذا المجال ، امر واجب لانها قد تنطوي على انظمة مختلفة يجمع بينها انها تولي احد الرجال سلطة على شخص رجال آخرين . ان مصير العبد الريفي ، في الواقع ، سائر نحو التحسن : فالعبد منذ ذاك التاريخ يعيش وحده مع عائلته لا يمنع احد من تأسيسها لانه يتعهد وحده باعالتها . ولكن القانون ، مع ذلك ، ابعد من ان يعقته . وعلى نقيض ذلك ، اذا لم يتبدل وضع الآخرين تبديلاً عملياً يذكر ، فانهم قد فقدوا النظام الذي جعلهم يتمتعون بحريتهم الكاملة : اذ انهم قد تخلوا عن بعض حريتهم القانونية للملاك الذي اصبح سيدهم . فيتضح من ثم ان تطوراً هاماً جداً قد تحقق ، وسيسير هذا التطور طريقه بفعل احداث وتأثيرات اخرى . ولكن النظام السيدي ، منذ اواخر القرن الرابع ، قد تأصل وتوطد في الأراضي الامبراطورية .

وهكذا فقد رسخت المضادة الاجتماعية في الأرياف ، وصفنا اعلاه حياة الاغنياء في مقاصفهم . اما منازل الفلاحين الوضيعة فلم تترك لنا سوى آثار حقيرة ، وقد ترفع كافة المؤلفين عن ان

يتكلموا عن حياتهم . ولكنه ليس من الصعب تصورها جانحة ابدأ الى الأرض في عمل يومي متكرر . فهل هم سعداء مادياً يا ترى ؟ كلا ثم كلا : فالنظام قد أوجد لغايات اخرى . ولكن ألامهم ، في الأرجح ، أخف من ان تحملهم على الثورة ، اذ انهم لم يحذوا حذو القطافين الافريقيين . أجل لقد ذكر ثيمستيسوس ، في السنة ٣٦٨ ، ان بعضهم قد تمنوا مجيء البرابرة . ولكن حين جاء هؤلاء في السنة ٣٧٧ ، لم ينتهز الفرصة سوى عمال المناجم في تراقيا ، وكان كثيرون منهم من البرابرة ، كي يثوروا على اسيادهم . ولعل هؤلاء الكادحين الريفيين ، عندما دقت الساعة ، شعروا بانهم رومان على الرغم من يؤسهم . ولعلمهم شعروا بنوع خاص ان مجيء البرابرة لن يعود عليهم بفائدة ، لا سيما وان هؤلاء الغزاة لم يهتموا للقيام باقل اصلاح اجتماعي . ولكن ما تجدر الاشارة اليه ايضاً هو ان الدولة لم تأخذ على نفسها أمر البحث بين رعاياها والفلاحين وغيرهم عن جنود يتيحون لها الدفاع عن نفسها دفاعاً افضل : ولعلها ، في ذلك ، ما زالت تتذكر أزمة القرن الثالث وتخشى الاخطار التي قد تعرضها لها الاستعانة بالطبقات الفقيرة .

٣ - المجتمع الكنسي

قامت بين المجتمع الكنسي والمجتمع العلماني روابط كثيرة على الرغم من تميز الاول . فهو آنذاك في طور التنظيم ولا يجوز امله .

ليس من ريب في ان العقيدة الجديدة ، منذ تنصّر قسطنطين ، قد وجدت في ازدياد الاهتمامات السلطة السياسية خير معوان لتوسيع عدد أتباعها . فقد أدى العطف الحكومي ، في الامبراطورية ، أقله الى تقريب ساعة انتصارها . واذا لم تنتظر النصرانية هذا الانتصار وهذا العطف حتى تتخطى الحدود ، فقد حالفها الحظ احياناً ، حتى في الخارج ، واستألت بعض الملوك ، الشيء الذي سهّل لها نجاحاتها .

منذ اواخر القرن الثاني ، اعتنقت النصرانية ملك « اوسروينا » وراء منعطف الفرات ، وبعد مرور قرن اعتنقها ملك ارمينيا بدوره . فسار الرعايا هنا وهناك على خطى ملوكهم . اما في المناطق النائية شرقاً ، فلم تحدث على يد المبشرين سوى اهتمامات قليلة : فقد تم بعضها في القفقاس وحتى في آسيا الوسطى ؛ وقام الساسانيون دون جدوى ، لا سيما في بلاد ما بين النهرين ، باضطهادات عنيفة في اواسط القرن الرابع ، خلال الحروب التي قامت بينهم وبين روما . اما الاسماعيليون ، على نقيض ذلك ، فقد تولت شؤونهم فترة من الزمن ملكة مسيحية اختطفوها من بين رعايا الامبراطورية . وفي عهد قسطنطين بلغ الهند بعض المسافرين المسيحيين واستألو بعض الاتباع على الرغم من قتل رئيسهم . وقد عاد احد هؤلاء المبشرين من الشرق الاقصى وقصد مصر ثم سافر عن طريق البحر الأحمر الى مملكة « أكسوم » عند أعالي النيل ؛ ونصّر الملك ، ثم أسس كنيسة الحبشة بعد ان ساهم اثناسيوس الاسكندري أسقفاً . ودخلت النصرانية الى اليمن نفسها . اما في أوروبا فقد سبق وتكلمنا عن دور اوليفيلا عند القوط وعن نقل هؤلاء

الهرطقة الآرية الى الجرمانين : غير ان أكثرية الفرنجة قد حافظت على وثنتيتها حتى كلوفيس .
واخيراً ، في القرن الخامس ، تنصّر البريطانيون على يد القديس جرمانوس الاوكسيري وتنصرت
ايرلندا بعد سكوتلاندا على يد القديس بطريقيوس وبالاتديوس - إلا اذا كان هذان الاسمان قد
أطلقا على شخص واحد هو « اسقف السكوتلاندين » نفسه .

حظي كثير من هذه الرسائل الخارجية بأيد الحكومة الامبراطورية التي شجعت تشجيعاً
خاصاً شبه مستمر ، بقوانينها وعملها الاداري اليومي ، نشاط الرسائل في داخل الامبراطورية .
ومع ذلك ، فان الارياف ، لا سيما الغربية منها ، قد بقيت بعيدة عن هذا النشاط حتى اول
القرن الخامس . وما لبثت كلمة *Paganus* أي الفلاح ان اتخذت ، على الصعيد الشعبي ، ثم على
الصعيد الرسمي ، معنى « الوثني » الذي ما زالت منطوية عليه في كلمة *Païen* . ولا يزال مصدر
هذا التحول موضوع مجادلات كثيرة ؛ ولكن أبسط تفسير لذلك ، كما نرجح ، هو مقاومة الفلاح
للتخلي عن عباداته التقليدية . ومهما يكن من الأمر ، فان الارياف الغربية كانت ، في الزمان ،
آخر ما انتشرت فيه الديانة المسيحية . اما تطور هذا الانتشار فلسنا نعرفه إلا في غالبا حيث
قام القديس مارتينوس بعمل مجد حاسم . أسس هذا الضابط السابق ، بمساعدة أسقف بواتيه ،
دير ليغوجيه ، ثم سيم أسقفاً على مدينة تور فأسس ، في السنة ٣٧٣ ، دير مارموتيه ايضاً . فكان
هذان الديران منبئين حقيقيين للرسالات تربي فيها وخرج منها وتعاظ ساروا على خطى المؤسس .
ولم يمت هذا الاخير إلا في السنة ٣٩٧ . فاشتهر طيلة قرون عديدة بـ « رسول غاليا » بفضل
تقشفه وجولاته المستمرة والمعجزات التي اجترحها وتعلق تلاميذه به والترجمة التي وضعها له
سوليس ساويروس . ولكن عملاً مماثلاً ، يتفاوت شهرة او سرعة ، قد تم في كل مكان آخر . ولم
تحتفظ الوثنية في اوائل القرن الخامس ، إلا ببعض النقاط المتشتتة داخل الامبراطورية .

لقد رافق كسب النفوس هذا ، بصورة طوعية اجمالاً ، كسب
قوة الكنيسة الاقتصادية
الامتلاكات الزمنية . فقد اخذ الاتفاق يتزايد تزايداً عظيماً : تشييد
الأبنية ، والعناية بها ، والعناية بالمدافن ، ونفقات العبادة ، وحياة الاكليروس المادية ، ومساعدات
المعوزين . ولكن الاعطيات اخذت تنهمر من كل جهة ايضاً ، من الدولة والافراد . وفي السنة
٣٢١ اعترف قسطنطين للكنيسة بمحقها القانوني في تقبل الهبات بواسطة الوصيات (الاوقاف) .
ولم ينتظر المؤمنون ، في غالب الاحيان ، ساعة الموت ليبرهنوا عن سخاء مدهش أملاه التقشف
والتصميم على الزهد بخيرات هذا العالم : فقد سبق القديسة ميلانيا وزوجها أكثر من سلف ،
الشيخ بوماخيوس مثلاً او بولين النولي الذي أصبح اسقف نولا ، مسقط رأسه في كيبانيا . غير ان
فالتينيانوس الاول ، ذلك الحاكم العبوس ، ما لبث ان اغتاز من بعض ضروب الضغط المريبة
والنفعية : فحظر على الكهنة مساعدتهم لدى الاوانس والارامل ، وألقى الهبات الوقفية التي قد
يقدمها لهم . ولكنه أغضى ، على ما يبدو ، عن اعطياتهن وعن هبات الرجال الوقفية ، وليس
هؤلاء دون النساء حرصاً على خلاص نفوسهم .

وهكذا باقت الكنيسة على جانب عظيم من الثروة. ولم تصدر حكمها على الثروة عند الفقراء، لا بل لم تقل، كما كانت تقول بصدد الزولج والتبتل، ان الفقر خير منها. ولم يشذ عن موقفها هذا سوى اصوات معدودة لا شأن لها امتدحت اشتراكية الممتلكات: فأفضى اتفاقها مع المجتمع العلماني، على غرار ما جرى بصدد الخدمة العسكرية والتبتل، الى تخفيف حدة بعض الحميات. ولكنها قد أوصت بتجنب الجور في جمع الثروة وتجنب التمتع بها بأناية وبخل. وقد أعطت المثل في هذا الصدد بتوزيع الاحسانات وتشيد المآوي للعجزة والملاجئ للأرامل وتربية اليتام. فألقت الدولة على عاتقها عمل بر لم تعره يوماً أهمية جديدة: اذ ان مشروع «التغذية» نفسه الذي تحقق في عهد ترويانوس كان يستهدف غاية أخرى. وقدمت النصرانية للعالم القديم مفهوماً جديداً هو مفهوم التقوى الفاعلة، فجعلت منه الكنيسة حقيقة واقعة في مجتمع شكا من جروح كثيرة: وقد قدّر القديس يوحنا فم الذهب مسيحيي القسطنطينية، دون المهرطقة، بـ ١٠٠.٠٠٠ كان نصفهم من الفقراء، أي ممن تؤدي لهم الكنيسة المساعدات.

كانت هذه الثروة متنوعة الاشكال. فقد ضمت العبيد. أجل لم تبتعهم الكنيسة ابتياعاً، ولكنها كانت ممسكة في اعتاق من تحصل عليهم من اسيادهم أو من يولدون في كنفها. فهي قد اصدرت حكمها، كما رأينا، لا على الرق كنظام، بل على أولئك الذين اغضبهم وجودها؛ وقد حاول القديس اوغسطينوس تقديم الدليل على ان الشريعة الموسوية، التي أوجبت تحرير العبد اليهودي في اول السنة السابعة من عبوديته كالعبد حد، لا يمكن تطبيقها على المسيحيين. وامتلكت الكنيسة كثيراً من الأراضي ايضاً: وما لبثت ان اصبحت اهم ملاك عقاري في الامبراطورية، بعد الامبراطور والدولة. غير ان وجود هذه الممتلكات قد خلق معضلة الواجبات نحو الدولة. فلما كان من غير المعقول ان تضعف الدولة، اخضعت الاملاك الكنسية للموجبات العامة التي تناولت الاملاك الامبراطورية نفسها. وقد برز في كثير من المدن «المدافع عن الكنيسة» وهو مماثل «للمدافع عن المجلس» و «المدافع عن المدينة»، الذي يتولى المشورة والدفاع في علائق الكنيسة بالادارة. وقدمت الكنيسة المجندين للجيش. ورفضت الدولة الاعفاء من الضريبة الشخصية وحتى من الحجز لمصلحة الجماعات حين تكون الممتلكات موضوع مثل هذا الحجز: فقد تخلى القديس اوغسطينوس باسم كنيسته عن هبة محمول احد الزوارق خوفاً من الكوارث التي قد يترتب عليه الاشتراك في تحمل مسؤوليتها. واكتفت الدولة بالاعفاء من التسخير الذي سبق للاشراف والاكليروس ان افادوا منه.

لا يظهر دور الكنيسة الاقتصادي في مصادرها الا بوجود موازنة البر والقوانين الجبائية. ويؤسفنا في الحقيقة الا نعلم عنه اكثر من ذلك، اذ ان هذه القوة لم تبق دون اثر في المجتمع العلماني كما نرجح. بيد انه يجوز لنا التساؤل عما اذا لم يسهم سوء ادارة هذه الاملاك، كما نقدر، في تدني انتاج عام لم يكن يوماً فائضاً. ويغلب ان نتائجه قد انضمت الى ما هو طبيعي وعادي دون ان يستطيع احد تحديده عديداً: اعني به الاقتطاع الذي حصل، بفعل تزايد عدد افراد الاكليروس، - في الوقت نفسه الذي رفعت فيه ادارة الدولة عدد موظفيها - من مجموع الطاقات

البشرية المنتجة الموجودة في الامبراطورية ، وهو مجموع لم يكن قط فائضاً ايضاً .

ان هذه الملاحظة ، التي قد تظهرنا بمظهر من يعود الى رأي طلعت به الفولتيرية ،
التنسك والترهب
وأفاد منه بعض المسؤولين المستبدين ايماءة ، تؤدي بصورة طبيعية جداً
الى بحث بعض مظاهر الحياة الدينية التي ابعدت بعض المؤمنين ابعاداً تاماً عن النشاط العام :
التنسك والترهب .

ظهر كلاما في مصر في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع وعرفا في البداية بنجاح
عظيماً في الشرق . ليس من السهل تحليل اصولها واسباب انتشارها . بيد انه يستحيل الا نرى
فيهما نتيجة لحرارة صوفية راسخة في هذه المناطق : وقد سبق للنصرانية ان اكتشفت فيها ،
لدى سكان الأرياف ، بيئة انتشار مؤاتية قل نظيرها ، حين خرجت من المدن في القرن الثالث
واعتمدت في وعظها اساليب الكلام البلدية الغربية عن النخب المثقفة . غير ان الصوفية والتكشف
لا يستوجبان مغادرة المنزل : فقد عاش الكليبيون اليونانيون في المدن . فنحن نرجح ان بعض
الاعمال التي حققها « مصارعو الايمان » بتسابقهم في هذا الحقل كان من شأنها ، لو اتسمت بمزيد
من الصعوبة ، ان تتسم بمزيد من الروعة . اما الحقيقة فهي ان هذه الحركة ، التي انطلقت من ادنى
الطبقات الاجتماعية ، كانت بمثابة احتجاج على التسويات الرسمية والزمنية التي فرضها على
الكنيسة انتصارها . فيجب من ثم ان نحتزم من اسم « الفارين » الذي اطلق بسرعة على
المنفردين : فهو يمثلهم بولئك الهاربين الذين حاولوا في مصر ، منذ القرن الثالث قبل المسيح ،
التخلص من الاقتسارات الادارية بالابتعاد عن المجتمع العادي . بيد ان فكرة الثورة الفردية
والسلبية نفسها ، وهي تتجلى في التضحية بكل ما يعلق عليه الرجل المتوسط تلك القيمة
العظمى ، قد أوحى بهذه الاحتجاجات التي لم تختلف عن الاحتجاجات الاخرى الا بايمانها الذي
اعطت عنه برهاناً باهراً . وما هي ، بهذا الصدد ، بين اليأس والأيمان ، العاطفة التي تنبثق من
الاخرى أو العاطفة التي تساند الاخرى ؟ وباية نسبة يحل الأيمان محل اليأس ، اما في التطور
الداخلي لكل شخص ، واما في اساس قراره بالذات ، بفضل قوة المثل ؟ فيتضح بالتالي ان كل
حالة تشكل مسألة خاصة ، كما يتضح ايضاً ان هؤلاء الرجال لم يهتموا لايضاح سيكولوجيتهم
الفردية للاجيال الطالعة : اذ ان كثيرين منهم ، ابتداء من القديس انطونيوس ، كانوا اميين .
أعطى المثل القديس انطونيوس الذي قصد ، حوالي السنة ٢٧٠ ، الصحراء الى الجنوب
الشرقي من الدلتا حيث عاش حياة حرمان وصلاة مقاوماً تجارب الشيطان . ثم أرغمه اقبال
المقتدين به من المعجبين على الابتعاد نحو البحر الاحمر بحثاً عن خلوة هادئة . وعندما ادركته
المنية ، بعد ان تجاوز سن المائة ، في اواسط القرن الرابع ، كانت معجزاته وتقواه قد أعطته
قداسة احترامها واعترف له بها قسطنطين واولاده انفسهم ؛ وقد كتب ترجمته القديس اثناسيوس
الذي كان هو قد ايده في صراعه الحاد ضد الآرية ، فانتشرت في جميع أنحاء الامبراطورية
وقرأها الكل بشغف . ولكن الصحراء ، منذ قبل وفاته ، قد أهلت بالنسك ، اما في جوار

انطونيوس ، واما غربي النيل في وادي نيتريا . فكان فيها ، حتى قبل وفاة قسطنطين ، عدة آلاف من النساء لا يجتمعون إلا يوم الأحد للخدمة الإلهية ، ويميشون في قلال صغيرة ، متبارين في الاعمال التقشفية الرائعة : فان مكاربيوس مثلاً ، الذي كان يقضي الليالي منتصباً على قدميه ، لم يقفل عينيه طيلة اربعين يوماً ، وبقي سبع سنوات دون ان يأكل غذاء مطبوخاً .

كان هؤلاء رهباناً بكل ما في الكلمة من معنى ، أي اشخاص « منفردين » لا يخضعون إلا للالهام الشخصي في مسلك حياتهم . وقد أسس مصري آخر هو القديس باخوميوس ، قبيل هزيمة ليسينيوس ، ما أطلق عليه خطأ اسم « الدير » ، بينما هو « الحياة المشتركة » بالضبط ، وذلك الى الغرب من طيبة في مصر العليا . وما لبثت هذه المؤسسة ان ضمت أكثر من ٢٠٠٠ رجل . ثم تأسست لها فروع في أنحاء مختلفة : فعند وفاة باخوميوس في السنة ٣٤٦ ، كان هناك تسع جمعيات للرجال واثنان للنساء . اما النظام المكتوب الذي وضعه المؤسس لهذه الجمعيات ، اذا ما استثنينا منه بندي الانفراد والفصل بين الجنسين ، فلم يكن صارماً جداً : الزام باستظهار العهد الجديد والقيام ببعض الاعمال ، وحرية في المأكل والمشرب . ولكن أنظمة أخرى ، في مصر نفسها ، كانت اشد صرامة .

اقتدى بهذه الممارسات التقوية في كل مكان ، وفي آسيا في الدرجة الاولى . فكان هنا ايضا زهاد أثاروا الدهشة بتجدهم وابتكاراتهم التقوية . ولكن واحداً منهم لم يتفوق على القديس سمعان الذي ترك ، في اوائل القرن الخامس ، احد الاديرة حيث طلب اليه الاعتدال في اماتة نفسه ، وارثاً ابن يقيم على عامود مبني ، على مقربة من انطاكية ، لم ينزل عنه إلا ليعتلي عواميد أخرى تزداد كل مرة ارتفاعاً ، آملاً بذلك تجنب مضايقات الجماهير الآتية بأعداد غفيرة بغية التطلع اليه والتأمل به : وهكذا ارتفع ، خلال ٣٧ سنة ، من ثلاثة أمتار الى ١٨ متراً عن الارض . واقتدى به « عاموديون » آخرون ، كما قام « الشجريون » الذين اعتلوا الاشجار ، و « البشريون » الذين اقاموا في قعر الآبار ، الخ . اما في الاديرة فان القانون الذي وضعه القديس باسيليوس حوالي السنة ٣٦٧ هو الذي عرف أكبر نجاح : وقد أخضع فيه الجمعية لسلطة الرئيس المطلقة وقسم اوقات الرهبان بين العبادة والقراءة والعمل ، لا سيما العمل الزراعي . ثم انتقل هذا القانون الى البلقان حيث لا يزال معمولاً به في اديرة العالم اليوناني والسلافي .

وأسس بعض اتقياء الغرب ، من امثال القديس ايرونيμος في بيت لحم ، والقديسة ميلانيا القديمة ، عدداً من الاديرة في فلسطين . وفي النصف الثاني من القرن الرابع ، ظهرت فيها الحياة النسكية ايضاً ، وكانت الغاية منها تنظيم الحياة المشتركة للاكليريوس أولاً ، وابتعاد رجال الدين عن اهواء الجليل ثانياً . ولكن سيطرة هذين النظامين لم تحل دون تنوع الحياة النسكية كما يتضح من الجمعيات التي أسسها القديس مارتينيوس .

يبدو ان الاهالي قد نظروا ، في كل مكان ، بعين راضية معجبة الى هذه الحركة وما رافقها من تضحيات طوعية دائمة . وفي مصر وسوريا بنوع خاص ، اسهم الرهبان ، الذين انتموا بمعظمهم الى اوساط ريفية وضيفة لم تتسرب اليها اللغة اليونانية ، في نهضة اللغات القومية

المنحطة . فبرزت في اللغة القبطية ، وريثة اللغة المصرية الشعبية القديمة ، معالم ادب جديد كان باعته الاول شنودي ، رئيس « الدبر الابيض » الذي كان قد اسسه في منطقة طيبة واخضعه لنظام اشد صرامة من نظام باخوميوس . وكانت الحياة النسكية عوناً للغة السريانية ايضاً ، وهي وريثة اللغة الآرامية ، التي كانت صائرة الى الزوال في مناطق الفرات . لذلك فان الحياة النسكية هذه ، اقله في هذا العهد ، لم تخدم قضية الحضارة التي كان على الامبراطورية الدفاع عنها . وفي اغلب الاحيان ايضاً ، عبر الرهبان عن الفطرة الشعبية وخدموها بمساندتهم النصرانية على الوثنية وعقيدة مجمع نيقية على الآرية . ولما كانوا سريعي التأثير والانفعال ، فقد كانوا يتركون عزلتهم أو يخرجون من بعض الأديرة ، بالاتفاق مع رئيسهم أو بأمر منه احياناً ، ويحتمعون زمراً في المدن . فقد اشتركوا ، لاسيما في الاسكندرية حيث جعل منهم الاتفاق بين انطونيوس واثناسيوس ادوات طيبة في يد الاسقف ، في اكثر من عمل شعب عنيف . وكانوا في مثل هذه الظروف يتسلحون بالعصي وينشدون الاناشيد .

لذلك لم يكن باستطاعة الدولة ان تشعر نحوهم باي عطف . ولكنها ، على الرغم من ذلك ، قلما تجاسرت على محاولة اخضاعهم لقانونها . وقد وجب ان يستلم الحكم امبراطور آري ، هو فالنس ، كي يأمر بالبحث بينهم عن « الممثلين » الهاربين لاعادتهم الى مدنهم الاصلية وبفرض الخدمة العسكرية على نساك نيتريا بعد اصطدامهم بالجنود : ولكن هذا التدبير لم ينفذ . ولم يبطئ ثيودوسيوس نفسه ، بعد اصلاح ذات البين بينه وبين القديس امبروسيوس ، في إلغاء قانون يحرم على الرهبان الإقامة في المدن ، كان قد اصدره منذ اشهر قليلة .

كان امبروسيوس ، في محاربة الآرية ، حليف اسقف الاسكندرية الذي كان يعرف كيف يستخدم سجنهم نفسه . لذلك فقد نظر اليهم بعين راضية . ولكن اساقفة آخرين كثيرين قد وقفوا منهم غير هذا الموقف لانهم لم يرضوا عن سجنهم وعن احتقارهم للسلطات الكنسية الرسمية . وفي اعقاب حوادث متكررة — لم تخل منها غالباً نفسها بعد وفاة القديس مارتينوس — في الشرق أولاً ثم في الغرب ، التأمّت بعض المجالس في اواسط القرن الخامس واخضعت الاديرة لرقابة الاسقف الشديدة: فحلت بذلك معضلة كانت مدعوة لأن تثار مراراً فيما بعد . لا ريب في ان الحياة النسكية قد زحرت باعمال تقوى تثير الاعجاب ، ولكن المسؤولين عن السلطة قد شعروا بحاجة الى ضبط هذه الحرارة التي كانت تخفي رواسب كثيرة من الفوضى التي ميزت عامة الشعب في السابق .

هؤلاء المسؤولون هم الاساقفة . فالكنيسة ما زالت منظمة كنائس مختلفة الاسقف وكنيسته توافق كل منها مدينة من المدن . وقد أدت الى هذا النظام قرون من الحضارة والادارة افرغت في هذا الاطار حياة رعايا الامبراطورية . اما عند البرابرة الذين حافظوا على تنظيمهم القبلي ، فالاسقف يعينه رئيس القبيلة ، لا المدينة . وقد تقوم في ارض هذه الاخيرة معابد كثيرة ، وقد حدث ذلك بسرعة بسبب ارتفاع عدد المؤمنين . ولكن كل هذه

المعابد تخضع له وحده . أجل لقد حصلت بعض الخلافات بين الاساقفة وبعض كبار الملاكين الذين يخصصون في املاكهم بناء للعبادة ومحاولون ، شأنهم في شؤون ادارية كثيرة ، تجاهل المدينة ، ولكن الغلبة كانت للاساقفة في النهاية .

فهم يعينون ويدبرون اكليروساً مطرد الزيادة يضاف اليه عالم اكلييريكي أكثر عدداً ايضاً غير واضح المعالم احياناً : فان قراء العزائم مثلاً ، الذين يلعبون دوراً في الاعداد للمعمودية ، قد اعتبروا اكلييريكيين في الغرب دون الشرق . ولهم ديوانهم وكتابهم الشرعيون ورجال أعمالهم وقهارتهم . يستشيرون سوامهم ولكنهم ينفردون في اتخاذ مقرراتهم ، والكاهن الذي لا يخضع لهم انما يرتكب خطأ معشراً . يحظون بأيد الحكومة ، أي الادارة ، إلا في بعض الحوادث الفردية . ونحن لن نعود هنا الى تدخل السلطة المدنية ضد المهرطقة والمحدثين ، ولا الى تنازل قسطنطين عن قسم من السلطة القضائية للأساقفة . ولكن هذه التدابير قد رفعت من شأن سلطتهم الادبية التي كانت عظيمة جداً على المؤمنين والتي أيدتها سلطة اقتصادية متزايدة . فلا عجب والحالة هذه اذا أصبح الاسقف رئيس المدينة حين اضمحلت الامبراطورية في الغرب . لم يطف هذه السلطة المطلقة إلا الرأي العام . فهذا الأخير يبرز حين تعيين اسقف جديد ، وهذا الحدث ، بفعل سلطة الاسقف بالذات ، اهم من ان يقص عنه المؤمنون . يقترح على « الشعب » احد الاسماء بعد التشاور بين أساقفة الجوار والاكليروس المحلي ، فتقوم المناذاة به مقام الانتخاب ويسام المنتخب اسقفاً على يد احد الاساقفة الحاضرين . ولكن فقدان الانظمة القانونية يثير احياناً منازعات تؤدي الى الانشقاق والاصطدامات الصاخبة : فقد سقط قتلى كثيرون حين عين داماز اسقفاً على روما .

لم يفرض أي شرط لشغل هذه الوظائف . أجل لقد تكلم البابا ، في عهد متأخر ، عن ٣٠ سنة لمنصب الشماس الانجيلي ، و ٣٥ للكهنة ، و ٤٠ للأسقفية ووجب التبتل في هذه الدرجات الثلاث . ولكن الخلافات كثيرة حتى في الغرب ، وهي أكثر منها في الشرق حيث اقتصر على تحريم الزواج بعد الحصول على درجة الكهنوت دون ابطال الزواج المعقود سابقاً . ولا يجوز القول بأن هنالك تالفاً في المناصب الكنسية . فاذا كان الاسقف قابلاً للعزل بقرار من احد الجماع ، فهو لا يستطيع مبدئياً مغادرة مدينته الى مدينة اخرى : فقد حرم ذلك مجمع نيقية ، وقد اضطر غريغوريوس النازينزي ، امام الانتقادات التي أثارها نقله من أسقفية أسبوية صغيرة الى أسقفية القسطنطينية ، الى تقديم استقالته والاتجاه الى خلوه قضى فيها ايامه الاخيرة . إلا انه يجوز اختيار الاسقف ، مها كانت مرتبة اسقفية ، حتى من بين العلمانيين ، وحتى من بين العلمانيين غير المعمدين ، على الرغم من مقررات مجمع نيقية ومن اندثار العادة القديمة التي كانت تؤخر المعمودية حتى وقت الاشراف على الموت . فهذا الاسقف كان شماساً انجيلياً . واوغسطينوس ويوحنا فم الذهب كانا كاهنين ، ولكن الاول سيم اسقفاً في هيبونا حيث كان كاهناً ، بينما انتقل الثاني من انطاكية الى القسطنطينية . وكان امبروسيوس حاكماً على ولاية ميلانو حين انتخب اسقفاً لهذه المدينة . اما اليفي الكيريني سينيزيوس ، فان كثيراً من العلماء يشكون في انه

كان مسيحياً حين نزل عند الرغبة العامة ورضي بأسقفية بتوليبيس . غير ان الشعب ، في اكثر الاحيان ، اعظم تأثراً ، لا سيما في الغرب ، بتقشف المنتخب وتقواه ومحبه للقریب منه باستقامة إيمانه . ثم فعلت التأثيرات الاجتماعية أو السياسية فعلها بصورة تدريجية . فعدا حظ أبناء العائلات الكبرى في الفوز بمنصب الأسقفية عظيماً جداً . ولم تكثف السلطة السياسية بالتدخل تدخلاً فقط في بعض الانتخابات ، بل فرضت فيها رأياً أحياناً ، كما فرضته دائماً تقريباً بصدد تعيين أسقف القسطنطينية بنوع خاص . فيوحنا فم الذهب مثلاً مدين لأفثروپوس ، مدير غرفة الامبراطور ، بوصوله الى هذه الاسقفية في السنة ٣٩٨ ، كما انه أقصي عنها بعد مرور خمس سنوات ، بتأثير من الامبراطورة .

الكنيسة : الجامع
بيد ان الكنائس ، صغيرة كانت أم كبيرة ، لم تكن منزلة في حياتها الخاصة التي يشرف عليها اساقفة يتمتعون بسلطة مطلقة . فهي ، من حيث مرور كافة علائقها الخارجية بالاساقفة ، تمي انتاءها الى جسد واحد هو الكنيسة . أجل لقد جمع بينها ، منذ القديم ، الاتحاد في الايمان . ولكن العهد الامبراطوري الثاني قد أتى بشيء جديد هو احداث تنظيم تدريجي . لم تجمع القوانين بصورة نهائية بعد ، ولا يزال سير الآلة الطرية المود عرضة لصعوبات كثيرة . غير ان التطور التنظيمي قد ابتدأ ، مهما كان من غموضه ومن تقلب اتجاهه .

سلكت الكنيسة طريقاً تعودت سلوكها منذ القدم هي طريق الجامع : اذ ان الهيئة الأسقفية فوق كل اسقف . فالتأمت مجامع كثيرة متنوعة جداً من حيث السلطة التي تدعو اليها ، ودائرة الاختصاص التي توجه الدعوات في اطارها ، وعدد الاساقفة الذين يشتركون في هذه المجامع . وكان اعتداء الامبراطور فرصة لعقد المجامع المعروفة بـ « المسكونية » ، وهي قليلة على كل حال : جمع نيقية في السنة ٣٢٥ ، وجمع القسطنطينية في السنة ٣٨١ ، وجمع افسس في السنة ٤٣١ ، وجمع خلقيدونيا في السنة ٤٥١ . فهو الامبراطور الذي يدعوم اليها لأنه بحاجة اليهم للفصل في مسائل عقائدية ، او للحكم على اسقف ذي نفوذ كبير . ويشترك في هذه المجامع أساقفة من خارج الامبراطورية : كالوفيل الذي توفي في القسطنطينية ، وبعض أساقفة الارمن والفرس ، الخ . ولكن هيئات ان يجتمع كافة الاساقفة : فلم يضم جمع القسطنطينية منهم سوى ١٥٠ فقط ، لم يكن بينهم أي اسقف غربي ، حتى ممثل البابا نفسه . وقد التأمت ايضاً مجامع اقليمية كثيرة تتفاوت أهمية . ولكن صفار الاساقفة لم يرضوا عادة عن مثل هذه المجامع ، لأنها تتدخل أحياناً في شؤونهم . إلا ان التثامها ما لبث ان اصبح تقليداً راسخاً . فاذا اخذنا بعين الاعتبار بعض التغييرات اللازمة ، اتضح لنا ، على الرغم من شتى ضروب الضغط ، ان شكل الحكم الجماعي هذا ، كان آنذاك ، في الكنيسة ، بفعل انتخاب الاساقفة ، أشبه بالحكم البرلماني : والفارق الهام بينها هو ان هذه المجامع لم تكن دورية .

وقد رافق شكل الحكم هذا شكل آخر غير جديد تماماً عرف آنذاك رؤساء الاساقفة والبطاركة انتشاراً عظيماً : سلطة فعلية وقانونية يمارسها بعض الاساقفة على أساقفة آخرين يصبحون رؤوسهم . اما صلاحيات هذه السلطة فهي تصديق الانتخابات ، والتوبيخ ، والقضاء الاستثنائي ، والدعوة الى المجمع ، الخ . واما اصولها فمختلفة جداً ، وهي عرضة لتبدلات كثيرة بفعل حزم او ضعف الافراد ، وبفعل التطور في أهمية المدن ، ولا سيما أهميتها الادارية ، اذ ان للحكومة مصلحتها في إحكام تسلسل السلطة التي تسهل عمل رقابتها وضغطها اذا اعتمدت تقسيماتها الادارية الجغرافية نفسها . فلا سبيل من ثم لأن ندرس هنا هذا التطور المرتج ؛ لذلك فنحن سنقتصر الكلام على نتائجه الرئيسية .

اخضع المجمع النيقاوي اساقفة كل ولاية لأسقف مركز هذه الولاية ، « رئيس الاساقفة » . غير ان هذه الدرجة لم ترتد طابع الاهمية آنذاك ، بسبب تجزئة الولايات ، إلا في آسيا الصغرى . وكان هنالك تقسيم اداري آخر هو الابريشية : وقد استطاع اسقف مركزه هنا وهنالك ان يخطئ ببعض النفوذ ، وقد أطلق عليه احياناً ، في الشرق ، اسم « اكسارخوس » ؛ بيد ان كل ذلك لم يخرج في الواقع عن نطاق المصادفات والملاءمات .

اما المراكز الاسقفية التي انفصلت حقاً ، أي تلك التي اطلق على أساقفتها اسم « البطاركة » ، فمدينة بنفوذها وأولويتها الى أسباب اخرى . فكان الباعث الى ذلك في أغلب الاحيان ، أهمية المدينة المادية ، واشعاعها على منطقة كاملة ، وقدم كنيستها ، وتأسيسها على يد أحد الرسل ؛ ولكن الرجال كان لهم أثرهم أيضاً . فان أسقف قرطاجة الذي لم يفز قط بلقب « البطريرك » قد مارس مع ذلك سلطة لا جدال فيها على افريقيا . واعترف المجمع النيقاوي بمرتبة خاصة لاسقفي الاسكندرية وانطاكية : فكان الاول سيداً مطلقاً حقيقياً في مصر ، وبدا في بعض الظروف وكأنه يسيطر على الشرق بأجمعه . وفازت اورشليم ، في القرن الخامس ، بالبطريركية . اما النجاح الذي يلفت الانتباه ، فهو نجاح القسطنطينية ، التي حالت بعض الأسباب دون ايراد ذكرها في نيقيه في السنة ٣٢٥ . حرص الامبراطور على رفع مقام عاصمته . فاعتُرف لاسقفها ، منذ السنة ٣٨١ ، بالمرتبة الثانية ، مباشرة بعد اسقف روما ، ولكنه لم يفز بها ، في مجمع خلقيدونيا ، إلا بعد جهود شاقة وسلسلة من الأحداث الصاخبة .

لا يبقى أهامنا سوى اسقف روما .

البابوية

لم يكن ممكناً ان تنافس هذه المدينة ، بسبب أهميتها الواقعية ، أية مدينة اخرى . فان عظمتها التاريخية ، المرتبطة بفكرة الامبراطورية نفسها التي لم يزعزعها غياب الامبراطور ، كانت آخذة بالازدياد : أضف الى ذلك ، على الصعيد الديني ، ان وجود مدفي القديسين بطرس وبولس ، والوعد الذي قطعه المسيح لبطرس مؤسس الكنيسة الرومانية ، قد أوليا هذه الكنيسة حقوقاً أخرى . فتمنى طالب أساقفتها بهذه الحقوق يا ترى ؟ ان المسألة موضوع

جدال . غير ان النصف الاول من القرن الثالث ، هو التاريخ الفاصل في هذا الموضوع ، ولا يعني ذلك ان مطالباتهم كانت شديدة دائماً . ولم ينكر أحد في الحقيقة اولوية البابا الشرفية - درجت العادة على اطلاق هذا الاسم عليه ، بعد ان اطلق على كافة الأساقفة في البداية - فقد اعترف له بها اعترافاً صريحاً المجمع النيقاوي وكافة المجمع المتعاقبة . ولكن شتان بين هذا الاعتراف وبين الخضوع له في العقيدة والنظام ، كالسماح له بأن يمارس فعلاً سلطة قضائية استثنائية : فكان هنالك ميل طبيعي الى الاستعانة بسلطته ، حين يرتقب المستعين وقوفه الى جانبه ، والى انكار قدرته على الفصل ، في الحالة المعاكسة . لذلك ستهز في وجه سلطته منازعات لا يحصى لها عدد .

برهن الشطر الاكبر من الغرب عن لين قياده بصورة عامة . ففي شبه الجزيرة الايطالية بنوع خاص شابهت سلطة البابا بقوتها سلطة اسقف الاسكندرية في مصر . أما في المناطق الاخرى ، كغاليا واسبانيا والثيريا ، فقد تميزت العلائق ، من كلا الطرفين ، بمزيد من الدقة . ولا تعود اول براءة بابوية اصلية ، في المجموعات التي وضعت في القرون الوسطى والتي تتضمن نصوصاً مزورة كثيرة ، الى ما قبل السنة ٣٨٥ . وقد انطوت هذه البراءات ، وهي في الغالب اجابة على سؤال يتقدم به أحد الأساقفة ، على أنظمة عامة مبدئية . ولكنها قد بقيت نادرة - ١٧ حتى آخر القرن الخامس - ولم يهتم بعض الأساقفة الغربيين للتقيد بها .

اما المسيحيون الافريقيون ، بقيادة رئيسهم اسقف قرطاجنة ، فلم يتراجعوا امام مشادات على بعض العنف في القرن الثالث اولاً ، ثم في القرن الرابع مرة اخرى . وقد ألتحت إحدى هذه المشادات للقديس اوغسطينوس كتابة كلمته المشهورة : « تكلمت روما ، اذن انتهت الدعوى » . ولكنه ما كان ليكتبها لو ان البابا زوسيموس لم يحكم له في ما كان يدافع عنه ، ناقضاً حكمه الاول ونازلاً عند القرار الامبراطوري .

اذا كانت هذه حال الغرب ، فباستطاعتنا ان نتصور حال الشرق بسبب وجود البطركيات العظمى والعناد الذي رافق المشادات العقائدية . فقد جرت حوادث مؤسفة جداً . وقد اعترضت البابوية عوائق كثيرة ، فكانت نجاحاتها بطيئة جداً ايضاً ، لا بل ليس من الجسارة انكار واقع هذه النجاحات . ومهما يكن من الأمر ، فان شيئاً نهائياً لم يتقرر في العهد الامبراطوري الثاني . وأكثر من ذلك ، فان نفوذ أسقفية القسطنطينية المتزايد قد اقام اخيراً ، في وجه اسقفية روما ، منافساً كانت القطيعة معه ، في غد قريب او بعد ، امراً محتوماً .

يرد ذلك الى العامل السياسي . فان امبراطور الشرق ، الذي اقام في القسطنطينية ، ومارس حيال الكنيسة ما درجت تسميته بـ « بابوية القيصر » ، لم يترك لأسقف عاصمته مزيداً من الحرية ، ولكنه ، بالمقابلة ، سيساند مقاومته لروما . وعلى نقيض ذلك ، فان ضعف امبراطور الغرب وبعده عن عاصمته ، حتى قبل زواله ، قد أعطيا البابا استقلالاً عملياً عظيماً : فان حزم القديس

ليون مثلاً (٤٤٠ - ٤٦١) قد صادف بالتالي ظروفًا مؤاتية . فهو انما فاض اتيلا في السنة ٤٥٢ ، وجنسريك في السنة ٤٥٥ ، بناء على طلب الحكومة ومجلس الشيوخ : وكان من سلطته الادبية انها فرضت نفسها حتى على البرابرة الوثنيين او الآريين وانه قام مقام الامبراطور الخائر . فغدا البابا رئيس روما في الوقت الذي غدا فيه الاساقفة رؤساء مدنهم .

لا ريب من جهة ثانية في ان تطوراً مقابلاً قد قلل من سلطته على الكنيسة في الشرق حيث لم تكن قوية في يوم من الايام ، وفي الغرب حيث ذهب اقتسام الامبراطورية بين عدة ممالك بربرية بالسهول التي وفرها له وجود ادارة مركزية .

ولذلك فان مستقبل البابوية لم يكن بعد واضح المعالم عند نهاية العصور القديمة .